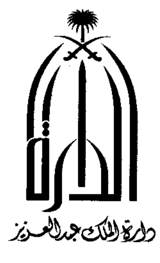
كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين

دراسة تحليلية نقدية مقارنة

د. عواطف بنت محمد يوسف نواب

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/ دارة الملك عبدالعزيز - الرياض، ١٤٢٩هـ

٧٥٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٣ - ٠٦ - ٨٠٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الحجاز - تاريخ إسلامي ٢ - الحجاز - وصف رحلات
٣ - الرحالة المغاربة أ - العنوان.

ديوي ٩٥٣,١٢ ١٤٢٩/٢٣٤٠

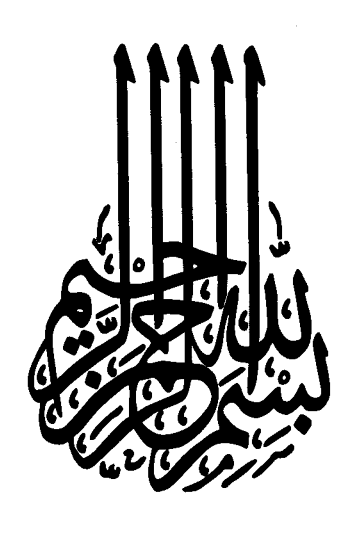
رقم الإيداع: ١٤٢٩/٢٣٤٠

ردمك: ٣ - ٠٦ - ٨٠٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين

دراسة تحليلية نقدية مقارنة





تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على صفوة خلقه أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، أما بعد:

فإن دارة الملك عبدالعزيز التي أنشئت لخدمة تاريخ المملكة العربية السعودية وجغرافيتها وآدابها أَوْلَت تاريخ الحجاز الواقع في غرب المملكة عناية تليق بقدسية الحرمين الشريفين الواقعين على ترابه الطاهر؛ فدعمت عددًا من الدراسات التي تسلط الضوء على تاريخه وجغرافيته، ونشرت المؤلفات المتعلقة به، إيماناً منها بأهميته التاريخية، ومكانته الدينية، وإرواءً للتعطش العلمي نحو معرفة تاريخه، وتحليل أحداثه، ودراسة أحواله.

ومما لا شك فيه أن تاريخ هذه المنطقة ما يزال بحاجة ماسة إلى مزيد من الدراسات التي تغوص في أعماقه، وتسبر أغواره؛ ذلك لأن تاريخه إنما هو في الحقيقة تاريخ للعالم الإسلامي في عصوره البهية التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمنطقة تعد منطلق الحضارة الإسلامية، ومركز الإشعاع الرباني.

وقد أيقن هذا الكتاب الذي نقدم له بأهمية الاتجاه نحو كتب الرحلات إلى الحجاز، وجعلها مصدراً مهماً من مصادر تاريخه، نظراً لأنها تنقل صورة صادقة عن تاريخ الحجاز. إلا أنه يجب الانتباه إلى أن بعض كتب الرحلات يكمل بعضها بعضًا، ولا يمكن الاقتصار على شطر منها، ذلك أن بعضها يوغل

في الاهتمام بقضية ما على حساب قضايا أخرى، وكلما كثرت تلك الكتب اتسعت الصورة وتأكدت المعلومة، وظهرت الحقيقة.

وقد خص هذا الكتاب الرحالة المغاربة نظراً لكثرة من قصدوا الديار الحجازية منهم، ودونوا أخباره، ووصفوا مشاهداتهم فيه، واعتمدوا في تسجيل وقائعه على ما تراه أعينهم، وخالطوا المجتمع وعاشوا حياته، وراقبوا أعماله وتقاليده وثقافته وغير ذلك.

وقد رأت دارة الملك عبدالعزيز أهمية هذا الكتاب ونشرته لكونه يتجه نحو توسيع مصادر تاريخ الحجاز، ويفتح للباحثين آفاقاً أرحب نحو الدراسة والتحقيق والتوثيق في مصادر أخرى تثري جوانب هذا التاريخ وتعمق بحوثه.

دارة الملك عبدالعزيز

المقدمة[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين... أما بعد

اعتنى المؤرخون بتدوين أخبار الحجاز يوم أن كان عاصمة للدولة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، فلما انتقلت عنه العاصمة انتقل معها اهتمام المؤرخين إلى العواصم الجديدة (دمشق ثم بغداد ثم القاهرة)، وقبع الحجاز لا يلقى اهتمامًا إلا من قلة من المؤرخين. كما أن بعض أخباره جاءت نتفًا مبعثرة في كتب التاريخ العام والتراجم لكنها لا تفي بغرض ولا تروي غلة باحث، فهي تكاد تقتصر على ذكر من تولى إمارة مكة المكرمة والحج، وما حدث في مواسمه من فتن، مع إشارات طفيفة إلى بعض النواحي السياسية والاقتصادية والعلمية.

ولا يعني هذا أنه لم يظهر من أبناء الحجاز من أرخ له، فقد برز في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مؤرخان هما الأزرقي المتوفى عام ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، والفاكهي المتوفى عام ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م[2]. وبعدهما دخل

---

(١) أصل هذا الكتاب: رسالة علمية نالت بها الباحثة درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، من جامعة أم القرى، سنة ١٤٢٠هـ.

(٢) عبدالله عقيل عنقاوي: المؤرخ تقي الدين الفاسي وكتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، بحث ألقي في الندوة الأولى لدراسات تأريخ الجزيرة العربية ضمن مجموعة أبحاث مصادر =

الحجاز في دائرة النسيان وأصبح تاريخه في المدة الممتدة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثامن الهجري مبعثرًا بين طيات المصادر التاريخية.

وفي القرن الثامن الهجري ظهر المؤرخ المكي تقيّ الدّين الفاسي الذي أخذ على عاتقه سدّ هذا الفراغ التأريخي للحجاز وذلك بتأليفه كتبًا عن أحوالها، وأهمها «العقد الثمين في أخبار البلد الأمين»، و«شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام». وعلى الرغم من ذلك فمؤلفاته لا تفي بالغرض وبخاصة أنها مدة طويلة لم يشهد أحداثها.

وتبعه أيضًا ابن فهد في كتابه «إتحاف الورى بأخبار أم القرى»، وابن ظهيرة وكتابه «الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف»، وعبدالملك العصامي وكتابه «سمط النّجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي»، والسنجاري وكتابه «منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم»، والطّبري وكتابه «إتحاف فضلاء الزمن بأخبار ولاة بني الحسن»، وابن الضياء وكتابه «تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف»، والأسدي وكتابه «إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام»، وغيرهم.

وكان إلى جانب المؤرخين الذين اعتنوا بتاريخ الحجاز عدد من الرحالة المسلمين على اختلاف أجناسهم ومقاصدهم، وبالأخص الرحالة المغاربة الذين عُرفت رحلاتهم باسم الرحلات الحجازية.

فالحجاز كان منذ فجر الإسلام ولا يزال وسيظل - إن شاء الله تعالى - مهوى لأفئدة المسلمين ومشدًا لرحالهم؛ لذا أقبل جماعة من الرحالة المغاربة وعكفوا على تدوين أخبار رحلاتهم، ووصف مشاهداتهم في تلك البقاع بصدق

= تأريخ الجزيرة العربية، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٢، ص٦٣.

وعفوية، فعُدَّت مدوناتهم من أمتع الكتب وأكثرها استهواء؛ لتنوع مباحثها وأساليبها، ولا سيما أن هؤلاء الرحالة كانوا رجال علم ودين وأدب.

وما كتبه الرحالة المغاربة حمل طابع الواقعية عن الحجاز في موضوعات كثيرة؛ فلقد كتبوه وهم متلبسون بنسك يؤدونه، وهو ما جعل عملهم خالصًا لوجه الله تعالى، وبعيدًا عن الميل والهوى والانحراف في معظم الأحيان، كما أنهم لم يكونوا تابعين لجهة سياسية معينة تُسيِّر أعمالهم وتوجه كتاباتهم، بل اعتمدوا على تسجيل الواقع والمشاهد والاتصال المباشر للتعرف على خصال البشر وأحوال المجتمع من خلال ما رصدوه من عادات وتقاليد وتَقصٍّ للجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعمرانية قدر الإمكان، مما قل وجوده في كتب غيرهم.

لذا فلكتابة تاريخ شامل عن الحجاز لا بد من الاعتماد على كتب الرحلات المغربية لكونها مصدرًا من مصادر تأريخه، وتناولها بالتحليل والنقد، ومقارنتها بما ورد في المصادر التاريخية الأخرى للخروج بالنتائج السليمة والصحيحة.

ومن هنا كان سبب اختياري لموضوع «كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تأريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة» لأنال به درجة الدكتوراه، وبخاصة أنه قد سبق لي أن تقدمت بموضوع نلت به درجة الماجستير وعنوانه «الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تأريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة».

ووجدت أن القرون التالية للمدة التي درسَها بحث الماجستير قد حفلت برحلات مغربية كثيرة، لا سيما خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة،

وهي لا تقل في أهميتها عن رحلات القرنين السابع والثامن للهجرة؛ بما تضمنته من أخبار عن الحجاز في جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية والعمرانية.

وقد أخذت في الحسبان النقد والتحليل والمقارنة للمعلومات التي أوردتها كتب الرحالة المغاربة، وتوثيقها قدر الإمكان، مع ما جاء في بعض مصادر التأريخ العامة والخاصة وكتب التراجم، إلى جانب إلقاء الضوء الكافي على منهجية هؤلاء الرحالة المغاربة في مدوناتهم، وأسلوب معالجتهم للقضايا التي طرحوها. علاوة على أني لم أجد - على حد علمي المتواضع - مَنْ تصدى لبحث هذا الموضوع من قبل، وعليه فإني أحسب أنه من الموضوعات الجديدة التي لم تنل ما تستحقه من البحث والدراسة، ولا سيما أن الرحالة المغاربة كانوا معاصرين لأحداث تلك المدة فسجلوها بالصورة التي وقعت، بعكس من سجلها بالسماع أو النقل؛ لأنه - كما هو معروف - ربما يزاد عليه أو ينقص منه أو يُحرَّف فلا يأتي الحدث بالصورة التي وقع فيها.

ولكل ذلك وجدت في نفسي ميلًا لبحث هذا الموضوع، خاصة بعد اطلاعي على بعض كتب الرحلات المغربية لتلك المدة التي وجدت فيها معلومات غزيرة تنتظر الإخراج والبحث والدراسة. وكلّي أمل أن أكون قد وفقت في اختياره، والتوصل لنتائج مرضية تثري البحث وتضيف الجديد إلى تأريخ الحجاز من جميع جوانبه، وتظهر أهمية كتب الرحلات لاعتمادها مصدرًا مهمًا من مصادر تأريخ الحجاز.

أما أهم الصعوبات التي واجهتني فبادئ ذي بدء عدم تمكني من الحصول على أية رحلة من الرحلات المغربية في المملكة العربية السعودية، لوجودها في المملكة المغربية، فزرتها برفقة والدي أطال الله في عمره وأمدّه بالصحة

والعافية، وتمكنت من إحضارها، أما الصعوبة الأخرى التي واجهتني فكانت صعوبة قراءة الخط المغربي الذي أخذ مني الجهد والوقت الطويل حتى تمكنت بتوفيق الله تعالى من اجتياز تلك الصعوبة. وصعوبة ثالثة هي تسجيل الرحالة المغاربة لأسماء بعض العلماء في الحجاز باسمهم الأول أو بكناهم، وكما نعلم فقد وجد الكثير مِمَّن يحملون الاسم نفسه أو الكنية، واستطعت بحمد الله أيضًا اجتياز هذا الأمر. واستأنفت صياغة موضوعي وفق الشروط والقواعد المتبعة في كتابة البحوث والدراسات العلمية، فأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت.

وأخيرًا لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والثناء الجزيل لله عز وجل الذي أعانني ووفقني، كما أدعوه جل ثناؤه أن ينفعني وإخواني المسلمين بهذا البحث، وبخاصة أنه يمس جزءًا عزيزًا على قلب كل مسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين فهو نعم المولى ونعم المعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عواطف بنت محمد يوسف نواب



التمهيد

أ - أهمية كتب الرحلات في تدوين التاريخ

ب - التواصل بين الحجاز والمغرب الأقصى
من خلال كتب الرحلات المغربية



التمهيد

أ - أهمية كتب الرحلات في تدوين التأريخ:

أطلقت نداءات ودعوات متعددة، مفادها وجوب أن تحظى كتب الرحلات بالاهتمام والدراسة والبحث والنشر، وأن تلقى ما تستحقه من العناية بدلًا من بقائها مبعثرة في مكتبات العالم، بل ذُهب لأبعد من ذلك، إلى الدعوة لتدريسها وتقديمها على موائد البحث ومقاعد الدراسة.[1]

---

(١) خالد بن عيسى البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج١، ص٩١، مقدمة وتحقيق الحسن السائح، صندوق إحياء التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، د.ت؛ محمد بن عبدالسلام الناصري الدرعي: ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، ص١١، ١٨، عرض وتلخيص حمد الجاسر، ط٢، دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م د.م؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص١٠ - ١١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الشباب، ١٩٩٥م؛ د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٧، دار الشباب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت؛ د. معن زيادة: الرحلات العربية والرحّالات، ص٦، ٨، بيروت، مجلة الفكر العربي، العدد ٥١، السنة ٩، الإنماء العربي؛ د. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص١٧٩، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م؛ د. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص٢٤٥، ٢٤٩، مجلة عالم المعرفة، ١٣٨؛ د. رشدي فكار: عن الحوار الحضاري من بُعد واحد - الإثنوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف في مدخلهما برحالة الإسلام، عرض مع نصوص مختارة للتدليل والاستشهاد عبر فترة ممتدة أكثر من ألف عام، ص٣٣، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م؛ عمر علوي أمراني: الرحلة كوثيقة =

وهؤلاء الكتّاب والباحثون لم يطلقوا دعواتهم ونداءاتهم جزافًا، بل قدموا ما يؤيد طلبهم ودعواهم بأدلة توضح أهميتها وما وجد فيها، ومن ذلك أن كتب الرحلات حوت مادة غنية ومثيرة للدهشة؛ إذ ليس هناك شك في أنها قدمت إسهامات بالغة الأهمية في الجغرافيا، والتاريخ، والأدب، والاقتصاد، والأخبار، والسير، والاجتماع، والسياسة، فضلًا عن أنها ذات تشويق؛ لأن الرحالة مولع بنقل كل ما يسمع أو تقع عينه عليه، وكثيرًا ما يبالغ في ذلك لإضفاء المزيد من التشويق، فراوي الرحلة هو صاحبها ومجربها والعارف بأحداثها والمحيط بتفصيلاتها، وقد عاشها بجماع فكره وإحساسه.(١)

وقد ثار جدل حول تصنيف الرحلات، في أي جانب من العلوم هي؟ أهي جغرافية؟ أم أدبية؟ أم تاريخية؟ أم اقتصادية؟ أم سياسية؟ أم اجتماعية؟ أم هي مزيج من تلك العلوم مجتمعة؟

ونشير هنا إلى أن الرحلة ذات علاقة مباشرة بالأدب؛ لأن الأسلوب الذي استخدم في صياغتها ارتفع إلى عالم الأدب، إذ إن أبرز ما يميز الرحلات أسلوب الكتابة القصصي، المعتمد على السرد المشوق، والمُؤْثِر للتعبيرات السهلة المؤدية للغرض، ولذلك فتصنيفها خاص بكتب الرحلات.

فالرحلات مصدر فريد لكثير من النصوص الأدبية شعرًا كانت أم نثرًا؛ لانفرادها برواية الكثير من النصوص، فالرحالة حرصوا على أن تضم رحلاتهم النوادر، فأدرجوا فيها كثيرًا من قصائدهم الشعرية ورسائلهم النثرية مما له ارتباط بظروف الرحلة، وهذا الأمر جعل الرحلات ذات أهمية أدبية خاصة، فأكثر

= من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم، ص١٣، أدب الرحلة في التواصل الحضاري، سلسلة الندوات، مكناس، ١٩٩٣م، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص٩ - ١٠، ١٢.

الرحالة لم تعرف لهم أشعار أو كتابات إلا من خلال ما دونوه في رحلاتهم، لذا عُدَّت بمثابة دواوين لأصحابها، ومجموعات ضمت ألوانًا من إنتاج علماء عصرهم وأدبائه.(١)

ولا شك أن الرحلات غنية بموضوعاتها، فالرحالة تحملوا عبء رحلاتهم كاملة من مال وجهد، وعليه فقد عُدت جهدًا ذاتيًا واجتهادًا شخصيًا قائمًا على إبداعهم وفكرهم وتأملاتهم وآرائهم وأحاسيسهم، وعلى ما أعجبوا به ونقلوه وعلقوا عليه بالإيجاب أو بالسلب، أو مما تمثلوه وصاغوه بأسلوبهم الخاص. فالرحالة أديب وجغرافي متنقل، ومؤرخ وفقيه وعالم اجتماع، وقد يطغى جانب على آخر بحسب ميل الرحالة، فبعضهم شعراء فدفعهم ذلك لقوله في المواقف المختلفة أثناء رحلتهم، ولا سيما عند فراقهم لموطنهم، وتوديعهم للأهل والأصحاب، وعند ملاقاة العلماء، أو الحنين للوطن وربوعه، أو عند الاقتراب من مكة المكرمة أو المدينة المنورة، وكل هذا كان متجسدًا في رحلة العياشي على سبيل المثال. ومن لم يكن شاعرًا تمثل قوله في الاستشهاد كالرافعي.

لذا كانت الرحلة تتأثر بشخصية كاتبها الذي لم يكن همه فقط إيراد الحقائق، بل التأثير في قارئها أيضًا، فظهرت شخصيات الرحالة، وطبيعة أمزجتهم، ونفسياتهم من خلال ما سجلوه، وهذا من مميزات الرحلات العديدة.(٢)

---

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص٢٠، ٢٧؛ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج٢، ص٦٦٠، منشورات عكاظ، د.ت؛ عمر علوي أمراني: الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة، ص٣٤٩، سلسلة الندوات ٥، أدب الرحلة في التواصل الحضاري.

(٢) د. زكي حسن: الرحالة المسلمون، ص١٧٩؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص٦٨. ولمزيد من المعلومات عن مميزات الرحلات وخصائصها. انظر: عواطف محمد يوسف نواب: =

ولا ريب أن الرحلات كانت بمثابة مصادر شاملة سُجلت فيها جوانب متعددة فيما يخص الجوانب الحضارية على امتداد أزمنة متتالية، فالرحلة تتطلب اتساع المعارف وتنوعها، لأنها تستخدم الجغرافيا، وتستند إلى التاريخ عند التعرض لوصف المسالك والمدن والمعالم وبدايات الأمور، بل ورصد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة لديهم، وكذلك الاقتصادية، ويتبعها السياسية بنسب متفاوتة وعرض ذلك بزي الأدب وطابعه: فكل باحث يجد ضربًا من المعرفة يستخرجه ويقدمه وهو مطمئن لنتائج بحثه بشرط دراستها بشكل وافٍ، وببصيرة نافذة، ومقارنة جيدة، فهي وثائق تقدم لنا صورة حية عن المجتمع الإسلامي وتطوره أو تأخره، وأسباب ذلك.[(١)]

فنجد الرحلات مزيجًا من تلك العلوم مجتمعة، ومن ثم لا يمكن تصنيفها في جانب على حساب الجانب الآخر، فكل ناحية تنتظر الإخراج للإفادة منها، وكثيرًا ما أظهرت الرحلات أسماء علماء لم تكن لتظهر لولاهي.[(٢)]

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها قصة تحكي أحداثًا مستمدة من الواقع، وبشخصيات حقيقية، وهي بذلك تقدم صورة تاريخية لمدة نابضة بطبيعة العصر الذي عاش فيه الرحالة، وهو ما يؤدي إلى التعرف على واقع البيئة التي شاهدها والمجتمع الذي اختلط فيه، فالرحلة بذلك تجسد بعض الحقائق المعرفية عن

= الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين - دراسة تحليلية نقدية مقارنة، ص٧١ - ٩١، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(١) البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٩٠؛ عمر أمراني: الرحلة كوثيقة، ص١٣، سلسلة ندوات أدب الرحلة؛ د. رشدي فكار: عن الحوار الحضاري في بُعد واحد، ص٣٣؛ د. زكي حسن: الرحالة المسلمون، ص١٧٩.

(٢) المراجع السابقة بأرقام صفحاتها.

المرحلة التاريخية التي عايشها الرحالة.

والرحلة عادةً تحفل بالمقومات الأُسُس للقصة من فكرة رئيسة، وبناء، وحبكة، وبيئة زمانية ومكانية، وشخصيات، وبطل للقصة، علاوة على اللغة والأسلوب. فالفكرة موجودة، ومجريات الرحلة هي بناؤها وحبكتها، والبيئة الزمانية والمكانية محددة، والشخصيات أدت دورها واقعيًا، وبطلها الرحالة نفسه. ونأتي إلى اللغة والأسلوب الذي كان يصل في بعض الأحيان إلى درجة الإبداع المستند إلى الواقع، وكثيرٍ من الخيال في الموضوعات التي يطلق فيها الرحالة العنان لخياله.

ونلحظ أن كل من كتب عن الرحلات قد مهّد الطريق، وأسهم في الكشف عن جوانب مجهولة فيها. ونستطيع القول: إن ثمار الرحلة يتعذر حصرها، ولا سيما إذا كان الرحالة متمتعًا بقوة الملاحظة، وشهوة التطلع، ويقظة الحواس، والرغبة في التحصيل، والحرص على التدوين والتسجيل.[١]

وكل من طرق سبيل دراسة الرحلات ذكر أن لها خصائص ومميزات سواء في الأسلوب أم في النواحي التي تطرقت لها والتي انطوت في وحدة موضوعية واحدة[٢]، فدارس الرحلات لا يسعه تناولها كلها بالبحث والدراسة لأن ذلك يحتاج إلى موسوعات[٣]، لذلك نرى أن من ألف فيها كرر ما كتبه سابقه بطريقة أو بأخرى، ولم تفرد مؤلفات خاصة عن مزاياها وخصائصها في مؤلفات مستقلة؛ إذ حصرت في أُطر ضيقة، فهي ليست بابًا من أبواب المعرفة وحسب، بل تجاوزت كل ذلك، فهي أداة ثقافية وحضارية في المقام الأول.[٤]

---

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص١٩.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٩٧؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٧١ - ٩١.

(٣) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٧.

(٤) د. معن زيادة: الرحلات العربية والرحّالات، ص٦، مجلة الفكر العربي، العدد ٥١، السنة ٩.

وطبيعي أن الرحلات ليست كلها في مستوى جيد، فالرحالة نقلوا ما شاهدوه ولو بصورة جزئية لكنها ثمينة[١]، فتعاقب على طول الأزمنة كثير من المعارف والأوصاف والصور لسائر مظاهر الحضارة.[٢]

وتأتي قيمة الرحلات التاريخية من أنها أساسًا قامت على التجربة والملاحظة المباشرة، فهذا الأمر كان واضحًا جليًا في جميع الرحلات، فالرحالة قد اعتنوا بالمسالك وقياس مسافات الطرق، وهم بذلك جغرافيون من حيث لم يعلموا، فقد أودعوا في مدونات رحلاتهم شيئًا كثيرًا عن أخبار رحلاتهم، فلم يَفُتْهم وصف الطُّرق التي سلكوها وتسجيل المسافات التي قطعوها، والمعالم التي شاهدوها، بالإضافة إلى الصعوبات التي واجهوها، والمحطات التي نزلوها، كما بادروا بالتحذير في مناطق الأخطار ونصحوا بسلوك طريق الأمان، فيتجلى من كل ذلك خلاصة التجربة التي مروا بها، ومن ثم قدموها.

كان اعتقاد الرحالة أن من حق خَلَفهم عليهم أن يبينوا لهم خير الطرق وأفضلها للوصول إلى الأماكن المقدسة، ويشرحوا لهم المخاطر ليستعدوا لها، وما يمكن أن يلقوه من مصاعب ليتغلبوا عليها. وعليه فقد دونوا مشاهداتهم وذكروا المواقف المتباينة، والمعاناة التي لاقوها وهم يجولون في البلاد ويتنقلون بين الأقطار.[٣]

ولا يغيب عن بالنا أن اعتقاد الرحالة هذا نابع من إحساسهم بأهمية العلم، وعدم كتمانه، وهذا المبدأ العلمي ابتغوا من ورائه الحرص على تطبيق

---

(١) د. نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص١٦، ط٣، بيروت، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

(٢) د. أحمد أبو سعد: مظاهر الحضارة والعمران وتجلياتها من خلال كتب الرحّالات، ص٤٣، مجلة الفكر العربي، العدد ٥١، السنة ٩.

(٣) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص٢٧ - ٦٧.

أوامر الرسول ﷺ المتمثلة في قوله: «ما من رجل يحفظ علمًا فيكتمه إلا أُتي به يوم القيامة ملجمًا بلجام من النار».(١)

وكما اهتموا بوصف الطُّرق ومعالمها والمسالك ومخاطرها، تصدروا لتسجيل أحوال الناس الذين صادفوهم وأنماط حياتهم، فأثنوا على الحسن من عاداتهم، واستقبحوا الشاذ منها ودعوا إلى البعد عنه(٢). فكانوا في هذا الجانب علماء اجتماع من حيث لا يدرون.

ولا شك أن الرحلات إلى الحجاز لأداء فريضة الحج شهدت زمنين متباينين عرفت في الأول الازدهار، فتكاثرت وتطورت في أشكالها ومضامينها، وخاصة الرحلات الحجازية، وفي الثاني اعتراها الفتور الذي كان مرده الأحوال الأمنية.(٣)

ومما يؤسف له أنه لم يكشف حتى الآن إلا عن القليل من هذه الرحلات، في حين حفظت لنا كتب التراجم والتاريخ بل والرحلات أسماء رحالة لا نعرف عن رحلاتهم شيئًا، إما لفقدانها، وإما لأنهم لم يدونوها، وربما يظهر لنا في القريب ما يشفي الغليل منها. وحتى ما وجد الآن من مخطوطات لا يزال أكثره رهين رفوف المكتبات، ويفتقر إلى التحقيق والنشر.(٤)

ومما لا ريب فيه أن أسلوب كتابة الرحلات في زمان ما إنما يعبر عن أدبيات ذلك الوقت؛ فدراسة رحلات معينة في مدة ما إنما تُمِدُّ المعنيين بالأدب عن أسلوب التأليف والكتابة والفكر الأدبي عمومًا وطريقته في تلك المدة

(١) الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه: السنن، ج١، ص٩٦، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، د.ت.

(٢) د. نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات، ص١٦.

(٣) الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب، ج٢، ص٦٥٧.

(٤) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص٩، ٦٨.

بمعين طيب؛ لأن أغلب الرحالة الذين تصدروا لتدوين رحلاتهم كانوا على قدر لا بأس به من العلم والأدب يكفي للحكم على أهل تلك المدة بكثرة الإجادة أو قلتها، ومن لم يكن منهم أديبًا حاكى غيره في صياغتها.

فالعياشي مثلًا كان المثال الذي احتذى به الرحالة الذين أتوا بعده خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، فرحلته كانت النموذج الذي سار عليه الرحالة سواء في الأسلوب، أم طريقة الصياغة، أم تركيب الرحلة، فالعياشي لم يقدم لنا سردًا عن رحلته يماثل رحلة ابن جبير، أو رحلة ابن بطوطة، وإنما وجه اهتمامه بالدرجة الأولى للحديث عن الأولياء، والعلماء، والدراويش، وأهل التصوف، دون أن يهمل ذكر الأقطار التي اجتازها والمدن والقرى التي توقف فيها. كما يغلب على عرضه أحيانًا طابع متعدد الألوان، لمادة متنوعة من جغرافيا وعادات، ولكن يسجل ما سمعه من تفصيلات حياة الأولياء والعلماء والمتصوفين الذين تحدث إليهم أو سمع عنهم، وذلك يدل على اهتمامه بهذا الجانب.

وهكذا نجد أن رحلته اشتملت على أنواع مختلفة من المعارف، علاوة على فائدة ما كتبه عن الناحية التاريخية على الرغم من أن أوصافه عمومًا جافة وتفتقر إلى الحيوية. أما أسلوبه الأدبي فيشهد على الانحطاط العميق الذي اعترى هذا النمط من النشاط الأدبي، ولكنه يتميز بالسهولة على الرغم من انعدام الرشاقة فيه، ولكنه يقع أحيانًا في الغموض عندما يعالج الموضوعات الصوفية، فيلجأ إلى لغة متكلفة مغلقة، وتكثر الاستطرادات عنده لدرجة تنقطع فيها خيوط روايته أحيانًا.[1]

---

(١) د. عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦٤٥ - ٦٤٧، دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م د.م.

وتعد كتابات الرحالة عن الجوانب الاقتصادية في الأماكن التي مروا بها رافدًا فياضًا لدارسي الاقتصاد في المجتمعات البشرية. فالرحالة تحدثوا عن الصناعات، وطرق التجارة، وأنماط التعاملات والمعاملات والنقود وجودتها أو زيفها بقدر جيد، وهو في الوقت نفسه كان كافيًا للمس التطور الحادث في الأمور الاقتصادية.

وكتب الرحلات من أهم الكتب التي تشير بجلاء للجانب العلمي، فقد كشف الرحالة عن أهم المنابع التي استقوا منها علومهم، وسجلوا النشاط العلمي للعلماء الذين أخذوا عنهم والمراكز الثقافية والمدارس التي تلقوا فيها علمهم.

ومما هو جدير بالإشارة إليه أن ملاحظة الرحالة للأحوال السياسية في البلاد الإسلامية التي مروا بها كشف لنا كثيرًا من الأمور، فمن ذلك مثلًا علاقة الممالك الإسلامية بعضها ببعض، أو بالدولة العثمانية، أو بالممالك النصرانية التي كان لها نشاط واضح في القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط.

وهكذا تأتي القيمة العلمية التاريخية للرحلات، فهي مصادر دونت بشهود عيان، عاصروا الحدث وقاموا بتسجيله في حينه، فدراسة الناحية التاريخية للرحلات مفيدة في تَعَرُّفِ الجوانب العلمية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية، بل حتى السياسية. فهذه الجوانب كلها كتبت بحسب ما شاهده الرحالة ولمسه، ولا شك أن هذه أمور لا توجد في كتب التاريخ العامة أو الخاصة التي انصب اهتمام مؤلفيها على الأحداث السياسية.

ونستطيع القول: إن المتمعن في كتب الرحلات يجد أن هؤلاء الرحالة يتفاوتون في درجة ملحوظاتهم واهتماماتهم ببعض النواحي دون بعض. لذا كان لزامًا علينا دراسة الرحلات وحدة واحدة متسلسلة حتى نستطيع الخروج بالنتيجة الصحيحة المرجوة.

ب - التواصل بين الحجاز والمغرب الأقصى من خلال كتب الرحلات المغربية:

الحجاز مركز استقطاب المسلمين على مدار التاريخ الإسلامي، وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فكل مسلم على استعداد لتحمل المشاق في سبيل الوصول إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، ونتيجة لذلك ظهر ما يسمى بالرحلات الحجازية التي هي وسيلة من وسائل التواصل بين المسلمين.

فعلى الرغم من بُعد القُطرين فإن ما بينهما من أرض هي أرض إسلام، وسكانها مسلمون، فكان الركب المغربي يمر عبرها سنويًا في أوقات معلومة، فظهر عبر السنين حجاج مغاربة دونوا ملحوظاتهم، وما لاقوه من عنت ومشقة، ووصفوا البلاد وعادات السكان، وتطرقوا إلى النواحي السياسية والاقتصادية بقدر ما يقتضيه الحدث الذي تكلموا عليه، فضلًا عن تسجيلهم للنشاط العلمي عندما نوهوا بأسماء العلماء الذين تعرّفوهم، وعرض بعض الإجازات التي بادَلوهم.

فهؤلاء الحجاج الذين قاموا بتسجيل وقائع رحلاتهم عُرفوا باسم الرحالة، وعُرف مُؤلَّفهم باسم الرحلة، وتميزت بمنهجية خاصة متضمنة ارتسامات الرحالة المغاربة عما شاهدوه في مسارهم الطويل ذهابًا وإيابًا.

وعلى حد علمنا لم يفرد مُؤلَّف يتناول علاقة الشعوب بعضها ببعض، إذ كان جُل ما سجل عن علاقات الدول، أما الشعوب فأُغفل أمرها. وظهور هذا النوع من الرحلات، ونعني بها الرحلات الحجازية سدت هذه الفجوة نوعًا ما، بما سجله الرحالة المغاربة من إشارات قليلة ولكنها متتابعة عن علاقة الناس في الحجاز بالناس في المغرب خلال المدة التي ارتادوا فيها الحجاز، وذلك يعطينا تصورًا عن حقيقة الروابط التي كانت تجمع بينهم.

وعند حديثنا عن الروابط التي كانت تربط بين الحجاز والمغرب لا بد لنا من القول: إن المنطقتين تجمعهما عدة روابط منها الدين والنسب واللغة.

ومع بُعْد المنطقتين كانت أخبار المغرب ترد إلى الحجاز عبر ميناء جُدة بواسطة المسافرين، فالعياشي عندما زار جُدة حرص على الذهاب لمينائها ليتحسس أخبار موطنه عند ورود السفن منها.[١]

وارتبط عدد من المغاربة بالمصاهرة مع أهل الحجاز[٢]، وكما شملت المصاهرة جزءًا من الشعب الحجازي والمغربي، شملت أيضًا جزءًا من أسرة الأشراف الحاكمة بالحجاز مع أسرة الأشراف الحاكمة بالمغرب[٣]، فتوثقت روابطهما وتواصلهما مرة ثانية بالمصاهرة.

وامتد الترابط إلى حد الاستقرار بالحجاز وامتلاك الأراضي واستصلاحها وفلاحتها[٤]. وتطالعنا بعض كتب التراجم الحجازية بأسماء عائلات ذات أصول مغربية ممن استقروا فيها، وظهر في بعضهم نبوغ في بعض النواحي، فاستحقوا أن تسطر تراجمهم على قدم المساواة مع نظرائهم ممن نبغ من أهل الحجاز[٥]،

---

(١) المصدر السابق، ص٤٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٥، أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا، ص٢٥٧، تحقيق وتعليق عبدالكريم الفيلالي، الرباط، دار المعرفة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

(٣) أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٨، ص٣٤، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٦م؛ أحمد زيني دحلان: أمراء البلد الحرام منذ أولهم في عهد الرسول ﷺ حتى الشريف الحسين بن علي، ص٢٦٨، بيروت - لبنان، الدار المتحدة للنشر، د.ت.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٦٢؛ عبدالرحمن الأنصاري: تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، ص٧٠، ١٣٥ - ١٣٦ - ١٤٧، تحقيق محمد العروسي المطوي، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٧٠م.

(٥) محمد المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج١، ص٤٤، د.ت، بيروت، =

إذ لم يكن في ذلك الوقت حواجز تحول دون الانصهار والاندماج.

وفي مقابل تسطير مؤرخي الحجاز تراجم لبعض أعلام أُسر ذات أصول مغربية استقرت فيه، وجدنا أن بعض مؤرخي المغرب دونوا تراجم بعض علماء مشارقة - وخاصة علماء الحجاز - ضمن ما دونوه لعلمائهم[١].

وساعد على هذا التواصل الرحالة المغاربة؛ إذ اعتمد المؤرخون المغاربة في معظم تراجمهم المشرقية على كتب الرحلات، فقد نقلوا منها نصوص ترجمات كاملة توضح هذه الحقيقة، وأحيانًا أخرى مختصرة.[٢]

ولنا أن نشير إلى أن علاقة المغاربة بالحجاز لا تنقطع بعودتهم إلى موطنهم، فقد كان هناك تواصل مستمر بينهم، فمن فاته إجازة أو خبر، كتب بشأنه لمن عرفه في الحجاز ليكون على اطلاع[٣]. بل وصل حرصهم على تبادل الرسائل لإعلامهم بمن توفي من مشايخ الحرمين الشريفين.[٤]

وظل بعض ممن لم يسعفهم البقاء في الحجاز في تواصل علمي مع

= دار صادر؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص١٣٤، ١٤٧، ٢٢٣، ٢٨٣، ٢٩٥، ٤٢٩؛ مؤلف مجهول من أهل القرن الثاني عشر الهجري: تراجم أعيان المدينة المنورة، ص٥٦ - ٥٧، ٦٢ - ٦٣، حققه وعلق عليه د. محمد التونجي، ط١، دار الشروق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(١) انظر على سبيل المثال في مؤلفي محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، نشر وتوزيع مكتبة الطالب، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م؛ التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في أخبار وأعيان المئة الحادية والثانية عشر، تحقيق العلوي القاسمي، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م؛ د. عبدالعلي الودغيري: التعريف بابن الطيب الشرقي، ص١١٩ - ١٢٠، منشورات عكاظ، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٩٠م.

(٢) انظر على سبيل المثال: رحلة العياشي والتقاط الدرر.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٩٤ - ٤٩٨، ٥٤٥، ٦٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص٤٩٨.

شيوخهم، حيث تصلهم بعد عودتهم إلى المغرب الإجازات التي حصلوا عليها.[(١)]

ومما ساعد على هذا التواصل المستمر مجيء ركب الحاج المغربي سنويًا دون انقطاع حتى في أشد الظروف حرجًا[(٢)]. فقد كان مجيء الركب المغربي إلى الحجاز في نظر المغاربة لغاية سامية لا بد من أدائها سنويًا، ألا وهي حج بيت الله الحرام[(٣)]. مضافًا إليه الإعلان عن المغرب وإظهارها بمظهر الدولة القوية[(٤)].

إذ كثيرًا ما يرغب الركب المصري في المسير معه للتقوي والاستظهار به على قطاع الطرق[(٥)]. وكان بعض الحجاج المصريين يفضلون السير مع الركب المغربي لما كان ينعم به في كنفه من الأمن والطمأنينة.[(٦)]

وليس أدل على أهمية أداء فريضة الحج للمغاربة من حرصهم على وجود جالية مغربية في المشرق مهمتها الأساس تسهيل أداء المغاربة لمناسكهم،

---

(١) المصدرالسابق والصفحة؛ أبو سالم عبدالله العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، ص١٩، مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم خ ع، ق٢١٨؛ عبدالمجيد بن علي الزبادي المنالي: بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، ص١٨٤ - ١٨٥، مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ك ٣٩٨.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٦٨ - ٦٩.

(٣) محمد المنوني: من حديث الركب المغربي، ص٧ - ٨، تطوان، مطبعة المخزن، ١٩٥٣م.

(٤) عبدالهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس [ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي]، ص١١٥، مطبعة فضالة، د.ت.

(٥) الوزير الإسحاقي: رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي المغربي إلى الحج سنة ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م، ص٧٣٩ - ٧٤٠، مجلة العرب، ج١١ - ١٢، السنة ١٩، جماديان، ١٤٠٥هـ/ شباط - آذار (فبراير/ مارس ١٩٨٥م).

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٥.

ومد يد العون لهم إذا ما احتاجوا إليه. علاوة على دعم حكام المغرب المادي والمعنوي للركب المغربي، والمتمثل في بذل الأموال، وحفر الآبار، ووقف الأوقاف على الإبل المخصصة لهذا الركب، وتزويد أمراء الركب برسائل تسلم إلى أمراء الحجاز لتقديم المساعدة لهم.(١)

وكان المغرب يستعد لمناسبة الحج، وذلك باستنفار جميع خطباء المساجد للحث على الحج في خطبهم، وعند خروج الركب المغربي يخرج الجميع لتشييعهم بمن فيهم السلطان أحيانًا(٢). ويبدو أن مظاهر الاستقبال والتشييع كانت تقابل الركب حتى في الحجاز، فمثلًا عند نزول الركب المغربي في ينبع يخرج أشرافها لاستقبالهم وتهنئتهم بسلامة الوصول.(٣)

ومن ضمن التسهيلات التي كانت متاحة للمغاربة اختصاصهم في الجامع الأزهر برواق خاص بهم(٤). بالإضافة إلى ما وجد في مصر من أوقاف تصرف على طلبة العلم(٥)، كما أقيم رباط في مكة المكرمة عرف برباط المغاربة أو الموفق أعد لنزولهم.(٦)

---

(١) أبو فارس عبدالعزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، ص١٨٧ - ١٨٨، تحقيق د. عبدالكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، د.ت، د.م؛ أبو العباس أحمد بن عبدالقادر القادري: نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس، ص٨٦، مخطوطة في مكتبة الملك فهد الوطنية رقم ٢٥٦٦٧٢؛ الناصري: الاستقصا، ج٥، ص١٥٠ - ١٥١.

(٢) المنوني: من حديث الركب المغربي، ص١٤ - ١٥.

(٣) الوزير الإسحاقي: رحلة الإسحاقي، ص٧٤٤ - ٧٤٦، مجلة العرب، ج١١ - ١٢، السنة، جماديان ١٤٠٥هـ/ شباط - آذار (فبراير/ مارس) ١٩٨٥م.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص٥٦.

(٥) القيسي: أنس الساري، ص٤٨.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٠.

وكان ملوك المغرب يُخرِجون الأموال الطائلة التي تحمل سنويًا برسم توزيعها على أهل الحرمين الشريفين وأشرافه[١]. إضافة إلى الهدايا العينية الثمينة التي كانت تخصص للمسجد النبوي.[٢]

ولا يفوتنا التنويه بما كانت ترسله المغرب للحجاز من كتب علمية برسم الوقف على طلبة العلم[٣]، علاوة على ما يحمله الركب المغربي من كتب علمية ترافق المشايخ والعلماء، وقد يترك بعضها ويستبدل غيرها بها عند الحاجة.[٤]

وكان الرحالة المغاربة يشيرون إلى كبار علمائهم بالحجاز عند عودتهم إلى المغرب، كما كانوا يذكرون علماءهم ومكانتهم عند مجيئهم للحجاز. فكان من يقدم منهم للحج يقابل بالحفاوة والإكرام والتقدير، بل وينشدون القصائد الشعرية لمدحهم وبيان مقامهم[٥]. ونتج عن ذلك معرفة علماء الحجاز لكثير من علماء المغرب فكان لذلك الأثر الكبير في التواصل الثقافي بين المنطقتين.

كما كان يحدث أن يستقر بعض علماء المغرب في الحجاز[٦] حيث تولّى بعضهم فيها مناصب مهمة وصلت إلى حدّ التأثير في أموره، وفاقت سلطة بعضهم سلطة الشريف نفسه كما حدث في زمن محمد بن سليمان الروداني

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٠٣؛ الوزيرالإسحاقي: رحلة الإسحاقي، ص٧٤٤ - ٧٤٥؛ الناصري: الاستقصا، ج٨، ص٥٧، ٧٠.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص١٠٣.

(٣) الناصري: الاستقصا، ج٨، ص٧٠، المنوني: من حديث الركب المغربي، ص٢٧.

(٤) أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٣٢، الطبعة الحجرية.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٢٠١، العباس بن إبراهيم السملالي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج٢، ص٣٥٧ - ٣٥٩، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، ١٩٧٦م.

(٦) الودغيري: التعريف بابن الطيب الشرقي، ص٨٥.

الذي أثر كثيرًا في توجيه أمور الحجاز.[١]

وعند قدوم علماء المغرب إلى أرض الحجاز كانوا يُقابَلون بالاحترام والتقدير، ويُقدَّمون للتدريس[٢]، وكثيرًا ما يتبادل العلماء مؤلفات بعضهم على هيئة هدايا[٣]، وأحيانًا بالشراء[٤]. وبهذا حُملت كتب كثيرة إلى المغرب ولم يعرف بعضها في المشرق إلا من خلال ما وجد في كتب المغاربة، والأندلسيين الذين أفادوا منها[٥]، وكان لهم فضل حفظ تلك المؤلفات.

ونجد أنه عندما كان يصل مؤلف لأحد علماء الحجاز إلى المغرب يبادر العلماء هناك لنقده وتقريظه وتقويمه، وإذا وجدت أغلاط نبهوا إليها، وخاصة فيما يتعارض مع العقيدة[٦]، فهم بذلك على اطلاع دائم على ما ألف في الحجاز.

ولا يفوتنا هنا التنويه بأن بعض مخترعات علماء الحجاز مثل آلة توقيت؛

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٢٠٥.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٢٠١؛ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧ - ٣٥٩.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٦.

(٤) الدرعي: ملخص رحلتي ابن عبدالسلام، ص١٤٤؛ محمد الصغير بن محمد بن عبدالله المراكشي الأفراني: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ٢٢١، الطبعة الحجرية؛ القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤، السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧؛ عبدالحي عبدالكبير الكتاني: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، ج٢، ص٦٧٧ - ٦٧٩، اعتناء د. إحسان عباس، بيروت - لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٥) أبو علي الهجري: أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، ص١٠ - ١٢، تقديم حمد الجاسر، الرياض، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د.ت.

(٦) القادري: التقاط الدرر، ص٢٥٦.

دخلت إلى المغرب من قبل الرحالة المغاربة الذين قدموا إلى الحجاز[1]، فكانوا بذلك مواكبين لإخوانهم في الحجاز في العلوم التي وصلوا إليها.

ولا يسعني هنا إلا القول: إن الرحلات عبرت التاريخ والأرض، وأضاءت جوانب لم تكن معروفة إلا من خلالها.

من أخبار المغرب التي سجلها الرحالة المغاربة في متون رحلاتهم:

بث الرحالة المغاربة أحزان المغاربة وأشجانهم عمومًا بما سطروه في أثناء رحلاتهم، وكأن لسان حالهم تعريف من لم يعرف حالهم لحثهم على الجهاد[2]، وهذا نوع من أنواع التواصل والأخوة بين المسلمين لمد يد العون لهم بما يقدرون عليه، تحقيقًا لقول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى».[3]

حمل الرحالة المغاربة هموم موطنهم، وما كان يجري فيه من حروب داخلية، وهجمات صليبية خارجية على سواحله، فذكروا شطرًا من تلك الأحداث في رحلاتهم.

فمن الأحداث الداخلية التي بثت في أثناء رحلة العياشي ما ذكره في عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٨٤م في المغرب من استفحال فتنة بين الخاصة والعامة، انقطعت على إثْرها السبل، ومادت الأرض بأهلها وضاقت بما رحبت، ولم تزل تتفاقم

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٨.

(٢) ابن أبي محلي: الإصليت الخريت، ص٨٦ – ٨٧.

(٣) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج٤، ص٥٣، بيروت – لبنان، دارالمعرفة، أعيد طبعه بالأوفست ١٩٧٨م.

ويشتد سعيرها إلى أن هدأت وكفى الله المسلمين شرها.[١]

ولم يفصح العياشي عن أمرها، بل آثر الصمت وعدم الإفصاح، إما لما كان عليه المغرب من وضع مؤلم، وإما بسبب شيوع أمرها ففضَّل عدم الحديث عنها، وبالرغم من ذلك كان شديد القلق من الأوضاع هناك، فانتهز فرصة زيارته لجُدة، وأخذ يستطلع الأخبار من السفن الواردة منه.[٢]

ونحن إذا أمعنا النظر في المصادر التي كتبت عن أوضاع المغرب في تلك المدة، نجد أنه كان يعيش مرحلة انتقالية من أواخر حكم السعديين، وأوائل حكم العلويين حيث بليت المغرب بحروب طاحنة لتثبيت دعائم سلطة كل من الأشراف السعديين والأشراف العلويين، إلى أن انتهى الأمر بنهاية دولة السعديين، وذلك بموت آخر ملوكهم المولى أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ ابن زيدان[٣] عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م بمراكش[٤]. ومن ثم بدأ الأشراف

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢.

(٢) المصدر السابق، ص٤٠٣.

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ ابن زيدان، تولى بعد وفاة أبيه عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م أو ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م، وطغى في عهده نفوذ أخواله من الشبانات وقويت شوكتهم، فضيقوا عليه وحاصروه بمراكش أشهرًا ثم قتلوه بعد أن تمكنوا منه عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م أو ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م. انظر: الناصري: المصدر السابق، ج٦، ص١٠٧ - ١٠٨.

(٤) «مَرَّاكُش» بالفتح ثم التشديد، أعظم مدينة في المغرب أسسها يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م وكانت قبل ذلك مكان قطع الطريق حتى قيل إن معنى اسمها بالبربرية أسرع المشي، كناية عن الخوف في هذا المكان، كان أهلها يشربون من الآبار حتى جِلب إليها الماء من ناحية أغمات. انظر: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، ج٥، ص٩٤، دار صادر ودار بيروت: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م؛ عبدالعزيز بنعبدالله: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة المدن والقبائل، ملحق ٢، ص٣٣٨ - ٣٤٠، ط١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

العلويون بشن الغارات لتدعيم سلطتهم بعد أن تفكك المغرب إلى دويلات صغيرة حتى استقر الأمر أخيرًا للمولى الرشيد.[1]

(١) الرشيد ابن الشريف بن علي، تولى الملك بعد وفاة أخيه المولى محمد عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م، وهو الذي جمع شتات مدن المغرب في دولة واحدة وقضى على منافسيه وخصومه توفي في مراكش عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م. انظر المصدر السابق، ج٧، ص٢٨ - ٤٣.



الفصل الأول

تعريف أشهر الرّحلات المغربيّة

- محمد بن أحمد بن مليح القيسي
- أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي
- محمد بن علي المرافعي
- أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري
- أبو عبد الله محمد بن أبي علي اليوسي
- أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن ناصر الدرعي
- عبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي الغنامي
- محمد بن أحمد الحضيكي
- أبو مدين عبد الله بن الصغير الدرعي
- عبد المجيد بن علي الزبادي المنالي



تعريف أشهر الرّحَلات المغربيّة

إن المتأمل في أسباب قيام الرحالة المغاربة بالرحلات إلى الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، يجد أن الباعث الأساس لها هو أداء فريضة الحج، فكانوا - رحمهم الله - يتجشمون الصعاب للوصول إلى الحجاز وأداء الفريضة، ومن ثم النهل من منابع العلم فيها، وكان الرحالة المغاربة ينتهزون فرصة قدومهم فألفوا كُتبًا في وصف الطرق التي سلكوها وفي وصف المدينتين المقدستين، وعلى ذلك فإن على الباحثين في تاريخ الحجاز لتلك المدة البحث عن مدونات تلك الرحلات التي تُعد مصادر جيدة وشاملة لتاريخ تلك المرحلة، وهي نوع من التواصل الرائع بين المغرب الإسلامي والحجاز، ومن ثم المشرق الإسلامي، ومما يدعو للأسف أنه فُقِدَ كثير من هذه المدونات، وأنّ بعضها لا يزال على أرفف المكتبات العامة أو الخاصة، ولا يعرف قيمتها إلا القليل.

وقد اعتُمد في هذا البحث على كُتب عشر رحلات مغربية بصفتها مصادر لدراسة تاريخ الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، تلك التي استطعنا الحصول عليها، ومنها نستخلص كثيرًا من المعلومات عن الحجاز، وسندرسها بوصفها من مصادر تاريخ الحجاز، كما سنعرّف بمؤلف كل منها على حسب الترتيب الزمني:

محمد بن أحمد بن مليح القيسي
(كان حيًا حتى عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م)

نسبه وصفاته:

محمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن محمد القيسي الشهير بالسراج والملقب بابن مليح[١] المراكشي، وقد حلَّاه السملالي «بالشيخ الفاضل العالم العلامة».[٢]

ومع أهمية رحلة القيسي وفائدتها فإنَّ المؤرخين وأصحاب التراجم لم يترجموا له، ولم يرد عندهم ذكر رحلته أيضًا التي حُفظت من التلف فوصلت إلينا فدلَّتنا على شخصية مؤلفها.

فمن خلال هذه الرحلة نلمس ضلاعته في التاريخ واللغة، فأسلوبها سهل شيق جميل مليء بالقصائد الشعرية، وموضوعات هذه الرحلة اتسمت بالتنوع، فدلَّت على غزارة علمه وسعته.

ولم يصلنا إلا ترجمة وحيدة للقيسي في مؤلف السملالي الذي اعتمد فيها على ما ورد في الرحلة؛ إذ لخصها في بضع وريقات. كما أبدى تشككًا في اسمه أهو ابن مليح أم ابن فليح؟![٣]، مع أن القيسي كتب اسمه بوضوح تام في طرة رحلته وفي مقدمتها[٤]. فمحقق الرحلة ذكر أن أصل مخطوطتها هي ملك لشخص يدعى محمدًا في سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م، ويليه تملك لشخص آخر[٥].

(١) القيسي: أنس الساري، ص: ط.
(٢) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٥، ص٢٥٩.
(٣) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٥، ص٢٥٩.
(٤) القيسي: أنس الساري، ص: ب - ط.
(٥) المصدر السابق، ص: أ، ب، ٢.

وأضاف أن القيسي صرح بأنه من أهل مراكش، ورجح من خلال نسبته القيسية أنه من أصل عربي، وأن أسلوبه المنمق المؤيد بالأحاديث النبوية والأشعار واطلاعه على كثير من الأخبار وتراجم الرجال يدل على تمتعه بثقافة إسلامية لا بأس بها.(١)

ويمكننا تعليل إغفال المصادر الترجمة للقيسي بأنه كان من عامة المتعلمين المثقفين في ذلك الوقت، كما أنه لم يكن من المشتغلين بالوظائف العلمية أو الديوانية، وأنه ألف رحلته لنفسه ولم يقصد من ورائها شهرة، وربما أيضًا وافاه الأجل سريعًا بحيث لم تظهر له مشاركات في فنون العلم الأخرى يبرز من خلالها.

ويبدو أنه أزمع على كتابة رحلته بعد عودته من سفره حيث قال: «فلما زعزعتني رياح الاشتياق، وطار القلب بأجنحة الأشواق إلى مشاهدة تلك الآفاق، ومنَّ الله عليَّ بالمسير على مراكب التيسير، إلى ذلك الجناب الخطير، وساعدت المقادير في الموارد والمصادر محفوفًا في الذهاب والإياب بسياج الكرامة، ومكتوفًا بسرادق العافية والسلامة، صرفت همتي وفكرتي إلى ضبط رحلتي ونقلتي، وذكر مباديها ومنتهاها بالنص على عدد المراحل، وأسماء المنازل والمناهل، فألفت هذه الرحلة وسميتها أنس الساري والسارب، من أقطار المغارب، إلى منتهى الآمال والمآرب، سيد الأعاجم والأعارب ﷺ».(٢)

ومما لا شك فيه أنه لم يعتمد على الذاكرة في تدوينها؛ إذ لا بد أنه سجل ما شاهده ومر عليه في قصاصات بنى عليها تأليف رحلته بعد عودته مع تنقيحها

(١) المصدر السابق، ص: ب.
(٢) المصدر السابق، ص: ل.

وكتابتها بالصورة التي وصلت إلينا، حيث كتبها على هيئة فصول معنونة[١]، كشفت عن دقته وترتيبه.

وكما لمسنا الدقة في شخصية القيسي لمسنا أيضًا شاعريته، فهو أديب شاعر على عادة أغلب الرحالة المغاربة حيث تناثرت له أبيات شعرية في رحلته[٢]، علاوة على ثقافته الإسلامية الجيدة الميالة إلى التصوف الظاهر في رحلته، لأن النزعة الصوفية كانت الغالبة في المدة التاريخية التي عاش فيها، والتي كانت لها سلبياتها على العالم الإسلامي بأجمعه.

مؤلفاته:

لا يعرف له كتابات أو مؤلفات غير رحلته التي التزم في كتابتها بما رسمه لنفسه من منهج لم يَحِد عنه، وقيده في بداية رحلته. وقد استغرقت رحلته حوالي السنتين والنصف حيث أرخ لبداية خروجه من مراكش في آخر صفر عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م، ولكنه لم يؤرخ لدخولها مرة ثانية[٣]. فقد كان آخر تأريخ له في رحلته هو يوم السبت الثالث من شوال عام ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٣م عند وصوله لوادي درعة[٤]. وبهذا تكون رحلته قد استغرقت سنتين ونصف السنة.

---

(١) المصدر السابق، ص: هـ.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٢، ٦، ٧٨، ٩٤ على سبيل المثال.

(٣) المصدر السابق، ص٢.

(٤) المصدر السابق، ص١٣٥؛ «درعة» مدينة مغربية صغيرة في جنوبها الغربي، ويبدو أنها كانت تقع على نصف الطريق بين عكة والريصاني، وربما بالقرب من زاكورة فهي مجموعة من نخل وقرى. ودرعة تكتب ذرعة بالمعجمة ولكن المشهور أنها بالمهملة. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٤٥١؛ عبدالعزيز بنعبدالله: الموسوعة المغربية، ملحق ٢، ص١٩٥ - ١٩٦.

ونجد أن بداية التأريخ للرحلة هي من أُسُس فن الرحلة المغربية[١]، إضافة إلى الالتزام بكتابة خطبة البداية، وسبب التأليف، وتسمية الرحلة، والاستخارة المتكررة عند نية الرحلة، ووصف المنازل والمناهل والقرى والمدن وسلوكيات سكانها، وتعاملاتهم الاقتصادية، ونظامهم السياسي، وحالتهم العلمية، وغير ذلك مما قد يسترعي انتباه الرحالة من أمور مستجدة أو غريبة فيبادر إلى تسجيلها. وهذه النواحي العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجغرافية والتاريخية نجدها عاملًا مشتركًا في جميع الرحلات المغربية؛ إذ تعد من مقومات فن كتابة الرحلة المغربية، وربما يطغى جانب على آخر بحسب شخصية الرحالة وميله ودقة ملاحظته لجانب دون آخر.

وعمومًا فرحلة القيسي تعد من الرحلات المغربية الغزيرة الفائدة، المتضمنة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والحكم والأمثال المشهورة، والأبيات الشعرية التي وقعت مواقعها للدلالة على ما أراد قوله ووصفه وتوضيحه.

سبب الرحلة:

صرح القيسي بأن سبب رحلته كان لأداء فريضة الحج[٢]، فهو لم يسبق له القدوم إلى الحجاز إلا في عام رحلته فقط.

حالته الاجتماعية:

لا نعلم شيئًا عن حياته الاجتماعية أو مكانته العلمية، ولا سنة مولده أو وفاته، وكل ما عرفناه أنه كانت له زوجة وأولاد ووالدان وإخوة، ففي شعره الذي

(١) نواب: الرحلات المغربية، ص٧٦ - ٩١.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص: ل.

قاله قبل سفره وفيه يستودعهم الله تعالى - وأغلب الظن أنه كان ذا جاه وعلم - إذ قال:[١]

أستودع الله أولادي وأُمَّهُمُ
والدين والمال والآباء والجسدا
والعلم والجاه والإخوان كُلَّهمُ
والصحب والصّهر والجيران والبلدا
وكل ما أنعم الباري عَلَيَّ به
فهو الحفيظ لما استودعته أبدا

وفاته:

ذكرنا سابقًا أنه أرخ لوصوله درعة ثالث شوال عام ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٣م، وترحم في رحلته على سلطان عصره بالمغرب الوليد بن زيدان[٢] عندما تحدث عن الهدية التي أهداها للمسجد النبوي[٣]. وقد توفي السلطان الوليد يوم الخميس ١٤ رمضان عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م، وبهذا نستطيع أن نُقدِّر تقديرًا أن وفاته حدثت بعد هذا التاريخ.

---

(١) المصدر السابق، ص٢.

(٢) الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور السعدي بويع له يوم مقتل أخيه عبدالملك يوم الأحد سادس عشر شعبان عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م واقتصر ملكه على مراكش وأعمالها، وعظمت الفتنة في أيامه بفاس، وكان الوليد لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامة، كان مولعًا بالسماع قاتلًا للأشراف إخوته وبني عمه حتى أباد أكثرهم، وكان مع ذلك مُحبًا للعلماء متواضعًا لهم. قتله بعض جنده عندما قصَّر في دفع مرتباتهم وذلك يوم الخميس الرابع عشر من رمضان عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م. انظر: السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج١٠، ص١٨٩ - ١٩٠، ترجمة رقم ١٥٦٩. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٠٣.

أبو سالم عبدالله بن محمد العياشي
(١٠٣٧-١٠٩٠هـ/١٦٢٧-١٦٧٩م)

نسبه وصفاته:

أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي، نعت بالشيخ الإمام الرحالة الأديب الماهر الحافظ الحجة[١]. ونسبته العياشي ترجع إلى آيت[٢] عياش إحدى القبائل البربرية المقيمة على حدود الصحراء في الجنوب الشرقي للمغرب[٣]. ويقال: إن العياشي عربي الأصل ينتهي نسبه إلى الأدارسة[٤]. ولد لليلة بقيت من شعبان عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٨م في قرية تازروفت الواقعة في الأطلس[٥] الكبير على ضفة أحد روافد نهر زيز.[٦]

وحُلِّي بنعوت أخرى تدل على علو مكانته العلمية والاجتماعية، فقد وصفه الأفراني بأنه من القلائل الذين أُحييتْ بهم طريقة الرواية[٧] بعد أن أوشكت

---

(١) أبو سالم عبدالله العياشي: ماء الموائد، ج١، ص٣، الطبعة الحجرية؛ الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٩١.

(٢) كلمة بربرية بمعنى آل. انظر: محمد أمحزون: المدينة المنورة في رحلة العياشي دراسة وتحقيق، ص٤٧، الكويت، دار الأرقم للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٣) الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٨٣٢، ترجمة رقم ٤٧٢.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون. و«الأدارسة» ينتسبون إلى إدريس بن عبدالله بن الحسن المثنى. الناصري: الاستقصاء، ج١، ص١٥١.

(٥) «الأطلس»: اسم يطلق على جبال إفريقيا الشمالية من المغرب إلى تونس، وتنقسم ثلاثة أقسام وهي أطلس الكبير والمتوسط والصغير. بنعبدالله: الموسوعة المغربية، ملحق ٢، ص٣٧.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤٧، هامش ٤، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق: أمحزون.

(٧) «الرواية»: علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وروايتها، وضبطها، وتحرير ألفاظها، انظر: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ص٤٠، تحقيق ومراجعة عبدالوهاب عبداللطيف، بيروت - لبنان، ط٢، =

شمسها على المغيب،[١] كما وصفه أبو علي اليوسي[٢]: بالبارع الفاضل[٣].

واتصف العياشي بحب الحديث، وسعيه لطلب علو الإسناد حتى قال حفيده أبو عبدالله محمد عنه: «كان كلفًا بالرواية، مستريحًا إليها من أثقال الدراية[٤]، علمًا منه أن علو الإسناد مرغب فيه عند جميع النقاد».[٥] كان العياشي شديد التعصب للمذهب المالكي، كما كره واستنكر المكوس[٦] والإتاوات[٧] التي تؤخذ من الحجاج ظلمًا.[٨]

= ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، دار إحياء السنة النبوية.

(١) الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٩١.

(٢) نور الدين أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي شيخ مشايخ المغرب، متفقًا على علمه وصلاحه، أخذ عن علماء عصره مثل محمد بن ناصر وعبدالقادر الفاسي وأبي سالم العياشي، له مؤلفات عديدة وقصائد بديعة دالة على غزارة علمه، له رحلة إلى الحجاز عام ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م وتوفي بعد عودته من الحج، انظر: الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٠٦ - ٢١٠.

(٣) المصدر السابق، ص١٩٢.

(٤) «الدراية» علم يعرف منه حقيقة الرواية، وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرواة، وشروطهم، وأصناف المرويات وما يتعلق بها. انظر: السيوطي: تدريب الراوي، ص٤٠.

(٥) الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٨٣٣.

(٦) «المكس» الضريبة التي يأخذها الماكس وأصلها الجباية. وأول مكس فُرض على الحجاج المسلمين كان من قبل القرامطة سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٤م وهي أول سنة مكس فيها الحاج ولم يعهد ذلك في الإسلام. أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٦، ص٢٩٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٢٢٠؛ النجم عمر بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٢، ص٣٨٧، تحقيق فهيم شلتوت، ط١، مكتبة الخانجي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، د.م.

(٧) «إتاوة» هي الرشوة والخراج. وهي كل ما أخذ بكره. ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص١٧ - ١٨.

(٨) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢، ١٧٧، ٢٠٨.

وعلى الرغم من تمسكه بتعاليم المذهب المالكي اجتهادًا منه فإننا نجد مخالفته لهذا المذهب مثل خروجه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة عند اقتراب شهر رمضان، وتكراره العمرة في السنة الواحدة، ودخوله مكة المكرمة بدون إحرام عند مقدمه من جُدة.(١)

حياته العلمية والاجتماعية:

كان طالب علم لا يقنع باليسير، فقال حاكيًا عن نفسه: «وكنت في أول معاناتي للطلب، وتشبثي بأذيال الأدب، كلفًا بالرواية، ومستروحًا إليها من أثقال الدراية، فأخذت عن الأعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلًا، فلم يشف ما لديهم مما أجد غليلًا، ولا أبرأ عليلًا؛ لأنهم استغنوا عما غاب بما ظهر، فاقتصروا من الكتب على ما اشتهر، دون المسلسلات والأجزاء الصغار وعوالي الإسناد وغرائب الأخبار».(٢)

لذا شدّ العياشي عصا الترحال، ويمم شطر المشرق في ثلاث رحلات للحج(٣)، فمنها الرحلة الأخيرة للبلدان المشرقية، مبتدئًا بطرابلس، والإسكندرية، والقاهرة، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس، فأخذ على العلماء الذين يسر الله تعالى له التقاءهم، فكان يتلقى العلم ويتصدر أحيانًا للتدريس، فقدم للتدريس في المدينة المنورة،(٤) وكان خلال تلك المدة يُعد من العلماء الأعلام، كما كان يبادل الإجازات العلمية أمثالَه من العلماء.(٥)

(١) المصدر السابق، ص٣٩١، ٣٩٧، ٤٠٥.

(٢) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١، مخطوطة.

(٣) المصدر السابق والصفحة.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٢٠١؛ الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٩٢.

(٥) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٩.

وقد حفلت رحلة العياشي بكثير مما يدل على حبه للبحث عن العلماء ومجالستهم في كل بلد وصل إليه، وشغفه بجمع الكتب، والبحث عن غريبها ونادرها في خزائن الكتب التي مر عليها. كما برزت شخصية الأديب، الشاعر، الناثر، الفقيه، المحدث، المناظر في القضايا التي لا تتفق مع العقيدة السليمة في أسلوبه الذي كتب به رحلته.[١]

كما اشتهر العياشي بتعظيم الصوفية[٢] كعادة بعض علماء عصره في المغرب وفي غيرها آنذاك فالتف حوله المريدون والأتباع وطلبة العلم.

وتظهر نزعة العياشي الصوفية جليةً في معظم ما ورد في رحلته، وكما ذكرنا سابقًا فهذه النزعة الصوفية لا تعيب رحَّالتنا؛ لأنها كانت السمة التي تميزت بها هذه المرحلة التاريخية في العالم الإسلامي أجمع، وإن كنا لا نتفق مع نزعته وميله؛ لمخالفتها كثيرًا من الأمور التي درج عليها السلف الصالح.

وفي رحلته تظهر شاعريته التي تتضح في المواقف التي تثير وجدانه وتدفعه لقول الشعر، فزخرت بكثير من الأبيات والقصائد الشعرية له أو لغيره، ومن نماذج شعره ما قاله عند وداعه لأهله:[٣]

أَحِبَّة قلبي لا ضرار ولا ضَرَرْ
ولكننا نرضى بما ساقَهُ القدر

سأَنْفعكُمْ في غيبتي بالدعاءِ في
مواقف حجي حيث أَصفو من الكدر

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٠٥ - ٢٠٩.

(٢) الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٩٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٨.

وَلَسْتُ بناسٍ عهدَكُم ووِدادَكُم
وإنْ طالتِ الأيامُ واتصلَ السَّفَر
يذكرنيكُمْ كلُّ حسنٍ رأيتُه
ولا سيما بردُ العشية والسحر

ومن شعره أيضًا قصيدة بعثها إلى أشياخه وإخوانه في فاس[١] عند وصوله إلى طرابلس منها:[٢]

أحبتنا أهل التقى والمبرَّةِ
بقيتم دائمًا في مسرَّةِ
ودام لكم سلمًا زمانٌ محارب
ولا زلتم في نعمة مستمرَّةِ
تسيمون ما بين القمور كأنكم
بدور أضاءت في خلال المجرَّةِ

وله أيضًا في وصف الكعبة المشرفة عندما شاهدها مشمرة أثوابها:[٣]

فكأنه لما بدا متشمرًا
والطائفون به جميعًا أحدقوا
ملك همام ناهض للقاء مَنْ
قد زاره وله إليه تشوق

(١) «فاس» مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة المغرب وأجلُّ مدنه قبل أن تُختط مراكش، فيها عمارة عظيمة وعيون كثيرة وقلعة كبيرة، وهي عبارة عن مدينتين مفترقتين مسورتين، هما عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٢٣٠ - ٢٣١؛ بنعبدالله: الموسوعة المغربية، ملحق ٢، ص٣٢٧ - ٣٣٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٢.

فتبادر الغلمان رفع ذيوله
حتى إذا رجعوا جميعًا أطلقوا

ومن قصيدة وصف بها منى:[١]

لا شيء أذهب للجرم
من أن تنيخ لدى الحرم
حيث القباب البيض تلـ
ـمع مثل نار في علم
بين المحصب[٢] والحجو
ن بذاك درياق السقم

ولما توفي والده عزم العياشي على السفر إلى الحجاز للمرة الثالثة، فزار قبره، وودع والدته وعمه اللذين كانا لا يزالان على قيد الحياة[٣]. وترك في موطنه ابنًا وابنة كما يظهر في شعره عند وداعهما:[٤]

أُبَنيَّ إني ما تركتك عن قِلىً
مني وأختك ما قليت وصالها

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٧. وعلى العموم فالعياشي كان شاعرًا سلس الأسلوب، واضح المعاني. ومن أراد الاستزادة من شعره فعليه بالرجوع إلى الرحلة، إذ فيها قصائد شعرية كثيرة لو جمعت لألفت ديوانًا بأكمله.

(٢) «المُحصب»: بالضم بين مكة المكرمة ومنى وهو إلى منى أقرب، ويعرف اليوم بمجرّ الكبش، وهو يلي العقبة الكبرى إلى جهة مكة المكرمة، ويليه مباشرة الأبطح. انظر: عاتق بن غيث البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٨، ص٤٣ - ٤٤، دار مكة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، د.م.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٧.

(٤) المصدر السابق، ص١٠.

لكما بقلبي رحــمــة ومــودة
بنياط قلبي قد عقدت حبالها
لكنَّ من طلبي العزيز يلذّ لي
تركي العزيز بـهـاءه وجمالها

ولا نعرف إن كانت زوجته على قيد الحياة آنذاك، فهو لم يشملها في الوداع.

سبب الرحلة:

كان العياشي قد عزم على التوجه للحج والمجاورة منذ سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م، وواظب على الاستخارة، ولكن منعه من التوجه للحج في تلك السنة والسنوات التي تلتها فتنة حدثت بالمغرب، وصفها بقوله: «دبت في مغربنا عقارب الفتن، وهاجت وماجت الأرض بأهلها ومادت»[(١)]. ولما استقرت الأمور سنة ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م عزم على التوجه للحج بعد أن يسر الله له ذلك، وخرج مع الركب المغربي يوم الخميس، أول ربيع الآخر عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م[(٢)]، واستغرقت رحلته حوالي السنة والنصف، فقد عاد إلى المغرب يوم الأربعاء ١٧ شوال عام ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م.[(٣)]

سبب تأليف الرحلة:

سبق للعياشي القيام برحلتين للحجاز، الأولى عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م،

(١) المصدر السابق، ص٢؛ وانظر تفاصيل الفتنة التي وقعت بين أهل فاس القديمة والجديدة للتصارع على السلطة التي وصفت بالشر الكثير في: القادري: نشر المثاني، ج٢، ص٥١ - ٦٨.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٧.

(٣) المصدر السابق، ص٦٥٠.

والثانية عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م[١]. وقد اكتسب من هاتين الرحلتين الخبرة اللازمة التي جعلت منه عالمًا وخبيرًا بمسالك الطريق ومنازله، فأفرد تأليفًا عنه زود به تلميذًا له ليكون له معينًا[٢]. وبهذا يكون العياشي قد أدى أربع حجات، اثنتين في سنوات متفرقة، وهي الأولى والثانية، واثنتين في سنتين متتابعتين هما الثالثة والرابعة في عامي ١٠٧٢ - ١٠٧٣هـ/ ١٦٦١ - ١٦٦٢م.

حدد العياشي قصده ومنهجه من تأليفه لرحلته، فقال: «وقصدي من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معًا فذاك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما وإن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التكوين فلكل شيء عنده موقع ونفع، لا يوجد في غيره، والله المسؤول».[٣]

وبما أن العياشي سبق له أن قدم الحجاز مرتين، فقد أعدّ كل ما يلزم فقال: «وتوجهت على بصيرة، وأعددت لفوائد الرحلة عُددًا كثيرة»[٤]. فجاور في الحرمين الشريفين عامًا، فتمكن من الاجتماع بالعلماء، فقال: «فاتسع المجال في لقاء الرجال، ومذاكرة الإخوان في كل أوان، ومحاضرة الأدباء، ومجالسة الظرفاء».[٥]

فاختمرت في ذهنه فكرة تدوين رحلته، وعزم على تجميع ما حصله في مؤلف مستقل سماه «اقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر» فقال: «فعزمت على تدوين ذلك في مجموع، تحصل به الإفادة لمن طلب الاستفادة، فإذا زبدة فائدته، وثمرة عائدته، أسماء المشايخ ومروياتهم، وذكر شيء من مصنفاتهم، وقد

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ج١، ص٤ - ٥، الطبعة الحجرية.

(٢) العياشي: اقتفاء الأثر، ص٢ - ٣.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٦٧.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص٥، الطبعة الحجرية.

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة.

استوفيت جُلّ ذلك لمن طلبه منّي، ورام أخذه عنّي في كتاب «اقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر» فانصرف العزم عن كتابة ما سواه، إذ هو بدونه قليل جدواه».[١]

القيمة العلمية للرحلة:

أودع العياشي رحلته كثيرًا من الموضوعات المتنوعة، وهو ما أكسبها أهمية بالغة لدارسي تلك المرحلة، فقد سجل العياشي تراجم العلماء، ووصف طريق الحج ومنازله، وأورد العديد من النبذ الفقهية والأدبية، والقصائد الشعرية، فضلًا عن اللمحات التاريخية، وعوائد السكان الاجتماعية في المناطق التي مر عليها. لذا عُدت رحلة العياشي من الرحلات الشاملة، وأصبحت مثالًا اقتدى بها الرحالة المغاربة ممّن أتوا بعده.

وصف مخطوطة الرحلة:

تقع في الخزانة الحمزاوية رقمها (١٨٢) وهي بخط المؤلف، وتضم (٧٧٦) صفحة بمعدل (٢٥) إلى (٤٦) سطرًا في الورقة وبمعدل (١٥) كلمة في السطر الواحد، ومكتوبة بخط مغربي يختلف رقة وغلظًا من ورقة لأخرى.

مشايخه:

استهوى العياشي العلم فانكب على تحصيله، فجال في المغرب، وأخذ عن علمائه الذين لازم حلقاتهم وأفاد من دروسهم، ومن أشهر مشايخه المغاربة الذين تتلمذ عليهم، والمعروفين بالإسناد العالي:

- والده محمد بن أبي بكر العياشي[٢]، تلقى على يديه كثيرًا من العلوم

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ج١، ص٥، الطبعة الحجرية.

(٢) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر العياشي، كان خيِّرًا ديِّنًا، أدرك جماعة من الشيوخ، توفي عام ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م. انظر: الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٣٤ - ١٣٥.

والمعارف، ودرس وحفظ القرآن الكريم على يديه.[١]

- العلامة عبدالقادر بن علي الفاسي[٢] الذي أفاده كثيرًا في الفقه، والحديث، والتفسير، والنحو، والبيان، والأصلين والتصوف.[٣]
- الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الأبار[٤]، أفاده في المختصر، وفي شيء من صحيح البخاري، وكتب له إجازة بخط يده.[٥]
- محمد بن أحمد مياره[٦].
- الشيخ الرحالة أبو بكر بن يوسف السجتاني المراكشي.[٧]

---

(١) العياشي: اقتفاء الأثر، ص٢ - ٤.

(٢) الشيخ الإمام أبو محمد عبدالقادر بن الفقيه علي بن أبي المحاسن الفاسي، ولد يوم الاثنين ثاني رمضان سنة ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م، تعلم القرآن الكريم والعربية على أبيه، استوطن فاس وأخذ عن علمائها، ونبغ واشتهر، وتصدر لنشر العلم فيها، وأخذ عليه علماء أعلام ذاع صيتهم بعد ذلك، توفي بعد ظهر الأربعاء ثامن رمضان عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م. انظر: الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٨١ - ١٨٤.

(٣) العياشي: اقتفاء الأثر، ص٧.

(٤) الخطيب أحمد، المدعو حمدون بن محمد بن موسى الأبار الفاسي، اشتغل أول أمره بالتجارة، ثم اتجه إلى التعليم والتعلم، كان إمامًا في الفقه، توفي ثالث وعشرين جمادى الأولى عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م. انظر: الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٣٩ - ١٤٠؛ القادري: التقاط الدرر، ص١٤٨، ترجمة رقم ٢٤٢.

(٥) العياشي: اقتفاء الأثر، ص٨.

(٦) أبو عبدالله محمد بن أحمد مياره الفاسي، أخذ على علماء أجلاء، وأخذ عنه كثيرون، له باع كبير في علم الأحكام والمطالعة والتقييد، توفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م. انظر: الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٤٠؛ القادري: التقاط الدرر، ص١٥١ - ١٥٢، ترجمة رقم ٢٤٦.

(٧) أبو بكر بن يوسف السجتاني، يعرف في مراكش بالمغارتي المراكشي، مكث في مصر سنين عديدة، ودخل القدس، وحج عدة مرات، أخذ على علماء مشارقة ومغاربة، كان عارفًا بعلم القراءات، توفي عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م. انظر: الأفراني: صفوة من انتشر، ص١١٢ - ١١٤؛ =

- محمد بن ناصر الدرعي[١] الذي عرف عنه سعة علمه وثقافته الأدبية والدينية وأفاد منه في علم التفسير والنحو والحديث.[٢]

ومن العلماء المشارقة الذين صادفهم:

- الشيخ زين العابدين أبو الحسن علي الأجهوري شيخ المالكية في مصر[٣]. أفاد منه، وأجازه في ثلاثيات البخاري، وعشاريات ابن حجر، وثلاثيات ابن ماجه، ومسلسلات ابن الجزري.[٤]
- الشيخ إبراهيم بن شمس الدين الميموني الذي حرص على لزوم مجلسه[٥] طوال مدة إقامته في مصر، وأجازه بسائر مروياته في الحديث.[٦]

= القادري: التقاط الدرر، ص١٣٣، ترجمة رقم ٢٢٣.

(١) أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن ناصر بن عمر، اشتهر بابن ناصر ثم الدرعي الأغلاني، شارك في فنون العلم المختلفة، مثل الفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث، توفي عام ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م، انظر: الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٧٣ - ١٧٧؛ القادري: التقاط الدرر، ص١٩٦، ترجمة رقم ٢٩٩.

(٢) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٠، ٢.

(٣) علي بن زين العابدين محمد بن أبي محمد زين الدين عبدالرحمن بن علي، أبو الإرشاد نور الدين الأجهوري، نسبة إلى أجهور الورد، قرية في ريف مصر، المالكي شيخ المالكية، برع في الفقه والعربية والأصلين والبلاغة والمنطق، درس وصنف وألف، عمر طويلًا، ورحل الناس إليه للأخذ عنه، توفي عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م وكان مولده سنة ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص١٥٧ - ١٦٠.

(٤) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١١.

(٥) إبراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي، الملقب ببرهان الدين الميموني، البارع في علوم التفسير والعربية، والعلوم العقلية والنقلية، وعلم المعاني والبيان، ألف وصنف كثيرًا، ولد عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م. توفي عام ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر رمضان، ونسبته الميموني للميمون في الصعيد. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٤٥ - ٤٦.

(٦) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١١ - ١٢.

- شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي[١]، وقد أجازه بجميع مروياته ومؤلفاته في الحديث والتفسير والشعر.[٢]
- أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري[٣]، كان قد التقاه في أول رحلاته في بسكرة[٤]، ولم يأخذ عنه شيئًا، ثم لقيه في رحلته الثانية في مصر، وأفاد منه كثيرًا في الحديث، ومنحه إجازة عنه[٥]، ولقيه في رحلته الثالثة بالحجاز، وأكثر من أخذ الحديث عنه، كما كتب له الإجازات بكل مروياته.[٦]

حرص العياشي على الأخذ عن علماء الحرمين ومنهم:

- الشيخ محمد بن علاء الدين البابلي المصري[٧] الذي أخذ عنه شيئًا من

(١) أحمد بن محمد بن عمر رئيس القضاة، شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي، ترجم لنفسه، والخفاجي نسبة إلى أبيه خفاجي، توفي يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م، انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٣١ - ٣٤٣.

(٢) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٣.

(٣) أبو مهدي عيسى بن محمد بن محمد بن أحمد بن عامر، أبو مكتوم المغربي الجعفري الثعالبي الهاشمي، جاور في المدينة المنورة ثم في مكة المكرمة، أتقن فنون العلم المختلفة، كان زاهدًا ورعًا، توفي يوم الأربعاء لست بقين من رجب سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م. ودفن في الحجون. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص٢٤٠ - ٢٤٣.

(٤) «بسكرة» بكسر الكاف، بلد في المغرب من نواحي الزاب. ذات نخل وزيتون، كانت دار علم وفقه، سكنها العلماء. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٢٢؛ الحميري: الروض المعطار، ص١١٣ - ١١٤، وهي من مدن الجزائر الآن.

(٥) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٦.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٧ - ٤٢٢.

(٧) محمد بن علاء الدين أبو عبدالله شمس الدين البابلي القاهري الأزهري الشافعي، نزيل مكة المكرمة، أحد أعلام الحديث والفقه ولد عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م وتوفي سنة ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م أو ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٣٩ - ٤٢؛ القادري: التقاط الدرر، ص١٦٨، ترجمة رقم ٢٧٢.

الحديث، وأجازه إجازة عامة.[١]

- الشيخ تاج الدين المكي الأنصاري المالكي[٢] مفتي المالكية، أخذ عنه وأجازه إجازة عامة.[٣]
- الحسين الطبري[٤]، شيخ الحرم المكي زين العابدين ابن الشيخ محيي الدين عبدالقادر بن محمد الحسيني الطبري أخذ عنه الحديث ونال إجازة منه.[٥]
- أبو الحسن علي بن عبدالقادر الحسيني الطبري[٦]، شيخ الحجاز، وإمام الحديث، ومفتي الشافعية ومدرسها، والخطيب والإمام في المقام، ونال منه إجازة أيضًا في الحديث.[٧]

---

(١) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٧.

(٢) القاضي تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم بن تاج الدين بن محمد بن تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن جمال الدين محمد بن يعقوب بن يحيى بن يحيى بن عبدالوهاب المالكي المدني ثم المكي، يعرف بابن يعقوب، ولد بمكة المكرمة ونشأ فيها، أخذ على أكابر علماء عصره، تصدر للتدريس بالمسجد الحرام، له عدة مؤلفات، توفي بمكة المكرمة ثامن شهر ربيع الأول عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٤٥٧ - ٤٦٤.

(٣) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٧.

(٤) زين العابدين بن عبدالقادر الطبري الحسيني المكي الشافعي، إمام المقام الإبراهيمي. ولد في مكة المكرمة ليلة ثامن عشر ذي الحجة سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م. أخذ عن والده وأكابر علماء عصره في الحرمين وأجازوه، له شعر لطيف، توفي في مكة المكرمة يوم الاثنين ١٤ رمضان سنة ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص١٩٥ - ١٩٦.

(٥) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٧.

(٦) علي بن عبدالقادر الطبري الحسيني المكي الشافعي، إمام المقام، ولد ونشأ في مكة المكرمة، تلقى العلم على يدي والده وأكابر علماء عصره، أكب على التدريس والإفتاء وتصنيف الكتب، منها الأرج المسكي والتاريخ المكي، له شعر حسن، توفي في مكة المكرمة عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص١٦١ - ١٦٦.

(٧) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٨.

- الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الربيع الشيباني اليمني الزبيدي[١]. التقاه العياشي في حجته الثانية[٢]، ثم في الثالثة[٣]، وهو ما يعني أن ما أورده المحبي من خبر وفاته عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م[٤] ليس صحيحًا، فالعياشي صرح بأنه التقاه في المسجد الحرام عشية يوم الأحد الموافي عشرين من ذي الحجة عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م[٥]، كما التقاه مرة أخرى في حجته الثالثة، وختم على يديه القرآن الكريم في المسجد النبوي في شهر صفر عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م وأجازه في القراءات والحديث.[٦]
- أبو سالم إبراهيم ابن الشيخ عبدالرحمن بن علي بن موسى بن خضر الخياري الشافعي المدني[٧]، التقاه في المدينة المنورة ومنحه إجازة عامة.[٨]

---

(١) السيد علي بن محمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن علوي بن عبدالله بن علي بن عبدالله باعلوي الشهير بشيبان، كان كثير التلاوة للقرآن الكريم، صحب كثيرًا من الأعلام. توفي عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م. انظر المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص١٩١ - ١٩٢. والصحيح ما ورد في المتن في تاريخ وفاته.

(٢) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٨ - ١٩.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٢ - ٢٣٣.

(٤) المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص١٩٢.

(٥) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٩.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤٩٨.

(٧) الشيخ إبراهيم بن عبدالرحمن بن علي بن موسى بن خضر الخياري المدني الشافعي المحدث الأديب والمؤرخ والشاعر، تلقى العلم على أبيه وجمع غفير من علماء عصره وشيوخه، قام برحلة إلى الشام والقسطنطينية والقاهرة سماها تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، ولد يوم الثلاثاء ثالث شهر شوال عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م وتوفي ليلة الاثنين ثاني رجب عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٥ - ٢٨.

(٨) العياشي: اقتفاء الأثر، ص٢٠.

تلاميذه:

وتتلمذ على يد العياشي كثيرون، نبغ منهم ابنه حمزة بن عبدالله العياشي[١]، ومحمد بن عبدالرحمن بن عبدالقادر الفاسي[٢]، وأحمد بن محمد بن ناصر الدرعي[٣]، والحريشي الفاسي.[٤]

مؤلفاته:

ترك العياشي كثيرًا من المؤلفات التي لا تزال مخطوطة[٥]، ومنها: «منظومة في البيوع وشرحها» و«تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية» و«تأليف في معنى لو الشرطية»، وكتاب «الحكم بالعدل والإنصاف الدافع للخلاف فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الاختلاف» و«اقتفاء الأثر» و«تحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء»، ورحلته «ماء الموائد»[٦] و«إظهار المنة على المبشرين بالجنة» و«المدائح النبوية»[٧]. وغيرها من المؤلفات التي تدل على

---

(١) حمزة بن عبدالله العياشي، اعتنى بالعلوم بما تيسر له من الثروة والجاه، فجمع كثيرًا من الكتب، توفي في عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م. انظر: القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٧.

(٢) أبو عبدالله محمد ابن الحافظ أبي زيد عبدالرحمن بن عبدالقادر الفاسي، تلقى العلم عن أبيه، وعلماء عصره من المغرب والمشرق، توفي خامس جمادى الآخرة عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م. انظر: القادري: التقاط الدرر، ص٣٢٣، ترجمة رقم ٤٨٢.

(٣) انظر ترجمته بالتفصيل فيما بعد، ص٧٦.

(٤) أبو الحسن علي بن أحمد الحُريشي الفاسي، تلقى العلم على عبدالقادر الفاسي وولديه، له بعض مؤلفات، توفي في المدينة المنورة عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م بعد حجه. انظر: القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٣٦١ - ٣٦٣.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٥٧، هامش ٤ - ٥، ص٥٨ - ٦٠ بهوامشها، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٦) الأفراني: صفوة من انتشر، ص١٩٢.

(٧) الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٨٣٤.

سعة علمه وتنوعه.

وفاته:

توفي العياشي ضحى يوم الجمعة ١٨ من ذي القعدة عام ١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م متأثرًا بمرض الطاعون عن (٥٣) سنة وعدة أشهر.[(١)]

محمد بن علي الرافعي
(١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م - كان حيًا حتى عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م)

نسبه وولادته:

محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الرافعي[(٢)]، اللخمي الأندلسي الأصل، التطواني منشأً ودارًا، أبو عبدالله، من فقهاء تطوان[(٣)] وأدبائها.[(٤)]

ولد عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م، ولا نعرف سنة وفاته على وجه اليقين، ولكنه كان حيًا حتى عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م.[(٥)]

---

(١) المصدر السابق والجزء، ص٨٣٣.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص٣.

(٣) «تطوان» مدينة من مدن المغرب، ومعنى تطوان بالبربرية «تط» وتعني العين و«وين» كناية عن المخاطب. انظر: بنعبدالله: الموسوعة المغربية، ملحق٢، ص١٤٣ - ١٤٦.

(٤) خير الدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج٦، ص٢٩٥، بيروت - لبنان، دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٨٦م؛ د. حسن الوراكلي: رحلات تطوانية إلى البلد الأمين، ص٣٩، مجلة البلد الأمين، دورية تصدر عن نادي مكة الثقافي الأدبي، السنة ٢، العدد ٣، ذو الحجة ١٤١٦هـ/ مايو ١٩٩٦م.

(٥) عبدالسلام بن عبدالقادر بن سودة المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج٢، ص٣٦٥، الدار البيضاء، دار الكتاب، ط٢، ١٩٦٠م.

صفاته وأخلاقه:

لم نجد ترجمة للرافعي في المصادر التي بين أيدينا، لذا سنحاول أن نستشف ما تمتع به من أخلاق وصفات من خلال ما سجله بقلمه في مدونة رحلته عندما تحدث عن نفسه، أو عن أمور أخرى.

فالرافعي أديب أحسن تصوير خلجات نفسه أصدق تصوير من لوم ومعاتبة، وصبر على قضاء الله تعالى[١]، وكل ذلك بأسلوب منثور جميل. كما كان يقرض الشعر[٢]، ولكنه ليس بشاعر.

وكان الرافعي يظهر حبه لوطنه وحنينه الدائم إليه وإلى أهله، فتثور أحاسيسه التي يعبر عنها بأبيات شعرية مثل:

تطوان ما أدراك ما تطوان
سالت بها الأنهار والخلجان
قل إن لحاك مُكابِدٌ في حبها:
هي جنةٌ فردوسها الكتمان[٣]

كما كان يثير وجدانه وتظهر فرحته وسروره بكونه مسلمًا عندما يصل إلى أسماعه ويعلم أن بعض المدن المغربية قد عادت إلى أيدي المسلمين، فيسارع بترجمة تلك الفرحة والسرور بأبيات شعرية، ويبادر بإرسال الكتب والرسائل بالبشارة.[٤]

وفي رحلته ظهر الرافعي دقيق الملاحظة والوصف حين وصف بناء

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص٤٢ - ٤٥.
(٣) المصدر السابق، ص٨٩ - ٩١.
(٤) المصدر السابق، ص٩٥.

الكعبة المشرفة، والمسجدين المكي والمدني وصفًا تفصيليًا متتابعًا لم يهمل الجزئيات مع محاولته إبداء وجهة نظره[١]. وسجل لنا الرافعي وصف كسوة الكعبة المشرفة التي استرعت انتباهه[٢] فحفظ لنا بذلك شكلها في تلك المدة.

وفي أثناء تدوينه لرحلته أرخ لاسترداد مدينة المعمورة في ضحوة الأربعاء الحادي عشر من ربيع الأول عام ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م.[٣]

وكان الرافعي حريصًا على زيارة أشهر الأماكن والوقوف عليها، وأجاد وصفها بشكل دقيق.[٤]

ويبدو الرافعي الأب الشفيق الشديد الخوف على ابنه الذي افترق عنه أثناء تبديل السفن في طريقه من الجزائر إلى مصر[٥]، فقد خرج معه في رحلته للحج ابنان، أحدهما يدعى أحمد وهو الذي افترق عنه، والثاني يسمى محمدًا[٦]. فنراه يتنقل من مكان لآخر متحسسًا أخبار ابنه، لا سيما في الأماكن التي كان يرجو فيها سماع خبر عنه، وهو في كل حاله حسن الظن بالله تعالى، وأنه سيعيده إليه سالمًا.[٧]

وكانت شخصية الرافعي معتدلة، فقد كان قليل الغضب، لأنه وصل لسن خَبِرَ فيها أخلاق الناس، حيث صادف من الناس من يبجله ويجله لعلمه

(١) المصدر السابق، ص١٩٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٠١.
(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص٩٥ - ٩٧؛ وانظر أخبار استردادها في القادري: نشر المثاني، ج٢، ص٣٠١.
(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص٧٤ - ٧٥.
(٥) المصدر السابق، ص٤٧.
(٦) المصدر السابق، ص١٠٨.
(٧) المصدر السابق، ص٧٩ - ٨٠.

ومكانته، معترفًا بفضله، ومنهم المستهزئ به وبشخصه على عادة الجهال الذين لا يعرفون أقدار العلماء، فهو في هذه المواقف لا يثور لنفسه، بل يمضي في طريقه غير مكترث بهم ولا غاضب.[١]

حياته الاجتماعية:

عندما قدم الرافعي للحج كان يبلغ من العمر (٥٦) عامًا[٢]، وقد توفيت زوجته منذ سنين، وأنجب منها العديد من البنين والبنات، منهم ولداه أحمد ومحمد اللذان صحباه في رحلته، وكان وفيًا لذكراها ويدعو لها بالمغفرة والرحمة[٣]. ولا نعرف غير هذا القدر عن حياته الاجتماعية.

رحلته:

ألف الرافعي رحلته التي سماها «المعارج المرقية في الرحلة المشرقية»[٤] عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٥٨م[٥]، فقد كان خروجه من تطوان يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى وفرغ من تأليفها في شهر رمضان عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٩م[٦]. وقد خالف الرافعي الرحالة المغاربة في سلوك طريق الحج البري إلى مصر حيث ركب البحر من الجزائر إلى مصر[٧]، وعانى من القرصنة المنتشرة وقتئذ في البحر الأبيض المتوسط[٨] فاضطر إلى فراق أحد ولديه أثناء تبديل السفن في

(١) المصدر السابق، ص٩٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٥٥.
(٣) المصدر السابق، ص١٥٤.
(٤) المصدر السابق، ص١٢.
(٥) المصدر السابق، ص١٥٥، ١٣.
(٦) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج٢، ص٣٦٦.
(٧) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤.
(٨) المصدر السابق، ص٣٦ - ٣٧.

أحد الموانئ بالبحر الأبيض المتوسط لكي توصلهم إلى مصر[١]، وقد عانى من فراق ابنه قلقًا كثيرًا، ورعبًا، وخوفًا عليه إلى أن عاد والتقاه مجددًا بعد مدة من الزمن.[٢]

حياته العلمية:

تلقى الرافعي علمه في موطنه بالمغرب، فأخذ عن علماء عصره، وقد طلب أحد الطلبة منه في مصر أن يخبره بروايتين في القراءة، سمع أنهما وصلتا إلى المغرب، فرغب في أن يتعلمهما ويتلقاهما من الرافعي، فأخبره بهما.[٣]

ويبدو حرصه على حضور كل حلقات العلم والدرس[٤]، وتفتيشه الدقيق في خزائن الكتب الخاصة والعامة.[٥]

وكان متأدبًا مع علماء عصره الذين أخذ عنهم، فنعتهم بالأوصاف اللائقة بهم، مادحًا إياهم، كائلًا لهم الثناء العطر، محليًا لهم بالأوصاف الجزيلة الكثيرة الدالة على فضلهم ومكانتهم العلمية.

وفي تسجيل الرافعي لرحلته يظهر التحقيق والتدقيق حيث كان لا يقنع بما يراه في البلاد التي مرّ بها، بل حرص على التقصي والتحري الشديد بالسؤال عن أحوالها من أفواه أكابر القوم وعليتهم العارفين بشؤونها[٦]. كما كان ينقل عن الرحالة السابقين عليه[٧] كعادة الرحالة المغاربة في الإفادة من كتب سابقيهم.

---

(١) المصدر السابق، ص٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص٨٥.

(٤) المصدر السابق، ص٥٧.

(٥) المصدر السابق، ص٦٦.

(٦) المصدر السابق، ص٩١.

(٧) المصدر السابق، ص١١٧، ١٥٧، ٢١٩، على سبيل المثال.

مشايخه:

تكرر في رحلته ذكر عددٍ من مشايخه، من أشهرهم أحمد بن ناصر[١]، وعلي بركة[٢] الذي كانت صلة الرافعي به قوية[٣]، إذ كان يرسل إليه الرسائل أثناء رحلته[٤]، ومحمد بن قريش.[٥]

القيمة العلمية لرحلة الرافعي:

تعد رحلة الرافعي من الرحلات المغربية القيمة لما حوته من معلومات تاريخية على جانب عظيم من الأهمية، ومعلومات جغرافية واقتصادية واجتماعية وسياسية وعلمية، سواء بسرد أسماء علماء أفاضل التقاهم وترجم لهم، أم أسماء كتب علمية اطلع عليها.

فرحلة الرافعي تضمنت مادة غنية، كتبت بأسلوب سلس واضح، فهي من الرحلات التي لا يستغنى عنها عند التأريخ للحجاز في القرن الحادي عشر الهجري، إذ لا شك أن الرافعي قد تمتع بحاسة مكنته من التقاط كل ما شاهده وسمعه، ومن ثَمَّ سجله بأوضح صورة، معتمدًا في ذلك على أسس كتابة

---

(١) انظر ترجمته فيما بعد، ص٧٦؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٠٤ - ١٠٥.

(٢) الشيخ الصالح العالم أبو الحسن علي بن محمد الأندلسي التطاوني، الملقب بركة. أخذ العلم في فاس عن علمائها، وتصدر للتدريس في تطوان، توفي عام ١١١٩هـ/ ١٧٠٧م. انظر: القادري: التقاط الدرر، ص٣٠١ - ٣٠٢، ترجمة ٤٥٥.

(٣) حسن الوراكلي: أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل القرن الحادي عشر الهجري، ص٢ - ٤، بحث ألقي في ندوة مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب، في جامعة تطوان، عام ١٩٩٤م.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص٢٨ - ٢٩، ٩٨.

(٥) المصدر السابق، ص٢٣٩. الفقيه القاضي أبو عبدالله محمد ابن العلامة سيدي محمد بن قريش التطواني، توفي عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م. انظر: القادري: التقاط الدرر، ص٢٤٢، ترجمة رقم ٥٧٤؛ حسن الوراكلي: أصداء من حياة تطوان، ص٤ - ٥.

الرحلات المغربية التي منها التأريخ لبداية الخروج، ووصف المناهل والمنازل، وأحوال العباد، وتسجيل الحوادث المستجدة في أوانها، والترجمة للعلماء. وغير ذلك.

مؤلفاته:

ترك من آثاره التي لا تزال مخطوطة إلى الآن رحلته «المعارج المرقية في الرحلة المشرقية»، و«ديوان شعر»، و«مجموعة رسائل»، و«كتاب في الأدعية».[1]

وصف مخطوطة الرحلة:

مكتوبة على الآلة الكاتبة وتقع في (٢٨٩) صفحة.

أبو العباس أحمد بن عبدالقادر القادري
(١٠٥٠-١١٣٣هـ/ ١٦٤٠-١٧٢٠م)

نسبه وولادته:

أبو العباس أحمد بن عبدالقادر القادري الحسني[2]، حُلي بأوصاف تدل على علو مكانته، منها: «الفقيه الوجيه، الأعز، الخيِّر، الديِّن، الحاج، الأبر، الأديب، الناظم، الناثر، ذو الأخلاق والمآثر، أبو الفضل وأبو العباس»[3]، ومنها: «العلامة، الشيخ الصالح، النسابة الفهامة».[4]

(١) حسن الوراكلي: رحلات تطوانية إلى البلد الأمين، ص٣٩، مجلة البلد الأمين، السنة ٢، العدد ٣، ذو الحجة ١٤١٦هـ/ مايو ١٩٩٦م؛ حسن الوراكلي: أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل القرن الحادي عشر الهجري، ص١.

(٢) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج٢، ص٣٦٨.

(٣) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص٣٣٣، ترجمة رقم =

عُرف بيت القادري بالعلم والفقه، فوالده عبدالقادر بن علي بن محمد القادري الحسني اشتهر بالعلم والفقه[(١)]، وقد تعهد ابنه منذ ولادته عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م بالعلم والمعرفة.[(٢)]

حياته العلمية:

تلقى القادري علمه على يد جمع غفير من أكابر علماء عصره وأعلامهم من المغاربة أو المشارقة. فمن المغاربة الحسن اليوسي[(٣)]، وعبدالقادر الفاسي[(٤)]، وأحمد بن عبدالله بن معن.[(٥)] ومن المشارقة علي الأجهوري[(٦)]، وعبدالباقي الزرقاني[(٧)] ومحمد الحرشي[(٨)] وغيرهم.[(٩)]

= ١٣٠٦، دار الفكر، د.ت، د.م.

(١) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٤٨.

(٢) المصدر السابق والجزء، ص٢٥١؛ مخلوف: شجرة النور الزكية، ص٣٣٣.

(٣) سبقت الترجمة له ص٤٦ هامش (٢)

(٤) سبقت الترجمة له ص٥٤ هامش (٢)

(٥) أبو العباس أحمد بن محمد أبي النصائح بن عبدالله بن معن الأندلسي الأصل، توفي ثالث جمادى الآخرة عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م. انظر: القادري: نشر المثاني، ج٣، ص١٨٢ - ١٩٢.

(٦) سبقت الترجمة له ص٥٥ هامش (٣)

(٧) أبو محمد عبدالباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني تفقه على علماء عصره، وأجازوا له مؤلفات كثيرة منها «شرح على المختصر»، ولد في مصر سنة ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م. وتوفي في رمضان سنة ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م. انظر: مخلوف: شجرة النور، ص٣٠٤ - ٣٠٥، ترجمة رقم ١١٧٧.

(٨) أبو عبدالله محمد ابن الشيخ عبدالله الحرشي المالكي الأزهري، وصف بكبير فقهاء عصره، صاحب الشرح الكبير والصغير على مختصر خليل. كانت بينه وبين السلطان إسماعيل ابن الشريف الحسين سلطان المغرب مودة ومكاتبات. توفي عام ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م. أنظر: القادري: نشر المثاني ج٣، ص١٨ - ٢٣.

(٩) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٥٠؛ مخلوف: شجرة النور، ص٣٣٣.

رحل القادري في بدء طلبه للعلم إلى الزاوية الدلائية، ومكث فيها مدة من الزمن، أخذ فيها العلم على مشايخ هذه الزاوية، وتأثر بهم حتى في طريقة نظمه للشعر، تعلم منها فنون الفروسية والقتال وأتقنها.[١]

فكانت هذه الزاوية بمثابة كلية عسكرية في المغرب الأقصى، تُعِدُّ العلماء والمجاهدين الماهرين في فنون القتال لمواجهة حملات الأسبان والبرتغاليين الصليبية المتكررة، ولمواجهة القرصنة البحرية التي كانت سائدة آنذاك ضد مدن المغرب الساحلية.

حياته الاجتماعية:

تزوج القادري ثماني نساء، لم يطلق أيًا منهن، بل كان كلما توفيت زوجة تزوج مكانها، وقد خلف من الأولاد ثمانية عشر توفي منهم ستة عشر ولدًا في حياته وولدان بعد مماته، أما الإناث فخلف منهن نحو العشر.[٢]

امتهن القادري التجارة، ثم ترك الاشتغال بها بعد حجته الأولى عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م، إذ غيرت هذه الحجة مجرى حياته؛ لأنه بعد عودته من تلك الحجة ترك كل ما يتصل بالدنيا من أسباب، واتجه بعزم للعبادة، من صيام وقيام وتلاوة للقرآن الكريم، والأذكار، إلى جانب الجهاد في سبيل الله، حيث كان أحد المتطوعين للجهاد في سائر ثغور المغرب، والمعروفين بالشجاعة والفروسية وإتقان الرمي وفنون القتال، مبليًا في ذلك كله البلاء الحسن.

وقد لزم القادري زاوية شيخه محمد بن عبدالله بن معن، حيث كان يكثر من مطالعة الكتب. وعندما عزم على الحج للمرة الثانية عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م كان بصحبته شيخه أبو العباس محمد بن عبدالله، ولشدة تعلقه وحبه له ألف

(١) القادري: نشر المثاني، ص٢٤٨، ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) المصدر السابق والجزء، ص٢٤٨ - ٢٤٩.

رحلة في حجته هذه وأسماها «نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس».[١]

وهذه الرحلة أظهرت بوضوح مدى تعلق القادري بشيخه أبي العباس، وامتثاله لأوامره، فمن شدة حرصه على طاعته في كل ما يأمره به ما حُكي من أن الشيخ أبا العباس طلب من القادري استدعاء شخص له، فلما ذهب إلى منزله وجده قد رحل إلى مكناسة[٢]، فسافر خلفه ليحضره إليه في فاس.[٣]

القيمة العلمية للرحلة:

اقتبس القادري طريقة شيوخ الزاوية الدلائية، فكان أسلوبه في رحلته أسلوب الأديب الناظم، الشاعر[٤].

وفي رحلته رصد ما كان يفعله شيخه أبو العباس في حجه[٥]. ولكن أثناء ذلك أورد كثيرًا من المعلومات المهمة عن أحوال الحجاز في ختام القرن الحادي عشر، كما أورد العديد من أسماء علماء تلك المرحلة، وخاصة من رافقهم في رحلة الحج ذلك العام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م كالحسن اليوسي.[٦]

---

(١) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٥٠ - ٢٥١؛ مخلوف: شجرة النور، ص٣٣٣.

(٢) «مكناسة» مدينة مغربية، عبارة عن مدينتين على ثنية بيضاء، اختط إحداهما أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، والأخرى قديمة جعلها المولى إسماعيل عاصمة مملكته ومركزًا لدعم سياسته، والمدينة عبارة عن قلعة وأسوار مزدوجة، فيها ممرات مع قصور حول باحات ورياض غناء وأروقة ومتنزهات ومخازن للمؤن والعدد، وإصطبلات للخيل، وحول الجميع ساحات الكدال لرعي القطعان الملكية واستعراض الجيش، وصهريج ماء واسع. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٨١؛ بنعبدالله: الموسوعة المغربية، ملحق ٢، ص٣٥٢ - ٣٥٣.

(٣) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٥١.

(٤) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٥٠ - ٢٥١؛ مخلوف: شجرة النور، ص٣٣٣.

(٥) المصدر السابق، ص١.

(٦) سبقت ترجمته ص٤٦ هامش (٢).

ومن المعلومات التاريخية المهمة في رحلته تأريخه لسنة استرداد مدينة العرائش عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م من الأسبان وكيفية ذلك[١]. بالإضافة إلى إثبات حج أحد أبناء المولى إسماعيل[٢] وسماه المعتصم[٣] في سنة حجه[٤]. وغيرها من المعلومات.

وقد بدأ رحلته بخطبة البداية، والحث على أداء فريضة الحج كعادة الرحالة المغاربة في تقييدهم لرحلاتهم، وكان قد تغيب عن فاس نحو ستة أشهر وأحد عشر يومًا إذ كان خروجه من فاس يوم الجمعة الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م، وعاد إليها يوم الجمعة السادس من شهر ذي القعدة عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م.[٥]

مؤلفاته:

١ - رحلته: نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس.

٢ - نظمُ رجزٍ فيمن هاجر إلى الحبشة من الصحابة.

---

(١) القادري: نسمة الآس، ص٢١ - ٢٢.

(٢) السلطان إسماعيل ابن الشريف الحسني، أُسبغ عليه الثناء الجزيل لما حواه من الصفات الجميلة. قام بالعديد من الأعمال الجليلة، واستعاد في عهده المدن المغربية التي كانت في يد الأسبان. توفي ثاني يوم من شهر جمادى الأولى عام ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م. انظر: القادري: التقاط الدرر، ص٣٣٣ - ٣٣٨، ترجمة رقم ٤٩٤؛ ابن زيدان: المنزع اللطيف، فهو يشمل سيرته.

(٣) ذكر ابن زيدان أن اسمه عبدالحفيظ ولا تعرف السنة التي توجه فيها إلى الحجاز، ولا يعرف أكثر من هذا، وقد حج مع الحسن اليوسي. انظر: ابن زيدان: المنزع اللطيف، ص٨٢، ١٦٥.

(٤) القادري: نسمة الآس، ص٤٥ - ٤٦.

(٥) المصدر السابق، ص٣، ٦، ٧٣ - ٧٤.

٣ - نظم في المساجد التي صلى فيها رسول الله ﷺ.[١]

وفاته:

توفي يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى عام ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م.[٢]

وصف مخطوطة الرحلة:

توجد نسخة مصورة لها في مكتبة الملك فهد الوطنية تحت رقم (٢٥٦٦٧٢)، وهي مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة أحيانًا، وتقع في (١٣٤) صفحة.

أبو عبدالله محمد بن أبي علي اليوسي
(٠٠٠-١١٠٧هـ/ ٠٠٠-١٦٩٥م)

نسبه ومولده:

أبو عبدالله محمد بن أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي[٣]، نسبة إلى بني يوسي القبيلة البربرية الملوية، أصل الكلمة اليوسفي نسبة إلى جدهم يوسف، إلا أن أهل تلك النواحي يسقطون الفاء في لغتهم[٤]، ولا تعرف سنة مولده حيث لم تذكرها المصادر التي بين أيدينا.

حياته العلمية:

تلقى محمد اليوسي تعليمه على يد والده الحسن، وتبع طريقته[٥]، فقد

---

(١) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٥١.

(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة؛ مخلوف: شجرة النور، ص٣٣٣.

(٣) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٧٤.

(٤) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٠٦.

(٥) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٧٤؛ القادري: التقاط الدرر، ص٢٦٩.

كان والده يعتمد عليه كثيرًا في قضاء أموره[١]، ولم يصل إلى درجة والده في العلم ولكنه عُد من جملة الفقهاء الموصوفين بالصلاح والمشهورين بالخير؛ إذ وصف بأنه من الفضلاء النبهاء.[٢]

ولا شك أنه أخذ على علماء عصره وإن لم تذكر المصادر ذلك. فرحالتنا ذو حظ قليل في كتب التراجم، ولكن ما ذكر كان كافيًا على الرغم من قلته لتوضيح وضعه ومكانته العلمية؛ لأن كل من جاء على ذكره حلَّاه بالفقيه الوجيه... المشهور بالخير والصلاح.[٣]

حياته الاجتماعية:

كان اليوسي شاعرًا يقرض الشعر، فمن ذلك قوله:[٤]

اعــذر أخــاك إذا رأيــت زنــاده
من دون ما ترضي فهن صلود
عقل الـعـقـول إذا تطن ذبابه
وعـلـى أخـيـك أسـاود وأسـود

ورحلته تدل على شاعريته وأدبه وعلمه، أظهرت اسمه وميّز بها عن باقي أبناء الحسن.

ومع أن بعضهم يظن أن الرحلة ليست من تأليفه، بل من تأليف والده الحسن حيث حجّا معًا، فإن ذلك الظن ليس له ما يُسوِّغه[٥]؛ إذ إن نمط الرحلة

(١) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٤٥ - ٤٦.
(٢) المصدر السابق والجزء، ص٧٤.
(٣) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٧٤؛ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٦، ص٥.
(٤) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٧٤.
(٥) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج٢، ص٣٤٤.

لا يدل على أنها مجموعة، بل تدل على انفراد مؤلفها بتدوينها، وكتابة مادتها التي بنيت على معلومات شاهدها وسمعها وقرأها بنفسه، وكل ذلك دل على شخصية كاتبها وتفرده، وإتيانه على ذكر أبيه وما فعله في بعض المواقف أثناء حجهما يؤكد نسبتها إليه. فحال محمد اليوسي في تأليف رحلته كحال القادري في تأليفه لرحلته. فالقادري ألف رحلته لرصد تحركات شيخه أبي العباس وأفعاله، واليوسي ألف رحلته ورصد فيها أفعال أبيه وأقواله، وهذا نمط في كتابة الرحلات المغربية لم نعهده سابقًا، ولم يبرز من قبل في الرحلات المغربية السابقة.

ولم نجد في رحلته أثرًا لأخذ اليوسي عن علماء المشرق، مخالفًا عادة الرحالة المغاربة من حيث حرصهم على التلقي عن علماء المشرق، وقد أبدى الكتاني تعجبه من الحسن اليوسي والد المؤلف الذي لم يحفل بالتلقي عن علماء المشرق في رحلته للحج عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م التي صاحبه فيها ابنه محمد مؤلف الرحلة، وعلل ذلك بقوله: «ولعل اليوسي وولده ما عرفا إلا من أتى إليهما، فلم يقصدا أحدًا، لذلك عميت عنهما مقامات رجال ذلك الدور»[1]. وأضاف في موضع آخر: «ولعله لم يجد من يملأ عينه هناك»[2]، وسوَّغ بعضهم فعله هذا فقال: «إذ لم يجد ما كان الناس يتحدثون عنه حيث يُضخِّمون ذكرياتهم عن علمائه»[3].

ولعل اليوسي كان معتزًا بنفسه وعلمه، فكان لا يرى من يوازيه أو حتى يقارب علمه، فكيف بوجود من هو أعلى مكانة منه؟! لذا لم يكلف نفسه عناء الأخذ والبحث عن علماء المشرق. ولعل ذلك انعكس على ابنه محمد مؤلف

(١) الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص١١٥٦.
(٢) المصدر السابق والجزء، ص١١٥٧.
(٣) الجراري: عبقرية اليوسي، ص٤٢.

الرحلة الذي نَهَجَ نَهْج أبيه الذي قيل فيه: «كان آخر العلماء، بل خاتمة الفحول من الرجال»، وقيل: «هو المجدد على رأس هذه المئة، لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار إمام وقته، وعابد زمانه، ولذلك قال الإمام أبو سالم العياشي فيه:

من فاته الحسن البصري يصحبه

فليصحب الحسن اليوسي يكفيه»[١]

وقد أسهب كل من تناول شخصية اليوسي وحياته بالحديث عنه، وقيل: إن هناك عوامل أثرت في طبعه وتكوين شخصيته[٢]. ولعل هذا كله ورثه عنه ابنه مؤلف الرحلة وأثر فيه. فالحسن اليوسي كان من العلماء القلائل والمتصدرين لوعظ سلطان المغرب إسماعيل ونصحه.[٣]

مؤلفاته:

لا يعرف له مؤلف إلا رحلته الحجازية التي رحلها بصحبة والده الحسن عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م.[٤]

القيمة العلمية للرحلة:

رحلة اليوسي من الرحلات المغربية المهمة التي زخرت بالعديد من المعلومات عن الحجاز في نهاية القرن الحادي عشر الهجري، من جميع النواحي، وإن أغفل الناحية العلمية، ولكنه سار على ما سار عليه غيره من الرحالة المغاربة من نمط رصدهم وتأريخهم لرحلاتهم من حيث البدء في التأريخ لبداية

---

(١) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٠٨ - ٢٠٩.
(٢) عباس الجراري: عبقرية اليوسي، ص٤٧ - ٤٩.
(٣) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٣١ - ٣٨.
(٤) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٦٩/ ب.

الرحلة ونهايتها، وعند الوصول إلى كل منزلٍ، كما شملت رحلته الإشارة إلى الناحية الاقتصادية في الحجاز وسائر المناطق التي مر عليها.

ومما يؤخذ عليه نقده اللاذع الذي لم يسلم منه شيء، إضافة إلى إغفاله ذكر العلماء الأعلام الذين التقاهم أثناء رحلته كالقادري وشيخه أبي العباس على الرغم من أن القادري سجل اللقاء به وبوالده مع شيخه في طرابلس الغرب.[١]

والرحلة مع هفواتها تعد حلقة أخرى من حلقات الرحلات المغربية التي أرخت للحجاز، وما أورده اليوسي من آراء وما أصدره من أحكام إنما يرجع إلى رأيه الشخصي. وفيما عدا ذلك فقد كتب رحلته بأسلوب سهل سلس لا يخلو من السجع، ولا يخلو من العناية برصد النواحي الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والعمرانية وغيرها من النواحي التي لا بد من مقارنتها للخروج بالنتائج الصحيحة.

وفاته:

توفي محمد اليوسي في السابع والعشرين من رجب عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م.[٢]

وصف مخطوطة الرحلة:

موجودة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (١٤١٨)، وهي مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة في أماكن عديدة، وتقع في (١٠٥) ورقات، وبمعدل (٢٥ – ٢٦) سطرًا في الصفحة.

---

(١) القادري: نسمة الآس، ص٤٤.

(٢) القادري: التقاط الدرر، ص٢٦٩، ترجمة رقم ٤٠٥.

أبو العباس أحمد بن أبي عبدالله بن ناصر الدرعي
(١٠٥٧-١١٢٨هـ/١٦٤٧-١٧١٥م)

نسبه وولادته:

هو أبو العباس أحمد بن أبي عبدالله محمد بن أحمد بن محمد الحسين ابن ناصر بن عمر الدرعي الأغلاني[(١)]، ولد منتصف ليلة الخميس الثامن عشر من رمضان عام ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م.[(٢)]

صفاته وحياته الاجتماعية:

كِيلَ الثناء والمديح للدرعي من قِبَل كل من تناول ذكره، فمما قيل فيه: الشيخ الصالح الناصح[(٣)]، والعالم الشهير، والولي الصالح، النحوي، اللغوي، المؤرخ[(٤)]، الإمام الكبير[(٥)]، العمدة الكامل، العامل، القدوة، الفاضل، صاحب الكرامات الكثيرة والمناقب الشهيرة[(٦)]، والعارف السني، الحجة المحدث[(٧)]، والإمام الأوحد.[(٨)]

وما قيل في حقه إنما يدل دلالة واضحة على عظم مكانته وارتفاع شأنه الاجتماعي، وعلو قدره العلمي.

---

(١) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢١؛ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧، ترجمة رقم ٢٥٤.
(٢) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧.
(٣) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢١.
(٤) القادري: التقاط الدرر، ص٣١٣.
(٥) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤.
(٦) مخلوف: شجرة النور، ص٣٣٢، ترجمة رقم ١٣٠١.
(٧) الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٦٧٧.
(٨) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧، ترجمة رقم ٢٥٤.

ومما قيل فيه: كان الدرعي «إمام وقته علمًا وعملًا، قوالًا بالحق، شديد الشكيمة على أهل البدع، لا تأخذه في الله لومة لائم، متعاونًا، مقبلًا على ما يعنيه، متبعًا للسنة في أقواله وأفعاله، حريصًا على إحياء السنن واجتناب البدع».[١]

تزوج زوجتين[٢]، ولكنه توفي ولم يترك عقبًا بعده[٣]. وكان رأسَ أسرته المكونة من إخوته وأبنائهم الذين كانوا فيما يبدو منقادين له[٤]، إضافة إلى أن الدرعي نَعِمَ ببحبوحة من العيش، دل عليها كثرة ما أنفقه في رحلته الأخيرة[٥]، وشراؤه نوادر الكتب الغالية الثمن.[٦]

حياته العلمية:

عرف عن الدرعي أنه من العلماء الموسوعيين، فهو «النحوي واللغوي والمؤرخ الذي يقيد الشوارد ويحفظ الفوائد».[٧]

أقبل الدرعي على العلم منذ نعومة أظفاره، فختم صحيح البخاري في السابعة من عمره[٨]، وانصرف لمطالعة الكتب ولا سيما كتب الحديث.

ويحكى أنه قسم وقته لمختلف أنواع الطاعات، من تلاوة ومطالعة، وتقييد ونوافل، علاوة على حفظه للسانه، مستعملًا الجد في جميع أموره. وكان

---

(١) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢١؛ القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤.
(٢) أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩، الطبعة الحجرية.
(٣) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٨.
(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩.
(٥) المصدر السابق، ج١، ص١٨٩، ج٢، ص٨، ١٠٦ على سبيل المثال.
(٦) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢١؛ القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤؛ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧.
(٧) القادري: التقاط الدرر، ص٣١٣؛ القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤.
(٨) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧.

له اعتناء خاص بشراء الكتب واقتناء النادر منها مهما ارتفع ثمنه، فهو الذي أثرى زاويته بنوادر الكتب التي سعى لجلبها من المغرب وممّا أحضره معه من المشرق.(١)

وقد أخذ الدرعي العلم عن جمع غفير من علماء وقته فأخذ فنون القراءة وعلم الرسم وعلم التوقيت والفرائض(٢)، وكان أول من تتلمذ على يدي والده الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن ناصر الدرعي، حيث تلقى عنه التفسير والحديث والعربية وأصول الدين وغير ذلك. وما تلقاه عن أبيه لا شك أنه أهَّله لأن يكون الخليفة بعده في علمه ومكانته.(٣) ومن أهم شيوخه أيضًا أبو سالم العياشي الذي سمع منه وأجازه.(٤)

وعلى العموم فشيوخه كثيرون، وكذلك تلاميذه، ولقد بولغ في نسبة الكرامات والخوارق إليه(٥). وقد هرع الناس لأخذ العلم عنه وضربت له أكباد الإبل وتزاحمت على بابه الركبان، ولما وصل إلى المدينة المنورة في رحلته للحج تصدر للتدريس في المسجد النبوي(٦)، وأسند إليه قراءة القرآن الكريم

(١) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢١؛ القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤؛ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٦٧٧ - ٦٧٩.

(٢) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢١ - ٢٢٢؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٦٧٩.

(٣) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢١؛ القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤؛ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٦٧٩.

(٤) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢١؛ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧؛ مخلوف: شجرة النور، ص٣٣٢؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٦٧٩.

(٥) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤.

(٦) المصدر السابق والصفحة نفسها.

والحديث[١]، وبادر شعراؤها إلى مدحه.[٢]

وقد اعتذر الدرعي في رحلته الرابعة للمشرق لأداء فريضة الحج عن تقصيره في تتبع العلماء، مرجعًا ذلك إلى كبر سنة وقلة قوته وضعف بدنه وهمته.[٣]

مؤلفاته:

ترك الدرعي العديد من المؤلفات نذكر أشهرها:

١ - كتاب الأجوبة.

٢ - تأليف في الصلاة على النبي ﷺ يقرُب من كتاب دلائل الخيرات.[٤]

٣ - رحلته إلى الحجاز التي تهمنا في هذا الكتاب.

القيمة العلمية للرحلة:

أنشأ الدرعي رحلته الرابعة هذه إلى الحجاز عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م فمزج فيها ما رآه في رحلاته السابقة عند حديثه عن المدن والحوادث، تلك التي رَحَلَها ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م مع والده، وكذلك التي قام بها عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م، وكذلك التي رَحَلَها سنة ١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م[٥]، فضمت أخبار رحلته فوائد

---

(١) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٧ - ٣٥٩.

(٢) المصدر السابق والجزء، ص٣٥٨.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦.

(٤) القادري: التقاط الدرر، ص٣١٣؛ القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٤؛ مخلوف: شجرة النور، ص٣٣٢، دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار لأبي عبدالله محمد بن سليمان ابن أبي بكر الجزولي المتوفى عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م. انظر: عبدالله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، ص٧٥٩ - ٧٦٠، بيروت - لبنان، دار العلوم الحديثة، د.ت.

(٥) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٥٨.

علمية كثيرة، ولخص فيها كثيرًا مما ورد في رحلة العياشي.

وكان مصاحبًا لأحمد بن محمد الهشتوكي[١] في حجته عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م الأمر الذي لم يلحظه الأستاذ حمد الجاسر حين عرض رحلة الهشتوكي[٢]، ورحلة الدرعي في مجلة العرب[٣]. لذا رأينا من واجبنا التنبيه إلى ذلك، لا سيما وأن الأستاذ حمد ذكر أن كاتب الرحلة كان مرافقًا لشيخ لم يذكر عنه شيئًا.[٤]

ويمكن الإفادة من الرحلة من جوانب متعددة، إذ وجد فيها كثير من المعلومات التاريخية القديمة، وتلك الأحداث التي عاصرها كضرب الأسبان وحصارهم لطرابلس الغرب عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م[٥]. وهناك فوائد علمية أخرى يمكن استقاؤها كالتراجم لمشاهير العلماء، واستخراج القصائد الشعرية التي أبدعتها قريحة شعراء تلك المرحلة، علاوة على استنباط الأحكام الفقهية لمسائل مستحدثة وآراء الفقهاء فيها كمسألة شرب الدخان[٦] والقهوة وبداية

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن داود بن يعزى بن يوسف المعروف بأحوزي الجزولي نسبًا الهشتوكي شهرة، قام برحلتين إلى الحجاز؛ الأولى عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م وألف فيها رحلته التي سماها هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام. انظر: ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب، ج٢، ص٣٧٠.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤، ١٧، ٦٧ - ٦٨.

(٣) حمد الجاسر: في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج، ص٤٨ - ٦١، مجلة العرب، ج١ - ٢، س١٣ رجب وشعبان ١٣٩٨هـ - تموز/ آب - يوليو/ أغسطس ١٩٧٨م.

(٤) حمد الجاسر: في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج، ص٤١٩ - ٤٧٢، مجلة العرب، ج٥ - ٦، س١٢ ذو القعدة والحجة ١٣٩٧هـ/ تشرين الثاني (نوفمبر/ ديسمبر ١٩٧٧م).

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٦٥.

(٦) المصدر السابق، ج٢، ص١٤٨ - ١٥٠.

تاريخ خروج البن من اليمن وانتشاره وما وصل إليه من ثمن[١]، إضافة إلى المعلومات الجغرافية والعمرانية والاجتماعية وغيرها.

لذلك حوت رحلة الدرعي معلومات غزيرة يعود تاريخها إلى الربع الأول من القرن الثاني عشر الهجري، كما انتهج الأسلوب القصصي في رحلته المحتوية على الإثارة والتفخيم والمبالغة أحيانًا[٢]. وهو فن برع فيه الرحالة المغاربة خاصة. ومن رحلة الدرعي أيضًا عرفنا أن مواكب الحج كانت أشبه بالمدارس المتنقلة بعلمائها ومكتبتها، وكان لهم الأثر الكبير في المناطق التي مروا بها، ومن ذلك ترك الكتب في الأماكن التي تحتاج إليها.[٣]

وفاته:

توفي الدرعي في الثالث والعشرين من ربيع الآخر عام ١١٢٨هـ/ ١٧١٥م[٤]، وقيل ١١٢٩هـ/ ١٧١٦م.[٥]

عبدالرحمن بن أبي القاسم الشاوي الغنامي
(كان حيًا عام ١١٤١هـ/١٧٢٨م)

نسبه:

عبدالرحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي.[٦]

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٣٤ - ١٣٧.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٤.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص٣٢.

(٤) الأفراني: صفوة من انتشر، ص٢٢٣.

(٥) القادري: نشر المثاني، ج٣، ص٢٣٥؛ القادري: التقاط الدرر، ص٣١٢؛ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٢، ص٣٦٠؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٦٧٧.

(٦) عبدالرحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي: رحلة القاصدين ورغبة الزائرين، =

ضنت المصادر المغربية التي في متناول أيدينا عن كشف النقاب عن شخصية الغنامي، وربما يكشف في القريب عنه، لذا سنحاول أن نستشف شخصية هذا الرحالة المغربي من الأثر الوحيد الذي بين أيدينا، وهو رحلته التي سماها «رحلة القاصدين ورغبة الزائرين»، والتي ألفها عندما قصد الحج عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م[١]. وهي رحلة قصيرة موجزة، تناول خلالها ما صادفه، من حيث الحديث عن منازل الحاج. واللافت للنظر أنه خص بعض حديثه عن النشاط العلمي المصاحب للوفد المغربي.[٢]

وعلى الرغم من صغر رحلة الغنامي فهي رحلة غنية بالمعلومات، ويبدأ على غير عادة الرحالة المغاربة بالتسجيل من لحظة عزمهم على الحج، فنجد الغنامي بدأ بالتسجيل من رابغ[٣]، ولذلك لم يبين مبدأ رحلته، والمراحل التي قطعها إلى أن وصل رابغ.

وصف مخطوطة الرحلة:

موجودة في المكتبة الملكية بالرباط تحت رقم (١٤٢٨)، مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة في أماكن عدة لوجود طمس فيها، وتقع في (٢٤) ورقة، وفي آخرها بتر.

= ص١، مخطوطة في المكتبة الملكية بالرباط، رقم ١٤٢٨.

(١) المصدر السابق، ص١.

(٢) المصدر السابق، ص٦، ٨.

(٣) «رابغ» مدينة ساحلية بين جُدة وينبع على بُعد (١٥٥) كم من جُدة شمالًا و(١٩٥) كم من ينبع جنوبًا وهي ميناء صالح لرسو السفن، وهي آخذة في التقدم والعمران، بالإضافة إلي أنها بلد زراعي. ورابغ وادٍ يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٤، ص٥ - ٦.

القيمة العلمية للرحلة:

هي رحلة إلى الحجاز ذات مستوى أدبي جيد، سجل فيها بعض نصوص شعرية، منها ما أنشده عندما شاهد الكعبة المشرفة، مسجلًا شوقه وانفعاله:

يا كعبة الحسـن كم من عاشـق قتلا
شـوقًا إليك ورام الوصـل ما وصلا
قد يتّمـت بعده الأولاد حين سـرى
وصـار يبكـي بدمـع فـاض منهملا
فكم غريـق في بحـار هواك غـدا[1]
وآخر ضل في البيداء منجدلا (كذا)
وأنـتـم معشر الــزوار قربكم
إلـى مقـام بـه المـن لمـن دخـلا
فـلا تخافـوا فأنتـم فـي ضيافتـه
فهـو الكريم الـذي بالجـود ما بخلا

كما سجل انفعاله عندما توجه إلى عرفات[2]، وأظهر سروره عندما وصل إلى المدينة المنورة[3]، واستشهد بالأحاديث النبوية عند ذكره الحج، وأدلى بخلفيته الفقهية عندما تحدث عن المناسك، علاوة على سرده لبعض النواحي التاريخية القديمة مثل حديثه عن الكعبة[4]. ونلحظ من بين سطور الرحلة شغفه بالبحث عن الكتب التي ينصح بدراستها.[5]

---

(١) هكذا ورد البيت غير مستقيم الوزن.
(٢) الغنامي: رحلة القاصدين، ص١، ٣.
(٣) المصدر السابق، ص٦.
(٤) المصدر السابق، ص١ - ٣.
(٥) المصدر السابق، ص٧.

والرحلة على الرغم من إيجازها فقد مثلت صنفًا من الرحلات المغربية إلى الحجاز التي احتفظت لنا بمعلومات عن حال النشاط العلمي في تلك المرحلة.

ولنا أن نذكر أن الرحالة الغنامي لم يحظ إلا بالقليل من الترجمة والذكر في بعض المراجع المغربية الحديثة.[١]

محمد بن أحمد الحضيكي
(١١١٨هـ/١٧٠٦م - ١١٨٩هـ/١٧٧٥م)

نسبه وولادته:

محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد الجزولي قبيلة، اللكوسي اليوسي الحضيكي شهرة، التارسواطي المنوزي الشاذلي طريقة[٢]. ولد عام ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م.[٣]

صفاته وحياته الاجتماعية:

الحضيكي رحالة جال المغرب والمشرق، وكاتب مَنْ لم يَلْقَ من العلماء، فأصبح مدار الإسناد، ووصف بأنه: «عديم النظير في زمانه ورعًا،

(١) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب، ج٢، ص٣٤٣؛ محمد المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، ج١، ص١٨٩ الرباط، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

(٢) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٦، ص٨١؛ عباس الجراري: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، ج٢، ص٣٧٥، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية من ٥ - ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧هـ/ ٢٣ - ٢٨ إبريل ١٩٧٧م، مطبوعات جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٣) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٦، ص٨٥.

ونزاهة، وعلمًا، ونباهة، له اليد الطولى في علم السير والحديث، وإليه المفزع في ذلك، وانفرد عن أهل زمانه بمعرفة تاريخ الملوك والسير والعلماء وطبقاتهم ومعرفة أيامهم بحيث لا يجارى في ذلك ولا يبارى، شديد الاتباع للسنة في سائر أحواله في لباسه وأكله، وفي أنواع العبادات والعادات، مثابرًا على التعليم، مكبًا على المطالعة، قائمًا على البخاري وغيره من كتب الحديث... آية من آيات الله في حفظ السير النبوية والتنقيب على أحوال الصحابة والسلف الصالح، يوشح مجلسه بذلك»[١]. كان مجلسه يعج بطلبة العلم الذين بادر بعضهم إلى التأليف في مناقبه ومآثره تأليفًا كثيرًا يدل على علو مكانته وذيوع شهرته ومحبتهم له.

ومما قيل في الحضيكي: أنه كان «متبعًا للسنة، أخذ في كل فن من فنون العلم بنصيب، وضرب له فيها بسهم مصيب، عارفًا بالسير والحديث وعلوم الحقائق والمعارف، جمع بين شرفي العلم والولاية، معرضًا عن الدنيا، وكان متجردًا من الأسباب لا يعرف كيف يدخل فيها ومع ذلك يطعم الواردين في داره، شديد الشكيمة على أهل البدع، متبحرًا محصلًا بلغ الدرجة العليا في علم اللغة، عارفًا بالتاريخ».[٢]

حياته العلمية:

أخذ الحضيكي العلم عن جل علماء عصره في المشرق والمغرب، فقد حفظ القرآن الكريم، ونبغ في الفقه والحديث والتفسير وعلم القراءات[٣]، علاوة على اشتغاله بالطب.[٤]

---

(١) الكتاني: فهرس الفهارس، ج١، ص٣٥١ - ٣٥٢.

(٢) المصدر السابق والجزء، ص٨٤.

(٣) المصدر السابق والجزء، ص٨٢ - ٨٥.

(٤) عباس الجراري: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، ج٢، ص٣٧٧.

مؤلفاته:

خلَّف الحضيكي العديد من المؤلفات القيمة الدالة على سعة علمه وتنوعه فمنها في الفقه والتصوف واللغة والطب ورحلته التي نحن بصددها.[(١)]

القيمة العلمية للرحلة:

اختار الحضيكي عنوانًا لرحلته هو: «رحلة إلى الحرمين الشريفين» تلك الرحلة التي رحلها عام ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م لأداء فريضة الحج، وجعلها شاهدًا على ما فعله، والعلماء الذين لقيهم، وحدّد مقصوده من تأليفها بقوله: إنه أراد بها «ذكر جماعة ممن لقيناهم من العلماء في الحضر والسفر، رجاء من الله تعالى عظيم البركة، وشمول الرحمة عند ذكرهم والانخراط في سلكهم، لوفور محبتي لهم، ولعظيم شوقي لذكرهم».[(٢)]

وقد التزم الحضيكي بما حدده لنفسه، حيث استهل رحلته على غير عادة الرحالة المغاربة بأن سرد فهرسة مشيخته، ومن ثم بدأ في رحلته وتقييدها.

والمتصفح لرحلة الحضيكي لا بد أن يلحظ تشوقه لزيارة الحرمين الشريفين ولأداء فريضة الحج، وحرصه على لقاء العلماء على عادة طلبة العلم في مسارعتهم للقاء العلماء وارتياد مجالسهم للدراسة على أيديهم وأخذ الإجازات العلمية. كما لا يخفى على المتصفح للرحلة عناية الحضيكي الفائقة بإعطاء المعلومات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية، ولا سيما فيما يخص أحوال الحجاز، إضافة إلى الموضوعات الفقهية مثل توضيحه

(١) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٦، ص٨٤؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج١، ص٣٥٢؛ عباس الجراري: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، ج٢، ص٣٧٧.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين الشريفين، ص١.

لمناسك الحج.

وعمومًا فرحلة الحضيكي مكتوبة بأسلوب سهل سلس، يلجأ إلى السجع في بعض الأحيان، وهو في كل كتاباته يوجه الخطاب لقارئ الرحلة بصيغ عدة مثل: أخي، اعلم، إياك، ولك....

كما ملئت بالأبيات والقصائد الشعرية كعادة الرحالة المغاربة، ولهذا كله نجد أن رحلة الحضيكي ذات قيمة علمية كبيرة، سواء من الناحية الأدبية أم الجغرافية أم الاجتماعية أم التاريخية أم العلمية أم السياسية أم الاقتصادية، فكل متخصص في هذه المجالات يجد بعض ما يهمه عند تصفحها.

وصف مخطوطة الرحلة:

موجودة في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم (٨٩٦) مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة، كما يوجد فيها طمس في أماكن عدة، وتقع في (٤٩) ورقة بمعدل (٣١) سطرًا في الصفحة.

وفاته:

توفي عشاء السبت التاسع عشر من رجب عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م.[1]

---

(١) السملالي: الإعلام بمن حل مراكش، ج٦، ص٨٥.

أبو مدين عبدالله بن الصغير الدرعي
(٠٠٠٠-١١٥٧هـ/ ٠٠٠٠-١٧٤٤هـ)

نسبه وولادته:

أبو مدين عبدالله بن أحمد بن الصغير الدرعي(١) السوسي(٢) الروداني الأصل(٣). لا تعرف سنة مولده، فقد أغفلت المصادر المغربية الحديث عنه، وكل ما نعرفه عنه هو ما استطعنا الخروج به من رحلته التي دونها عند قيامه بها عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م.

صفاته وحياته العلمية:

دلت نصوص رحلته على عالم جليل القدر، إذ وُصِف في بعض الإجازات التي نالها في مكة المكرمة: «بالشيخ الفاضل، المحدث الكامل»(٤)، وفي إجازة أخرى وصف بـ «من هو بالعلم موصوف والكمال معروف»(٥). ولم تخرج هذه الصفات عن أبي مدين، ففيما دونه ما يدلنا على المحدث، الفقيه، وطالب العلم الذي يسعى إليه بكل جهده، والباحث عن الكتب العلمية التي يملأ فراغ وقته بمطالعتها والاشتغال بها. وشخصٌ بهذه الصفات لا شك أنه إنما وصل إلى هذه المرتبة من العلم بأخذه على علماء عصره سواء في موطنه أو عندما وصل إلى الحجاز.

---

(١) أبو مدين عبدالله بن أحمد بن الصغير الدرعي: الرحلة الحجازية، ص٢٠، مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ق ٤٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٢؛ محمد المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص١٨٩.

(٣) محمد المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص١٨٩.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٢.

(٥) المصدر السابق، ص١٩٣.

حياته الاجتماعية:

لا نعرف كثيرًا عنه إلا ما أشار إليه في رحلته، ومنها: أنه كان يتعاطى مهنة التجارة[١]، وقد حج مع أخيه وكان رفيقه في سنة مجاورته[٢]. ويظهر أن أبا مدين من أهل سوس، إذ كان قلقًا من تأخر الركب السوسي خوفًا من أن يكون أصابه سوء، علاوة على تشوقه لمعرفة أخبار موطنه وأهله من هذا الركب.[٣]

القيمة العلمية للرحلة:

سجل أبو مدين أحداث رحلته التي أنشأها عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م ووقائعها، فحج في تلك السنة، وجاور السنة التالية، وحج فيها أيضًا، لذا فسفره للحج كان مرة واحدة[٤]، وفيها ألف رحلته التي دمج فيها مقتطفات من رحلتي العياشي والدرعي، وسار فيها على ما سار عليه العياشي والدرعي في طريقة التسجيل، ويختلف أبو مدين عنهما بأن قسَّم رحلته إلى مقدمة وثلاثة أبواب، وقسَّم الباب الأول إلى ثلاثة فصول، وقسم الباب الثاني إلى أربعة فصول، والباب الثالث إلى ثلاثة فصول.[٥]

واشتملت رحلة أبي مدين على وصف البلدان التي مرَّ عليها، ومشاهد الحرمين الشريفين، والترجمة لمن التقاهم من العلماء، حيث وصف المسجد النبوي وصفًا متقنًا، ونقل عن كتب كثيرة وأرخ لكل منزل وصل إليه، وناقش بعض المسائل الفقهية وإن كان في بعض الأحيان لم يكن محددًا لمصدر

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص١٩٧.

(٤) محمد المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص١٩٠.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٣ - ٢٤.

معلوماته، وعرَّف بالمواقع التي وصلها في وقته، وهو في كل ذلك لا يخلو أسلوبه وطريقة صياغته من الطريقة الأدبية التي تمتاز بالشعر والنثر. علاوة على أنه أَلْحَقَ نصوص إجازاته في رحلته بخط أصحابها.

ورحلته من الرحلات المفيدة، إذ ترقى لدرجة رحلة العياشي والدرعي، حيث يجد فيها الباحثون بعض ما يصبون إلى معرفته من أحوال مجتمع القرن الثاني عشر الهجري.

وفاته:

توفي أبو مدين بالطاعون بعد صلاة المغرب من ليلة الخميس الثالث عشر من جمادى الأولى عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م.[1]

وصف مخطوطة الرحلة:

موجودة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ق ٤٩٧) مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة، وتحتوي على (٣٩٩) صفحة، وتحتوي الصفحة على (٢٣) سطرًا غالبًا.

عبدالمجيد بن علي الزبادي المنالي
(٠٠٠٠-١١٦٣هـ/ ٠٠٠٠-١٧٥٠م)

نسبه ومولده:

عبدالمجيد بن علي بن محمد المؤذن، الملقب بالزبادي، ابن علي بن أحمد بن محمد المؤذن بن علي بن محمد بن إدريس بن قاسم بن محمد المنالي[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص٢ – ٣.

ناقش صاحب الرحلة بعض أسماء عائلته التي تسمت بها في أزمنة مختلفة، فمن أسمائهم «الحسيني»، و«الشريف المنالي»، أو «الشريف الحسيني المنالي» وهو الاسم الأغلب عليهم. وقال: إن سبب تسميتهم بـ «المنالي» نسبة إلى قرية من داخل السوس. ومن أسمائه أيضًا اسم «الدباغ»، وهذه نسبة إلى حِرْفة امتهنها أحد أجداده، ومن أسمائه كذلك اسم «المؤذن»، حيث إن أحد أجداده وهو محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن علي كان مؤذنًا في جامع القرويين، وخلفه في ذلك جده محمد بن علي، وخلفه عمه إدريس، وخلفه أخوه محمد. وذكر المنالي أن أجداده كانوا يؤذّنون في جامع القرويين قبل ولاية السعديين. وأضاف أن اسم «الزبادي» الذي أطلق عليه وعلى أفراد أسرته من قبله لا يَعْرف له أصلًا، ولا يعرف لماذا سُموا به، ولكن العامة من الناس تداولوا هذا الاسم وسموهم به.[1]

وذكر الزبادي أنهم من شرفاء الصحراء، إذ كانوا أولًا يقطنون السوس الأقصى ثم رحلوا إلى سلا[2]، ثم منها إلى فاس، وقال: إن هناك من ذكر أن أسلافه كانوا مستوطنين تافيلالت[3]، وهم من أولاد عيسى بن إدريس.[4]

ولا يعرف سنة مولد الزبادي، إذ لم يذكره في رحلته ضمن ما ذكره، كما

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٤٥٨ - ٤٥٩.

(٢) «سلا» مدينة في أقصى المغرب، يحاذيها المحيط من شمالها والنهر من غربها، وفي غرب هذا النهر اختط عبدالمؤمن مدينة سماها المهدية، وهي مدينة قرب الرباط على مصب نهر أبي رقراق، وسلا الآن لا يفصلها عن الرباط فاصل. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٢٣١؛ بنعبدالله: الموسوعة المغربية، ملحق ٢، ص٢٧٠.

(٣) «تافيلالت» منطقة الواحات، حيث توجد سجلماسة المؤسسة عام ١٤٠هـ/ ٧٥٨م، وتسمى بالبربرية تافيلالت، وقد سماها المؤرخون العرب تافلالة أو فلالة، وهي التي استقر فيها جد العلويين أو الشرفاء الفلاليين. انظر: بنعبدالله: الموسوعة المغربية، ملحق ٢، ص١٢٨.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص٤٥٩.

لم يشر إليه أحد من المؤرخين.

أخلاقه وصفاته:

أجمع المترجمون على الثناء عليه وتحليته بالصفات التي تدل على ما تمتع به من حلو الشمائل وإن كان فيها مبالغات واضحة، فمن ذلك وصفه بالعلامة «اللغوي العروضي»[(١)]، و«الأديب... الناظم الشاعر»[(٢)]، و«الفقيه العلامة، العلم، ركن الشريعة جامع شتات الفضائل والمفاخر، ومنظم غرر المناقب والمآثر، الصوفي اللغوي الأديب الناظم الناثر المشارك الأريب، من بيتٍ نبيهٍ معروفٍ بالفضل».[(٣)]

كما عُرف عنه الحلم، وغزارة العلم، وحسن الخلق، والصبر، والتواضع، والتدين، والكرم، والفضل، فقد كان مراعيًا للذمم، لطيفًا محبًا لأهل العلم والدين، رؤوفًا رحيمًا بالضعفاء والمساكين.[(٤)]

مكانته العلمية:

برع الزبادي في فنون عديدة من العلم، منها العروض، والفقه، والتاريخ، والطب، واللغة، والشعر حتى إنه من غزارة شعره قيل: «لو جمع ذلك لكان ديوانًا»[(٥)]. ومن براعته في الطب أنه يحكى أنه لم يُرَ «مثله في الأوائل والأواخر، فهو ممن يستحق أن تشد له الرواحل»[(٦)]. أما عن سبب تعلمه الطب فقيل: إنه

(١) القادري: نشر المثاني، ج٤، ص٧٨.
(٢) القادري: التقاط الدرر، ص٤١٥.
(٣) مخلوف: شجرة النور، ص٣٥٣، ترجمة رقم ١٤٠٩.
(٤) القادري: التقاط الدرر، ص٤١٥ - ٤١٦؛ القادري: نشر المثاني، ج٤، ص٧٨.
(٥) القادري: التقاط الدرر، ص٤١٦؛ القادري: نشر المثاني، ج٤، ص٧٨.
(٦) القادري: نشر المثاني، ج٤، ص٧٨.

مرض مرضًا طويلًا، ثم تضرع إلى الله إلى أن شُفي، فانكب عند ذلك على مطالعة كتب الطب.[١]

وقد قرأ الزبادي على جمع غفير من علماء عصره[٢]، كما كان له كثير من الأتباع والأصحاب والتلاميذ.[٣]

حياته الاجتماعية:

كان والداه لا يزالان على قيد الحياة عندما قدم للحج[٤]، كما كان متزوجًا، وقد رزق بمولود ذكر عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م أسماه عبدالقادر، وله أخ أكبر منه سنًا يسمى أحمد، سبقه إلى الحج والمجاورة في الحرمين الشريفين، وحج مرتين، وتوفي ليلة الخميس الثامن من شوال سنة ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م[٥]. ومن إخوته غير أحمد على الترتيب: عبدالله ومحمد.[٦]

وكان الزبادي يود لو يجاور، ولكنه لم يستطع لأنه قطع عهدًا لوالدته بعدم المجاورة حتى تسمح له بالحج، إذ يبدو أنه أظهر نية المجاورة قبل سفره فلم تسمح له والدته خوفًا عليه، خاصة أنها عانت من بُعد ابنها الأكبر عند مجاورته. وموقف الزبادي هذا من والدته يدل على بره الشديد بها وطاعته لها. وقد صبّر الزبادي نفسه على ذلك لعدم انطباق شروطها عليه حتى لا يزداد حزنه.[٧]

---

(١) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) القادري: نشر المثاني، ج٤، ص٨٠؛ مخلوف: شجرة النور، ص٣٥٣.

(٣) القادري: نشر المثاني، ج٤، ص٧٨، ٨٠؛ القادري: التقاط الدرر، ص٤١٦؛ مخلوف: شجرة النور، ص٣٥٣.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص٤٥٧.

(٥) المصدر السابق، ص٤٤٨ – ٤٤٩.

(٦) المصدر السابق، ص٤٥٧.

(٧) المصدر السابق، ص١٨٧ – ١٨٨.

مؤلفاته:

ترك الزبادي العديد من المؤلفات التي منها قيود عدة في «التاريخ» و«التصوف» و«الفقه» و«اللغة» و«النظم»، وتأليف في «علم العروض»، وتأليف في «شرح الكلام المنسوب لشيخه السوسي»، وتأليف في «التعريف بالشيخ ابن عباد»[١]، وله معرفة بقول الشعر[٢]. وألف رحلته عند حجه عام ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م[٣] وسماها «بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام» ملئت بالفوائد والفرائد والمسائل النفيسة والعلوم الجليلة[٤].

القيمة العلمية لرحلته:

لم يسجل الزبادي أحداث رحلته إلا بعد مدة من قيامه بها حين طُلب منه ذلك، والأرجح أنه كتب عناصرها في قصاصات، ومن ثم أضاف إليها من الذاكرة، ورتبها، إذ لا يعقل أن يكتب بالدقة التي رأيناها في الرحلة بعد عودته بما يقرب من أربع سنوات من ذاكرته، خاصة وأنها ملئت بالمعلومات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعلمية، وقال الزبادي عند تقييدها: «لم أقيدها عند استفادتها، ففقدتُ جملة منها عند تفقدها وإفادتها، فهممت بتلافي ما بقي منها قبل غروب الذهن عنها، فاستخرت الله تعالى في ذلك، واستكشفته عما هناك، فإذا الإخوان في الله كلهم يطلب ذلك ويتمنى، فعزمت على ما به هممت، وشرعت في رسم ما قد رمت، ناحيًا للاختصار والإيجاز والاقتصار،

---

(١) أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن عباد الحميري الرندي، من أهل الأندلس، باحث متصوف، تنقل بين مدن المغرب، واستقر في فاس خطيبًا في جامع القرويين إلى أن توفي عام ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٢٩٩.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص٣٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص٩.

(٤) القادري: التقاط الدرر، ص٤١٦.

آخذًا ما تيسر، وتاركًا ما تعسر، راجيًا من الله تعالى إكماله وكماله، ومستمدًا عونه وتوفيقه وحفظه ونواله»[١]. وقد انتهى من تقييدها وترتيبها ضحوة يوم الخميس التاسع عشر من ربيع الآخر عام ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م.[٢]

ومن الملحوظ أن الزبادي أفاد من تقييدات رحلةٍ سابقة لأخيه أحمد[٣]، ولكن لا نعلم عنها شيئًا في الوقت الحاضر حيث أفاد منها الزبادي في عدة مواضع، وخاصة فيما يختص بالحجاز. فقد نقل منها رسومات توضيحية أثبتها في رحلته، وربما تكون رحلة أخيه على جانب عظيم من الأهمية لاعتماد الزبادي عليها.

وفاته:

توفي الزبادي بالطاعون في الثامن عشر من شعبان عام ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م.[٤]

وصف مخطوطة الرحلة:

موجودة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ك ٣٩٨) مكتوبة بخط مغربي جميل وواضح، وتحتوي على (٤٧٧) صفحة، وتحتوي كل صفحة على (١٥) سطرًا.

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥ - ٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص١١٧.

(٤) القادري: نشر المثاني، ج٤، ص٨٠؛ القادري: التقاط الدرر، ص٤١٥.



الفصل الثاني

مَنهَج الكتابة التاريخيّة عِند الرَحّالة المغَاربَة

- الاعتماد على المعاينة والمشاهدة والمشافهة
- دقة الوصف
- الإفادة من الرحلات السابقة
- المقارنة والنقد



مَنهج الكتابة التاريخيّة عِند الرّحالة المغاربَة

الرحلة قديمة قدم الإنسان ذاته[1]. وأدب الرحلة لون من ألوان الأدب العربي، بدأ انطلاقته منذ القرن الثالث الهجري، فكُتبت الرحلات بأشكال متعددة، وبأسلوب أدبي وفني متميز، تناولت قضايا وموضوعات مختلفة ومتنوعة.

وقد زخر القرنان الحادي عشر والثاني عشر الهجريان بالعديد من الرحلات الحجازية التي كان هدفها الأساس أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والبقاع التي شهدت بدايات الدعوة الإسلامية.

اهتم هؤلاء الرحالة المغاربة بتسجيل رحلاتهم من حين خروجهم من موطنهم إلى حين عودتهم مرة أخرى في مدونات قد تطول أو تقصر، ولكنها في النهاية أصبحت وثائق تاريخية أدبية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وعلمية لمن أتى بعدهم.

وهي كذلك متعددة الغايات والأغراض، فالأديب الرحالة طوَّع الأدب العربي، وعبَّر من خلاله وفي قالبه عما أحس به وشاهده وسمعه، بشعر أو بنثر،

---

(١) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص٢٢، سلسلة عالم المعرفة.

ومعظم ما دُوِّنَ من رحلات لم يصلنا؛ إما لضياعه، أو لعدم الكشف عنه بعد[١]، ولكن الذي توافر لنا منها يكفي للدلالة عليها جميعًا بما تحويه من علوم.[٢]

من خلال تتبع أهم الأسس والمناهج التي سار عليها الرحالة المغاربة في تدوينهم لرحلاتهم نجد الآتي:

أ - الاعتماد على المعاينة والمشاهدة والمشافهة:

هذا المنهج هو القاسم المشترك لجميع الرحالة المغاربة الذين ألفوا رحلاتهم الموسوعية، ونخص منهم بعض الرحالة المغاربة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، حيث مدار هذا البحث حول رحلاتهم، إذ اعتمدوا على المعاينة والمشاهدة والمشافهة والاستفسار إذا اقتضى الأمر عمَّا لا علم لهم به.

فكانوا بمثابة العين الحساسة اللاقطة، فوصفوا ما على بسيط الأرض من عمائر، وخرائب، أو صحراء، أو حدائق مليئة بالنخيل والأشجار وأوان ثمارها، وأنواع المحصولات التي تنتجها، والطريقة المتبعة في زراعتها وريِّها، ومن يقوم على ذلك[٣]. فاليوسي وصف حجم عنب مدينَ وطعمه وكذلك

(١) الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج١، ص٤٧.

(٢) د. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص٦، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، د.م.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٥؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٨ - ٩٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٦ - ٧٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨، ١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٢.

إجَّاصه[١]، بقوله: «كبير الحجم شديد الحلاوة»[٢]، والعياشي ملأ أنفه شذى أزهارٍ شم عبيرها بعُسفان[٣]، فبادر بالسؤال عنها وتحقق من شكلها واسمها[٤]. وتعجب الدرعي من كثرة شجر الكادي وانتشار رائحته في وادي فاطمة[٥]، فتحقق بالسؤال عنه من صاحب عريش هناك، فأخبره أنه يشبه شجر النخيل، وأتاه ببعض ورقه، فوصفه بعد معاينته بأن ورقه عريض، كما شم رائحة زهرته، ووصفها بالجمال[٦]. ونبه اليوسي على نوع من الحشائش ينموِ بالحوراء[٧]،

---

(١) «مدين» بفتح أوله على بُعد (٧٣) كم من البحر الأحمر بمحاذاة تبوك، وعلى بعد (٢٢٠) كم منها، وفيها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام، ومدين اسم القبيلة، وتسمى الآن البدع، وهي ذات مزارع وسكان ومدارس. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٧٧ - ٧٨؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٨، ص٦٨ - ٧٠.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب.

(٣) «عُسفان» بضم أوله سميت بذلك لتعسف السيل فيها، وهي من مكة المكرمة على بُعد (٨٠) كم، وهي من مناهل الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، فيها آبار عذبة قديمة، وفيها مركز إمارة تابع لمر الظهران، وهي عقدة مواصلات مهمة، وفي الآونة الأخيرة حفر أهلها بئرًا عذبة غزيرة الماء. فكثرت زراعتها على ضيق أرضها. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص١٢١ - ١٢٢؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٦، ص١٠٠ - ١٠٢.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٢٤٠.

(٥) «وادي فاطمة» يسمى مرّ الظهران، وهو موضع على مرحلة من مكة المكرمة، ومرٌّ هي القرية والظهران هو الوادي وفيه عيون كثيرة ونخل، وهو من أكبر أودية الحجاز ويسمى أيضًا وادي الشريف نسبة إلى الشريف أبي نمي الذي كان يملك أكثره، وينسب أيضًا لفاطمة زوج بركات بن أبي نمي أو أمه، ويذكر أن في الوادي حوالي (٣٠٠) عين لم يبق منها الآن إلا القليل، وقرى مرّ الظهران اليوم تزيد على (٤٠) قرية. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٠٤ - ١٠٥؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٨، ص١٠٠ - ١٠٢.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٤.

(٧) «الحوراء» بفتح أوله مرفأ على ساحل البحر الأحمر الشرقي، ترسو فيه سفن مصر إلى المدينة المنورة، وكانت إحدى محطات الحجاج القادمين من مصر، ولم يبق منها اليوم سوى آثار شمال أملج على بعد (٣) كم. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٣١٦؛ البلادي: معجم =

ويبدو أنها صالحة للأكل، إذ كان يقتات منها الركب، ولكن هذه الحشائش قاتلة لمن لم يعرف خصائصها والطريقة السليمة لأكلها، وقد أخبره شخص ممن خَبِر الطريق عن الكيفية الصحيحة لأكلها، وأضاف أنه تحقق من قوله عندما شاهد أُناسًا ماتوا عندما تناولوها بسبب عدم انطباق الشروط الصحيحة لأكلها.[١]

فالاستفسار أسلوب حرص الرحالة المغاربة على الالتزام به، وحرصوا على إعطاء إجابات اعتقدوا صحتها، للأمور التي أرادوا التحقق منها.

أما وصف الطريق بالمشاهدة والمعاينة المباشرة فجميع الرحالة المغاربة برعوا في وصفه، فحفلت رحلاتهم بكثير من الأوصاف الدقيقة لدرب الحجيج، والمناهل التي نزلوا فيها، وكأن القارئ لرحلاتهم يشعر أنه أحد أفراد الركب السائر فيه، لمعايشته فيما قد يواجه من رخاء وشدة، ينظر للموصوف متمثلًا أنه أمامه من شدة براعة الوصف ودقته وهو الذي يقوم أساسًا على المعاينة والمشاهدة.

فقد تتبع الرحالة المغاربة أماكن وجود المياه من آبار وعيون أو أحساء[٢]، فحددوا مواقعها وطريقة تناول الماء منها، وهل هي أحباس[٣] أو من عمل الدولة مع تحديدهم نوع الماء، سواء كان عذبًا فراتًا، أم ملحًا أُجاجًا، وكل ذلك مثبت

= معالم الحجاز، ج٣، ص٧٦.

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب.

(٢) «الحسي» الرمل المتراكم، أسفله جبل صلد، فإذا مُطر الرمل نشف ماء المطر، فإذا انتهى إلى الجبل الذي أسفله أمسك الماء، ومنع الرملُ حَرَّ الشمس من أن ينشّف الماء، فإذا اشتد الحر نبث وجه الرمل عن ذلك الماء فنبع باردًا عذبًا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص١٧٧.

(٣) «الحبس» ما وقف وقفًا محرمًا وقفه صاحبه، لا يورث ولا يباع، يحبسُ أصله وقفًا مؤبدًا، وتُسبَّل ثمرته تقربًا إلى الله تعالى. انظر المصدر السابق، ج٦، ص٤٤ - ٤٥.

من قبلهم بالتجربة، فأبو مدين مثلًا يحدد أماكن وجود الماء ونوعه والأماكن التي يُعدم فيها، أو يكون مالحًا، فينصح بحمله من المنازل التي يكون فيها الماء عذبًا وكثيرًا، كما يُعرِّف بأماكن الرعي الجيدة التي شاهدها.(١)

ولم يفت نظر الرحالة المغاربة أثناء سيرهم الموانئ العاملة العامرة، الصالحة للملاحة على البحر الأحمر، مثل ميناء العقبة، والحوراء، وينبع، والموانئ الأخرى التي ترتبط بها ملاحيًا مع تحديد نوع السفن الراسية فيها.(٢)

ووقع الرحالة المغاربة فيما وقع فيه أهل عصرهم من بدع حيث تفشى فيه التبرك بالأولياء والصالحين، سواء الأحياء منهم أم الأموات، وذلك بالتردد على قبورهم والدعاء عندهم(٣). فكانوا يحرصون على المرور على القبور والدعاء عندها، وتحديد أماكنها أثناء سيرهم وتسمية من دفن فيها.(٤)

وَوَصْفُ الحرمين المكي والمدني أخذ جزءًا لا بأس به من مدونات الرحلات بعد الوقوف عليها ومعاينتها، فسجل القيسي وصف المسجدين المكي والمدني، وحدد مقاسات الأخير بالذراع، ناقلًا ما وجد فيه من نقوش، فاستوعب في رحلته أكثر ما وجد من نقوش المسجد النبوي، ولشدة ملاحظته فقد عدَّد

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤ - ١١٦، ١٢١؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٨ - ٩٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ح٢، ص٢ - ٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦ - ٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٢ - ١٠٤، ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢، ١٤٥؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ.

(٣) هذه من الأمور التي تنافي العقيدة، ولا يجوز فعلها، ولكنهم في زمن تفشى فيه مثل هذه الأفعال حتى إنها عُدَّت من القربات.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢.

عراجين[١] نخلة كانت مزروعة في صحن المسجد، مخبرًا أنها سبعة.[٢]

وأضاف كلٌّ من العياشي والزبادي وأبي مدين إلى منهج المعاينة والمشاهدة رسم الشيء الموصوف، لأنه أدعى إلى توضيح ما أرادوا وصفه، وليكون قريبًا من الحقيقة، فالعياشي عندما وصف داخل الكعبة المشرفة عزز ذلك بالرسم زيادة في الإيضاح، وكذلك فعل الزبادي عندما وصف الحجرة النبوية الشريفة حيث أرفق وصفها برسم توضيحي للتقريب. وصاحب وصف أبي مدين لغار ثور رسم لداخله لإضفاء صورة حقيقية عنه.[٣]

وعندما تصدَّر الرافعي لوصف المسجد الحرام فإنه وصفه بدقة كأن القارئ ينظر إلى عين الموصوف، حيث استوعب كل ما فيه[٤]. وكما أفاض في وصف المسجد الحرام أفاض أيضًا في وصف المسجد النبوي، حتى إنه أورد مقاسات أدق الأشياء فيه، مثل وجود نخلتين في صحن المسجد، كما وصف المنبر والمحاريب الثلاثة بأدق التفاصيل.[٥]

واكتفى بعض الرحالة المغاربة بوصف جزء أو عدة أجزاء من المسجدين المكي والمدني لعدم تمكنهم من الوقوف على جميع أجزائه لقصر إقامتهم؛ فاليوسي مثلًا أتى على ذكر ميزاب الكعبة المشرفة فقال: «وميزاب الكعبة

(١) «العرجون» هو العذق عامة، وقيل: هو العذق إذا يبس واعوج، وقيل: هو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسًا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص٢٨٤.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٨٢ - ٨٣، ٩٩ - ١٠٠؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٥٤؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٧ - ١٤٨، ١٨٢ - ١٨٨.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٧ - ١٧٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٦.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٧ - ١٤٨.

(٥) المصدر السابق، ص١٨٢ - ١٨٨.

المشرفة الموجود الآن صنعه السلطان أحمد بن محمد ابن السلطان مراد أحد ملوك آل عثمان(١)، وهو من فضة مموه بالذهب منصوب فوق الحِجْر وذلك سنة اثنتين وعشرين وألف».(٢)

فهو بذلك أعطى لمحة تاريخية عن بعض الموجودات الموصوفة، وذلك من المناهج التي قامت عليها كتابة الرحلة عند الرحالة المغاربة منذ أن وضع أسس فن كتابة الرحلة الرحالة ابن جبير في القرن السادس الهجري وتبعه مَنْ بعده، ولم يشذ أحد منهم عن ذلك.

فاليوسي الذي لم يسجل أوصاف المسجدين الشريفين المكي والمدني اكتفي بذكر نبذٍ مختصرة عن بعض معالمهما، كما اكتفى الغنامي بتعداد أبواب المسجد الحرام(٣)، أما الدرعي فكان من المعتنين بوصف كل ما شاهده من المعالم، فمثلًا وصف الكعبة المشرفة، وكذلك تعرض الحضيكي لوصف شاذروان(٤) الكعبة المشرفة، وألحق ما وصفه بلمحات

---

(١) السلطان أحمد بن محمد بن مراد أعظم ملوك آل عثمان، ولد سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م، كان محبًا للعلماء ومتمسكًا بالسنة، تولى السلطنة بعد وفاة والده عام ١٠١٢هـ/ ١٦١٣م وعمره أربع عشرة سنة، له مآثر جمة في الحرمين، وتوفي في شوال سنة ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٨٤ - ٢٩٢.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٩/ ب - ٩٠/ أ، ٩٢/ ب.

(٣) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥.

(٤) «الشاذروان» بفتح الذال، جدار الكعبة المشرفة الذي تُرك من عرض الأساس خارجًا، ويسمى تأزيرًا، لأنه كالإزار للبيت، والشاذروان الحجارة المائلة الملتصقة بأسفل الكعبة المشرفة المحيطة بها من جوانبها الثلاثة، أما الجانب المقابل للحِجْر ففيه درجة واحدة مسطحة، وهي بطول جدار الكعبة المشرفة. انظر: أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣٠٩ - ١١٠، تحقيق رشدي الصالح ملحس، مكة المكرمة، ط٣، مطابع دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م؛ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي: المصباح المنير في غريب شرح الكبير، ج١، ص٣٦٣، بيروت - =

تاريخية عنه، وشدّ انتباهه المقامات الأربعة في المسجد الحرام، وناقش وجودها وتساءل هل تعد مساجد مستقلة أم مسجدًا واحدًا؟ وفي النهاية أحال العلم إلى الله عندما ناقش صلاة الأئمة الأربعة فيها[١]. وعندما كان في المدينة المنورة بادر إلى إعطاء لمحات تاريخية عما يعرفه من أمور تتعلق بالمسجد النبوي مثل المنبر.[٢]

وتصدر أبو مدين لتسجيل كل ما يتعلق بأوصاف المسجد النبوي، فهو من الرحالة الذين استوفوا مشاهدته ومعاينته، حتى إنه أحصى النخل الموجود في صحن المسجد النبوي[٣]. وكما فعل بالمسجد النبوي أسهب في وصف المسجد الحرام، فهو عندما ذكر الكعبة المشرفة أعطى نبذة تاريخية عن عدد مرات بنائها[٤]، فهو بذلك قد أعطى القارئ خلفية تاريخية سليمة وصحيحة عنها في موضع واحد.

وكما أفرد الزبادي صفحات لوصف المسجد الحرام بدقائق أموره، فهو أيضًا تصدر لإعطاء نُبذٍ تاريخية عن الكعبة المشرفة والعمارة التي توالت عليها، كما عدَّد أسماء البيت الحرام[٥]. وفعل الشيء نفسه عندما وصف المسجد

= دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م؛ حسين عبدالله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص١٤٣ - ١٤٨، الكتاب العربي السعودي، ط٢، تهامة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، د.م؛ محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج٤، ص١، مكتبة النهضة الحديثة، ط١، ١٣٨٥هـ، د.م.

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٧؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٥٨ - ٦٠.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٩ - ٨٣.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٢ - ١٥٥.

(٤) المصدر السابق، ص١٨٢ - ١٩٠.

(٥) الزبادي: بلوغ المرام، ص١١٧ - ١٢٣.

النبوي، وذهب إلى حد نقل نقوش كاملة على قدر استطاعته[١]، وأعطى نبذًا تاريخية يسيرة لبعض ما شاهده، ومثَّل لبعض ما وصفه بالرسم الذي نقله من كناشة[٢] لأخ له كان قد سبقه إلى القدوم للحجاز والمجاورة على حد قوله، وعقَّب على سبب إيراده هذه الرسومات قائلًا: «فإن المراد منه إعانة مَنْ لم يره على تكييفه[٣] بذهنه، فإن الإنسان إذا سمع شيئًا فإن ذهنه يريد تكييفه، واللسان لا يكفي في ذلك، إذ ليس الخبر كالعيان، فجعلت التماثيل إعانة للأذهان وتأنيسًا للولهان»[٤]. والزبادي هنا يوضح أهمية المشاهدة، ويحث ضمنيًا على الرحلة لتفضيله المعاينة على السماع.

وبرع الرحالة المغاربة في تصوير ما يعتري النفس من خوفٍ وفرحٍ وغيره، ومن ذلك وصف الرافعي لنفسيات الركب المغربي عندما نفد منه الماء بسبب سبق الركب المصري واستنزافه للماء فلا يجد الركب المغربي عند وصوله ماء، فقال: «وللماء حراس بإزاء كل بندر، ثلاثة أبيار من الماء البارد، يجلبون منه الماء لتلك الفيافي، فيرتوي منهم كل وارد، كل ذلك معدّ إلى الركب المصري، أما الركب المغربي فهو تبع، فإن فضل عنه الماء يسرع إليه ويجري،

---

(١) المصدر السابق، ص١٧٣ - ١٧٦.

(٢) «كناشة»: تجمع على كنايش وكنانيش، هذا اللفظ يطلق عند المغاربة وفقًا لمعنى مذكرة تكون عند جل العلماء الذين لهم ولع بالتقييد، فلا تجد واحدًا منهم إلا وله كناشة خاصة به، يذكر فيها ما وقع له من الحوادث، أو ما شاهد وقوعه، أو ما نظمه من الأشعار، أو ما راج بينه وبين أشياخه وأقرانه من مذاكرات علمية ومساجلات أدبية، أو الفوائد التي أعجب بها ويعسر الوقوف عليها، وكثيرًا ما توجد للفرد الواحد عدة كنايش لسعة اطلاعه ووفرة مباحثه، فاعتناء المغاربة بها كبير، حتى إن كثيرًا من علمائها لا نجد لهم تأليفًا في موضوع خاص، وتجد له عدة كنانيش، أو مذكرات يلخص فيها خلاصة بحوثه وعصارة تفكيره. انظر: ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب، ج٢، ص٤٦١ - ٤٦٢.

(٣) يقصد تصويره بذهنه أو تصوره.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٦.

وإن نفد ماؤهم كان للركب اضطراب، ويلحق الجميع قنط وبؤس من الظمأ والاكتئاب». وأورد طرفًا من شعور الحجيج أثناء سيرهم في درب الحجاز فقال: «وقد طال السفر وعم الناس البؤس والكدر، وصار كل إنسان ينتقم حتى من نفسه، ويهوله كل صعب أو هين في حينه، كيف لا؟! والدرب غول، والتوغل فيه صعب مهول!».[١]

أما الدرعي الشيخ العالم الذي عركته السنون، وخَبِر حال الدنيا، وأفاد ممّا مرّ به، خاصة وأنه حج أربع مرات[٢]، فقد استعرض في تسجيله لرحلته في حجته الأخيرة ما مر به في حجاته السابقة من مواقف مشابهة، فقال معبرًا عما يقاسيه الحجاج في طريقهم، ومصورًا نفسياتهم: «كأن الدرب أمامهم عدو لا يرحم، وبحر لا يقتحم، يترقبون مزاولته... تضيق الأخلاق، وينحل وثاق الإنفاق، ويتسلط الجمّال والعكام[٣] على الحجاج، ويذلُّون لهما كما ذلّ أهل الكوفة للحجاج».[٤]

وكما وصف الرحالة المغاربة المسجدين المكي والمدني، فإنهم وصفوا أماكن المساجد الأخرى التي مروا عليها في دربهم التي وردت الآثار بأن النبي ﷺ صلى فيها، فمن ذلك ما ذكره القيسي عن مسجد الغزالة[٥]

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٦، ١١٨.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٣٢، ٣٧، ٤٠.

(٣) «العكام»: ما عكم به، وهو الحبل الذي يعكم عليه، وهي هنا بمعنى من يعين على شد الحبال على الإبل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص٤١٥، وتسلطهم على الحجاج يكون بطلب زيادة في أجرة النقل، أو التهديد بتركهم مع أمتعتهم في ذلك الدرب.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٨.

(٥) «مسجد الغزالة» ويعرف أيضًا بمسجد المنصرف، وسمي بذلك لأن من عنده ينصرف الطريق، صلى فيه الرسول ﷺ. انظر: نور الدين علي بن أحمد السمهودي: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى تاريخ المدينة المنورة، ص٤٢٢، تعليق إبراهيم الفقيه، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م =

وقباء[١]، وتطرق العياشي لطريقة بناء المساجد التي شاهدها في طريقه مع ركب الحجيج، ووصف مسجد الخيف[٢]، بل ونقل ما شاهده من نقوش، وحاول أن يحلل معتقد كاتب تلك النقوش من خلال شعره المسطَّر على جدار المسجد.[٣]

ومن أفاض في ذكر مسجد الخيف الرافعي والحضيكي، وأتبع الحضيكي وصف مسجد الخيف بوصف مسجد عرفة[٤]. وأمدنا القادري بأوصاف لمسجد عرفة، والمشعر الحرام، ومسجد منى[٥]. وأتى الدرعي على ذكر مشاهد مفصلة عن مساجد مكة المكرمة[٦]، وشحن أبو مدين رحلته بذكر المساجد التي رآها أثناء طريقه إلى الحجاز، والمساجد التي مر عليها في طريقه بين مكة المكرمة والمدينة المنورة[٧]. كما تصدر الزبادي لذكر المساجد التي مرَّ

= طبعة جعفر الفقيه، د.م.

(١) القيسي: أنس الساري، ص٩١، ١٠٤؛ «مسجد قباء» أسسه الرسول ﷺ وهو المسجد الذي أسس على التقوى. انظر: نور الدين علي بن أحمد السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ج٣، ص٧٩٧ - ٧٩٨، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث، ط٤، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م؛ القيسي: أنس الساري، ص٩١، ١٠٤.

(٢) «الخَيف» بالفتح وهو ما ارتفع عن موضع مجرى السيل، وسمي مسجد الخَيف بذلك لأنه في سفح جبلها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص١٠٢ - ١٠٣. وذكرنا هنا المعنى اللغوي وطريقة ضبط الكلمة للتنبيه إلى الخطأ الشائع في نطقها بكسر الخاء في حين أنَّ الصحيح فتحها.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢ - ١٤٥، ١٥٧.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٩ - ١٥٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤١ - ٤٢.

(٥) القادري: نسمة الآس، ص٨٠ - ٨٥.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٩ - ٢٠٧، ٢٣٤ - ٢٣٥، ٢٣٧.

(٧) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٥ - ١١٧، ١٢١ - ١٢٢، ١٣٧ - ١٤٠.

عليها.[١]

ومن أهم الأمور المنهجية التي حرص الرحالة المغاربة على اتباعها في الكتابة التاريخية في رحلاتهم، هي تسجيل وقت رحيلهم، ووصولهم للمنازل التي يمرون عليها بدقة متناهية، حيث حدَّدوها بأوقات الليل أو النهار، كالعياشي الذي قاس المسافات وقدَّرها بالفراسخ[٢] فحدد المسافة بين أكرا[٣] ومنزل بين الدركين[٤] بنحو فرسخين[٥]، وحدد المسافة بين عقبة السكر[٦] وخليص[٧]

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٤ - ٧٧.

(٢) «الفرسخ» يساوي ثلاثة أميال. انظر: أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٦٠ - ٦١.

(٣) «أكرا» مجموعة آبار أسفل وادي الحمض جنوب الوجه ويبعد عنها (٧٠) كم. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج١، ص١٣١.

(٤) «بين الدركين» يقع بين أكرا والحوراء تقريبًا، ولم نجد له ذكرًا في المصادر التي اعتمدناها.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤.

(٦) «عقبة السكر»: يطلق عليها المشلل وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر، وتعرف اليوم بالقديدية نسبة إلي الوادي المعروف بقديد، وتشاهد يمينًا إذا تجاوزنا القضيمة ذهابًا إلى المدينة المنورة، وثنية المشلل في أسفل حرة يمر طريق مكة المكرمة إلى المدينة المنورة منها يمينًا، وإلى الجنوب منها مكان خيمتي أم معبد، وفيها أكمة، وتسمى عقبة السكر أو السويق، لأن الحجاج اعتادوا على شربه هناك. انظر: عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي من أهل القرن العاشر الهجري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطرق مكة المعظمة، ج٢، ص١٤٦١ - ١٤٦٢، نشره وأعده حمد الجاسر، الرياض، منشورات دار اليمامة، د.ت؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٧١ - ١٧٣.

(٧) «خُليص»: واد كثير الزرع والماء، واسع على شكل مربع يقع شمال مكة المكرمة، على بُعد (١٠٠) كم يتكون من (٣٠) قرية، وفيه عين تجري وآبار ونخل كثير ومسجدان ينسبان للرسول ﷺ، الأول بخليص عند الحرة، ويطلق على هذا المكان أيضًا اسم كديد. والثاني عند بئر يسمى بخليص. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٣، ص١٤٩ - ١٥٠.

بثلاثة أميال[١]. كما حدد المسافة بالأيام، إذ ذكر أن عمران ينبع[٢] متصل نحو ثلاثة أيام.[٣]

وكانوا يستعلمون عن المسافات بين المنازل كما فعل اليوسي عندما استعلم عن المسافة بين أبيار علي والمدينة المنورة[٤]. وحرص الغنامي على تسجيل الوقت حتى وقت المكوث للراحة في المنازل، وحدده بأوقات الليل أو النهار، مثل قوله: إنه أقام بالمويلح[٥] يومًا، وإنه وصل إلى الدار الحمراء[٦] وقت الزوال[٧]. وكان الدرعي حريصًا على ذكر زمن وصوله لأي منزل،

---

(١) «الميل» يساوي (١٦٠٩,٣٥) أو (٣٠٠٠) ذراع هاشمي. انظر: أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٦٠ - ٦١.

(٢) «ينبع» بالفتح تقع على يمين جبل رضوى، فيها عيون عذبة غزيرة، وفيها مسجد، وهي قرية غنَّاء، يوجد فيها حصن ونخل وماء وزرع. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤٩ - ٤٥٠. وهي الآن مدينة عامرة وقد أنشئ فيها صناعات حديثة كما أنشئ فيها الهيئة الملكية. وهي ميناء مهم على البحر الأحمر من موانئ المملكة العربية السعودية.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١ - ١٤٥، ١٤٩.

(٤) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ.

(٥) «المويلح» تصغير مالح ميناء على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، شمال ضبا، فيها إمارة، وقلعة أثرية لا تزال آثارها. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٨، ص٢٩٧ - ٢٩٨.

(٦) «الدار الحمراء»: كانت تسمى قديمًا أم سعد، وهي المحطة الثانية من محطات الدرب، وتقع في شرقي جبل الجيوشي، وليس فيها أشجار ولا ماء، وينبت فيها قليل من الحشائش التي ترعاها الجمال، والطريق إليها سهلة بلا وعورة. انظر: أبو إسحاق الحربي: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، ص٦٤٩، تحقيق حمد الجاسر، الرياض منشورات وزارة الحج والأوقاف، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م؛ الشيخ أحمد الرشيدي: حُسن الصفا والابتهاج بذكر مَنْ ولي إمارة الحاج، ص٣٩، تحقيق د. ليلى عبداللطيف أحمد، مصر مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م؛ ويرجع اسمها للون تربتها. انظر: الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٣٧.

(٧) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٩.

فيؤرخه باليوم والشهر عربيًا وإفرنجيًا، مثل تأريخه للخروج من مصر[١]، وعند نزوله في الدار الحمراء[٢] وغيرها[٣]، ونجد الزبادي قد فعل الشيء نفسه، وهكذا جميع الرحالة المغاربة في نهجهم.[٤]

ولقد انفرد الرحالة المغاربة بمنهجية لا نجدها إلا في كتب المعاجم الجغرافية المتخصصة، وهي تعداد أسماء المواضع والمنازل التي نزلوا فيها أو مروا عليها، مثلما فعل العياشي عندما مرَّ على أرض مدين فقد وصفها وقت مروره عليها، وأعطى لمحة تاريخية عن ماضيها[٥]، وكذلك اليوسي عندما مرّ على قديد[٦] ذكر أن الموضع مكان لخيمتي أم معبد عندما مرَّ عليها الرسول ﷺ مع أبي بكر في هجرتهما إلى المدينة المنورة[٧]. ولما وصل القادري مكة المكرمة دخلها من ثنية كداء، وقال: إنها تسمى الآن عند العامة المعلى[٨]. وعندما مرَّ الحضيكي على الجبل الذي فيه غار حراء، قال: إنه يعرف اليوم بجبل النور[٩]. ووصف الزبادي مدين عندما مرّ عليها، وذكر جزءًا من تاريخها.[١٠]

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٧.

(٢) المصدر السابق والجزء، ص١٤٩.

(٣) المصدر السابق والجزء، ص١٥٦، ١٥٩ على سبيل المثال.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٣ - ٥٥.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١، ١٤٧.

(٦) «قديد» سمي بذلك لذهاب سيله قددًا، وقديد وادٍ كبير من أودية الحجاز، خصب كثير العيون والمزارع، تقدر عيونه بـ (٢٥) عينًا اندثر بعضها، وكان قديمًا يسمى المشلل، وقديد اسم الوادي كله، وفيه قرى يزيد عددها على الأربعين، ويقع هذا الوادي شمال خليص، إذ هو بين خليص ورابغ. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٧، ص٩٦ - ٩٧.

(٧) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب.

(٨) القادري: نسمة الآس، ص٧٥.

(٩) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٥ - ٣٦، ٤٥.

(١٠) الزبادي: بلوغ المرام، ص٦١، ٦٧.

ولم يكتف الرحالة المغاربة بوصف المنازل، بل تعدوا ذلك إلى تعليلهم لسبب تسمية بعضها كما فعل الزبادي عندما علل سبب تسمية بين الدركين.[١]

أما تحديد أماكن الأسواق التي تصادف ركب الحجيج، وما يباع فيها، ومكان مجيء السلع وكيفية حمل البضائع، والقائمين على عمليات البيع والشراء، فقد كانت موضع عناية الرحالة المغاربة فنقلوا صورًا عنها وما كانت تقدمه من خدمات لركب الحجيج، فمثلًا: أشار القيسي إلى أسواق ينبع والمويلح، وأشار العياشي إلى أماكن أسواق الدرب في الحجاز، والنقود المستعملة فيه. وأتى الرافعي واليوسي والغنامي وأبو مدين والزبادي على ذكر الأسواق.[٢]

سجل الرحالة المغاربة كلَّ ما وقعت عليه عيونهم، وما وصل إلى سمعهم، وما لمسوه وأحسوا به من التقلبات الجوية، فوصفوا حالة الجو، فمنهم من كانت رحلته في أوان الحر كالعياشي، فذكر شدة الحرّ وأسبابه[٣]، فعندما مرّ بالمويلح ذكر أن الهواء كان وقتئذٍ بحريًا باردًا، وعندما عَبَر واديًا تحدق به الجبال علل سبب اشتداد الحرارة فيه قائلًا: «فإذا أمتع النهار، واشتد الحر حجبت الجبال عنه هواء البحر، فينعكس غربيًا أو شرقيًا، صاعدًا من الوادي أو هابطًا، فيصير سمومًا محرقًا». كما سجّل توقعات الفلكيين في تقلبات الجو وما يتوقعونه من طقس، ولكنه لم يَمِل إلى تصديقهم فقال: «ذكر المُنجِّمون أن الشمس إذا كان رجوعها الطبيعي في أول الليل، أو ما يقرب منه، يكون

---

(١) المصدر السابق، ص٦٧.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٢، ١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١ - ١٤٣، ١٥٠، ١٥٢، ٢٤٠، ٤٠٧، ٥٠٤؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤ - ١١٦، ١٢١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٧/ ب؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨، ١٢٠، ١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٧ - ٦٢، ٧٥ - ٧٧.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥.

العام باردًا، وإذا كان في آخر الليل، أو أول النهار، يكون حارًا. وذكر لي بعض الإخوان بمصر أن المتقدمين ذكروا أن هذا العام معتدل حسن، ونحن لا نعتمد في ذلك إلا على فضل الله وبركته».(١)

واسترعى انتباه الرحالة المغاربة هطول الأمطار في مكة المكرمة، فالعياشي مثلًا أرّخ لأمطار هطلت عليها أدت إلى دخول السيل للمسجد الحرام عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م، ووصف الأضرار التي أحدثها هذا السيل، وكان شاهد عيانٍ على كيفية إزالة الأحجار والأتربة والمياه، وذكر أن في أرضية المسجد الحرام مجاريَ تُفتح عندما تدخل السيول المسجد الحرام، وفي تلك السنة بلغ ارتفاع الماء إلى باب الكعبة المشرفة، ولفت انتباه العياشي أن الطواف لم ينقطع على الرغم من ارتفاع المياه، إذ بقي مَن يطوف سباحة لمن يحسنها.(٢)

كما حرص العياشي على الاستفسار عن أمطار أخرى بلغت هذا الحد من الغزارة، فقيل له: إن أمطارًا هطلت عام ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م، ونتج عن دخول السيول المسجد الحرام سقوط الكعبة المشرفة.(٣)

وسجل أبو مدين حادثة هطول أمطارٍ في مكة المكرمة عام مجاورته فيها سنة ١١٥٣هـ/ ١٧١٤م. وقال: إن السيول دخلت المسجد الحرام وملأته بالماء، وشرح كيفية تنظيفه كما فعل العياشي.(٤)

وعبر اليوسي عن اشتداد الحر في درب الحجاز فذكر أنه قد أغمي عليه

---

(١) المصدر السابق، ص١٤٢ - ١٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص٣٩٤.

(٣) علي بن عبدالقادر الطبري: الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء، ص١٠٨ - ١٠٩، ١٤٣ - ١٤٩، تحقيق وتقديم أشرف أحمد جمال، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ط، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م؛ العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥، ١٧٨، ١٩٧.

بسببه[١]، كما حيره كثرة الموت بسبب الحر على الرغم من شرب الماء، فرأى طبيبًا كان ضمن الركب يسقي مَنْ اشتد عطشه من شدة الحر دقيق الفول بالماء، حيث إن شرب الماء الكثير لا يغني لإطفاء ذلك الظمأ، بل إن مَنْ شرب الماء وحده مات، فتعجب من فعل الطبيب وبادره بالسؤال عن ذلك، فشرح له الأمر، بأن الرياح الحارة «تخرق في الفؤاد، فتُحْدِثُ ثقبًا في الرئة فإذا شرب دقيق الفول مع الماء انسدت تلك الثقوب، ولا يضره شرب الماء بعد ذلك، وإذا شرب الماء وحده مات في الحين».[٢] وهذا التعليل ليس صحيحًا؛ لأن خلفيتهم الطبية لم تكن جيدة.

لقد نقل الرحالة المغاربة صورًا نابضة بالحياة عما شاهدوه، وسألوا عما لم يشاهدوه لتكتمل الصورة فيما سجلوه في رحلتهم، ومثال ذلك سؤال العياشي بعض أهل ينبع عن القرى التي تتبعها، وكذلك سؤاله عن البلدة التي قيل له إنها وراء الروحاء.[٣]

ومن الأمور التي حرص الرحالة المغاربة على تسجيلها تحذيرًا لغيرهم من خلال تجاربهم الخاصة ما ذكره العياشي عن طريقة حمل المؤن في درب الحجيج، حيث تحمل بالكراء إلى أماكن متقدمة عن الركب يجدها عند وصوله فتخف بذلك المشقة[٤]. وذكروا أماكن خزن المؤن في درب الحجاز إلى حين

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ.

(٢) المصدر السابق، ص٨٦/ أ.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥، ١٧١. «الروحاء» قرية صغيرة على بُعد (٧٣) كم من المدينة المنورة على طريق مكة المكرمة، وسميت الروحاء لانفتاحها ورواحها. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٧٦؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص١٢٢٢؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٤، ص٨٥.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢ - ١٤٣.

العودة كما فعل الرافعي مثلا[١]. وقد نبه الدرعي إلى حال الحجيج الذين يقدمون إلى الحجاز مع الأعراب أصحاب الجمال الذين يكارونهم عليها لحمل مؤنهم إلى منازل متقدمة، وحكى عن غدر بعض هؤلاء الأعراب بالحجاج، وهو ما يؤدي إلى فقدان المؤن وغلاء الأسعار، وربما المجاعة في الركب[٢]. كما بينوا أسعار كراء الإبل والبغال، وأشار الحضيكي على سبيل المثال إلى ذلك بقوله: إن الأسعار تتغير بتغير الناس والأزمنة.[٣]

ومن الأمور التي لاقت الاستحسان وأشار إليها الرحالة المغاربة في درب الحجاز الحصون التي كانت تشيَّد في البنادر، حيث بيّنوا طريقة بنائها، وعددها، وكيفية ترتيب الجند الموجودين فيها، والخدمات التي تقدمها أمثال تلك الحصون، ومنها حماية الحجيج، فحدد القادري مثلًا أماكن تلك الحصون[٤]، وأضاف العياشي والدرعي أن الجند لا يفارقونها، ومهمتهم حماية الطريق والحجاج، وأن الحامية التي وجدت في تلك الحصون لهم نظام لا يحيدون عنه، وهو مكوثهم في الحصن سنة كاملة، وبعدها تُغيَّر بحامية أخرى، وتصرف للجند رواتب من بيت المال لقاء عملهم هذا، فهم ذوو نفع كبير للحجاج، وعبرا عن ذلك قائلين: «ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق، لما قدر أحد على سلوكها، مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها».[٥]

ولفت انتباه الرحالة المغاربة الازدحام، وكثرة الحجاج في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فالعياشي مثلًا أشار إلى ازدحام الحجاج في المسعى، وانزعج

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤ - ١١٦، ١٢١.
(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٦.
(٣) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٣.
(٤) القادري: نسمة الآس، ص١١٢.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١ - ١٤٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٠.

من وجود الأسواق على جانبي المسعى وقال: «إنها السبب»، وتمنى لو أن الولاة منعوا الناس من البيع والشراء في هذا المكان والزمان على الأقل[١]. ونقل الرافعي وصف الازدحام في المسجد النبوي، وهيئة الناس المبتهلين بالدعاء[٢]. وأدهش الغنامي كثرة الحجاج في مكة المكرمة فسأل شخصًا كان مجاورًا سنين عديدة عن عدد أركاب الحجيج التي وصلت في تلك السنة، فعدَّد له أسماء الأركاب التي علم بوصولها[٣]. وعبر الزبادي عن الازدحام في المسجد النبوي واختلاط الأجناس قائلًا: «فصادفتهم عجبًا ولا أفهمهم ولا يفهمونني».[٤]

أما عن دقائق الأمور التي تناولتها أقلام الرحالة المغاربة بالتسجيل فهي طريقة الحلاقة لحل الإحرام في منى التي أشار إليها العياشي، كما وصف كثرة الذبائح يوم النحر، وسجل الغنامي ما تناوله من أطعمة في المدينة المنورة.[٥]

وسجل الرحالة المغاربة الأمور الدّالة على عناية الحكام بأمور الحرمين الشريفين، ودرب الحجاز لكل ما من شأنه خدمة الحجاج وتسهيل أمورهم، فعندما تحدث أبو مدين عن ثنية كداء قال: «بالغت الولاة في حفرها حتى صارت كأحد الأزقة، ومع ذلك لم تزل بها صعوبة»[٦]. وتحدث العياشي عن مجاري عين زبيدة من منابعها إلى وصولها لمكة المكرمة، وطريقة صيانتها[٧]. ومن أنواع العمارات التي قامت بها الدولة العثمانية والتي منها الاهتمام بدرب

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢.
(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٩١.
(٣) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٣.
(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤٣.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣، ١٥٥؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.
(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٠.
(٧) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٤.

الحجاز وضع علامات يستدل بها على الطريق الصحيح، وقد أعطى الدرعي وصفًا دقيقًا لدرب الحجيج وقال عن علاماته: إنه ربما علقوا على رؤوسها المصابيح ليلًا لكي تُرى بوضوح، وأنّ بين كل علامة وأخرى نحو فرسخ أو أقل، ولكنه أشار إلى أنّ هذه العلامات وقت رحلته قد انهار بعضها، ولم يَبْقَ منها إلا الأنقاض[١]. ولم يشر الزبادي عندما ذكرها إلى خرابها[٢]، لاحتمال إعادة بنائها وصيانتها.

وذكر الحضيكي من المنشآت المعمارية التي أسهمت في تقديم خدمات للحجاج وجود عين ماء في عرفة تصل لمكة المكرمة وتملأ منها بركة بالمعلى أعدت للسقي، كما وصلت تلك العين بسقاية في المروة، وميضأة المسجد الحرام.[٣]

وحرص أولئك الرحالة المغاربة في كتاباتهم التاريخية لرحلاتهم على تسجيل بعض العادات والتقاليد وطريقة الحياة؛ أي وصف الجانب الاجتماعي للمدن التي نزلوا فيها، فالعياشي مثلًا سجل طرفًا من عادات أهل المدينة المنورة[٤]. واليوسي ذكر بعض أخلاق أهل مكة المكرمة الذين تعامل معهم، وقارن ذلك بطبائع أهل المدينة المنورة، ولم يتردد في كيل الذم لأهل مكة المكرمة في حين غمر أهل المدينة المنورة بالثناء[٥]. وحسب رأي اليوسي فإنه يبدو أنه جانب الصواب في تعميم رأيه؛ لأنه لم يختلط إلا بقلة من أهل مكة

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٠.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٦ – ٥٧.

(٣) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٣.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٢٧ – ١٢٨، ٢٣٩، القسم الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٥) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ أ – ٩٣/ ب.

المكرمة. وفي المقابل نرى الحضيكي يثني على أخلاق أهل مكة المكرمة(١)، حيث لمس وشاهد منهم ما أثلج صدره من حسن تعاملهم. وذكر الدرعي طرفًا من عادات أهل المدينة المنورة.(٢)

ويبدو من ذلك اهتمام أولئك الرحالة المغاربة بالجانب الاجتماعي وبراعتهم في عرضه.

وحرص الرحالة المغاربة على إبداء النصح والتوجيه، وذكر تجاربهم في رحلاتهم، ليستفيد منها مَنْ يأتي بعدهم، فنجد اليوسي والدرعي يوصيان مَنْ أراد الذهاب للحجاز بما يجب حمله من نقود، لكي تسهل معاملاته وأموره، إضافة إلى توضيحهما للنقود الأكثر قبولًا وطريقة صرفها(٣). أما أبو مدين فحذر من النقود المزيفة، وأوصى بأن يحمل الشخص معه بضائع، حدَّد أنواعها ليكون بها التقايض، «لأن هناك مناطق لا تتعامل بالنقود، وإنما بتبادل السلع».(٤)

وقد يجمع الرحالة المغاربة بين المشاهدة والخبر كما فعل القادري عندما وقف على المدَّعى في مكة المكرمة، فوصف الموقع، وذكر أنه أُخبر أنه المكان الذي دعا فيه إبراهيم - عليه السلام - بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾(٥)، وأضاف بأن المدعى معروفة مشهورة لدى أهل مكة المكرمة، ولما شاهد قبَّة فوق جبل عرفة سأل عنها فذكر له أنها تسمى قبة داود(٦). وسجل اليوسي نبذة

---

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٥ - ٤٦.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٥٣ - ٥٩؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٥ - ٤٦.

(٣) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٧/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٣٨.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٣٦ - ٣٧.

(٥) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

(٦) القادري: نسمة الآس، ص٧٥.

تاريخية مختصرة تتعلق بهجرة الرسول ﷺ ونزوله على أمّ معبد، وإشارته إلى مكانها بعد وقوفه عليه، وأحال مَنْ أراد الاستزادة من المعلومات إلى كتاب المواهب اللدنية.[١]

ومن دقائق الأمور التي تخفى على الباحث ولا يعرفها إلا بمطالعة كتب الرحلات المغربية، مجالس الدرس وحلقات العلم التي كانت تقام في ركب الحجيج، فسجل الغنامي ما أخذه في طريقه إلى المدينة المنورة من درس عن وقعة بدر، وأكد أنه أخذه قراءة وتحقيقًا وتدقيقًا[٢]. وهذا يوضح أن ركب الحجيج كان يضم بين جنباته علماء أخذوا على عاتقهم التدريس أثناء سيره، فكانت مدارس علم متنقلة.

وهناك أمور تفاوت الرحالة المغاربة في ذكرها، فمنهم من ذكرها، ومنهم من أهملها، مثل التدقيق في الأسماء، فنجد الغنامي يعدد أبواب المدينة المنورة بأسمائها[٣]. في حين حدد أبو مدين الأماكن الصالحة للرعي[٤]، وأشار الزبادي إلى أماكن وجود المعادن في الحجاز[٥]، كما حدد الأيام التي تعودت ركاب الحجيج الوصول فيها إلى مكة المكرمة من أقطار الأرض باليوم والشهر العربي والإفرنجي[٦]. وانفرد الزبادي بالتعريف ببعض مواضع مكة المكرمة فعدّد

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٧/ ب - ٨٨/ أ؛ كتاب المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية للشيخ الإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني المصري، وهو كتاب جليل مرتب على عشرة مقاصد في سيرة الرسول ﷺ. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٨٩٦.

(٢) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦.

(٣) المصدر السابق، ص٨.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨ - ١٠٩.

(٥) الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٥.

(٦) الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٤.

أسماءها إلى جانب تعداده لأسماء مكة المكرمة.[(١)]

وأرخ الرحالة المغاربة لبعض العادات المستحدثة، مثل تأريخ الدرعي لبداية ظهور البن وأول من صنع القهوة، وطريقة انتشارها، وأتبع الخبر بذكر أسعار البن في البلدان العربية والإسلامية، وذيَّل خبره بفتاوى العلماء في ذلك الوقت فيها مثل فتوى ابن حجر الهيتمي[(٢)] في إباحتها، وكان قد اطلع عليها في مكة المكرمة. ويبدو أنها لم تَرُق له تلك الفتوى فقال: «لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة»[(٣)]، وجاء على ذكر الدخان وما أثير حوله من آراء وأتبع ذلك برأيه.[(٤)]

ومن هنا يظهر لنا تصدر الرحالة المغاربة للتأريخ للأمور المستحدثة والآراء والفتاوى فيها مع عرض آرائهم في ذلك.

ومما سبق يتبين لنا عظم ما دونه الرحالة المغاربة في رحلاتهم، مع وقوعهم في كثير من الأخطاء نتيجة عدم تخصصهم، فاليوسي مثلاً أخطأ عندما ذكر أن ماء ينبع من عين الزرقاء، وأنّ مَنْ أجراها هي السيدة زبيدة زوج الخليفة

---

(١) المصدر السابق، ص٩٨ - ١٠٦.

(٢) أحمد بن محمد بن حجر الوائلي السعدي الهيتمي المصري ثم المكي، ولد سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م. أخذ العلم من كبار علماء عصره، برع في كثير من العلوم، وكتب مؤلفات قيمة. توفي في مكة المكرمة عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م. انظر: محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، ص١٠٩، بيروت، لبنان، دار المعرفة، د.ت.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٣٧؛ وانظر هذه الفتوى في: لمياء أحمد عبدالله شافعي: ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية ٩٠٩هـ/ ١٥٥٣م - ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م، ج٢، ص٦٣٤ - ٦٤٩، رسالة دكتوراه لم تنشر، مقدمة لجامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٤٨.

العباسي هارون الرشيد[١]، وأصاب في ذكره تاريخ الأعمال الخيرية للسيدة زبيدة ومنها إجراء عيون الماء من وراء عرفة إلى مكة المكرمة، ولكنه يسميها عين الزرقاء، ومع أن عين الزرقاء من أهم عيون المدينة المنورة، فإنه لم يأت على ذكرها في حديثه عن المدينة المنورة.[٢]

ومن الرحالة المغاربة من يتحرج في إبداء الوصف لعدم الوقوف على عين الموصوف كالزبادي الذي ذهب إلى البقيع، ولم يصفها كاملة لأنها بحسب قوله: أولًا متباعدة، وثانيًا لخوفه أن يتخطى القبور وهو لا يدري فيقع في محظور.[٣]

وما فعله الزبادي إنما يدل على شدة تمسكه بمنهج المعاينة والمشاهدة ليتمكن من الوصف اعتمادًا على ما رآه.

ومن الملحوظ على مدونات الرحلات المغربية أن الرحالة المغاربة كانوا لا يكتفون بذكر الطريق قدومًا فقط، بل تعداه إلى القفول أيضًا، وكأنهم لشدة حرصهم على تسجيل كل ما يتعلق برحلتهم يخافون أن يكون قد فاتهم شيء في القدوم فيكملونه عند العودة، وهذا النهج سار عليه جميع الرحالة المغاربة دون استثناء.

ومن الملحوظ أيضًا حرصهم على مصاحبة العلماء مثل الغنامي[٤]، وكذلك مصاحبة أخٍ أو قريب، فالعياشي كان مصاحبًا لأخيه[٥]، والرافعي كان

---

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٦/ أ - ٨٦/ ب.

(٢) المصدر السابق، ص٨٦/ ب.

(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٥٦.

(٤) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٣.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٤.

مصاحبًا لابنين من أبنائه[١]، واليوسي كان مصاحبًا لأبيه[٢]، والقادري كان مصاحبًا لشيخه أبي العباس[٣]، والدرعي صحب أسرته معه[٤]، وأبو مدين صحب أخاه، وهنا تجدر ملاحظة تمسكهم بآداب الحج في اختيار الصحبة.[٥]

ومن الرحالة المغاربة من أمدنا بلمحات عن حياته كالرافعي[٦]، وفي رحلته أشار إلى التنافس الذي حصل بين أمير الحاج المصري، وأمير الحاج الشامي[٧]، ولكنه لم يذكر شيئًا كثيرًا عن معالم المدينة المنورة لأنه لم يمكث فيها طويلًا.[٨]

والخلاصة أن الرحلات المغربية تكشف التطورات والتغيرات وأسبابها في بلاد الحجاز، فهي بذلك جديرة بأن تُعتَمد من بين مصادر تاريخ الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين. مما سيتضح بحثه خلال الفصول الآتية من هذا الكتاب.

ب - دقة الوصف:

اتسم وصف الرحالة المغاربة بالدقة، وبأسلوب فني تأثر بالعوامل الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والعلمية التي أشاروا إليها، وبالنواحي الشخصية لكل منهم من حيث التصور والتأثر والخبرة الشخصية والثقافة العامة

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص٤٧، ١٠٨.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٦/ أ.

(٣) القادري: نسمة الآس، ص٢.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٨.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٨.

(٦) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٥٤ - ١٥٥.

(٧) المصدر السابق، ص١٦٠ - ١٦٢.

(٨) المصدر السابق، ص٢٠٢.

ودقة الملاحظة التي يتفاوت فيها الرحالة المغاربة من شخص إلى آخر. فحاولوا الاعتماد على الواقع المشاهد، والابتعاد عن الخيال، كما اعتمدوا على كتب الرحلات السابقة، وأفادوا منها، ثم أضافوا ما لحظوه. وهم في طريقة تناولهم للموصوف قليلو التكلف في الأسلوب؛ فابتعدوا عن استعمال المحسنات البديعية والسجع خلافًا لمن سبقهم من رحالة المغرب والأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين.[١]

وبهذا يمكننا القول: إن ما تناولته أقلام هؤلاء الرحالة المغاربة بالوصف يُحدثُ في النفس إثارة وتشويقًا لرؤية الموصوف عيانًا أو تخيله. وسنحاول أخذ نماذج لمواضع تعاقب الرحالة المغاربة على مشاهدتها والمرور عليها، وسنتلمس أسباب اختلاف رؤيتهم في تناولهم للموصوف أو اتفاقهم، أو إغفالهم أمر وصفه، وهذا يعود إلى شخصية الرحالة وملاحظته، وإلى ما يلفت انتباهه.

فالقيسي مثلًا اتسم أسلوبه في الوصف بالسلاسة، والبعد عن التكلف والسجع، مع إعطاء وصف عام غير مفصل، ولكنه وافٍ بالغرض، إذ تبدو شخصيته المنظمة من خلال رحلته المدونة بترتيب، فقد وضع عناوين للموضوعات التي تكلم عنها.

ولتوضيح طريقة وصفه نورد ما كتبه عن خليص التي مرّ عليها جميع الرحالة المغاربة إذ قال: «فيه عين جارية، يجتمع ماؤها في بركة عظيمة، ذات أركان أربعة مبنية ببناء مرصوص»[٢]. فهنا أهمل وصف منبع العين، ولم يذكر هل هناك مجارٍ لإيصال الماء للبركة أم لا، ولم يأتِ على ذكر زرع أو مسجد

---

(١) نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص١٤٠.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٥.

أو بنيان، فهو بذلك قد أجمل في وصفه، وهذا دأبه في وصف كلّ ما مرّ به. وعندما وصل إلى مكة المكرمة لم يلفت انتباهه إلا الكعبة المشرفة التي تناولها بالوصف وحدد مقاساتها وارتفاعها[١]. ولكنه أغفل وصف كسوتها وميزابها وبابها، ويبدو أنه نظر إليها نظرة كُلّية، ولم يفصل في وصف أجزائها، كما لم يتعرض لوصف المسجد الحرام، وهذا مستغرب لأن الرحالة المغاربة كانوا يتشوقون لرؤية المسجد الحرام ووصفه، فضلًا عن أن القيسي مكث في مكة المكرمة حوالي عشرة أيام.

والغريب أن القيسي اتخذ منهجًا آخر عندما وصف المدينة المنورة، فمع أنه أقام فيها أربعة أيام فقط، فقد وصف داخل المسجد النبوي بالتفصيل وعدَّد أبوابه وأبواب المدينة المنورة بأسمائها[٢]، كما وصف سور المدينة المنورة، وحدد أماكن السقايات فيها، وتصدر لوصف هدية بعثها سلطان المغرب الوليد بن زيدان للمسجد النبوي، وكذلك وصف قباء ومسجدها، وبعض المساجد المشهورة، وكذلك المشاهد في أُحد والبقيع، مع تحديده لأماكن قبور بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ووصف ما وجد عليها من بناء، وختم ذلك بوصف عام للمدينة المنورة.[٣]

ومن المعالم الرئيسة التي أجاد في وصفها المنبر الشريف، ونقل نقوشه فقال عنه: «أصله من رخام، وترصيعه من الصندل الأحمر والأبيض والأصفر... ومما كتب في المنبر في جانبه الأيمن

---

(١) المصدر السابق، ص٨٢ - ٨٣.

(٢) وجد أنه أخطأ في تسمية باب المصري فسماه باب القصري؛ القيسي: أنس الساري، ص٩٦.

(٣) المصدر السابق، ص٩٩ - ١١٦، ١٢٠.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ إلى ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾[١]، وفي الجانب الأيسر «روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما بين روضتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[٢]. وعلى بابه الذي يدخل الإمام منه مكتوب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾[٣] ونون ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ عرّقها الكاتب في الرخامة البيضاء من الخد الأيسر. ومما كتب في قفاه من ناحية القبلة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[٤]

ونخلص مما أورده القيسي في رحلته إلى تركيزه في الوصف على المدينة المنورة وما يختص بها، وكأن أحاسيسه وانفعالاته لم تتفجر إلا فيها، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه إيراده للعديد من المقطوعات والأبيات الشعرية الدالة على التشوق والمديح لها في كل مقام ووصفه بها.

وأما العياشي فكان أكثر دقة من القيسي في وصف ما مرّا عليه كلاهما فقال واصفًا خليصًا: «وفيه عين ماء تجري، وأبنية ومقاهٍ وسوق، وقد سيق الماء في قنوات محكمات من العين، يفجر عنها في مواضع للسقي والوضوء إلى أن خرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية، لم أرَ أَحْلى منها ولا أعظم، يغرق فيها مَنْ لا يحسن العوم، ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد... ومررنا على غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل[٥] وغيره، وفي خلالها فدادين يزرع

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٢.

(٢) البخاري: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج١، ص٢٠٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٥) «الأثل»: شجر عظيم لا ثمر له. انظر: الفيومي: المصباح المنير، ج١، ص٩.

فيها المقاثي[١] والدخن وغير ذلك».[٢]

فالعياشي سجل كل ما لحظه، فأثبت وجود أبنية ومقاهٍ وسوق وغيرها من أنواع العمارة، وذلك يوضح دقة وصفه وعظيم ملاحظته.

ولم يحاول العياشي وصف كل ما وجد في المسجد الحرام من معالم دقيقة، مع أنه مكث في مكة المكرمة مجاورًا مدة من الزمن كانت بلا شك كافية لقيامه بالتدقيق والوصف، وكل ما أثبت وصفه شكل الكعبة المشرفة من الداخل، وكان دقيقًا فيه حتى إنه أورد رسمًا توضيحيًا مفصلًا لها. فكان أول من استخدم تلك الرسوم التوضيحية في كتب الرحلات المغربية، فعُدَّ رائدًا في ذلك.

ومما ذكره في وصفه لداخل الكعبة المشرفة قوله: «من داخله بيت مربع، ونقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السلم نحو ثلاثة أذرع، ليصعد منه إلى السطح، وأرضه مفروشة بالمرمر الملون المجزع، مكسو الحيطان والسقف بكسوة على هيئة الكسوة الخارجية في الصنعة والكتابة مخالفة لها في اللون، فإن الخارجة سوداء كلها، والداخلة بياض في حمرة، وفيه مصابيح كبيرة معلقة، بعضها من الذهب، وبعضها من البلور الأبيض الصافي المكتوب بلون أزرق، وله ثلاثة أعمدة من خشب، مصطفة في وسطه ما بين اليمين والشمال، وكل عمود منها قد سمّرت عليه ألواح من عود من أسفله مقدار وقفة... والخشب المسقف الذي عليه اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدها رأسه على رأس السلم وهو أقربها لجدار البيت، وليس بينه وبينه إلا مقدار ما

---

(١) «المقاثي»: يطلق على أنواع الخضار مثل الخيار والفقوس. انظر المصدر السابق، ج٢، ص٥٩٠ - ٥٩١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩.

يصلّى فيه، والثاني بينه وبين الباب الثالث عند الباب»[١]. وفي مكان آخر عندما ذكر تجديد سقف الكعبة المشرفة قال: إن لها سقفين بينهما مقدار ذراعين ونصف أو ثلاثة حسبما قيل له.[٢]

وأغفل العياشي وصف الميزاب والحِجْر، ولكنه أشار إلى وجود مجارٍ لتصريف مياه السيول في أرض المسجد الحرام، كما أشار إلى وجود القباب، وأن أرض الحرم الشريف والمسعى مفروشة بالرمل والحصى، وذكر وجود نقوش في المقام، وعلى قبة زمزم، وعلى قباب مقامات الأئمة الأربعة، ولكنه لم ينقلها، كما أثبت عدد الأعمدة التي كانت موجودة في المطاف، ولكنه لم يتطرق إلى وصفها.[٣]

وفي مقابل وصفه العام للمسجد الحرام وجدناه برع في وصف الأماكن المأثورة في مكة المكرمة بدقة شديدة، مثل وصفه لغار حراء.[٤]

وعندما جاور في المدينة المنورة غض الطرف عن التدقيق في وصف المسجد النبوي، وربما يرجع ذلك إلى المرض الذي ألَمَّ به في المدينة المنورة مدة طويلة، ولكنه لم يترك موضعًا ولا مشهدًا أو مسجدًا أو بئرًا كان موجودًا في المدينة المنورة في ذلك الوقت إلا تناوله بالوصف، مستعينًا في ذلك بما تركه السمهودي من أوصاف في كتابه «وفاء الوفا» إضافة إلى تسجيله لعوائد أهلها بدقة وعناية فائقة.[٥]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٤. ووصف العياشي لداخل الكعبة المشرفة مهم لا سيما أنه جاء بعد بنائها في عهد السلطان مراد العثماني.

(٢) المصدر السابق، ص٤٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص٣٩٤ - ٣٩٥.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٧.

(٥) المصدر السابق، ص٨٧ - ١٧٣، ١٩٧ - ٢٤١. الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق =

ومع عدم تدقيق العياشي في وصف الحرمين المكي والمدني، فقد وصف الطائف[١]، وجُدة وما جد فيهما من آثار[٢]. فسجل بذلك أوصافًا لم تكن على طريق الرحالة المغاربة فكان له السبق في إيراد الجديد والغريب والنادر والطريف، فتميز عن غيره من الرحالة المغاربة في ذلك.

ونخلص إلى القول: إن العياشي يعد شيخ من أتى بعده من الرحالة المغاربة والمعول عليه، فرحلته كانت أنموذجًا احتذوا به لما تضمنته من موضوعات وأوصاف أماكن رتبت تحت عناوين منظمة، ولم يستطع أي منهم أن يصل في تدوينه لرحلته إلى ما وصل إليه العياشي، من حيث كبر حجمها أو ما اشتملت عليه من مناقشات وطرائف وموضوعات فقهية، وأوصاف جغرافية، وعادات اجتماعية، وأحداث تاريخية وسياسية واقتصادية، فانفرد العياشي وكان سباقًا ومتميزًا، وكانت رحلته أصدق دليل على شخصيته المتميزة.

أما الرافعي أحد فقهاء تطوان وأدبائها في القرن الحادي عشر الهجري، فقد حاول كتابتها بأسلوب أدبي تكلف فيه كثيرًا، دون أن يرقى لأسلوب أدباء الرحالة المغاربة في القرون السابقة، وقد اعترف هو نفسه بضعفها الأدبي.[٣]

وقد ضمنها الأوصاف الجغرافية مع أنه غض النظر عن كثير منها، فأورد وصف الحرمين الشريفين، وضمنها بعض العوائد الاجتماعية، وإشارات تاريخية وسياسية واقتصادية، وأخبار من لقيهم من العلماء فبدت رحلته سجلًا

= أمحزون.

(١) المصدر السابق، ص٤١٠ - ٤١٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٠١ - ٤٠٥.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص٢٨٧؛ د. حسن الوراكلي: أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل القرن الحادي عشر الهجري، ص١ - ٢.

تاريخيًا لمجتمعات البلدان التي مرّ عليها في رحلته التي استغرقت أربعة عشر شهرًا.

وسنحاول أن نتلمس مقدار اهتمامات الرافعي من خلال رحلته، فمثلًا: عندما مرّ بخليص أهمل وصفها ولم يورد بشأنها إلا قوله: «خليص الزرقاء»[١]، فهنا أثبت الرافعي أنها إحدى منازل الحاج فقط، ولا ندري ما سبب نعته لها بالزرقاء، فهو لم يوضح ذلك، ولكنه بمجرد وصوله للمسجد الحرام انبرى لوصفه بأدق تفاصيله، إذ يعد أدق من وصفه من الرحالة المغاربة، فقد كان شديد الملاحظة فقال واصفًا الكعبة المشرفة: «وسط هذا البيت العتيق... وباب الكعبة عالٍ عن الأرض بثمانية أشبار وأربعة أصابع، عرضه ثمانية أشبار... كأنه البدر في هالته حُسنًا، كله بالفضة في نمط حسن، وقفل الباب فضة، وكذلك خرصتان وفضتهم (كذا، والصواب فضتها) مموهة بالذهب، فصارت كأنها شعلة تضيء وتلتهب، وطول الباب قدرت له اثنا عشر (كذا، والصواب اثني) شبرًا... والملتزم بجانب الباب... والحَجَر في ركن الكعبة وهو أسود... وهذا الحَجَر السعيد مدير (كذا، والصواب مُدار) بفضة، ارتفاعه عن الأرض خمسة أشبار... وميزاب الكعبة وسط الحِجْر... طوله نحو الثلاثة أشبار، وعرضه شبرًا (كذا، والصواب شبر)... مغشىً كله بالذهب... وفي أسفل الكعبة بناء منحدر منها ومتصل يقال له: الشرذوان (كذا، والصواب شاذروان) يضاف بها من ثلاث جهات عدا جهة الحِجر... يدار بأسفل الكعبة أخراص عديدة من الصُّفر والنحاس لتربط بها كسوة الكعبة... وهذه الكسوة من خالص الحرير... سوداء كالمسك».[٢]

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٥.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٧ - ١٤٠.

ومن المعالم التي وصفها الرافعي في المسجد الحرام أرضه وما فرشت به، وأبوابه، ومناراته، ومصابيحه، كما وصف المقام والحفرة التي بجانب الكعبة المشرفة، والحِجْر، وقبة زمزم، وحدد أماكن مقامات الأئمة الأربعة، كما حدد طول المسجد الحرام وعرضه، وأتبع ذلك بوصف الصفا والمروة[١] وغير ذلك مما هو متعلقٌ بالحرم المكي بصفة خاصة والمشاعر المقدسة ومكة المكرمة بصفة عامة.[٢]

وعلل حرصه على تسجيل ما يتعلق بالمسجد الحرام بأنه شُغِفَ به قلبه، فوصفه تبركًا وطلبًا للثواب والأجر، وليكون قارئ رحلته كالمشاهد، فيحصل له الأجر بذلك، وبعض الفوائد، وأتبع تعليله هذا إقراره بأنه غير أهل لما تصدر له[٣]، حيث تتضح شخصيته المتواضعة، وأن كل ما أراده هو الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى.

وعندما وصل الرافعي إلى المدينة المنورة بادر أيضًا إلى وصف المسجد النبوي، فعدَّد أبوابه، ومناراته، ووصف صحنه وما فرش به، والقبة التي وجدت فيه، ونخلتين زرعتا هناك، ووصف أيضًا الروضة الشريفة، والمحاريب الثلاثة، والمنبر ونقل نقوشًا رآها[٤]، وعن المنبر قال: «وهذا المنبر الآن من خالص الرخام، أبيض منقوش مخرم، وصفه لا يرام، طول هذا المنبر المديد في الأرض تسعة عشر شبرًا، وأربعة أشبار في العرض، له إحدى عشرة درجة».[٥]

واعتذر الرافعي عن وصف مشاهد خارج نطاق المسجد النبوي؛ لقلة

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٧ - ١٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٩ - ١٦٩.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٦ - ١٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص١٨٢ - ١٩٠.

(٥) المصدر السابق، ص١٨٣ - ١٨٤.

مكثه في المدينة المنورة، وأنه فضَّل ملازمة المسجد النبوي عن التطلع لغيره من الأماكن[١].

أما القادري فكان يحكم خطوات تسجيل رحلته شيخه أبو العباس، إذ إنه لشدة تعلقه به وحرصه على ملازمته وإحصاء خطواته وسكناته، فوَّت علينا كثيرًا من الأمور، فالقادري كان سريعًا في وصفه، مثبتًا لأسماء الأماكن دون إسهاب، ولكنه دقيق ومركز، وكل ما سجله القادري في رحلته كان من خلال تتبعه ووصفه لأفعال شيخه في غالب ما دوَّنه، حتى إنه يمكننا القول: لولا وجود شيخه معه لما سجَّل رحلته[٢]، لأنه سبق له الحج قبل ذلك ولم يسجل أحداث رحلته تلك.

ومن أمثلة وصفه عن خليص قوله: «قرية ذات نخل وماء عذب قوي»[٣]. وهو بذلك لم يعط أي تفصيلات في وصفها، كما لم يتسن للقادري وصف المسجد الحرام لأنه لم يكن يُهمُّ شيخه التدقيق فيه، والحرص على التجول داخله، وكل ما حظينا به منه في وصفه لمعالم المسجد الحرام، وصف داخل الكعبة المشرفة لأن شيخه دخلها[٤]، ويمكننا أن نطلق على هذا الوصف أنه تسجيل لأفعال شيخه أبي العباس، وعندما أورد أوصاف الأماكن المأثورة في مكة المكرمة كان شيخه بطلها أيضًا، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه قوله: «ومر سيدنا بمكة في تلك الشوارع وزار بها عدة مواضع من الأماكن».[٥]

وعندما وصل القادري إلى المدينة المنورة لم يحفل أيضًا بوصف

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠٢.

(٢) القادري: نسمة الآس، ص٢.

(٣) المصدر السابق، ص٧٥.

(٤) المصدر السابق، ص٨٦.

(٥) المصدر السابق، ص٩٠.

المسجد النبوي إلا فيما ندر أثناء حديثه، ولكنه سجل وصف المشاهد التي زارها شيخه في المدينة المنورة.[١]

ويأتي اليوسي بأوصافٍ مختصرة حينًا وأخرى مسهبة في أثناء رحلته، وفي كلتا الحالتين عبّر عما شاهده، فمن ذلك وصفه لخليص حيث قال: «وماؤها كثير طيب، وقرى الحجاز كلها أخصاص[٢] وبنيان قليل»[٣]. فأشار بذلك إلى أن خليصًا كانت قليلة البنيان كثيرة الأخصاص.

وأقام في مكة المكرمة خمسة عشر يومًا[٤]، ووصف بعض ما في المسجد الحرام، مثل الشاذروان، وميزاب الكعبة الشريفة، كما حدد ارتفاع بابها وموقع الملتزم والحطيم دون تفصيل[٥]، وفي المدينة المنورة أقام يومًا واحدًا ولم يصف المسجد النبوي، ولا المشاهد، واسترعى انتباهه الازدحام الشديد في المسجد النبوي، وياقوتة كانت معلقة على الحجرة النبوية الشريفة.[٦]

وربما اكتفى بأوصاف مَنْ سبقه من الرحالة المغاربة والمؤرخين في ذلك، في حين سجل دقائق الأمور والأعمال التي لم يلتفت إليها الرحالة المغاربة الآخرون مما يخص العامة، إذ رصد تصرفات العوام من الناس، فطغى الجانب الاجتماعي في رحلته على غيره من الجوانب، كما تُظهِر رحلتُه شخصيتَه

---

(١) القادري: نسمة الآس، ٨٦، ٩٠ - ٩٢، ١٠٢ - ١٠٧.

(٢) «الخص»: بيت من شجر أو قصب، وقيل: البيت الذي يسقف عليه بخشبة على هيئة الأزج، وسمي بذلك لأنه يُرى ما فيه من فرجة أي خصاصة، انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص٢٦. وهذا يدل على نوع البناء السائد في ذلك الوقت.

(٣) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب.

(٤) المصدر السابق، ص٩٤/ أ.

(٥) المصدر السابق، ص٨٩/ ب، ٩٢/ ب.

(٦) المصدر السابق، ص٩٤/ ب - ٩٥/ أ.

المعتدة بنفسها، والتي تعكس شخصية والده.

أما الدرعي فقد اعتمد على ما ذكره العياشي وأضاف القليل الذي جدّ، فمما ذكره عن خليص قوله: «وماء هذا العين أحلى وأعذب إلا أنه سخن»[١]. كما أشار إلى وجود مسجدٍ نُسِب للنبي ﷺ قال عنه: «وقد تهدم وامتلأ أوساخًا وصار إصطبلًا للدواب فإنا لله وإنا إليه راجعون».[٢]

وكان الدرعي في وصفه للمسجد الحرام والمسجد النبوي، ومعالم المدينتين المقدستين عالةً على ما أورده العياشي في رحلته، حيث كان يورد الفقرات الطوال وأضاف القليل النادر فحذا حذوه، كما نقل عنه وصفه لمدينتي جُدة والطائف[٣]، ولم يستثن الأماكن المشهورة في مكة المكرمة[٤] من نقله أيضًا، وعندما تحدث عن معالم المدينة المنورة كان عالة على العياشي في إضافاته القليلة لما استجد[٥]، والذي كان في غاية الأهمية لأنه يظهر لنا التغيرات التي طرأت، والتي ربما لا نجدها في كتب التاريخ المتخصصة، وهذه فائدة كتب الرحالة المغاربة حيث يتم تتبع بدايات الأمور والأحداث، وربط الأسباب بالنتائج بيسر وسهولة.

أما الغنامي فرحلته قصيرة جدًا، وكأنه أرادها مذكرة صغيرة، فلم تكن كرحلات غيره من الرحالة المغاربة من حيث الضخامة والشمول، فهي مقتطفات مختصرة لما مرّ به، فمن ذلك تعيينه لموقع قديد[٦] دون أن يأتي على ذكر خليص

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣.

(٢) السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق والجزء، ص٢٣٦ - ٢٤١.

(٤) المصدر السابق والجزء، ص٢٠٢ - ٢٠٧.

(٥) المصدر السابق، ج٢، ص١٠ - ٤١.

(٦) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥.

القريبة منه، كما لم يأت على وصف المسجدين المكي والمدني، وكل ما ذكره عنهما عدد أبوابهما[١]. مع ملاحظة أن رحلته مبتورة، ولعل فيما بتر منها أوصافًا أشمل، خاصة أنه وصف الدور المشهورة في مكة المكرمة بدقة، كما حدد أماكن القبور المشهورة والمساجد التي زارها في المدينة المنورة.[٢]

ويبدو أن اهتمامات الغنامي العلمية والبحث عمّن يتلقى العلم عنه، كان أظهر من أي اهتمام آخر، لذا كانت هذه الناحية هي الغالبة على رحلته، خاصة أنها كانت إحدى الدوافع التي حفزته لتسجيل رحلته فقال: «أردت أن أعلق ما وقع لي من الزيارات، في سفري هذا من الملاقاة مع المشايخ الذين لهم في العلم والدين القدم الراسخ، وما حصل لي منهم».[٣]

ويأتي الحضيكي الرحّالة الوصّاف، ودقته في الوصف تختلف من موقع إلى آخر، فإذا كان الموقع مرتبطًا بناحية تاريخية أوردها دون تكلف وكأنها من سياق الوصف، كذكره لموقع قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها[٤]، وأهمل ذكر خليص تمامًا، واستبدل بها موقع كديد[٥] ووصفه بقوله: «عينٌ تجري، وحوله قبتان الآن وصهريج»[٦]. وربما يعود النزول بالكديد إلى اضمحلال شأن خليص قليلًا أو أنهم لم يمروا عليها.

---

(١) المصدر السابق، ص٥، ٧.

(٢) المصدر السابق، ص٧ – ٨.

(٣) المصدر السابق، ص١.

(٤) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٠.

(٥) «الكديد» يعرف اليوم باسم الحمض لكثرة نبات العصلاء فيه، وتكثر في هذا الموضع الرمال ويزرع هناك الدخن عثريًا، وماء الكديد ملح لا يصلح للزراعة، وتبعد عن عُسفان (١٧) كم. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٧، ص٢٠٥.

(٦) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٠.

واستعاض الحضيكي عن وصف المسجد الحرام بوصف أحوال الناس في مكة المكرمة قبل الطلوع لعرفة وبعده، ووصف الشاذروان، وناقش وجود مقامات الأئمة الأربعة في الحرم المكي[١]، كما عدَّد الأماكن المشهورة في مكة المكرمة دون إسهاب.[٢]

وفي المدينة المنورة اكتفى من معالم المسجد النبوي بذكر المنبر الشريف[٣]، ولكنه فيما يتعلق بالمواقع المشهورة الأخرى فإنه أتى على وصفها وعلى ذكر الناحية التاريخية المتعلقة بها.[٤]

وأما أبو مدين فقد اعتمد اعتمادًا رئيسًا على ما جاء في رحلة الدرعي، وصرح بأنه سيأتي بكلامه مختصرًا مع إبقائه على بعض ألفاظه[٥]، وأضاف إليه ما رأى أنه استجدّ. واتسمت رحلته بالترتيب والتنظيم، فجعلها على هيئة مقدمة وثلاثة أبواب، يندرج تحت كل باب عدة فصول[٦]، ورحلة أبي مدين على حد علمنا هي الرحلة الوحيدة التي كتبت بهذه الصورة.

فعندما مر أبو مدين على خليص ذكر الكديد وقال عنها: «وفيه ماء عذب جار... وفيها أسواق». ويظهر من كلامه أنها قرية عامرة لأنهم اكتروا بيتًا فيها.[٧]

وعندما وصل إلى مكة المكرمة وذهب إلى المشاعر المقدسة لأداء

---

(١) المصدر السابق، ص٤١ - ٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص٦٧.

(٣) المصدر السابق، ص٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص٨٤ - ٩٢.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٢.

(٦) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٣.

(٧) المصدر السابق، ص١٧٣.

فريضة الحج ووصف كل ما شاهده من آثار هناك[١]، وتصدَّر أيضًا لوصف الأماكن المأثورة في مكة المكرمة مثل غار ثور الذي وضع لداخله رسمًا توضيحيًا[٢]، كما ذكر أغلب المشاهد التي زارها في مكة المكرمة بترتيب وعناية.[٣]

وكان لبعض معالم المسجد الحرام نصيب من وصفه حيث وصف الكعبة المشرفة مستعينًا في ذلك بما جاء لدى الأزرقي، كما أورد وصفًا للمقام، وزمزم، والمطاف، وعدَّد أبواب الحرم الشريف ومناراته، ذاكرًا أنه أصبح عددها الآن سبعًا بزيادة منارتين عما ذكره الأزرقي والفاسي، كما نقل مساحة المسجد الحرام أيضًا من الأزرقي[٤]. ولا نستطيع أن نعرف سبب إغفاله وصف المسجد الحرام والاكتفاء بإيراد ما جاء لدى الأزرقي على الرغم من أنه قد جاور في الحرمين وكان لديه الوقت الكافي للتأمل والمشاهدة والتدقيق، ولكن يبدو أنه من الرحالة المغاربة الذين أحبوا النقل عن غيرهم، مع وضع مداخلات أثناء ذلك بإضافة ما قد استجد، فهو بذلك ربط في رحلته القديم بالحديث، حيث إن المتصفح لرحلته لا يحس بهذه النقلات الزمانية التي نستشعرها من سياق الوصف.

وعندما جاور في المدينة المنورة نقَّب عن الأماكن التي يُؤثَر عن النبي ﷺ أنه جلس فيها، أو المساجد التي صلى فيها، والآبار التي شرب منها، فحرص على زيارتها ووصفها، مثل البقيع وما فيه من المشاهد والآثار[٥]. كما حرص على وصف المسجد النبوي بدقة، فقد استوفى وصفه من حيث عدد أساطينه

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٨ - ١٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٧ - ١٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص١٨١ - ١٨٢.

(٤) المصدر السابق، ص١٨٥ - ١٩٠.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٥ - ١٥١، ١٦٠ - ١٦٨.

ومناراته وأبوابه، كما وصف الروضة الشريفة وصحن المسجد وغير ذلك من المعالم المهمة فيه.[١]

وأما الزبادي فقد أضاف كثيرًا من المعلومات عن الحجاز على ما أورده أسلافه الرحالة المغاربة، واتسمت طريقة وصفه بالوضوح والرؤية الجيدة، فمن ذلك أنه عندما مر على خليص ذكر وجود حصن هناك، فقال: «وهناك حصن يحصل به الإيناس، وأبنية وقهاوي (كذا)، ودلاع يصلح للتداوي يسمونه (حبحب)، وهو أحلى دلاع يوجد، وأطيب، ولا ينقطع الدلاع من أرض الحجاز صيفًا ولا شتاءً إلا سنة الجدب والعام الأشهب... وماء هذه الأرض عذب زلال، غزير سلسال، يأتي من عين هناك في قنوات محكمة تتفجر في مواضع للسقي والوضوء إلى أن يخرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية، مديّرة (كذا) الأقطار بعيدة القرار، ويخرج منها إلى مزارع وأوطار».[٢]

أما وصف المسجد الحرام فنقل وصفه من رحلة أخيه أحمد الذي جاور قبله، ثم ألحقه بما جاء في رحلة العياشي[٣]، ويبدو أن معالم المسجد الحرام لم تتغير، إضافة إلى قِصَر مدة مكوث الزبادي في مكة المكرمة، فهذا دعاه إلى النقل، مع الأخذ في الحسبان أنه لم يسجل رحلته في حينها.[٤]

ومن الجدير بالذكر أن ما نقله الزبادي عن رحلة أخيه أحمد المفقودة يعطي صورة حقيقية عن أوضاع الحجاز في تلك المدة، لأنها في غاية الدقة والأهمية، فرحلة أخيه تعد من الرحلات المغربية المفقودة.

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٢ - ١٥٥.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٥ - ٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص١١٧ - ١٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص٥ - ٦.

وعندما وصل الزبادي إلى المدينة المنورة نقل وصف المسجد النبوي عن أخيه وعن ابن جبير وغيرهم[١]، وأضاف أحداثًا كثيرة حدثت أوان رحلته.

فالرحلات المغربية نقلت عن بعضها، وأكملت بعضها، فظهرت سلسلة متصلة الحلقات تحكي تاريخ الحجاز، وتتحقق فائدتها إذا ما قورنت بما كتبه مؤرخو مكة المكرمة ومصر والشام وغيرهم عن الحجاز في تلك المدة.

ج - الإفادة من الرحلات السابقة:

اعتمد الرحالة المغاربة على كتب مَنْ سبقهم من الرحالة، وهذا من أسس الكتابة التاريخية لدى كبار المؤرخين المسلمين، مع إضافة ما غاب عن السابقين، أو ما جدّ بعدهم، أو تغير. وعلى هذا يكون قد وصل الحاضر بالماضي، وعليه فقد أمدتنا تلك الرحلات المغربية بمعلومات متسلسلة عن تاريخ الحجاز والبلدان التي مروا بها.

كما عرّفتنا بأسماء كتب ومؤلفين لم نعرفهم إلا من خلال ما سجلوه فحفظوا لنا على الأقل أسماء هؤلاء المؤلفين ومؤلفاتهم وشيئًا مما حوته تلك المؤلفات.

ولا نجانب الصواب إذا قلنا: إنه يمكننا استخراج معجم جغرافي للأماكن التي مرّ عليها الرحالة المغاربة، فقد سجلوا أسماءها وأوصافها مع إلقاء الضوء على تاريخها إن وجد.

لذلك فإن أهمية الرحلات المغربية تكمن في أنها خزانة كتب ضخمة في معلوماتها، صغيرة في حجمها، لا يعرف ما فيها إلا بعد التنقيب والبحث لإخراج النفائس التي تضمنتها للإفادة منها.

---

(١) المصدر السابق، ص١٧٣ - ١٧٦، ١٧٩ - ١٨٠.

ومن الملحوظ على الرحالة المغاربة من خلال نقولاتهم عمن سبقوهم، أن كل رحالة يؤثر نقل ما تميل إليه نفسه ويوافق هواه، فمنهم مَنْ آثر نقل الأدبيات مثل الأشعار كالرافعي والزبادي، فقد كتبا رحلتيهما بأسلوب يحاكي أسلوب الأدباء من حيث السهولة والخلو من التكلف، ومنهم من مال إلى نقل النواحي العلمية وبعض القصائد والمقطوعات الشعرية كالقيسي والحضيكي، ومنهم مَنْ أحبّ نقل النواحي الجغرافية، والعوائد الاجتماعية، والأمور الاقتصادية، مثل الدرعي وأبي مدين والعياشي، ومنهم من مال إلى تسجيل ما عاينه فقط كاليوسي والغنامي، ومنهم مَنْ جمع ذلك كله كالعياشي الذي يمكننا أن نطلق عليه رحَّالة الوصف الشامل.

وقد يطغى جانب على آخر، فكل رحلة مغربية تعد مليئة بالعديد من المعلومات في النواحي العلمية والأدبية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية والسياسية وتنتظر الدراسة والاستخراج.

ولم تقتصر إفادة الرحالة المغاربة على كتب الرحلات السابقة فحسب، بل نجدهم قد أفادوا من بعض كتب التاريخ العام لكبار المؤرخين، أمثال ابن خلدون من كتابه العبر، والسيوطي من كتابه حُسن المحاضرة، وبعض كتب التاريخ الخاص بالحجاز لكبار مؤرخي مكة المكرمة والمدينة المنورة، مثل الفاسي من كتابه شفاء الغرام، وابن فهد من كتابه إتحاف الورى، والأزرقي من كتابه تاريخ مكة، والسمهودي من كتابه وفاء الوفا، وابن النجار من كتابه الدرة الثمينة. كما استعانوا بكتب معاجم اللغة مثل القاموس للزبيدي لتفسير معاني بعض الكلمات.

فالقيسي مثلاً وجدت في رحلته نقولات من رحلة ابن رشيد[1] فيما

---

(١) محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن رشيد أبو عبدالله الفهري السبتي. ولد في =

يختص بالناحية العلمية، إذ سجل حديثًا رواه ابن رشيد[١]. كما نقل من أصل رحلته وبخطه شعرًا في المديح.[٢]

ومن الجدير بالذكر أن أصل رحلة ابن رشيد التي تسمى «ملء العيبة» كانت موجودة في رباط الموفق[٣] الذي كان موقوفًا على المغاربة في مكة المكرمة[٤]. ولكن للأسف فقدت رحلته التي لم نعرف خبر وجودها بهذا الرباط إلا من أمثال هؤلاء الرحالة المغاربة الذين اطلعوا عليها وأفادوا منها، وهذا يؤكد حقيقة مهمة أنه لولا كتب الرحلات المغربية لما عرفنا شيئًا عن بعض أمهات كثير من الكتب حَفِظَت أسماءها ومحتوياتها وأماكن وجودها كتبُ الرحلات المغربية التي أوضحت وبلا شك أن مكة المكرمة والمدينة المنورة ضمت في خزائن كتبها سواء منها العامة أو الخاصة كتبًا مهمة. كما بينت كتابات الرحالة المغاربة أن المدينتين المقدستين كانتا حتى القرن الثاني عشر الهجري مركزين من مراكز العلم المهمة يصل شعاعهما إلى جميع أقطار العالم الإسلامي، بفضل ما وجد فيهما من كتب متنوعة علمية وأدبية وتاريخية ودينية، بالإضافة إلى وجود العلماء المتصدرين للتدريس فيهما سواء منهم المقيمون من أهلهما أو المجاورون فيهما والوافدون عليهما خلال مدة الحج.

ومما أفاد منه العياشي من الرحلات السابقة «رحلة البكري» التي عثر

= سبتة عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م وتوفي في فاس عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م. أنشأ رحلةً إلى الحجاز عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م وسجل أحداثها وسماها ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة. نواب: الرحلات المغربية، ص١١٠ - ١١١.

(١) القيسي: أنس الساري، ص٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٤.

(٣) رباط الموفق في أسفل مكة المكرمة بالقرب من باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام وهو أوقاف على المغاربة عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م. نواب: الرحلات المغربية، ص٣٩١.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٠.

عليها في مصر وسمى مؤلفها بالشيخ محمد البكري، ويبدو أنه لم يكن متأكدًا من اسمه حيث قال: «وأظنه أحمد أخا شيخنا محمد ابن الشيخ زين العابدين».[١]

وقد استعان العياشي بهذه الرحلة كثيرًا في وصف درب الحجيج من مصر إلى مكة المكرمة، فقد كان العياشي يصف ما يراه لمرحلتين أو ثلاث ثم يورد ما ذكره البكري عنها دون تدخل منه في نصه، لأنه لم يشأ على حد قوله تجزئة كلامه[٢]. فالعياشي عندما استشهد بما جاء في رحلة البكري كان ذلك بما يناسب الحال والموضع، فالبكري أسهب في وصف درب الحجيج من جميع النواحي، وقد سار العياشي على هذا النهج في كل موضع أخذه منها، بحيث إن القارئ يستخلص الاتفاق أو الاختلاف في رحلته التي نقل عنها.

كما أفاد من رحلة العبدري التي يبدو أنه قد اطلع عليها أيضًا[٣]، وأفاد أيضًا من رحلة ابن رشيد ونقل منها، إذ رأى منها النسخة الأصلية في رباط الموفق بمكة المكرمة عندما تكلم عن إماتة سنة المبيت بمنى، وفي هذا الأمر أيضًا استعان بقول العبدري فيها[٤] حيث تطابقت أقوال الثلاثة في مدد زمنية متباعدة.

وسجّل العياشي استدراكات على رحلة ابن رشيد فيما يختص بدرب الحجيج[٥]، وأخذ أيضًا من رحلة البلوي المسماة «تاج المفرق» في وصف

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٧.
(٢) المصدر السابق والصفحة.
(٣) المصدر السابق، ص٩٥.
(٤) المصدر السابق، ص١٥٢.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٠.

وادي النار[١] في مكة المكرمة.[٢]

ونجد الرافعي قد أفاد من الرحلات السابقة أيضًا، إذ نقل عن العياشي ما أورده عن المناسك[٣]، كما نقل عن ابن جبير الذي أرسى قواعد فن الكتابة التاريخية للرحلة أبياتًا شعرية في التشوق لزيارة المسجد النبوي، وفي التهنئة لمن حج بيت الله الحرام[٤]. فالرافعي كما نلمس من رحلته كان يميل لهذا النوع من الأدبيات.

ومن الرحالة المغاربة من أغفل أمر الإفادة من الرحلات السابقة كالقادري الذي اتجه إلى توثيق رحلته من الكتب التاريخية المحلية، فقد استشهد بما جاء في كتاب «شفاء الغرام» للفاسي حول قبر أم المؤمنين السيدة ميمونة رضي الله عنها عندما مرّ به، فقال: إن الفاسي ذكره[٥]. وكذلك في وصفه لدار أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، حيث نقل ذلك الوصف من الفاسي.[٦]

وممن أغفل أمر الإفادة من الرحلات السابقة أيضًا اليوسي الذي كان يميل في تسجيل رحلته على الواقع الماثل أمامه، وخاصة الناحية الاجتماعية من أمور الحجاج في دربهم الطويل، ورصد بعض الأحداث التي عانوا منها، كما سجل صفات بعض أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكتب بعض النواحي التاريخية وخاصة تلك التي تتعلق بالرسول ﷺ، وهو في ذلك يريد إرجاع

---

(١) «وادي النار» هو وادٍ صغير يمر به الحجاج بين مزدلفة ومنى، ويسمى أيضًا مُحسرًا، وهو الأشهر، ويعرف اليوم بدقم الوبر. انظر: البلادي: معالم مكة التاريخية، ص٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٧.

(٤) المصدر السابق، ص١٢٧ - ١٥٧.

(٥) القادري: نسمة الآس، ص٧٥.

(٦) المصدر السابق، ص٩١.

القارئ للكتب المتخصصة في هذا الشأن مثل المواهب اللدنية لمن أحب الاستزادة والفهم[١]، كما كان يميل إلى السؤال عن أمورٍ لم يكن يعرفها فيستفسر شفهيًا ممن له علم بها.[٢]

ومن الرحالة المغاربة الذين أفادوا من رحلات غيرهم الدرعي الذي اطلع على رحلة التجاني[٣]، ونقل عنه تعريفه بشجر العشر الذي يصنع منه الطرف[٤]. كما نقل عن البلوي رأيه في الدباغ[٥] صاحب كتاب معالم الإيمان وثناءه عليه[٦]، وأفاد من رحلة العبدري في وصف قبر الشفاف الذي يقع في موضع يسمى أم العظام.[٧]

ولكن كان أكثر إفادته من رحلة العياشي، إذ نقل عنه وصف سبخة[٨] في

---

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب.

(٢) المصدر السابق، ص٨٥/ أ - ٨٦/ ب.

(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد أبو عبدالله التجاني، أديب له عدة مؤلفات توفي عام ٧١١هـ/ ١٣١١م. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٣٢٤.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٧٧ - ٧٨. «الطرف» الطرفة شجرة من العضاه، وهدبه مثل هدب الأثل وليس له خشب، إنما يخرج عصبًا سمحة في السماء، وقد تتحمض بها الإبل إذا لم تجد حمضًا غيره وقيل الطرفاء من الحمض. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص٢٢٠.

(٥) عبدالرحمن بن محمد بن علي الأنصاري الأسيدي، أبو زيد، المعروف بالدباغ من أهل القيروان، توفي عام ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م وترك العديد من المؤلفات منها كتاب معالم الإيمان. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٣٢٩.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٥٥.

(٧) المصدر السابق والجزء، ص١٦٣؛ و«أم العظام» يطلق عليها أيضًا عش الغراب، أو شرفة بني عطية، وتقع بين البدع وحقل. انظر: حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص١٨٥؛ عاتق بن غيث البلادي: رحلات في بلاد العرب في شمال الحجاز والأردن، ص٧٣؛ هامش رقم ٣، جدة، دار المجتمع العلمي، ط١، د.ت.

(٨) «سبخة» أرض ذات ملح ونزو، ومعناها الأرض المالحة التي تسوخ فيها الأقدام. انظر: ابن =

تونس ورأيه في القهوة(١)، وما ذكره من آثار النبي ﷺ الموجودة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف وغيرها.(٢)

وسجل عنه أيضًا ما كتبه عن منازل الحج التي نقلها العياشي عن البكري(٣)، وعندما مر الدرعي على عَجْرُوَد(٤) وصفها بقلة الماء، وأكد قوله بما أورده العياشي حول قلة مائها أيضًا(٥)، ونقل عنه وصفه لمنزل ظهر الحمار(٦) وقال: إن العياشي ذكر أنها تسمى وقت رحلته حفائر النخل.(٧)

وعلى العموم فنقولات الدرعي عن العياشي وإفادته من رحلته كثيرة، فقد اعتمد عليها اعتمادًا كاملًا في معظم رحلته.

أما الغنامي فلم يفد من كتب الرحلات السابقة، ولم يشر في خطبة رحلته

= منظور: لسان العرب، ج٣، ص٢٤.

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٣٥.

(٢) المصدر السابق والجزء، ص١٤٥.

(٣) المصدر السابق والجزء، ص١٥٢ وما يليها.

(٤) «عجرود»: العجر الخفيف السريع، والعجر الغليظ الشديد، منهل من مناهل الحاج المصري، وهي أولها من بركة الحاج، ذو ماء رديء. انظر: محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضي الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي: شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، ج٢، ص٤١٥ - ٤١٦، دار الفكر، د.ت؛ الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣١٩ - ١٣٢٢.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٥.

(٦) «ظهر الحمار» سبب التسمية غير معروف، وهو جبل بقرب حقل إلى جنوبها وهو الآن غير معروف. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٦، ص١٧؛ حمود بن ضاوي القثامي: شمال الحجاز معجم المواضع والقبائل والحكومات، ج٢، ص٩٩ - ١٠٠، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، د.ت.

(٧) «حفائر النخل» تسمى اليوم حُقيلًا، تصغير حقل، وهي ليست بعيدة عن حقل، وتقع بينها وبين العقبة. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٣، ص٣٠.

أنه استعان بإحداها، حيث ركز اهتمامه وتسجيله على ملاقاة المشايخ ليكون حافزًا لغيره إلى المجيء للحجاز[١]. لذا اتسمت رحلته بطابع الوصف القائم على المشاهدة للأماكن التي زارها دون الرجوع لرحلات غيره، ولكنه استعان بمن سبقت له معرفتها فأوقفه ودله على ما أراد رؤيته.[٢]

كما أنه انتهز فرصة وجوده في المدينة المنورة ليسأل عن الكتب المفيدة التي يُنصح بمطالعتها.[٣]

وأما الحضيكي فقد فضَّل الإفادة من كتب الرحالة المغاربة وغيرها من الكتب لتدعيم رأيه فيما يورده من مناقشات ومسائل علمية.

فنقل من رحلة ابن رشيد مناقشته حول قضية أصل الشاذروان[٤]، وهي ناحية علمية، كما رجع إلى رحلة التجيبي المسماة «مستفاد الرحلة والاغتراب» وإن لم يصرح بذلك، لأنه نقل أمر بدعة العروة الوثقى وسُرَّة الدنيا التي كانت موجودة في داخل الكعبة المشرفة، إذ كان التجيبي معاصرًا لها وشاهَدَها زمن رحلته. وقد زال أمر هذه البدعة منذ نهاية القرن السابع الهجري[٥]. فالحضيكي لم يرها، ولكنه صرح أن أمرها انتهى منذ زمن[٦]. وهو وإن لم يصرح بالنقل إلا أنه بلا شك أخذ من رحلة التجيبي لأنها وردت تقريبًا بألفاظه.

ومما يؤكد ميول الحضيكي العلمية بداية رحلته التي جعلها فهرسة لشيوخه الذين تلقى عنهم وأجازوه، بالإضافة إلى المناقشات التي ملئت

---

(١) الغنامي: رحلة القاصدين، ص١.
(٢) المصدر السابق، ص٤.
(٣) المصدر السابق، ص٧.
(٤) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٥٨.
(٥) انظر: ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص١٣٧.
(٦) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٣.

بها رحلته مثل مناقشته حول فضائل مكة المكرمة[١]، والشاذروان[٢]، وتعدد المقامات في المسجد الحرام[٣]، وتنبيهه حول الخرافات التي لمسها[٤]، والنواحي التاريخية التي ذكرها عن الأماكن التي زارها.[٥]

ولم يكتف بالنقل من كتب الرحلات السابقة، بل نقل عن كتب المؤرخين المحليين للمدينة المنورة كابن فرحون[٦]، والمطري[٧]، وابن النجار[٨]، كما حذَّر من الوقوع في أمور يفعلها العوام في المسجد النبوي لم يكن عنها راضيًا،

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص٥٥.
(٣) المصدر السابق، ص٦٠ - ٦١.
(٤) المصدر السابق، ص٦٤.
(٥) المصدر السابق، ص٦٧.
(٦) المصدر السابق، ص٧٧؛ وابن فرحون هو عبدالله بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون اليعمري الأندلسي، نزيل المدينة المنورة، أخذ عن علماء عصره وحج أكثر من أربعين حجة، مات في رجب سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م. انظر: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج٢، ص٣٠٠، ترجمة رقم ٢٢٢٨، بيروت، دار الجيل، د.ت.
(٧) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٩؛ والمطري هو: عبدالله بن محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى بن عساس بن يوسف الخزرجي، من ذرية سعد بن عبادة، المدني المؤذن عفيف الدين ابن جمال الدين المطري، ولد سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٦٨م، مال إلى الحديث، ورحل لسماعه، وأخذ عن علماء عصره عُني بالتاريخ وألف فيه توفي في المدينة المنورة في شهر ربيع الأول عام ٧٦٥هـ/ ١٢٦٦م. انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٨٤ - ٢٨٥.
(٨) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢؛ وابن النجار هو الحافظ محب الدين أبو عبدالله محمد بن محمود بن الحسن البغدادي ولد سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، رحل رحلة استمرت (٢٧) سنة في طلب العلم، ألف الكثير ومات ببغداد عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م. أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٢٢٦ - ٢٢٧، دار الفكر، د.ت، د.م.

مثل الانحناء على قبر الرسول ﷺ والتمسح بحاجزه.[١]

أما عن أبي مدين فقد صرح بنقل أغلبها من رحلة شيخه الدرعي[٢] الذي أفاد من رحلة العياشي، فكانت رحلته مزيجًا من رحلته ورحلة العياشي، ورحلته مليئة بالمعلومات المهمة، مثل طريقة التعامل التجاري في ذلك الوقت، والتحذير من تزييف النقود، وطريقة ذلك.[٣]

ومن أمثلة نقولاته عن الدرعي استعانته به في وصف درب الحجيج، وتحديده لبداية أرض الحجاز[٤]، والأخذ بأقواله عن الطريقة المتبعة لجلب الميرة إلى المدينة المنورة[٥]، وتحديده لموضع قبور الشهداء[٦]، وعندما تعرض لذكر مسجد الغزالة أخذ بقول الدرعي عن تسمية المؤرخين له بعرق الظبية.[٧]

ونقل عن رحلة العياشي وصفه لدرب الحجاز، حيث أورد قوله وقول البكري الذي نقل عنه[٨]، ونقل أيضًا وصف ينبع وحدودها الجغرافية[٩]، وكذلك أخذ عنه طول مسجد الخيف في منى وعرضه[١٠]، وبالجملة فإن نقولات أبي مدين عن الدرعي والعياشي كثيرة جدًا.

---

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٠.
(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٢.
(٣) المصدر السابق، ص٣٦ - ٣٧.
(٤) المصدر السابق، ص١٠٩، ١١٤.
(٥) المصدر السابق، ص١١٤.
(٦) المصدر السابق، ص١١٦ - ١١٧؛ «قبور الشهداء» يعرف المكان بالروحاء وهو موضع بين مسجدين ينسبان للنبي ﷺ. انظر: الحربي: كتاب المناسك، ص٤٤٣ - ٤٤٦.
(٧) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٨.
(٨) المصدر السابق، ص١٠٥، ١٠٨ - ١٠٩.
(٩) المصدر السابق، ص١١٤ - ١١٥.
(١٠) المصدر السابق، ص١٣٣.

وأفاد من كتب أخرى غير رحلة العياشي، فكان يصرح باسم مَنْ نقل عنه حينًا، فعندما تكلم عما حدث يوم الرجيع بقديد عزاه للقسطلاني[١]، وأحيانًا لم يصرح، فعندما تكلم عن ذي طوى[٢] في مكة المكرمة اكتفى بقوله: «ما عليه كثير من المؤرخين»[٣]. وأيضًا عندما ذكر مكان قبة الرسول ﷺ في مسجد الخيف بمنى أغفل تحديد مصدره وقال: «ورأيت في بعض التواريخ».[٤]

وكان ينقل عن كتب التاريخ المحلية عند الحاجة إلى ذلك، إذ نقل عن الفاسي في كتابه «تحفة الكرام في أخبار البلد الحرام»[٥] حينما تحدث عن المكان الذي ينزله الحجاج يوم التروية[٦]، وكذلك نَقْله عن الأزرقي في طول

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٢؛ ولمعرفة المزيد عن يوم الرجيع انظر: أبو محمد عبدالملك بن هشام الحميري: السيرة النبوية، ج٣، ص١٦٩ - ١٨٣، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، د.ت.

(٢) «ذو طوى» يعرف اليوم بمحلة جرول، وهو داخل عمران مكة المكرمة الآن. انظر: الحربي: كتاب المناسك، ص٤٦٨، هامش رقم (١).

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٤.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٣.

(٥) «تحفة الكرام في أخبار البلد الحرام» تأليف تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المتوفى عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م. ألف هذا الكتاب على نمط تاريخ الأزرقي. وبعد تسويد غالبه استطاله فاختصره، ورتبه على أربعين بابًا، وهذا الكتاب يُستغنى به عن كتاب الأزرقي والفاكهي، بل وفيه زيادة ما استجد بعدهما وما فات عليهما، والمسودة من الكتب المفقودة الآن، ويعرف المختصر باسم تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام وهو اختصار لكتاب شفاء الغرام. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٠٥١ - ١٠٥٢؛ تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج١، ص٨، تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. إن رجوع أبي مدين لهذا الكتاب في سنة ١١٥٢هـ/ ١٧٤٠م يعني أنه ما زال موجودًا في ذلك الوقت، وفقد بعد هذا التاريخ.

(٦) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٣.

منى، وفي تحديد مقاسات الكعبة المشرفة[١]، كما استعان بكتاب «العقد الفريد» لابن عبدربه عندما أورد طول الحجر الأسود[٢]، وعندما تكلم عن الغرائب ولا سيما فيما يتعلق بجبل أبي قبيس أيد قوله بما جاء لدى القزويني من كتابه عجائب المخلوقات في هذا الشأن.[٣]

ولم يتردد أبو مدين في نقل بعض المسائل الفقهية، فنراه عندما تكلم عن مناسك الحج أحب أن تكون معلوماته موثقة ومنسوبة إلى شخص متخصص في هذا المجال، ليكون ما سجله أوثق وأدعى إلى الاطمئنان لمن أراد اتباعه، ولهذا نقل عن الشيخ خليل[٤] في مناسكه[٥]، كما نقل بعض مسائل فقهية عن بعض علماء المالكية حول تكرار العمرة في رمضان[٦]، وأيضًا مسائل فقهية أخرى حول فضل الصلاة في مكة المكرمة، وآراء الفقهاء في ذلك.[٧]

وعندما كان أبو مدين في المدينة المنورة أخذ من كتب السمهودي في التأريخ للمدينة المنورة، وإن كان أحيانًا لا يصرح باسم الكتاب. وكما نعرف أن السمهودي سابق لزمن العياشي، لذلك نجد أبا مدين يورد قول السمهودي ويتبعه بقول العياشي حول الموضوع نفسه، ومن هنا يظهر لقارئ الرحلة ما طرأ من تغير بينهما خلال تلك المدة.

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٣، ١٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٨٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٨١.

(٤) خليل بن إسحاق بن موسى ضياء الدين الجندي، فقيه مالكي من أهل مصر، تعلم في القاهرة، وتولى الإفتاء على المذهب المالكي، له مؤلفات عديدة، توفي عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. انظر حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٨٣١؛ الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٣١٥.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣١.

(٦) المصدر السابق، ص١٧٨.

(٧) المصدر السابق، ص١٨٣.

إضافة إلى ذلك فإن أبا مدين قد استعان كثيرًا بما جاء لدى السمهودي في وصف مشاهد المدينة المنورة وآبارها ومساجدها، وهو ما زاده معرفة وسعة اطلاع، فكانت معلوماته التي أثبتها في رحلته موثقة لم تأت من فراغ، وإنما حصيلة جهده واعتماده على كتابات الرحالة والمؤرخين السابقين.

وأما الزبادي الذي دوّن رحلته بعد رجوعه إلى موطنه من رحلته بزمن(١)، فقد وجد الوقت الكافي لتسجيلها ونقلها من مؤلفات أخرى بحرية وبأسلوب أدبي مليء بالتعريفات اللغوية لأماكن مرّ عليها، استقاها من عدد من معاجم اللغة، فقدم لنا بذلك تعريفات لغوية لمناطق متعددة في مدونة رحلته، فمن ذلك تعريفه لمعنى كلمة «أكرا» من القاموس عندما وصفها، وأورد أوجه تصريفها من التاج(٢)، وفسَّر معاني الكلمات من القاموس مثل نبط(٣)، وينبع، ورابغ، وعُسفان، وذي طوى، والعقيق(٤)، كما حدد المسافة بين شرف الروحاء والمدينة المنورة.

ولا شك أن الزبادي كان ميَّالًا بطبعه للناحية الأدبية في أسلوب كتابته، فعندما وصل بدرًا أطلق العنان لقلمه في مدحها، فقال: «وعلى ذلك البلد حلاوة، وبشر، وطلاوة، انشرحت فيها الصدور، وحلها - والحمد لله - نور،

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥.

(٢) المصدر السابق، ص٧٥.

(٣) «نبط» بالفتح هو الماء المستخرج بالحفر، موضعٌ بين ينبع ووادي الحمض على بُعد (٩٠) كم شمال ينبع. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٩ - ٢٠.

(٤) «العقيق» بفتح أوله، وفي الحجاز عدة أودية تحمل الاسم نفسه، والمقصود به هنا العقيق الذي في ناحية المدينة المنورة، فيه عيون ونخل، وهما عقيقان الأكبر مما يلي الحرة والأصغر أسفل قصر المراجل إلى نهاية العرصة، وفيه بئر رومة والعقيق الأكبر فيه بئر عروة، والآن لا يعرف أيهما الأكبر والأصغر، ولا يعرف إلا واحد، وليس فيه وديان بل وادٍ واحد. انظر: المرجع السابق، ج٦، ص١٣٥ - ١٤٥.

وكيف لا؟! وهي البقعة التي نصر الله فيها الدين، وخذل المعتدين، وأعز الإسلام، وأهان عبدة الأصنام. وناهيك بأرض حلَّتها ملائكة الرحمن، ونزل فيها على المؤمنين السكينة واليمن والأمان، وقرَّت فيها عين المصطفى المختار بإنجاز وعد الله الواحد القهار، وحضرها أصحابه الأخيار، أهل المجد ورفعة المقدار».[(١)]

ونقل قصيدة للبلوي أثبتها في رحلته عندما قدم المدينة المنورة، ومنها:[(٢)]

الـلـه أكـبـر حـبـذا إكـبـاره
لاح الـهـدى وبـدت لنا أنـواره
لاحـت معالم يثرب وربوعها
مثوى الـرسـول وداره وقـراره

وهذا كله يؤكد ميل الزبادي الأدبي نثرًا وشعرًا، وقد أفرد الزبادي عدة صفحات من رحلته في توضيح أسماء مكة المكرمة ومعانيها كما وردت في المعاجم اللغوية[(٣)]، وفيها معلومات عن الحِجْر من كتاب «الدر النثير في اختصار نهاية ابن الأثير»[(٤)]، وكتاب «المشارق» للقاضي عياض[(٥)]، وكان

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٥ - ٧٧، ٨٦، ٨٨، ١٣٦.
(٢) خالد بن عيسي البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج١، ص٢٨٠ - ٢٨٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨١.
(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٨ - ١٠٧.
(٤) النهاية في غريب الحديث، للشيخ الإمام أبي السعادات مبارك ابن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى عام ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، أخذه من الغريبين للهروي وغريب الحديث لأبي موسى الأصبهاني ورتبه على حروف المعجم واختصره جلال الدين السيوطي وسماه الدر النثير. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٩٨٩.
(٥) مشارق الأنوار على صحاح الآثار في تفسير غريب الحديث، المختص بالصحاح الثلاثة =

الزبادي لا يكتفي بما يجده من معانٍ في تلك الكتب بل يزيد على ذلك بالرجوع إلى قواميس اللغة زيادة في التأكيد والتوضيح، ثم يدّون ملحوظاته الخاصة التي اكتسبها من مشاهداته، فتصبح معلوماته بعد ذلك موثقة ومتميزة.(١)

وتميز الزبادي بحبه للاستنتاج ومناقشة الآراء، فكثيرًا ما يرجع إلى كتب السيرة للتأكد من بعض المعلومات، فقد رجع لابن إسحاق عند الحديث عن الحَجَر الذي قيل إنه كان يُسلِّم على الرسول ﷺ في مكة المكرمة قبل مبعثه، وكذلك عن مولد النبي ﷺ واليوم الذي ولد فيه، وعدد أبنائه ﷺ.(٢)

وأخذ الزبادي عن ابن رشيد فيما أورده عن قراءة القرآن الكريم أثناء الطواف(٣)، وأفاد من رحلة أخيه أحمد المفقودة في وصف المسجد الحرام، وعضّد ذلك بما أخذه في الموضوع نفسه من العياشي.(٤)

ولجأ الزبادي إلى كتب التاريخ المحلية لمكة المكرمة، فأخذ عن الفاسي من كتابه «شفاء الغرام» معلومات عن تكرار بناء الكعبة المشرفة، وأحال على كتاب السهيلي(٥) «الروض الأنف»، وكتاب ابن هشام «السيرة النبوية» في قصة تبع وكسوته للكعبة المشرفة.(٦)

= وهي الموطأ والبخاري ومسلم، للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي المتوفى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م. انظر المصدر السابق والجزء، ص١٦٨٧.

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٢٢ - ١٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٩ - ١١١، ١١٥.

(٣) المصدر السابق، ص٧٧.

(٤) المصدر السابق، ص١١٧ - ١٢٢.

(٥) هو أبو القاسم عبدالرحمن السهيلي صاحب كتاب الروض الأنف في السيرة النبوية. توفي عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م. ابن هشام: السيرة، ج١، ص١٢.

(٦) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٢٤.

وعندما تكلم الزبادي عن ينبع ذكر طرفًا من تاريخها دون ذكر المؤرخ الذي أخذ منه، حيث قال: ما قاله أهل السير، وأتبع ذلك بنقلٍ عن السمهودي عن مسجد ينبع.[١]

أما عن وصف الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فقد أخذ معلوماته من العياشي الذي تحدث عنها بإسهاب[٢]، وقد اطلع الزبادي على المدائح النبوية التي أوردها الغبريني[٣] في كتابه «مسارح الأنظار في شرح بردة مديح المختار»، ونقل منه.[٤]

ولأن الزبادي لم يمكث طويلًا في المدينة المنورة فقد عوَّل كثيرًا على رحلة العياشي وتاريخ السمهودي، فمثلًا نقل مشاهد المدينة المنورة من العياشي[٥]، وأخذ تحديد موضع قبر حمزة رضي الله عنه وَمَنْ دفن معه من السمهودي[٦]، كما نقل عنه بيتين من الشعر في أسماء الآبار المأثورة عن النبي ﷺ في المدينة المنورة.

ويظهر أن الزبادي نقل كثيرًا عن العياشي، لذا أحال من أحب الإفادة في أمر المساجد المأثورة إليه، حيث أوضح أن ما ذكره العياشي عنها يفوق ما ذكره

---

(١) المصدر السابق، ص٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٥.

(٣) أحمد بن أحمد بن عبدالله الغبريني البجاوي، مؤرخ وأديب، ولد في بجاية سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وتوفي عام ٧١٤هـ/ ١٣١٥م، من مؤلفاته: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المئة السابعة ببجاية، انظر: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ج١، ص١٥١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، د.م.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤٨ - ١٥٠.

(٥) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٥٧ - ١٦٠.

(٦) المصدر السابق، ص١٧٠.

ابن حجر[١]. وإحالة الزبادي على العياشي تُذكِّرنا بقوله في بداية رحلته: إنه سيوجز ويختصر فيما تيسر له ويترك ما تعسر عليه.[٢]

لم يصرح الزبادي بأخذه من رحلة ابن جبير، ولكنه نقل منها فيما يخص مؤذن المسجد النبوي الأساس وأنه من سلالة بلال بن رباح، وقال إنه وجد ذلك مكتوبًا بخط بعضهم.[٣]

كما أخذ عن السمهودي من كتابه خلاصة الوفا ما يخص أسماء المدينة المنورة[٤]، ونقل ما استطاع نقله من نقوش وجدت في المسجد النبوي، وزاد عليها النقوش التي سجلها العياشي في رحلته، وأيضًا دوَّن نقوشًا أخبره بها من رآها دون تحديد هوية المخبر، ولا الجهة التي نقشت فيها، لأنه كما قال: قد نسي.[٥]

ونجد مما سبق أن الإفادة من الرحلات السابقة خضعت لبعض الأمور، منها على سبيل المثال ميول الرحالة ذاته، ومدة إقامته في الحجاز، وكتابة رحلته أثناء قيامه بها أو بعد عودته، وأيضًا ميل الرحالة أنفسهم للمحافظة على الخطوات المتبعة في تسجيل الرحلة التي تقودهم لاتباعها دون أن يشعروا، وكأنهم مارسوا هذا الأمر واعتادوا عليه.

ونخلص إلى أن الإفادة من الرحلات السابقة من المناهج المهمة التي سار عليها فن الكتابة التاريخية للرحلات المغربية، فهي بمثابة التوثيق للأمر الذي تكلموا عنه على الرغم من أن هناك رحالة مغاربة أغفلوا أمر النقل والإفادة

(١) المصدر السابق، ص١٧٢ - ١٧٣.
(٢) المصدر السابق، ص٦.
(٣) المصدر السابق، ص١٧٣.
(٤) المصدر السابق، ص١٧٧ - ١٧٨.
(٥) المصدر السابق، ص١٨٠ - ١٨١.

من الرحلات السابقة، وأنه شيء نادر، ويعود إلى منهج الرحالة نفسه.

كما يتضح لنا أن مشرق العالم الإسلامي ومغربه في ذلك الوقت كان وحدة واحدة من حيث تبادل الكتب ووفرتها في كلا الجانبين، بدليل وجود أسماء كتب مشرقية في المغرب والعكس.

ومن الملحوظ أن الرحالة المغاربة في أغلب نقولاتهم يصرحون باسم من ينقلون عنه من بداية النقل، وعند انتهائه يختمونه بكلمة «انتهى» حتى لا يلتبس الأمر على القارئ. وأحيانًا يكتفون عند نهاية النص الذي نقلوه بقولهم: «قلت» كناية عن انتهاء النص، وهذا الأمر سار عليه معظم الرحالة المغاربة إلا فيما ندر، وهذا ما كان عليه معاصروهم من المؤرخين المشارقة.

ومما يجدر الإشارة إليه أن الرحالة المغاربة نقلوا عن سابقيهم المباشرين، أما الرحالة الذين قبلهم بمدة زمنية طويلة فقد نقلوا عنهم وصف الشيء الذي لا يطرأ عليه تغيير أو أدبيات اختصت بها هذه الرحلات، أو مسائل فقهية لا تتغير مع تغير الزمن.

د - المقارنة والنقد:

اجتمع لمعظم الرحالة المغاربة ثلاثة مقومات رئيسة في أثناء تسجيلهم لرحلاتهم وهي:

- أولًا: المعاينة والمشاهدة.
- ثانيًا: السماع والمشافهة.
- ثالثًا: ما نقلوه من الكتب المصنفة في مجال الرحلات وغيرها.

لذلك كانت النتيجة الحتمية لهذه المقومات الثلاثة تصدُّرهم للنقد والمقارنة لأمور قيلت لهم، أو مواضع شاهدوها وقارنوها بغيرها أو نقدوا ما

وجدوا فيها، ومن الرحالة المغاربة من قَدِمَ للحجاز أكثر من مرة كالعياشي، والدرعي، فقارن كل منهما ما شاهده سابقًا بما هو عليه الحال وقت رحلته المسجلة.

وهناك بطبيعة الحال من الرحالة المغاربة المُقلُّ والمُكثِر في نقده ومقارنته، ومنهم من أهمل المقارنة والنقد، ووجَّه اهتمامه نحو أمورٍ أخرى كما فعل القادري والغنامي في رحلتيهما.

وسنتلمس بعض نماذج مما قدمه الرحالة المغاربة لأمور تصدروا فيها للنقد والمقارنة:

فالقيسي أثناء وصفه لدرب الحجاز مرّ على مغائر سيدنا شعيب عليه السلام، فذكر أنها موضع تعبّده وبئر شربه، وأن بالقرب من هذا المكان ربوة على يمين الطريق، يظهر منها نخيل مدين كما قيل له.

ويبدو أنه لم يُصدِّق ما قيل له بدليل قوله: «إن مدين بناحية الشام على الأصح»، وقيل له أيضًا: «إنه كان ينزل هذا المكان في بعض الأعوام دون بعض» أحال عند ذلك العلم بصحته لله تعالى.(١)

وعندما وصل القيسي إلى رابغ نبه الحجاج بالتزام السنة، إذ يجب عليهم إذا اغتسلوا فيها أن يؤخروا الإحرام للجحفة(٢)، ليصيبوا بذلك السنة، ولئلا

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧١.

(٢) تقع «الجحفة» شرقي رابغ مع مَيل إلى الجنوب على بُعد (٢٢) كم، كانت قرية ذات مسجد، واسمها ميهيعة وسميت الجحفة لسيل اجتحفها وأهلها في بعض الأعوام، وهي اليوم خراب على مسافة خمس مراحل من مكة، والمراحل هي مر الظهران، وعُسفان، والرف، والطارف، أو القضيمة، ثم الجحفة، أو رابغ، انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص١٢٢ - ١٢٤.

يبدؤوا حجهم بفعل مكروه وهو الإحرام قبل الميقات[١]. ويظهر أن القيسي قد رأى تصرفات بعض الحجيج، وعدم اتباعهم السنة في الإحرام من الميقات الصحيح، إما لعدم علمهم، وإما لتهاونهم، فرأى من واجبه الإشارة إلى ذلك، وتحديد الموقع الذي يجب أن يكون الإحرام منه، وهو الجحفة بدلًا من رابغ.

وكذلك نَقَدَ القيسي ترك الحجيج سُنَّةَ التحصيب بالمُحصب بعد نزولهم من منى، وقال: «إن الرسول ﷺ صلى بالمحصب الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء بعد دخول وقتهن؛ لأن أفعال الحج غالبها التعبد، وقد ترك الناس هذه السُنَّة منذ أزمان، متعللين بأن الصلاة بمكة بمئة ألف صلاة».[٢]

فالقيسي في المثالين السابقين تصدَّرَ لنقد ترك السنة، حيث انفعلت بها نفسه بمجرد رؤيتها، فقام بنقدها، ونبّه عليها لِمَنْ لم يعرفها.

ولما وصل القيسي إلى المدينة المنورة رأى في المسجد النبوي عامودًا، قيل له: إنّ في باطنه بقية الجذع الذي حنَّ للنبي ﷺ، وقال: «إن هناك رواية تقول: إن الجذع مدفون تحت المنبر»، وأحال العلم لله[٣]، فأورد هنا القيسي ما شاهده وما قيل له من روايات، ولكنه لم يقطع برأي من نقدٍ أوموافقة، وكان يكتفي في بعض المرات بما يقال له دون تعليق، مثل قوله: «إن القبة المقابلة للقبة التي دفن فيها حمزة رضي الله عنه يوجد بها قوس عربية، وسيف، ودبوس

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص٨٧. وما زالت هذه السنة متروكة إلى الآن، لأن أكثر الناس لا يعرفها، كما أن موضع المحصب أصبح عامرًا بالسكان والمساكن، ولا يوجد فيه موضع للمكوث إلا في الشوارع أو على الأرصفة.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠؛ قصة الجذع ذكرها السمهودي بإفاضة، فمَن ذلك قوله: إن الجذع بقى عند أبيٍّ بن كعب لما هُدم المسجد النبوي إلي أن بلي وحفر له ودفنه، ورواية أخرى تقول: إن النبي ﷺ أمر بدفنه. انظر: السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٣٨٨ - ٣٩٥.

معلقة» قيل له: إنها كانت من ممتلكات حمزة رضي الله عنه.[١]

وما قيل للقيسي بهذا الشأن لم يذكره أحد من مؤرخي المدينة المنورة، وهذا يعني أن هذه الموجودات ليست خاصة بحمزة رضي الله عنه، ولا تمتُّ له بصلة.

وأبدى العياشي نقده لموضوع عدم نوم الجمّالين والحجاج الفقراء الذين يعملون في خدمة بقية الركب، لقاء حملهم معهم إلى حين وصولهم لمكة المكرمة، وعودتهم مرة أخرى، فقال: «إنهم لا يكادون ينامون حتى القليل»، وقد أخبره أحدهم أنه «من يوم خروجه من مصر إلى حين عودته، مئة يوم، لم ينم فيها». وعلق العياشي على قوله بأنه من المحال، ولكنه يحتمل حدوثه، إذا كان الشخص لا يأخذ هيئة النوم من الاضطجاع وإنما يغفو في أي مكان على ظهر البعير، أو عند الفراغ من الأكل، أو وقت انتظار قضاء حاجة.[٢]

فالعياشي نقد ما أُخبر به نقد المتعجّب، فهو لم يُسلِّم بتصديق الخبر، وفي الحقيقة لا يستطيع إنسان أن يبقى مئة يوم دون نوم، والتحليل الذي أورده العياشي مقبول ومعقول.

وقد سمع العياشي خبرًا في شرفات بني عطية أو عش الغراب[٣]، زعم فيه بعض الناس أن الإبل تنفر في هذا المكان لأن «الإبل تسمع صوت سقب ناقة صالح عليه السلام لما عقرها قومه». فتعجب من هذا الزعم ونقده، وأوضح أن هذا المكان

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٠٦ - ١٠٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٥.

(٣) «شرفات بني عطية أو عش الغراب» ويسمى أيضًا أم العظام.

ليس ديار ثمود[١] الذين عقروا الناقة.[٢]

فالعياشي أصاب في نقده وتعليقه، فالحِجْر وشرفات بني عطية متباعدتان، ولا يعقل هذا الأمر، وحتى لو كان هذا المكان صحيحًا فمحال سماع صوت سقب الناقة؛ لأنها عُقِرت وانتهى أمرها بموتها، فهذه الأقاويل من جملة خرافات كثيرة أُطلقت في تلك الأيام.

ولما قيل للعياشي: إن العقبة السوداء - قبل الحوراء - «أول أرض الحجاز»، قارن بين ما رآه وبين ما قيل له، وخرج بنتيجة فقال: «لا يبعد ذلك، فإن من هناك تخالف الأرض ما قبلها، وتباين الجبال ما سواها، ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود»[٣]. وهو بهذا ميز المعالم الجغرافية الماثلة أمامه، وقارنها بالمعلومات التي قيلت له، ثم أصدر رأيه.

وقارن العياشي بين مياه الدرب، فحين وصل للحوراء قال: «إنَّ مياهها إذا طال العهد بها من حفر أو قلة مطر أصبحت خبيثة الطعم مثل ماء أكرا، والأزلم[٤]، وعجرود... وأن غزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة

---

(١) «ديار ثمود» هي الحِجْر، بين الشام والحجاز، وتتضمن مدائن صالح، والحجر، ووادي المعظم، وهدية، وتبوك. امتد نفوذ الثموديين وسلطانهم على مناطق واسعة، فكانت حدودهم الجغرافية قبل نزول العذاب بهم وهلاكهم تمتد من ساحل إيلات في فلسطين حتى ساحل البحر الأحمر المقابل لموانئ الحبشة. وقد ربت مدنهم على الثلاثين مدينة من ضمنها مدينة الحِجْر. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢٣١؛ مرداد: مدائن صالح، ص٤٠ - ١٠٠؛ حمود بن ضاوي القثامي: الآثار في شمال الحجاز، ج١، ص١٤٥ - ١٥٠، مطابع الهيئة المصرية العامة الكتاب، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، د.م.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١.

(٣) المصدر السابق، ص١٤٤.

(٤) «الأزلم» محطة بعد المويلح على الساحل كانت أعمر بلد في طريق الساحل، بين العقبة وينبع، لها حراس، وكان الحاج يضع فيها متاعه حتى يعود من الحج. انظر: البلادي: معجم =

المطر وقلته، فلو حمل الوادي ولو مرة في السنة، غزر الماء سائر السنة»[١]. فمقارنة العياشي لماء الدرب صدرت منه بعد اختبار.

وتصدى أيضًا لنقد اعتقاد الحجيج في عادة الوقدة بالقرب من بدر، وأورد قولهم في ذلك من «أن الصحابة رضوان الله عليهم في غزوة بدر أوقدوا نيرانًا كثيرة، ولذلك الحجاج يتشبهون بهم»، ورد العياشي على هذا الاعتقاد بأنه «غفلة منهم وخطأ، لأن إشعال النار الكثيرة إنما كان في فتح مكة المكرمة بإجماع أهل السِّير على ذلك، أما في بدر فلم يقل أحد بذلك»، وأضاف قائلًا: «لو سلَّمنا أن إيقاد النار كان في بدر فإنما يكون ذلك لإرهاب العدو، فطالما لا عدوَّ الآن، فلا معنى للإيقاد»، وقال: «إن الفرح بنصر الله مطلوب ما لم يؤدِّ إلى محظور كما هو الآن، لاعتقادهم أن الوقود سُنَّة متَّبعَة وهو ليس كذلك»[٢]. فالعياشي هنا لم يغض النظر عن هذه البدعة، وانتقدها بأساس تاريخي لا يرقى إليه شك، وقد أحسن العياشي عندما قام بنقده.

وعندما وصل العياشي إلى أطراف مكة المكرمة نقد اعتقاد الحجيج في قولهم: «إن الزاهر هو وادي ذي طوى الذي اغتسل فيه الرسول ﷺ قبل دخوله لمكة المكرمة» وقال: «إن ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى أمام هذا المكان، وليس بين ذي طوى ومكة المكرمة وادٍ آخر، وهو الوادي الذي أسفله الموضع المسمى بالشبيكة، حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج، وهذا الوادي وراء جبل قعيقعان[٣]، وعلى هذا فأعلى هذا الوادي هو ذو طوى وأسفله

= معالم الحجاز، ج١، ص٩١.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٧.

(٣) «قُعيقعان» بضم القاف، جبل ضخم مشرف على المسجد الحرام من الشمال والشمال الغربي، ممتد بين ثنيتي كَداء وكُدى، بين وادي إبراهيم شرقًا ووادي ذي طوى غربًا، ولا =

الشبيكة».[(١)]

فالعياشي هنا نَقَدَ أقوال الحجيج في تحديدهم لموقع ذي طوى، وعيَّن موضعه الصحيح بناءً على أقوال المؤرخين وإن لم يُسمِّهم، وهذا يكشف سعة اطلاع العياشي ومعرفته الجغرافية بالأماكن ومواقعها وأسمائها.

ونقد العياشي وتعجب من أهل مكة المكرمة في أمر تعيينهم لما عُرف بالموالد، مثل تعيينهم الدقيق موضع ولادة النبي ﷺ بدار المولد، فقال: «فيبعد كل البُعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار، والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بمعظم الأمكنة، سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجيء الإسلام فقد علم حال الصحابة وتابعيهم ضَعْف اعتنائهم رضي الله عنهم بذلك، لما هو أسْمى من حفظ الشريعة والذبّ عنها بالسِّنان واللسان، وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام من مساجده عليه السلام، ومواضع غزواته، ومدفن كثير من أصحابه، مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة، فما بالك بما وقع في الجاهلية؟! لا سيما ما لا يكاد يحضره أحد إلا مَنْ وقع له، كمولد علي رضي الله عنه، ومولد عمر، ومولد فاطمة رضي الله عن جميعهم، فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة، فيقول: هذا مولد فلان، وفي ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده ﷺ،

= يعرف اليوم بهذا الاسم، وإنما يسمى بأسماء كثيرة، فطرفه الشمالي الغربي يسمى جبل العبادي، والشرقي المشرف على ثنية كداء يسمى الحجون الآن، والمشرف على مقبرة المعلاة يسمى جبل السليمانية، وجزؤه الجنوبي يسمى جبل هندي، وشرقه المتصل بريع الفلق يسمى جبل الفلق، ويسمى طرفه المشرف على حارة الباب جبل المطابخ، وطرفه المشرف على ثنية كُدى ريع الرسام، اليوم يسمى قرنًا، وما أشرف منه على دحلة الموارعة بجرول يسمى جبل السودان، وبين الفلق والقرارة له عدة أجزاء، جبل القرارة، وجبل فلفلة، وجبل النقا. انظر: البلادي: معالم مكة، ص٢٢٣.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥١.

لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده ﷺ، فقد ينتبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات، وإن كانوا أهل جاهلية، أما مولد غيره ممَّن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته، إلّا أَنْ يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبيه، أو أحد من أهل بيته».[١]

إن النص السابق لا يحتاج إلى تعليق، فمضمون كلام العياشي وتحليله يُوضِّح رفضه لهذا التعيين الشديد الدقة، خاصة وأن معظم هذه الأماكن لم يرد لها ذكر لدى مؤرخي مكة المكرمة الأوائل، وذلك يعني عدم ثبوت نسبتها.

وناقش العياشي ونقد مسألة الحَجَر الذي قيل: إن فيه أثرًا مرفقًا ينسب للرسول ﷺ بقرب دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال عنه وعن غيره من الآثار: «وكثير من هذه الآثار الشريفة والمشاهد المنيفة قد تطاولت عليها الأعصار، ووجد التنصيص على اشتهارها في القرون الماضية من كثير من المؤرخين والمرتحلين، مع العلم بعدم اشتهارها في القرن الأول والثاني».[٢]

فالعياشي يقرّ بعدم اشتهارها في القرنين الأول والثاني للهجرة، وهو ما يعني عدم صحة هذه الآثار المنسوبة للنبي ﷺ، وغيره من الصحابة؛ لأن أهل القرون الأولى كانوا أَوْلى الناس بتحديدها ومعرفتها، وليس أهل القرون المتأخرة، مع الأخذ في الحسبان انقطاع التواتر والسند في نسبتها لأصحابها.

ولا شك أن العياشي وصل إلى مسمعه خبر وهو «أن الجالس بغار حراء يرى الكعبة المشرفة»، فنقد صحة هذا الخبر بعد أن تحقَّق منه بنفسه ونفاه، فقد اختبره عندما صعد إلى الغار، فقال: «فإن البيت قبل أن يكتنفه البنيان العظيم قد

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ج١، ص٢٢٥، الطبعة الحجرية.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ج١، ص٢٢٦.

يظهر من خارج، وأما من الغار نفسه فلا»[١]. وهذا هو الصحيح.

ولا بد أن العياشي قد اطلع على رحلات عديدة، أو قيل له عن خدمات كانت موجودة في درب الحجاز، لذلك نجده عندما مرّ عليها قارن بين ما شاهده وبين ما قرأ عنه، من أن بعض منازل الدرب الحجازي وُجِدَ فيه جِبَاب[٢] ومصانع[٣]، وخاصة ما كان موجودًا في منزلة مغارة شعيب، حيث قال: «ولا أثر لشيء ممَّا ذُكر من المصانع والجباب في وقتنا هذا، في الطريق التي يسلكها الحاج في تلك الناحية».[٤]

ويبرز العياشي مدققًا وناقدًا، فعندما ذهب لرؤية مشاهد البقيع قارن بين ما رآه وبين ما ذكره السمهودي فيما استجدّ بعده، مثل المشهد المنسوب لمرضعة النبي ﷺ السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها، حيث قال: «إن السمهودي لم يذكره، ولم ير أحدًا ذكر أنها دفنت بالبقيع».[٥]

وهذه المقارنة تكشف لنا أن هذا المشهد استُحدث بناؤه بعد القرن التاسع الهجري، فالسمهودي توفي عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، إذ لو كان هذا المشهد موجودًا في زمن السمهودي لبادر إلى ذكره ووصفه وحقق نسبته، وهذا يقودنا إلى نتيجة، وهي كثرة البدع وشيوع الخرافات بين الناس دون أن يجدوا

---

(١) المصدر السابق، ص٤٠٨.

(٢) «الجُب» البئر، وقيل هي البئر لم تطو، وقيل هي الجيدة الموضع من الكلأ، وقيل هي البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر، وقيل لا تكون جُبًا حتى تكون مما وُجد، لا ممَّا حفره الناس والجمع أجباب وجباب وجببة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٢٥٠.

(٣) «المصانع» هو الحوض وقيل شبه الصهريج، يتخذ للماء، وقيل خشبة يحبس بها الماء وتمسكه حينًا، وهي من أعمال الناس لجمع ماء المطر حيث يحفرون في الأرض، فيملؤها ماء المطر فيشربونها. انظر المصدر السابق، ج٨، ص٢١١.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥١١.

(٥) المصدر السابق، ص٩٨، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

من يُوجِّههم أو ينهاهم عن بناء المشاهد للقبور، ويجب أن نشير هنا إلى أن البناء على القبور أمرٌ لا يُقرّه الإسلام.

ولما شاهد العياشي مسجد السقيا[(١)]، وهو أحد المساجد المأثورة التي صلى فيها النبي ﷺ نقل ما جاء عنه من السمهودي، وقارن ذلك بما هو عليه وضع المسجد وقت رحلته، فأخبر أنه كان خرابًا زمن السمهودي، والآن هو عامرٌ مبنيٌ ببناء جيد.[(٢)]

إن المقارنات التي أجراها الرحالة المغاربة مثل العياشي حول المساجد المأثورة عن النبي ﷺ مهمة للمعنيين بالناحية التاريخية المعمارية لهذا النوع من المساجد، وما طرأ عليها من خراب وعمارة، حيث يستطيعون تتبع ذلك بيسر وسهولة خاصة إذا قورن ما في كتب رحلاتهم بما كتبه المؤرخون المحليون.

ولهذا فإن كتب الرحلات المغربية يوجد فيها كثير من المعلومات التي تسد النقص، أو رُبما لا تكون موجودة في المدونات المحلية، ومن هنا تظهر أهمية هذه الكتب للمعنيين بهذا النوع من المعمار الإسلامي الذي يدل على النهضة الحضارية التي شملت البقاع المقدسة خلال الأزمنة التاريخية. والشاهد في مثل هذه الحالة ما قام به الرحالة العياشي عندما قارن بين ما أورده السمهودي عن مشاهد المدينة المنورة، وما رآه بنفسه، وكأنه بذلك أثبت حقائق جديدة تختلف عمَّا كان مدونًا سابقًا.

ونقد العياشي أقوال الجهلة من الحجاج الذين أشاعوا أن عين الأزرق[(٣)]

---

(١) «مسجد السقيا» سقيا سعد بن أبي وقاص، وقد صلى فيه النبي ﷺ يوم عُرض المسلمون عليه وهو متوجه إلى بدر، وهذا المسجد هو القبة التي في خارج باب العنبرية. انظر: السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٤٣، ص٩٧٢.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون، ص١٢١ - ١٢٢.

(٣) «عين الأزرق»: تسميها العامة عين الزرقاء، وهي العين التي أجراها مروان بن الحكم عندما =

التي في المدينة المنورة أصلها من مكة المكرمة، حيث قال ناقدًا وموضحًا ذلك: «فإنه لم يكن في زمنه ﷺ بعرفة ولا بمكة ولا بالمدينة عَيْنٌ تذكر على هذا النعت، ولا ما يقرب منه، وإنما أُجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان». وأورد خبرًا بأن مروان بن الحكم عامل المدينة المنورة من قِبَل الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان هو الذي أجراها.[1]

أما الرافعي فقد انصبَّ اهتمامه على تحسين صياغة رحلته بأسلوب مُنمَّق، وأهمل النقد والمقارنة إلا القليل، ومنه نقده للعوام في المدينة المنورة في قولهم: «إن لرسول الله ﷺ محرابًا بالمسجد النبوي» حيث ذكر أن هناك ثلاثة محاريب، وخص المحراب الواقع بين الروضة والمنبر بالتركيز، لقولهم: إنه محرابه ﷺ فقال: «لم يكن له محراب في حياته، وإنما هذا المكان هو مصلَّاه، وهو الأصحّ عند الأعلام».[2]

وكان الرافعي مُحقًا في نقده وتصحيح ما زعمه العوام من الناس، إذ ذكر السمهودي أن المسجد النبوي لم يكن له محراب في عهده ﷺ، ولا عهد الخلفاء الراشدين، وإنما أُحدث ذلك في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك عندما كان واليه على المدينة المنورة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وقد تولي العمارة بها.[3]

= كان واليًا لمعاوية بن أبي سفيان على المدينة المنورة، وكان أزرق العينين فأضيفت العين إليه، وأصلها من بئر معروفة بقباء، غربي المسجد في حديقة نخل، وهي بئر واسعة الأرجاء محكمة البناء عذبة الماء. انظر: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، ص٢٩٥ - ٢٩٦، قسم المواضع، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ط١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥١، ١٥٤، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٣.

(٣) السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٧٠.

وانكبَّ القادري في رحلته على وصف حال شيخه أبي العباس وأفعاله ورصدها، ولم يلتفت لأمر النقد والمقارنة فخلت رحلته منهما.

أما اليوسي فقد اشتملت رحلته على نقد قوي لبعض منازل درب الحجاز المعروفة بملوحة مياهها ومرارتها، مثل الأزلم، وأكرا، والحوراء.(١)

ومما استنكره اليوسي ونقده كالعياشي بدعة قيام الحجاج عند وصولهم إلى منطقة بدر بإيقاد الشموع والمصابيح على الجمال ليلة وصولهم إلى هناك، واعتقادهم في ذلك، فاليوسي بهذا يتفق تمامًا مع العياشي في نقده لهذه الظاهرة، فقال عنها ما نصه: «بدعة شنيعة، وعناء وتعب بلا طائل».(٢)

ولحظ اليوسي أن بعض أهالي مكة المكرمة كانوا يجمعون مبالغ مالية من الحجاج قبل أن يُقدِّموا لهم خدماتهم، مثل الفئة التي اختصت بمساعدة الحجاج على الطواف، فكانوا يبادرون إلى طلب المال قبل السماح لهم بالطواف، فبادر بانتقاد هذه الطريقة نقدًا لاذعًا، وقارن هذه المعاملة بما يفعله أهالي المدينة المنورة مع الزوار لمسجد رسول الله ﷺ، حيث أثنى على أهالي المدينة المنورة، ووصفهم بمحبتهم للغريب، والإحسان إليه، ومواساته، مقارنة بأهل مكة المكرمة حيث قال فيهم: «عندهم أنفة وكبر... وبُغضٌ للغريب»(٣). ولا شك أن هذه وجهة نظر اليوسي فقط، وقد جانب فيها الصواب.

وأما الدرعي فحين تحدث عن درب الحجاز، قارن ذلك بما مرّ به في رحلاته السابقة التي كانت على ما يبدو في فصل الصيف، وما صادفه وقت رحلته الأخيرة التي كانت في فصل الشتاء، وبين ما ذكره العياشي أيضًا الذي كانت

---

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ.
(٢) المصدر السابق، ص٨٦/ ب - ٨٧/ أ.
(٣) المصدر السابق، ص٩٢/ ب - ٩٣/ ب.

رحلته في فصل الصيف، فقارن بين الصعوبات التي كان الحجيج يصادفونها في فصل الشتاء من شدة البرد وقلة الحطب، وكثرة الأمطار ووفرة المرعى، وبين ما يصادفونه في فصل الصيف من شدة الحرّ وقلّة الماء وهبوب الرّياح الحارّة.(١)

وفي مكانٍ آخر نقد الفلاحين الذي كانوا يُفضِّلون الانضمام للركب المغربي هربًا من المسير مع الركب المصري، وذلك لجور عساكره عليهم، وسوء تصرفاتهم وكثرة ضوضائهم، وفي ذلك قال: «إن عددهم كان قليلًا في ركبه تلك السنة، لذا عمّ الهدوء فيه»، وقارن وضع الركب المغربي في سنة رحلته بما ذكره العياشي في رحلته، من أن الفلاحين كانوا كثيرين في الركب المغربي، فعمَّته الفوضى لأنهم يرحلون وينزلون دون أمر من أمير الرَّكب، وخاصة في وقت رحيل الرّكب من المنازل، حيث يتبع الأخير منهم الأول، ولا سيما في الأماكن الضيقة التي يكثر فيها الخوف، وكانوا يقومون بفعلهم هذا حتى لو كان في ذلك هلاكهم، فتعمّ الفوضى، وينعدم نظام مسيرة الرّكب بسببهم.(٢)

حين نزوله على ماء عذب، يقارنه بما يماثله في العذوبة والحلاوة، فمثلًا عندما وصل دار أم السلطان(٣) وصف ماءها بالعذوبة قائلًا: «بها آبار عذبة تستلذه الأفواه»، ثم قارن ذلك بماء النبط قائلًا: «إنه مثله».(٤)

وقد عرفنا سابقًا أن الدرعي قدم الحجاز حاجًا أربع مرات، أولها عام ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م، ثم الثانية عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م، ثم الثالثة في عام ١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م، والرابعة في سنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، لذلك نجده يقارن بين ما حصل للركب في حجته الأخيرة، وما حصل لركب الحجيج في حجته الثالثة،

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٥.
(٢) المصدر السابق والجزء، ص١٥٧.
(٣) «دار أم السلطان» تقع بين المويلح والأزلم. انظر: الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٨٦.
(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٦ - ١٦٧.

ولا سيما فيما يتعلق بمعاناة الحجاج من شدة الحرّ، واشتداد العطش، وهبوب الرياح الحارة، وكثرة الموتى، وعدم حصول أذى للحجاج أثناء مسيرهم في درب الحجاز في حجته الأخيرة.(١)

ومما ذكره الدرعي وغيره من الرحالة المغاربة عن معاناة الحجيج نستطيع أن نستخلص الصعوبات التي كانت تواجه الحجيج في أثناء سيرهم عبر طرق الحج خلال أحد عشر قرنًا من الزمان، وما قام به الملوك والسلاطين والأمراء والموسرون من جهود لإصلاح هذا الدرب وتمهيده، وحفر الآبار والبرك فيه لتوفير الماء للحجيج على طول الطريق، كما نستطيع أن نتلمس معاناة الحجيج طوال الطريق من حر أو برد، وقلة ماء أو سيول غزيرة، أو قلة أمن وغيرها من المشكلات والمعوقات التي كانت تعترض طريقهم.

وعندما وصل الدرعي إلى ينبع وصف ذبول نخيلها، وجفاف مائها، وانهدام جزء من سقف مسجدها، وقارنها بما كانت عليه سابقًا عندما كانت عامرة.(٢)

ومن المعروف أن ينبع مرسى على ساحل البحر الأحمر، ومرفأ المدينة المنورة، ووَصْفُ الدرعي لها بهذا الشكل يعطى انطباعًا أن هناك أمرًا ما حصل لها، وهو انضمام أهلها لقبيلة حرب التي كانت خارجة عن طاعة أمير مكة المكرمة، فأخذت تعتدي على قوافل الحجيج، بل لقد تجرؤوا على مهاجمة المدينة المنورة، وأخذوا ذخائر أهلها من حبوب وزيت وشمع وطعام، وهو ما جعل شريف مكة المكرمة سعد بن زيد(٣) يتوجه إليها ويغزوها ويؤدب أهلها، وكان

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٧٠.

(٢) المصدر السابق والجزء، ص١٧٣.

(٣) الشريف سعد بن زيد بن محسن بن حسين بن الحسن بن أبي نمي الثاني، ولد عام ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م في مكة المكرمة، وتوفي فيها عام ١١١٦هـ/ ١٧٠٥م، وولي الإمارة بعد =

مما فعله أن أحرق بيوتها، وقطع نخلها، وذلك في عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م.[(١)]

وأغلب الظن أن حالها لم يعمر منذ عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م إلى حين رحلة الدرعي عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م. ومما سجله الدرعي وغيره من الرحالة المغاربة ومقارنته بما كتبه المؤرخون نستطيع أن نستخلص تاريخًا متصل الحلقات لينبع وغيرها من المدن والقرى الحجازية التي كان يمر عليها الرحالة المغاربة، ومن هنا تظهر أهمية كتب الرحلات المغربية في توضيح بعض الأمور التي قد تكون خافية على المهتمين بتاريخ المدن الحجازية التي لا يمكن الاستغناء عنها لمن أراد التأريخ لها والكتابة عنها.

وعندما وصل الدرعي إلى خليص، وشاهد المسجد المنسوب للنبي ﷺ وقد تهدم وامتلأ أوساخًا وصار إصطبلًا للدواب، نقد هذا الأمر بشدة، ونسب هذا الإهمال إلى ضعف الدين وقلة الرغبة في عمل الخير، ولم يكتف بالنقد فقط، بل خطا خطوة إيجابية، إذ صارح أمير الحاج المصري في شأنه وحصل على وعد منه بإصلاحه.[(٢)]

= وفاة أبيه عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م، واشترك معه في الإمارة أخوه أحمد سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م، ووقعت بينهما وبين أمراء الحج والأشراف فتن، ثم بلغهما أن أمراء الحج ينوون القبض عليهما في منى، فخرجا إلى بلاد الروم سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م، وعاد سعد إلى مكة المكرمة فولي إمارتها سنة ١١٩٣هـ/ ١٦٩١م، ثم عزل عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٧م، وعاد إليها عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م، ثم نزل عن الإمارة لابنه سعيد عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م، فثار عليه الأشراف فحارب مع ابنه وقتل، وكانت مدة إمارته مجتمعة حوالي (١٥) سنة و(٧) أشهر. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٨٥؛ عارف عبدالغني: تاريخ أمراء مكة المكرمة من ٨ - ١٣٤٤هـ، ص٧٣٨ - ٧٤٥، ترجمة رقم ٢٧٦، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(١) عبدالغني بن إسماعيل النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ص٣٢٣، ٣٢٦، تقديم وإعداد د. أحمد عبدالمجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، د.م.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣.

ومما ذكره الدرعي نستشف أن أمير الركب المصري كان ينقل إلى ولاة الأمر ما يحتاج إلى إصلاح في الحجاز.

ونقد الحضيكي أفعال بعض عوام الناس في عرفة من حيث اهتمامهم بالبيع والشراء أكثر من اهتمامهم بالدعاء والعبادة، ولذلك نجده يُسدي النصح والإرشاد فقال: «ينبغي عليهم الإقبال على الذّكر والتضرع».[١]

وانتقد كذلك بعض تصرفات الزوار الذين كانوا يذهبون لزيارة المسجد النبوي ويقومون بالانحناء على القبر ويلتصقون به. فقال: «بأن ذلك مخالف للشرع، ويتعارض مع آداب زيارته ﷺ».

ونقد أيضًا مرور الناس على قبر النبي ﷺ، حيث قال: «إنهم بفعلهم ذلك يجعلون القبر كالمسجد الذي يؤتى كلّ يوم للصلاة فيه»[٢]. وهو بنقده هذا يعمل على اتباع السنة، وترك البدع والبعد عما يخالف شرع الله.

ولما مكث أبو مدين في المدينة المنورة للمجاورة عايش بعض عادات أهلها في شهر رجب عند قبر حمزة رضي الله عنه، فوصف ما رآه من بدع، وقارنه بما ذكره السمهودي حول هذا الاحتفال، وما طرأ عليه من تغيير طفيف.[٣]

وعندما وصف أبو مدين المسجد الحرام قال: «إن الفاسي ذكر أن عدد المنائر فيه خمس، وقال: «إنها وقت رحلته أصبحت سبعًا».[٤]

---

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٤.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٠ - ٨١.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٤؛ إن ما كان يفعله بعض أهل الحجاز من احتفالات بالقرب من قبر حمزة رضي الله عنه لا يمتُّ إلى الإسلام بصلة، وإنما جُعلت زيارة القبور للعبرة والعظة وليس للهو، والحمد لله قُضِي على مثل هذه البدع الآن.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ١٨٩.

والأوصاف المعمارية المسجلة في الرحلات المغربية ذات فائدة كبيرة للمهتمين بدراسة عمارة الحرمين الشريفين، ولا سيما أن من الرحالة المغاربة من كان شاهد عيانٍ على بناء أجزاء منها فوصفها بدقة.

وقارن الزبادي طريقة سير أركاب الحج في درب الحجاز، وأمدنا بمعلومات قيِّمة من حيث عادات السير، فقد كان الركب المغربي يسير منفردًا في درب الحجاز، ولكنه في زمن رحلة الزبادي أصبح الركب الفاسي يسير مع الركب المصري، فكانوا يرحلون قبل الفجر بساعة أو ساعتين، وينزلون بعد العشاء بساعة أو ساعتين، أما باقي الركب المغربي الذي كان يضم حجاجًا من الجزائر ونواحيها فيرحلون عند الفجر، وينزلون في الثلث الأول من الليل.[١]

وعندما وصل الزبادي إلى الوجه[٢] ذكر أنها موضع لخزن مؤن الحجاج إلى حين عودتهم من الحج، وكان هذا منذ سنين، فقارن وضعها وقت رحلته، من حيث إنها لم تعد مكانًا آمنًا لإيداع ما زاد عن حاجة الحجاج من مؤنهم.[٣]

ويبدو أنها كانت قد تعرضت للغزو من أعراب الدرب، فأصبحت غير آمنة، فلم يعد الحجاج لذلك يودعون فيها ما فاض من أزوادهم.

كما قارن الزبادي بين جرأة أعراب الحجاز على الحجيج وجرأة الأعراب بالمغرب في موضع سماه «وادي سيدنا خالد»، فقد وصفهم بأنهم «أجرأ على النهب، وأضر بالركب».[٤]

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٤.

(٢) «الوجه» بلدة حجازية ساحلية آهلة بالسكان فيها إمارة، وميناء جوي وبحري، وبُني فيها محطة لتحلية مياه البحر، ولأهل الوجه خبرة في صيد السمك. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٣٠.

(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٦.

(٤) المصدر السابق، ص٧٣ - ٧٤.

وما ذكره الرحالة المغاربة عن أعراب الدرب يعطينا تصورًا واضحًا عنهم، وعن انحطاط أخلاقهم وعدم تورعهم عن نهب الحجيج مقابل ما كانوا يحملونه من زاد وأموال، كما يوضح لنا مدى الضعف الذي أصاب الأشراف، وعدم إمكانية سيطرتهم على الأعراب، وعدم تصديهم لهجماتهم إذ كانوا يعيثون في الأرض فسادًا، فعم ضررهم وقلَّ الأمن تبعًا لذلك في الطرق في بعض السنين.

وعندما وصل الزبادي إلى قاع البزواء[1] قال: إنه ربما أُفردت باسم القاع، أو باسم البزواء، وقارن بين الاسمين من حيث إن ما سهل وارتفع من الطريق يسمى القاع لاتساعه، وما ضاق واحدودب وقلَّ استواؤه سُمي بزواء، وأن هذا الموضع خليط من هذا الوصف.[2]

ونقد الزبادي العياشي في نقله عن ابن رشيد قول ابن الصلاح عن جبل قزح[3] بالمزدلفة، حيث وصف العياشي بالغفلة لأنه لم يتعقَّب قول ابن رشيد في نقله عن ابن الصلاح في هذا الموضوع.[4]

وعندما تحدث الزبادي عن أسماء مكة المكرمة قال: «يصحّ أن تسمّى أم البلاد لكن لم نطلع على تسميتها بذلك، كما أنه يناسب أن تسمى أمّ الأرض،

---

(١) «البزواء» موضع ممتد بين مستورة وبدر. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج١، ص٢١٧.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٢.

(٣) «قزح» أكمة بجوار المشعر الحرام في المزدلفة، وقد بني عليها قصر ملكي، والناس يصلون في المشعر الحرام ويتحرون الإشراق هناك. انظر: عاتق بن غيث البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص٢٢٥، دار مكة للتوزيع والنشر، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، د.م.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٠٢.

لأن الأرض دُحِيَتْ من تحتها، فهي للأرض بمنزلة النقطة للخط، أو المركز للدائرة، لكن لم نعلم أنها سميت بذلك»[١]. والقول بأن الأرض دُحِيت من مكة المكرمة قولٌ قديم[٢]، وقد أظهرت دراسة علمية حديثة صدق هذا القول إذ قام المعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية بالقاهرة بدراسة كشفت أن الكعبة المشرفة تُمثِّل مركز الأرض، فمكة المكرمة مركز اليابسة قبل تزحزح القارات وانفصالها عن بعضها في العصور الجيولوجية السحيقة.[٣]

وعلى العموم كان الزبادي يبدي رأيه فيما نقله من أسماء مكة المكرمة وكان يذكر الاسم ومعناه.

وعلى كلٍّ فالرحلات المغربية موسوعات علمية عرَّفت بالعادات والتقاليد، والمعتقدات والأساطير، وسجلت الأحداث، وَوَصَفَ أصحابها معالم الأرض التي مرّوا بها ومسالكها وأماكن وجود الماء فيها ومزروعاتها، بالإضافة إلى المقارنة بينها.

فكان الرحالة المغاربة بذلك مؤرخين، وجغرافيين، وعلماء اجتماع، واقتصاد، وفلك، وعلماء بأحوال الرجال والحديث بدون قصد، ومطالعة رحلاتهم هذه تعين على المقارنة والتوثيق.

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٠٥.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٣١ - ٣٢.

(٣) وقد أوضحت هذه الدراسة أن الكعبة المشرفة هي مركز لدائرة، نصف قطرها ثمانية آلاف كيلومتر، تمر بأطراف القارات القديمة آسيا وأفريقيا وأوربا، كما أنها أيضًا مركز لدائرة نصف قطرها ثلاثة عشر ألف كيلو متر، تمر بأطراف القارات الجديدة أمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية، وإستراليا، والقطبية الجنوبية. انظر جريدة عكاظ، ص٣٢، العدد ١١٥٢٠، السنة ٣٩، السبت ٩ من ذي القعدة، ١٤١٨هـ الموافق ٧ مارس ١٩٩٨م.

الفصل الثالث

الأحوال السياسيّة في الحجاز
من خلال كتب الرّحلات المغربيّة

- مناطق النفوذ في بلاد الحجاز
«الأشراف والعثمانيون»

- حالة الأمن في المدن وطريق الحاج (درب الحجاز)



الأحوال السياسيّة في الحجاز من خلال كتب الرّحلات المغربيّة

مناطق النفوذ في بلاد الحجاز "الأشراف والعثمانيون"

الحالة السياسية في مكة المكرمة:

اختلفت إمارة الحجاز التي كانت عاصمتها مكة المكرمة، وتميزت عن غيرها من ولايات الدولة العثمانية، ومما يؤكد ذلك وثيقة وردت على لسان أحد كبار الموظفين العثمانيين المعينين في الحجاز في أواخر دولة الأشراف زمن الشريف عبدالمطلب[1] جاء فيها: «... عندما جئت إلى هنا كنت على اعتقاد خاطئ بأن وظائف إمارة مكة المكرمة وامتيازاتها محدودة ومعينة مثل الإمارات الأخرى، وعلى أية حال فإنه لا توجد تحديدات وشروط بشأن الوظائف والامتيازات في الفرمان العالي الذي يحمله الشرفاء المعينون هنا، واتضح من التحقيقات التي أجريتها هنا أن الأمراء السابقين والأمير الحالي عبدالمطلب لا يستندون إلى أية شروط أو تحديدات».[2]

---

(١) عبدالمطلب بن غالب بن مساعد استمرت مدة حكمه (٥) سنوات في ولايتين منفصلتين الأولى سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م وهي الأقصر، والثانية عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م وقد حدثت في ولايتيه فتن وأحداث كثيرة. انظر: السباعي: تأريخ مكة، ج١، ص٥١٧ - ٥٢٠، ٥٣١ - ٥٣٤.

(٢) إسماعيل حقي: أمراء مكة المكرمة، ص٤٤، نوال سراج ششة: الحجاز تحت حكم محمد =

من هذا النص نستنتج أن السلطان العثماني لا دخل له في الأمور الداخلية في مكة المكرمة، وأن الشريف يُسيِّر أمورها وفق هواه، وتدخُّل السلطان العثماني فقط في الفتن الكبيرة، وكانت هذه الفتن كثيرة، ولا محيص من تدخل السلطة العثمانية فكانت تبادر إلى إرسال جيش عن طريق والي مصر.

ولمس الرحالة المغاربة تمتع الأمراء الأشراف بالاستقلال الداخلي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، بدءًا باختيار الأمراء الأشراف لحكمها، وانتهاء بأيسر أمور الحياة اليومية، ومما يؤكد هذا الأمر تصريح العياشي بذلك بعدما لمسه خلال مجاورته، عندما تحدث عن الضرائب التي يدفعها الحجاج، فقال: «لا يأخذ سلطان مكة شيئًا... لأنه وإن كان مستقلًا في مملكته فهو في الحقيقة عامل من عمال الخاقان الأعظم صاحب الروم، يأتيه من مصر من الأموال والأطعمة ما يقوم بكفايته وكفاية عساكره»[1]. فالعياشي هنا لمس الاستقلال الداخلي وعبَّر عنه بقوله: «مملكته» وأثبت في الوقت ذاته تبعيته للدولة العثمانية، وهذه التبعية لم تنف الاستقلال الداخلي.

أما عن اختيار شريف مكة المكرمة بسبب وفاة الأمير السابق أو عزله أو استقالته فكان يُختار من قِبَل الأشراف[2]، وبناءً على تقارير قاضي مكة المكرمة، وولاة مصر والشام وجُدة، ثم يأتي فرمان تعيينه من السلطان، أما إذا لم يحصل اتفاق بين الأشراف حول شخص معين فالحكومة العثمانية تعيِّن من قِبَلها أحدَ الأشراف بناءً على دراسة التقارير المرفوعة لها من قبل الولاة، وقاضي مكة

= علي ١٢٢٦ - ١٢٥٦هـ/ ١٨١١ - ١٨٤٠م، ص٣٣ - ٣٧. رسالة دكتوراه لم تنشر، مقدمة إلى جامعة أم القرى عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٩٠؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٩٣.

المكرمة[١]. وكانت رشوة باشا جُدة تؤدي دورها في تعيين أمير غير مرغوب فيه، فتكون نتيجة ذلك إخلالًا بالأمن، واضطرابًا في الإدارة، فيضطر السلطان العثماني لتعيين آخر محلّه، ولكن كان الاختيار بالانتخاب بين الأشراف هو الأساس، إلا أن التنافر كان قائمًا بينهم، وكثيرًا ما كان الأمير المعيّن يُبَدَّل بعد مدة قصيرة. بالإضافة إلى نظام حكم المشاركة الذي يقضي بإصدار فرمان سلطاني يُعيَّن فيه أميران لمكة المكرمة يشتركان في حكمها.[٢]

ومن خلال نظام المشاركة هذا، يُعدُّ الشريف المشارك لهذا المنصب المنتظر في عهد أبيه، أو أخيه، أو عمه، أو ابن عمه، فتحصل له بذلك فرصة التدريب على أعباء هذا المنصب، فإما أن يثبت أهليته ويكوّن الأتباع والمؤيدين[٣]، أو يُعْزَل[٤]. أما ولاية العهد فلم تعرف في نظام الحكم في الحجاز.

ومن هنا نرى أن النظام السياسي في الحجاز كانت له ثلاث دعائم هي: الاختيار، والتنافر، والمشاركة في الحكم. وهذه الدعائم الثلاث كانت لا تخلو من عيوب، فالاختيار غالبًا ما كان يتم لمصلحة الأقوى وليس الأصلح، كما أن نظام المشاركة لم يكن يتّبع قاعدة ثابتة، علاوة على التنافر بين الأشراف، فكل ذلك أدى إلى كثرة الاضطراب والبلبلة.

ولم يلتفت الرحالة المغاربة كثيرًا إلى الحالة السياسية في الحجاز، فوردت إشارات طفيفة تحتاج إلى توضيح من خلال الاستعانة بالمصادر

---

(١) المصدر السابق والجزء، ص١٩٦.

(٢) إسماعيل حقي: أمراء مكة المكرمة، ص٣٣، ٥٠.

(٣) أحمد بن عمر الزيلعي: نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة، ص٧٤ - ٧٥، مجلة الدارة، العدد ٣، الرياض، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٤) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٦١.

التاريخية الخاصة بالحجاز، فمن ذلك إشارة الرحالة القيسي الذي قدم إلى الحجاز عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م لفتنة حدثت في مكة المكرمة، فوصف الذين تسببوا فيها «بالفئة الباغية»، وفي مكان آخر نعتهم «بالعدو الباغي، الصائل على الحرم الشريف».[١]

والقيسي في هذه الإشارة الخاطفة لم يصرح باسم أمير مكة المكرمة في ذلك الوقت، كما لم يذكر سبب خروج هذه الفئة على الشريف، وكل ما ذكره أنه رأى احتفالًا عسكريًا في مصر جُمعت فيه الحشود والجنود، وعلى رأسهم خمسة قادة مع كل قائد ألف جندي من الأتراك، وثمانية من المدافع، وأمام كل قائد ثمانية من سوابق الخيل، بالإضافة إلى أمير الحاج المصري رضوان[٢] ومَنْ معه من الجنود، وهذا الحشد العسكري الكبير استرعى انتباه القيسي فسأل عن سببه، فقيل له: «إن بعض مَنْ شَقَّ العصا من الأتراك من ناحية اليمن اجتمعوا على الشريف وصالوا على الحرم الشريف، ونهبوا الأموال، وسلبوا النساء والرجال، فنهض أمير مصر لحماية البيت ونصرته ودفع المهاجم عليه ومقاتلته».[٣]

وكما وصف لنا القيسي خروج هذا الجيش من مصر لنجدة أمير الحجاز وصف لنا وضع القاهرة بعد عودته فقال: «ومدت الركائب المصرية والجيوش المجهزة لدفع الفئة الباغية بعد قضاء الأوطار، وأَخْذ الثأر، وإصلاح البلاد والعباد، فنودي في أقطار القاهرة ونواحيها: ألا فهذه أيام الزينة فاحْتَفِلوا».[٤]

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٢٩، ١٣١، ٨٨.

(٢) رضوان بك الفقاري تولى إمارة الحاج المصري ثماني سنوات متصلة وثماني سنوات متفرقة وهو أطول من تولى من أمراء الحج. له مآثر حسنة في طريق الحاج وفي الحجاز. توفي عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م. الرشيدي: حُسن الصفا، ص١٨٣ - ٢٠٦.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص٦٨ - ٦٩.

(٤) المصدر السابق، ص١٢٩ - ١٣١.

فالقيسي هنا شاهد عيان على هذه الحشود المتجمعة والذاهبة إلى الحجاز لمساعدة شريفها، ولكنه لم يوضح لنا لمَ نهض والي مصر لنجدة الشريف؟ وبأمر مَنْ أَعدَّ هذا الجيش؟

وبمقارنة ما ذكره مع ما كتبه مؤرخو تلك المرحلة تتضح الصورة، ونجد إجابات للتساؤلات السابقة. فالسنجاري ذكر في حوادث سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م وقعة الجلالية[١]، وملخصها: أن أخبارًا وصلت إلى مكة المكرمة في أوائل شعبان تفيد بخروج عسكر على الوزير اليمني من قِبَل الدولة العثمانية، وهم متوجهون إلى مكة المكرمة، وقبل وصولهم إليها أرسلوا رسالة لشريفيها محمد بن عبدالله[٢] وزيد بن محسن[٣]، كان مضمونها السماح لهم بدخول مكة المكرمة ليتهيؤوا منها للذهاب إلى مصر، فرفض الشريفان السماح

---

(١) «وقعة الجلالية»: تنسب إلى جلالي، جندي من عسكر اليمن، خرج على طاعة قانصوه باشا، وذهب إلى القنفذة، وهاجم مكة المكرمة بمن معه وانتهت هذه الوقعة بهزيمة المهاجمين على يد جيش بعث به باشا مصر برًا وبحرًا. انظر: أيوب صبري: مرآة جزيرة العرب، ج١، ص١٠٦.

(٢) الشريف محمد بن عبدالله بن حسن بن أبي نمي الثاني، تولى إمرة مكة المكرمة بعد أن خلع أبوه نفسه عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م، وأشرك معه بالإمرة الشريف زيد بن محسن، وصدر مرسوم تعيينهما، ولم تستمر ولاية هذا الشريف طويلًا، إذ قُتِلَ في وقعة الجلالية في العام نفسه ومدة ولايته (٧) أشهر إلا ستة أيام. انظر: العصامي: سمط النجوم، ج٤، ص٤٣٧ - ٤٣٨؛ عبدالفتاح حسين إسماعيل محمد طيب راوه المكي: تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام، ص٢٣٥ - ٢٣٧، مطبعة الكمال، د.ت.

(٣) الشريف زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي، شريف مكي حسني، ولد في مكة المكرمة عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م، وسار مع أبيه إلى اليمن، ثم عاد إلي مكة المكرمة، فولاه الشريف عبدالله بن حسن الإمارة شريكًا مع ابنه محمد بعد أن خلع نفسه، ثم قتل شريكه في وقعة الجلالية، وفرَّ هو، إلى أن عاد بالجيش التركي القادم من مصر، وأخمد الثورة، وأصبح الحكم الفعلي حتى وفاته عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م ومدة ولايته (٣٥) سنة وشهر وأيام. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص١٧٦ - ١٨٦.

لهم خوفًا من حدوث فوضى، وخرجا بِمَنْ معهما من الأشراف إلى أسفل مكة المكرمة لمنعهم من دخولها، فالتقى الطرفان وتقاتلا، فقُتل الشريف محمد بن عبدالله وعدد من الأشراف، وعاد بعضهم بالشريف المقتول لدفنه في مكة المكرمة، وتوجه الباقون لمرّ الظهران. واستطاعت الجماعة المنشقة دخول مكة المكرمة مع الشريف نامي بن عبدالمطلب[1] الذي ولَّوه أميرًا لمكة المكرمة وأشركوا معه في الإمرة الشريف عبدالعزيز بن إدريس بن حسن[2] دون الدعاء لهما على المنابر، لأنه لم يصدر مرسوم سلطاني بتوليتهما، ثم أرسلوا لأمير جُدة أن يسلمها لهم، فأبى وتحصَّن فيها فحاصروه ثم دخلوها[3] ونهبوا داره ودور معظم التجار، ثم عادوا إلى مكة المكرمة وعاثوا فيها فسادًا، وأشيع أن والي مصر أرسل أربعة سناجق، إذ إنه بعد وقعة الجلالية توجه الشريف زيد بن محسن إلى المدينة المنورة، وأرسل رسالة مع أحد الأشراف إلى والي مصر، يخبره بما جرى، ليوصل الخبر للسلطان العثماني، فجهز باشا مصر ثلاثة آلاف جندي، وعيّن عليهم خمسة قادة، رحلوا برًا، وأرسل خمس مئة جندي بحرًا. وانتظر الشريف زيد هذا الجيش في ينبع لحين وصوله، ثم سار معه متوجهًا إلى مكة المكرمة، فأرسل الشريف نامي ثلاثين خيَّالًا وعشرة هجَّانة لاستطلاع الخبر، فشعر بهم الجيش وقتلوا منهم ثلاثة عشر خيالًا وخمسة هجانة أو ستة،

(١) الشريف نامي بن عبدالمطلب بن حسن بن أبي نمي، أمير مكة المكرمة، ولاه الأتراك القادمون من اليمن الذين عاثوا في مكة المكرمة فسادًا وقُبض عليه وقُتل في مكة المكرمة. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٤٤٨.

(٢) الشريف عبدالعزيز بن إدريس بن حسن بن أبي نمي، من بني عمومة الشريف نامي، أُشرك في الأمرة معه من قِبَل الأتراك القادمين من اليمن. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٤٤٨؛ السباعي: تأريخ مكة، ج١، ص٣٦٨.

(٣) يبدو أن حصانة جُدة كانت أكثر من جهة البحر، أما من جهة البر فلم تكن بتلك الحصانة، إذ يمكن دخولها واقتحامها.

وفر الباقون، وأخبروا الشريف نامي بما وقع، فخرج بأتباعه ممَّنْ بقي من الأتراك من مكة المكرمة في الرابع من ذي الحجة سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م إلى تربة[١]، وتحصنوا فيها، ودخل الجيش مكة المكرمة، وكذلك المحمل المصري برئاسة الأمير رضوان أمير الحاج المصري الذي لم يقدم معه هذه السنة حجاج من مصر، بل عسكر لمساندة الجيش، وبعد تمام الحج خرج الجيش مع الشريف زيد إلى تربة، وحاصروا مَنْ فيها، واقتحموا عليهم حصنهم، وأمسكوا برئيس الجلالية، وبالشريفين نامي وأخيه. وكان اقتحامهم للحصن ليلة الجمعة الحادي عشر من محرم عام ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م. ثم عادوا إلى مكة المكرمة، وقُتل الشريفان ورئيس الجلالية، وبهذا انتهت هذه الوقعة، ورحل بعدها أمير الحاج المصري والشامي والجيش آخر شهر صفر، واستقر الأمر للشريف زيد.[٢]

وهذه الرواية وردت متشابهة عند مؤرخي مكة المكرمة، إلا أن العصامي والمحبي ذكرا أن عدد السناجق المرسلة سبعة[٣]. وورد الخبر مختصرًا عند يحيى بن الحسين، وحدّد عدد الجيش بثلاثة آلاف.[٤]

ومما سبق نجد أن باشا مصر هبَّ لنجدة الشريف زيد بناءً على رسالة أرسلها إليه ليبلغها إلى السلطان العثماني الذي أصدر أمره إلى باشا مصر بسرعة

---

(١) «تُرَبَة» بالضم ثم الفتح، وادٍ بالقرب من الطائف، وهو أحد أودية الحجاز، وهي بلدة عامرة فيها الكثير من المزارع. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢٠.

(٢) السنجاري: منائح الكرم، الجزء الثاني، ج٢، ص٩٣٢ - ٩٦٠؛ عبدالفتاح راوه: تاريخ أمراء البلد الحرام، ص٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) العصامي: سمط النجوم، ج٤، ص٤٣٧ - ٤٤١؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص١٧٦ - ١٧٧؛ الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٤٤ - ١٤٧.

(٤) يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ج٢، ص٨٣٥، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

النجدة، فجمع الجيش وسيَّره إلى الحجاز، كما اتضح معرفة مدى الصلاحيات التي كانت مخوَّلة لباشا مصر لتسيير أمور إمارة الحجاز، ومساعدة أمرائها الأشراف بموجب مرسوم صدر قبل ذلك. كما لم نلحظ أي حدود تفصل بين نفوذ الأشراف في الحجاز والنفوذ العثماني، سواء من قبل باشا مصر أم من والي الشام، إذ كان أمير الحاج الشامي من ضمن المساعدين في القضاء على هذه الفتنة كما ذكر القيسي[1]. ومن هنا يمكننا التوفيق بين ما ذكره القيسي عن عدد السناجق وما ذكره مؤرخو مكة المكرمة، إذ كان أمير الحاج الشامي يصحب معه سنجقين أيضًا، ولكن لم يشاهدهما القيسي، ورصدهما مؤرخو مكة المكرمة.

وهكذا نرى أنه كان بمجرد وقوع حادثة تهدد أمن الحجاز ترتفع الحواجز وتتلاشى الحدود، وتصبح أرض الحجاز جزءًا من الأرض العثمانية التي يجب أن تبقى تحت سيادتهم وسيطرتهم.

كما نخلص إلى نتيجة أخرى من أحداث هذه الفتنة ونتائجها، وهي ضعف الأشراف أمراء الحجاز في الدفاع عن مناطقهم ضد أي معتدٍ من الخارج، فكانوا أمراء مهمتهم إدارة شؤونها الداخلية بقوة شخصيتهم، وكثرة ما لهم من أموال وأتباع، أما الدفاع الخارجي فلا طاقة لهم به، إذ لا بد لهم من المساعدة الخارجية من مصر التي تتبع الدولة العثمانية، ومن مثل هذه الأحداث يتضح لنا مدى امتداد نفوذ الدولة العثمانية.[2]

ويورد رحالة مغربي آخر وهو العياشي الذي وصل إلى الحجاز عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م معلومات عن أمير مكة المكرمة الشريف زيد الذي يبدو من حديث العياشي أنه كان محبوبًا لدى أهل الحجاز لثنائهم الكثير عليه،

(١) القيسي: أنس الساري، ص٨٨.

(٢) ششة: الحجاز تحت حكم محمد علي، ص٣٤، رسالة دكتوراه لم تنشر.

وكانوا يرون أنهم في خير وأمان ما دام حيًا، وأنهم على استعداد لافتدائه بآبائهم وأمهاتهم، وقد كان هذا الأمير كثير الأتباع والجنود، بالإضافة إلى إجماع الأشراف على طاعته، ويبدو أنه كان من أحسن أمراء عصره سياسة وحسن تدبير، إذ قام بأعباء الإمارة خير قيام، من حراسة الحجيج وعمران الطرق، وبناء سبيل ماء بعد بدر، حيث قسمت المسافة بين بدر ومستورة أثلاثًا، وكان والده محسن[١] قد بنى سبيل ماء بعد مستورة، فأضاف الشريف زيد ببدر سبيلًا آخر ليبسّر على الحجاج، إذ قلَّما يوجد في هذه المسافة ماء، ومع بناء هذين السبيلين فقد بقي الماء قليلًا لبعد مسافة جلبه إليهما.[٢]

وكان الخروج لاستقبال الحجاج إلى مدائن صالح أو المدينة المنورة وتوديعهم من مهام أمير الحجاز الرئيسة، وكذلك المواظبة على الأدعية الخيرية مع عامة المجاورين والزائرين بدوام عمر الدولة العثمانية وقوة السلطان.[٣]

---

(١) الشريف محسن بن حسين بن حسن، ولد عام ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م وتربى في كنف عمه أبي طالب لأن والده حسينًا توفي في حياة أبيه الحسن بن أبي نمي، تولى إمرة مكة المكرمة مشاركًا لعمه إدريس بن حسن منذ عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م، واتسعت حدود إمارتهما إلى الأحساء، وحدث تنافر بينهما بسبب تعدي عبيد الشريف إدريس، ووصل الأمر إلى حد خطير، فاجتمع أهل الحلّ والعقد من الأشراف والعلماء والفقهاء الأعيان، وخلعوا إدريسَ وفوضوا أمر ولاية الحجاز للشريف محسن عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م، وحدث اضطراب من جراء ذلك، إلى أن خرج الشريف إدريس من مكة المكرمة، ولم يلبث أن توفي في السنة نفسها. وكان الشريف محسن كثير الفضائل، وأمنت البلاد في عهده، إلى أن كان عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م إذ حدث بينه وبين أحمد باشا متولي اليمن نفرة بسبب سوء تفاهم، فعزله، وخرج الشريف محسن إلى اليمن بعد أحداث كثيرة، وتوفي فيها عام ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م. انظر الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٢٧، ١٣٤ - ١٣٦؛ دحلان: أمراء البلد الحرام، ص٩١ - ٩٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٦، ١٧٠.

(٣) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة =

وطبيعي أن مهمتهم الرئيسة حراسة طرق الحجيج كما ذكرنا، وتأمين سلامتهم، ولو طبق هذا الأمر كما أراد السلطان العثماني لمَا لقي الحجيج الكثير من الويلات من قلة الأمن في طريقهم، ويبدو أن هذا يعود أساسًا إلى عدم وصول الأخبار الصحيحة للسلطان، أو عدم علمه أصلًا بما كان يجري.

وذكر العياشي أمرًا أغفلته المصادر التاريخية عن مذهبه حيث اتَّبع أولًا المذهب الزيدي، ثم اعتنق المذهب الحنفي. وقصة ذلك كما روى العياشي: أن هذا الأمير كان فيما مضى كأهل بيته على المذهب الزيدي، ثم باينهم وتمذهب بالمذهب الحنفي، وحسُن اعتقاده في علماء السنة، وبالغ في تعظيمهم، وكفَّ أهل بيته عن النيل من أهل السنة، ومنعهم من إظهار معتقداتهم، وذُكِر له أنهم اجتمعوا ذات يوم ولاموه على رجوعه عن مذهبهم، فقال لهم: «ألا يكفيكم منّي أنّي لم أجبركم ولم أنهركم على الرجوع عما أنتم عليه، إنما هو دين، لا يسع المرء فيه إلا اعتقاد ما هو الحق، واتباع مَنْ يغلب على ظنّه أنه على الحقّ والهدى، وقد ظهر لي صحّة ما رجعت إليه، فإن رأيتم ما رأيت، وتبّين لكم ما تبّين لي، فينبغي لكم أن ترجعوا إلى الحق والهدى، وإن لم تَرَوْه فلكم دينكم ولي دين، فمن ذلك اليوم أيسوا منه».(١)

وذكر العياشي أن كثيرًا من الناس وَسَموه بالبخل، وقد نفى عنه هذه التهمة، لأن شيخه أبا مهدي ذكر له خلاف ذلك، حيث قال له: «إنه لا يدفع صدقاته، ولا يسدي المعروف إلا لِمَنْ ليس له وظيفة معلومة من أتقياء العلماء، فيبعث لهم وللفقراء بالأموال ليلًا، بحيث لا يعلم بذلك إلا بعض خواص

= بمئات الصور الشمسية، ج٢، ص٢٠٩ - ٢١٠، بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ إسماعيل حقي: أمراء مكة المكرمة، ص٣٤.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٥ - ١٥٦؛ عبدالله غازي المكي: إفادة الأنام بأخبار البلد الحرام، ج٦، ص٣١٥ - ٣١٧، مخطوط.

أصحابه، ولا يعطي أصحاب المناصب والوظائف إلا النزر اليسير، ولهذا وصفوه بالبخل».[(١)]

كما وُصِف بكثرة العبادة، وأُخذ عليه أن عماله كان يظلمون الناس في أموالهم، وعلَّل العياشي هذا الفعل بقوله: «كما هو شأن ولاة العصر».[(٢)]

أشاد العياشي بالأمن والاستقرار في ربوع الحجاز أثناء مدة حكم الشريف زيد، وكان من التدابير التي اتخذها ليحقق ذلك إقامته للعمال والعسكر للحراسة وتأمين الطريق في بعض منازل الحاج مثل خليص من اللصوص أيام الموسم، وأضاف: «أن أعراب الحجاز كانت تهابه وتتقيه». كما ذكر: «أنّ من محاسنه أنه لم يقتل أحدًا من أهل بيته بالرغم من كثرة خروجهم عليه، وفسادهم في إمارته، إذ كان كل ما يفعله نحوهم هو إخراجهم من مكة المكرمة. وإذا ما حاول بعضهم جمع الأعراب لإفساد أمر إمارته تركهم إلى أن تخلو أيديهم من الأموال، فيعودوا صاغرين إليه، طالبين العفو حتى دانوا له جميعًا بالطاعة».

وقيل إنه كان يكره سفك الدماء على الرغم من شجاعته التي تضرب بها الأمثال، وأخذ عليه الإكثار من مصادرة الأموال إلا في الحدود، كما أُخذ عليه أن عماله كثيرًا ما كانوا يخالفون الشرع في جبايتها، ويظلمون بذلك الناس.[(٣)]

ويظهر أن العياشي كان معجبًا جدًا بشخصية الشريف زيد وأعماله، ولكن لم يمنعه هذا الإعجاب من ذكر المساوئ التي أخذها عليه.

ووافق الطبري، وابن غازي العياشيَّ في ثنائه على الشريف زيد، فقد ذكرا

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٦.

(٢) المصدر السابق والصفحة.

(٣) المصدر السابق والصفحة.

جميل صفاته وحميد أخلاقه كما أوردها العياشي.[1]

ويبدو أن الشريف زيدًا كان يُحكِم القبضة على أمور الحجاز، وساعده في ذلك أبناؤه، فمنهم مَنْ كان في مكة المكرمة معه ومنهم من كان في الطائف والمدينة المنورة، يجوبون جميع أنحاء الإمارة، وكانت الأعراب تخاف أبناءه أيضًا وخاصة الذين ينقلون المسافرين بين مكة المكرمة والمدينة المنورة.[2]

لقَّب العياشي الشريف زيدًا بلقب سلطان الحجاز[3]، ويبدو أن هذا اللقب لم يكن من ضمن الألقاب الرسمية لأمير الحجاز، فقد اختصّ به السلطان العثماني، وقد أطلقه الرحالة المغاربة على أمير مكة المكرمة لما كانوا يرون ما عليه من الأبهة والملك، وما ذكره العياشي عن لقب السلطان للشريف زيد أيده فيه المحبي الذي قال: إن كل مَنْ ترجم له نعته بالسلطان[4]. وورد هذا اللقب في قصيدة إمام المالكية تاج الدين المالكي أوردها المحبي ومنها:

لـــلــه تــأســيــس نــمــا خــيــره
وفــاز بالتصهير مَــنْ أَمَّــلــه
بــه ســبــيــل وحــنــفــيــة[5]
وسلسبيل فارتشف سلسله

(١) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٥٩ - ١٦١؛ ابن غازي: إفادة الأنام، ج٦، ص٣١٥ - ٣١٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٣، ٤١٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٦.

(٤) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٩٢.

(٥) هكذا ورد الشطر مكسوراً.

أســـــه سـلــطـــان أم الـقـــرى

زيـد يـدوم العز والسعد لـه[١]

والملحوظ أن منشأ هذا اللقب كان في عهد الشريف زيد، وأُطلق على بقية الأمراء الأشراف الذين حكموا مكة المكرمة، حيث لم نر له ذكر في المصادر التي سبقت عهده.

مباني الحكم في الإمارة:

ذكر العياشي أن في مكة المكرمة دارًا للحكم تسمى دار الإمارة تقع بالقرب من الصفا[٢]، تُدار في أروقتها شؤون الإمارة. وكان الفاسي من قبل قد أشار في كتابه شفاء الغرام إلى وجود دار للإمارة، وذلك في عام ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م.[٣]

كما أشار العياشي إلى وجود محكمة في مكة المكرمة للفصل بين قضايا الناس، وكان موقعها بالقرب من المسعى.[٤]

وفي إعمار ما تخلّفه الكوارث الطبيعية كالسيول ذكر العياشي مبادرة السلطان زيد وأولاده وأقاربه، وأمره لأهل مكة المكرمة بإغلاق حوانيتهم والإسهام في إصلاح ما أفسده السيل، وطلبه المساعدة من الدولة العثمانية، ففي الكارثة التي حدثت عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م دخل سيل عظيم أتلف كثيرًا من معالم المسجد الحرام، فكان لا بد من إسهام الدولة العثمانية في إصلاحه،

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص١٧٨.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤.
(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٣٠٠.
(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧.

فبادر والي جُدة أغا[١] سليمان[٢] إلى التوجه لمكة المكرمة ومعه الأموال الكثيرة لإصلاح ما تهدم وترميم ما يحتاج إلى ترميم.[٣]

ولفت نظر العياشي تواضع أحد أبناء الشريف زيد ويدعى الشريف حسناً الذي استأذن في مقابلة الشيخ عبدالرحمن المكناسي، وكان العياشي حاضرًا فلم يأذن له مدة من الزمن، ثم سمح له بعدها بالدخول، ولم يقم له الشيخ، ولا احتفل بمقدمه، فلم يغضب الشريف مع حداثة سنه، وما كان عليه من نخوة الملك والشرف، بل إنه ألانَ الكلام بين يدي الشيخ وتلطف معه[٤]. وتدلنا هذه المقابلة على اهتمام الشريف زيد وأبنائه بالعلماء وتوقيرهم في ذلك الوقت والسعي للاقتباس من علمهم والتقرب منهم.

سمّى العياشي في رحلته أسماء بعض أمراء مكة المكرمة، ولكنه لم يذكر إلا أقل القليل من أخبارهم، وهم الأمير محسن بن حسن[٥] الذي ابتنى سبيل ماء في البزواء. وقال: «إنه تولى الشرافة عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م»[٦]. وما ذكره

(١) «أغا» لفظة تركية معناها السيد. انظر: نوال سراج ششة: جدة في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، ص٦٧، هامش رقم ٣، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م..

(٢) أغا سليمان، أو سليمان بك، تولى سنجقًا على جُدة عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م وفوّضت إليه مشيخة الحرم ونظارة عمارة المسجد الحرام والمشاعر فبادر إلى ترميمه، وتولى ترميم ما انهدم وانمحى في سيل عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م في المسجد الحرام، توفي في محرم عام ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م. انظر: السنجاري: منائح الكرم، الجزء الثاني، ص١٠٢٦ - ١٠٣٣.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤ - ٣٩٥؛ السنجاري: منائح الكرم، الجزء الثاني، ص١٠٢٦ - ١٠٣٣؛ الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٥٨.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤١١، ٤١٣.

(٥) الصحيح محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي. انظر: الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٢٧، ١٣٤ - ١٣٦.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٦.

العياشي عن سنة توليه الشرافة موافقٌ لما ذكره العصامي.[١]

وأورد العياشي قصة تدل على الاهتمام بالأمن والاستقرار في عهده فقال: «إن رجلًا جاء إلى السلطان محسن فقال له: «إني وجدت بالفلاة الفلانية حملًا من البزّ[٢] في الطريق»، فقال له: «ومَنْ أخبرك أنه من البزّ؟ فقال: «مسسته برجلي»، فأمر بقطع رجله وقال له: «لِمَ مسسته برجلك؟»». وأضاف العياشي: أن هناك قصصًا كثيرة بهذا المعنى لا يُعلَم صحيحها من سقيمها[٣].

إن هذا الأمن الذي خيَّم على بلاد الحجاز خلال إمارة الشريف محسن إنما كان مردّه الإرهاب الشديد بالعقاب لأدنى مخالفة تصدر من أحدهم، ولم يكن الأمن قائمًا على أساس صحيح من العدل، فهذه الحادثة وإن أعطتنا انطباعًا عن الأمن، لكنها في الوقت نفسه تركت لدينا انطباعًا عن شدة بطش الشريف محسن، فلو التفت هو وغيره من الأمراء إلى الإصلاحات الداخلية من تهيئة أسباب استقرار الأعراب وضبط سياستهم، وإسناد الأعمال الزراعية والصناعية لهم، وتشجيعهم على مزاولتها، وصَرَفَ الأموال على هذا الأمر في توطينهم، لعمَّ الأمن دون الإسراف في البطش والعقاب؛ لأن عبث الأعراب وفسادهم مردّه إلى قلّة الأقوات، فلو أقيمت المشروعات ذات المردود الاقتصادي الجيد لقلَّت الفوضى وأمن الناس على أموالهم وأنفسهم.

وذكر العياشي سلطانًا آخر للحجاز هو الشريف إدريس بن الحسن[٤]

---

(١) العصامي: سمط النجوم، ج٤، ص٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) «البز» الثياب أو متاع البيت من الثياب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣١١ - ٣١٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٥.

(٤) الشريف إدريس بن الحسن بن أبي نمي أمير مكة المكرمة، يكنى أبا عون، ولد عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م، ولي إمرة مكة المكرمة بعد أخيه أبي طالب عام ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م، =

الذي مدحه قاضي المالكية وإمام مقامهم عام ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م[(١)] بقصيدة لم يوردها المحبي، وأوردها العصامي والسنجاري مع اختلاف يسير في ترتيب الأبيات ونقصان بعضها.[(٢)]

وإثبات قصائد المدح في كتب الرحلات المغربية لها أهمية أدبية، إذ حفظت أدب تلك المدة من الضياع، فالرحالة المغاربة كانوا معاصرين لهؤلاء الأدباء الذين أخذوا عنهم نتاجهم الأدبي مباشرة.

وذكر العياشي أيضًا اسم الشريف مسعود بن إدريس بن حسن[(٣)].

= وأشرك معه أخاه فهيدًا، ثم خلعه وأشرك معه ابن أخيه محسن بن حسين، ووصلت حدود إمرتهما إلى الأحساء، وحدث تنافر بينهما بسبب تعدي عبيد على إدريس، فاجتمع أهل الحلّ والعقد على خلعه، وتفويض الأمر إلى الشريف محسن، فحصلت فوضى انتهت بخروج الشريف إدريس عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م صلحًا. ولم يلبث أن توفي في العام نفسه في جبل شمر، وكانت مدة ولايته (٢١) سنة ونصف السنة. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٩٠ - ٣٩٤.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٥ - ٥٠٦؛ القاضي تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم بن تاج الدين بن محمد بن محمد بن تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن جمال الدين محمد بن يعقوب بن يحيى بن يحيى بن عبدالوهاب المالكي المدني ثم المكي يعرف بابن يعقوب من علماء مكة المكرمة وخطبائها ومدرسيها وأدبائها، ولد في مكة المكرمة ونشأ فيها وأخذ على أكابر شيوخ عصره، وتصدر للتدريس في المسجد الحرام، وذاع صيته، له ديوان شعر وفتاوى فقهية جمعها ولده أحمد وسماها تاج المجاميع، وله جمع لخطب الجمع والأعياد والاستسقاء، وله عدد وافر من المؤلفات توفي في مكة المكرمة في ٨ ربيع الأول سنة ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٤٥٧ - ٤٦٤.

(٢) العصامي: سمط النجوم، ج٤، ص٤٠٧ - ٤٠٩؛ السنجاري: منائح الكرم، الجزء الثاني، ص٧٢٤ - ٧٣٣.

(٣) الشريف مسعود بن إدريس بن الحسن بن أبي نمي أمير مكة المكرمة، نشأ فيها تحت رعاية أبيه، وقعت له حروب مع ابن عمه محسن، تولى إمارة مكة المكرمة سنة ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م، تهدمت في عهده الكعبة المشرفة، توفي ليلة الثلاثاء عاشر شهر ربيع الآخر سنة =

وعندما قدم الرافعي إلى بلاد الحجاز عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م سمى أميرها الشريف أحمد بن زيد(١)، وأشار إلى كثرة أتباعه وجنده بعددهم وعتادهم وخيلهم.(٢)

ويبدو أن كثرة أتباعه وجنوده تعود إلى محبة الناس له وإجماعهم عليه، ولا سيما أنه قدم من عند السلطان العثماني حاملًا أمر تعيينه، فدخل مكة المكرمة مع أمير الحاج المصري والشامي ونائب جُدة والقاضي والمفتي.(٣)

وأتى القادري إلى بلاد الحجاز عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م وأشار إلى الأمير آنذاك الشريف أحمد بن غالب(٤)، ولقبه بالسلطان، ووصف كثرة عسكره وخَدَمه

= ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م ومدة ولايته سنة وشهران و(٢٦) يومًا. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٣٦١ - ٣٦٢.

(١) الشريف أحمد بن زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبي نمي، شارك أخاه سعدًا في رُبع واردات مكة المكرمة، ثم عزلا وتوجها عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م إلى الطائف ثم إلى بيشة، وأقاما فيها، ثم توجه الشريف أحمد إلى ديار بني حسين وأقام فيها، وبعدها توجه إلى المدينة المنورة للزيارة، والتقى أمير الحاج الشامي، وطلب منه التوسط بينه وبين شريف مكة المكرمة بركات، ثم خرج من المدينة المنورة ونزل على شيخ حرب، وانتظر أمير الحاج الشامي الذي اعتذر عن عدم تمام الأمر، ثم توجه إلى الفرع عام ١٠٨٤هـ/ ١٦٧٣م. واستمر فيها مدة وأخذ ينتقل من مكان لآخر إلى أن توجه إلى الأبواب السلطانية، فأكرم وفادته في كل منزل نزله وقيلت فيه القصائد، ومكث مدة هناك إلى أن حصل اختلاف في مكة المكرمة بين أشرافها، فعينه السلطان العثماني أميرًا على الحجاز، فدخلها في حج عام ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م وبقي أميرًا عليها إلى أن توفي في ٢١ جمادى الأولى عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص١٩٠ - ١٩٧.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦١ - ١٦٢، ١٦٧.

(٣) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٨٥.

(٤) الشريف أحمد بن غالب، دخل مكة المكرمة أميرًا عليها في شوال عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م، وورد المرسوم بتعيينه في ذي القعدة من السنة نفسها من قِبل والي مصر الذي كتب إلى السلطان العثماني باتفاق الأشراف عليه وأن الدولة توافق عليه، وفي بداية عام =

وخيله وأتباعه الذين كانوا يرتدون زيًا موحدًا[١]. ويظهر أن الشريف أحمد بن غالب كان يملك أملاكًا واسعة وخدمًا كثيرًا يعملون فيها، إذ ذكر القادري أنه كان يملك في مرِّ الظهران مزارع يعمل فيها خدم له.[٢]

لم يذكر الدرعي اسم أمير مكة المكرمة الشريف عبدالكريم بن محمد[٣] عندما قدم إلى الحجاز عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، مع أنه هو الذي تولى إمارتها ست سنوات وعشرة أشهر في ثلاث مرات، كان آخرها من عام ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م إلى عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م.[٤]

ولما قدم أبو مدين إلى الحجاز عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م ذكر اسم أمير

= ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م نشب خلاف بينه وبين كثير من الأشراف فخرجوا عليه، وعمت الفوضى، فغادر مكة المكرمة في رجب من السنة نفسها، بعد أن دام حكمه سنة وتسعة أشهر وعشرين يومًا، والتجأ إلى إمام اليمن ليساعده على استرداد إمارته، فلم يقبل لعجزه عن مساعدته، وطيَّب خاطره وولاه حكم عسير، وضم إليه بعض الإمارات الأخرى، واستمر فيها أربع سنوات، ثم رحل إلى بلاد الروم وتوفي فيها عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م. انظر: دحلان: أمراء البلد الحرام، ص١٥٠ - ١٥٣، ١٦٥؛ السباعي: تأريخ مكة، ج١، ص٣٩٢ - ٣٩٤.

(١) القادري: نسمة الآس، ص٨٢.

(٢) المصدر السابق، ص٩٨.

(٣) الشريف عبدالكريم بن محمد بن يعلى، تولى إمارة مكة المكرمة بعد أن تنازل له عنها الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد عام ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م. وأُجمع على طاعته الجميع، وحدثت حروب بسبب منازعة الشريف سعيد بن سعد له إلى أن أُخذت منه، ثم عاد واسترد الإمارة عام ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م وعُزل في السنة نفسها وعاد إليها بعد حروب كثيرة، واستمر أميرًا على مكة المكرمة إلى عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ثم فرّ منها إلى مصر حيث توفي عام ١١٣١هـ/ ١٧١٩م. انظر: دحلان: أمراء البلد الحرام، ص١٧٩ - ٢١٣؛ إسماعيل حقي: أمراء مكة المكرمة، ص١٢٩.

(٤) إسماعيل حقي: أمراء مكة المكرمة، ص١٢٩.

مكة المكرمة ولقبه بالسلطان مسعود[١]، وأنه شاهده عندما كان متوجهًا إلى عرفات بجيشه.[٢] في حين أغفل الزبادي ذكر اسمه في رحلته مع أنه بقي - أي الشريف مسعود - أميرًا على مكة المكرمة منذ عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م إلى وفاته عام ١١٦٥هـ/ ١٧٥١م.[٣]

الحالة السياسية في المدينة المنورة:

كان للمدينة المنورة وضعها الخاص في علاقتها مع الدولة العثمانية، وإن كانت تتبع أمير مكة المكرمة وضمن مدن إمارته.

وعانت المدينة المنورة الأَمَرَّين من الأعراب المحيطين بها، وكانت المدينة المنورة مستقلة تحت حكم الأشراف من ذرية الحسين بن علي رضي الله عنهما، واستمرت في استقلالها إلى أن دخلت تحت حكم شريف مكة المكرمة تدريجيًا وذلك لضعف أمرائها الحُسينيين، وبدعم من سلاطين المماليك لشريف مكة المكرمة، ويبدو أن حادثة سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م التي

---

(١) الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد، استولى على إمارة مكة المكرمة في جمادى الأولى عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م، ولم يستتب له الأمر إلا ثلاثة أشهر، عاد بعدها ابن أخيه محمد بن عبدالله في ولايته الثانية، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مكة المكرمة مرة أخرى بتأييد من الضباط العثمانيين، وتصدى الشريف مسعود لقتال ابن أخيه، حتى أجبره على الخروج من مكة المكرمة، ودخلها، ونودي له بالإمارة عام ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م واستقر أميرًا فيها قرابة عشرين عامًا، ثم تصالح مع ابن أخيه الشريف محمد الذي عاد إلى مكة المكرمة في صفاء، وفي عهده حدثت عدة أمور، منها أمره بمنع شرب الدخان، وإبعاد الأجانب عن مكة المكرمة، ودخول سيل عظيم المسجد الحرام عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٦م غرق فيه أناس كثيرون. انظر: دحلان: امراء البلد الحرام، ص٢٣٥ - ٢٤٥؛ عبدالفتاح راوه: تاريخ أمراء البلد الحرام، ص٢٢٩ - ٣٠٢.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٨، ١٧٨.

(٣) دحلان: أمراء البلد الحرام، ص٢٣٥ - ٢٤٥.

قُتل فيها قاضي المدينة المنورة كانت بداية دخولها الفعلي تحت نفوذ أمير مكة المكرمة، وتدخله في شؤونها بطلب من السلطان المملوكي قايتباي؛ إذ فصل الشريف محمد بن بركات[١] أمير مكة المكرمة آنذاك في الحادثة السابقة، وأوصى بتغيير أمير المدينة المنورة فنفذ السلطان المملوكي ما أشار به.[٢]

ومنذ ذلك الوقت أصبح لأمير مكة المكرمة مهمة الإشراف على المدينة المنورة، ولم يعد لشريف المدينة المنورة المكانة التي كان يتمتع بها سابقًا، إذ أصبح نائبًا عن أمير مكة المكرمة[٣]. ولا يستطيع إبرام أمر أو نقضه دون الرجوع إليه، ولم تعد للمدينة المنورة علاقات مباشرة بسلاطين مصر، حيث كانت تصرف أمورها عن طريق أمير مكة المكرمة.[٤]

ولما دخل عامة الحجاز تحت حكم الدولة العثمانية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م استمرت سلطة أمير المدينة المنورة تتضاءل ولم يعد له ذكر إلا في الدعاء يوم الجمعة على المنبر كما ذكر العياشي.[٥]

تقسيم السلطة في المدينة المنورة:

أسهب العياشي في توضيح النفوذ السياسي في المدينة المنورة، فأورد

---

(١) الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، ولد في رمضان عام ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م في مكة المكرمة وخلف أباه على ملك الحجاز، أكثر من الخيل والأتباع، وقضى على بني إبراهيم في ينبع وعلى الجازاني، وأشرك معه ابنه بركات وكان يخطب لهما على منابر الحرمين، توفي عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م. انظر: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٤، ص١٥٠ - ١٥٣، بيروت - لبنان، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م؛ دحلان: أمراء البلد الحرام، ص٦٤ - ٦٧.

(٢) عبدالباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ج٢، ص٣٠٩ - ٣١٠.

(٣) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٥٩٠ - ٥٩١.

(٤) بدر: التاريخ الشامل، ج٢، ص٣١٨.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٦ - ٢٣٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

أسماء الفئات الحاكمة واختصاصاتها على النحو الآتي:

- أمير مكة المكرمة زيد بن محسن الذي لقبه بالسلطان.
- نائب أمير مكة المكرمة في المدينة المنورة، وهو ابن عم الشريف زيد وزوج ابنته، والسيد ثقبة[1] ومهمته النظر في مصالح البلد، وقد استمر هذا المنصب يمارس أعماله حتى نهاية حكم الأشراف.
- سلطة الولاة العثمانيين، إذ كان نفوذهم إلى جانب نفوذ أمير مكة المكرمة، وكان لهم رئيس يقيم في القلعة.
- حاكم تنفيذي ينفذ الأحكام من سجن وضرب وقتل وتأديب.
- سلطة شيخ الحرم وشيخ الأغوات، ولهما سلطة دينية كبيرة، وكلمة مسموعة من الجميع.
- الأمير الحسيني الذي تنسب إليه الإمارة اسمًا.

اجتهد العياشي في التعريف بحال أمراء المدينة المنورة، فمما ذكره أن إمارة المدينة المنورة في الماضي كانت لبني الحسين، وإمارة مكة المكرمة لبني الحسن، وكانت تقع بينهما الحروب، لأن بني الحسين كانت لهم قوة وبطش، وربما غلبوا بني الحسن، أما الآن[2] فصار الأمر بيد بني الحسن، وبذلك جمعوا الولايتين، ولم يبق لبني الحسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة المنورة، وصار معظمهم بادية ينزلون ويرتحلون في نواحي المدينة المنورة، وهم قبيلة عظيمة قوية يجمعهم اسم «بني الحسين»، وكبيرهم موسوم بولاية المدينة المنورة، يسكن فيها هو وبعض أقاربه، ولهم شارة حسنة ومنازل رفيعة تدل عليهم.[3]

---

(١) لم نجد له ترجمة في المصادر التي اعتمدناها.

(٢) المقصود زمن رحلة العياشي عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٥ - ٢٣٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

ويبدو أنه كان هناك أمير من قبل الدولة العثمانية، مهمته القيام بالإصلاحات، وخاصة فيما يتعلق بعين الأزرق، إذ كانت لهذه العين أوقاف معلومة، وجرايات تأتي من السلطان العثماني.[١]

وفي هذه المدة كثُر الجند العثماني بأُسرهم في المدينة المنورة، ومما يدلّ على ذلك قول العياشي: «إن أهل المدينة المنورة تزيَّوا بزيِّ الأعاجم في مأكلهم ومشربهم وملابسهم لكثرتهم، إذ كان بها طائفة كبيرة، الغرض من وجودهم حماية المدينة المنورة، ولكنهم في الحقيقة لا يغيثون ملهوفًا ولا يردعون ظالمًا».[٢]

ويبدو أنهم مكثوا في المدينة المنورة بقصد الراحة وطلب المعيشة السهلة، فقد ذكر العياشي أنهم «يشترون الحصص والجامكية، فيجلسون بالمدينة يرتزقون بما يأتيهم من ذلك، على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة».[٣]

وقد سمع العياشي الدعاء يوم الجمعة في الخطبة لثلاثة أشخاص على التوالي، هم: السلطان العثماني موصوفًا بخادم الحرمين الشريفين، ثم الشريف زيد بن محسن موصوفًا بحامي حمى الحرمين الشريفين، ثم أمير المدينة المنورة السيد الحسين بن جماز موصوفًا بحامي المدينة المنورة وأميرها.

وأضاف أن أمير المدينة المنورة ليس له من الأمر إلا الاسم أو ما يقرب منه؛ لأنه كان تحت أمر سلطان مكة المكرمة، وكان التصرف الفعلي لنوابه

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٣٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٣) المصدر السابق نفسه.

وأقاربه.[١]

وتأكيد العياشي المرة تلو الأخرى على انعدام سلطة أمير المدينة المنورة، إنما هو نابع من مشاهداته وما لمسه واقعيًا أثناء مجاورته فيها، فهو قد تحقق من الأمر فكرَّره بهذه الصورة.

ونبه العياشي إلى أمر أغفلته بعض المصادر، وهو تفضيل العسكر العثماني سكن المدينة المنورة على السكن في مكة المكرمة، ذاكرًا السبب في ذلك، حيث قال: «إن أهل مكة المكرمة غلبت عليهم البداوة، وأنها وطن أمير مكة المكرمة وأولاده وأقاربه، بالإضافة إلى أن نفوس أمراء مكة المكرمة لا تنقاد لأحكام العسكر، والمدينة المنورة بعيدة عن أمير مكة المكرمة».[٢]

أما المناصب الدينية كشيخ الحرم وشيخ الأغوات فكان أساس وجودهما ما أُسْند إليهما من صلاحيات كانت لا تتعدّى خدمة المسجد النبوي وما يختص به، ولكن نجد أنهما خرجا على حدود صلاحياتهما إلى الأمور العامة والخاصة، وذكر العياشي: «أن شيخ الأغوات كانت له كلمة نافذة وتصرف تام، ويدٌ مبسوطة، وكأنه أحد عظماء الولاة، تنفذ أحكامه وتصرفاته في القويّ والضّعيف، وينقاد له الكبراء والأشراف».[٣]

ومما يدل على مدى نفوذهم وتسلطهم ما حدث عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م، عندما فُصل رجلٌ من أتباع أحد الأغوات من عمله في حامية قلعة المدينة المنورة لسوء تصرفاته، فحاول بعض الأغوات التوسط لعودته، فقوبلت تلك الوساطة بالرفض من أمير الحامية، فغضب الأغوات، وعدّوا ذلك إهانة لهم واستهتارًا

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٦ - ٢٣٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٨، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٣) المصدر السابق.

بوضعهم الاجتماعي، ثم تفاقم الخلاف، إذ أخذ كل من الأغوات وقائد الحامية يؤلبون الناس لصالحهم، وهكذا انتقل الخلاف ليشمل العامة، فتوسط قاضي المدينة المنورة في الصلح، فرفض الأغوات حضور مجلس الصلح، فَعُدَّ تصرّفهم هذا خروجًا على الشَّرع، وتحصَّنوا بالمسجد النبويّ، وأغلقوا أبوابه، واستعدّوا بالأسلحة داخله وعلى المنائر، وبذلك عطلت الصَّلاة فيه، وحدث الصّدام لإخراجهم من المسجد النبوي، فلما أحسّوا أن الدّائرة ستدور عليهم طلبوا الصّلح والأمان، فرُفض طلبهم إلا إذا رضوا بالمثول للمحاكمة أمام الشريف مبارك بن أحمد[1] أمير مكة المكرمة والحجاز، فسلَّم ستة من الأغوات أنفسهم نيابة عن البقية، وهم الرؤساء المُحرِّضون على الاعتصام، ومَثَلوا أمام الشريف في مكة المكرمة الذي حكم على بعضهم بالسجن، ونفى البقيّة، وأرسل محضرًا بما جرى إلى العاصمة العثمانية، ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ بل إن المنفيِّين أوغروا صدور المسؤولين في العاصمة العثمانية على أهل المدينة المنورة، فصدر أمر بإرجاعهم إلى مناصبهم، وإعدام كبار رجالات

(١) الشريف مبارك بن أحمد بن زيد أمير مكة المكرمة تولاها عام ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م إلى أن حدثت بينه وبين الشريف عبدالله منافرة عام ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م فأخرجه إلى الليث، لأنه بلغه أنه يسعى لمنصب الإمارة، ولم يلبث أن وقعت فتنة أخرى بينه وبين الأشراف بسبب قطعه معظم مقرراتهم، فاجتمعوا وقرروا خلعه، وتولية الشريف أحمد بن عبدالمحسن بن أحمد بن زيد، ولكنهم عزموا على مقاتلته، فتحصَّن في مكة المكرمة حتى نفد ما تحت يده فخرج لمقاتلتهم وانتصر عليهم، وطلبوا الصلح، وحدثت في عهده فتنة الأغوات بالمدينة المنورة عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م، ولم يزل أميرًا على الحجاز إلى ذي الحجة عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م إذ انتزع منه الحكم الشريف يحيى بن بركات بولاية من السلطان العثماني فكانت مدة ولايته سنتين ونصف السنة، وهي الأولى، ثم تولاها للمرة الثانية عام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م. واستمر فيها خمسة أشهر لم يحسن خلالها ضبط الأمور فخرج إلى اليمن، وتوفي فيها عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م. انظر: دحلان: أمراء البلد الحرام، ص٢١٨، ٢٢١، ٢٢٦ - ٢٢٧.

المدينة المنورة.[١]

هذه الحادثة تدلنا على أن مردَّ الحكم في الأمور العظام التي تحدث في المدينة المنورة إلى أمير مكة المكرمة يفصل فيها بحكمه الذي يسري في حينه، ولكنه قد يُنقَض إذا صدر أمرٌ مخالف له من السلطان العثماني. كما تدلنا الحادثة على أنّ من يثبت حجته لدى الحكومة العثمانية فهو الأجدر بالثقة بصرف النظر عن كونه ظالمًا أو مظلومًا، وهذا الأمر من الأسباب التي أدت إلى زعزعة الاستقرار في الحجاز.

وذكر الغنامي الذي قدم إلى المدينة المنورة عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م أنّ شخصًا حدَّثه عن حدوث مجاعة وغلاء عظيم فيها فأتت المساعدات من مصر محمَّلة على سفن كثيرة تحمل الأرزاق والأقوات لأهلها.[٢]

وأشار أبو مدين عندما زار المدينة المنورة عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م إلى وجود جند وأمراء متعددين[٣]، وكذلك قلعة متقنة البناء ببروجها ومدافعها كانت مأوى الجيش، وتقع بالقرب من الباب الشامي.[٤]

وما ذكره أبو مدين جاء متوافقًا مع ما ذكره الرحالة المغاربة السابقون والمصادر التاريخية الأخرى.

ومما سبق نجد أن المدينة المنورة تتجاذبها مناطق نفوذ عدة، منها العثمانيون ولهم أمير حامية وحاكم، إضافة إلى شيخ الحرم، وشيخ الأغوات،

(١) انظر: دحلان: أمراء البلد الحرام، ص٢١٩ - ٢٢١؛ د. بدر: التاريخ الشامل، ج٢، ص٣٨٥ - ٣٨٨.

(٢) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٤ - ١٧٢.

(٤) المصدر السابق، ص١٥٥.

وما يتبعهم من أعوان وجند، أثر كلّ هؤلاء في حياة سكان المدينة المنورة الاجتماعية[١] والثقافية أكثر من تأثيرهم السياسي، وكان هناك أيضًا نفوذ أمير مكة المكرمة ونائبه فيها، وأخيرًا سلطة اسمية للأمير الحُسيني أمير المدينة المنورة والمعيَّن أيضًا من قِبَل أمير مكة المكرمة، وقد ذكرت بعض الكتب التاريخية أن سلطته الاسمية تلاشت هي أيضًا[٢]. ولكن ذكر الموسوي أنه عندما زار المدينة المنورة عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م التقى أميرها السيد مديبغ الحسيني[٣] الذي لم نجد له ذكرًا في المصادر التي اعتمدناها، وربما انتهت السلطة الاسمية للأشراف الحُسينيين بعد ذلك.

هذا وقد عانت المدينة المنورة كثيرًا من سلبيات تعدد السلطات في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، ولم تنتفع كثيرًا من وجود الأمراء والجند الذين قدموا لحمايتها.

النفوذ السياسي في جُدَّة:

قسمت إمارة الحجاز وتوابعها إلى مناطق نفوذ تتبع الأشراف، وأخرى تتبع العثمانيين، ولم يُتفق على وضع حد فاصل بين مناطق نفوذ كلتا السلطتين، بل كثيرًا ما نجد ازدواجية في السلطة، وهذه السمة كانت أكثر ظهورًا في المدينة المنورة وجدة، فهما وإن كانتا مدينتين حجازيتين، إلا أنهما وقعتا تحت الإشراف المباشر من الدولة العثمانية جنبًا إلى جنب مع سلطة الأشراف حتى لا تكون السلطة مُركَّزة في أيدي الأشراف.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٥ - ٢٣٦، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) أيوب صبري: مرآة جزيرة العرب، ج١، ص١٢٢؛ بدر: التاريخ الشامل، ج٢، ص٣٦٤.

(٣) العباس بن علي بن نور الدين المكي الحسيني الموسوي: نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، ج٢، ص٣٢٨ - ٣٢٩، الطائف، مكتبة المعارف، د.ت.

فكما كان اهتمام الدولة العثمانية بالمدينة المنورة متميزًا بسبب الأوضاع التي كانت تعيشها، كان هناك أيضًا اهتمام بمدينة جُدة بسبب أوضاع خاصة بها، والدليل على ذلك وصف العياشي للاستحكامات الحربية من قلاع وأسوار محيطة بها[١] بنيت بهدف منع البرتغاليين من الاستيلاء عليها، ومن ثمَّ مهاجمة الأماكن المقدّسة بعد ذلك.[٢]

ويؤيد هذا القول ما ذكره ابن إياس من أنَّ أمير مكة المكرمة الشريف بركات[٣] قبض على ثلاثة جواسيس من الفرنج تسللوا إلى مكة المكرمة، فأرسلهم إلى سلطان مصر الغوري[٤]. الأمر الذي دعاه إلى تحصين جُدة لأنها بوابة مكة المكرمة، وجعلها تحت سلطته المباشرة، فعيّن نائبًا عنه هناك[٥]. وهذا النظام من جملة ما ورثته الدولة العثمانية بعد ذلك.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

(٢) الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية، ج٢، ص٦٩٨؛ د. عبدالعزيز محمد الشناوي: أوربا في مطلع العصور الحديثة، ج١، ص١١١، مكتبة الإنجلو المصرية، ط٤، ١٩٨٠م، د.م.

(٣) الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة، تخلى له أبوه عن إمارتها عام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م، فخرج عليه أخوه فلم يفلح، ثم طلب الشريف حسن من السلطان المملوكي عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م تفويضًا لابنيه بركات وإبراهيم فلم يصل إلا للشريف بركات منفردًا عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، فخرج عليه أخوه إبراهيم، ثم تولى الشريف رميثة بن محمد بن عجلان بدلًا عنه، ولكن لم يلبث السلطان المملوكي أن أعاد الشريف حسناً، ثم عزله بالشريف علي بن عنان بن مغامس عام ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م ثم أعاده عام ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م، ثم تولى الإمارة بركات بعد وفاة أبيه عام ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م، واستمر أميرًا على مكة المكرمة إلى عام ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م فعُزل بعلي بن الحسن بن عجلان، ثم عاد إليها عام ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، واستمر أميرًا عليها إلى وفاته عام ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م ودفن بالمعلاة. انظر: دحلان: أمراء البلد الحرام، ص٥٩ - ٦٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٩١.

(٥) ششة: جدة في مطلع القرن العاشر الهجري، ص٤٥ - ٤٧.

وكان من ضروريات أمن مكة المكرمة تحصين مدينة جُدة والدفاع عنها إذ هي بوابتها، وهذا ما جعل المسؤولين يبنون الأسوار حولها لدفع الخطر البرتغالي.(١)

وقد رأى العياشي السور الذي بني على يد نائب السلطان الغوري في جُدة سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م لصد هجمات البرتغاليين المحتملة التي حدثت بعد ذلك في عهد الدولة العثمانية عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م.(٢)

كان السلطان سليمان العثماني قد خصّص للشريف أبي نميّ بن بركات أمير مكة المكرمة نصف واردات جمرك جُدة لقاء ما قام به من صدّ البرتغاليين وطردهم من قلعتها عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م(٣)، فعيّن الشريف نائبًا عنه في جُدة بلقب الأمين لتحصيل ذلك.

ومن المُرجَّح أن مهمة والي جُدة المعين من قبل العثمانيين كانت في بادئ الأمر حمايتها والدفاع عنها دون إدارة شؤونها الداخلية التي كانت ضمن صلاحيات أمير مكة المكرمة ونائبه، فالدولة العثمانية في بادئ الأمر قبلت سلطة الأشراف في منطقتهم، واكتفت فقط بإرسال قوة عسكرية بالتناوب سنويًا من مصر إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة بهدف حفظ الأمن.(٤)

وبما أن العياشي لم يمدنا بأي إشارة تشير إلى الوضع السياسي في جُدة فإننا رأينا ضرورة الاستعانة ببعض المصادر الأخرى لتوضح لنا حقيقة الحال فيها، ونُرجِّح أنه لولا خشية الهجوم البرتغالي على جُدة لما التفتت إليها الدولة

---

(١) شتة: الحجاز تحت حكم محمد علي، ص٣٨.
(٢) عبدالقدوس الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ج١، ص٨٩، القاهرة، دار مصر للطباعة، ط٣، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
(٣) إسماعيل حقي: أمراء مكة المكرمة، ص٣٨، ١٠٤.
(٤) المصدر السابق، ص٤١.

العثمانية بهذا القدر الكبير من الاهتمام، خاصة بعدما تحققت من الواردات الضخمة من مينائها، فحرصت على وضعها تحت الحماية المباشرة لها لتنال خزينتها جزءًا من هذه الأموال.

الطائف:

كانت تتبع مباشرة أمير مكة المكرمة وفيها نائب له[١] من الأشراف[٢]. ولم يكن للسلطة العثمانية أثر، إذ لم يكن فيها أي خطر يجعلهم يوجدون فيها، كما أن العياشي لم يرصد شيئًا يدل على وجودهم هناك.

ينبع:

موطن أسرة بني قتادة[٣] أمراء الحجاز في ذلك الوقت، فالتكليف العثماني لأمير مكة المكرمة، كان يشمل ينبع، فهي حَدّ إمارته[٤]. وقد استوطنها جموع من الأشراف خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، إذ كان فيها عاملٌ لأمير مكة المكرمة كما ذكر العياشي[٥]. واستمر وجود هذا النائب الذي لُقِّب بالوزير[٦]. أما الحاكم فيها فهو أحد أشرافها، حيث ذكر العياشي أنها موطن طائفة من الأشراف[٧]، وكانت مهمة الأشراف الموجودين فيها حراسة الرّكب من اللصوص، إذ كانوا يخرجون على رأس أميرهم لاستقبال الحجيج.[٨]

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٦.
(٢) الموسوي: نزهة الجليس، ج٢، ص٣٩٢.
(٣) ابن فهد: غاية المرام، ج١، ص٥٥١.
(٤) انظر ما سبق، ص١٧٧ وما بعدها.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥.
(٦) الموسوي: نزهة الجليس، ج٢، ص٣٩٢.
(٧) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٦.
(٨) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٧.

ومنها كان خروج أول أمراء أسرة الأشراف الرابعة التي حكمت مكة المكرمة، قتادة بن إدريس[١] الذي استولى عليها من آخر أشراف أسرة الهواشم مكثر بن عيسى[٢]. وبقيت ينبع تتبع أمير مكة المكرمة منذ ذلك الوقت، ولم تخرج عن حكمه إلا في أوقات يسيرة، وكانت حصنهم وملجأهم ومنازلهم. ولوقوعها على طريق الحاج المصري نمت وازدهرت، وأشار العياشي إلى أن عمران وادي ينبع متصل نحو ثلاثة أيام، وأن القرية التي ينزلها الحجيج هي آخرها من ناحية البحر، وليس بعدها إلا ينبع البحر وهي الميناء، وأن أغلب سكان تلك القرى يأتون إلى محل نزول الركب للتّسوق، حيث تُجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان، إضافة إلى الثمار والفواكه والحبوب والفول والشيء الكثير. وأضاف أن من ميناء ينبع يجلب الطعام من مصر إلى المدينة المنورة حيث اعتادت قبائل بني سليم وجهينة على حمله، وأن الركب كان

---

(١) قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، يكنى أبا عزيز الينبعي المكي أمير مكة المكرمة وينبع وغيرها من بلاد الحجاز. وليها نحو (٢٠) سنة، كان في مبدأ أمره مستوطنًا نهر العلقمية من وادي ينبع، وصارت له على قومه سيادة فحارب بهم، وامتلك وادي الصفراء ومكة المكرمة، وحاول أخذ المدينة المنورة وملك الطائف، وكان في بدء أمره عادلًا، ثم أساء السيرة بسبب محاولة قتله، واتسع ملكه، وكثر عسكره، قتله ابنه الحسن عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٣٩ - ٦١، ترجمة رقم ٢٣٣٤.

(٢) مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر الحسني المكي، ولي مكة المكرمة مدة، وكانت الولاية بينه وبين أخيه داود، وبمكثر انقرضت إمارة الهواشم، وكانت بداية إمارته عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م. وكان قد ابتنى قلعة على جبل أبي قبيس، فأمر الخليفة العباسي أمير الحاج العراقي بهدمها وعزله، وحدثت بينهما حروب، وكان سيِّئ السيرة، توفي عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م. انظر المصدر السابق والجزء، ص٢٧٤ - ٢٧٩، ترجمة رقم ٢٥١٨.

يخزن في ينبع ما فاض من أزواده إلى حين رجوعه.[١]

وما ذكره العياشي موافق لما كان قاله المقريزي من أن ينبع أصبحت تحت العناية، وأنها ميناء المدينة المنورة الذي تحمل منه الأزواد إليها[٢]. ووصفها الموسوي بأنها بندر المكاسب.[٣]

كما أكد الجزيري أنها محطة ينزلها الحاج للاستراحة والتزود، وترك ما فضُل منهم إلى حين عودتهم[٤]. ولكن اختلَّ وضعها في أواخر عهد الدولة المملوكية متأثرًا باختلال أمن الحجاز بسبب تنازع أشراف مكة المكرمة على الحكم، فامتد الفساد إليها فأسرع في خرابها، بالإضافة إلى خروج يحيى بن سبع على السلطة المملوكية، لرفضها طلبه في تولي إمارتها خلفًا لوالده فخرج عليها، والتف حوله الأعراب وهاجم الحجيج وطرقهم بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما لم تسلم المدينتان من هجماته وقطع الطريق بين مكة المكرمة وجُدة إلى أن قُضي على حركته عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م.[٥]

وبسبب ما تكبدته الدولة المملوكية في إخماد هذه الفتنة فإنها أسندت أمر النظر في إمارة ينبع إلى شريف مكة المكرمة.[٦]

ولما كانت ينبع ميناء المدينة المنورة كان الواجب يحتم إصلاحه

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥ - ١٤٦.
(٢) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، القسم ٣، ص٩١٧، نشر محمد مصطفى زيادة، د.ت، د.م.
(٣) الموسوي: نزهة الجليس، ج٢، ص٤١١.
(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤١٦ - ١٤١٩.
(٥) المصدر السابق والجزء، ص٧٧٩ - ٧٨٤، ٧٦٧ - ٧٩١.
(٦) إبن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٥٥.

وتوسيعه، فأُنشئت فيه المخازن في عهد السلطان سليمان القانوني[١]. ويبدو أن حالة الاستقرار التي نعمت بها بعد حركة ابن سبع ودخولها تحت إدارة أمير مكة المكرمة لم تستمر، إذ حدث في عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م أن هاجمها الشريف سعد بن زيد، لأن بعض أهل ينبع كان يناصر قبائل حرب التي خرجت عليه، فأراد تأديبها فقطع نخيلها وهدم دورها وأحرقها.[٢]

ويبدو أنها لم تعمر منذ ذلك الوقت حتى زمن رحلة الزبادي عام ١١٥٨هـ/ ١٧٤٦م الذي قال: «إنها مكمن خطر»، وإن لم يوضح ماهيته[٣]. ونخلص إلى أن اختلال الأمن في مكة المكرمة له أثر كبير في مناطق الحجاز الأخرى، ومنها ينبع.

مناطق نفوذ العثمانيين والأشراف في طريق الحاج

العثمانيون:

كانت للعثمانيين في مناطق نفوذهم نقاط حصينة، تمثلت في قلاع وحصون بنيت في تلك المواقع لحماية الحجاج وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة من هجوم الأعراب، ومنها تلك الحصون الموجودة في العقبة[٤]، والمويلح والوجه. وأدت هذه الحصون عملاً مهمًا في تأمين طريق الحجاج،

---

(١) عبدالكريم القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ص١٥١، علق عليه أحمد محمد جمال وعبدالعزيز الرفاعي ود. عبدالله الجبوري، دار الرفاعي، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، د.م.

(٢) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١٧، ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٧.

(٤) «العقبة» مدينة كبيرة قديمة على رأس خليج العقبة، وتعرف قديمًا بأيلة، وهي مرفأ الأردن الوحيد الآن، ومركز تجاري وسياحي مهم. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٦، ص١٢٢، ١٢٤.

وذلك لوجود جند يقيمون فيها يرأسهم أمير. وكان هناك نظام تقيّدت به هذه الحصون، حيث يبقى الجند لمدة سنة كاملة وبعدها يُغيَّرون بإرسال فرقة أخرى تحلّ محلهم بعد انقضاء السنة. وكانت لهم رواتب سارية تتحمّلها ولاية مصر، إضافة إلى أن هذه الحصون لها مهمة أخرى، وهي حفظ الأزواد الفائضة من الحجاج حتى عودتهم إليها مرة أخرى، فالحاج كان يحمل معه مؤنته كاملة ذهابًا وإيابًا، وطبيعي أنه حمل ثقيل عليه، لذا يبادر الحاج عند وصوله لهذه الاستحكامات إلى ترك جزء من مؤنته يكفي إلى حين عودته ووصوله لغيرها، وهكذا. كما حُفِرت في هذه الحصون الآبار، وبُنيت البرك الكبيرة التي تُملأ بالماء ليستطيع الحجاج التزود منه بسعة وراحة وحمله معهم إلى المنزل الآخر.(١)

وأورد الجزيري وصفًا محكمًا عن مناهل درب الحجاز في بداية العهد العثماني، وما وجد فيه من استحكامات حربية، والغرض من إنشائها لا يخرج عما ذكره الرحالة المغاربة.(٢)

أما الحد الفاصل الذي أشار إليه الرحالة المغاربة بين النفوذ العثماني ونفوذ الأشراف، فهو المكان المسمى بين الدركين، وأوضحوا أنه الحد الفعلي لأعمال إمارة الحجاز ومصر، وقالوا عنه: «إنه منزل للحاج المصري، وسُمِّي ببين الدركين لأنه نهاية سيطرة درك أعراب مصر وبداية سيطرة أعراب الحجاز، فما قبله شمالًا تحت سيطرة عسكر مصر، وما بعده جنوبًا تحت سيطرة أعراب

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١ – ١٤٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٩ – ١٥٠، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٢ – ١٠٤، ١٠٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٠، ٦٣، ٦٦.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد انظر على سبيل المثال، ج٢، ص١٣٣٥، ١٣٤٧، ١٣٨٠، ١٣٩٧.

الحجاز».[١]

ويظهر أن هذا المنزل بهذا الاسم لم يكن على عهد الجزيري في القرن العاشر الهجري، لأنه لم يذكره، ولم يشر إلى هذا المعنى الذي أوضحه الرحالة المغاربة بهذه الصفة، ولعله في أول عهد الدولة العثمانية لم ترسم له حدود فعلية تكون مسؤولية حراستها لأمراء هذا القطر أو ذاك، بل لمسنا مما سبق أن أي مُلمَّة تحدث بالحجاز فإنها تُزال الحواجز ويأتي عسكر من مصر ليقروا الأمن فيه.[٢]

وكما ابتنى العثمانيون الحصون في المواقع المهمة التي تتبع نفوذهم عن طريق باشا مصر، نجد أن الأشراف أمراء الحجاز هم أيضًا بنوا الحصون والقلاع، كالحصن الذي وجد في الدهناء[٣]، والقلعة التي وجدت في سفح جبل النبط[٤]، ولم يشر الجزيري إلى وجودها، وذلك يعني أنها بُنيت بعده، ويبدو أنها لم تُبْنَ إلا لخدمة الأشراف وحمايتهم.

كما وجد حصن في خليص[٥]، بُني ليكون حصنًا وملجأً لأمراء الحجاز، بغرض صد هجوم الأعراب والأشراف المناوئين. وهذا الحصن أكّد وجوده الجزيري سابقًا وقال: «إنه بُني على جبل».[٦]

ويظهر أن هذا المكان بالذات كان من الأماكن المهمة لأمراء الحجاز

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤أ؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٦.
(٢) انظر ما سبق، ص١٨٠ وما بعدها.
(٣) القادري: نسمة الآس، ص١١١ - ١١٢.
(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٢.
(٥) الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٥.
(٦) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٥٨.

منذ زمن طويل، فقد ذكر ابن جبير وابن بطوطة أن هناك حصنين، أحدهما جديد والآخر متهدم.(١)

ويبدو أن هذه الحصون التابعة لأمير الحجاز أُحدثت لتكون نقاط دفاع عنهم في المناطق المهمة من الإمارة لصد عدوان العربان الذين كانوا يعيثون في الأرض فسادًا في تلك الأيام، علاوة على أنها مكامن حصينة للأشراف الفارين، إذ تُعدُّ نقطة تجمع للأتباع للانقضاض مرة أخرى على الإمارة. أما ما عدا ذلك فلم يكن لها أثر في حماية الحجاج، ولم نلحظ أن الرحالة المغاربة أشاروا مثلًا إلى أنهم يخزنون أزوادهم فيها كما كان الحال في الحصون التابعة للعثمانيين في شمال الحجاز، وهذا يؤكد أن الاستحكامات الحربية الخاصة بالأشراف أمراء الحجاز كان الغرض منها حماية أنفسهم، ولم يلتفتوا إلى حماية الحاج، مع أن من أهم واجبات الأمير وأعماله الأولى حماية الحاج والدفاع عنه، وهذا الأمر لم يلتفت إليه إلا قلة من أمراء الحجاز بعكس الاستحكامات الحربية العثمانية الموجودة في مناطق نفوذهم.

ومن خلال تتبعنا لأثر هذه الاستحكامات وجدنا أنه كان محدودًا، وفي نطاق وجودها فقط؛ لأن ركب الحجيج عانى الأَمَرَّين من النهب والسلب والقتل أثناء سيرهم في طريقهم الطويل مرات كثيرة.

حالة الأمن في المدن وطريق الحاج (درب الحجاز)

إن الحديث عن الأمن في مدن الحجاز وبواديه وطرقه ذو شجون، فالحجاز مرَّ بأزمنة طويلة عانى خلالها من الاضطرابات الأمنية، ذهب ضحيتها كثيرون من الأبرياء، سواء من الحجاج أثناء سيرهم في درب الحجاز، أم سكان المدن التي كانت تتعرض للإغارة عليها، أم في المشاعر أثناء أداء فريضة الحج،

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٢٩ - ١٣٠.

إضافة إلى غارات قبائل الأعراب بعضها على بعض[١]، ونتج عن ذلك إزهاق أرواح بريئة لا ذنب لها.[٢]

الأمن في المدن الحجازية:

كانت مكة المكرمة مقر إمارة الحجاز، ومقر معظم الأشراف، فيها المشاعر المقدسة والبيت الحرام الذي لم تمنع حرمته من اختلال الأمن فيها مددًا طويلة.

وللتقليل من الهجمات الخارجية، وإضفاء نوع من الحماية على مكة المكرمة أقيم حولها سور، إذ رأى العياشي من جهة المعلاة سورًا تهدَّم معظمه بفعل السيل الذي داهمها عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م[٣]. وفي هذا إشارة مهمة إلى أن مكة المكرمة كانت تحميها الأسوار، وأنه ما زال العمل بها جاريًا بكونها وسيلة للحماية من الهجمات الخارجية حتى القرن الحادي عشر الهجري.

وتعرض العياشي لحالة الأمن في مكة المكرمة، ومعاناته خاصة أيام موسم الحج، حيث أورد هجوم اللصوص على ركب الحجاج الذي كان مرافقًا له بالليل في موضع رحالهم في الحجون ونهبهم. وقد أرجع العياشي وجود هذه الظاهرة إلى تهاون الحكام، وقلة ضبطهم للصوص الذين يرخون العنان لهم، ويغضّون الطرف عما يفعلونه لقاء مال يدفعونه لهم، فإذا ضُبِطَ سارقٌ أدخل السجن على رؤوس الأشهاد، ثم يخرجونه سرًا بالليل![٤]

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٩.

(٢) انظر أمثلة من ذلك: الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج٢، ص٥٠٥ - ٥٠٦، ٥١٥ - ٥١٦، ٥٣٨، ٦٣٧.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤.

(٤) المصدر السابق، ص١٥٢.

والغريب أن العياشي ذكر أن الأمن بلغ غايته بعد موسم الحج، وانتقد في الوقت نفسه حكام الحجاز لتهاونهم في ضبط الأمن، وتذرعهم بأنهم «في أيام الموسم باختلاط الناس من جميع الآفاق، وتعدد الحكام، أو لكل ركب حاكم، ويقولون: لو أطلقنا اليد في الحكومة على كل سارق، ربما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب، فيؤدي ذلك إلى الهرج في أيام الموسم. وتلك حجة ضعيفة».[1]

وكان لازدواجية السلطة الأثر الكبير في قيام الفتن والمخالفات أيام الحج فأمراء الحجاج كانوا يمنحون صلاحيات واسعة تفوق ما للشريف من سلطة ونفوذ، وكان التنافس فيما بينهم كبيرًا، فاغتنم اللصوص هذه الفرصة.

أما عن أماكن وجود اللصوص ففي العادة يتمركزون عند أبواب مكة المكرمة حيث أشار اليوسي: «أن اللصوص تمركزوا بالقرب من باب الشبيكة. وكان لا يسلم أحد من التعرض للسرقة بالرغم من شدة الحيطة والحذر».[2]

وفترت هِمَّة الدرعي في الذهاب للجعرانة[3] للإحرام بالعمرة، وعلّل عدم تمكنه من تنفيذ رغبته هذه بشدة الخوف من المسير إليها وقلة الرفيق.[4]

وكانت أعمال اللصوص تؤدي خلال موسم الحج إلى اضطرابات وشغب وخوف الناس الشديد وترقبهم وحذرهم، فأي حركة قد تثير الذعر وتحدث الفوضى، ويعم الاضطراب ويتسارع الناس للخروج من موقع الحدث

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩١/ ب.

(٣) الجعرانة: بكسر أوله وسكون ثانيه تقع شمالي شرقي مكة المكرمة، اعتمر منها النبي ﷺ بعد غزوة الطائف، وأصبحت اليوم من أحياء مكة العامرة بالمباني. انظر: البلادي: معالم مكة، ص٦٤-٦٥.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠١.

ناجين بأنفسهم، وذلك يؤدي إلى التدافع والسقوط والدعس بالأرجل، فيموت بالدعس مَنْ لَمْ يَمُتْ من السبب الحقيقي، والمتصفح لكتب التاريخ يجد الأدلة على ذلك كثيرة.(١)

فقد سجل العياشي في حجته عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م عند طوافه للإفاضة داخل المسجد الحرام، ما شاهده من آثار السرقات حيث قال: «فوقعت ضجة في المسجد، وانجفل الناس انجفال الغنم من غير سبب، وأُخْبِرْنا أنها وقعت ضجة أخرى مثلها قبل دخولنا وأظنها بسبب سارق، فلما رأيت ذلك تركت الطواف».(٢)

وذكر أبو مدين أنه حدثت مناوشات حربية بين العرب في مكة المكرمة سنة حجه والناس واقفون في عرفة، ولكن الله تعالى سلم الحجاج منها.(٣)

ولما لم تنتج عن هذه الحادثة نتائج خَطِرة فقد أهملوا ذكرها، أو أنهم لم يعلموا بها، في حين أن الرحالة المغاربة أوردوا أمثال هذه الحوادث، وهو ما يؤكد أن كتب الرحلات المغربية من المصادر المهمة التي لا غنى عنها في التأريخ لمنطقة الحجاز في تلك المرحلة.

أما المشاعر المقدسة فقد تحدث الرحالة المغاربة عن طرفٍ مما كان يحدث من اختلال الأمن في المشاعر المقدسة ولا سيما في منى، إذ ذكر العياشي والدرعي أن اللصوص يَعْتَلون الجبال، وخاصة جبل ثبير ويلقون الأحجار على الحجاج القريبين منه بغية إرهابهم وإخراجهم من رحالهم، ليتسنى لهم نهبها

(١) انظر على سبيل المثال: الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٣٨٣، ٣٨٥ - ٣٨٧، ٣٩١ - ٣٩٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص١٠٩ - ١١٠، ١٣١، ١٧٩، ٢٢٤، ٦٢٤؛ العصامي: سمط النجوم، ج٤، ص٥١١، ٥١٥، ٥١٧، ٥٢٩، ٥٥٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٣.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٨.

بعد ذلك، لهذا كان أكثر الحجاج لا يقتربون من الجبال، ويفضلون البقاء في بسيط منى حول بعضهم لتتم إغاثتهم في حالة استطالة اللصوص عليهم.[١]

ونجد أن اللصوص مَرَدُوا على السرقة وتمرسوا بها، وقلَّ مَنْ يمنع أذاهم عن حجاج بيت الله الحرام في هذه البقعة الشريفة، في حين كان أمير مكة المكرمة يملك كثيرًا من الجند والأتباع، وكذلك أمراء الأركاب المحملين بالعدة والعتاد، ولكن تقاعسوا عن صد أمثال هؤلاء اللصوص وإيقافهم عند حدهم.

وذكر اليوسي أنه تعجّل في النفرة من منى خوفًا على نفسه وماله، وأنه لم يستطع البقاء لهذا السبب، ولعدم وجود مَنْ يوافقه على عدم التعجّل.[٢]

ونستغرب قول اليوسي هذا، إذ إن القيسي والعياشي والرافعي قبله لم يتعجلوا، وكذلك مَنْ أتى بعده من الرحالة المغاربة، فالدرعي قال: «بتنا وحدنا، ولم نر والحمد لله بأسًا». وتعجل الزبادي بالنزول بسبب هطول الأمطار الغزيرة التي أتلفت الأموال والأنفس[٣]. أما اليوسي فلعلّ فعله كان نتيجة خوفه وذعره من إشاعات ملأت مسامعه فعمد إلى ذلك.

وعانت المدينة المنورة أيضًا كغيرها من المدن الحجازية ونالت نصيبها من قلة الأمن وتوالي النكبات[٤]، حيث وصف الرحالة المغاربة ما كانوا يقاسونه

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣، ١٥٥، ١٥٧؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٢، ١٩٨.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩١/ ب.

(٣) القيسي: أنس الساري، ٨٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٥٨، ٥٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٨٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٠؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٢، ١٩٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٨.

(٤) انظر ما سبق، ص١٩٥.

قبل الخروج من المدينة المنورة وبعده، من الوجل والرّعب منهم[1]. لذا أقيمت الأسوار حولها لحماية أهلها، وكانت تقفل أبواب هذه الأسوار ليلًا، وتفتح مع بداية بزوغ الفجر كما ذكر العياشي والقادري.[2]

وذكر البرزنجي طرفًا مما كان يعانيه أهل المدينة المنورة من الخوف والرعب الذي سيطر عليهم أمدًا طويلًا من بعض القبائل فقال: «فإنهم سقوا الحجاج من الأذية كؤوسًا وبيلة، وقعدوا لهم بين الحرمين في كل مرصد، واستتبعوا مَنْ بغى وطغى وصد، واستسهلوا من المطالب صعابها، وتوغلوا مسالكها وشعابها، ومنعوهم بذلك من الجواز على الميقات، وألجؤوهم إلى اعتساف الطرقات، وحاصروا المدينة، وسدوا مسالكها، وصدوا عنها قاصدها وسالكها، وروَّعوا طارقها، وقطعوا مرافقها ومُرافقها، وتملكوا مزارعها وحدائقها، ودمروا بساتينها اليانعة وبواسقها، فأصبحت محاسنها وقد تلفعت في نقابها، وتوارت كأراقم في أنقابها، وآذوا جيران سيد المرسلين، وضايقوهم في معاشهم، فقاسوا منهم قسوة خطب لا تلين، ومنعوا جفونهم السِّنات، وأرعبوا النساء والبنين والبنات. وشيخهم عيد مات ببدر في فريقه، عادل عن سمت العدل وطريقه، يجترئ على الله غير مراقب، ويقتطع حب جراياتهم وتكاياهم لا ملتفت للعواقب، بحيث لا يتعذر عليه من ذلك مطلب، ولا تصل السفن بشيء منه إلى ينبع، إلا علقه منه ناب أو مخلب، وذلك حين أصبحت يد الهمم في يد الامتهان، وعُطلت ميادين النجدة من الرهان، وصدئت بواتر أمراء الحاج في أغمادها، وقذيت شعل مشاعلهم برمادها، وأمسوا يتجرعون قطاع الطرق على مضضهم، ويتغافلون عن غرضهم، ويطوونهم على بللهم ويغضون عن

(١) انظر ما سيأتي، ص٢٣٦ وما بعدها.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٥؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٠.

زللهم».[١]

وهذا النص على الرغم من طوله كان لا بد من إيراده كاملًا حتى نُظهِر بوضوح الوضع الأمني المتردي في نهاية القرن الثاني عشر الهجري بالحجاز، وخاصة بالمدينة المنورة التي كان فيها من وسائل الحماية شيء كثير، من أسوار، وقلاع وحامية عسكرية، وعدد من الأمراء، كل ذلك لم يغن عنها شيئًا، ولم يخفف ما كان يصيبها، وكل ذلك كان مرده - كما ذكر البرزنجي - فتور الهمم، وتضارب الأهواء، وجبن أمراء الحاج، ورضاهم بالضيم لهم ولغيرهم، إضافة إلى تعدّد مناطق النفوذ والسلطة في المدينة المنورة، الأمر الذي أدى إلى تعطل إصدار القرارات، وعدم الاتحاد في مواجهة الأخطار.

وتعرضت المدينة المنورة إلى فتن وخلل في أمنها في كل حالة عَزْل لأميرها، وما أكثر العزل! فبعد عزل الأمير وقدوم آخر مكانه يهب أنصار المعزول للذب عنه، ومدافعة الأمير الجديد الذي يقدم مع جنده وأنصاره. وقد حدث أن عُزل أمير زمن رحلة العياشي، وكادت تحدث فتنة، ولكنها أخمدت بموت الأمير المعزول وسفر باقي أتباعه وأهله إلى مصر.[٢]

لم يذهب أحد من الرحالة المغاربة المترجم لهم هنا إلى جُدة أو الطائف إلا العياشي الذي وصفهما بالاستقرار والأمان، ولم يَرَ ما يعكّر صفوهما، وقد نقل الدرعي كل ما جاء عن هاتين المدينتين[٣]، ولم يضف معلومات جديدة،

---

(١) السيد جعفر بن حسن البرزنجي المدني ت١١٧٧هـ/ ١٧٦٣م: النفح الفرنجي في الفتح «الجته جي»، ص٣٦٣، مجلة العرب، ج٥، ٦، س١٢، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٧هـ - تشرين الثاني وكانون الأول (نوفمبر/ ديسمبر ١٩٧٧م).

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٨٤، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٣) المصدر السابق، ص٤٠٢، ٤٠٥، ٤١٠ - ٤١١، ٤١٤ - ٤١٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٦.

وليس معنى ذلك أن المدينتين لم يصادفهما ما صادف غيرهما من مدن الحجاز، ولكن كانت المعلومات عن الطائف قليلة ونادرة.

أما جُدة فكانت تعاني بين الحين والآخر من النهب ومصادرة تجارتها، فالثوار كانوا يتجهون إليها لغناها، كما حدث في وقعة الجلالية عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م.

وكان الاختلاف بين أمير جُدة العثماني وأمير مكة المكرمة بسبب الصلاحيات الممنوحة للأول من عزل من يراه من الأشراف وتوليته أميرًا على الحجاز[١]. ولهذا كانت كثيرًا ما تتحكم الأهواء والمنافع الدنيوية، فتثار القلاقل وينتشر الغلاء بسبب تحفظ باشا جُدة على أموال التجار[٢]، ويكثر النهب في طريق جُدة لدرجة أنهم لا يستطيعون إيصال الذخائر إلى عسكر مكة المكرمة إلا بحامية عسكرية تحرسها.[٣]

وكان باشا جُدة إذا أراد إزعاج الشريف بسبب مشاحنات بينهما يُشيع الشائعات حول عزله، فيضطرب أمره تبعًا لذلك[٤]. وأحيانًا يناصر باشا جُدة أحد المطالبين بالشرافة على الشريف الموجود، وعندما ينهزم مَنْ يناصره سرعان ما ينضم إلى المنتصر[٥]، وكانت المشاحنات المستمرة بين شريف الحجاز وباشا جُدة غالبًا ما تؤدي إلى عزله، ومن ثم سعيه بعد عودته للكيد للشريف لعزله.[٦]

على أن مواقف باشا جُدة عادة ما تتسم بالعداء، إلا أن هناك مواقف

(١) دحلان: أمراء البلد الحرام، ص١٧٥ - ١٧٦.
(٢) دحلان: أمراء البلد الحرام، ص١٥٤.
(٣) المصدر السابق، ص١٥٥.
(٤) دحلان: أمراء البلد الحرام، ص١٥١.
(٥) المصدر السابق، ص١٦٥.
(٦) المصدر السابق، ص١٦٠ - ١٦٢.

أخرى كثيرة تُحسب له، ومن هذه المواقف ما قام به الباشا عندما تدخل للحدّ من إحدى ثورات الأشراف وتسكينهم إلى حين، وحراسة درب جُدة.(١)

ومع أن عزل الشريف في مكة المكرمة وتوليته كانت من صلاحيات باشا مصر إلا أن تلك الصلاحية أعطيت لباشا جُدة، وذلك خلق نوعًا من الحذر، وزاد الأمر تعقيدًا أنه كان بإمكان الشريف تولية باشا لجُدة إذا كان المنصب شاغرًا إلى حين ورود الأمر السلطاني من الخليفة العثماني.(٢)

وهكذا لم يكن هناك حدود أو ضوابط تحدد صلاحيات الشخصيات السياسية ونفوذها في الحجاز، وكانت كل الوسائل مشروعة في سبيل الاحتفاظ بالسلطة أو الحصول عليها، فشريف الحجاز لم يكن لديه مانع إذا اقتضت الضرورة أن يرشي باشا مصر وأمير الحج المصري من أموال أقوات فقراء الحجاز ليصدر مرسوم تعيينه.(٣)

درب الحجاز:

يكاد لا يخلو مُؤلَّف عن الحجاز من التطرّق للحالة الأمنية فيه ولدروبه، فكلٌّ أدْلى بدلوه في هذه الناحية، وذلك لأهمية الحجاز الذي يؤمه المسلمون من جميع أقطار المعمورة لأداء فريضة الحج كل عام.

وعلى الرغم مما كان يجده وفود الحجيج من خوفٍ شديدٍ عند بداية اقتحام درب الحجاز والسير فيه، فإن ذلك لم يمنع تدفقهم وانسيابهم فيه ذهابًا وإيابًا، ورحم الله ابن جبير الذي أورد فتوى لعلماء الأندلس في إسقاط فريضة

---

(١) المصدر السابق، ص١٧١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٧؛ ششة: الحجاز تحت حكم محمد علي، ص٤٤، رسالة دكتوراه لم تنشر.

(٣) دحلان: أمراء البلد الحرام، ص١٤٨ - ١٤٩.

الحج للحفاظ على أرواح الحجاج في القرن السادس الهجري بسبب ما كانوا يلاقونه من عنت ومشقة في سبيل أدائها، وقد أكد الناصري بعد ذلك صدور هذه الفتوى لهذا السبب.(١)

واستمرت مخاطر درب الحجاز، فالجزيري أورد في حوادث سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م فتوى لأحد الفقهاء بعدم وجوب الحج بسبب كثرة المشاق الحاصلة في أثنائه(٢)، وعلى الرغم من الأخطار فقد بقي البيت العتيق يجذب القلوب قبل الأجسام التي تتحرك مستهينة بكل صعب. إنها معجزة الإسلام الخالدة.

ولقد عبر الرحالة المغاربة عن خطورة درب الحجاز كلِّه، أو مناطق معينة فيه، فقال الدرعي وهو يتأهب للسير فيه، ومصورًا في مقولته نفسية الحجيج معه ما نصه: «كأن الدرب أمامهم عدوٌّ لا يرحم، وبحر لا يقتحم، يترقبون مزاولته عند الصباح، ومبادرته بالكفاح، وإنه لكذلك.. ووطنوا أنفسهم على مقاساة درب الحجاز وما يبديه من إذلال وإعجاز، إذ فيه تضيق الأخلاق وينحلُّ وثاق الاتفاق.. ونحن نتوقع تواتر الأذى ونتوقى توالي القذا».(٣)

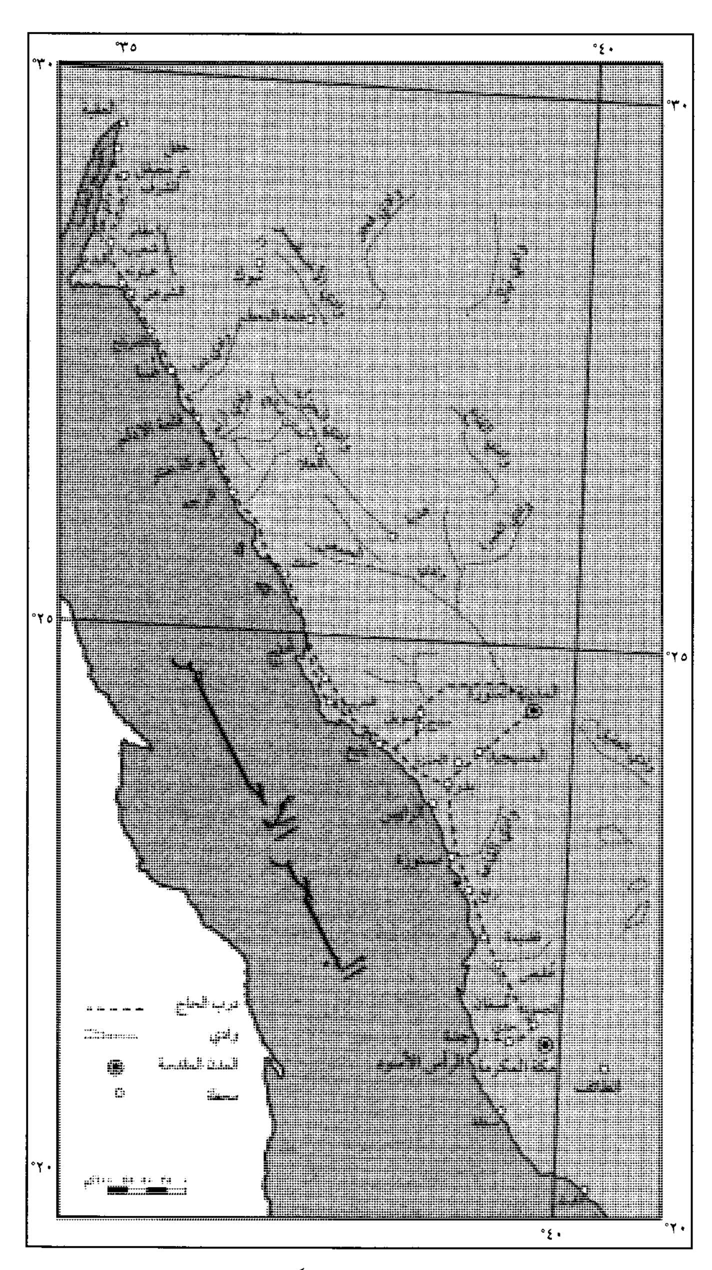
وذكر الدرعي في مكانٍ آخر نعمة وجود البنادر وقلاعها في توفير بعض الأمن فقال: «ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق، لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها».(٤)

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٥٥؛ الناصري: الاستقصا، ج٧، ص٨.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١١٥٨.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٨.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٠.



الشكل رقم (١) يمثل طريق الحاج المصري والمغربي نقلًا عن كتاب الملامح الجغرافية لدرب الحجيج

وسنحاول تتبع مسيرة الرحالة المغاربة في دربهم منذ خروجهم من مصر إلى حين وصولهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، والعودة مرة أخرى، والمناطق التي اتفقوا على أنها مكامن خطر، أو آمنة.

فأول الرحالة المغاربة قدومًا إلى الحجاز خلال تلك المدة هو القيسي الذي لم يشر إلى قلة أمن في درب الحجاز، اللهم إلا عند خروجه من المدينة المنورة، وهو ما سنذكره في موضعه، ويرجع سبب عدم ذكره ما يشوش الأمن في درب الحجاز إلى خروج الركب المغربي برفقة أمير الحاج المصري الذي كان في تلك السنة يضم ركبه الجند القادمين لقمع ثورة الجلالية، لذا لم يجرؤ الأعراب على التعرض له.[١]

وأتى العياشي بعد القيسي الذي ذكر أنه عندما وصل إلى مغائر شعيب وقعت مشاجرة بين الأعراب هناك، أدت إلى مقتل نفر منهم.[٢]

ويظهر من كلام العياشي أن ما حصل من مشاجرة كانت بين الأعراب، ولا دخل لركب الحجيج فيها. ومنزل مغائر شعيب اتفق على أنها محل مخافة، وقلَّما تخلو من لصوص الأعراب.[٣]

وإذا أمعنا النظر في المناطق التي يختارها لصوص الطريق مكامن لهم لينقضّوا منها على الحجيج، نجد أنها تتصف بتشابك تضاريسها الجغرافية، ووعورتها الطبيعية من وديان وجبال يعتلونها لمراقبة الحجيج في سيرهم، منتهزين الفرصة للانقضاض على من انفرد أو تأخر عن الركب.

إن هذه المنطقة اشتمل تكوينها الجغرافي على جبال ووديان[٤] بأطوالها ومواقعها، الأمر الذي يوضح سهولة الاختباء والانقضاض على الحجاج في الوقت المناسب.

---

(١) انظر ما سبق، ص١٨٠ وما بعدها.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٥.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩.

(٤) سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٢٥ - ١٢٦.

واتفق العياشي والدرعي على تأكيد ضرورة أخذ الحيطة والحذر عند المرور على عيون القصب[١]، وعند النزول فيها، وأخبرا عن ذلك بقولهما: إن الموضع لا يخلو من الأعراب النازلين فيه، فيعظم الخوف والضرر ولا سيما ليلًا، لذا يصعد أمير الركب مع الرماة إلى أعلى الوادي للمراقبة حتى يأخذ الناس كفايتهم من الماء، ثم يعودون بعدها إلى أماكنهم.[٢]

وأورد الدرعي حادثة سرقة وقعت فيها عند عودته فقال: «وبتنا به، وأتى السارق ليلًا إلى خباء صاحبنا الحاج عبدالرحمن بن الحسن الطرافي، وفتحوا حملًا من أحماله فيه الكتان[٣]، وجعلوا يأخذون منه، ورجلاه على الحمل نائمًا، فتحرك الحمل لأخذهم منه، فهبَّ من نومه وصاح، وخرج السارق آخذًا بثوبه نحوًا من عشرين شقة، وفرّ، وتبعوه، وعثر وسقط، وألقى الكتان، وفرّ ناجيًا بنفسه».[٤]

وعندما وصل العياشي إلى المويلح ذكر وجود حصن كبير فيها، وفيه جند وأمير، وفي هذا الحصن يخزن الحجاج ما فضُل من مؤنهم، كما يُتسلَّم الفول الذي اكتروا على حمله من مصر. وفي هذا الجزء لمس الأمن بسبب وجود الجند.[٥]

---

(١) «عيون القصب» يطلق عليها الآن عينونا بالقرب من مغائر شعيب (البدع الآن)، فيها عين ونخل، وهي على مرحلتين من البدع، كانت في السابق ينبت فيها القصب الفارسي وغيره، ويرتفع فيها الماء حتى يتجاوز القامة. انظر: الحربي: المناسك، هامش ص٦٥١؛ الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٧٠؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٦، ص٢٠٩.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤.

(٣) «الكتان» نوع من أنواع الأقمشة.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٧.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١ - ١٤٢.

وأَكَّد الدرعي ما ذكره العياشي من وجود الحصن والعسكر، ولكنه خالفه من حيث توافر الأمن، إذ ذكر أن ذلك لم يمنع اللصوص من الوثوب على الركب من كل جانب، وأشار إلى ما حدث للركب ليلة مبيته عند عودته فقال: «والسُّرَّاق يطوفون بالركب، ويتواثبون عليه من كل ناحية»[١]. الأمر الذي استوجب طواف الحراس على الركب، واشتباكهم مع اللصوص وهو ما أدّى إلى مقتل أحدهم وجرح آخر.[٢]

وذكر أبو مدين في رحلته هجوم الأعراب على المويلح على الرغم من وجود الحصن والجند، واستيلاءهم على ما وجدوا فيها، وأكملوا فعلهم هذا بحرق منازلها وهدمها، لذا لم يستطع الحجاج الخزن فيها كعادتهم لخوفهم من معاودة هجوم الأعراب، فحملوا مؤنهم معهم[٣]. وعند عودته إليها ذكر وقوع حرب بين عربان المنطقة الذين نهبوا إبل بعضهم، فتدخل العسكر الموجود هناك لاسترداد الإبل المنهوبة، ولكنهم لم يستطيعوا اللحاق بهم.[٤]

ويبدو استقرار الأمن في المويلح زمن رحلة الزبادي الذي أكد وجود الحصن والجند، وذكر أن الحجاج يخزنون فيها ما فضُل من مؤنهم، فالحجاج كانوا يعتمدون في تخزين مؤنهم على العقبة والمويلح وينبع فقط.[٥]

وعندما وصل العياشي إلى الأزلم قال عنها: «الخلاء أقرب إليه من العمارة»[٦] لانهدام منازلها وسورها.

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤ - ١٦٥.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص١٠٧.
(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩.
(٤) المصدر السابق، ص٢٠٥.
(٥) الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٣، ٦٦.
(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣.

واستمر حال الأزلم الموصوف بكثرة الخراب وقلة الأمن مرورًا بوقت رحلة الدرعي، وانتهاءً بزمن رحلة الزبادي اللذين وصفاها أيضًا بالخراب.(١)

وتحدث الرحالة المغاربة عن الوجه الذي بُني فيه حصن أيضًا، وكان مهمته كغيره من الحصون حماية الحجيج أثناء رحلتهم، ولكن هذه الحصون لم يكن لها أثر كبير في حمايتهم إذ كانت قاصرة على الحصن نفسه وما يقع حوله بمسافة قليلة، وذكر العياشي أن قلة الماء في الوجه تلجئ أصحاب الجرأة من الحجاج إلى صعود أعلى الوادي لجلب ماءٍ من هناك يسمى الزعفران، وهناك كان يكمن الأعراب الذين يهجمون عليهم بمجرد وصولهم، وغالبًا ما يحدث قتال يغاث على إثره مَنْ تكبد مشقة الصعود لقربه من محل نزول الركب(٢). ووصف الرحالة المغاربة أخلاق أعراب تلك الناحية بالسوء.(٣)

وعندما وصل الرافعي إلى الوجه حين عودته ذكر أنه وجد فيها ملاقية، وهي عير تأتي من مصر تحمل السكر والدقيق والفواكه والحلويات، يتلقون بها الحجاج، ويأتي معها عسكر صغير من مصر، معه رؤساء بعض عرب الحجازيين لحمايتها، ويسمون أصحاب الدرك، إذ إن عادة المصريين أثناء سلوكهم طريق الحجاز أن يكون برفقتهم دَرَكٌ لحمايتهم. وفي مقابل هذه الحماية يُدْفع لهم مالٌ(٤). وكان ابتداء أمر هذه الملاقية منذ عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م.(٥)

وحتى عير الملاقية هذه كانت لا تسلم في بعض الأحيان من النهب والسلب من قبل الأعراب، وهذا ما حدث زمن رحلة أبي مدين الذي وصف

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٥.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣.

(٣) المصدر السابق والصفحة؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧ - ١٦٨.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢.

(٥) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص٨٠٥ - ٨٠٨.

هذه الواقعة، فالملاقية من مصر اعتادوا أن يأتوا بالمؤن إلى العقبة والمويلح والوجه وينبع، فترخص الأسعار ويعم الخير، وعندما تُهاجم قوافل الملاقية وتسلب يشتد الأمر على الناس، فإذا لم يجدوهم في الموضع المعتاد فإنهم يرجون وجودهم في الموقع التالي وهكذا إلى أن ينقطع رجاؤهم. وهذه الحالة وصفها أبو مدين فقد نقصت مؤن الحجاج، وكان أملهم شراءها من الملاقية. وقال واصفًا حال الحجاج: «وبلغت القلوب الحناجر». وعندما وصلوا إلى العقبة كانت الإبل في غاية الضعف لدرجة أن الحجاج لم يستطيعوا ركوبها من شدة هزالها، فساروا راجلين، والأعراب خلفهم تتربص بهم ريب المنون.[١]

وذكر العياشي انقضاض بعض اللصوص على آخر الركب بالبنادق بعد ارتحالهم عن الوجه بمسافة قصيرة، فاستغاثوا فهبَّ من سبقهم لنجدتهم، فهرب اللصوص ولم ينالوا شيئًا.[٢]

وكانت العقبة السوداء من أكثر المنازل المخيفة المتوقّع فيها هجوم الأعراب قطاع الطرق، فحذر منها الرحالة المغاربة، فالعياشي ذكر أنه محلّ خوف: «تُغِير فيه أعراب بلي وجهينة وغيرها»[٣]. وفي مكان آخر وصف وَجَلَ الحجاج الشديد من لصوص هذه العقبة[٤]. وأكد الدرعي قول العياشي في وجوب الحذر من هذا المحلّ لإغارة أعراب بلي وجهينة[٥]. أما الزبادي فذكر خطورة هذه البقعة وقال: «إن الأعراب تهاجم المتأخرين عن الركب».[٦]

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٥ - ٢٠٦.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤.
(٣) المصدر السابق والصفحة.
(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥٥٠.
(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١.
(٦) الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٦.

وعندما وصل العياشي واديًا أسماه العقيق قادمًا من الحوراء ذكر أن الاسم لا يناسب المسمى، إذ الأجدر تسميته بالعقوق (كناية عن المخاطر التي تحفّ به)، وعلّل ذلك بجرأة أعرابه على السرقة فهم على حدّ قوله: «من أجرأ الناس على ذلك».[١]

وأكد الدرعي قول العياشي، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقال: «إنه من شدة خوفهم من الأعراب لم يبيتوا في ذلك الموضع»[٢]. كما وصف حالة الركب عندما وصلوا إلى الحوراء فقال: «أخذوا أهبتهم، وارتقوا على التلال والآكام لمراقبة الدرب، وصد الغارات المحتملة»، إذ كان المحل «محل الغارات» على حدّ قوله.[٣]

وأما الزبادي فقد قارن بين جرأة أعراب الحجاز على السرقة والأعراب في شمال إفريقية فقال: «من أجرأ الأعراب على السرقة، وهذا بالنسبة للحجاز».[٤]

وذكر العياشي عند المرور على وادي النبط رؤية الحجاج للصوص منتشرين فوق الجبل فتصايح الناس لتنبيه غيرهم، واجتمعوا لصدهم، وانتهى الأمر بفرار اللصوص[٥]. وفي طريق عودته ذكرها أيضًا، فقال: إنهم رأوا لصوصًا اتخذوا رؤوس الجبال مكامن لهم، لذا خاف الحجاج من أذيتهم وهم في أماكنهم الحصينة هذه، وخاصة إذا هبط الظلام، فاتخذوا القرار بعدم المبيت هناك.[٦]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤.
(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٢.
(٣) المصدر السابق والجزء، ص١٧١.
(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٣.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤.
(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٥٥١.

وذكر الدرعي النبط عند عودته فقال: «إن متلصصة الأعراب تتبع الركب منتظرين الفرصة للهجوم عليه، لذلك أخذ الناس حذرهم هناك وتأهبوا لصدهم، وبالرغم من ذلك حدث أن هجم أحد اللصوص على أحد الحجاج الذي تنبه له وقاتله إلى أنْ ولّى هاربًا».[١]

ومن حديث أبي مدين عن منطقة النبط يبدو أن كثرة اللصوص فيها يعود إلى وعورة المنطقة التي توجد بين جبال شامخات[٢]، الأمر الذي أكدناه سابقًا من اختيار اللصوص لمثل هذه الأماكن.

وعندما مر العياشي في وادي النار قال عنه: إنه «طابق الاسم فيه المسمى» إذ هو وادٍ كبير ضيق بين جبلين، قلما تخلو سنة من محاربين يتربصون بالركب[٣]. وقد رأى الدرعي قلعة في سفح جبل هناك، ولكن لم يكن لها أثر كبير في حماية الحجيج، لتأكيده وجود اللصوص هناك.[٤]

ولما اقترب العياشي من ينبع ذكر تأخر بعض الإبل لشدة العطش، عندها هجم عليهم لصوص الأعراب فاستغاث الناس، فرجع إليهم مَنْ هبَّ للنجدة، فلما رأى الأعراب ذلك نحروا الجمل، وهربوا إلى الجبل. وقال: «إن قصدهم من نحره أن يبقى لهم لحمُه على الأقل لعلمهم أن أصحابه لن يأخذوه».[٥]

ولما قارب الدرعي ينبع وصف ما حدث للحجاج فقال: «تأخر كثير من ضعاف الحجاج، فهجمت عليهم عند ذلك لصوص الأعراب، وجردوا أحد الحجيج، فتصايح الناس لنجدته فرجع بعض الحجاج، وما لبث أن هرب

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٠٥.
(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٤.
(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥.
(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٢.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥.

اللصوص وتحصنوا وراء الصخور، وأخذوا يتراشقون هم والحجاج بالأحجار والبنادق إلى أن انهزموا كليًا».[١]

وعندما وصل العياشي إلى ينبع ذكر أن الحجاج خزنوا فيها الفائض من مؤنهم، وأخذوا ما كاروا عليه العرب من المويلح[٢] كناية عن استقرارها، في حين وصف الدرعي انحدار حالتها الأمنية فقال: «إن سقف مسجدها قد انهدم جزء منه وذبل نخيلها»، إضافة إلى وصفه سوء أخلاق أعرابها.[٣]

ولما قَدِم الحضيكي إلى ينبع عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م ذكر أن أشرافها خرجوا لحراسة الركب من اللصوص، ورحَّبوا بأمير الرَّكب وأظهروا له الوّد[٤]. ويبدو من كلام الحضيكي أنه عاد إليها شيء من الأمن، وربما يكون هذا عائدًا لاستقرار الوضع في مكة المكرمة، وقوة أمراء ينبع في تلك السنوات.

ولكن لم يلبث أن عاد الخوف إلى نفوس الحجاج منها، إذ ذكر أبو مدين أنهم ارتحلوا سريعًا منها خوفًا من أذية العرب[٥]. وأكد الزبادي قلة أمنها عندما مرّ عليها فقال: «لم أدخل هذه القرية لِما صار فيها اليوم من الخطر».[٦]

وقد زار ينبع في بداية القرن الحادي عشر الهجري رحالة مصري هو البكري[٧] الذي وصف ما كانت عليه وما آلت إليه من خراب في أوائل القرن

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٢ - ١٧٣.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٦.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٣؛ وانظر ما سبق، ص١٦٩.

(٤) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٧.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٤.

(٦) الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٧.

(٧) هو زين الدين محمد بن زين العابدين محمد بن محمد البكري الصديقي المصري، كان حيًا في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، له عدد من المؤلفات، ألف له أحد أتباعه رحلة في =

الحادي عشر الهجري، الأمر الذي يؤكد لنا أنها لم تقم لها قائمة منذ حركة يحيى بن سبع[١] في أوائل القرن العاشر حيث قال: «وكان به سور منيع وجامع مفرد وسيع، وبيوت فسيحة الرحاب، فآل أمرها إلى الخراب».[٢]

وتزعزُع الأمن في ينبع عائدٌ بطبيعة الحال إلى ضعف أمرائها وتسلط الأعراب المجاورين عليها، بحيث إنه لم يكن هناك طاقة لدفع أذاهم عنها.

ومن المواضع التي تمركز فيها اللصوص أيضًا أكرا، فقد أفاد اليوسي أنها من المواضع التي يكثر فيها الخوف من أذية الأعراب، مثل الوجه وعش الغراب.[٣]

وذكر الدرعي أكرة في طريق عودته فذكر أن الناس أرادت سقي إبلهم فمنعهم أمير الركب؛ لأنه على ما يظهر كان خبيرًا في سلوك هذا الدرب، وعلل منعه ورود الإبل للماء لكثرة الأعراب المتلصصة هناك، كما أثنى بعد ذلك على حُسن رأي أمير الركب، فقال: «ولقد صدق وأحسن فيما رأى، وقد رموا أول الركب التونسي ببنادق يطلبون إرهابهم فيفتكون بهم، وصبروا لهم وثبتوا، وما نالوا منهم شيئًا، فَمَنْ أسرع سقى إبله، وَمَنْ أبطأ تركها بلا سقي».[٤]

= عهد الشريف زيد بن محسن قام بها للحج، وصف فيها حجه وطريقه، وحقق المسافة على قدر إمكانه. وسماها المجاز في حقيقة رحلة الشيخ محمد زين العابدين الصديقي إلى بلاد الحجاز. انظر: ابن عبدالسلام: ملخص رحلتي ابن عبدالسلام، ص٢٣، تلخيص وعرض حمد الجاسر.

(١) انظر ما سبق، ص٢٠٧.

(٢) محمد زين العابدين البكري: «رحلة البكري» المجاز في حقيقة رحلة الشيخ محمد زين العابدين الصديقي إلى الحجاز، ورقة ٣٣ مخطوطة بدار الكتب المصرية؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥.

(٣) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٦.

وأورد الزبادي شعرًا عن إصطبل عنتر[١]، مفاده وجوب الحيطة والحذر فيه، وذم أعرابه، فقال:

إن جئت للإصطبل لا تغفل بـه عند الـنـزول
واحـــذر مـن الـعـرب الـتـي بحياله أبـــدًا تصول
واعــلــم فـديـتـك أنــهـا صـعـبٌ ولـكـنـي أقــول
قد سمي الإصطبل من عـرب به شِبْه الخيول[٢]

ووصف الزبادي ما بين ينبع والمويلح بالعشارية لأنها عشر مراحل لا إقامة فيها دون المعتاد، وهي نصف يوم بلا زيادة، لأنها كما قال: «لا بندر فيها في هذه الأعوام»[٣]، وذلك يعني الخراب وقلة عمارة هذه المسافة وأمنها، وهذا يؤكد ضآلة الأمن، وكثرة الخوف، واستفحال أذية الأعراب في هذه المنطقة التي لم تجد من يتصدى لوضع حلول لمشكلاتها ومتابعة ذلك، ومن ثم تأديب الأعراب الخارجين في دربٍ من أهم دروب المسلمين طروقًا، وبكثرة كل عام، على الرغم من محاولات الدولة العثمانية وإرسالها الأموال لمشايخ العربان من أجل الحراسة.

ومما لا شك فيه أن المتولين لعملية صرف هذه الأموال كان أكثرهم من ذوي النفوس الضعيفة الذين لم يتورعوا عن الاستيلاء على هذه الأموال أو جزء منها، لذا ينصبُّ انتقام الأعراب على الحجيج الذين يدفعون أموالهم وأرواحهم

---

(١) «إصطبل عنتر»: محطة على درب الحجاز، وعندما بنيت السكة الحديد كانت إحدى محطاتها على مسافة (١١٣) كم شمال غربي المدينة المنورة، توجد فيها بركة لسقي الحجاج، وهي منطقة وعرة. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص١٨٢؛ سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٣١، ١٣٤.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٥.

(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٩٦.

ثمنًا لذلك، وقد أورد الجزيري ومن ثم رفعت باشا قوائم برواتب الأعراب التي لم تكن بالقليلة.[١]

وذكر الدرعي قصة تدل على طمع أعراب بين الدركين، مضمونها أنه فُقِد عبد لابن أخيه في طريق القدوم، ووجدوه عند عودتهم لدى أعرابها، ولم يسلموه إياه إلا بعد دفع ستة مثاقيل[٢] ذهبًا.[٣]

وحدثنا الدرعي أيضًا عن سرقة حدثت في دار أم السلطان لأحد فقهاء الركب، إذ سُرِق منه كلّ ما يملكه من مال وبضائع وهو نائم.[٤]

وذكر العياشي أنه في شق العجوز[٥] حدث هجوم من الأعراب على أواخر الركب، لقلة الحذر بعد طول أَمْن في طريقهم، فقتلوا وسرقوا، ولم يجدوا مَنْ يصدهم، فقال: «ليس في الركب في هذه السنة مَنْ يدفع ولا مَنْ ينفع».[٦]

لم يكن أعراب درب الحجاز وحدهم السبب في اهتزاز الأمن فيه. فالعياشي ذكر أن مشايخ الركب كانوا يختلفون في أوان الرحيل أو المكوث، وذلك يؤدي إلى اضطراب الأمن واختلاله[٧]؛ إذ إن قوة الركب تكمن في اتحاده واجتماع رأيه وكثرة عدده وعُدته، فإذا اختلفت الآراء تخبّط وفد الحجيج فيمن

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٢٣٠؛ رفعت باشا: مرآة الحرمين، ج٢، ص٣٣٨-٣٤٤.

(٢) «مثقال» مصطلح استعمل للقطع النقدية الذهبية، بوزن عشرة من دراهم الفضة، بوزن سبعة مثاقيل من الذهب، وأصبح المثقال مرادفًا لكلمة الدينار. انظر: الكرملي: النقود العربية والإسلامية، ص٤٩؛ عمر أفا: النقود المغربية، ص١٧٠، هامش ١٩٠.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٦.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٧.

(٥) «شق العجوز» منزل بين المويلح والأزلم.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٥٥١.

(٧) المصدر السابق، ص١٤٤، ١٧٠.

يتبعون، ويحدث الهرج والانفراط، وهو ما يساعد على تردي الحالة الأمنية حيث هناك عيون اللصوص تترقبهم.

ومنها كذلك ما ذكره العياشي أيضًا وممّا مرده عدم ائتلاف الركب نفسه، إذ ذكر أنه حدث صدام بين المغاربة والأفريقيين والجوانيين، نتج عنه عدم تلاحم الركب وانفصاله وانفراد كلّ عن الآخر حتى لا يكون هناك احتكاك بينهم يؤدي إلى مواجهة مسلحة.(١)

وهذا بطبيعة الحال عامل من عوامل ضعف الركب الذي يعتمد أساسًا على كثرة عدده وعتاده، واتحاده في مواجهة غارات الأعراب المتربصين على طول الطريق.

وعبَّر الوزير الإسحاقي(٢) عن أهمية كثرة عدد الركب وعتاده وفرسانه في حمايته وإظهار قوته حتى لا يصبح لقمة سائغة للأعراب، فقال: «فلما تلاحق الركب، واستتب السفر رحلنا في رفقة الركب المصري إذ كان أميره محمد باشاي(٣) راغبًا في سير الركب المغربي معه، ولا سيما وفيه والدة مولانا أمير المؤمنين(٤) - نصره الله - ومعها من الوصفات الفرسان أهل النجدة والفروسية

---

(١) المصدر السابق، ص٥٥٠.

(٢) عبدالقادر الجيلاني، ويعرف بالشرقي الإسحاقي، ويكنى أبا محمد وأبا الفضل، وسماه الشيخ الطبري في إجازته محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي، وكان فقيهًا ومؤرخًا توفي بعد عودته من الحج عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م مع الأميرة خناثة. انظر: التازي: أمير مغربي في طرابلس «ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي»، ص٣٨، ١٠٣ - ١٠٧.

(٣) ذكره الشيخ الرشيدي باسم أمير الحاج محمد بك قيطاس «قطامش»، تولى إمرة الحاج المصري عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م إلى عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م. ثم عاد عام ١١٤٥هـ/ ١٣٣٢م. انظر: الرشيدي: حُسن الصفا والابتهاج، ص٢١٥.

(٤) هي خُناثة بنت الشيخ بكار بن علي بن عبدالله المغافري، وزوجة السلطان مولاي إسماعيل، وولدها السلطان عبدالله. كانت فقيهة عالمة أديبة، خرجت للحج عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م =

ما اشتدت به رغبة الركب المصري إلى مصاحبته والاستظهار به على شياطين العرب أهل القفر بالحجاز المتلصّصين، وخصوصًا على الركب المصري، بينهم وبينه عداوة شديدة... فما نبض لهم عرق في إيذائنا، مُشَرِّقين ومُغَرِّبين، والحمد لله».[١]

ومن أسباب اختلال الأمن أيضًا تسابق الجمال الذي يؤدي إلى السقوط والدعس، وذلك يشيع في الركب الفوضى[٢]. ومنها أيضًا ما ذكره الغنامي من أن هناك نوعًا من الحرس يسمى الغز مهمتهم حراسة الماء في الوجه، وفي سنة حجه منع هؤلاء الحراس الركب المغربي من التزود بالماء، وهو ما أدى إلى قيام هرج ومرج بالركب، إذ إن المسافة ما بين الوجه إلى ينبع لا ماء فيها، فكان التزود منه ضرورة لا بد منها في تلك القفار وإلا هلك الركب بأكمله. وقد ذكر الغنامي بعد ذلك سماح الغُز للركب المغربي بالتزود من الماء بعدما كاد يحدث قتال عليه.[٣]

ومن خلال البحث لم نجد حلولًا جذرية للقضاء على اختلال أمن دروب الحج في الحجاز، وما وُجد من صور الحماية كإقامة الحصون ووجود حراس مع الركب ودفع الإتاوات للأعراب لم تكن كافية لدفع ضررهم وكف بأسهم. ولم تستطع الدولة العثمانية توطين البدو، ولم تحاول ذلك. فبعض المناطق

= وأنفقت الأموال الطائلة. توفيت عام ١١٥٩هـ/ ١٧٤٦م. انظر: مولاي عبدالرحمن بن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج٣، ص١٦ - ٢٣، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، الدار البيضاء، مطابع إديال.

(١) الوزير الإسحاقي المغربي: رحلة الوزير الإسحاقي، ص٧٣٩ - ٧٤٠، مجلة العرب، ج١١ - ١٢، س١٩، جماديان ١٤٠٥هـ شباط/ آذار (فبراير/ مارس) ١٩٨٥م.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥٥٠.

(٣) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٩.

صالحة للزراعة، وأخرى صالحة للرعي وثالثة لصيد السمك، إذ يبدو أن الدولة العثمانية قد اعتمدت على الأشراف في ذلك، فلو شَجَّعوا على امتهان الأعراب لهذه المهن لوجدوا مصادر رزق مشروعة لا يضطرون معها إلى ممارسة مثل هذه الغوغائية ضد وفود الحجيج التي تؤدي بهم إلى غضب من الله تعالى ومصير مخوف في الآخرة، ولتجنبوا رصد المؤرخين لهم بهذه الصورة الشنيعة من سلب ونهب وإغارة على ضيوف الرحمن الذين شبههم البتنوني في ذهابهم إلى الحجاز بالذهاب إلى دار حرب.[1]

وهناك من تناول الأسباب التي دفعت الأعراب لقطع الطريق وعزاها لعوامل نفسية واجتماعية وضرورة حتمية، فهو بذلك يلتمس العذر لهم حينًا ولا يعفيهم من المسؤولية حينًا آخر.[2]

فالأعراب - كما ذكرنا - كانوا غير واعين بأمور الدين وغير منضبطين بسلطة. وكان يتعين على الدولة الاهتمام بهذا الأمر الذي به تنتهي هذه المشكلة التي قد يظن ظان أن لا حل لها، ولكن بمعرفة الحلال والحرام، وتنوير هؤلاء الأعراب بقواعد الدين الحنيف، وتأمين معاشهم.

ولقد قيض الله تعالى للبلاد والعباد بعد هذه المدة الطويلة من أنهى هذا الأمر، فبعد توحيد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - لمناطق المملكة تحت رايته، سارع إلى وضع الحلول وتنفيذها، ومنها توطين القبائل في الهجر والقرى، وفتح المدارس لهم، وتعمير المساجد وتزويدها بالأئمة فاستتب الأمن واستقرت الأوضاع وازدهرت البلاد بحاضرتها وباديتها.

---

(١) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر، ص٣٦٤ - ٣٦٥، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.

(٢) فؤاد عبدالحميد عنقاوي: مكة.. الحج والطوافة، ص١١٢ - ١١٣، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة:

اشتد الخوف في نفوس الحجيج من لصوص أعراب الدرب، فكان مجرد الإشاعة والتلويح بالكلام الذي لا يستند إلى أساس، أو الدعاء على أحد الحجاج بأن يسلط الله عليه الأعراب بنهبه ونهب ركبه، ترتعد الفرائص من هول الفكرة وتصوُّر ما يمكن أن يحدث. وهذا ما أشار إليه القادري عندما كان في مكة المكرمة فذكر رجلًا ابتدع فكرة لاستجلاب المال من الحجاج، وذلك بالدعاء لمن يعطيه مالًا بالأمن من الأعراب، ومَنْ لم يُعْطِه ينهال عليه بالدعاء بأن يسلط اللهُ عليه الأعرابَ، فيبادر مَنْ لم يعطه إلى بذل المال له فقط لإسكاته.(١)

وحدَّثنا العياشي عن تأخر الركب الشامي في الدخول إلى مكة المكرمة عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م لإعاقة الأعراب له، إذ لم يسمحوا لهم بإكمال سيرهم إلا إذا دفعوا مبلغًا طائلًا من المال، بالإضافة إلى نهب كثير منهم وقتلهم أثناء المفاوضات. ولشدة خوفهم من إفناء الركب وفوات الحج اضطروا إلى دفع ذلك المبلغ الذي قدره العياشي بنحو مئة ألف(٢)، فخسر الركب الشامي المال والأنفس، وأوشك أن يفوته الحج أيضًا.

وكانت أشد الأماكن ضررًا ومعاناة للحجيج هي المسافة بين المدينة المنورة وذي الحليفة، وقد سبق القول عن معاناة أهل المدينة المنورة أنفسهم من الأعراب حولهم، وخاصة أعراب حرب وبطونها.

وقد صوَّر القيسي شفقة أهل المدينة المنورة على ركبه عند انفصاله عن سور المدينة المنورة، فقال: «فخرج أهل المدينة مشيعين لنا كبارًا وصغارًا، باكين متحسرين على انفصالنا عنهم... وخوفًا علينا من غوائل الطريق، لأننا

---

(١) القادري: نسمة الآس، ص٩٣ - ٩٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥١.

شرذمة قليلة وعصابة يسيرة لانفصالنا عن الركب التونسي وهو ركب كبير.. وبين محطّ محلّتهم والمدينة أعراب، تنهب الرفاق وتأكل الرماق.. فشددنا الأُزُر، وتأهبنا لدفع الصائل وقتال الأعراب، حيث انفصلنا عن سور المدينة».(١)

وأكد العياشي ما ذكره القيسي من أن المسافة من المدينة المنورة إلى ما بعد ذي الحليفة محلّ خوف؛ لأنه مرتع لبعض اللصوص على الرغم من أن هذه المسافة كانت في درك أعراب بني سالم، إلا أن منازلهم بعيدة من هناك.(٢)

ويبدو أن بعض البدو استطالوا بالبغي على الحجاج في تلك المدة بالقرب من المدينة المنورة، وخاصة من شرف الروحاء حتى المدينة المنورة.(٣)

ورحلة العياشي كانت زمن حكم الشريف زيد بن محسن الذي كان يمسك بيد من حديد بأمور الحجاز وأمنها، إلا أنه على ما يبدو عجز عن هذه المنطقة في موسم الحج، فالعياشي جاور في الحرمين الشريفين سنة كاملة، عاين فيها أمن الحجاز في أوقات المواسم وسائر السنة، فقال في ذلك: «إن البلاد تحكمها العافية.. فلا ترى لصًا ولا سارقًا في ليلٍ ولا نهار، إلّا فيما قرب من المدينة.. وإنما تشتعل نار الحرابة والسرقة في تلك الأيام، أيام الموسم فقط لاختلاط الناس، واجتماع الأوباش من كل أَوْب. وقد عايَنَّا من الطمأنينة في الطريق.. ما قضينا منه العجب، إنّا ما كنّا نسلك هذه البلاد إلّا في أيام الموسم، ونعاين ما يقع من النهب والسرقة والروعات المتوالية، فظننا أنها كذلك دائمًا».(٤)

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٢٥ - ١٢٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٤.

(٤) المصدر السابق، ص٣٩٢.

ويعود توافر الأمن في المسافة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة إلى جهود الشريف زيد الذي كان يبذل جهده في توفيره، وذلك بإرسال طوائف ودوريات من الجند بأمرائها لحراسة طرق الحجاج، وردْع مَنْ تسوّل له نفسه المساس بالحجيج من لصوص الأعراب الذين كانوا يخافونه كثيرًا لشدة بأسه عليهم.(١)

وكما كان بعض الأعراب يخدم الحجاج ويقدم لهم المعونة بعيدًا عن الفساد وقطع الطريق، كان بعضهم الآخر يمتهنون الكراء للحجاج من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة أو ينبع أو غيرها من البنادر.(٢)

وفي الجديدة(٣) اشتكى الدرعي من اللصوص، وذكر أن صِدَامًا وقع بين أهل ركب تونس وأعراب حرب، استخدموا فيه الحجارة والبنادق للدفاع عن أنفسهم(٤). ونجد أن أبا مدين عند عودته ترك ركبه المرور عليها عند عودتهم لشدة خوفهم، ما أدى إلى قضائهم الليل بلا ماء.(٥)

كما هجم لصوص الأعراب على الركب المغربي الذي كان معه الدرعي عند مضيق الدهناء إذ كانوا ينتظرون مقدمهم، فهجموا على أواخره، وتراشقوا مع أفراده بالبنادق، إلى أن كفى الله الركب شرهم.(٦)

وعانى أبو مدين في وقت رحلته من اللصوص، وكأن أذاهم سلسلة

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢، ١٤٦، ١٧٠، ٣٩٢.

(٣) «الجديدة» عين في وادي الصفراء، فيها الآن إمارة. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص١٣٥.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٤.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٠.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٥.

لا تنقطع وحلقات لا تنفصم عراها فقال: «نزلنا مستورة[١] ونفوس الحجاج من سرّاقها مذعورة بفعلهم، وما يفعله السراق واللصوص، ومَنْ تبعهم من الحجاج».[٢]

وأشار أبو مدين في نصه إلى نقطة مهمة جدًا وهي وجود بعض الحجاج امتهنوا السرقة واللصوصية. فيكونون خير عونٍ للأعراب اللصوص من داخل الركب، إذ إن الركب حين يُهاجَم خارجيًا فإنهم يبادرون هم أيضًا لمهاجمته داخليًا فيزداد الاضطراب، وتعم الفوضى وينتشر عندها النهب.

وصور أبو مدين حالهم عند العودة إليها أيضًا بأن قلوبهم ذعرت بمجرد أن وطئتها أقدامهم، وأنهم لم يروا مثيلًا لسراقها إلا في الجديدة، وظلوا يصيحون عليهم إلى أن بزغ الفجر.[٣]

ولم يقتصر الأمر على لصوص مستورة والجديدة بل شاهدهم أبو مدين أيضًا في عُسفان، وكان غرضهم الإيقاع بالركب المصري ومحاربته، إذ ذكر أنهم أرسلوا لأمير الركب المغربي أنهم لا يضمرون لهم سوءًا، وليس بينهم وبين المغاربة إلا الخير، وعليهم الرحيل وترك الركب المصري يواجه مصيره وحده معهم، ولم يسمحوا للركب المصري بالعبور إلا بعد دفع أموال لقاء ذلك.[٤]

ونستشف من كلام أبي مدين أن التربص بالركب المصري إنما هو لإنهاء

---

(١) «مستورة» بلدة ساحلية تبعد عن رابغ (٤٠) كم شمالًا، فيها مركز شرطة ومستوصف وسوق عامرة، وتبعد عن مكة المكرمة (٢٣٥) كم، والبلدة تنسب إلى امرأة من زبيد حفرت بئرًا هناك تسمى مستورة فنسبت البلدة إليها. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٨، ص١٣٩ - ١٤٠.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠.

(٣) المصدر السابق، ص١٧٣.

(٤) المصدر السابق، ص١٣٨.

ثأر وتصفية موقف وحساب سابق، ويبدو أن مرده إلى الأموال التي منعها أمراء الحج عن الأعراب، والتي تسمى العوائد، طمعًا فيها.[١]

ووقعت فاجعة زمن رحلة العياشي بسبب قلة خبرة أمير الركب الشامي الذي منع هذه العوائد على الرغم من أنه كان يحملها، وظن أن بمقدوره أن يصد العربان بجنده، وقد ناشدوه المرة تلو الأخرى في إعطائهم عوائدهم، فأبى وأغلظ لهم الكلام، عندئذ شنوا على ركبه غارة انتهت بانهزام أمير الركب وجنده ونهب معظم أفراده، ولم يسلم الباقون إلّا بعد أن أهدرت كرامة أميرهم الذي انصاع لما أراده عربان الدرك من التزامه بدفع مبالغ أكثر مما هو مقرّر لهم. وذكر العياشي أن الركب الشامي في تلك السنة تأخر خروجه من المدينة المنورة إلى حين إحضار المدد من الشام، وعلى الرغم من ذلك خرج منها وهو يتملّكه خوف عظيم مما قد يحدث من العربان.[٢]

وشدد أبو مدين في التحذير من الطريق من عُسفان إلى شرف الروحاء لكثرة اللصوص فيها، إذ قال: يكثر اللصوص بالنهار والسراق بالليل[٣]. كما وصف لصوص الصفراء[٤] «باللصوص العاديَة والسرّاق الحامية».[٥]

---

(١) البرزنجي: (الجته جي)، ص٣٥٤، مجلة العرب، ج٥ - ٦، س ١٢، ذو القعدة والحجة، ١٣٩٧هـ.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٠٥، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق: أمحزون.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٨.

(٤) «الصفراء» من أكبر أودية الحجاز الغربية. وتسميه العامة وادي بدر لاشتهار بلدة بدر، وهو وادٍ كبير كثير العيون والنخيل ولثمره شهرة، وقد غارت عيونه في السبعين من القرن الرابع عشر الهجري، واندثرت عقب ذلك قرى بسبب هجرة أهلها، وأعيدت الزراعة إليها بوضع آلات ضخ مكان العيون. وفي الصفراء اليوم إمارة تجمع كل قراها ومقرها بدر. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٥، ص١٤٨ - ١٥٠.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٢.

ونخلص إلى أن الأعراب كانت تنتهز فرصة موسم الحج لتصفية الحقوق القديمة، والضغط على أمراء الحج بهجماتهم لاستجلاب أكبر قدر ممكن من الأموال، وقد حدث هذا في زمن رحلة أبي مدين للركبين المصري والشامي، إذ تربص الأعراب بالركب الشامي في أحد مضائق الدرب الحجازي وكمنوا له، وقطعوا طريقه، فلم يجرؤ على التقدم ومواجهة البغاة، فسلك طريقًا آخر أطول من المعتاد، وهو ما أدى إلى تأخره في دخول مكة إلى السابع من ذي الحجة.[١]

وفرح أهل المدينة المنورة والحجاج واستبشروا بهزيمة الأعراب، ومقتل العديد منهم وأسر عدد آخر على يد الركب الشامي عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م حينما تعرضوا له جهة جبل أحد.[٢]

ومع أن الرحالة المغاربة وصفوا عربان الحجاز بألفاظ نابية فإن ذلك لم يكن مبالغًا فيه؛ إذ لا شك في أنهم لم يتجنوا على أعراب الحجاز، وفي الوقت نفسه لم يوفوهم حقهم من اللوم والتقريع والذم، ولا شك أن ما خفي كان أعظم وأشدّ بشاعة مما ذكره الرحالة المغاربة، ولنا أن نستعين بنص رحالة مدني، وصف فيه ما حدث لركب الحاج الشامي في تبوك عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م إذ تجاسر شيخ بني صخر[٣] «واستدعى من قبائله القاصي والداني واعدًا لهم على الجردة، فسام رجالها قتلًا وخسفًا، انتسف ما فيها من الأحمال نسفًا وأصفقت عليه الأعراب عند ذلك، وسلكت سبيله. واجتمع عليه منهم اثنتان وعشرون قبيلة.. وساقهم فجمعوا كيدهم، وأتوا صفًا. واندفعوا في محرم نحو تبوك يدًا واحدةً زحفًا، ونازلوا الحجاج بها

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٢.

(٣) هو قعدان الفايز شيخ بني صخر في تلك المدة في الشام. البرزنجي: الجته جي، ص٣٦٤. مجلة العرب، ج٥ - ٦، السنة ١٢، ذو القعدة والحجة، ١٣٩٧هـ.

وهم قافلون إلى ديارهم، وحصروهم بها تسعة عشر يومًا لتحصيل درهمهم ودينارهم. وكان أمير الحجاج لمّا وصل إليها، وأناخ بها، وخيم عليها، وصلت إليه كتب من دمشق الغراء بأن لا يرحل من المكان الذي هو فيه حتى تأتيه جردة أخرى.. ولم يطرقه من تلك الناحية طارق، وذلك لاختلاف الأجناد في الإغاثة وعدمها بذلك النادِ، لأنّ بعضهم أراد الصارخة نجدة وحمية، وامتنع آخرون إلا أن يأتي أمر من الدولة العلّية، إلى أن آل أمرهم إلى فتنة، تأجج بها حجرهم، فاشتد لأجل ذلك على الحجاج البَلا، وعظم بطول الإقامة الغلا، ونحروا كثيرًا من ظهرهم، ورأوا من الشدائد ما لم يروه في دهرهم، وذاقوا لباس الجوع والخوف وبرد الخريف، والأعراب من نهب الجردة في خصب وريف، ولما أخلفت عساكر الشام أمير الحاج ما وعدوه به من نصرهم، وقَطَعَ بأنهم شغلوا بأنفسهم وتخلفوا بمصرهم، استدعى قعدانًا ليصالحه على شيء من المال.. فلم يوافقه.. وكان نزول الحجاج تبوك وإقامتهم بها، مانعين للأعراب في اقتحام الخيام وانتهابها. فاحتال بعض الأعراب على الأمير، وأخبروه بأنهم فارقوا الإقامة، ورافقوا المسير ليسهل نهب الحجيج وهو سائر.. فركن أمير الحجاج إلى قوله واعتقده.. ورحل من تبوك في تاسع شهر صفر مؤملًا السلامة والظفر، وسار إلى قُبيل العصر، فأحاطت بهم الأعراب من كل جانب، يرمونهم بالرصاص ويحملون عليهم مقانب إثر مقانب، وأذاق كلٌّ من الفريقين الآخر ما هو أبشع من العلقم وأمرّ إلى أن ابهار الليل، وغاب القمر، فأتى الأعراب من خلف القطر، وجاسوا خلالها، واقتطعوا ما وصلت إليه أيديهم من أحمالها، وساقوا جمالها، وبلغ الأمير ذلك، فأمر بالإناخة في تلك العرصة.. واشتد بعد الإناخة القتال، واستطال الصخري الختال، وصار الحجاج حيارى، تراهم سكارى وما هم سكارى، أبدانهم راجفة، وقلوبهم واجفة، وأصواتهم خافتة، وأبصارهم باهتة، ووجوههم باسرة، تظن أن يفعل بها

فاقرة، وأميرهم مشمر في المدافعة عن ساعد اجتهاده، نابذ المألوف، ودامت قبائل الصخري على اختطافها واختلاسها إلى أن برزت الشمس من كناسها، فأمر الحاج بالرحيل... وبقوا في موقفهم إلى الضحوة الكبرى.. وهجم عند ذلك الأعراب على الحجاج أفظع الهجوم، وانقضوا عليهم انقضاض شعل النجوم للرجوم... وخالطوهم من أيمانهم وشمالهم وأمام ووراء، وسلبوهم، فصاروا عراة بالعراء، وسقوهم بسقيا الأسنة والظبا، في هاتيك البسائط والرُّبا، وأبرزوا المخدرات من الخدور، وكشفوا الحرائر، وهتكوا الستور، واستنزلوا ذوات الحظوظ والبنوت من غرف المحفات والتخوت، وانتزعوا الأرواح من الأجساد، وفرّقوا بين الأمهات والأولاد، وأذهلوا الرجل عن أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته وبنيه، وصار لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، كأنهم بين أيدي الأعراب سوائم ترتع، وأموالهم تنهب وتوزع، وأخذوا منها فوق طاقتهم، وحملوا منها ما عجزت عنه قوى استطاعتهم، بحيث صار يسقط منهم في المراحل، لكثرة الحمل وقلة الحوامل، وأمست الصحارى من الأمتعة والأقمشة، كأنها أسواق مدهشة، ثم تمزَّق مَنْ بقي من الحجاج أيدي سبأ هربًا وموتًا وسبيًا، ولجأ مَنْ فرّ إلى بعض القرى، عادمي اللباس والشراب والقِرى. وطارت بذلك الأخبار، وعمّ البغي الأقطار، فقامت على الدين نوادبه، وبكى لذلك المصاب شاهده وغائبه».[1]

إن النص لا يحتاج إلى تعليق منا في قليل أو كثير؛ لأن ما فيه لا يكاد العقل يعقله، ولا السامع يصدقه، ولا القارئ يفهم سبب حدوثه بهذا الشكل البشع والمفزع لحجاج بيت الله الحرام، ويحق للأقلام أن تكلّ عن وصف هؤلاء العربان الذين انحطت قيمهم الأخلاقية والدينية إلى أسفل درك، إذ استولوا

(١) البرزنجي: الجته جي، ص٣٦٦، مجلة العرب.

على المسالك والممالك، واستأسدوا على الغادي والرائح، فعاثوا في الأرض فسادًا، وتمرسوا بأساليب الطغيان وطرقه، وانتهبوا البوادي والمدائن، وانقضوا كالنسور الكواسر على حجاج بيت الله الحرام، غير مبالين أنهم في بلد حرام، وشهر حرام، ملقين العهود والحرمات والمواثيق والأعراف خلف ظهورهم.

الفصل الرابع

النشاط البشري
من خلال كتب الرّحلات المغربيّة

- طرق التجارة والحج
- الأسواق والنقود وأهم السلع
- مواطن الزراعة وأهم المحصولات ومصادر المياه ومشروعاتها



النشاط البَشَري من خِلال كتب الرّحَلات المغربيَّة

طرق التجارة والحج

طرق التجارة:

عرف الحجاز التجارة قديمًا، وخَبِر أهلها مسالكها، وعقدوا الأحلاف لتأمين طُرقها وحمايتها، وكما هو معروف تصدّر أهل مكة المكرمة لهذه المهنة، وقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بأمنهم وأمن تجارتهم في رحلتي الشتاء والصيف، عبرت عن ذلك سورة قريش.

لقد أشارت متون الرحلات المغربية إلى طريقين استخدمهما التجار في الحجاز هما:

- أولًا: الطريق البري.
- ثانيًا: الطريق البحري.

الطريق البري: هو الذي سلكه ركب الحجيج القادم من الشام ومصر والمغرب وغيرها من البلاد الإفريقية، ولولا سلوك الحجيج فيه لما أصبح بهذه الأهمية، ولما كان طريقًا للتجارة، وقد امتزج بهذا الطريق نوعان من التجارة هما:

أ - التجارة الداخلية.

ب - التجارة الخارجية.

التجارة الداخلية: كان يقوم بها بعض الأعراب القاطنين على درب الحجيج وحوله، ومنهم مَنْ كان يأتي من مناطق بعيدة للاتجار مع الحجاج، وبيعهم اللحم، والعلف، والماء، والفواكه، والسمن، واللبن، والجبن، والتمر، والحبوب، والحبحب، والعسل، والقِرب، وملابس الإحرام، والنِّعال، والحطب.(١)

وكانت هذه التجارة تنشط خلال الحج أثناء تدفق الحجيج إلى الحجاز ذهابًا وإيابًا، حيث اعتاد الأعراب على عرض بضائعهم للركب في محطات نزولهم، وبهذا يمكننا أن نطلق عليها: «تجارة داخلية موسمية محلية».

أما التجارة الخارجية فقد انقسمت قسمين:

أ - التجارة مع الحجاج.

ب - تجارة الحجاج مع أهل الحجاز.

وفيما يتعلق بالقسم الأول فقد دأب بعض تجار الشام وغزة ومصر على ملاقاة الحجاج في محطات داخل أرض الحجاز مثل «العقبة»، و«المويلح»، و«الوجه»، و«الأزلم» محملين بجميع أنواع البضائع والمؤن الغذائية لبيعها لهم، وكان التجار يسعون إلى رفع الأسعار في البداية، ثم يخفضون السعر إذا بيع كثير

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٩١، ١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨ - ١٥٠، ١٧٠ - ١٧١، ٣٩٢؛ الطبعة الحجرية، ج٢، ص٩٤، ٤٠١، ٤١٠، الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٦، ١٢٤، ١٧٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب، ٩٥/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ١٦٣، ١٦٧، ١٧١، ١٨١، ١٨٣، ج٢، ص١٠٥، ١٠٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٩؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨، ١٢٠ - ١٢١، ١٧٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٠، ٦٣، ٨٤، ٨٦.

من بضائعهم. ومهما كان الأمر من كثرة البيع أو قلته فالحجاج وغيرهم ينعمون بالأمن الاقتصادي ويقضون حوائجهم. وأحيانًا يحدث أن يكون هناك ما يعيق وصول التجار في الوقت المناسب إلى المناطق التي اعتاد الحجاج الالتقاء فيها لأي سبب من الأسباب، فيقنط الحجاج ويشتد الأمر عليهم، لأنّ اعتمادهم عليها كبير، إلى جانب ما يخزنونه من مؤن في البنادر عند قدومهم لتعينهم عند عودتهم.[١]

ولم تكن التجارة مع الحجاج وقفًا على تجار مصر والشام، بل كان أمير الحجيج المصري يَقْدُمُ بتجارات كثيرة ومتنوعة تباع أثناء الطريق وعند نزوله في ينبع، وما تبقى يبيعه في مكة المكرمة، إذ يخصها بجزء من البضائع تُصرَّف فيها.[٢]

وأما ما يتعلق بالقسم الثاني وهو تجارة الحجاج مع أهل الحجاز، فقد مارس الحجاج الاتجار مع أهل الحجاز أثناء الحج في مكة المكرمة، أو في منى، أو في المدينة المنورة، أو حتى أثناء طريقهم إلى الحجاز وداخل طرقه، وقد ذكر الرّحالة المغاربة أن من الأسباب الداعية لممارسة هذا النوع من التجارة حاجة سكان المناطق التي يمرّ عليها ركب الحجيج، حيث أشار أبو مدين إلى ذلك، فقال: «ينبغي أن يجمعوا مالًا، فيشتروا به عطرًا وكتّانًا والتبن والتمر، إذ

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧١، ١٢٧ – ١٢٨؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤، ٥٥٠ – ٥٥١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤، ١١٦، ١٢٠، ٢٠٤ – ٢٠٦؛ القادري: نسمة الآس، ص١١٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ، ٩٦/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٩، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٧، ج٢، ص١٠٥، ١٠٧ – ١٠٩؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩، ٢٠٥ – ٢٠٦؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٥، ٥٨، ٦٠، ٦٣، ٦٦ – ٦٧، ١٩٦، ٢٠٠.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤١٩، ١٥٥٤.

هناك بلدان لا تفوت فيها دراهمنا، ولا دراهم غيرنا... وحوائجهم كلها إنما تقضى بالعروض، كالجلد الأحمر، والثياب، وأواني النحاس. والدنانير أفضل ما حمل الإنسان معه، فإنها تقضي في كل أرض، ويرغبها كل الناس»[١]. ثمّ أيضًا رغبة الحجاج في إخراج نفقة الحج من مرابح التجارة كما ذكر الحضيكي[٢]. لذا وجدنا أن من الرّحالة المغاربة أنفسهم من قَدِم بتجارة له كأبي مدين[٣]. كما قدم معظم الحجاج بتجاراتهم.[٤]

فالرحالة المغاربة تحدثوا عن تنوع البضائع وكثرتها في مكة المكرمة ومنى والأماكن الآتية منها[٥] حيث تصب جميعها في مكة المكرمة، ومنها تُحمل إلى مختلف الأقطار من خلال الحجاج[٦]. فغدت مكة المكرمة بذلك وسيطًا ومركزًا مهمًا للتجارة تصديقًا لقوله تعالى، واستجابة لدعوة خليله عليه السلام لأهلها إذ قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.[٨]

---

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٢٣ - ٢٤، ٣١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٣٦ - ٣٧.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣١.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٥٥٤.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ١٥٧ - ٤١٦؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٩؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٩؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٧.

(٦) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٠٠٩.

(٧) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٨) سورة القصص، الآية: ٥٧.

وما يقال عن مكة المكرمة ومنى يقال عن المدينة المنورة إذ تتسع الأرزاق وخاصة عندما يصل الركب الشامي الذي يَقْدُمُ إليها محمّلًا بأصناف متعدّدة من البضائع مخصصة للبيع بها، فينتج عن ذلك رخاء عميم بعكس الزوار الأعاجم الذين يقدمون إلى المدينة المنورة، فيضيق أهلها بهم ذرعًا، ويتمنون رحيلهم سريعًا.[(١)]

أما الطريق البحري فقد تحدث عنه الرحالة المغاربة عندما ذكروا الموانئ البحرية التي مروا عليها وشاهدوها مثل «العقبة» و«المويلح» و«الوجه» و«ينبع» و«رابغ» و«جُدة»، واستخدمت هذه الثغور البحرية في نقل التجارة والمؤن للتوسيع على الحجيج أثناء طريقهم، وعلى أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة.

فالعقبة حدد الرافعي موقعها على بحر السويس[(٢)]، ووصفها بالعظمة[(٣)]، في حين وصفها العياشي والدرعي بالقرية المقامة في سفح جبل على شاطئ البحر، يُنصب فيها سوق لخدمة الحجاج الذين يجدون فيه ما يحتاجون إليه بأسعار أرخص من مصر، بالإضافة إلى وجود قلعة حصينة فيها.[(٤)]

ويظهر أن «العقبة» شهدت انتعاشًا اقتصاديًا كبيرًا في زمن رحلتي أبي مدين والزبادي اللذين وصفاها بالمدينة المتقنة البناء، والكثيرة النخل، والماء العذب، وأكّدا كذلك وجود قلعتها الحصينة.[(٥)]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٠٢ - ١٠٣، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) «بحر السويس» الصحيح خليج العقبة وهو القرن الشرقي للبحر الأحمر، أما القرن الغربي فهو خليج السويس.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٩ - ١٦٠.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٠.

أما ميناء المويلح فقد أشار إليه الرّحالة المغاربة ووصفوه بقولهم: ثغر حَسَنٌ على البحر، ترسو فيه السفن القادمة من «السويس» و«جُدة» و«القُصير»[١]، فالسفن تأتي من مصر وإليها، إذ إن جزءًا من ملاقية الحجاج تأتي بحرًا عن طريقه، وغالب سكان المويلح يلقون العون والتشجيع من مصر للاستيطان فيها، ولتبقى مأهولة عندما يمرّ بها ركب الحجيج كما ذكر الرحالة المغاربة.[٢]

ويبدو أن التشجيع على الاستيطان بالموانئ لتبقى مأهولة بالسكان أثناء مرور الحجاج كان يهدف إلى الحفاظ على الحجيج، وتأمين سُبل السلامة لهم حتى يصلوا إلى المشاعر ويعودوا منها إلى بلادهم سالمين آمنين.

وأهمل الرّحالة المغاربة ذكر ميناء الوجه وأثره البحري واكتفوا بقولهم: إنه محطة لنزول الركب وخزن المؤن[٣]. وطالما ورد ذكره بكونه محطة للركب ومخزنًا للمؤن فهذا يعني أنه بمثابة الاستراحة كغيره من المحطات الأخرى، واحتمال ممارسة التجارة فيه واردة، ولا سيما أن هناك مخازن للمؤن التي أتى بها الحجيج أو الخاصة بالسكان.

---

(١) «القُصير» بالتصغير موضع قرب عيذاب، وتقع الآن في مصر. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٣٦٧.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٢، ١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١ - ١٤٢؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٦؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧، ٩٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٣.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص٧٢، ١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣ - ١٤٤، ٥٥١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٩ - ١٢٠، ٢٠٤؛ القادري: نسمة الآس، ص١١٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٨، ج٢، ١٠٥؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٩؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧، ٩٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١، ٢٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٦ - ٦٧، ١٩٦.

في حين وصف العياشي ميناء ينبع بأنه مرسى على البحر ترسو فيه السفن المحَمّلة بالأرزاق للمدينة المنورة[١]، وأشار الحضيكي والغنامي إلى أهميته للمدينة المنورة، فعن طريقه كانت تُجلب الأرزاق والأقوات إليها من مصر.[٢]

وكانت واردات ينبع من الرسوم الجمركية قد بلغت مبلغًا كبيرًا فكان جزء منها يذهب لأميرها، والباقي لأمير مكة المكرمة[٣]، الأمر الذي يوضح أهميتها الاقتصادية لكلٍّ من أميري ينبع ومكة المكرمة.

وقد وُجد في ينبع خان وقلعة فيها عساكر إلى جانب بعض الأتباع لشريف ينبع مثل الحاكم والكاتب، وكانت مهمة هؤلاء الأتباع السهر على تسيير مصالح الشريف، وأخْذ ما يسمى بالزالة من أصحاب المراكب، وكانت بمثابة عادة يأخذها الأمير يستعين بها على مصروف إمارته، وما يقيمه من ضيافة لأمير الركب المصري، إذ إن هذا الأمر من التزاماته ولا بد له من أدائها.[٤]

وأهمل الرحالة المغاربة ذكر ميناء رابغ البحري، ولم يُوَضّح أنه ميناء إلا الحضيكي الذي قال: إنه مرسى صغير[٥]، وتبعه في ذلك الزبادي[٦]، ويبدو أنه كان ميناءً محليًا يستخدمه أهلُها لصيد السّمك الذي كان يُؤتى به طريًا طازجًا للركب.[٧]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥ - ١٤٦، ٥٥٠.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

(٣) د. نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، ص١٤٠، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة العربية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤١٧.

(٥) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٨.

(٦) الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٣.

(٧) محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي الشهير بكبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص٢٤٢، =

وعن جُدة لم يذكرها بشيء من التفصيل سوى العياشي الذي زارها، ونقل الدرعي عنه وصفها، وشاهد العياشي في مرساها سفنًا كثيرة كبيرة وصغيرة، أكثرها مصنوع من الشريط الذي لا يوجد فيه مسامير[١]، وكانت هذه السفن الكبيرة تحمل أضعاف ما يحمل غيرها من السفن من البضائع الهندية، والأقمشة الجيدة التي منها ما كان يُعرض في جُدة، ومنها ما يُحمل إلى مكة المكرمة، ويبدو أن جُدة كانت مهيأة للتجارة وذلك لوجود الأسواق والفنادق ومكاتب الكراء والوكالات التجارية، كما أنها كانت مكانًا لتلقّي الأخبار من البلدان الأخرى، فالعياشي كان ينتظر سفنًا ترد من المغرب تحمل إليه أخبارها.[٢]

وكان موقعها البحري المتميز والقريب من مكة المكرمة قد هيأ لها أن تحتل مكان الصدارة على غيرها من موانئ البحر الأحمر، فقامت بها ثلاثة أنواع من الأسواق التجارية، نستطيع تصنيفها كالآتي:

أ - الأسواق المحلية.

ب - الأسواق الموسمية المرتبطة بهبوب الرياح، والتي تصل سفنها في مواعيد سنوية ثابتة مثل البضائع الواردة من الهند.

ج - أسواق سنوية مرتبطة بموسم الحج، وتأتي بضائعها من الشمال والشرق

= تحقيق وتقديم وفهرسة محمد سعيد الطنطاوي، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

(١) علل الزُّهري صناعة السفن على هذا الشكل لوجود المغناطيس بالبحر، والصحيح ما ذكره ابن جبير من كثرة الشعاب المعترضة في البحر. انظر: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزهري: كتاب الجغرافية، ص٣٨، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، د.ت؛ ابن جبير: الرحلة، ص٤٧ - ٥٢.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢ - ٤٠٥.

والغرب[١]. ونتيجة لموقعها المتميز أصبحت جُدة منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري مستودعًا عظيمًا لمتاجر الهند، ومرسىً نهائيًا لسفنهم وسفن الصين، ومركزًا رئيسًا لنزول حجاج البحر والتجار الشرقيين الذين تُرسَّم عليهم الجمارك.[٢]

لم يتحدث الرحالة المغاربة إلا عما شاهدوه، ولا شك أن هناك طرقًا أخرى للتجارة، منها الطريق البري القادم من اليمن، والطريق البري الآتي من العراق والخليج العربي، وهذه لم يشر إليها الرحالة المغاربة؛ لأن طريقهم لم يكن عليها، فأغفلوا ذكرها.

طُرق الحج:

قَدِمَ الرحالة المغاربة من شمال الحجاز، وهو طريق الحجيج المصري أحد طرق الحج، وهناك طريق الحاج الشامي، والعراقي، واليمني، والهندي، وغيرها، ولكن لم يتطرق إليها الرحالة المغاربة، وإنما تحدثوا عن الحجاج الآتين من البلدان الإسلامية التي تنتمي إليها تلك الأركاب مثل الشامي، والمصري، واليمني، والعراقي (الكوفي - البغدادي - البصري)، والمغربي (الفاسي)، (القسنطيني - الجزائري)، والإسطنبولي، والعجمي، والقرماني، والهندي، والبنكالي، والكنكي، والسرتي، والمصوعي، والتكروري.[٣]

وسنتحدث عن طريق الحجيج المصري لأن هذا الطريق هو الذي عاينه ومشى فيه الرحالة المغاربة، وتحدثوا عن ركبهم الذي لا يبدأ مسيره إلا بعد

---

(١) د. نعيم زكي: طرق التجارة الدولية، ص٢٨١ - ٢٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٩ - ١٤٠.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦١؛ القادري: نسمة الآس، ص٨٢ - ٨٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٠.

رحيل الركب المصري الذي كان يغادر في الثالث والعشرين من شوال، ويتبعه الركب المغربي يوم السابع والعشرين من الشهر نفسه، ويجتمع الركبان في بركة الحاج.(١)

ويظهر أن طريقة ترتيب سير الأركاب لم تتغير منذ القرن العاشر الهجري، إذ هي موافقة لما ذكره الجزيري، أما الذي تغيَّر فهو يوم الرحيل، فقد كان في القرن السابع الهجري يوم السادس عشر من شوال، وأصبح بعد ذلك في الثالث والعشرين من الشهر نفسه.(٢)

ويتألف الركب الفاسي الذي يأتي معه الرحالة المغاربة من:

١ - الركب الفاسي.

٢ - الركب السجلماسي.

٣ - الركب المراكشي.

٤ - الركب الشنجيطي.

٥ - الركب البحري(٣).

٦ - الركب السوسي.(٤)

وينضم إلى الأركاب السابقة ركائب تونس، والجزائر، وطرابلس الغرب(٥)، فيزيدون في أعدادهم، ويؤلفون ركبًا مغربيًا كبيرًا، فضلًا عن كثرة ما

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٦٩؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٣٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٩.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣١٤، ج١، ص٦٤٣.

(٣) محمد المنوني: من حديث الركب المغربي، ص٩.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٧.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٣٠، ٦٠ - ٦٢.

يحملونه من عدّة وعتاد.

واستمرت طريقة سير الركب المغربي إلى زمن رحلة الزبادي الذي قال: «إن الركب الفاسي انفصل عن سائر أركاب المغرب التي كانت تسير في الماضي مجتمعة، وأصبح الركب الفاسي يسير مع الركب المصري». ويظهر من كلام الزبادي أنه يقصد بباقي أركاب المغرب الجزائر وما والاها شرقًا التي كانت ترحل بعد رحيل الركب المصري[1]. كما أن الزبادي لم يوضح السبب الذي حدا بالركب الفاسي إلى الانفصال عن الركب المغربي، ويبدو أن انفصال الركب الفاسي عن باقي الأركاب المغربية كان قبل رحلة الزبادي، فأبو مدين أشار قبله إلى أنه كان ينتظر بخوف تأخر وصول الركب السوسي، خاصة أن باقي الأركاب المغربية قد وصلت إلى مكة المكرمة.[2]

لم تذكر طريقة سير أركاب الحجيج، وخاصة المصري، وخط سيره في مؤلف قائم بذاته إلا مؤلف الجزيري، وعنوانه «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطرق مكة المعظمة» الذي قال فيه مؤلفه: «لم آخذ في تأليفه على مثال سَبَق، ولا على نمط تقدَّمَني فيه غيري»[3]. فالجزيري ألفه في القرن العاشر الهجري، لذا رأينا أن نأخذه مثالًا عند أول كل منزلة، خاصة أنه كان كثير التردّد عبر هذا الدرب، الأمر الذي مكَّنه من إيراد ما شاهده وخَبِرَهُ وعَلِمَه، وسيتضح من أقواله وأقوال الرحالة المغاربة أن مراحل الدرب الحجازي ومحطاته وأسماءها لم تتغير منذ القرن العاشر الهجري حتى الثاني عشر الهجري، بالإضافة إلى إيراد أقوال بعض الرحالة المشارقة، حتى نخرج بالنتيجة المرجوة بالمقارنة بين كل تلك الأقوال.

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٤.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٧.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد، ج١، ص٣.

سنبدأ بالوصف وتتبع الرحلة من أولى المنازل، وهي «بركة الحاج» التي كانت على الرغم من أنها داخل الأراضي المصرية وخارج حدود الحجاز، فقد وجدنا أنه لا بد من البدء من بداية الطريق حتى تكتمل الصورة. ونلمس أن معاناة ركب الحجيج ليست بدايتها من أرض الحجاز بل من داخل الأراضي المصرية، حتى لا يقال: إن أمراء الحجاز وحدهم هم المقصرون في حماية ركب الحجيج، إذ شارك حكام مصر في هذا التقصير.

ذكر الجزيري أن الطريق إلى بركة الحاج فضاء وحصباء ورمل، أما وصف الموقع فقال عنه: «به نخل كثير، ومنازل، وسكان قليلون، وبها فسقية قديمة للماء عُمرت منذ عام ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م، وأقيم بجانبها بئر وبستان، كما عُمر في حدود عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م حوض يشتمل على محراب للصلاة، وأواوين يجلس عليها المسافرون للاستراحة، وكل ذلك ضمن عمارة عالية تُرى من بُعد»، وأضاف: «أنه يُنصب بها سوق كبيرة تشتمل على كل ما يحتاجه المسافر من مأكل وملبس ومركب».(١)

وذكر ابن رشيد الذي مرّ عليها عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م أن ذاك العمران الحاصل فيها كان لنزول الحجاج فيها، إذْ أُحدِثَتْ فيها الحوانيت والأفران لتلبية حاجاتهم، وأنّ المسافة بينها وبين القاهرة حوالي اثني عشر ميلًا.(٢)

ووصف العياشي وضع بركة الحاج في بداية الربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري كما وصفها الدرعي في نهاية الربع الأول من القرن الثاني عشر الهجري، وجاء في وصفهما لها: أنها بركة واسعة على مدّ البصر،

---

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٠٩ - ١٣١١.

(٢) أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهه إلى الحرمين مكة وطيبة، ج٥، ص٢٨٢، تحقيق د. محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت - لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

مملوءة بماء النيل، نُصبت حولها الأسواق المشتملة على البضائع المتنوعة، كما وُجِد فيها العديد من المقاهي المزينة، وحول البركة العديد من البساتين، والمقصورات على شاطئ النيل التي تقصد للتنزه، وشاهد كل منهما قرى عامرة في جانب البركة الغربي.[١]

ولا يختلف وصفها لدى البكري الذي حج في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، والورثيلاني الذي حج في بداية الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري عما سبق[٢]، إلا أن الموسوي الذي حج في بداية الربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري أشار إلى أنها لا تبعد عن القاهرة إلا بحوالي عشرة أميال[٣]، وهو ما يدل على أن عمرانها قد اتسع، وخدماتها زادت، بحيث إن المسافة بينها وبين القاهرة نقصت ميلين عما ذكره ابن رشيد في القرن السابع الهجري، أو ربما يكون العكس من امتداد عمران القاهرة شرقًا نحو بركة الحاج.

ثم يأتي الحجيج إلى المنزلة الثانية وهي الدار الحمراء التي أخذت اسمها من لون تربتها[٤]، وقد وصفها اليوسي بالخلاء الذي لا ماء فيه[٥]. في حين أشار البكري إلى وجود ماء ملح فيها، وأشار أيضًا إلى لفتة كريمة لأهل السويس الذين يقدمون إلى طريق الركب ويهدونهم الحطب.[٦]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٥ - ١٣٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٩.

(٢) البكري: رحلة البكري، ص٩/ أ - ٩/ ب؛ الحسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهور بالرحلة الورثيلانية، ص٢٨١، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، تصحيح محمد بن أبي شنب.

(٣) الموسوي: رحلة الشتاء والصيف، ص٦٧.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٢٣٧.

(٥) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٣/ ب؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٥.

(٦) البكري: رحلة البكري، ص١١/ ب.

وذكر الورثيلاني أن اعتماد الركب في توفير الماء في هذه المنزل يكون على ما يحملونه من بركة الحاج، إذ إن كمية الماء المحمول يجب أن تكون كافية حتى الوصول إلى عجرود وهي على مسافة عشرين كيلومترًا غربي السويس[١] والتي وُصِف ماؤها بالقبح، وكان مَنْ لم يستطع حمل الماء معه يمكنه شراؤه إذا كان لديه الأموال الكثيرة[٢]، وأكد النابلسي عدم الماء إلّا ما وُجد من ماء المطر.[٣]

وكان الحجاج في السابق ينزلون في السويس[٤]، ولا يمرون بعجرود. ثم تركوا ذلك إلّا في بعض السنين[٥]، فقد مرّ عليها الدرعي وقال: «إنها تقع بين جبال عالية»، ووصفها بالصِّغر، وأنها تحوي الأسواق، والمساجد، والوكالات التجارية المُشْرفة على البحر، وهي ميناء ترسو فيه السفن القادمة من الهند[٦] والحجاز.[٧]

ومرّ عليها الحضيكي أيضًا ولكنه أغفل وصفها[٨]، فالسويس كانت من ضمن محطات ركب الحجيج قبل عجرود، حيث أدرجها الجزيري ضمن منازل الركب ووصف ماءها بالقبح، ومنها ينتقل الركب إلى بندر النخيل.[٩]

وذكر الجزيري أن في عجرود خانًا جديدًا من بناء السلطان الغوري

---

(١) سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٠٦.

(٢) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣١٧.

(٣) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٩٧.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٢٤٨ - ١٢٤٩.

(٥) سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٠٧.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٠.

(٧) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٩٨.

(٨) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦.

(٩) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٢٤٨ - ١٢٤٩.

بعد خراب القديم، وفيها أيضًا ثلاث من السواقي، وبئر مالحة جدًا، ويقام فيها سوق، يُحضَر جزء من بضائعه من السويس، وأضاف أن بالقرب من عجرود حفائر ماء عذبة.[(١)]

وتوالى وصف الرحالة المغاربة لعجرود، والذي نلمح منه ما طرأ عليها من تطور وعمران، واختلاف في بعض الموصوفات مثل الماء وعدد القلاع، فالرحالة المغاربة ذكروها ضمن منازل الحاج المصري التي يعتمدون عليها في خزن مؤنهم إلى حين عودتهم، وشاهدوا فيها حصنين متقاربين، محكمي البناء، وفي أحدهما بئر ماء كبيرة يُرفع ماؤها بواسطة البقر ليصب في ثلاث برك خارجية، واحدة منها كبيرة. وأضاف العياشي أنّ فيها حوالي ثلاثين منزلًا. وعندما مر عليها الدرعي وجد فيها ماءً عذبًا سهل التناول[(٢)]. وأغلب الظن أنه نزل فيها عقب هطول المطر، لأنه ذكر أنه في أغلب الطريق كان يشرب من ماء المطر.[(٣)]

ولا يختلف قول الورثيلاني عنها عن بقية الرحالة المغاربة إلّا بقوله: «إن بها ماءً حلوًا كما بالدار الحمراء، ولكنه لا يوجد في كل الأوقات، ولا يكفي جميع الركب، بالإضافة إلى عدم علمهم بمواضعه إلا بعد أن يدلّهم عليها الأعراب».[(٤)]

وينفرد الموسوي والنابلسي بقولهما بوجود قلعة واحدة فيها، ويؤكدان

---

(١) المصدر السابق والجزء، ص١٣٢٠ - ١٣٢١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٦؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٣/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٥.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤.

(٤) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣١٧ - ٣١٨.

ملوحة مياهها.[١] ويبدو أن القلعتين كانتا متجاورتين بحيث إن مَنْ لم يدقق النظر بهما يظنهما قلعة واحدة.

ومن عجرود يفترق الطريق إلى فرعين أحدهما: يسمى طريق النابعة وكان يسلكه الحجاج أيام الحر لتوافر المياه العذبة والهواء الرطب فيه أكثر من الطريق الآخر الذي يسمى طريق المصانع أو النواظير.

وقد وصف العياشي والدرعي طريق النابعة بقولهما: «وادٍ كبير، ذو رمل، به أحساء كثيرة تزيد على المئة، وأينما حفرت مقدار قامة أو أقل وجدت ماء حلوًا باردًا في غاية الحلاوة كأنه ماء النيل».[٢]

وعلل الورثيلاني مروره على هذا الطريق بكثرة مياهه وعذوبتها[٣]. وأضاف النابلسي أن هذا الطريق بقرب البحر، وفيه سبعة آبار، وأن أهل السويس ينقلون الماء منه إلى السويس لعدم وجوده فيها.[٤]

أما الطريق الثاني طريق المصانع أو النواظير فهي سَوَارٍ مبنية في سبخة، لا يظهر منها أثر الطريق، فوضعت هذه الأعلام لتكون دليلًا عليه، وفي رؤوس هذه الأعلام حجر طويل يشير إلى الطريق الصحيح يستدلّ به السائر، وربما تعلق عليها المصابيح في الليل، وبين كلّ علم وآخر فرسخ أو أقل.[٥]

(١) الموسوي: رحلة الشتاء والصيف، ص٢٣؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٩٨.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٠. نقل الدرعي أغلب أوصاف الأماكن عن العياشي، لذلك جمعناها معًا وأفردنا المواضع التي أضاف فيها الدرعي جديدًا، ووضح ذلك في مكانه.

(٣) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٢٣٠.

(٤) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٩٨ - ٢٩٩.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٦.

مر على هذا الطريق العياشي والدرعي وأشارا إلى انهدام بعض الأعلام وبقاء أنقاضها، في حين لم يُشِرْ الزبادي إلى خرابها[١]، وذلك يدل على أن يد التعمير امتدت إليها.

ووصف البكري هذا الوادي قائلًا: «النواظير ورأس وادي المنصرف واد كثير الرمال والكثبان، وليس به ماء».[٢]

وأمدنا النابلسي بوصف أكثر تفصيلًا، فقال: إنه مرّ على فلاة واسعة، فيها أشكال أعمدة من الحجارة يُقدَّر عددها بأربعة وعشرين عمودًا، بين كل عمودين نحو الميل، وطول كل عمود نحو أربعة أذرع بنيت منذ أزمان لتكون دليلًا للحجاج لئلا يتوهوا عن الطريق الصحيح، وهذه النُّصُب بالقرب من أرض السويس.[٣]

ويواصل ركب الحجيج مسيره عبر بندر النخيل في أرض التيه، (صحراء سيناء) التي وصفها الجزيري بأنها «قاع فياح، لا ماء به ولا نبات».[٤]

لقد جاء وصف الرحالة المغاربة الذين سلكوا هذا الطريق متفقًا بأنه طريق قفر وموحش.. ذكر ذلك العياشي والدرعي بقولهما: «مقفرة، موحشة، طويلة، عريضة، معطشة، قد تعددت بها الطريق، وامتدت امتداد السطور في الطروس، لم يلحقها على قِدَم العهد الدروس، وهذا المحل من المحالّ التي تعظم فيها المشقة أيام الحرّ، وقد تتلف فيه النفس بالعطش كثيرًا».[٥]

---

(١) المصادر السابقة والصفحات نفسها.

(٢) البكري: رحلة البكري، ص١٢/ أ.

(٣) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٩٨.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٢٦.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٥.

وصعوبته في الشتاء تكمن في برده وندرة أشجاره، فقد ذكره الدرعي في الشتاء فقال عنه: «عراء لا حطب فيها، تتلف فيها النفوس من البرد.. بها بعض غدران ماء في أخاديد».(١)

وبعد أن قطع اليوسي شوطًا من هذه الصحراء وصفها بقوله: «ما في الدرب أقبح ولا أكثر رملًا وعطشًا وحرًا وغرًا».(٢)

وأشار العياشي والدرعي وأبو مدين والزبادي إلى وجود عقبة فيها شيء من الصعوبة سويت بالبناء، وأصبحت طريقًا يسير فيه الركب إلى أرض التيه التي وصفها الزبادي بقوله: «ما له في الوحشة من شبيه، كثرت فيه الطرق وامتدت، وتشابهت مسالكه»(٣). أما البكري فوصف أرض التيه بقوله: «واد واسع الأرجاء».(٤)

وكان الجزيري قد أمدنا بمعلومات تاريخية عن بندر النخيل فبيّن أنه كان فيه خان بناه السلطان الغوري، وجُدّد لصغره عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م، كما وجد فيه أربع برك عطلت إحداها، وهناك بئران، إحداهما عليها ساقية، والأخرى نصب عليها سُلَّم، بالإضافة إلى ما يقام فيها من سوق كبيرة، كما وجد فيها حفائر ماء عذبة إلا أن ماءها ثقيل.(٥)

والرحالة المغاربة منهم مَنْ وصف ماء البندر، ومنهم مَنْ وصف مبانيه، ومنهم مَنْ تطرّق إلى وصف سوقه وما حوى، ومنهم مَنْ جمع تلك الأوصاف

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٥.
(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ.
(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٤ - ١٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٧ - ٥٨.
(٤) البكري: رحلة البكري؛ ص١٢/ ب.
(٥) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٢٧ - ١٣٣٠.

كلها، فالعياشي والدرعي أشارا إلى وجود بئر وحيدة يتزاحم الناس عليها للسقيا، خاصة إذا استنزف الركب المصري جميع الماء الموجود في البرك الثلاث، وهذه البرك أكبر من الموجودة في عجرود كما قالا، وهو ما يؤدي إلى توارد الناس على البئر وتزاحمهم للسقي ولا يسقون إلا بعد تعب شديد، كما أشارا إلى وجود حصن كبير، وسوق ضخمة تضم معظم احتياجات الحجاج، ولفت انتباههما كثرة الفواكه مثل التفاح واللوز والزبيب الذي يُحضر من الشام بواسطة تجار غزة.[١]

واليوسي اكتفى بوصف مائها بالقبح[٢]. أما الحضيكي فأشار إلى وجود بئرين فيها، وصهاريج تملأ بالماء خُصِّصت للركب المصري، وماؤها حلو.[٣]

ووصف أبو مدين بندر النخيل في المدينة، وذكر أنّ فيه قلعة ذات أبراج، وسورًا في داخلها بئر ماء وحيدة غزيرة الماء، ولكنه لا يستساغ الشرب منه[٤]. وخالفه الزبادي في شأن ماء البئر فوصفه بالعذوبة والغزارة، بحيث إنه يكفي الذاهبين والواردين ولا تنزح أبدًا، وتستخدم البقر في رفع مائها إلى البرك الثلاث خارج القلعة، وقال: «إن هذه البرك أكبر من برك عجرود»، كما عدَّد أصناف الفواكه - زيادة على مَنْ سبقه من الرحالة المغاربة - كالموز والرمّان والسّفرجل.[٥]

أما البكري فقد أخذه العجب من كثرة الفواكه الشامية والماء المملوء

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٦ - ١٥٧.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ.

(٣) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٤ - ١٠٥.

(٥) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٧ - ٥٨.

بالبرك[١]. وذكر الموسوي وجود القلعة، والخان، وبئر ماء واحدة[٢]. وأشار النابلسي إلى وجود مسجد صغير، وأناس قليلين[٣]. ووصفها الورثيلاني بالبندر العظيم، ولا يختلف وصفها عنده عمّن سبقوه.[٤]

ونخلص مما سبق إلى اختلاف بعض الرحالة المغاربة في عذوبة ماء بندر النخيل، وربما يرجع ذلك إلى قلة الأمطار في بعض السنين، فتقلّ من ثَمَّ عذوبة الماء، وأما اختلافهم في عدد الآبار فربما يرجع إلى أنهم لم يروا إلا البئر المنصوب عليها الساقية لأنه عماد الركب، كما يتضح من أقوال الرحالة المغاربة أن يد التعمير امتدت إليها أحيانًا، ورفعت عنها أحيانًا أخرى.

وقبل الانتقال إلى المنزل التالي لا بد من الوقوف عند إشارة النابلسي لموضع ذَكَرَ أنه كان يُعْرف بنخل قبل بناء بندر النخيل الذي مرَّ عليه الرحالة المغاربة، ووصفه وذكر أنه مرّ على موضع سماه القريص، وأورده ضمن منازل الحج، وقد شاهد فيه قلعة قديمة البناء مهدمة، فيها بئر خراب، وبالقرب منه بركة كبيرة، والمجرى إليها مقطوع ومردوم، وشاهد أيضًا بئرًا أخرى عليها قبة صغيرة، وذكر أن هذا المنزل معلوم، ويسمى نخلًا، ولما بنيت القلعة التي في بندر النخيل سميت نخلًا، وأصبح هذا المكان يسمى القريص.[٥]

وما ذكره النابلسي يوضح ما عناه الجزيري سابقًا عندما تناول اسم بندر

---

(١) البكري: رحلة البكري، ١٢/ ب.

(٢) الموسوي: رحلة الشتاء والصيف، ص٢٠.

(٣) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٢، مع الأخذ في الحسبان أن مرور النابلسي في غير وقت الحج.

(٤) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٣٢.

(٥) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٤.

النخيل، وقال: «إنها كانت تسمى فيما مضى ببطن نخر أو نخل»[(١)]. وقد فاته أنه موضع آخر، وهو الذي تحدث عنه ابن رستة[(٢)] وابن خرداذبة[(٣)]. وأبو عبيد البكري الذي قال عنها: «بطن نخر، منهل من مناهل الحاج، وهي قرية ليس بها نخيل ولا شجر، يسكنها نفر من الناس، ويقال بطن نخل لسوافٍ تسفي على الناس، فيه تراب دقيق، كأنما نُخِلَ بمنخل»[(٤)].

وبمقارنة وصف الجغرافيين القدماء بطنَ نخل، بوصف الرحالة المغاربة يتضح أنهما موضعان وليس موضعًا واحدًا، وهو أمر لم يشر إليه أحدٌ من قبل.

وتستمر مسيرة الركب شرقًا إلى العقبة التي تشرف على بندر العقبة، والتي تسمى سطح العقبة، والمسافة بينهما وبين بندر النخيل مئة وسبعة عشر كيلومترًا[(٥)]، ويصف الجزيري هذه المسافة بقوله: «قاع أفيح»[(٦)]، ويؤكد ذلك القيسي بقوله: «أرض بسيطة متسعة النواحي»[(٧)]، وقد وصف اليوسي مشاعره وهو يجتازها قائلًا: «ما رأيت أفظع منها، ولا أقبح خوفًا وصعوبة»[(٨)].

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٢٧.

(٢) ذكرها بلفظ الحفر. انظر: أبو علي أحمد بن عمر بن رستة: الأعلاق النفيسة، ج٧، ص١٨٣، طبع مدينة ليدن، مطبع بريل، ١٨٩١م.

(٣) ذكرها بلفظ الحفر. انظر: أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص١٤٩، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.

(٤) أبوعبيد البكري: جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، ص١٠٢، تحقيق ودراسة د. عبدالله يوسف الغنيم، نشر ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٦٧م، د.م.

(٥) سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١١٢.

(٦) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٣٢.

(٧) القيسي: أنس الساري، ص٧١.

(٨) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ.

وأثناء اجتياز اليوسي والحضيكي لهذه المسافة شاهدا بئرًا سمَّياها بئر الصعاليك أو البارود، وقالا: «إن ماءه يتصف بالمرارة[١] قد حفر في أصل الوادي». ووصفاه بالكبر والعمق والبناء المتقن بالحجر، وبجانبه أثر بناء وبركتين، إلا أنّ المكان خالٍ من العمارة على الرغم من الاعتناء ببناء البئر التي كانت قبيحة الماء كما ذكر الرحالة المغاربة.[٢]

وأضاف البكري أن الشوك ينبت في الوادي، كما انتشر شجر الأثل[٣]. ولا يختلف وصف الورثيلاني عن غيره من الرحالة المغاربة.[٤]

ويظهر أن هذه البئر كانت تعرف فيما سبق بآبار العلائي التي كان حولها حوش وفسقية وقبتان[٥]، وعرفت فيما بعد في عهد الرحالة المغاربة باسم بئر القريص أو بئر أم عباس.[٦]

أما الطريق إلى سطح العقبة فيصفه الجزيري بقوله: «عقبة صغيرة محجرة صعودًا وهبوطًا، وقطعت وسُهِّلت في عهد السلطان الغوري».[٧]

واسترسل العياشي والدرعي في وصفها قائلَين: «عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، إلا أن الطريق بها منحوتة قد سُوّيت في أكثر الأماكن الصّعبة، وبنيت حافتها ببناء متقن.. ولما نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي

---

(١) المصدر السابق والصفحة؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٨.
(٣) البكري: رحلة البكري، ص١٤/ أ - ١٤/ ب.
(٤) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٣٢.
(٥) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٣١ - ١٣٣٢.
(٦) سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١١٢.
(٧) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٣١ - ١٣٣٢.

في شعاب كأنها أزقة، يكثر فيها المخاوف والمتالف، فيُرى البحر من بعيد فيُظنّ أنه قريب». وأضاف الدرعي واصفًا إحساسه عند الوصول إلى عقبة أيلة قائلًا: «وافينا عقبة أيلة، وخبرها قد روّع القلوب، وما من الركب إلا وهو من لباس الصبر مسلوب، فحصل هناك من الزحمة ما تقطعت له القلوب رحمة، وتصادمت المحاق وانكسرت».(١)

ونصح الزبادي مَنْ أراد الوصول إلى بندر العقبة بالحذر عند النزول، لأنها على حدّ قوله: «أول العقاب»، وأورد شعرًا يوضح فيه خطورة الطريق قائلًا:

بطريق أيلة أجبل وعِقاب
لا يرتجي فيها النجاة عُقابُ
فكأنما الماشي عليها مذنب
وكأنما تلك العقاب عَقابُ

ومر الزبادي على موضع أسماه بـ«عرقوب البغلة»، ووصفه بأنه صعب الصعود على الرغم من أنه قد بُني وسُوي جانباه، كما أشار إلى وجود مسجد صغير غير مسقوف.(٢)

ويتفق باقي الرحالة مع الزبادي في وصف هذه المنطقة.(٣)

ووصف كلٌّ واحد من الرحالة المغاربة ما استرعى انتباهه حال وصوله إلى العقبة فذكر القيسي والرافعي السوق الذي يقيمه فيها أهل غزة والشام،

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٩.
(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٨.
(٣) البكري: رحلة البكري، ص١٤/ ب - ١٥/ أ؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٩؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٥.

مستقبلين به الركب. وعدّد العياشي واليوسي والدرعي وأبو مدين والزبادي بعض الخيرات المجلوبة إلى هذه السوق مثل العنب، والتفاح، والدلاع، والبطيخ. وقد تعجب اليوسي من كبر حجم الفواكه كالزبيب الأحمر، فقال: «إنه ما رأى مثل هذه الفواكه التي لم يتغير شكلها وحجمها وطعمها، بالإضافة إلى ما يحضره الأعراب مغتنمين فرصة ورود الأعداد الغفيرة من الحجاج للاتجار معهم وبيعهم الإبل، والغنم، والسمن، والعسل، والعلف». ونبّه الرحالة المغاربة إلى أن الفول يباع فيها أرخص مما كاروا على حمله من مصر، كما ذكروا أنّ الحجّاج اعتادوا على خزن مؤنهم فيها إلى حين العودة.[١]

وتصدر الرحالة المغاربة لوصف العقبة التي لم تخرج عن قولهم: بندر عظيم على ساحل البحر[٢]. فيها قلعة حصينة متقنة البناء، وأن العقبة قرية حسنة مبنية في سفح جبل فيها الآبار الكثيرة والعذبة الغزيرة داخلها وخارجها، بالإضافة إلى سهولة الحصول على الماء بواسطة الحفر في الرمال الذي لا يلبث أن يتفجر بعده الماء عذبًا باردًا حتى في زمن الحر، كما لفت انتباههم كثرة النخيل فيها.[٣]

وأضاف الجزيري إلى ما سبق أن الذين قاموا بزراعة النخيل فيها هم الحويطات من بني عطية، وأن ما وُجد في سوقها يضاهي ما يوجد في أسواق

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٩ - ١٦٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٨ - ٦٠.

(٢) أخطأ الرافعي في قوله: إنها تقع على بحر السويس والصحيح خليج العقبة. انظر: الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٩ - ١٦٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٨ - ٦٠.

أمهات الأقاليم[١]، وهذه المنطقة من آمن المناطق وأفضلها استقرارًا، ويبدو أن هذا يرجع إلى طبيعة المنطقة وتشجيع من الدولة العثمانية التي ظهرت جهودها واضحة هنا.

واتفق البكري والنابلسي والورثيلاني في وصفها مع الرحالة المغاربة، وعجب النابلسي من انبعاث الماء العذب بجانب البحر الملح، وأضاف الورثيلاني أنه شاهد فيها سقايتين، واختلف عن باقي الرحالة المغاربة في حلاوة مائها، إذ ذكر أنه بين العذوبة وقلتها.[٢]

وكان قد مر عليها ابن رشيد في القرن السابع الهجري، وأشار إلى وجود نخيل وبئر ومصنع للماء.[٣]

ومن هنا نستنتج من أقوال الرحالة المغاربة وغيرهم من الرحالة المشارقة تطورها العمراني حتى أضحت مدينة يُعتّد بها، ونستنتج أيضًا أن أهل غزة والشام تخصصوا في التجارة مع الحجاج في تلك المدة، وتلك المناطق بمختلف البضائع، وبأسعار زهيدة كانت في متناول الجميع، وهذا يقودنا إلى نتيجة مهمة تتعلق بالناحية الاقتصادية في تلك المدة، وتواصل جميع الولايات العثمانية في كيان واحد، وعدم تدخل حكام الولايات في هذا الأمر.

ومن العقبة يأخذ الطريق في الاتجاه ناحية الجنوب على هيئة مسالك ضيقة بين البحر والجبال، ولا يتسع إلّا لمرور جمل إثر جمل، وشبَّهه العياشي والدرعي «بالصراط» إلا أنه غير مستقيم إلى أن يصل الركب إلى ظهر

---

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٣٧، ١٣٤٧، ١٣٤٩.

(٢) البكري: رحلة البكري، ص١٤/ ب - ١٥/ أ؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٥؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٦٧.

(٣) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٢٨١.

الحمار.[١]

ووصف البكري الطريق إليها بقوله: «محطة عالية كثيرة الأوعار، يصعد إليها من عقبتين في مسلكين، اليمين منه أوسع من اليسار».[٢]

وأكد الجزيري ذلك بقوله: «إنها أرض فضاء عالية، يصعد إليها في حدرات طويلة، وهي مرهقة للجمال، وهذا المنزل بالقرب من حقل»[٣]. وقد سمى العياشي والدرعي والزبادي هذا الموقع بحفائر النخل، ففي أسفل هذا الموقع على ساحل البحر وجد الكثير من النخل، وأحساء المياه العذبة، وعمارة سببها الأعراب المشتغلون بالزراعة هناك.[٤]

ووصف الموسوي ماء الموضع بالكدورة، وأكد وجود النخل الكثير[٥]. في حين خالفه الورثيلاني في صفة الماء إذ وصفه بالعذوبة، وأن آباره تتركز في وسط النخيل المزروع على شاطئ البحر.[٦]

ثم يواصل الركب مسيرته إلى أن يصل موضع عش الغراب[٧]. وهو جبل صغير يمر عليه الركب في وسط طريق بين الجبال، وقد وصفت الشرفة

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٢ - ١٦٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦١.

(٢) البكري: رحلة البكري، ص١٥/ ب.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٥٠.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٢ - ١٦٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦١.

(٥) الموسوي: رحلة الشتاء والصيف، ص١٩.

(٦) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٦٨.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦١ - ٦٢.

بأنها كالزلاقة المبنية المسطحة[1]. وربما يكون لفظ عش الغراب أخذ من شكل الجبل الذي يشبه عش الغراب في وسط الطريق.

وعندما كان يصل الركب إلى موقع أم العظام فإنهم يشترون من الأعراب اللبن وغيره[2]، وفي هذا الموقع أرجام كالشعاب على يمين الذاهب، يذكر أنه قبر الشفاف.[3]

وذكر الورثيلاني أن هذا الموقع يطلق عليه أم العظام أو شرفات بني عطية أو عش الغراب، وقد جاء على ذِكْر الشفاف ونسب حكايته للعبدري[4] إذ هو أقدم مَنْ أورد ذكره من الرحالة المغاربة.[5]

ووصف البكري الشرفات بأنه مكان تتعب فيه الجمال لوعورته[6]. أما النابلسي فذكر أن الشرفة تقع بين جبالٍ ووهاد، ولا ماء فيها، وذكر أنه مرّ على موضع يسمى الرجم[7]. وربما يكون هذا الموضع هو قبر الشفاف الذي تحدث عنه العبدري، ويعرف هذا المكان اليوم بقبور شفاف.[8]

ويواصل الحجيج مسيره عبر مغائر شعيب وهي منطقة اشتهرت بالمياه

---

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، صج٢، ص١٣٥٣.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦١ - ٦٢.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ والصحيح أنه السفاف. انظر: نواب: الرحلات المغربية، ص٣٢١ - ٣٢٢.

(٤) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٠٦.

(٥) العبدري: الرحلة المغربية، ص١٦٠؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٢١ - ٣٢٢.

(٦) البكري: رحلة البكري، ص١٦/ أ.

(٧) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٦.

(٨) حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص١٨٥.

العذبة الغزيرة، وبساتين النخيل، وعرائش العنب المنتشرة، فإلى جانب الآبار هناك الأحساء الكثيرة الموجودة في مضيق بين جبلين، بالإضافة إلى جداول الماء الرقراقة الجارية التي وصفها اليوسي بأنها «أحسن ماءٍ يُشرَب، جارٍ على وجه الأرض، ليس بالدرب أفضل منه». ووفرة المياه أدت إلى انتشار مساحات واسعة من النباتات وأشجار الدوم والطرفة الذي يخيل لمن يشاهده من بُعد أنه نخيل، وبالقرب منها على ساحل البحر قرية كبيرة لم يُسمِّها الرحالة المغاربة.[١]

وأمدنا الجزيري بالإضافة إلى ما سبق بما ينقصنا من الناحية التاريخية عنها، فقال: «إن النخل من مستحدثات بني عطية بها»، كما أشار إلى كثرة الحطب هناك، ووصف المغارة ذاكرًا أنها كبيرة الحجم يتجمع فيها الماء، وأنها كانت فيما مضى من أهم مواقع السقي للركب قبل أن ينبع الماء بهذه الوفرة في تلك الأرض[٢]. وحتى في القرن السابع الهجري كان هذا الموقع أحد مناهل الماء المهمة، وقد وصفها ابن رشيد بالسعة ووجود درج فيها، وأنه من فرط سعتها يتقابل فيها الصاعد والنازل، وشبّهها بالصّهريج المملوء بالماء.[٣]

ووصفها البكري بالغار المملوء بالماء العذب وحوله النخيل، وأشجار المقل، والأثل المنتشرة هناك.[٤]

وأدلى الورثيلاني بدلوه في ذكر مميزات المنطقة، وأشار إلى البساتين الكبيرة والمياه الجارية فيها، حيث قال إن: «الماء لا يجري بهذا الشكل إلّا هنا،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٥٦ - ١٣٥٧.

(٣) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٢٨٠.

(٤) البكري: رحلة البكري، ص١٦/ أ - ١٦/ ب.

وبعيون القصب»، كما نبه أيضًا إلى وجود المراعي الخصبة[١]. أما النابلسي فقال: إن مغائر شعيب تسمى اليوم[٢] البدع، وشبه جريان عيون الماء العذب على وجه الأرض في أماكن كثيرة بالنهر.[٣]

ونخلص مما أورده الرحالة المغاربة حول أوصافها أنها كانت مكتفية ذاتيًا من كثرة الزروع والمياه، بالإضافة إلى أمنها؛ إذ هي من المناطق الآمنة التي يمر عليها الركب، وهذا يقودنا إلى حقيقة لا نستطيع إغفالها وهي أن الأعراب إذا ما أُمِّنت أرزاقهم كفُّوا شرهم عن الركب، فلديهم المزروعات والتجارة والمراعي وصيد السمك، وخيرات أخرى كثيرة في المناطق التي تشتهر بذلك، إذ مع الرخاء يسود الأمن والاستقرار.

ثم تأتي منزلة عيون القصب التي قال عنها الجزيري: إنها تقع بالقرب من البحر، وإن الأعراب هناك تتاجر مع الركب بالدقيق والمأكولات التي يأتون بجزء منها من الطور، مثل التفاح، والبطيخ، والأغنام، واللبن والسمن، والعسل، بالإضافة إلى ما يزرع فيها من عنب وتمر، وقال: «إن ماء الوادي يأتي من خارجه، ويزرع بها النخل والقصب وشجر المقل»، ونبه على سرعة تعفُّن الماء، كما أشار إلى أن الماء انقطع فيها في السابق مدة من الزمن، فحُفر فيها بئر، ولكن سرعان ما عاد جريان الماء كالسابق.[٤]

ووصف الرحالة المغاربة الطريق إليها بأنه في سهل واسع من الأرض، وهو طريق محدث، فالجزيري ذكر أنّ الرّكب كان يسير في مضائق إلى أن يصل عيون القصب، وحدث في بعض السنين أن تمرد مسؤول الحماية عن الطريق،

---

(١) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٦٩.

(٢) المقصود وقت رحلته عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م.

(٣) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٦.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٦٢، ١٣٧٠ - ١٣٧١.

واختلف مع أمير الحج، ومنعه من المرور بوضع أشواكٍ وحطب كثيرٍ أوْقد به النار في طريقهم، وهو ما اضطر أمير الركب إلى العدول إلى طريق آخر خلف الطريق القديم، وهو الذي وصفه الرحالة المغاربة، أما محلّ نزول الرّكب فهو على ماء جارٍ، في مضيقٍ بين جبلين يكثر فيها النخل والقصب، وفي أعلى الوادي شاهدوا الكثير من النخيل وأرضًا صالحة للزراعة، وعند منزل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة، وعلى يسار الذاهب أرض مستوية شاسعة ذات مراعٍ كثيرة.[1]

وقيل: إنها أخذت هذه التسمية نسبة إلى القصب الذي ينبت فيها بكثرة، بالإضافة إلى كثرة عيون الماء الجارية التي شبهها النابلسي بالنهر[2]. وأشار البكري إلى أن نساء تلك المنطقة هن المتوليات لأمور البيع والشراء وامتدح جمال أعينهن[3]. ولم يختلف وصف الورثيلاني لها عن باقي الرحالة المغاربة.[4]

ومن عيون القصب يستمر الركب مسايرًا للبحر إلى أن يصل المويلح، والطريق إليها يسير بين جبال وكهوف، وحدرات متعددة، ومحاطب شجر، وذكر الجزيري أنها تسمى النبك، وأنها محطة بجانب البحر، فيها الصيادون ويجلب إلى مينائها الفول والدقيق والفواكه من الطور، ويأتي الأعراب بالعلف والحطب

(١) المصدر السابق والجزء، ص١٣٦٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٣.

(٢) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٦.

(٣) البكري: رحلة البكري، ص١٦/ ب - ١٧/ أ؛ إبداء زينة النساء أمام الأجانب غير جائز شرعًا، وهذا من الأمور التي جُهلت في تلك المدة لقلة العلم بتعاليم الدين الإسلامي.

(٤) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٠.

وغيره لبيعه للركب، وفيها بئران عذوبتهما قليلة، وقد حُفر فيها خمسة آبار عذبة شَرِبَ منها، وأشار إلى أن ماءَها لا يكفي الركب، وذكر قلعتها التي بنيت عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م وقال: «إنها كبيرة ومربعة الشكل، وبها أربعة أبراج وسبعة وأربعون مدفعًا، شحنت مؤن بنائها وآلاتها الدفاعية برًا وبحرًا من مصر».(١)

أكد الرحالة المغاربة قول الجزيري، وأضافوا إلى أقواله تفصيلات أخرى توضح وضعها المستقر، فمن ذلك قولهم: إنها ميناء على ساحل البحر ترسو فيه السفن، وذكروا عذوبة مياه آبارها الكثيرة، وأشاروا إلى كثرة بساتينها ونخيلها ومقاثيها، وأثبتوا وجود قلعتها الكبيرة الشامخة المحكمة البناء، وحامية عسكرية وأميرها، مهمتهم ذب الأخطار عن المويلح، وحماية مؤن الحجاج الفائضة عن حاجتهم إلى حين العودة، والتي منها الفول.

ويظهر أن المويلح في تلك المدة كانت مدينة تجارية مهمة، فقد عمل أهلها بالتجارة مع الحجاج يشاركهم فيها الأعراب، وكان يقام فيها سوق كبيرة أمام باب القلعة، تضم جميع احتياجات الركب، يأتي غالبها عن طريق البحر من مصر، بالإضافة إلى ما يُحضِره الأعراب الذين يتجمعون من حول المويلح، ومن مناطق بعيدة عنها لبيع السمن والعسل والضأن والبطيخ. ومجمل القول أن المويلح كانت مرسىً آمنًا، شاهد الرحالة المغاربة إياب السفن وذهابها منها.(٢)

ولم تختلف أقوال البكري والورثيلاني عن أقوال الرحالة المغاربة، وأكدا عظم منفعتها للحجاج، ويبدو أنها توسعت عمرانيًا في زمن رحلة الورثيلاني، إذ

---

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٧٧ - ١٣٧٨، ١٣٨٠، ١٣٨٢.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١ - ١٤٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٣.

أشار إلى كثرة منازلها.[١]

وكانت المويلح محط عنايةٍ واهتمام من حكومة مصر التابعة للدولة العثمانية، ومما يدلنا على ذلك أن النابلسي رافق جماعة من المعماريين إليها، محملين بأعداد ضخمة من خشب الجميز الثقيل، ومعهم أمراء من قلعة المويلح، ومندوب من قِبَل والي مصر، لعمارة آبارها وآبار آخرى تقع في طريق الحجاج، كما أشار إلى أنّ أهلها في عِزٍّ ومنعة بجوار قلعتها العامرة.[٢]

ونخلص مما سبق إلى أن المويلح ارتبطت ارتباطًا وثيقًا وقويًا بمصر، سياسيًا واقتصاديًا، إذ إن أقوال الرحالة عنها كانت تشير بما لا يدع مجالًا للشك إلى هذا الارتباط.

ثم تأتي منزلة دار أم السلطان، أو ما يسمى في بعض المصادر بدار السلطان، أو آبار السلطان، وذكر الجزيري سبب تسميتها بدار السلطان، وهو أن السلطان قايتباي قد نزل فيها، إذ كانت قبل نزوله غير معروفة. كما أشار الجزيري إلى وجود المحاطب الكثيرة فيها، وسبخة يعسر سلوكها لشدة لزوجتها من جراء ماء البحر والسيل.[٣]

وتعاقب مرور الرحالة المغاربة عليها، وأضاف كل واحد منهم ما فات على سابقه في وصفها، وبذلك أكملوا عقد وصفها مجتمعين، فالرافعي عدَّد آبارها الثلاثة الواقعة على قارعة الطريق، وذكر سعتها وامتلاءها بالماء العذب الغزير، وأشاد بعذوبتها كلٌّ من العياشي والدرعي، وأشارا كذلك إلى سخونته، وسرعة انفعاله بالهواء، وأضاف الدرعي أنّ هذه الآبار محدثة، إذ أخبره أحد

---

(١) البكري: رحلة البكري، ص١٧/ أ؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٢٩٦، ٣٠٨.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٨٣.

كبراء أعراب تلك الناحية أنّ الذي عمل على إنشائها هو الأمير إبراهيم الفكاري (كذا)[١] بعد أن رأى طيب الماء في هذه البقعة عند حجه، فأوصى أخاه إن هو مات أن يعمل على حفر آبار هنا، وقد نفَّذ أخوه وصيته، إذ توفي الأمير إبراهيم بعد حجه.[٢]

وزاد أبو مدين والزبادي على ما سبق «أنها سبخة»[٣]، ونقل الورثيلاني وصفها عن الدرعي[٤] حيث كان النقل عن الرحلات السابقة، وخاصة في الوصف الجغرافي والعمراني، هو ما درج عليه الرحالة المغاربة، وخصوصًا عند إحساسهم أن سابقيهم قد أوفوا الموقع حقه من الوصف وأنهم لن يضيفوا جديدًا، أو إذا لم يتسن لهم التدقيق فيه، أو من لم تسعفهم الذاكرة عند تسجيلهم لرحلتهم، فكانوا يبادرون إلى النقل عن سابقيهم للشيء الذي اشتركوا في رؤيته.[٥]

وقبل أن يصل ركب الحجيج إلى موقع الأزلم يعترض طريقه مضيق يُسمى شق العجوز، عدّه الجزيري من ضمن مناهل الدرب الحجازي، كما

---

(١) إبراهيم بك ابن ذي الفقار تولى إمارة الحج بعد وفاة أبيه الأمير ذي الفقار، وقد تولاها خمس سنوات من عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م إلى عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م. خاض ضد العرب الحجازيين في أواخر سنة ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م وقعة عظيمة، قتل منهم كثيرين، ونهب أرزاقهم ومواشيهم وخاض معركة أخرى عام ١١٠٣هـ/ ١٦٩١م مع العرب بالشرفة، وأوقع بهم كذلك. وقد اكتسب من جراء ذلك هيبة. انظر: عبدالرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج١، ص٤٣، بيروت، دار الجيل، د.ت؛ الرشيدي: حُسن الصفا والابتهاج، ص٢١١، هامش (١).

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٤.

(٤) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧١.

(٥) نواب: الرحلات المغربية، ص٧٧.

أشار إلى مَوْرِدَي ماء فيهما آبار عذبة داخل الوادي، يسمى الأول كفافة، والآخر سلمى[١]. فكفافة جبل سبق أن وصفه العبدري حيث أشار إلى أنه على يسار الطريق، وفيه نتوءات شبهها لقربها من بعضها بالأضراس، وأوضح أن أسفل الجبل مياهًا عذبة غزيرة صافية، متجمعة تحت الرمال، يُحفر لاستخراجها، وسمى هذا الموضع وادي سلمى.[٢]

كما أشار الرحالة المغاربة أيضًا إلى مضيق شق العجوز المفضي للأزلم، وشاهدوا بالقرب من شاطئ البحر أعرابًا تبيع العلف والغنم، وقطعوا بأن الكفافة وسلمى تقعان في منتصف الطريق من مصر إلى مكة المكرمة[٣]، وقد سبقهم إلى هذا الجزم ابن رشيد.[٤]

عدّ الجزيري الأزلم من جملة مناهل الدرب، وذكر أن قلعتها بُنيت في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وأعيد بناؤها في عهد السلطان الغوري عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، وعلل سبب هذه التسمية بخبث أرضها وسباختها، وكثرة أفاعيها، وملوحة مائها، وقلة نباتها، وقد عدّد فيها أربعة آبار مالحة الماء، نبتت على جدرانها أوراق السنا المُسهل، وكانت قلعتها في زمنه تعج بالعسكر.

فالأزلم في ذلك الوقت كانت من المناهل الكبرى المعدة لاستقبال الحجاج، كما كانت مكانًا مهمًا لخزن ودائعهم ومؤنهم استعدادًا لإقامة سوق كبيرة.[٥]

---

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٨٤ - ١٣٨٥.

(٢) العبدري: الرحلة المغربية، ص١٦١؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٢٣ - ٣٢٤.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٩.

(٤) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٢٧٩.

(٥) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٨٨ - ١٣٦٩.

ويبدو أن الأزلم لم تستمر في الانتعاش طويلًا، وأغلب الظنّ أن خرابها حدث بعد الربع الأول من القرن العاشر الهجري، أي بعد زمن الجزيري، حيث أجمع الرحالة المغاربة على خرابها بعد أن شاهدوا تهدّم منازلها، وتثلّم بعض سورها، فهي على حدّ تعبيرهم تقرب إلى الخلاء، كما أكّدوا مرارة مائها الذي وصفه اليوسي بقوله: «ماؤه همّ وغمّ، لا يساغ بوجه، فلا يستخدم إلا للغسل، ويتناوله فيما عدا ذلك الجمال والدواب، ومن اضطر إليه لشدة الظمأ».

وحدد الرافعي بجانب الأزلم بندرًا قديم البناء، تسكنه العرب، لهم به اعتناء. أما العياشي فقد ذكر أنّ في الأزلم ثلاثة آبار كبار مالحة، متقنة البناء، وعلى يسار البندر على بُعد من الآبار أحساء محفورة في الأرض ماؤها أفضل إلا أنه قليل، ولا يَعْرِفُ موضعه كثيرٌ من الناس.(١)

واتفق النابلسي والورثيلاني في وصفها، ووصف الطريق إليها مع الرحالة المغاربة، إلا أن النابلسي وصف شق العجوز بالعقبة الشاقة، كما أنه قد مرّ على ضبا، وذكر أن فيها آبارًا عذبة، ومنها سلك واديًا فيه أعشاب كثيرة، ومراعٍ غزيرة إلى أن نزل بالقرب من قلعة الأزلم.(٢)

ويتابع الركب سيره بين الجبال مارًا بالمضائق والعقبات إلى أن يخرج على وادي الأراك الذي أخذ اسمه مما وجد فيه من شجر الأراك الكثير الأخضر الناعم، ثم يعاود المسير بين المضائق والعقبات إلى أن يصل إلى إصطبل

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٩؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٤ – ٦٥.

(٢) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١٠ – ٣١١؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧١.

عنتر.(١)

ووصف الجزيري الإصطبل بأنه فضاء صغير بين جبال ووعر وحدرات ومضائق، وبالقرب منه حفائر ماء حلو، وفي وسط وادي الأراك جبل بُنِيَ عليه حصن.(٢)

واتفقت أوصاف الرحالة المغاربة لإصطبل عنتر على أنه يوجد فيه ثلاثة آبار متقنة البناء بحجر منحوت، وماؤها عذب إلا أنه قليلٌ سرعان ما ينفد، فيبقى آخر الركب بلا ماء، وعندما وصل الزبادي إليه نطق بأبيات شعرية مليئة بالتحذيرات لمن يمر عليه.(٣)

واتفق البكري والنابلسي والورثيلاني مع الرحالة المغاربة في وصفه، إلا أن النابلسي حدد آباره بخمسة، في حين أنَّ الورثيلاني حددها بثلاثة.(٤)

ويبدو أن إصطبل عنتر تارة يحوز على الاهتمام وتارة يُهَمل، ومما يدلنا على ذلك زيادة عدد آباره وتناقصها، والجدير بالذكر أن إصطبل عنتر ورد في كتاب الملامح الجغرافية باسم بركة عنتر، وأورد اسم منزل في درب الحاج الشامي باسم إصطبل عنتر أيضًا بعد هدية(٥). وهذا المنهل المتطابق في الاسم

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧ - ١٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية،ص ١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧ - ١٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٤ - ٦٥، ٦٧. انظر ما سبق ص .

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٩٦.

(٤) البكري: رحلة البكري: ص١٨/ ب؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١٢؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٢.

(٥) «هدية» منزل ذكره ابن بطوطة والبلوي، يقع آخر وادي العطاس، ماؤه أحساء، وصفاه بالمرارة، يستخرج بواسطة الحفر، وبعدها تبدو أعلام المدينة المنورة. ابن بطوطة: الرحلة، ص١١٣؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٧٩.

والمختلف في الموقع يبعد عن المدينة المنورة حوالي مئة وثلاثة عشر كيلومتر، ولا يظهر من سياق الحديث أنه يريد التفريق بين المنزلين.(١)

ونحن لا نستبعد إطلاق اسم واحد على موقعين مختلفين، الأمر الذي لم يشر إليه مؤلف الملامح الجغرافية.

وكان الرحالة المغاربة يمرون بعد رحيلهم من إصطبل عنتر على وادٍ لشجر الأراك الأخضر الناعم، ويستمر الطريق بين مضائق وجبال آخذًا في الصعود والهبوط إلى منزلة الوجه.(٢)

وبعد أن كان يأخذ الحجاج استراحتهم يتابعون المسير إلى الوجه الذي يتطلب الوصول إليه - كما ذكر الجزيري - السير في فضاء وأوعار وجبال، وأوضح أن الوجه هو الوادي، وفيه آبار عذبة حفرت في أول عهد الدولة العثمانية، وأما الرحبة ففيها البئر الملح، وتعذب مياه الوجه عقب السيل. وقد سمى الجزيري عين ماء في أعلى الوجه بالكُر، وأشار إلى وجود حامية عسكرية فيها.(٣)

ويقال: إن سبب التسمية بالوجه لاشتقاقها من المواجهة، والمراد مواجهة الركب عند عودته بالأخبار الآتية من مصر.(٤)

وتوالى مرور الرحالة المغاربة بالوجه، وكان كل منهم يضيف إلى وصفها شيئًا لم يسبق إليه من قبل حتى اكتمل لدينا الوصف، فالعياشي والدرعي ذكرا

---

(١) سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١١٠ - ١٣١، ١٣٤، ٢٠٩.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧ - ١٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٧.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٩٧، ١٣٩٩.

(٤) سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٣٤ - ١٣٥.

حصنًا منيعًا مبنيًا على طرف وادٍ كبير يأتي من بين جبلين، وقد اعتاد الركب النزول على جوانب الوادي المرتفعة خوفًا من السيول الآتية من أماكن بعيدة، وأشارا إلى وجود عدة آبار للماء بعضها أحسن من بعض، ونبها إلى أنّ التي فوق البندر أفضل، كما شاهدا داخل البندر بئرًا يُرفع ماؤها بواسطة البقر، لتصب بعد ذلك في ثلاث برك خارجه ملتصقة بسوره، إحداها وهي الوسطى الأكبر حجمًا من بناء الأمير رضوان في آخر أيامه، والأُخريان من بناء مملوكه غيطاس[1] عندما تولى بعده إمارة الحج، ونبّه العياشي إلى أنه في أعلى الوادي في موضع بين جبلين ماء عذب يسمى الزعفران، ولكنه قليل. وفي الوجه يخزن الحجاج مؤنهم إلى حين عودتهم، فالعياشي قال: «إنه قد يسبق الحجاج في العودة الملاقية فيرتفع سعر الفول والطعام لدرجة عجز الحجاج عن الشراء». كما أكد العياشي والدرعي وجود حامية وأمير فيها.[2]

ولا يختلف وصف الوجه عند الرحالة المغاربة المتأخرين عما سبق وصفه، إلا ما ذكره اليوسي والغنامي من أمر يُظهِر مدى سيطرة الجند المصري على أماكن الماء واحتكارها لأمير ركبهم، حيث ذكرا أن البئر الموجود في الوجه يحرسه عسكر من الترك، يمنعون عنه الأركاب الأخرى بحجة أنه للركب المصري وأميره، ولا يستطيع أحد الاقتراب منه ولو بذل جهده.[3]

---

(١) غيطاس بك أحد مماليك الأمير رضوان بك الفقاري، تولى سنجقية جدة، ووقعت مصادمة بينه وبين الشريف زيد بن محسن عام ١٠٦٠هـ/ ١٧٤٧م وهزم بها، ثم تولى إمارة الحج في السنة التالية. انظر: الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٥٦ - ١٥٧. وكما نرى تغفل كتب التاريخ بعض الأمور التي لا بد من استكمالها من كتب الرحلات المغربية، الأمر الذي يوضح مدى أهميتها في استكمال سلسلة تاريخ الحجاز في أدق أموره كبيرها وصغيرها.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٢؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٩.

(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٧.

وقد تغيّر حال الوجه زمن رحلة الزبادي، ولم يعد مكانًا مأمونًا يَعْتَمِدُ عليه الحجاج في خزن مؤنهم، وإنما كان جلّ اعتمادهم على العقبة والمويلح وينبع، وحتى الماء أصبحوا لا يردونه فيها إلا عند الحاجة الشديدة.(١)

ومن الوجه يواصل الحجاج طريقهم إلى أكرا(٢) التي وصفها الجزيري بالفضاء الواسع، والأرض المدورة، وأشار إلى وجود مرعى فيها، وأن ماءها حفائر مالحة جدًا، ومنها دون ذلك، وتقل ملوحتها عقب السيل. وقد نبه أيضًا إلى أن أرضها سبخة رديئة مع كثرة الأفاعي السامة فيها.(٣)

أما الطريق إليها فيصفه العياشي والدرعي بالطول، وهبوب رياح السموم فيه فيشتد تبعًا لذلك الحرّ والعطش.(٤)

ولا تختلف أقوال الرحالة المغاربة المتأخرين عن سابقيهم، إلا ما أضافه الزبادي: «أن المسافة إليها أصبحت تعرف بالعشارية لأنها عشر مراحل لا إقامة فيها».(٥)

واتفق العياشي في وصف أكرا مع الجزيري مع تنبُّهه لكثرة آبارها، وأشجارها الرعوية الممتدة إلى بين الدركين(٦). وكذلك ذمّ اليوسي أكرا وماءها وقال: «إنه كريه كاسمها»، ورحل منها في طريق لم يَرَ فيه الماء إلى أن وصل بين

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٧.

(٢) يطلق على الموقع الآن اسم بئر القصير. انظر: سيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٣٧.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٠٠ - ١٤٠١.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤؛ الدرعي: الرحلة الحجازية، ج١، ص١٧٠ - ١٧١.

(٥) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٧.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤.

الدركين.[١]

واتفق الدرعي مع سابقيه، وأكد كثرة آبارها التي كان جلّ مائها وقت رحلته جيدًا لقرب مرور السيل عليها، وعندما وصل بين الدركين شاهد أعرابًا تبيع ماءً للركب[٢]. وأكد الغنامي والحضيكي أن موقع ما بين الدركين خلاء ولا ماء فيه[٣]. وأغلب الظن أن هذا الموقع هو ما يسمى الآن بالحنك، فوصفه مطابق لما ذكره الجزيري من أنه فضاء واسع كبير، فيه مرعى وآثار عمارة، وبئر ليس فيها ماء، وأضاف أن وادي حزبان فضاء في طريق محاطب وشجر وعقبة سوداء الحجر وعرة تدعى الحريرة، وفي هذا المكان بالضبط تحضر ملاقية أمير ينبع بخيولهم ورجالهم لاستقبال الركب وحراسته.[٤]

وقد وافق أبو مدين غيره من الرحالة المغاربة في مشقة الطريق إليها، وهبوب رياح السموم فيها، ولكنه نفى مصادفته لتلك الرياح، معللًا ذلك بأن رحلته كانت زمن الشتاء.[٥]

ونجد الزبادي يصف إحساس القادم إليها بقوله: «أرض أكرا لا ترتاح إليها النفوس، ولا ينفكّ طارقها من العبوس». وأكد أيضًا قول مَنْ سبقه من الرحالة المغاربة في وصفها.[٦]

وتتطابق أقوال البكري والنابلسي والورثيلاني عنها مع ما ذكره الرحالة المغاربة، إلا أن النابلسي ذكر أنه شاهد أعرابًا على ساحل البحر في أكرا تحفر

---

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٠ - ١٧١.

(٣) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٠٢ - ١٤٠٣.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٤.

(٦) الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٧.

بجانب البحر فيخرج لهم ماء عذب، شرب منه، وقد شبهه بماء الحوراء. واستثنى الورثيلاني منها بعض الآبار العذبة المحفورة من جهة الشرق، وحدد بئرًا عذبة بين أشجار وسط الوادي. وقد أيد استثناءه بقوله: «إن أفرادًا من الركب وجدوا بئرًا عذبة»، ومع هذا أبدى تعجبه؛ فأكرا على حدّ قوله: «من أصعب منازل الدرب لمرارة مائها، وكثرة حرّها، وسخونة رياحها»، وقد نصح بترك هذا المنزل، وعدم تناول مائه؛ لأنه من أخبث ما في الدّرب[1]. فاجتماع العوامل السابقة على الحجاج أدى إلى هلاك كثير منهم بالعطش على مر السنين.

وتكثر في هذا الموقع أشجار الطلح والكلأ الذي ترعاه الإبل، إلا أن الموقع خالٍ من الماء.[2]

ثم يصل الركب إلى منطقة الحوراء التي كانت تغصُّ بقوارب صيادي السمك، بالإضافة إلى أنها محطة مهمة للمراكب المتجهة إلى موانئ الحجاز الأخرى وموانئ مصر، فمنها يتزودون بالماء على الرغم من أن الجزيري ذكر أن ماءها حفائر مالحة تُسهل البطن، ولكنه قال: إنه يصبح عذبًا إذا سال واديها، ونبّه إلى أنها من قرى الحجاز المشهورة ببيع العجوة، وأن فيها شجر الأراك والحيوان المعروف باسم الظربان، وفيها معدن البرام، كما أشار إلى وجود حفيرة ماء عذبة تسمى الركزة بالقرب من الحوراء.[3]

لقد تفاوت الرحالة المغاربة في وصف الطريق إلى الحوراء، وأوصافهم في مجملها تعطي صورة واضحة عن معالم هذا الدرب، فالطريق إليها يمرّ على العقبة السوداء، والمسافة هذه كالتي قبلها يشتدّ فيها الحرّ، حيث إنها أرض

---

(١) البكري: رحلة البكري، ص٢٠/ أ؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١٣ - ٣١٤؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٢.

(٢) البكري: رحلة البكري، ص٢١/ أ؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٢.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٠٤ - ١٤٠٥.

سهلة تشاهد الجبال على اليسار والبحر عن اليمين، وتنتشر فيها أشجار الطلح، فهي أرض رعوية، إلى أن يصلوا العقبة السوداء التي وُصفت بالصّغر، في أرض وُصفت بأنها حرة سوداء ذات أشجار وأحجار، ويجتازونها بسيرهم بمحاذاة البحر إلى أن ينزلوا الحوراء.(١)

لم يسهب الجزيري في وصف الحوراء، أما الرحالة المغاربة فقد فصّلوا في ذلك كذكرهم ما وُجِدَ فيها من أشجار على ساحل البحر، وأن ماءها حفائر على الساحل، وفيه ملوحة قليلة، وما حُفر حديثًا أجود، وتقل ملوحته عقب السيل. وقد نصحوا بعدم الإكثار منه لما يسببه من إسهال، فهو لا يُشرب منه إلا للضرورة. وأرجع اليوسي السبب الذي يؤدي بمُتناوِل مائها إلى الإسهال إلى نوع من الحشائش نبتت هناك وامتدت جذروها ممتزجة به، فتأثر الماء بمادتها. وذكر الرافعي أنهم كانوا يحفرون في محل الرّمل، فينبع منه ماء متنوع، منه العذب والمالح والحامض، وأشار إلى وجود قبة في أعلى المحلّ ذات أربعة أبواب متواليات لم يُعْرف أصلها.(٢)

واتفق بعض الرحالة من غير المغاربة مع الرحالة المغاربة في صفة الطريق المسلوك إليها واتفقوا في صفة الماء، إلا أن البكري خالفهم في ذلك ووصفه بالعذوبة، وأضاف النابلسي مشاهدته لشجر القصب فيها.(٣)

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٠ - ١٧١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٨، ٧٣.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤ - ١٤٥؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٠؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ - ٨٥/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٨، ٧٣.

(٣) البكري: رحلة البكري، ص٢١/ ب؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١٥؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٣.

ويمكننا القول: إن وصف البكري لعذوبة ماء الحوراء ناتج عن أن رحلته كانت عقب هطول الأمطار وسيلان الأودية، فالرحالة المغاربة وقبلهم الجزيري أشاروا إلى أن عذوبة ماء الدرب متوقفة على ذلك.

وبعد مسافة قصيرة يصل الحجاج إلى وادي العقيق، أو ما يسمى أحيانًا بالنبط، وذكر الجزيري أن العقيق من مضائق الحجاز المشهورة، ففيه ينبت نوع من الشجر سماه البيلسان[١] البري الذي أخذ منه ومن مدرج عثمان في أوعية من الطين وحُمل إلى مصر لزراعته هناك. وقد سمى الجزيري النبط بالمغيرة أيضًا، وقال عنها: «من المناهل المشهورة، بها ثلاثة آبار عذبة، جُدّدت بعد عطلها عام ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م، وحُملت مستلزمات عمارتها من أحجار ونَوْرة من ينبع». وأشار إلى نمو نوع من الأعشاب يسمى النجيل عقب سقوط الأمطار، وذكر أن في النبط سوقًا يباع فيها الشواء والعجوة، والبطيخ، والفجل المجلوب من ينبع. وقال: «إن الطريق بعدها يمرّ بوادي النار، وهو طريق بين جبال وبطاح ورمل

(١) «شجرة البيلسان» أو البلسم تشبه شجر الآس، كانت السلعة التي تباع بوزنها ذهبًا لملوك الفرنج، إذ إن التنصير لديهم لا يتم إلا بوضع شيء من دهنه في ماء المعمودية. وكان يزرع في المطرية، وانقطعت زِراعته في أوائل عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م فأحضر من بعض أماكن الحجاز وهو في طينه، فأُعيدت زراعته في المطرية فأنتج. ويقال: إن شجره لا يوجد في أي مكان آخر، وإذا زُرع فإنه لا يكون بجودة ما يزرع بالمطرية، وإذا نجح فإنه لا يُنْبت الدهن. وطريقة استخلاص دهنه أنه إذا كبر وحان قطافه تجذع أغصانه، ويربطون على المكان المقطوع زجاجة تمتلئ بمادة صمغية تتسرب من الأغصان، وعندما تُفرَغ تلك المواد في الأواني الزجاجية تيبس الشجرة، وتُحمل أعوادُها لتباع في المدينة، وهي أعواد سميكة يخرج منها طعام يشبه اللوز. وكانت المزرعة التي تنتج شجر البيلسان ملك السلطان وحده. انظر: أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المرزوي: سفرنامه رحلة ناصر خسرو القبادياني، ص١٠٣ - ١٠٤ عمادة شؤون المكتبات، الرياض، جامعة الملك سعود، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٤٩؛ د. نعيم فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها، ص٢٠٦ - ٢١٢.

مغبرّ وعر».[١]

ومرّ العياشي على وادي العقيق، ومن ثم النبط فذكر أن هناك أربعة آبار محكمة البناء بالحجر، ماؤها عذب غزير بارد، وأكد أن غزارة ماء الدرب الحجازي وعذوبته سببها كثرة الأمطار فلو أمطرت السماء مرة واحدة في السنة لوُجد الماء.[٢]

وما ذكره العياشي أكده بقية الرحالة المغاربة، إلا أن الرافعي لم يذكر في النبط إلا ثلاثة آبار فقط، وأشار أيضًا إلى وجود قبّة هناك مثل الموجودة في الحوراء، أما الغنامي فذكر أنّ الماء يقلّ هناك في بعض الأحيان. ونبَّه الزبادي إلى كثرة وجود معدن البرام والبرمة.[٣]

وأطنب أبو مدين في وصف معاناته في هذه المسافة، فقال: إنه مر على العقبة السوداء ومنها إلى النبط، وإن هذه المسافة كانوا يقاسون فيها الأمرَّيْن، ولا يصلون إلى النبط إلا بعد تعب ومشقة وعطش؛ إذ يسيرون في أرض وعرة بعدها يمرّون بين جبال عالية تعصف بها الرياح - وسواء كانت حارة في الصيف أم باردة في الشتاء فضررها عظيم - إلى الوصول إلى الخضيراء[٤]، وهناك يكون الاستعداد لقطع الوعرات السبع المؤدية إلى ينبع.[٥]

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٠٦ - ١٤١٠.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥.
(٣) القيسي: أنس الساري، ص٧٢؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٠ - ١٢١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١ - ١٧٢؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٥.
(٤) «الخضيراء» من أعمال ينبع وعلى مرحلة منها شمالها. الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤١١؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٣، ص١٣٥.
(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٤.

ولا يختلف ما ذكره البكري والورثيلاني عما سبق إلا أن البكري لم يشر إلى وجود آبار في النبط، وأشار إلى أن ماءها حفائر عذبة.(١)

وذكر الجزيري طريقة الانتقال من العقيق إلى الخضيراء وهي بأنها تكون بعد قطع ثلاث وعرات إذ إن عدد الوعرات في هذه المنطقة سبع كبار، تتبعها سبع صغار، وقد سميت هذه المنطقة بالسبع وعرات، وبالمحاطب؛ لكثرة الشجر فيها، وقيل لأن أهل ينبع كانوا يجمعون حطبهم منها، ومن هذه الوعرات ثلاثة كبار ومضائق وحجارة كبار وحدرات.(٢)

ووصف العياشي والدرعي الطريق إلى الخضيراء مع وصف حالة الجو فذكرا: أنه إذا اشتد الحر بالنهار حَجَبت الجبالُ عن الوادي هواء البحر، فينعكس غربيًا أو شرقيًا، صاعدًا من الوادي أو هابطًا، فيصبح سمومًا محرقًا، بالإضافة إلى عدم الماء في هذه المسافة من النبط إلى ينبع، وربما يموت الناس هناك إما عطشًا أو حرًا، ثم يقطعون باقي الوعرات السبع، فيتغير عندئذ مسار الهواء، فيصبح بحريًا بعدما يخرجون إلى متّسع من الأرض حتى ينبع.(٣)

واتفق الرحالة المغاربة في وصف منطقة وادي النار، وتكلم كلّ منهم عمّا عاناه، فالرافعي عندما مرّ على وادي النار وصفه بالصعوبة لمشقة السير فيه. وعندما عَبَرَه اليوسي قال: «فيه ريح كالنار» ووصف ماء الخضيراء بأنه كماء البحر. وكذلك الحضيكي. أما الزبادي فذكر أنَّ الطريق بعد الخضيراء يصبّ في مرتفعات ومنخفضات، وسماها بالسبع الوعرات أيضًا، وقال: «هي عور معترضة في الطريق، يضطرون للصعود إلى أعلاها، ومن ثمَّ الانحدار منها، ثم

(١) البكري: رحلة البكري، ص٢١/ ب؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٣.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤١١.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١ - ١٧٢.

يتابعون سيرهم في أرض مستوية»، إلى أن يتم اجتياز جميع الوعرات السبع، وذكر أن أصعبها الأولى والأخيرة، وأضاف معللًا تسميتها بوادي النار أنها مفازة كبيرة كثيرة الحرّ والرمال والأوعار يعدم فيها الماء، إضافة إلى كثرة أخطارها، بعدها يخرجون إلى أرض فضاء واسعة ممتدة إلى ينبع.[١]

ومن الخضيراء يستمر الركب في طريقه إلى ينبع، وقد وصف الجزيري الينبعين (ينبع النخل - ينبع البحر) وصفًا مطولًا، فقال عن ينبع النخل: «بها عيون ماء جارية، منها عين خارجها جهة الشرق تمرّ خلال المدينة، وهناك عيون أخرى في غربها تمدها أيضًا بالماء، فازدهرت زراعتها، وكثرت بساتينها من النخيل، والخضروات كالملوخية والباذنجان والفجل، إضافة إلى الحمضيات كالليمون، كما يوجد بها شجر اللبان، ويكثر بها الغنم، وتبعًا له السمن، وعسل النحل الذي يبدو أن هناك من يقوم على تربيته، وكذلك الدجاج، والقليل من الإوز»[٢]. ومجمل القول أن ينبع نعمت بكثير من الخيرات سواء منها الموجود فيها أم المجلوب إليها مع الحجاج، أو ما يأتيها من مكة المكرمة، وأشار الجزيري إلى أنّ فيها سوقين أحدهما: دائم يقع في داخلها، ويحوي بعض دكاكين للصناعة، وتجار القماش وما يحتاج إليه أهلها، وأهل القرى الواردون عليها والمسافرون، ويزداد عمران هذا السوق أيام الموسم، أما السوق الآخر فهو موسمي يقام خارجه يباع فيه جميع المأكولات، والدقيق، والفول، والبضائع المختلفة، والعلف. وكان أهل ينبع هم القائمين على عملية البيع والشراء في هذا السوق، بالإضافة إلى اشتراك أمير الحج بالبيع معهم بما فاض من أزواده،

---

(١) البكري: رحلة البكري، ص٢٢/ أ؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٢/ ب - ٨٦/ أ؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٣ - ٧٤؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٣ - ٣٧٤.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤١٥.

وبعمله هذا يعمّ الرخاء وتتنوع السلع، وتكثر وترخص الأسعار لوفرة ما يطرح في سوقها، أما إذا منع أمير الحاج أهل ينبع من البيع - وهو الأمر الذي كان غالبًا ما يحدث حتى يبيع جميع ما لديه - فتغلو بذلك الأسعار[١]. وعمل أمير الحاج هذا المراد منه الكسب السريع له دون النظر إلى ما يعود بالرفق على الحجاج.

وبما أن ينبع من المناهل الكبيرة والمهمة في درب الحجاز فإنه يترك الحجاج فيها ما فاض من مؤنهم إلى حين عودتهم، ومن ضمن الخدمات المتاحة فيها الخانات والأفران والبيوت التي أشار الجزيري إلى خراب كثير من عمارتها واندثارها حتى تعسر الاستدلال على معالمها أو أصلها. وأضاف أن هناك آثار باب خرب ذُكر له أنه كان يسمى فيما مضى بباب المشانيق، وفي مقابل الخراب شاهد دارًا جميلة لم يَرَ أحسن منها، تعود ملكيتها لأحد أشرافها بُنيت عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م، مبيضة بالنورة من داخلها وخارجها.

وأمدنا الجزيري أيضًا بأوصاف عن ينبع البحر فقال: إنها تقع على ساحل البحر غربي ينبع النخل، وفيها خان وقلعة عامرة بالجند، وجماعة تتبع شريف ينبع من حاكم وكاتب، مهمتهما أخذ رسوم على المراكب الكثيرة المارة بها، فقد اعتاد أميرها على أخذ تلك الرسوم لكي يستعين بها على تسيير أمور إمارته الاقتصادية، كما أشار إلى وجود جامعين فيها، ولكنهما معطلان عن الخطبة، وأن غالب أهلها على المذهب الزيدي لأن بني قتادة كانوا يعتنقونه.[٢]

وعندما نزلها العياشي قال: «إنها تشمل على قرى كثيرة، ومزارع نخيل عديدة، وعيون ماء جارية، وأن عمران وادي ينبع متصل لثلاثة أيام، أما القرية التي ينزلها الركب فهي آخر القرى التي من ناحية البحر، وبعدها ينبع البحر

---

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤١٦ - ١٤١٧.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤١٥ - ١٤١٩.

الميناء». ويظهر من كلام العياشي عن ينبع النخل أنها كانت عماد اقتصاد باقي القرى المحيطة، إذ أشار إلى أن معظم أهالي القرى يأتون إليها للتسوّق معهم، إذ يقام سوق كبير يشتمل على ما يحتاج إليه الحجاج، حيث يجلب إلى سوقها البضائع والسلع الثمينة، إضافة إلى كثير من أنواع الثمار والفواكه والحبوب والفول، إلى جانب الرطب، كما أن الحجاج يخزنون فيها مؤنهم إلى حين العودة. وأضاف إلى ذلك وَصْفَه لجبل رضوى فقال عنه: «إنه المشرف على ينبع، وهو أكبر جبال تلك المنطقة». كما أشار إلى مسجدها الجامع المسمى بمسجد العشيرة، وهو الذي صلى فيه الرسول ﷺ.[1]

ولا تخرج أوصاف باقي الرحالة المغاربة عما ذكره العياشي، ولكن أخطأ الرافعي واليوسي حين سمَّيا عينًا فيها بعين الأزرق الموجودة في المدينة المنورة، كما يحذر اليوسي من أكل ثمرها، وينصح بعدم الإكثار منه لما يسببه من ألم.[2]

وعندما نزل فيها البكري ذكر كثرة حدائقها وزروعها، وسوقها الكبير، وما أعد لخدمة الحجاج من الأفران والمقاهي والحيشان، وقال: إن فيها جامعًا واسعًا وبيوتًا فسيحة آل أمرها إلى الخراب.[3]

أما النابلسي فإنه نزل ينبع البحر، ورأى قلعتها المقامة على الشاطئ، وأشار إلى أمر مهم لم يذكره أحد من الرحالة قبله، وهو افتقارها للماء العذب، فقد تعوّد أهلها جلب الماء صباحًا من ينبع النخل. وقد تجول النابلسي وتنقل بين قرى ينبع ومنها بطبيعة الحال ينبع النخل، وأكد وفرة المياه العذبة الجارية

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥ - ١٤٦.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٦/ أ - ٨٧/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٢ - ١٧٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٦ - ٧٧.

(٣) البكري: رحلة البكري، ص٢٢/ ب.

التي وصفها بالنهر الكبير المتشعب المنصوبة عليه السواقي، بالإضافة إلى كثرة بساتين النخيل والموز والفواكه.[١]

وذكر الجزيري أن طريق الركب يمر بعد ينبع على الدهناء، وهي سبخة كانت قرية عامرة بالبيوت والمساجد والحدائق والأشجار، وعيون الماء الجارية، فسعى أهلها بالفساد واتحدوا مع ابن سبع، فخربت ديارهم بعد الحملة التي أعدها السلطان الغوري فقضت على حركة ابن سبع.

ثم يمر الرّكب على أرض فضاء، يَصِلُون بعدها إلى مضيق رمل، ثم يمرون بين جبلين أسماها الجزيري الأبرقين، الشرقي منهما رمل، والغربي رمل مختلط بالحجارة، وهما مشرفان على جسر طويل، ويبدو مسجد الغمامة موضع العريش الذي أقيم للنبي ﷺ ببدر يوم بدر، أما محلّ نزول الركب فيقع بين نخل ومنازل بجانب عين جارية، وفسقية كبيرة عليها قبة مستحدثة من بناء السلطان الغوري عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، واستمرت الدولة العثمانية تصرف على ملئها وصيانتها، كما بنى هناك الشريف أبو نمي مسجدًا عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م، وأكد الجزيري أن بدرًا من المناهل الحجازية المهمة، وحُنينًا أمامها، ووضّح أنها ليست حنينًا الواردة في القرآن الكريم، وإنما هي عين ماء بهذا الاسم.[٢]

وما أورده العياشي لا يختلف عن الجزيري كثيرًا إذ ذكر أنهم بعد رحيلهم من ينبع كانوا يسيرون في طريق رملي قليل الأشجار إلى أن ينزلوا موضعًا سماه السقائف أو دار الوقدة، ثم يمرون بين جبلين كبيرين، أحدهما عن اليسار من رمل مشرف على بدر، والآخر عن اليمين، وفي آخر المضيق الذي بين الرمل

---

(١) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١٦، ٣١٩، ٣٢٨.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٢٣ - ١٤٢٦؛ انظر مناقشة موضوع العين بإفاضة في نواب: الرحلات المغربية، ص٢٢١، وحنين الواردة في القرآن الكريم هي غزوة حنين.

والجبل عريش، يزعمون أنه موضع العريش الذي بُني للنبي ﷺ يوم بدر، وقد نفى صحة ذلك، ومنه يفضون إلى بدر التي وصفها بالحُسن بعد أن تجول بأزقتها وشاهد بساتينها ونخيلها، وعيون مائها، وأكّد وجود بركة ماء كبيرة تكفي لسقيا الأركاب كلها، وتملأ من عين هناك، كما تعجّب من رخص أسعارها على الرغم من أنها بلدة صغيرة منقطعة عن المدن الأخرى، وحدّد موضع نزول الركب خارجها بالقرب من قبور شهداء بدر التي بني حولها جدار قصير، كما شاهد مسجد الغمامة وأهمل وصفه، وقال: إن الناس يخزنون في بدر ما يحتاجون إليه من طعام وعلف إلى حين عودتهم.(١)

ولفت نظر القيسي عمارتها الكثيرة، والأخصاص المعدة للرعاة، وقال: «إن مسجد الغمامة هناك تقام به الجمعة»، أما أبو مدين فإنه شاهد حوشًا محاطًا بالأحجار وبجانبه أثر نيران توقد، أما بقية الرحالة المغاربة فقد ذكروه كما ذكره العياشي.(٢)

أما البكري والورثيلاني فقد أكّدا الأوصاف السابقة، إلا أن الورثيلاني وصفها بالقرية العظيمة وروضة من الرياض، سُكانها من الأشراف(٣). فبدر مكان للنزول والراحة والتزود بالماء وخزن المؤن.(٤)

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٧ - ١٤٨.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٧/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٦، ١٧٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧ - ٣٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٦؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٧ - ٧٨.

(٣) البكري: رحلة البكري، ص٢٣/ ب؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٤ - ٣٧٦.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص٨٩ - ٩٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٥.

ومر ركب العياشي على سبيل ماء في مكان سماه البزواء، وهي عبارة عن صحراء واسعة، خلاء لا ماء فيها، وهي بذلك ليست محلًا للنزول، وإنما كانت موضعًا للعبور[١]، وينسب هذا السبيل للشريف زيد، وهناك سبيل آخر يمرّ عليه الركبُ ينسب للشريف محسن بن زيد.[٢]

وأهمل بعض الرحالة المغاربة وصف البزواء، ومنهم مَنْ ذكرها كالدرعي الذي تطابق وصفه لها مع العياشي، فقال: «قاع لا يظفر غائصه بقاع، ولا يرى المسافرون نظيرًا له في البقاع، ولا يرى من الناس إلا مطرق مطرب.. فهو حقّ قاع صفصف.. لا ترى فيه عوجًا ولا أَمْتًا، ولا تجد فيه إلا السماء سمتًا».[٣]

وهذا يطابق ما وصف به الرحالة السابقون البزواء، فقد حذر ابن جبير والعبدري وابن بطوطة من سلوكها، فهي مجهولة المسالك، معدومة المعالم[٤]. وكأن يد النسيان والإهمال تعاهدتا على عدم الاهتمام بها، فلم توضع علامات تشير إلى الطريق الصحيح، ولا ندري لِمَ عدم الاهتمام بهذه المنطقة على الرغم من أهميتها؟!

وبعد البزواء ينزل الركب مستورة، وقد شاهد فيها العياشي بركة مطوية

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٨٩؛ العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٤؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٥.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٨٩ - ٩٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٥.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٨٠.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٥ - ١٦٦؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص١٦٣ - ١٦٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٢٨ - ١٢٩.

بالحجر المنحوت، قد علاها الرّمل، وحوله عمارة قليلة[١]. فكان أولَ مَنْ ذكرها من الرحالة المغاربة وأشار إلى ضآلة نشأتها، ولكن مع مرور الزمن عُمر بئرها قليلًا في زمن أبي مدين، وإن كان موقعها لا يزال خلاءً. وقد استُحْدثت قبةٌ بُنيت فوق أكمة هناك، وقد وصف ماء البئر بالعذوبة إلا أنه قليل.[٢]

وأشار الموسوي إلى أنّ ماءها حفائر يَحْلو مع المطر. وعندما مرّ عليها الورثيلاني بعد ذلك أصبحت إحدى القرى العامرة، إذ وصفها بالبلدة الطيبة[٣] كناية عن العمران الحاصل فيها.

ومن مستورة كان الركب يتحرك حتى محطة رابغ التي حدَّد الجزيري موقعها بالقرب من البحر، وهي قرية فيها سبيل ماء وعِشاش ومزارع، وقوام عيش أهلها التسببُ زمن الموسم مع الحجاج، إذ يبيعونهم الحشيش والعلف للأغنام والإبل، والحطب، والشواء، والبطيخ في أوانه.[٤]

وأشار العياشي والدرعي إلى وجود بركة كبيرة فيها مملوءة بالماء تعين الناس على التزود منه، والغسل بيسر وسهولة. ووصفاها بالقرية المليئة بالنخيل والآبار الكثيرة، وحدّدا موقعها في وادٍ تأتيه السيول من بعيد، كما لفت نظرهما كثرة مزروعاتها من المقاثي، والدخن، والذرة. ووصفا وادي رابغ بأنه من أخصب أودية الحجاز، وأشارا إلى بيع النعال فيها إلا أنها غالية الثمن.[٥]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩، ٥٤٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠.

(٣) الموسوي: رحلة الشتاء والصيف، ص٢٤٢؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٧.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٤٥ - ١٤٤٦، ١٤٤٨.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨١.

وذكر الرافعي أنه اشترى من رابغ نعاله[١]. وقد أهمل بعض الرحالة المغاربة ذكرها ووصفها كاليوسي، ومنهم مَنْ لم يأت بجديد، ومنهم مَنْ أضاف أو خالف مَنْ سبقه. فقد انفرد الحضيكي والزبادي بقولهما: إنها تقع على ساحل البحر[٢]. وخالفهما أبو مدين الذي يبدو أنه وصلها وقت انقطاع المطر في عذوبة مائها، وذكر أنه يورث الإسهال؛ لأن فيه شيئًا من الملوحة. ولكنه أكّد وجود سوقها، وغلاء النعال التي كانت تشتهر بها رابغ.[٣]

وذكر الموسوي أنه يؤتى إليها بالسمك الطازج الطري لقربها من البحر ليباع على الركب[٤]. ولا يختلف وصف البكري لرابغ عما أورده الجزيري، إلا أنه أضاف أنه شاهد مزارع البطيخ ومسجدًا قديم الأثر[٥]. ووصفها الورثيلاني بعد ذلك، ووصف سوقها بالعظمة، كناية عن اتساعها، إذ حوى سوقها مختلف السلع، وكذلك أكَّد وجود النعال الغالية الثمن فيها، بالإضافة إلى المباني الكثيرة، والنخل المنتشر، ومزارع المقاثي، والمياه العذبة.[٦]

ومن وصف الجزيري الذي عاش في القرن العاشر الهجري، والرحالة المغاربة المتأخرين عنه في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، نرى الفرق الشاسع، فقد أصبح فيها آبار كثيرة، وبركة ماء واسعة، وسبيل للماء، ومزارع النخيل، وبساتين المقاثي والحبوب، بالإضافة إلى وفرة السمك،

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٤.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٧/ أ؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٣.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠.

(٤) الموسوي: رحلة الشتاء والصيف، ص٢٤٢.

(٥) البكري: رحلة البكري، ص٢٥/ ب.

(٦) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٧٧ - ٣٧٩.

وسوقها الكبير، كل ذلك يدلّ على انتعاشها الاقتصادي، وكثرة سكانها حيث كانوا في رغد من العيش، الأمر الذي يؤكد استقرارها.

وبعد رابغ بمسافة قصيرة يصل الركب الجحفة، وكان الجزيري قد وصفها بالخراب، إذ لم يستطع أن يميز شيئًا من عمرانها إلا أثر مسجد رأى أنقاضه[١]، وقد أكد الحضيكي خرابها. ولكن هذا الخراب لم يستمرّ طويلًا، إذ امتد إليها شيء من العمران، فقد ذكر أبو مدين استقرار بعض السكان فيها. وتقع الجحفة على يسار طريق الركب بجانب أكمة هناك.[٢]

وذكر الجزيري أن الركب يصادف بعد رحيله من الجحفة أرضًا واسعة، كثيرة المحاطب والمرعى والحشيش أيام المطر، استعدادًا لصعود عقبة السويق أو السكر التي يُطلق عليها المشلل[٣]. وهي جبل، ورمال كثيرة، وأوعار.[٤]

وقد وصف الرحالة المغاربة هذه البقعة بأنها طريق رملي تتوسطه عقبة كبيرة، وهي رمال متراكمة في أصل جبل صغير من الصخور، وهي صعبة الاجتياز، وأقيم على الجانب الأيمن منها بناء منقوش لم يوضح ماهيته، وعلى الجانب الأيسر بناء داثر أيضًا، يظهر أنه مسجد خرب، إذ قيل للحضيكي: إنه أحد المساجد التي صلى فيها النبي ﷺ، وهو ما يشير إلى أنه لا يشبه المسجد

---

(١) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٦١ - ١٤٦٢.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩ - ١٥٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٤ - ١٢٥؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٧/ أ - ٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٠ - ١٨٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧ - ٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠ - ١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

(٣) «المشلل»: انظر قديد، ص١١٢ هامش (٦)

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ح٢،ص ١٤٦١ - ١٤٦٢.

لشدة خرابه، ولو لم ينبه إليه لما عرفه.(١)

ولقد علل الجزيري تسمية العقبة بالسويق أو السكر بواقع الحال، أي بسقيا السويق والسكر فيها، إذ تواتر أمراء الركب على سقي الحجاج السويق مع السكر فيها، لذا تسمى أحيانًا عقبة السكر أو السويق.(٢)

وكان العبدري أقدم من ذكرها، وعزا سبب التسمية لمرور الرسول ﷺ وأصحابه عليها، ولما لم يجدوا طعامًا أخذ من رملها وأعطى أصحابه فشربوه سويقًا.(٣)

وبعد السويق يمر الركب على أرض صلبة سماها الرحالة المغاربة بطن هرشا(٤)، وقد شاهد الدرعي سبيل ماء غربي قديد التي وُصِفت بأنها قرية أكثر أبنيتها حيشان(٥) (الأعشاب اليابسة)، تكثر فيها المقاهي، بالإضافة إلى سوقٍ يباع فيه الفول والفواكه، كما أشاروا إلى عدم الماء فيها إلا ما يجلب من بعيد. وشاهد العياشي هناك قرية لم يذكر اسمها ويبدو أنها الكديد، فقال عنها: «ذات

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩ - ١٥٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٤ - ١٢٥؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٧/ أ - ٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٠ - ١٨٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧ - ٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠ - ١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

(٢) الجزيري: الدر الفرائد، ج٢، ص١٤٦١ - ١٤٦٢ وسبق التعريف بها ص١٠٠ هامش (٦).

(٣) العبدري: الرحلة المغربية، ص١٦٦؛ نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٣٣٢ - ٣٣٣.

(٤) «بطن هرشا» تقع على ثمانية عشر كيلومترًا شمال رابغ، فيها مسجد محجر يقال: إن الرسول ﷺ صلى فيه، وهي عبارة عن ثنية يُرى منها البحر، ولها طريقان يفضيان إلى البقعة نفسها. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٦٩، ١٧١.

(٥) الحشيش يابس الكلأ، والمراد هنا أنها مبنية من الحشائش اليابسة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٢٨٢.

مزارع كثيرة ومقاثٍ». ونبه العياشي إلى الطريقة المتبعة في الزراعة في تلك الأماكن وهي «الزراعة عقب السيل»[1]، وخاصة المقاثي التي تزرع على ماء المطر في المواضع التي يستنقع فيها الماء، وأُخبر من بعض الأشخاص هناك أن كثيرًا منها ينبت في البرية من غير استنبات. ولفت انتباه الرحالة المغاربة كثرة الدلاع (الحبحب) الجيد الرخيص الثمن، إذ إنه لا يكاد ينقطع وجوده لا صيفًا ولا شتاءً إلا في السنة المجدبة.

ويبدو أن بعض الرحالة المغاربة نزل الكديد دون بعضهم الآخر، فقد نزل الحضيكي وأبو مدين في الكديد[2]، ويظهر أن عدم النزول فيها يعود لافتقارها إلى الآبار العذبة، إذ تعتمد الكديد في زراعتها على ماء المطر[3]. فإذا هطلت الأمطار توافرت المياه؛ إذ شاهد الحضيكي عين ماء جارية هناك. وأشار العياشي والدرعي إلى وجود قبة ضخمة بجانب بركة عظيمة أسفل القرية، وذكر الحضيكي أنهما قبتان، وشاهد أبو مدين مسجدًا بالقرب من البركة قيل إن الرسول ﷺ صلّى فيه. ويلي هذا الموضع أرض خصبة صلبة فيها غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل وغيره، وكما أن الكديد لم يكن بالمنزل الدائم فكذلك القديد، فالعياشي قد تجاوزه إلى موضع سبيل قرب رابغ، وقد حددوا ثلاثة أميال بين هذا الموضع وخليص.[4]

---

(١) وهو ما يسمى عثريًا، وما يزرع بالسقي يسمى مسقيًا.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٨.

(٣) البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٧، ص٢٠٥.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩ - ١٥٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٤ - ١٢٥؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٧/ أ - ٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٠ - ١٨٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧ - ٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠ - ١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

وما كان ذكره البكري - وإن كان مختصرًا - يوافق ما ذكره الرحالة المغاربة[١]، وأكد الورثيلاني وجود المعالم التي تحدّثوا عنها.[٢]

ومن المنازل المهمة في درب الحجاز خليص التي كان ينزلها جميع الحجاج عند القدوم، وقد أهمل بعض الرحالة المغاربة ذكرها عند الذهاب إلى المدينة المنورة، ومنها كانوا يتزوَّدون بالماء ليكون عونًا لهم إلى المنهل القادم.[٣]

ووصف الجزيري الطريق إلى خليص بأنه فضاء واسع عامر حيث أقيم حصن على جبل هناك، بالإضافة إلى المحاطب والمزروعات الكثيرة من خضر وبطيخ، وبعض أشجار الكرم، وأشجار الليمون، كما وجد الحشيش لعلف الإبل. وأشار إلى بركة خليص وأرجع إنشاءها إلى أرغون النائب[٤]، وبعد خرابها عرض أمر تعميرها عام ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م على السلطان سليمان القانوني الذي أصدر أمره إلى باشا مصر، فأُصلحت عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م على يد أمين جُدة الذي أنشأ بجانب البركة قبة تشرف عليها.[٥]

لقد أجمع الرحالة المغاربة على روعة جمالها، ووصفوا ماءها بالطيب، أو العذب الفوار، وانفرد الدرعي بقوله: إنه سخن بالرغم من عذوبته. أما

---

(١) البكري: رحلة البكري، ص٢٦/ ب - ٢٧/ ب.

(٢) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٨٠ - ٣٨١.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٤؛ الرافعي: المعارج المرقية، ج٢، ص١٧٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ص٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٥.

(٤) أرغون النائب الدوادار الناصري نائب السلطنة. أحد المماليك المنصوريين، اشتراه السلطان قلاوون صغيرًا، ورباه مع ولده الناصر محمد، تولّى الكرك عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. ثم أصبح نائب السلطنة في مصر بعد بيبرس المنصوري وحج سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م. انظر: الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٦١ - ١٤٦٢.

(٥) المصدر السابق والجزء، ص١٤٤٩، ١٤٥٧ - ١٤٥٨، ١٤٦٠ - ١٤٦٢.

مزروعاتها، فذكروا منها بساتين النخيل الكثيرة، والمقاثي، والدخن، والحبحب. وأهم ما لفت انتباههم فيها بركتها الهائلة الكبر، المبنّية على هيئة دائرة شديدة العمق، حتى أنهم ذكروا أنّ مَنْ لم يحسن العوم يغرق فيها، كما لفت نظرهم هندسة بناء القنوات التي تمدّ البركة بالماء من إحدى العيون هناك، إذ بنيت بإحكام شديد، وروعيَ في إنشائها ومدها الكشف عنها في عدة مواضع، لتيسير تناول الماء لمن أراد السقي والوضوء، فبداية هذه القنوات من العين منتهية بالبركة التي يوجد لها مخرج آخر لخروج الماء إلى المزارع القريبة من البلدة، وبذلك يتم تجديد الماء فيها باستمرار.

كما وجد في خليص سوق كبير، وقهاوٍ، وأبنية. وقد أشار اليوسي إلى نوعية البناء المتبعة بأنها من الأخصاص.(١)

وقد اقتصر البكري في وصف خليص على قوله: «إن بها فسقية ماء عذبة كبيرة»(٢). وأكّد الورثيلاني ما أورده الرحالة السابقون ولم يضف جديدًا(٣). وهو ما يدلّ على عدم تغيّر أوضاعها في زمن رحلته.

وكان الركب يتابع سيره إلى مدرج عثمان، إذ ذكر الجزيري أنهم يهبطون من هناك على بئر عُسفان، ووصف المدرج بأنه كثير الأوعار، صعب السلوك، كثير التعاريج، وقال: إن عُسفان كانت قرية جامعة، ينبت فيها شجر البلسان البري بكثرة.(٤)

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤، ٨٦.

(٢) البكري: رحلة البكري، ص٢٧/ ب.

(٣) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٨٠.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٦٢ - ١٤٦٣.

ومما ذكره الجزيري نرى أن عُسفان لم تكن ذات شأنٍ كبير، إذ لم يسهب في وصف ما وجد فيها من عمران أو زرع، وذلك يدل على تردي شأنها في ذلك الوقت، بالمقارنة مع أوصاف الرحالة المغاربة عنها بعد ذلك.

ونلحظ أن الرحالة المغاربة أجمعوا على مشاهدتهم لهذه البئر، فالعياشي قال: إنه شرب منها ووجد ماءها عذبًا. كما وُصفت عُسفان بالقرية ذات السوق والآبار المتعددة، ولكثرة ما وجد فيها من البساتين والزرع وصفها الرافعي بالجنان الحسان.(١)

وأكد البكري والورثيلاني أيضًا ما ذكره الرحالة المغاربة عمّا وُجد فيها من آثار.(٢)

وعند الخروج من مكة المكرمة والاتجاه إلى المدينة المنورة، فربما يتجاوزها بعض الأركاب، فالعياشي لم يُنزِل فيها ركبَه، ونزلها باقي الرحالة المغاربة واستقوا منها الماء وحملوه معهم إلى المرحلة التالية.(٣)

ومن المنازل التي يمكن الاستغناء عن النزول فيها برقة(٤) التي وصفها

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩ - ١٥٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٥ - ١٢٦؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٦.

(٢) البكري: رحلة البكري، ص٢٧/ ب؛ الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٨١.

(٣) القيسي: أنس الساري،ص ٨٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٥.

(٤) «برقة» عين مندثرة بطرف مرِّ الظهران من الجنوب، حفرت فيها آبار فحسنت زراعتها، فيها قرية تعرف بهذا الاسم تُرى من أبي عروة جنوبًا ومن الجموم شرقًا. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج١، ص٢٠٦.

العياشي بالأرض الطيبة، ذات بساتين المقاثي والمزارع، وأشار إلى وجود سبيل للماء هناك، ولعل عدم نزول الركب فيها في بعض السنين يعود إلى وجود الماء معهم وعدم قلته لديهم، أو لرغبتهم الشديدة في الإسراع للوصول إلى الأماكن المقدسة.

أما آخر المنازل قبل الوصول إلى مكة المكرمة فهو مرُّ الظهران، أو وادي الشريف، أو وادي فاطمة، إذ وردت بهذه الأسماء مجتمعة لدى الرحالة المغاربة، وهي آخر المنازل عند القدوم لمكة المكرمة، وأولها عند الخروج منها، فمن الرحالة المغاربة من أغفل وصفها وقت المجيء، وتدارك ذلك أثناء العودة، أو أعاد جزءًا من وصفها، وهي من المنازل التي يحمل منها الماء إلى المنزل التالي.(١)

وممن أغفل وصفها من الرحالة المغاربة اليوسي والحضيكي. وممّن أسهب في ذلك العياشي والدرعي وأبو مدين والزبادي، فمما ذكروه: وصولهم إلى موضع يسمى وادي العميان، أو جبل العميان، وعللوا سبب هذه التسمية بأن الفقراء يتعرضون هناك للأركاب طلبًا للصدقة. وذكر الرافعي أنّ الناس يخرجون هناك رجالًا لتهنئة الركب بسلامة الوصول، فيعطي البشارة مَنْ استطاع من أفراد الرّكب، ومَنْ لم يستطع يرد عليه السلام. ثم يجتازون هذا الموضع إلى مرّ الظهران الذي وُصف بالوادي الكبير المشتمل على قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون جارية عذبة، وأكبر هذه القرى هي التي ينزلها الركب، إذ يقام هناك سوق كبير، وكان أكثر ما يزرع في هذا الوادي الدلاع (الحبحب)، وشجر

(١) القيسي: أنس الساري،ص ٨٩؛ العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٤؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٨؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٤.

الكادي الذي تنتشر رائحته على مسافات بعيدة.[١]

وكان جلوس الفقراء عند جبل العميان منذ زمن الجزيري الذي أمدّنا بوصف طريف للجالسين فقال: «إن من يحضر هناك هم فقراء مكة المكرمة، وغالبهم من العميان لسؤال الحجاج، وطلب الصدقة منهم، وجرت العادة أنّ كل جماعة من هؤلاء الفقراء العميان تشعل النيران حولها، ولكلّ حلقة شخص يترجم للغات الحجاج المختلفة بما معناه أنهم مستحقون للصدقة، ويساعدونه بقولهم بلسان واحد: يا الله - يا الله».[٢]

ونستنتج مما ذكره الجزيري أنه كان يوجد في ذلك الوقت في مكة المكرمة مَنْ يتقن عدة لغات غير العربية، وهذا عائدٌ إلى مركزها الديني الذي يستقطب المسلمين من جميع أقطار الأرض، لذا كان لا بد من وجود مَنْ يفهم لغات مَنْ يقدم إليها لتسهيل أموره، وهذا ما نراه الآن، وخاصة من التجار الذين يكون تعاملهم واحتكاكهم أكثر من غيرهم من أهل مكة المكرمة باستثناء المطوفين.

ولم يتبدل حال وادي فاطمة منذ عهد الجزيري في القرن العاشر الهجري الذي أكد كثرة العيون والحدائق والبنيان، كما أشار إلى وجود مسجد، وعين ماء غزيرة هناك[٣]. وأكد الورثيلاني كذلك أقوال الرحالة المغاربة في أوصاف وادي فاطمة، وما وُجد فيه من عيون جارية، وبساتين الفواكه ومزارعها المختلفة،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠ - ١٥١؛ الرافعي: المعارج المرقية؛ ص١٢٥ - ١٢٧؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣ - ١٨٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٨٦ - ٨٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٧ - ٨٨.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج١، ص١٤٦٤ - ١٤٦٥.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٦٤ - ١٤٦٥.

وحدّد موقع جبل العميان بأنه مشرف على الوادي.(١)

وينتقل الركب من وادي فاطمة إلى سرف(٢)، وفيها شاهد الرحالة المغاربة قبر السيدة أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، وبجانبه مسجد متهدم ومنه يَصِلُون إلى ذي طوى.(٣)

وأتى جميع الرحالة المغاربة على هذا الدرب نفسه، فيما عدا الرافعي الذي انتقل مباشرة من وادي فاطمة إلى الجعرانة التي سماها العمرة القديمة، وأشار إلى وجود بناء باقٍ فيها، ثم انتقل منها إلى ذي طوى.(٤)

والطريق الذي سلكه الرحالة المغاربة يوافق ما ذكره الجزيري، إذ بعد الانتقال من وادي فاطمة يمر على سرف، فقد أشار إلى قبر السيدة أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها والمسجد بجواره، وأشار إلى مسجد السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالعمرة (التنعيم)، كما سمى السبيل الذي وجد في الزاهر بسبيل الجوخي.(٥)

---

(١) الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) «سرف» واد كبير من روافد مر الظهران، يقطعه طريق مكة المكرمة إلى المدينة المنورة شمال مكة المكرمة على بُعد تسعة كيلومترات من مسجد العمرة (التنعيم)، فيه قبر السيدة أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، وقد بني على قبرها حائط من الطوب لا يزال إلى اليوم، انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٤، ص١٩٣.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠ - ١٥١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٥ - ١٢٧؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣ - ١٨٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٨٦ - ٨٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٧ - ٨٨.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٥ - ١٢٧.

(٥) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٦٤ - ١٤٦٥؛ والجوخي هو: زين الدين عبدالباسط بن خليل الدمشقي ثم القاهري، ولد سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م في دمشق ونشأ فيها في خدمة كاتب =

ومما سبق نخلص إلى أنه خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، ويمكننا أن نلحق بهما القرن العاشر الهجري، لم يتغير مسار ركب الحاج الآتي من مصر سواءً في خط سيره، أم في المناهل والقرى التي يَردُها، ولم يطرأ تغيير يذكر عليها، اللهم إلا في خراب بعضها بسبب الثورات مثل ثورة ابن سبع، أو هجمات الأعراب لاستخلاص حقوقهم. وأما ما عدا ذلك فظلّ ذلك الطريق كما هو، وإن حظي في بعض الأزمنة بنوع من الإصلاح، واستمر تدفق الحجيج خلاله على مرّ السنين، ولم يثن عزمهم مشاقه وأخطاره الكثيرة عند سلوكه، مدفوعين بقوة إيمانهم ورغبتهم في أداء الركن الخامس من أركان الإسلام بكل عزم وإصرار.

ولعلنا نستطيع القول: إنه بسبب ما وجد في هذا الدرب من أخطار ومشاق فقد تصدّر الرحالة المغاربة لملء جزء من رحلاتهم للكتابة عنه، وتحديد المنازل تباعًا، وما يوجد فيها الماء ونوعه، والتحذير من المواضع التي تكثر فيها الأخطار تنبيهًا لغيرهم والقادمين بعدهم، فتركوا لنا سجلًا ينطق بما عانوه، وحيزًا مليئًا بالمعلومات.

أما الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة التي سلكها الرحالة المغاربة في زيارتهم للمدينة المنورة، فالرحالة المغاربة والزوار الذين يقصدون الذهاب إلى المدينة المنورة، يمرون عبر مناطق متعددة، ينزلون فيها للراحة، ثم يستمرون في المسيرة، وأول منزل كانوا ينزلونه بعد الخروج من مكة المكرمة مر الظهران، يليه برقة، ثم عُسفان، ثم خليص، ثم الكديد، وبعدها قديد، ثم

= سرها البدر محمد بن موسى، قدم مصر وترقى وسلك طريق العظماء، حج مرارًا، أحسن فيها لأهل الحجاز، له مآثر جليلة أجلُّها ما صنعه بدرب الحجاز إذ بنى سبيل ماء في الزاهر عرف باسم سبيل الجوخي توفي عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م. انظر السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٤ - ٢٦؛ الجزيري: الدرر الفرائد، ج٣، ص١٨٧٢ - ١٨٧٦.

عقبة السكر، ثم مستورة، ثم البزواء التي تلافى العياشي المرور بها، إذ فضَّل سلوك طريق القوافل، فهو أقصر من الطريق المعتاد بمدة يوم، وهذا الطريق لا يمر ببدر وإنما يمر بالصفراء التي وصفوها بذات العمران، والمزارع، والنخيل، والعيون الكثيرة. وطريق القوافل هذا مليء بالتلال والكثبان الرملية الكبيرة، وقد رأى العياشي بئرًا حديثة الحفر، مليئة بالماء العذب، حفرها ووقفها أحد فقهاء الحنفية المقيمين في المدينة المنورة، كما شاهد كثيرًا من المقاهي المنتشرة على يسار طول الطريق. ومنها يميل الطريق يمينًا بين شعاب وبطاح ورُبى وآكام مختلفة إلى أن يصلوا الجديدة، وقد ذكر العياشي والدرعي أنه ليس في بلاد الحجاز أشد حرًا من هذه الأخياف.

والجديدة قرية تقع بين جبلين، ذات نخل وماء عذب غزير، فعيونها جارية وبساتينها تحتوي على الفواكه الصيفية والخريفية، بالإضافة إلى الخضر، فهي قرية كبيرة يُودعُ فيها الناس ما فاض من أزوادهم إلى حين العودة من المدينة المنورة، وقد شاهد القيسي فيها كثيرًا من أعشاش الرعاة، كما شاهد فيها العياشي بركة كبيرة من بناء أحد أمراء الركب الشامي، ذات مياه غزيرة، بُنيت بعد عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م، فالعياشي لم يرها في تلك السنة وهي سنة حجته الأولى، وتحدث عن الرّفق الكبير الذي أحدثه بناؤها للحجاج، فقد أشار إلى أن القرية التي ينزلها الحجاج قليلة الماء، وربما غار في بعض الأحيان، عندئذ يكون عمادهم عليها، ويوجد في القرية مسجد جامع حسن البناء من إنشاء الأمير رضوان، وتجري من تحته عين ماء. كما شاهد العياشي سبيل ماء في مكان سماه النازية[1] بعد القرية بمسافة.[2]

---

(١) «النازية» من النزو وهو الارتفاع، أرض منبسطة في وادي الصفراء، بين المسيجيد وربع المستعجلة، وهي إلى المدينة المنورة أقرب. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٢.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٨٩، ٩١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٧٠ - ١٧١، ٥٤٤؛ الرافعي: =

وذكر الرحالة المغاربة أن المسافة من الجديدة إلى شرف الروحاء (قبور الشهداء) خلاء، أما موضع قبور الشهداء فبين جبال وأوعار، وعلى قارعة الطريق بين الجديدة وقبور الشهداء مسجد الغزالة الذي وصفه القيسي بأنه محاط ومفروش برمل أبيض دقيق وله محراب. وذكر العياشي أنه استقى من مائها قليلًا وكان عذبًا، وحوله بركة خربة. أما اليوسي فقال: إن الموضع لا ماء فيه. وأجمع الرحالة المغاربة على سبب تسمية الموضع بقولهم: إن قومًا قُتِلوا هناك ظلمًا، ولم يوضحوا سبب قتلهم. وفي شرف الروحاء آثار تشير إلى أنه كان هناك في السابق قرية عامرة لم يبق منها شيء، وهناك كانت الأعراب تنتظر الأركاب لبيعهم الماء والعلف.[1]

وكان ينتقل الركب من شرف الروحاء إلى بدر ومنها إلى جبل مفرح، وهو جبل بالقرب من المدينة المنورة يتحرق الحجاج شوقًا للصعود عليه لمشاهدة نخل المدينة المنورة وقبابها وأسوارها[2]. ومنه يوافون آبار علي أو ذا الحليفة،

= المعارج المرقية، ص١٧٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٨٩ - ٩٠، ٩٩؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٥ - ١٣٦.

(١) القيسي: أنس الساري، ص٩١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٧٠ - ١٧١، ٥٤٤؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٤؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٦.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٨٩ - ٩٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٧٠ - ١٧١، ٥٤٤؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣ - ١٧٤؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩ - ١٠٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥ - ٧٦؛ أبو مدين: الرحلة =

وهي ثلاثة آبار مشيدة البناء، واسعة الفناء، كثيرة الماء العذب الزلال، لها أدراج من أعلاها إلى أسفلها، وبالقرب منها مسجد كبير وحوله نخيل. وبين ذي الحليفة (آبار علي) والمدينة المنورة ما يقرب من خمسة أميال، وهذا الموضع مكان منخفض، وهي آخر منزل ينزله الحجاج قبل دخولهم إلى المدينة المنورة. وهي أول المنازل عند الخروج منها في طريق عودتهم إلى أوطانهم[١]، ومن الرحالة المغاربة من أشار إلى أن أول المنازل شرف الروحاء (قبور الشهداء)[٢]، ومنهم من أشار إلى أنها المنزل الثاني.[٣]

وسواء كانت المنزل الأول أم الثاني فقد كانوا ينتقلون منه إلى الجديدة حيث يأخذ الحجاج ودائعهم، ويتزوّدون بالماء، ويجتازون الصفراء، ثم يعدلون في طريقهم يمينًا للوصول إلى ينبع، وهذا الطريق مليء بالشعاب الوعرة حتى يوافوا الدهناء، فيجدوا بركة مملوءة بالماء، وأضاف الدرعي أن هناك بناء بالقرب من البركة على سفح جبل، ووجد أعرابًا تبيع الحشائش والدلاع، وأشار إلى أن ماء البئر عذب بارد. وشاهد الحضيكي حصنًا منيعًا مرتفعًا. وذكر اليوسي أنهم وصلوا بدرًا، ومن هناك عدلوا يمينًا على طريق ينبع وقال: إن ذلك يسمى عند

= الحجازية، ص١٤٠ - ١٤١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٥ - ١٣٧.

(١) القيسي: أنس الساري، ص٩١ - ٩٢؛ ١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٧٠ - ١٧١، ٥٤٤، ٥٥٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٤، ٢٠٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٠، ١١١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤، ١٠٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٠ - ١٤١، ١٧٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٦ - ١٣٧.

(٢) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٩١.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص٥٥٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٤.

الحجاج بالدورة.[1]

لقد التقطت أعين الرحالة المغاربة أوصاف ما مرّوا عليه بدقة شديدة، كما التقطت آذانهم أسماءها، وإن أخطؤوا في بعضها مثل خطئهم في عُسفان «عزفان»، ومستورة «مسيتيرة»، والجديدة «أخديدة». وهذه الأخطاء اليسيرة تعود لكونهم غرباء عن المنطقة. وقد تركوا لنا وصفًا تصويريًا رائعًا للمسافات التي قطعوها، مع التنبُّه إلى أن كلًا منهم يضيف على سابقه ما استجدَّ ويستدرك ما أهمل، فأفرز كل ذلك لوحة وصفية متكاملة الجوانب، تضاهي ما جاء في الكتب الجغرافية عن الأماكن نفسها.

ومن هنا تبرز أهمية كتب الرحلات المغربية في رصدها لهذا الجانب.

وخلاصة القول: أننا عرفنا من أوصافهم وأقوالهم بدايات بعض أسماء استراحات المسافرين مثل المقاهي التي لم يرد لها ذكر في القرن العاشر، حيث كان أول ظهور لأسمائها في القرن الحادي عشر الهجري، وربما يعود ذلك إلى انتشار شرب القهوة، حيث إنه خصصت له أماكن خاصة لاحتسائه فسمي المكان بواقع ما يُعمل فيه.

وعليه تظهر أهمية كتب الرحلات المغربية وتتصدر بكونها مصدرًا مهمًا لتاريخ الحجاز وجغرافيته لما حوته من معلومات على قدر كبير من الأهمية، توضح بصورة جلية أحوال هذه المنطقة من جميع جوانبها. مع الأخذ في الحسبان المقارنة بين ما أورده هؤلاء الرحالة المغاربة للخروج بنتائج صحيحة.

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص٥٥٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص٢٠٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ ب؛ القادري: نسمة الآس، ص١١١ - ١١٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٥؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٤ - ٢٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٩٢، ١٩٤.

الأسواق والنقود وأهم السلع

الصناعة المحلية وأهم الصناعات:

لم يُفرَد مُؤلَّف - على حد علمنا - يتناول اقتصاديات الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، إذ لم تنل هذه الناحية العناية الكافية. بل كُتِب عنها بطريقة مبعثرة في العديد من المؤلفات التاريخية العامة أو الخاصة، ولعل ما سنقدمه في هذه الناحية يسهم ولو بشكل يسير في إلقاء الضوء على اقتصاديات الحجاز خلال ذينك القرنين وهي مُشْرِفةٌ على أعتاب العصر الحديث.

الأسواق

لا شك أن جزءًا كبيرًا من اقتصاديات الحجاز كان يقوم على التجارة، سواء منها الداخلية أم الخارجية منذ القدم، ولأهمية التجارة لدى أهل الحجاز عامة وأهل مكة المكرمة خاصة نزلت سورة قريش متحدثة عن رحلتي الشتاء والصيف التجاريتين، حيث إن الوضع الطبيعي لمنطقة تجارية كالحجاز إقامة الأسواق لتبادل السلع والمنتجات الداخلية والخارجية التي تُصرَّف بعد ذلك، فأسواق الحجاز كانت بمثابة الوسيط التجاري، والواجهة الإعلامية لعرض مختلف سلع المعمورة، خاصة أنه يفد إليها من الجموع البشرية المتعددة الجنسيات ما لا يفد على أي قطر آخر في الأرض خلال الحج، ولهذا الوضع الخاص أقيم نوعان من الأسواق هما الأسواق الدائمة والأسواق الموسمية.

ففي مكة المكرمة تركزت الأسواق الدائمة حول المسجد الحرام، وهي ذات نظام محدد بوجود الحوانيت التي تعرض السلع[1]. ومن هذه الأسواق التي

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥.

ذكرها الرحالة المغاربة بل وأشهرها سوق المسعى[١] الذي كان يقع على جانبي الصفا والمروة، وقد ارتفعت أصوات الرحالة المغاربة بالشكوى من وجوده هناك، فقد تضرر الساعون من شدة الزحام فيه، وتمنوا لو يأمر الحكام بمنع الناس من التسوق هناك خلال أيام الموسم على الأقل، ليتفرغ الساعون لأداء نسكهم[٢]. ولكن هيهات الإجابة لتلك الأمنية لأنه سوق اختص ببيع المواد الغذائية من حبوب ولحم وتمر وسمن وفواكه وغيرها من المتطلبات المنزلية اليومية.[٣]

وذكر الجزيري في أحداث عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م قيام المنادين بتحذير أصحاب الدكاكين في المسعى من إبقاء بضائعهم الممتدة خارج حوانيتهم، وأوضح أن مَنْ لا يستمع لهذا التحذير ويمتنع عن تطبيقه فإن المحكمة بالتعاون مع نائب جدة تعطي أوامرها بإزالة ما يخرج عن حدود الحوانيت بالقوة، ما أدى في النهاية إلى سعة المسعى مؤقتًا لأنهم سرعان ما عادوا لما كانوا عليه.[٤]

وهذا يكشف لنا أن الساعين كانوا يعانون من شدة الزحام في ذلك الوقت وقبله، وهو ما حدا بالحكام إلى التدخل، والأمر بإزالة كل ما من شأنه إعاقة الحجاج عن أداء نسكهم. وموضع هذا السوق قديم منذ عهد الإسلام الأول[٥].

---

(١) أزيل هذا السوق بالكامل في توسعة الحرم المكي الشريف الذي بدأت عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م وأدخل في التوسعة.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٧؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٠، ١٨٩؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٠.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤١.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص٩٢٧.

(٥) سعاد إبراهيم محمد الحسن: النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م، ص٢٧٢ - ٢٧٣، رسالة ماجستير لم تنشر، مقدمة لجامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

وقد تتابع الرحالة على الإشارة إليه، ووصف الازدحام فيه وما يباع.[١]

ومن الأسواق الدائمة أيضًا سوق المدّعى[٢] الذي قيل في سبب تسميته: إن الرسول ﷺ وقف فيه مودعًا أهل مكة المكرمة يوم خروجه في حجة الوداع عام ١٠هـ/ ٦٣١م، وقيل بل وقف فيه الرسول ﷺ داعيًا لأهل الحجون، ويقال أيضًا: بل هو الموضع الذي وقف فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام داعيًا الله تعالى بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.[٣]

ونلحظ اختلاف الروايات حول واقعة معينة، كما أنه لم يُؤْثر عن الرسول ﷺ وقوفه في هذا الموضع مودعًا أو داعيًا، ولا يُعرف على وجه التحقيق أين موقف دعاء خليل الرحمن عليه السلام، علاوة على أن اسم المدّعى لم يرد لدى الأزرقي مؤرخ مكة المكرمة في القرن الثالث الهجري، وكل ما ذكر عن هذا الموضع أنه المكان الذي ردمه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حفاظًا على المسجد الحرام من دخول السيل إليه، فهو أول من جعل تلك البقعة عالية لكثرة ما وضعه فيها من الصخور العظام بعد سيل أم نهشل[٤]

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٨٥؛ جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي: تأريخ المستبصر، ص١٢ - ١٣ طبع بريل - ليدي، ضبط وتصحيح أوسكر لوفغرين، ١٩٥١م؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤١؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣٠٧.

(٢) لا يزال هذا السوق قائمًا إلى اليوم بالاسم نفسه، ويباع فيه مختلف أنواع السلع التجارية الضرورية منها والكمالية، الغالية منها والرخيصة.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص٥٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١١٦.

(٤) سُمِّي بسيل أم نهشل لذهابه بأم نهشل بنت عبيد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبدشمس. انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٦٧.

الذي دهم المسجد الحرام.[١]

أما سوق باب إبراهيم[٢] فقد كان موقعه في الفسحة التي أمام رباط الموفق[٣] الذي أُوقف عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م في أسفل مكة المكرمة بالقرب من باب إبراهيم[٤] أحد أبواب المسجد الحرام.

ومن الأسواق الدائمة سوق الشاميين أو الشامي[٥] الذي يقع ناحية الباب الذي يلي دار الندوة من جهة باب الزيادة قريبًا من جبل قيقعان[٦]. وتسمية هذا السوق بالشامي أو الشاميين يُرجِّح لدينا أن هناك تجارًا كانوا يأتون من البلاد

(١) دخل هذا السيل المسجد الحرام واقتلع المقام من موضعه، ولم يوجد إلا أسفل مكة المكرمة. انظر المصدر السابق والجزء والصفحة؛ محمد بن محمد بن أحمد ابن الضياء المكي: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، ص٧٨، تحقيق عادل عبدالحميد العدوي، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م؛ علي بن عبدالقادر الطبري: الأرج المسكي، ص١٠٦، الكردي: كتاب التاريخ القويم، ج٢، ص٢٠٧.

(٢) ما جاء في وصف مكان هذا السوق يطابق موقع ما كان يسمى بسوق الصغير، وقد ذكره إبراهيم رفعت. وأُزيل ضمن توسعة ساحة الحرم المكي الشريف عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م. ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص١٧٨ - ١٧٩.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤.

(٤) التجيبي السبتي: مستفاد الرحلة، ص٤٥٦؛ الفاسي: العقد الثمين، ج١، ص١٢٢؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥٣٦.

(٥) يطابق وصف موقع هذا السوق ما يعرف اليوم باسم سويقة، وهو لا يزال إلى اليوم بالقرب من الشامية التي لا تزال تحمل نفس الاسم الذي ربما يرجع إلى سكن التجار الشاميين فيه، وتباع فيه السبح والأقمشة الهندية والتركية وفصوص الفيروز والياقوت. انظر: إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص١٨١، ويباع فيه اليوم زيادة على ما سبق الملابس والعطور والأدوات الكهربائية والكتب وجميع أنواع الخرداوات، بالإضافة إلى وجود المطاعم.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٥؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٠.

الإسلامية لممارسة التجارة في مكة المكرمة، ولكثرة مزاولة التجار الشاميين التجارة فيه سُمِّي الموضع باسمهم، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من قدوم تجار البلاد الإسلامية إلى الحجاز وبقائهم مدة قد تطول أو تقصر، ما ذكره العياشي من أنّ له صديقًا من التجار التونسيين كان مجاورًا في مكة المكرمة وقت مجاورته على جانب كبير من الثراء[١]. وهذا يقودنا أيضًا إلى الاعتقاد أنه لم تكن هناك قيود تحدّ من نشاط التجار المسلمين وممارستهم التجارة في مكة المكرمة، بل كان هناك نوع من التشجيع من قبل الدولة العثمانية والأمراء الأشراف لهم في تلك المدة، وإلا لما قدموا بتجاراتهم، وأقاموا بصورة شبه مستمرة.

ووجد سوق للبزازين والعطارين يقع عند باب بني شيبة[٢]. ووجدت أيضًا أسواق للنساخين والخياطين[٣]، وسوق للدقاقين[٤] في أجياد[٥]، وسوق يُسمَّى بسوق الليل تباع فيه الفواكه وما يلزم الحجاج[٦]، كما وُجد فيه دار للحدادين[٧]، وسوق للسماكين، والبقالين، والحذائين، والحمارين، والفواكه والرطب، والدقيق، والغزالين، والصيارفة، واللبَّانين، وبائعي الجلود، والوراقين.[٨]

وأحاطت هذه الأسواق بالمسجد الحرام من جميع جهاته، تسهيلًا لأمور البيع والشراء على أهل مكة المكرمة والحجاج وعدم تكليفهم مشقة السير إليها،

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٥.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤١.

(٣) المصدر السابق، ص١٣٢، ١٣٩.

(٤) هم بائعو البهارات.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٦٨.

(٦) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص١٧٨.

(٧) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٦.

(٨) المصدر السابق والجزء، ص٢٤٤، ٩١، هامش ٦، ص٧٥، ١٦٨، هامش ١، ص٢٣٩، ص٢٥٧، ٢٥٩ - ٢٦٠، ٢٦٣.

وفضَّلوا قرب الأسواق من مكان أداء عباداتهم في المسجد الحرام مركز البلد وقلبه النابض.

وإلى جانب هذه الأسواق القريبة التي امتازت بوجود المستلزمات اليومية من مأكولات ومشروبات وملبوسات، كانت هناك أسواق بعيدة مثل الأسواق التي في الزاهر[١]، والتي ربما يعود سبب إقامتها هناك لخدمة المعتمرين.

كما وجدت أسواق لبيع الحطب[٢] والعلف[٣] واللبن[٤] والغنم[٥] والبقر[٦] والجمال.[٧]

ولعلنا نتصور مدى الحركة التجارية في مكة المكرمة بما ذكره إبراهيم رفعت في الربع الأول من القرن الثالث عشر عن عدد الدكاكين الموجودة فيها، إذ حدد عددها بثلاثة آلاف دكان.[٨]

وفي المدينة المنورة أسواق أشارت إليها كتب الرَّحَّالة المغاربة،

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٩.

(٢) يوجد هذا السوق بما يعرف اليوم باسم الهجلة. انظر الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٢، هامش ٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٢٨٤.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٤٠٨.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص٢٧.

(٥) كان هذا السوق يقع فيما يعرف اليوم بالجودرية. انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠١، ٢٧١، هامش ١؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤١٨؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٧٥.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص١١٩.

(٧) ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٢٤٥، تحقيق د. عبدالكريم علي باز، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م؛ سعاد الحسن: النشاط التجاري في مكة المكرمة، ص٢٤٧، ولمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر المرجع نفسه، ص٢٧١ - ٢٨١.

(٨) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص١٨٤.

فالعياشي وأبو مدين أشارا إلى سوقٍ غربي باب السلام[١]، وحُدد موقع سوق قديم غربي المدينة المنورة ملاصق لسورها.[٢]

وكان هناك أيضًا سوق لم يحدد العياشي موقعه، اعتاد الأعراب النزول فيه لبيع منتجاتهم من اللبن والجبن والسمن والغنم، وهذه المجلوبات كان يتلقاها منهم بعض التجار وسماهم البرغازيين، تعوّد الأعراب البيع لهم، وهم من ثَمَّ يبيعون ما اشتروه لأهل المدينة المنورة بربح قليل، واعتادوا هذا الوضع لصعوبة تعاملهم مباشرة مع الأعراب لجفائهم وغلظ طباعهم، وانعدام المساومة ولغة التفاهم معهم، لذلك استسهلوا الشراء بوساطة البرغازيين، بالإضافة إلى رفض الأعراب أنفسهم البيع مباشرة لأهل المدينة المنورة، وإذا حصل وباعوا لهم فإنهم يبيعونهم بأضعاف ما يشتريه البرغازيون منهم، إذ يبدو أن الأعراب وثقوا بالبرغازيين الذين يعرفون كيف يساومونهم لتماثلهم في الطباع كما ذكر العياشي[٣]، وربما كانوا أعرابًا مثلهم ممن استوطنوا المدينة المنورة.

أما أسواق جدة فقد كانت ممتدة على طول شاطئ البحر، وكانت أغلب حوانيتها مبنية من الأخصاص، وكانت واسعة لكل منها واجهتان الأولى إلى جهة البحر، والثانية ناحية البلد، بالإضافة إلى وجود الوكالات التجارية التي تستقبل السلع المتنوعة من التحف والبز الهندي والصيني.[٤]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون، أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٤.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٠.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٣، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢، ٤٠٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٦؛ وانظر تنوع تجارات جدة: إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣ - ٢٤.

وفي الطائف وجدت أسواق رئيسة لم يحدد العياشي موقعها، وأغلب الظن أنها في مركز البلد، وحول مسجدها الجامع كان يباع فيها ما يلزم سكانها من الطعام والشراب والملابس.[١]

كما وجد فيها سوق كبير يخدم أهل الطائف وما حولها إلى أطراف نجد، ويبدو أن هذا السوق كان يقع خارجها، وكان يُجلب إليه أحمال الحبوب والثمار والزبيب والعسل وغيره كثير، لدرجة أن العياشي تعجّب من كثرة السلع وتنوعها فقال: «قضينا العجب من كثرته بحيث يخيل إلينا أننا لم نَرَ مثل ذلك في الكثير من أسواق الأمصار العظيمة».[٢]

وقد نعجب نحن أيضًا من إقامة مثل هذا السوق الضخم في بلدة كالطائف ذات السكان القليلين، إذا ما قورنت بمكة المكرمة أوالمدينة المنورة، ثم ماذا تنتفع بلدة كالطائف منه؟!

ونلمح الإجابة من خلال ما كتبه العياشي، فالطائف كانت في تلك المدة وسيطًا ومركزًا لتلقي سلع القرى المجاورة ومنتجاتها التي يُعاد تصديرها إلى مكة المكرمة، إذ يقدم إليها التجار لتلقي تلك السلع التي ُتحمل على الجمال إلى مكة المكرمة. وقد تعجب العياشي من تمكّن الإبل وهي بتلك الأحمال الثقيلة من النزول من طريق الجبل مع كثرة أوعاره وصخوره المعترضة بالطريق[٣]. وأشار غير واحد من الرحالة المغاربة إلى ورود الأرزاق والفواكه والخيرات من الطائف إلى مكة المكرمة[٤]. ولعل السرو الذين كانوا يقدمون إلى مكة المكرمة

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤١١.

(٢) المصدر السابق، ص٤١٥.

(٣) المصدر السابق، ص٤١٦.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ أ.

في القرن السادس الهجري محملين بمنتجات بلادهم[١] فضَّلوا طرح منتجاتهم بالطائف بدلًا من مكة المكرمة في تلك المدة.

ومن الأسواق الدائمة في المشاعر المقدسة سوق منى، حيث كانت أيام عيد الأضحى ملتقى لأعداد كثيرة من مختلف الشعوب الإسلامية، فكان كثير من الحجاج يأتون بمنتجات أوطانهم هدايا[٢]، أو لبيعها، ويتم ذلك بدعاية وجدانية دينية لطيفة، إذ كانت الدعاية الأكثر رواجًا في ذلك الوقت لتصريف البضائع كقولهم: «مَن اشترى شيئًا مِنْ منى، وجعله في تجارته، وجد بركته وظهرت له ثمرته»[٣]. فكان لهذا القول مفعول نفسي ساحر؛ لأن كل تاجر يريد زيادة أرباحه، فيكثر الازدحام، ويقبل الجميع على البيع والشراء، وكأن مِنى في تلك الأيام القلائل كانت تمثل واجهة إعلامية عالمية لتلك البضائع.

وحدّثنا العيّاشي والدّرعي عن هذا السوق، وكثرة سلعه وتنوعها، وكان لا يُعمَر إلا في تلك الأيام فقالا: «عمرت الأسواق، وكثر الإنفاق، وخرجت البضائع ذوات الأثمان، وصنوف التجارات، وتَزاحم الناس على الشراء ببركة ذلك المكان»[٤]. ووصف العياشي مِنى في أيام العيد بقوله: «ومِنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها، قصورها عالية[٥]، وأسواقها حافلة، وجنود

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٩٦ - ٩٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٩.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٩.

(٥) وهنا إشارة إلى المباني العالية فيها، الأمر الذي لم يكن موجودًا في القرنين السابع والثامن الهجريين، وإنما هي مبانٍ مستحدثة بعد ذلك. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٩٨؛ ابن جبير: الرحلة، ص١٣٥ - ١٣٦؛ أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر محب الدين الطبري المكي: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٤٣، تحقيق مصطفى السقا، ط٢، مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م؛ البلوي: تاج المفرق، =

مجندة، وملابس فاخرة، وأطعمة شهية، ومراكب هنيّة، وبضائع غير معدودة، ومتاجر ثمينة»[١]. ووصف الرافعي سوقها بقوله: «سوق عظيم فيه كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين.. من كلّ الفواكه والأرزاق، يتداوله كلّ الرّفاق، أما الأمتعة والسلاع (كذا) فبموضعها أين تباع، فكم هناك من أمتعة فاخرة، وتحف تبقي القلوب والأعين من حسنها باهرة»[٢]. في حين اكتفى القادري والزبادي بالإشارة إلى سوقها[٣]. أما الحضيكي فقد ركز على تعداد ما وجد في السوق فقال: «أظهروا من الزينة، والحلي والحلل، وأنواع الملابس، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، من نسيج اليمن، والعراقين، والهند، والروم، وخراسان، وأنواع الطيب، واختلاف ألوانه.. هبّ به الريح من كل جانب، ويفوح به الهواء، وأنواع السلع وأنفسها، وتشريف اللحوم بأطايبها، وأبرزوا تجارتهم بأصنافها».[٤]

ونجد أن مجمل ما ذكره الرحالة المغاربة كان يحكي حال ذلك السوق وما حواه من بضائع متنوعة، منها ذات الأثمان الغالية، والتحف العجيبة، فهذا السوق لم يكن وليد وقته بل قبل ذلك بكثير، إذ سبق ابن جبير الرحالة المغاربة إلى وصفه، وتعداد ما فيه من خيرات وغرائب في القرن السادس الهجري.[٥]

وإذا ما عدنا إلى زمن الجاهلية وجدنا أنه كان يقام خلال الأشهر الحرم،

= ج١، ص٣١٥؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥١٠.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٦.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٠.

(٣) القادري: نسمة الآس، ص٧٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٧.

(٤) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٤.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص١٥٧.

وخاصة في أشهر الحج ثلاثة أسواق كبرى هي عكاظ[١] وذو مجاز[٢] ومجنَّة[٣]، وهي أسواق عامة لأهل الجزيرة يحمل إليها من كل بلد تجارته[٤]. لذا نجد أن إقامة الأسواق في أيام الحج له جذور موغلة في القدم، واستمر الحال بعد الإسلام وخاصة بعد أن أنزل الله سبحانه وتعالى آية قرنت الحج بالتجارة، وكان المسلمون قبل نزول هذه الآية يتحرجون من التجارة وإقامة الأسواق في موسم الحج، وبعد نزولها تغيرت نظرتهم وانمحى إحساسهم بالحرج، فجمعوا بذلك رضا الله سبحانه وتعالى في أمر الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ

(١) «عكاظ» اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، كانت قبائل العرب تجتمع فيه كل سنة، ويتفاخرون فيه، ويحضره شعراؤهم لإلقاء قصائدهم الشعرية، ثم يتفرقون. وهو أعظم أسواق قريش والعرب ويستمر طوال شهر شوال. وعكاظ نخل من وادٍ بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة المكرمة ثلاث ليالٍ. وهو أرض واسعة شرق الطائف بميل نحو الشمال خارج سلسلة الجبال المطيفة به، وتبعد تلك الأرض عن الطائف مسافة (٣٥) كم تقريبًا. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٤٢؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٣٧٨، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٨م؛ حمد الجاسر: موقع عكاظ، مجلة العرب، رمضان ١٣٨٨هـ/ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨م، ج٣، ص١١٣٨ - ١١٥٨.

(٢) «ذو مجاز» موضع سوق في عرفة على ناحية كبكب عن يمين الإمام على فرسخ من عرفة، وتقيم فيه العرب في الجاهلية ثمانية أيام من ذي الحجة بعد انصرافهم من سوق مجنة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٥٤؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٣٩٠.

(٣) «مجنة» اسم سوق للعرب كان في الجاهلية، وهو بمرّ الظهران قرب مكة المكرمة، يقال له الأصفر، وهو في أسفل مكة المكرمة على قدر بريد منها، وكان العرب يقيمون فيه عشرين يومًا من ذي القعدة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٥٨ - ٥٩؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٣٨٠.

(٤) سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢٧٧ - ٢٧٨، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ولمزيد من التفصيل في هذه الأسواق الثلاثة. انظر المرجع السابق، ص٢٧٧ - ٣٥٥.

﴿جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.[١]

وفي عرفات كان يقام سوق عظيم القدر، فالعياشي ذكر أن الناس كانت تخرج إلى عرفات من اليوم السادس، وتقيم فيها يومي السابع والثامن، بالإضافة إلى التاسع، ويكون لهم فيها سوق عظيم يلبي جميع احتياجات الحجاج ورغباتهم، ويبدو أن هذا السوق كان قاصرًا على أنواع الأطعمة، إذ ذكر أنه «يجلب إليها طرائف الأطعمة كما هو عادتهم من الفواكه وغيرها، من كل مكان»[٢]. وهذا السوق أيضًا لم يكن وليد تلك المدة، إذ أشار إليه العبدري في القرن السابع الهجري.[٣]

ومما سبق يتبين لنا أن مكة المكرمة بأسواقها الدائمة، ومنى وعرفات بأسواقها الموسمية قد حققت الغرض من إقامتها، وقامت بتلبية جميع الطلبات والأذواق، فقد أجمع الرحالة المغاربة على وصف عظمها، ورضاهم عما وُجد فيها، وإعجابهم بما حوته. فالرافعي قال: «ومكة أسواقها معمورة، وخاناتها بالمتاجر معمورة، عذبة الماء، بها أصناف الفواكه والخيرات والأرزاق الممنوحة في كل الأوقات»[٤]. ولكثرة ما وجد اليوسي من تنوع أصناف الأطعمة والفواكة في مكة المكرمة قال واصفًا مدة مكثه فيها بأنها: «عيشة رغدة، ونعمة شاملة، ووجدنا بها عنبًا وسفرجلًا يؤتى به من الطائف، من وادي العباس، ليس لذلك نظير في الدنيا أصلًا بلا ارتياب». إلا أنه أشار إلى غلاء أسعارها،

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٨؛ أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص٤١٤ - ٤١٥، د.م، د.ت.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٢؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٤.
(٣) العبدري: الرحلة المغربية، ص١٨٥.
(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٩.

وأنه لا يشتري منها إلا من كَثُرَ مالُه. وفي المقابل أشار إلى كثرة اللحم الغنمي، والسمن، ورخص أسعارهما، إذ يستعيض ذوو الأموال القليلة بتناولهما بدلًا من الفواكه.(١)

وقد يظنّ ظانّ أن أسواق مكة المكرمة تقفل أبوابها أيام عيد الأضحى لانتقال التجار إلى منى، ولكن الصحيح أنها لا تقفل، إذ حدثنا الدرعي عن شرائه منها الخبز والسمن والعسل يوم عيد الأضحى بعد طوافه.(٢)

ووُجد في مكة المكرمة مطاعمُ تخصصت في بيع رؤوس الغنم المشوية التي كان الحجاج يقبلون على شرائها(٣). وأشار الحضيكي إلى أن أهل مكة المكرمة في نعيم بسبب تنوع أسواقها، ورواجها مدة إقامة الحجاج فيها.(٤)

ولأهمية التجارة وفاعليتها ومدى انتفاع الحجاج منها داخل أسواق مكة المكرمة، وكثرة البيع والشراء، كان الحجاج يستعجلون النزول من مِنَى ليتمكّنوا من شراء الأقمشة وغيرها من البضائع كما ذكر العياشي(٥). إضافة إلى أن قوافل الحجاج لا تخرج من مكة المكرمة إلا بعد تصريف ما حملوه، وشراء غيره، ليبيعوه بعد عودتهم لأوطانهم.(٦)

ولعلنا نلقي بصيصًا من الضوء على ما كان يباع قرب الحرمين الشريفين من بضائع متنوعة وخاصة العلف وغلاء ثمنه، قال العياشي: «ولقد شاهدنا في

---

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ أ.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٨.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٤.

(٤) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٥.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٧.

(٦) المصدر السابق، ص١٦٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨١.

أيام المواسم بالحرمين العجب مما يباع فيهما من الهشيم اليابس وكثرته مع غلاء الأسعار، فيدخل السوق من الأحمال ما يقرب الألف بعير في كل يوم، فلا يمسي شيء من ذلك، وشاهدنا حمل جمل يباع بدينارٍ ذهبٍ، وأُخبرتُ أن العرب يستعدّون لذلك من أول السنة، فيحصدونه في البادية إبان الربيع، وييبسونه، وينقلونه إلى قرب الأمصار حتى تأتي الركبان، فيجتمع لهم من ذلك ما يقوم بكفاية سنتهم».[1]

وكان هناك سبب مهم لكثرة بيع العلف في مكة المكرمة، وهو أن حرَّها وشمسها لا يجعل جبالها صالحة لإنتاج الأعلاف مثل المناطق الأخرى كالطائف مثلًا، والجبال المحيطة بها، ولهذا فالمواشي في مكة المكرمة وبالأخص أثناء موسم الحج تحتاج إليها بمقادير كبيرة، وهو ما جعل الاستعدادات لمثل هذا الأمر تحصل من قِبَل سكان المناطق المحيطة بمكة المكرمة، خاصة أن بيعها فيها يدرّ عليهم أرباحًا وفيرة.

وعلل العياشي سبب غلاء الأسعار في الحجاز أيام مجاورته بقلة المطر، فذكر أنه بمجرد هطولها ترخُص الأسعار، وتتوافر السلع بكثرة مثل اللّبن والجبن واللحم والسمن.[2]

وقد صادف الدرعيُّ وقت مجيئه إلى الحجاز رخاءً عميمًا بسبب هطول الأمطار المتوالية حتى عُدَّ ذلك من العجائب بسبب رخص الأسعار في جميع أرجاء الحجاز[3]. وفي كلتا الحالتين سواء غلاء الأسعار أم رخصها يقبل الجميع على البيع والشراء، ولا يغادرون أرض الحرمين إلا بعد بيع جميع ما معهم،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٣.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٦، ٣٩٦.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٦.

وشراء غيره، فالغلاء لم يكن مانعًا من الإقبال على الشراء.

وإلى جانب التجارة تعددّت مصادر اقتصاد سكان مكة المكرمة، فهناك عائدات كراء المنازل التي لم تكن بالرخيصة[١]، إضافة إلى تدفق الصدقات والهبات عليهم[٢]. علاوة على الأعمال اليدوية كطحن الغلال، والعمل في مهنة الطوافة، فالرافعي تقدّم إليه أحد أبناء الأشراف وقاده في الطواف، وامتدح عمله وأخلاقه[٣]، أما اليوسي فقد عاب من امتهنها لإساءة تصرف بعضهم، فهم على حد قوله: «لا يتركون لك رأيًا، ولا عقلًا، وتراهم يتسابقون إلى الحجاج ويُطوِّفونهم، ويطلبون منهم الفلوس»[٤]. وقد بدأ هذا الأمر بكونه عادة حسنة لأهل مكة المكرمة، فقد أخبر ابن رشيد في القرن السابع الهجري أنهم يخرجون أطفالهم لاستقبال الحجاج ومساعدتهم في أداء المناسك، وإرشادهم إلى الطرق الصحيحة لأداء الفريضة بدون مقابل[٥]، فتطور الأمر إلى أن أصبح عملًا يسترزق منه بعض أهل مكة المكرمة.

وذكر الزبادي أن هناك من يقوم بحراسة النعال على أبواب المسجد الحرام، فيحصل من جرّاء ذلك على دخل يعيش عليه هو وأسرته.[٦]

وفي المدينة المنورة حدثنا العياشي عن الأسواق، القلب النابض للنشاط

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢، ٣٩٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٨؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩١/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٢، ٥٠٤.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٨، ١٣٣.

(٤) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ أ.

(٥) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٨٠، ١٢٩.

(٦) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٣.

التجاري، فصوّر لنا صورة تكاد تكون ناطقة، خاصة أيام الموسم، وقدوم الأركاب، وبالأخصّ الركب الشامي الذي كان يقدم إليها محملًا بمختلف أنواع السلع التي خصصت للبيع بالمدينة المنورة وحدها، حيث يمكث فيها عشرة أيام تُنْصب خلالها الأسواق المحتوية على جميع البضائع والسلع والأرزاق، وذكر أن أهل المدينة المنورة كانوا لا يُفيدون من ركبٍ قدر انتفاعهم وإفادتهم من الركب الشامي الذي يقدم بتجارات كثيرة من الطعام والزيت والأشربة لبيعها هناك.(١)

وكما كان للركب الشامي سوق خاصّ به، كان للركب المصري مثله، وكان مكانه خارج سور المدينة المنورة عند باب المصري، وقد احتوى على كثير من الوكالات التجارية المتنوعة.(٢)

وتحدث العياشي عن سوق رجب الذي كان يُعقد في شهر رجب في المدينة المنورة، وقد وَصَفَ هذا السوق بالضخامة، وعُدَّ من الأسواق العظيمة. كما كان هناك سوق الخميس يقام كل يوم خميس، ولكنه لم يكن بضخامة سوق رجب.(٣)

ولكثرة الأسواق في المدينة المنورة وعظمها، وتعدد مناسبات إقامتها، درج الجميع هناك على ممارسة التجارة حتى النساء، وقد عاب العياشي هذا الأمر على رجال المدينة المنورة في خروج النساء المخدرات سواء منهن الشريفات أم الوضيعات ليمارسن البيع والشراء مباشرة، فيشترين ما طاب لهن

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٠٣، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٥، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٣) المصدر السابق، ص١٢٧ - ١٢٨، ٢٣٨ - ٢٣٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٢٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩١ - ٩٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٣.

من الطيب، وما يختصّ بأمورهن، ولا يستطيع الرجال منعهن، ويمدّونهن بالمال الكثير الذي ربما لا يملكونه، فيضطرون إلى الاستدانة لتلبية رغباتهن.[١]

كما وجد في المدينة المنورة أسواق مخصصة لبيع الأزهار والرياحين، إذ أشار العياشي إلى أنّ نساء المدينة المنورة تعوّدن على الشراء منه يوميًا، ولكنه لم يحدد موقع هذا السوق.[٢]

لقد وصف العياشي استعداد أهل الحرمين لاستقبال الموسم التجاري في أيام الحج، وأشار إلى أنه يبدأ من اليوم السابع عشر من ذي القعدة، إذ تستوفى الديون وتفصل الشراكات، وتنتهي مدة الكراء. فهذه الأيام كانت على حد قوله: «مظنة ارتحال قاطن، وقدوم غائب، واجتماع الناس من الآفاق». فيشتغل أهل الحرمين بقبض الأوقاف، والمخصصات المالية التي تأتيهم من الآفاق، فيرحل إلى مكة المكرمة مَنْ يريد النسك، أو التجارة، بحيث لا يبقى في المدينة المنورة إلا القليل، إذ يهب الجميع لمباشرة أمور التجارة، كيف لا وأهل الحرمين في أيام الموسم يجمعون مؤنة سنتهم خلالها، فهم أثناء تلك المدة لا يتعاملون بسعر معلوم، ولا مكيال وافٍ، ولا ميزان صحيح، وكلّ هذا كان يحدث تحت سمع الولاة وبصرهم ولا يحرّكون ساكنًا إلا إذا حدث أمر جلل، ومتى انتهت أيام المواسم تهدأ حركة الأسواق، ويصفو الجو بعد رجوع الأركاب، فيعودون إلى ممارسة حياتهم العادية من فلاحة، وتسعير في الأسواق، وتصحيح للمكاييل والموازين[٣]. فالموسم هو فرصتهم لجني أرباح طائلة.[٤]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٠٣، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٧.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٠٦، ١٩٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٤) أحمد عمر الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ٣٠١ - ٤٨٧هـ، ص١٦٣؛ جامعة الرياض، نشر عمادة شؤون المكتبات، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ومن الأسواق الدائمة والموسمية في درب الحجاز وجد سوق في العقبة[١]، وفي شرفات بني عطية[٢]، ويتصدر الأعراب في مغائر شعيب عليه السلام للاتجار مع الركب.[٣]

وفي الأزلم شاهد الدرعي بعض الأعراب يبيعون العلف والغنم[٤]. وذكر اليوسي والغنامي أنه في إصطبل عنتر وردت أعراب لبيع الحجاج ما يحتاجون إليه من زاد وعلف وماء.[٥]

كما خُصّ المويلح خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين بعناية خاصة من قبل الدولة العثمانية ممثَّلة في مصر، إذ بادرت بتعميرها بالبناء والسكان، لذا وجد فيها سوق دائم لخدمة الموجودين فيها، ولتزويد المراكب التي تقدم إلى مرساها. وسوق آخر موسمي يقام على باب الحصن، خُصص لخدمة الحجاج، كان فيه جميع احتياجات الحجاج والمعتمرين، من طعام وشراب وغيره، سواء في الذهاب أم القفول، بالإضافة إلى قدوم الأعراب الذين يشاطرون تجار المويلح في التّكسّب من الرّكب ببيعهم السمن والعسل والضأن، فالمويلح أمدّت الحجاج بمنتجاتها المحلية من المزروعات، وما يأتيها من مصر بالمراكب. علاوة على الملاقية التي تنتظر مقدم الحجاج لتقديم الهدايا والحلويات، وبالأخص لِمَن لهم معارف وأهل وأصدقاء في مصر فيستقبلونهم

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص٢٠٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ج٢، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية،ج١، ص١٦٣.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣، ج٢، ص١٠٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧.

(٥) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ ب؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨.

بها[١]. كما كان بعض الأعراب يعترضون الركب في شق العجوز ببعض الأحمال وخاصة العلف.[٢]

وفي الوجه كان في زمن رحلة العياشي سوقان، أحدهما دائم وآخر موسمي.[٣]

وفي موضع بين الدركين المعروف بندرة الماء يقف هناك الأعراب للركب لبيعهم الماء، كما يتلقاهم الأعراب في العقبة السوداء لبيعهم السمن واللبن والخراف.[٤]

وأما ينبع فقد نالت نصيبًا من اهتمام الدولة العثمانية الممثلة بمصر، ومن حكامها الأشراف.[٥]

وفي النبط سوق للأعراب[٦]. أما بدر مع صغرها وانقطاعها عن أمهات مدن الحجاز الكبرى - كما ذكر الرحالة المغاربة - فقد وجد فيها سوق، وأسعاره رخيصة، ويباع فيه الرطب بثمن زهيد.[٧]

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الرافعي: المعارج الرقية، ص١١٦، ٢٠٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩، ٢٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٢، ٢٠٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤، ٥٥١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٠، ٢٠٤؛ القادري: نسمة الآس، ١١٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٦ - ٦٧.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥ - ١٤٦؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢١؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٥.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٨، ١٧٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣.

وأشار الرافعي إلى سوق صغير في الخضيراء[١] وسوق في الجديدة[٢]، وآخر في الدهناء يباع فيه العلف والحبحب[٣]، وفي رابغ سوق فيه معظم احتياجات الحجاج.[٤]

وكان في قديد سوق تتوافر فيه الخضروات والفواكه، وخاصة الحبحب الذي لا يكاد ينقطع صيفًا ولا شتاءً إلا في السنة المجدبة[٥]. ووجد في شرف الروحاء سوق[٦]، وفي الصفراء سوق يباع فيه العلف والحبحب[٧]، كما وجد سوق في مستورة[٨]، وآخر في عُسفان الذي وجد فيه الرياحين[٩]. وكذلك سوق في برقة يباع فيه الحبحب والمقاثي[١٠]. أما خليص فوجد فيها الكادي

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣ - ١٧٤.

(٢) القادري: نسمة الآس، ص٩٩، ١١١ - ١١٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٢، ١٠٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٩٢.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٥.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٤، ١٧٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢١.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١٧٠ - ١٧١.

(٧) المصدر السابق، ص٣٥٢.

(٨) العياشي: ماء الموائد، ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٦.

(٩) العياشي: ماء الموائد، ج٢، ص٩٤؛ الطبعة الحجرية.

(١٠) المصدر السابق والجزء والصفحة.

بكثرة[١]، وأخيرًا في مرّ الظهران[٢] المرحلة الأخيرة قبل دخول مكة المكرمة والمرحلة الأولى بعد الخروج منها.

ونخلص مما سبق إلى أنّ أسواقًا كبرى كانت في المحطات المهمة الواقعة على طريق ركب الحاج، كالعقبة، والمويلح، وينبع، وهناك أسواق صغرى انتشرت على طول الطريق، وربما ذكر بعض الرحالة المغاربة أسواقًا من التي كان الأعراب يتولّون البيع فيها لم يذكرها الآخرون، الأمر الذي يوضح عدم استقرارها، فما وجد في زمن رحالة مغربي ربّما لا يوجد في زمن رحالة آخر غيره، ونستنتج من هذا أيضًا أنّ بعض الأعراب أسهم بأثر إيجابي في رواج اقتصاديات الحجاز وخاصة التجارة في أماكن استقرارهم أو نزولهم. وكانت سلع الأعراب ومؤنهم تتوقف على نزول الأمطار وديمومتها، فمتى أنعم الله تعالى بالأمطار غزر الإنتاج، وإذا قَلّتْ شحّ أو عَدِم، وهذا ما لحظناه في متون بعض كتب الرحلات مثل العياشي، واليوسي، والدرعي، إذ أشار الأخير إلى إحدى رحلاته السابقة التي صادفت قلة الأمطار في الحجاز. وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان للأسواق المنتشرة في درب الحجاز شأن كبير لقوام حياة ركب الحجاج، بعكس من نفى ذلك.[٣]

النقود:

كانت التجارة مصدر وجود النقود في الحجاز، وكان هناك كراء

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٨٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٤.

(٣) جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص١٤٠، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، الكتاب الجامعي، تهامة للنشر.

المنازل في مكة المكرمة[١]، والمدينة المنورة[٢]، وفي بعض القرى التي ينزل فيها الحجاج[٣]. إضافة إلى كراء الرواحل[٤]، واستئجار مخازن لوضع مؤن الحجاج إلى حين العودة.[٥]

كما أسهم في توافر النقود المكوس التي فرضها أشراف الحجاز على الحجاج الذين يفدون من مناطق لا تتبع السلطان العثماني كعراق العجم[٦] (إيران) والهند[٧]. وتدفقت النقود على أهل الحجاز أيضًا عن طريق الصدقات[٨] والهبات[٩] والأوقاف[١٠]، إضافة إلى الزراعة[١١] التي لم تَخْلُ بقعة خصبة من وجودها ولو بشكل يسير كزراعة المقاثي والفواكه والخضروات والرطب والأزهار والرياحين.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢، ١٥٨، ٣٩٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٨؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩١/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٠.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص١٧٣.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥، ٤٠١، ٥٤٣ - ٥٤٤، ٥٥٠؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧١ - ١٧٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٤٣، ١٧٢.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٧١، ٤٠٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١٨٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٧) المصدر السابق، ص١٩٠.

(٨) المصدر السابق، ص١٩١، ٢٣٠؛ المخطوط، ص٥٠٢.

(٩) المصدر السابق، ص٥٠٢.

(١٠) المصدر السابق، ص١٩٧؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٣٠، تحقيق أمحزون.

(١١) المصدر السابق، ص١٤١، ١٤٩؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٠، ١٩٧، تحقيق: أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٢.

وكان تحصيل النقود أيضًا عن طريق الأَدِلّاء الذين يقومون بهذا العمل لقاء أجرة يأخذونها مقابل مساعدة الزوار[١]. وحُصِّلت النقود أيضًا عن طريق حفظ النعال بالأجر عند أبواب الحرمين المكي والمدني[٢]. إضافة إلى الطوافة بالمسجد الحرام[٣]، علاوة على دفع الأموال للقائمين على المواقع الإسلامية، حيث تدفع لهم النقود من قبل الزائرين لقاء السماح لهم بالدخول لمشاهدتها[٤]. كما وجدت مهنة الحلاقة التي كانت تنشط أيام المواسم وخاصة في منى، إذ يتقاضون أجرًا على حلاقة رؤوس الحجاج التي لم تكن تتم بصورة صحيحة لرغبتهم في حلاقة أكبر عدد ممكن من الرؤوس.[٥]

وبذلك كان للحجاز مصادر دخل متعددة، تنشط في وقت المواسم وإن لم يكن الدخل ثابتًا. وتتوقف كثرة النقود وقلتها على أعداد الحجاج القادمين إلى الحجاز، وكثرة الحجاج أيضًا كانت متوقفة على سلامة وصولهم، وعدم تعرضهم للسلب والقتل أثناء طريقهم، وهو ما يقودنا إلى نتيجة سبق الوصول إليها وتأكدت هنا أيضًا وهي أن رخاء الحجاز كان مرهونًا بأمن طرقه وهطول الأمطار عليه.

لقد تحدث الرحالة المغاربة عن جملة من النقود المستعملة في الحجاز خلال تلك المدة، والتي سُكّتْ من الذهب والفضة والنحاس. وكانت النقود

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٥، ٤٠٩.

(٢) القادري: نسمة الآس، ص١٠٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٣.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٣.

(٤) القادري: نسمة الآس، ص٩٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٦.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣.

المسكوكة من الذهب والفضة تستعمل في المعاملات التجارية ذات القيمة النقدية العالية، أما النقود المسكوكة من النحاس فاستعملت في المعاملات ذات القيمة النقدية المتدنية، ولا سيما في النفقات المنزلية، كشراء الخضار والبقول ونحوها[١]. ويطلق على المسكوكات النحاسية لفظ فلس أو فلوس[٢]. فالدرعي ذكر أنه يمكن التعامل بالفلوس المصنوعة من النحاس[٣]، وذلك يشير إلى وجودها ومعرفة أهل الحجاز لها.

واستعمل أهل الحجاز مسكوكات الذهب المسماة بالدينار[٤] الذهب. وذكر العياشي أنه كان يسمى شريفيًا أو سلطانيًا[٥]. وقد يطلق على الدينار الذهب لفظ أحمر[٦] أو مثقال، والأخير يسمى (إسماعيليًا) أو (شريفيًا) مع اختلاف صرفهما، فالإسماعيلي يصرف بأربع مئة فضة والشريفي بخمسة وتسعين.[٧]

---

(١) د. عبدالرحمن أحمد فهمي محمد: النقود العربية ماضيها وحاضرها، ص٩٢، مكة المكرمة، المكتبة الفيصلية، د.ت.

(٢) «فلوس» جمع فلس، وهي تعريب من اليونانية، وقيل تعريب من الرومية، ولا يعني بالضرورة أنها من النحاس، إذ كان الهدف من ضربها تسهيل إجراء العمليات التجارية اليسيرة. انظر: الكرملي: النقود العربية، ص٧٤ - ٧٥، هامش ٢؛ فهمي: النقود العربية، ص٩ - ١٠.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٦.

(٤) «الدينار» كلمة رومية من (Denarius) بتقدير (Nummus) ومعناها «نقد ذو عشرة آسات» جمع آس (As)، لأنه كان في أصل وضعه من الفضة. وورد الدينار بمعنى النقود من أي سعر أو جوهر كان، وجاء الدينار بمعنى وزن ثقله، والدينار ضرب من المعاملات القديمة وأصله دِنَّار. واختُلِف في أصله فقيل فارسي وقيل عربي. ويسك من الذهب ويوزن باثنتين وسبعين حبة من الشعير الوسط ويساوي أربعة أو خمسة وعشرين بالمئة من الجرام. انظر: الكرملي: النقود العربية الإسلامية، ص٣٠، هامش ١، ص١١٩؛ د. ضيف الله يحيى الزهراني: زيف النقود الإسلامية، ص١٦، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، د.م.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٢١٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق: أمحزون.

(٦) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩١/ ب.

(٧) المصدر السابق، ص٩٥/ ب.

وأشار العياشي واليوسي إلى أن الأموال التي كانت ترسل من قِبَل السلطات العثمانية لتصرف على أمور الحرمين كانت بالدنانير الذهب.[١]

وكان كراء المنازل يتم أيضًا بدنانير الذهب[٢] وأحيانًا بالفضة مع الذهب[٣]. كما كان يباع نوع من الحمير السريعة ذات مواصفات معينة بأثمان غالية قد يصل سعر الواحد منها إلى مئة دينار ذهبًا[٤]. وتعامل أهل المدينة المنورة بدنانير الذهب، وكذلك البيع والشراء في عرفات.[٥]

أما في درب الحجاز فقد حرص الأعراب على قبض الأثمان بالدنانير الذهبية والمثاقيل الذهب، حيث ذكر أبو مدين أن كراء الرواحل كان يتم بمثاقيل الذهب، فتراوح الثمن للراجل بين ستين وسبعين مثقالًا. ولراكب الإبل مئة مثقال، ولراكب البغال مئة وخمسون إلى مئتي مثقال، وربما زادت أو نقصت هذه الأسعار تبعًا لتغير الأحوال والزمن[٦]. وعندما يقل وجود الماء أو يندر يسارع الأعراب لبيع القِربة الواحدة منه بعدد من الدنانير أو المثاقيل الذهبية،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٥؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ أ. وما ذكر عن إرسال الدولة العثمانية مصروفات الحجاز بالدنانير الذهب يناقض ما ذكر من إرسالها بالكيسة، والكيس يساوي (٢٥٠٠٠) نصف فضة، فالكيس والكيسة وحدة حسابية بدأ استعمالها في القرن السابع عشر وتنقسم قسمين كيسة رومية وتساوي (٥٠٠٠٠) أقجة وكيسة مصرية وتعادل (٦٠٠٠٠) أقجة، أو بمعنى آخر الكيسة الواحدة تساوي (٥٠٠) قرش والقرش يساوي (٤٠) بارة. والإردب وحدة وزن معروفة في مصر والحجاز ويساوي الإردب الواحد (١٥٠) كيلوغرامًا من الحنطة و(١٤٠) كيلو من الذرة، والأقجة وحدة وزن شاع استخدامها في الدولة العثمانية وتساوي (١,٢٨٣) كيلوغرام. د. نبيل رضوان: النفقات على الحرمين، ص٥.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي: ص٩٥/ ب.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٨.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠١.

(٥) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ ب.

(٦) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٤٣.

مستغلين حاجة الحجاج إليه لدفع ما يطلبونه ثمنًا له. كذلك فضَّل الأعراب عند قضائهم حاجة طرأت للحجاج ولمسوا ضرورتها لهم، أنهم يأخذون مقابلها الدنانير أو مثاقيل الذهب. وعادة ما يكون الحجاج محملين بأحمال من الذهب بعد الانتهاء من الحج، وربما يسرق منهم بعض الأحيان في عودتهم[1]. وشراء الحجاج للذهب من الحرمين الشريفين بهذه المقادير الكبيرة يؤكد توافره فيهما في تلك المدة.

وإلى جانب العملة الذهبية التي كانت هي مدار التعاملات التجارية، كانت الفضة تتصدر التعاملات التجارية اليومية، فاليوسي أشار إلى أن التعامل في الحجاز كان أكثره بالفضة، إلى جانب الذهب وقال: «ومَنْ أراد صرفه بالذهب يمكنه ذلك».[2]

وقد أمدّنا الرحالة المغاربة بأسماء عديدة للنقود الفضية في تلك المدة، ومن تلك الأسماء الريال الذي راج استعماله وتداوله بين أهل الحجاز، والذي سُمّي قرشًا[3]. وأيضًا القيراط[4] المسكوك الذي يسمى محلقًا.[5]

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٥، ١٠٩.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٧/ ب.

(٣) «القرش» وينطق غرش وأصله نقد ألماني وهو (Groschen)، والقرش، قرشان: قرش صاغ وقرش رائج، فالقرش الصاغ يساوى أربعين بارة، والقرش الرائج يساوي رُبعه أي عشر بارات، ويجمع على قروش. انظر: الكرملي: النقود العربية الإسلامية، ص١٩٧. وانظر البارة في المرجع نفسه، ص٢١١ - ٢١٢.

(٤) «القيراط» من الذهب وهو جزء من أربعة وعشرين جزءًا من الدينار، ويختلف قيراط الذهب عن قيراط الفضة بحيث يمثل الأخير $\frac{1}{12}$ من درهم الموزونة، ونصف الدرهم الجزئي، وبذلك يعد القيراط ذا قيمة عددية في نظام الفضة وذا قيمة وزنية في نظام الذهب. انظر: عمر أفا: النقود المغربية، ص٨٧ - ٨٨.

(٥) «المحلق» نوع من العملة المسكوكة من الفضة، كان أهل الحجاز يتعاملون بها في القرن الحادي عشر الهجري. وقد بدأ ظهوره عام ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨ - ١٤٧٩م، وتقرر سعر صرفه بـ

كما راج في عمليات البيع والشراء عملة سماها العياشي المائدية[١] وقال: إن أهل المدينة المنورة يسمونها حرفًا[٢]، وشاع لديهم أثناء التعامل قولهم: عشرة أحرف وعشرون حرفًا قاصدين بذلك أن كل أربعين قيراطًا من الفضة المسكوكة يعد حرفًا، وذكر العياشي أن هذا خلاف ما عُرِفَ في المغرب عن هذا المقدار، ففي المغرب يقصد به المثقال الذهب[٣]. وأضاف أن الريال يصرف بالمائدية وهي القراريط دون وزن بل بالعدد، وجرى الجميع على هذا العمل إلا القليل.[٤] وضرب لنا العياشي العديد من أمثلة معاملات البيع والشراء التي كانت تُجرى يوميًا في المدينة المنورة، ومن ذلك قوله: إن «مبيعات الطعام تتم بالمائدية، فسعر رمَّانة واحدة في آخر موسمها خمس مائديات». كما اشترى رطل[٥] عسلٍ بثلث

= (١٢) درهمًا مسعوديًا ثم لم يلبث أن ارتفع إلى (٢٠) درهمًا. انظر: ابن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٦٣٩؛ العياشي: ماء الموائد، ص٢١٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق: أمحزون؛ ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص١٩٦، الرياض، منشورات عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١) «المائدة» يظهر من نص العياشي أن المائدية الواحدة تعادل قيراطًا من الفضة في ذلك الوقت.

(٢) «الحرف» يتبين من نص العياشي أنه أحد النقود التي يتعامل بها أهل المدينة المنورة، ويساوي أربعين مائديًا أو أربعين قيراطًا من الفضة المسكوكة.

(٣) ذكر الكرسيفي «أن الدينار عند الناس اليوم ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م إنما يقال للمثقال المضروب من الذهب لا المضروب من الفضة». انظر: عمر أفا: النقود المغربية، ص٤٤.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٢١٧ - ٢١٩، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٥) «الرطل» رطل مكة المكرمة أو رطل الكيل: فالرطل كلمة يونانية (Litre)، ويستعمل وحدةً للوزن ووحدة للكيل معًا غير أن استعماله وحدة للوزن هو الغالب، ووزن الرطل اثنتا عشرة أوقية، وكان وزن الرطل الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري (٤٠٨,٢٣) غرام. العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٤، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، هامش ٤، تحقيق أمحزون؛ الكرملي: النقود العربية الإسلامية، ص٣١، ٤٥؛ عمر أفا: النقود المغربية، ص١٤٤.

ريال، والسمن دون ذلك.[١]

وعندما تغلو الأسعار بسبب الجدب في الحجاز، ذكر العياشي أن القمح كان يباع كل ثلاثة أصواع[٢] بريال، وهذا الصاع يساوي ما يقرب ثلاثة أصواع بصاع الزكاة، كما بيع التمر كل أربعة أصواع بريال، والشعير لم يكن بينه وبين القمح تفاوت[٣]، وأضاف أن الصاع يسمى ربعيًا ولجزئيه كيلة.[٤]

وحدد العياشي سعر الفواكه في موسمها، ومنها العنب الذي بيع الرطل منه بثلاث مائديات[٥]، وعندما هطلت الأمطار رخصت الأسعار، وكثرت المنتجات الحيوانية، مثل اللبن والجبن والسمن واللحم مع كونه قليلًا في الأسواق، وقد بيع الجبن عند أول طرحه بالسوق، الرطل بثماني مائديات، ثم لم يلبث أن رخص وبيع الرطل منه بمائدتين.

وذكر العياشي أن المصروف اليومي لنساء المدينة المنورة كان ريالا[٦]. أما كراء الجمال من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة فبعملة القرش، فقد اكترى

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٤، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) الصاع المدني النبوي: هو وحدة القياس التي تستعمل لكيل الحبوب والفواكه الجافة والزيوت وأشباهها، ولفظ الصاع يُذكَّر ويُؤنَّث فالمؤنث يجمع على أصوع، والمذكر يجمع على أصواع، ويمكن جمعه على صيعان، ويساوي الصاع أربعة أمداد والمد يساوي رطلًا، والصاع خمسة أرطال وثلث الرطل، ومقدار الصاع في الوزن حوالي (٢,٤٠٠) كيلوغرام. أما الرطل فيساوي (١٢) أوقية والأوقية «الكيلة» (١١) درهمًا إلا ثلثًا. انظر: عمر أفا: النقود المغربية، ص١٤٤، ص٧٨، هامش ١٣٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٤، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٤) المصدر السابق، ص٢١٧.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٤.

(٦) المصدر السابق، ص٢٢٦ – ٢٢٧.

العياشي جملين لحمله وحمل أغراضه بثلاثة عشر قرشًا[١]، كما استأجر رواحل لنقله من جُدة إلى مكة المكرمة بمئة وثلاثين ريالا[٢]. واشترى العياشي بطيخًا رخيص الثمن في الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، كل خمس بطيخات بمحلق[٣]. كما اشترى ما ينقص الركب من علف وسمن ولحم بالريالات[٤]. وقد اعتاد التجار الملاقية الذين يتلقون الحجاج بالمؤن على البيع لهم بالعملة الفضية[٥]. وفي المحطات المهمة في درب الحجاز كان التعامل التجاري يتم بالذهب والفضة وبعملة تسمى نصفًا[٦]. بالإضافة إلى أن السلع الوافدة كانت تباع بالريال كالبُنِّ.[٧]

لقد تكرر لدينا لفظ عملة الريال، إذ لم تخل رحلة تقريبًا من ذكره خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين. ويظهر تدفق النقود الأوربية على البلاد الإسلامية في تلك المدة، وأصبحت من النقود المتداولة والمرغوب فيها، فالدرعي امتدح النقد المسكوك في بلاد النصارى، وسماه الريال، وقال: «إن الغالب عليه جودة الجوهر»[٨]. الأمر الذي يوضح لنا سبب انتشار الريال في بلاد الحجاز ورغبتهم في التعامل به. كما تعامل أهل الحجاز أيضًا بنقد الدرهم[٩] إلى

(١) المصدر السابق، ص٣٩١.

(٢) المصدر السابق، ص٤٠٦، المخطوطة.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٢٠٥.

(٥) المصدر السابق والجزء، ص١٠٧.

(٦) «نصف» نقد مصري اختلف سعره باختلاف السنين، وكان الواحد منه يساوي (٧) قروش أو أقل أو أكثر. انظر: الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٨ - ١٠٩؛ الكرملي: النقود العربية الإسلامية، ص٢٠٣.

(٧) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٣٧.

(٨) المصدر السابق، ج٢، ص١٣٨.

(٩) «الدرهم» وحدة من وحدات السكة الإسلامية الفضية، اشتق اسمه من الدراخمة اليونانية، =

جانب العملات السابقة.[١]

وإلى جانب النقد في التعاملات التجارية كانت المقايضة في الحجاز، فقد أشار أبو مدين إلى مناطق لم يحدد موقعها تتعامل بالمقايضة. وذكر عددًا من السلع المفضلة والمرغوب فيها في المقايضة، مثل العطر، والكتان، والتبن، والتمر، والجلد الأحمر، والثياب وأواني النحاس، وأحسن ذلك كله حمل دنانير الذهب، فهي على حدّ قوله: «يرغبها كلّ الناس». ولكنه في المقابل شدّد في الحذر من زيفها لشيوع التزييف في تلك المدة، وقال: «إن مَنْ لم يتنبه لذلك يشتريها على أنها ذهب، وعند احتياجه لبيعها يكتشف أنها نحاس»[٢]. ونصح اليوسي الذاهبين إلى الحجاز للخروج من مأزق الغش ودائرة التزييف بحمل تجارة معهم، وَمَنْ لم يفعل ذلك يقع في الحرج للتفاوت الكبير بين صرف العملات الأمر الذي يؤدي إلى الخسارة، وقال: «إنَّ الأولى لهم التعامل بالمراطلة، ولكنها كانت غير معروفة لديهم»، وعرَّف المراطلة بقوله: «بيع الذهب بالفضة». وقال: «إن مَنْ لم يحمل تجارة، ولم يستعمل المراطلة، يقع فيما لا خير فيه».[٣]

وعاب الدرعي طريقة الصرف التي نعتها بالبلوى العامّة، وخاصة في صرف الريال بالمائدية، وغيرها من أجزائه الرائجة، إذ يبدو أن هذا الأمر كان مُوافَقًا عليه من قبل الولاة، وقد ضرب لنا مثلًا لذلك بقوله إن: «الشخص إذا

= وحدد وزنها الشرعي بـ (٢,٩٧) جرام، ووزن الدرهم إلى الدينار هي (٧:١٠) أي أن الدرهم كان يمثل ٧/١٠ من الدينار. انظر: فهمي: النقود العربية، ص٩؛ الزهراني: زيف النقود الإسلامية، ص١٦.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٤.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٣٦ - ٣٧.

(٣) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٨/ أ.

أراد استبدال مثقالٍ من الذهب، يستبدله أو يأخذ بدلًا عنه أربعة وعشرين قيراطًا معدودة بغير مراطلةً»، وعلل عملهم هذا بقولهم: «إن الشيء إذا وزن مجتمعًا ثم فُرِّق زاد أو نقص».(١)

ومما سبق نجد شيوع عملية تزييف النقود في تلك المدة، كما أن الحجاز بموقعه وتدفق الحجاج إليه من جميع أقطار العالم الإسلامي تبعه بالضرورة تدفق مختلف أنواع العملات النقدية إليه، وإن كان أكثر تعاملهم يتمّ بنقد الفضة وجزء منه بالذهب للسلع الغالية الثمن. أما النحاس فقد وجد له مساحة للتعامل وخاصة لمصروفات الأمور اليومية. ونلحظ أن الرحالة المغاربة أغفلوا الإشارة إلى وجود دُور سكِّ النقود، ولكننا نُرجِّح وجودها لأنه في تلك المدة عمّ في البلاد الإسلامية تعدد أماكن ضرب النقود، والحجاز من ضمن البلاد الإسلامية التي ربما لم تشذ عن هذا الأمر، وإن وجد فالغالب أنها ضربت من الفضة والنحاس، حيث انفرد الحجاز بأسماء لعملات لم نجد لها ذكرًا في غيره مثل المائدية والمحلق والحرف.

ونجد أنه حسب روايات الأقدمين فإن الحجاز لم يُعانِ من قلة النقود، والذي يثبت ذلك وجود كثير من الصيارفة منذ القدم، وتوفيرهم لأنواع العملات المتدفقة عليهم من الحجاج.(٢)

أهم السلع:

كان المحور الذي تدور عليه السلع المعروضة للبيع في درب الحجاز هي المؤن الغذائية بجميع أنواعها، كالخضر والمقاثي(٣). وأيضًا السلع الحيوانية

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٣٨.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٦٠.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩، ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية؛ الزبادي: بلوغ المرام، =

كالإبل[١] والغنم[٢] ومنتجاتهما من لحوم[٣] وألبان[٤] وأجبان[٥] وسمن[٦]، وغيره كالبيض.[٧]

وكان العسل والحلويات من ضمن السلع التي رغب الحجاج في شرائها[٨]. بالإضافة إلى مختلف أنواع الفواكه مثل العنب وخاصة الأسود منه[٩]. والتفاح[١٠]

= ص٦٢.

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٨.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص١٢٧؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ١٦٧، ١٧١، ج٢، ص١٠٥، ١٠٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ١٦٧، ١٧١، ج٢، ص١٠٥، ١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٠.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٣٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١، ج٢، ص١٠٧.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥، ١٧٠، ٢٢٣، ٢٢٦ على سبيل المثال؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٨.

(٦) اليوسي: رحلة اليوسي: ص٩٢/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ١٧١، ج٢، ص١٠٥، ١٠٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٠.

(٧) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٩.

(٨) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥، ١٧٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٠.

(٩) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١، ١٥٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢ - ١٩٦، ١٧٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ - ٨٤/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣، ١٦٥، ١٨٢، ج٢، ص١٠٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨، ١٢١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٨، ٦٠، ٦٦.

(١٠) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ، ٩٧/ أ؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٨.

والإِجَّاص[١] والزبيب الأحمر[٢]، ونال البطيخ رواجًا شديدًا[٣]. وكذلك التمر والرطب[٤] واللوز والموز والسفرجل والرمان.[٥]

وحظيت الحبوب بنصيب وافر في البيع من فولٍ[٦] ودقيقٍ[٧] وشعير[٨]، علاوة على السكر والإدام[٩]. ومن السلع التي كانت مطلوبة بكثرة الماء[١٠] والعلف[١١] ولوازم الإحرام من رداء ونعال[١٢] وغيرها.

واشتملت الأسواق في الحرمين الشريفين والمدن الحجازية الأخرى

---

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب.
(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٦/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٦، ج٢، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٨.
(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢، ج٢، ص٩٤ الطبعة الحجرية؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ أ، ٩٧/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.
(٤) القيسي: أنس الساري، ص ١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥، ١٧٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٢.
(٥) الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٨.
(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١، ١٤٥، ١٤٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ج٢، ص١٠٥، ١٠٨ – ١٠٩.
(٧) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٨.
(٨) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٨ – ١٠٩.
(٩) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢.
(١٠) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢، ١٧٠، ٤٠١، ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣، ١٦٧، ١٧١، ج٢، ص١٠٥.
(١١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢، ١٧٠، ٤٠١، ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٦، ١٦٠، ١٦٧، ج٢، ص١٠٥ – ١٠٨.
(١٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

كجدة والطائف وينبع على جميع أنواع السلع من الدر النفيس والمتاع الرخيص. ولم يُفصِّل الرحالة المغاربة كثيرًا في أنواعها.

ففي مكة المكرمة ذكرت كتب الرحلات المغربية عددًا من أنواع التجارة كالكماليات مثل القماش الفاخر وخاصة البز[١] والبُن[٢] والطيب[٣] والنّدّ[٤] والخشب ولا سيما الساج[٥]، وكذلك الشمع[٦]، وأيضًا كل ما يلزم المسافر من شقادف[٧] ورواحل[٨]، ومن اللوازم المنزلية كالخصف.[٩]

أما المأكولات فقد تعددت أنواعها فمنها الحبوب كالقمح[١٠] والدقيق[١١] والشعير[١٢] والفول[١٣]، ومن المأكولات المطبوخة الخبز[١٤] ورؤوس الغنم

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٧، ٤٠٥، ٤١٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥.
(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٣٧، ١٨٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.
(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٣.
(٤) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٠٣، تحقيق أمحزون؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٣٣.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٦.
(٦) المصدر السابق، ص٣٩٨.
(٧) المصدر السابق، ص٣٩٢.
(٨) المصدر السابق، ص٣٩١، ٤٠١.
(٩) المصدر السابق، ص٣٩٧.
(١٠) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥، ١٤٩، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون.
(١١) المصدر السابق، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٧.
(١٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٧.
(١٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ج٢، ص١٠٥، ١٠٧.
(١٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٨.

المشوية[١]، كما ذُكرت التجارة في التمور[٢] والزبيب[٣] والسمن[٤] والعسل[٥] واللبن[٦] والجبن[٧] واللحوم[٨] والفلفل[٩]، علاوة على الفواكه المتنوعة[١٠] كالعنب والسفرجل.[١١]

ولم تقتصر السلع المتداولة على الاستخدام الآدمي، بل وجد علف الحيوانات بكثرة[١٢] لتلبية حاجة السوق منه في أيام المواسم، إذ هو بمثابة الوقود لرواحل السفر.

وما وجد في مكة المكرمة ليس بغريب عليها، إذ سيقت لها الخيرات من جميع الأقطار تحقيقًا لدعوة خليل الرحمن عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٤.
(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون.
(٣) المصدر السابق، ص٥٤١، المخطوطة؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٥٦.
(٤) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٢٦، تحقيق أمحزون؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ١٩٨.
(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٨.
(٦) المصدر السابق والجزء، ص١٧١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٣.
(٧) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٣، ٢٢٦، تحقيق أمحزون.
(٨) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ أ.
(٩) العياشي: ماء الموائد، ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية.
(١٠) المصدر السابق، ص١٤٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢، ١٦٩، ١٧٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢١.
(١١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠ - ٢٢٤؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ أ.
(١٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٣، تحقيق أمحزون.

يَشۡكُرُونَ﴾[١]. كما أكد الله تعالى جلب الثمرات إليها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.[٢]

وحفلت أسواق المدينة المنورة أيضًا بالعديد من السلع، فالمدينة المنورة ذات أرض خصبة غنية بالمياه العذبة؛ لذا توافر فيها تبعًا لذلك كثير من أنواع الخضار، مثل الجزر والبقلاء والملوخية والبامية والبصل واللفت، والخضار البرية مثل الخبيز[٣]. كما وُجد في أسواقها الأزهار والرياحين[٤]، بالإضافة إلى العديد من الحبوب مثل الفول[٥] والشعير[٦] والدقيق[٧] والقمح[٨] والأرز[٩]. وحظي العسل[١٠] في جزء من سوق المدينة المنورة. وكان للسلع المطبوخة نصيب في أسواقها كالخبز[١١] والثريد.[١٢]

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

(٢) سورة القصص، الآية ٥٧.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٦، تحقيق أمحزون؛ الطبعة الحجرية، ج٢، ص٩٤.

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٧.

(٦) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٧.

(٧) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٧.

(٨) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون.

(٩) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

(١٠) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٨؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

(١١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤١.

(١٢) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

واشتملت أسواقها على الفواكه[١] بأنواعها مثل الرمان[٢]، وكذلك اللحوم[٣] والسمن[٤] واللبن والجبن[٥] والزيت[٦] والإدام[٧] والخبز والعسل.[٨]

ولم يكن ما ذكره الرحالة المغاربة هو ما وجد في أسواق الحجاز فقط، بل حفلت بالغريب والطريف والغالي والرخيص، إلى غير ذلك من الأمتعة الفاخرة.[٩]

وخلاصة القول أن أسواق الحجاز زخرت بالعديد من السلع الغذائية، والكمالية المستوردة التي أمسك بزمامها تجارها الذين أفادوا مما كان يصل إليها من مختلف البضائع، فبادروا إلى الشراء، ومن ثم البيع مرة أخرى على الحجاج.

وكان لوجود ميناء جُدة بالقرب من مكة المكرمة أثره البارز في تعدد السلع التجارية القادمة من الهند والصين ومصر وجاوه[١٠]، إذ هي محطة مهمة للمراكب التي تُقِلُّ السلع المختلفة، فيقام فيها موسم تجاري مهم قبل موسم

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٤.

(٤) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٣ - ٢٢٤، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤١.

(٥) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٣، ٢٢٦، تحقيق أمحزون.

(٦) المصدر السابق، ص١٠٣.

(٧) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٢.

(٨) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤١.

(٩) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٠.

(١٠) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ج١، ص٢٧٦؛ أحمد عمر الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٧٧.

الحج، تُباع فيه البضائع المجلوبة. وبفضل اشتغال أهل جُدة بالتجارة فقد كوَّنوا ثروات ضخمة[١]، هذا بالإضافة إلى ما يحمله الحجاج القادمون إليها والذين اعتادوا استبدال سلعهم في أسواقها، ومن ثمّ التهيؤ لدخول مكة المكرمة ومتابعة تجارتهم فيها.[٢]

الصناعة المحلية وأهم الصناعات اليدوية:

يرتبط قيام أي صناعة بتوافر مقوماتها المتمثلة في المواد الخام والأيدي العاملة الخبيرة التي قدمت إلى الحجاز إما للمجاورة أو الاستقرار. وفي منطقة الحجاز وجدت بعض المواد الخام، والأيدي العاملة الماهرة، والاستقرار السياسي النسبي، فازدهرت فيها العديد من الصناعات اليدوية الدّالة على تمرّس أصحابها في مزاولتها.

وضمت الحجاز مجموعة بشرية تحتاج إلى صناعات تخدمهم، فظهر منها ما يلزم لقوام حياة المستقرّين فيها، من صناعة بناء ونجارة وحدادة ونحت وتذهيب، وهناك صناعات ارتبطت بالزراعة والرعي والتجارة والبحر. وسنكتفي بذكر ما أشار إليه الرحالة المغاربة في أماكن متفرقة بين دفتي متون رحلاتهم، وما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية الأخرى.

فمن الصناعات المرتبطة بالزراعة: ذكر العياشي مشاهدته لمحاريث وفؤوس[٣]، وهو ما يدل على وجود مَنْ يقوم بصناعتها لاستخدامها في الزراعة

---

(١) مورتيل: الأحوال السياسية، ص٧٥.

(٢) عائشة عبدالله باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ٥٦٧ - ٦٤٨هـ، ص٦٤، دار مكة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م د.م.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤.

إلى جانب كثير غيرها كالمناجل[1] والغرابيل[2]، وقامت على الإنتاج الزراعي بعض الصناعات مثل الحبال[3] والوسائد[4] التي وجدت صناعتها منذ القرن السابع الهجري[5] وربما قبله. كما أتقن أهل الحجاز صناعة العطور المستخرجة من الأزهار والورود التي زرع منها شيء كثير[6]، وخاصة في منطقة الطائف المشهورة بصناعة العطور المستخرجة من الورد.

كما أبدعوا في صناعة الحلويات المصنوعة من الفواكه والعسل[7]، وكان قد أشار إليها ابن جبير وامتدح مذاقها وجودتها[8]. كما أتقنوا صناعة الخصف والحُصُر[9]، والمكانس.[10]

أما الصناعات المرتبطة بالثروة الحيوانية فهناك صناعات عديدة، منها

(١) سليمان عبدالغني المالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري، ص١٠٣، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٥.

(٣) المصدر السابق، ص٣٩١، ٤٠١، ٤٠٦.

(٤) محمد بن محمود بن النجار: أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة، ص٣٧، تحقيق صالح محمد جمال، ط٣، مكتبة الثقافة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، د.م؛ العياشي: ماء الموائد، ص٣٩١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٦.

(٥) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٥٣.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٣، ٣٩٧؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٤، ج٢، ص٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٨٣.

(٧) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٥٦، ٥٩.

(٨) ابن جبير: الرحلة، ص٩٨.

(٩) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧، ٥٠٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٥٤؛ المالكي: بلاد الحجاز، ص١٠٣.

(١٠) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٨، ٤٠٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٥٤.

ما هو مأكول كالسمن[(١)] والجبن[(٢)]، ومنها غير ذلك كالدِّلاء[(٣)]، والقِرَب[(٤)]، والنعال[(٥)] المصنوعة جميعها من الجلود المدبوغة، وهناك ما هو قائم على صوف الحيوانات مثل الأغطية[(٦)] والخيام[(٧)] والمظلات[(٨)] والبسط[(٩)] والفرش.[(١٠)]

وهناك صناعات ارتبطت بالبناء، فقد عُرف عن أهل الحجاز إتقانهم مهنة بناء المنازل بالحجارة المقطوعة من الجبال في مكة المكرمة والمتميزة بتعدد أدوارها وارتفاعها، والمنازل المبنية باللبن والحجارة ذات الطوابق المتعددة في جدة.[(١١)]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٢٦، تحقيق أمحزون؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠، ١٩٨ على سبيل المثال.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة على سبيل المثال، ص٢٢٣، ٢٢٦، تحقيق أمحزون.

(٣) المصدر السابق، ص٤٠١، المخطوطة.

(٤) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٦/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١، ج٢، ص١٠٥.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩١.

(٧) المصدر السابق. ص٣٩٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٢٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٤.

(٨) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٥.

(٩) المصدر السابق، ص٣٩٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٨، ٥٣.

(١٠) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٢.

(١١) ابن جبير: الرحلة، ص٥٤، ٨١، ١٢٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٠، ١٦٦؛ العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩؛ جميل حرب: الحجاز =

ومما ارتبط بالبناء أيضًا التذهيب والطلاء والزخرفة حيث شاهد العياشي العمال المهرة في المسجد الحرام الذين أرسلتهم الدولة العثمانية وهم يعيدون الطلاء والزخرفة فيما محاه السيل عندما دخل المسجد الحرام في وقت مجاورته.[١]

وكانت هناك صناعة النجارة[٢] كالأبواب والأثاث[٣] والكراسي الصغيرة والكبيرة التي تشبه الأسرَّة والمنسوجة بشريط المسد بإحكام[٤]. كما وجدت صناعة الشباري[٥] والشقادف وهي محمل كبير لا يوجد إلا في الحجاز، وهو ذو شقدفين، يوضع كل واحد على جنب البعير ويقرب بينهما بحبال وثيقة على ظهره[٦]. وقد أشار التجيبي في القرن السابع الهجري إلى الشقادف.[٧]

وراجت صناعة الفخَّار لعمل الدوارق والأكواز سواء للاستخدام المنزلي أم للمسجدين المكي والمدني[٨]. وتفنَّن أهل الحجاز في صناعة الأرحاء لطحن الغلال، ومنها الصغير المستعمل في المنازل، أو الكبير الذي وُجد في أماكن

= واليمن، ص١٢٧.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩١، ٣٩٥؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٧/ ب.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٦.

(٣) المالكي: بلاد الحجاز، ص١٠٣ - ١٠٤.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

(٥) «الشباري» جمع شبرية، وهي سرير من الخشب والحبال، لها جوانب تمنع من السقوط، تستعمل لحمل العَجَزَة في الطواف، ويحملها شخصان أو أربعة أو على الدواب في المسافات الطويلة. ابن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٢٩٦، هامش ١، ولا تزال الشباري موجودة إلى الآن وتستخدم لحمل العجزة للطواف بهم.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٢، ٥٤٤.

(٧) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٢٢.

(٨) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٤٦٣؛ العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٨.

طحن الغلال العامة.[١]

ولتوافر الذهب والفضة قامت صناعة الحُلِي التي أدهشت الرحالة المغاربة لجمالها وغرابة أشكالها[٢]، وكانت ذات أثمان عالية.

وكان في الحجاز صناعات قائمة على البحر، ومن أهمها صناعة السفن والقوارب والشِّباك، وقد رأى العياشي في جدة سفنًا وقوارب أُعجب بمتانتها وشدة تحملها وقدرتها على حمل الأثقال الكثيرة على الرغم من أنه لم يُستخدم في صناعتها إلا الألياف والخشب.[٣]

وهناك صناعات أخرى في الحجاز لم يتطرق إليها الرحالة المغاربة لعدم رؤيتها أو لعدم معرفتهم بها.

مواطن الزراعة وأهم المحصولات ومصادر المياه ومشروعاتها

مثَّلت الزراعة في منطقة الحجاز إلى جانب التجارة والرعي رافدًا اقتصاديًا لفئة كبيرة من سكانه، ولا سيما الذين أقاموا في منطقة غنية بالمياه الجوفية ذات الآبار أو العيون أو التي تتساقط عليها كمية من الأمطار تكفي لإنشاء نطاق زراعي فيها. فالحجاز - كما هو معلوم - لم يَحْظَ بوجود أنهار، وليس فيه عيون ماء مستمرة، لذا انحصر اعتماد سكانه في الزراعة على المياه الجوفية أو مياه الأمطار.

أشار الرحالة المغاربة إلى الجانب الزراعي في المناطق التي شاهدوها، وذكروا أحيانًا الطريقة المستخدمة في ريّ تلك المزروعات، مع ذكر أسماء

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٨.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٦؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٤.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

بعضها.

فقد شاهدوا مناطق زراعية في درب الحجاز حيث انتشرت زراعة النخيل في أماكن متعددة في الدرب، وارتبطت أماكن وجودها بموارد المياه، فأشار الرحالة المغاربة إلى كثرة نخيل العقبة[١]، ووجوده في حفائر النخل الذي وصف رُطَبه بالجودة، إذ يبدو أن الزراعة حظيت بعناية السكان هناك، فقد أشار الرحالة المغاربة إلى تركز منابت النخيل على ساحل البحر في حدائق وبساتين منظمة، بالإضافة إلى وجود النخيل والفواكه وأرض واسعة خصبة بالقرب منها.[٢]

أما منطقة مغائر شعيب فقد وجد فيها أنواع متعددة من الزروع ذكر منها الرحالة المغاربة أشجار الطرف والدوم[٣] الذي يخيل للناظر إليه من كثرته أنه نخيل. علاوة على النخيل والعديد من أنواع الفواكه مثل الرمان والإجاص والعنب وخاصة الأسود منه الذي يثمر مرتين سنويًا، ويبدو أنه لقي العناية في زراعته فقد أُنشئت له العرائش المتعددة في مزارع خاصة، كما وُجدت المراعي الخصبة حول المنطقة، وفي مقابل مغائر شعيب يوجد على الساحل أرض خصبة زرعت فيها أشجار الفواكه.[٤]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٠.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦١ - ٦٢.

(٣) «الدوم» شجر معروف، ثمره المقل، ولها خواص كخواص النخل، وتخرج أقناء كأقناء النخلة، فالدوم شجر يشبه النخل إلا أنه يثمر المقل، وله ليف وخوص مثل ليف النخل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص٢١٨.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الرافعي: المعارج المرقية، =

واختصت عيون القصب بزراعة القصب الذي يبدو أنه أخذ اسمه مما يزرع فيه، بالإضافة إلى زراعة النخيل والديس[1]، وأيضًا وجدت أرض صالحة للزراعة في أعلى وادي عيون القصب، علاوة على وجود المراعي الخصبة الواسعة بالقرب منها.[2]

وشهدت المويلح نهضة زراعية لا بأس بها، فقد أقيمت فيها البساتين الكثيرة، وكان فيها النخيل ذو الرطب الجيد، إلى جانب ما وُجد فيها من بساتين المقاثي.[3]

أما الأودية الواقعة بعد المويلح فنبتت فيها أشجار الأراك في مساحات واسعة ولذا سميت الأودية باسم الأراك، فأُطلق اسم (وادي الأراك) على عدة أودية، إضافة إلى انتشار شجر الأثل في أودية الحوراء، وأحيط به نبات الديس بكثرة.[4]

ومن أنواع النباتات التي انتشرت في درب الحجاز شجر الطلح وغيره من الأشجار الرعوية، إذ امتد ذكر هذه الأشجار من أكرا إلى الحوراء، والمعروف

= ص١١٥؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٤/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣، ج٢، ص١٠٧؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٢.

(١) «الديس» نوع من أنواع الحشائش، ويطلق على موقع نمو هذه الحشائش الديسة. انظر: الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٦٢.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٣.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١، ٥٥٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٣.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٨، ١٧١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٣.

أن الطلح من أنواع الكلأ الجيد ترعاه الإبل بكثرة، وهذا ما جعل درب الحجاز من أجود المناطق الرعوية التي اشتملت إلى جانب أشجار الطلح على كثير من الشجيرات الملتفّة التي تظهر بسرعة عقب سقوط الأمطار.[(١)]

أما ينبع فقد أجمع الرحالة المغاربة على كثرة زراعة النخيل فيها، واشتهر بجودة رطبه، وقد استخدم مزارعو ينبع المساحات الفاصلة بين النخيل لزراعة المقاثي وغيرها[(٢)]. والغريب أن اليوسي حذَّر من أكل ثمار ينبع عندما قال: «وأحذّرك غاية الحذر أنْ تَجَنَّبَ أكل ثمره، فإنه قتَّال، فإن كان لا بد فلا تكثر منه».[(٣)]

وربما يعود تحذير اليوسي من أكل ثمار ينبع إلى تعوُّد الرّكب على نمطٍ معيَّنٍ من الأكل خلال رحلتهم، وعندما يُغيَّر فإنه يحدث نوعًا من الألم في المعدة، أو أن ظروفًا صحية حدثت لليوسي عندما أقام في ينبع، واعتقد أنّ سببها ما أكل هناك. ولهذا لا يمكن أن نقول رداءة ثمار ينبع بسبب حالة معينة حدثت لأحد الرحالة، فلو حدث إجماع من كل مَنْ عبر هذا البلد على ذلك فقد نقبل بذلك بعد مناقشته.

ولفت انتباه الرحالة المغاربة كثرة مزارع النخيل في بدر، ورخص أسعار ثمارها بالإضافة إلى العديد من المزارع الأخرى، فبدر - كما وصفها الرحالة

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٠ - ١٧١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١، ١١٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٣.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٦/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦.

(٣) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٦/ ب.

المغاربة - مشتملة على قرى عدة[١]. وما وجد في بدر من نخيل ومقاثٍ وفواكه وُجد أيضًا في الجديدة والصفراء وقبور الشهداء، فقد أشار الرحالة المغاربة إلى أن بساتين النخيل والفواكه تحف بالجديدة من جميع جنباتها، فذكر القيسي كثرة جنانها المحتوية على مختلف الفواكه الصيفية والخريفية التي تنتج في وقت واحد، وقد تزوَّد من ثمار تلك الفواكه ولكنه لم يحدِّد أنواعها.[٢]

أما منطقة رابغ فقد ازدهرت فيها الزراعة واشتد عودها كثيرًا، الأمر الذي تبيَّناه من خلال وصف الرحالة المغاربة المتعاقبين على المرور عليها، ويعود ما ذكروه عن الجانب الزراعي على الأرجح إلى استيطان السكان فيها، خاصة ممن له معرفة زراعية، فمن جملة ما وجد فيها النخل الكثير، ومزارع الدخن والذرة، وكثير من مزارع المقاثي والفواكه، حيث أجمع الرحالة المغاربة على أن وادي رابغ من أخصب أودية الحجاز، وأنه كثير الفواكه والخير والنِّعم.[٣]

وامتدت المساحات الزراعية من رابغ، ففي قديد زُرع كثير من الفواكه والمقاثي والحبحب.[٤]

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٧.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٩١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٨.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨١؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٣.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٢؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

ووجد في خليص كثير من المزارع التي تُمدّ مكة المكرمة بما تحتاج إليه من الخضروات والفواكه والرياحين، كما انتشر فيها زراعة النخيل والدخن والمقاثي، إلى جانب العديد من أشجار الأثل والأشجار البرية والحبحب الذي وصف بالحلاوة.(١)

ولم تخلُ عُسفان وبرقة من دوحات الأشجار الملتفة من الأثل التي زرعت بينها المقاثي والدخن والخضروات، لدرجة أن الرافعي وصف عُسفان بالجنان الحسان، بالإضافة إلى أنواع من الأزهار والورود ذوات الروائح العطرة، فكانت مزارع عُسفان وبرقة لكثرة ما يزرع فيها من المقاثي والخضروات تمد مكة المكرمة وجُدة بما تحتاجان إليه.(٢)

أما وادي فاطمة فقد تحدث الرحالة المغاربة عن كثرة نخيله، ومزارعه، وتعدد ثماره، وخضرواته، بالإضافة إلى العديد من مزارع البطيخ، واختص مزارعو وادي فاطمة بزراعة الأزهار والورود، وخاصة شجر الكادي، وانتشرت المزارع الكثيرة الخاصة به، الأمر الذي أدىّ إلى انتشار رائحته الشذية التي لفتت انتباه الدرعي.(٣)

وقد وجد بين مكة المكرمة وجُدة العديد من البقع المزروعة التي شاهدها

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤، ٨٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩ - ١٥٠، ج٢، ص٤٩، الطبعة الحجرية؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٢.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص٧٦؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٧.

العياشي مثل حداء[1] التي شاهد فيها أشجار الأثل، والمزارع التي لم يسمّ ما زُرع فيها، إلى جانب العشب الكثير، كما وجد بعدها بمسافة يسيرة مزرعة ذكر أنها من المزارع المشهورة التي اختصت بزراعة الحبحب الجيد الذي يجلب منه إلى مكة المكرمة مقادير كبيرة[2]. ولعل هذه المزرعة هي التي كانت تعرف بعين سليمان في القرن السادس الهجري.[3]

وشاهد العياشي بين مكة المكرمة والطائف في وادي نعمان كثيرًا من شجر الأراك، والعديد من الأزهار البرية، أما جبل كرا فنبت فيه شجر العرعر بكثرة، علاوة على ما وجد في الهدا من مزروعات كثيرة لم يسمّها العياشي، أما وادي محرم ففيه أشجار من مختلف أنواع الفواكه داخل بساتين وحدائق.[4]

أما الطائف فكانت عبارة عن جنان حافلة بالنخيل[5]، وكثير من أنواع الفواكه، كالأعناب، والسفرجل، ووصفهما اليوسي بأن لا نظير لهما.[6]

وفي المدينة المنورة انتشرت الزراعة انتشارًا واسعًا، وخاصة زراعة النخيل، حيث كان القادمون إلى المدينة المنورة يرونه ابتداءً من جبل مفرح وذي الحليفة يحيط بالمدينة المنورة إحاطة السوار بالمعصم. ثم إن الداخل

---

(١) «حداء»: عين جارية في مر الظهران يمر بها طريق مكة المكرمة إلى جُدة على (٢٩) كم بين الحديبية وبحرة، وهي حداء وليست حدة. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢٤١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

(٣) ابن المجاور: تأريخ المستبصر، ص٤١؛ نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢٤١.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٠ - ٤١١.

(٥) وهو أمر مستغرب لأن الطائف لا تشتهر بزراعة النخيل.

(٦) المصدر السابق، ص٤١١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ أ.

إلى المدينة المنورة كان يشاهد النخيل على جانبي الطريق مضفيًا ظلاله عليها، واعتاد أهل المدينة المنورة على الخروج للتنزه في بساتين النخيل الكثيرة. كما كثرت فيها عرائش العنب والفواكه والرمان، بالإضافة إلى العديد من الخضار كالجزر والبقلاء والملوخية والبامية والبصل واللفت، والخضار البرية مثل الخبيز، علاوة على الرياحين والأزهار. وقد انتشرت المزارع والحدائق سواء منها الكبيرة أم الصغيرة حول جبل أُحد والبقيع وما حولهما. وأحاط النخيل بقباء من أكثر جهاته، وكذلك وجد النخيل بالقرب من باب الشامي، وخارج المدينة المنورة جهة باب المصري، وعلى طريق العقيق، وفي عوالي المدينة المنورة التي وُصِفت حدائقها بالجمال، كما وجد في الحرة الغربية والشرقية، وعمومًا فالمدينة المنورة كانت عبارة عن حديقة كبيرة انتشرت فيها أنواع النباتات المختلفة التي كانت تسدُّ حاجة السكان.

ويبدو أن الذي ساعد على ازدهار الزراعة كثرة المزارعين الذين استقروا فيها من غير أبناء المدينة المنورة، وامتلكوا المزارع، وألَّفوا كتبًا في الفلاحة.(١)

أما مكة المكرمة فلم تخلُ من الزراعة، فقد وُجدت فيها مساحات من الأراضي المزروعة، حدد أماكن بعضها الرحالة المغاربة وغيرهم من المؤرخين، ومن هذه المناطق الزراعية الزاهر الذي وصف بلفظ بديع يعبر عما وجد فيه من

(١) القيسي: أنس الساري، ص٩٢؛ العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص ١١٠ - ١١١، ١١٧، ١٢١، ١٤٩، ٢٢٤، ٢٢٧، ١٥١، ١٥٥، ١٥٧ - ١٥٩، ١٦١ - ١٦٢، ١٧٥ - ١٧٦، ١٩١، تحقيق أمحزون؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٧؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٥، ١٦١، ١٦٦؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٧، ١٧٢؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٤٢.

مزارع وأشجار وخضروات بقولهم: «جنان مكة»[١]. كما وُجد كثير من البساتين في المسفلة.[٢]

ومما سبق نلحظ أن منطقة الحجاز في بعض بقاعها شملت العناصر الطبيعية المتكاملة لقيام نشاط زراعي فيها، من مطر وحرارة ومياه جوفية وتربة خصبة وعناصر بشرية وحيوانات مختلفة، إذ توافرت البيئة الرعوية جنبًا إلى جنب مع البيئة الزراعية.[٣]

إذن فقد شهد الرعي والزراعة أزمنة من الازدهار الملحوظ، وخاصة في المناطق التي تقع على طريق الحج أو الموانئ التي كانت تُمثِّل أسواقًا في الوقت نفسه، كالمويلح وينبع.

وقد أيَّد المؤرخون والباحثون ما ذكره الرحالة المغاربة عن الزراعة ومحصولاتها في الحجاز، وأضافوا إلى ذلك ذكر بعض أنواع المحصولات الزراعية والخضار والفواكه، وحددّوا أماكنها.[٤]

الثروة الحيوانية:

وكما وجدت الأراضي الزراعية وجدت بجانبها المراعي التي ساعدت على تكاثر الثروة الحيوانية، ولم يُغفِل الرحالة المغاربة ذكر أماكن المراعي

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٨٨ - ٨٩، ٩٣؛ الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٠٩٩.

(٣) د. عمر الفاروق السيد رجب: الحجاز - المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية - أرضه وسكانه - دراسات إيكولوجية، ص٢٧٢، جدة، دار الشروق، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٤) ابن المجاور: تأريخ المستبصر، ص٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٥٣ - ٢٥٤؛ جميل حرب: الحجاز واليمن، ص١٢٠ - ١٢٤؛ الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٥٧ - ١٥٩.

الخصبة، مثل ذكرهم لمغائر شعيب، ثم عيون القصب، وبين الدركين. وأشار الرحالة المغاربة أيضًا إلى وجود مراعٍ شاسعة في بدر وما حولها، حتى إن القيسي شاهد أعشاش الرعاة متناثرة فيهاً.(١)

ومارس الرعاة من الأعراب التجارة جنبًا إلى جنب مع أفراد الرّكب، وكانوا يقبضون مقابل ما يبيعونه نقودًا ذهبية وفضية.(٢)

وقد امتدح العياشي حمير الحجاز التي لم يَرَ لها نظيرًا في سرعتها، وغلاء أسعارها(٣). كما توافرت الخيول والبغال والحمير والبقر في مكة المكرمة(٤). ووُجدت البقر في الوجه أيضًا.(٥)

وحازت لحوم الحجاز على سمعة طيبة، إذ نالت إعجاب الرحالة المغاربة ووصفوها بأنها في غاية الجودة، وطيب المذاق، سواء في حالة هزالها أم سمنها.(٦)

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨ - ١٠٩.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص١٢٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣، ٢٢٣، ٤٠١، ٤٠٥؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧١ - ١٧٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧، ١٧١؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٩؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٠ - ١٨١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠١.

(٤) المصدر السابق، ص٣٩٥، ٤٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٨.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٠ - ١٨١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٦.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص٩٨ - ٩٩؛ العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٦، تحقيق أمحزون؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ أ؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٤.

والجدير بالذكر أن نمط الرعي في الحجاز ارتبط ارتباطًا قويًا بموسم الأمطار، وأحوال المكان الطبيعية، حيث كان لهذين العاملين أكبر الأثر في ازدياد مهنة الرعي المعروفة منذ القدم وتطورها.[١]

ولم يقتصر أهل الحجاز على تربية الحيوانات والإفادة منها، بل تعدوا ذلك إلى تربية الحشرات المفيدة، إذ لقيت تربية النحل اهتمامًا في الحجاز منذ القدم، فقد استخدم النحل لأغراض دفاعية وهي إطلاق النحل على الأعداء، واقتصادية في الجاهلية[٢].

أما بعد ذلك فاقتصرت تربيته على الناحية الاقتصادية.[٣]

مصادر الماء في الحجاز:

كان جُلّ اعتماد أهل الحجاز في شربهم وزراعتهم على المياه الجوفية، من عيون وآبار، بالإضافة إلى ما يستنقع من مياه الأمطار الموسمية، أو مجاري سيولها. وحيثما وُجد الماء وجدت الزراعة كما في العقبة، وحفائر النخل، ومغائر شعيب، وعيون القصب، والمويلح، وينبع، وبدر، والجديدة، والصفراء، وخليص، وعُسفان، ومرِّ الظهران، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف.

ويعد المطر المصدر الرئيس لمياه الرّيّ اللازمة للزراعة في الحجاز، حيث اعتمد عليه ٩١ ,٥٣٪ من جملة المساحة المزروعة في الحجاز، وذلك في منطقة الطائف. أما المصدر الثاني للمياه فكانت الآبار، إذ اعتُمد عليها في

(١) د. عمر رجب: الحجاز، ص٣٠٦ - ٣٠٨.

(٢) ابن المجاور: تأريخ المستبصر، ص١٤.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٩٦ - ٩٨؛ العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٨؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧، ٩.

زراعتها نحو ٦٢ ,٣٨٪ من جملة المساحة المزروعة خاصة في المدينة المنورة. أما المصدر الثالث فهي العيون، ولا تزيد نسبة الأراضي الزراعية المعتمدة عليها على ٤٧ ,٧٪ من جملة المساحة المزروعة وبشكل كبير في المدينة المنورة وينبع.[١]

مشروعات المياه:

أقامت الدولة العثمانية في منطقة الحجاز بعض مشروعات المياه الضخمة التي خدمت أهلها والوافدين عليها، كما أسهم أشراف الحجاز في إقامة مشروعات صغيرة للمياه[٢]، بالإضافة إلى إسهام بعض المجاورين الموسرين[٣] الذين اكتفوا بإنشاء ما يناسب قدراتهم المالية، من بناء أسبلة للماء[٤]، أو حفر للآبار في المناطق التي تفتقر إليه لتيسير عبورها دون مشقة[٥]، كما وجدت بعض جهود ذاتية وقتية لتوفير الماء، وتنتهي برحيل القائم بها عن المنطقة[٦]. وأسهم أمراء الحج أيضًا في بناء البرك على درب الحجيج من أجل الحصول على الماء بسهولة.[٧]

وعلى الرغم مما وجد في الحجاز من مشروعات للمياه، فإنها لم تكن كافية، فقد ارتفعت أصوات الرحالة المغاربة بالشكوى من نقص الماء في أماكن

---

(١) د. عمر رجب: الحجاز، ص٢٧٨ - ٢٨٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص٥٤٤.

(٤) المصدر السابق، ص١٧٠؛ الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١١٦.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٤.

(٦) المصدر السابق، ص٥٤٢.

(٧) المصدر السابق، ص١٤٣، ١٧١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٦٦.

عديدة، لأن معظم تلك المشروعات الصغرى كانت تؤول إلى الخراب بعد مدة من الزمن لقلة الاهتمام بمتابعتها وصيانتها.

وخُصَّت المدينتان المقدستان بالاهتمام الأكبر لتوفير الماء فيهما، ففي مكة المكرمة وُجدت بئر ماء في التنعيم اقتصر استعمالها على الاغتسال والوضوء للمعتمرين هناك[1]. كما أُنشئ في الزاهر سبيل ماء سماه الرحالة المغاربة سبيل الجوخي. ولتوافر الماء هناك أقيمت مقاهٍ كثيرة للاستراحة والتزود بالماء سواء عند الذهاب للعمرة، أم عند الرجوع منها[2]، وما قيل عن الزاهر في هذه المدة سبق أن قاله ابن بطوطة والبلوي في القرن الثامن الهجري.[3]

وخصّ الرحالة المغاربة بالذكر آبار ذي طُوى[4] التي ذكرها قبل ذلك ابن جبير[5]، وكانوا يغتسلون منها قبل دخولهم إلى مكة المكرمة اقتداءً بسنة الرسول ﷺ.[6]

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٠٧.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٨.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٣؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣٠٩.

(٤) تعرف اليوم بجرول، ولم يبق هناك إلا بئر واحدة، ذكر أن الرسول ﷺ اغتسل وتوضأ منها، ومياهها اليوم غير صالحة للشرب، ويقع البئر اليوم أمام مستشفى الولادة في مكة المكرمة.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٨٨ – ٨٩.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧ – ٣٩٨؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٧؛ روى البخاري في باب الاغتسال عند دخول مكة المكرمة عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يبيت بذي طوى، ثم يصلي به الصبح، ويغتسل. ويحدّثُ أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك. انظر: البخاري: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج١، ص٢٧٤.



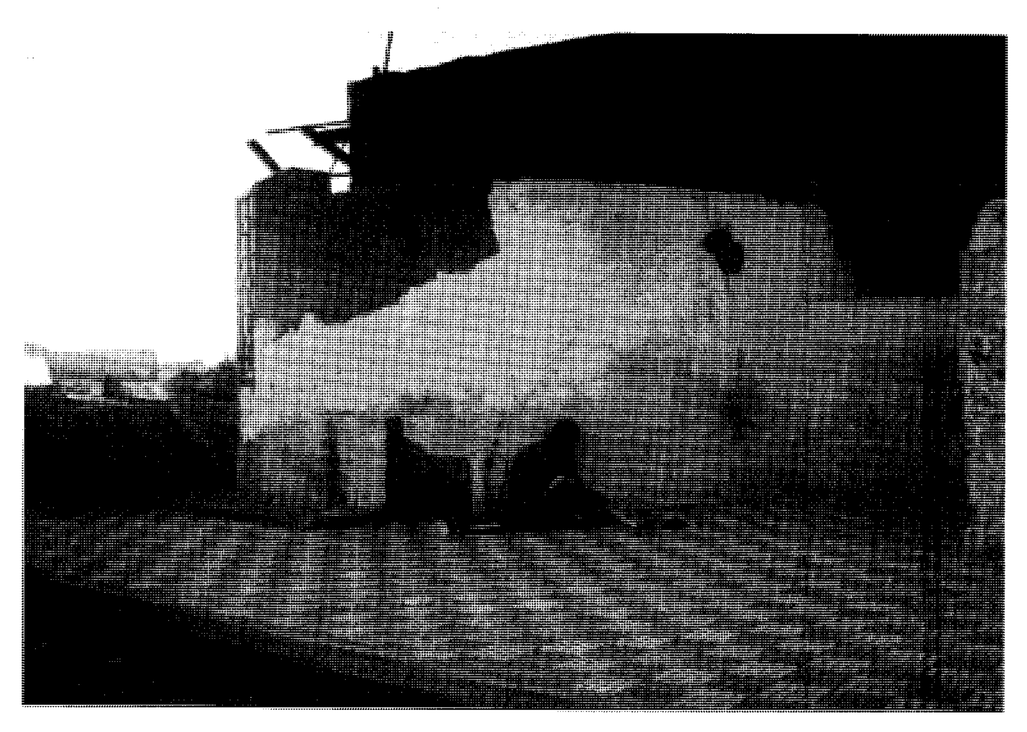
الشكل رقم (٢) يمثل بئر طوى في وضعها الحالي

ورأى الرحالة المغاربة الجِعِرَّانة[١] بئرين كبيرتين مبنيتين بالحجر المنحوت، وأقيم حولهما بساتين غناء، وماؤهما عذب غزير.[٢]

---

(١) سبق التعريف بالجعرانة ص٢١٣، وهي الآن من ضواحي مكة المكرمة القريبة العامرة بالسكان، وفيها البئر التي يذكر أن النبي ﷺ قد اغتسل منها عندما دخل مكة المكرمة محرمًا بالعمرة بعد غزوة حنين، وهذه البئر الآن غير صالحة للشرب، وتقع خلف المسجد المقام هناك للاعتمار.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٧؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.



الشكل رقم (٣) يمثل وضع بئر الجعرانة في وضعها الحالي

وأجمع الرحالة المغاربة على ندرة الماء في منى وعرفة، إذ على الذاهب لإحداهما التزود بالماء من المشعر الحرام وحمله إليهما، وقد تجشَّم العياشي مشقة حمله إلى عرفة في حجته الثالثة، فوجد أن أحد كبار رجال الدولة العثمانية الذي لم يذكر اسمه قام بتسبيل الماء فيها، إذ كان يبعث مَنْ يُحضره طوال يوم عرفة، فانتفت حاجة الحجاج للماء الذي حملوه معهم، وأشار الحضيكي إلى وجود عين ماء تجري في عرفة[1]؛ وذلك يدل على وجود الماء وقت رحلته.

واتفقت أقوال الرحالة المغاربة على توافر الماء في المشعر الحرام، إذ اعتمد الحجاج عليه سواء كانوا في منى أم في عرفة، ويبدو أنه كانت هناك

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٠/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٣.

عين ماء أو بئر غزيرة، حيث أقيمت ساقيتان نُصبت عليهما الدلاء، وهذه البئر أو العين دون مستوى الأرض، إذ ينزل إليها بدرج، وكان هذا الماء يخدم عموم الحجاج.[١]

ويظهر أنه قد أُنشِئت بركة ماء كبيرة فيما مضى في وادي مُحسِّر ليتمكن الحجاج من التزود بالماء منها، ولكن وصفها الرحالة المغاربة بالخراب طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، وهو ما يعني عدم الاهتمام بإصلاحها خلال هذه المدة، كما وجدت بركة ماء يتزود الحجاج منها بالماء بين منى ومكة المكرمة.[٢]

وكانت أهم مشروعات المياه في مكة المكرمة مشروع عين زبيدة التي أوصلها العثمانيون إلى داخل مكة المكرمة عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، والتي بدأ العمل فيها عام ٩٦٩هـ/ ١٥٦١م[٣]. وقد أطنب العياشي في وصف عظمة بنائها واعتناء الدولة العثمانية بصيانتها باستمرار، فقال: إنه «عندما ذهب إلى الطائف سلك الطريق الذي مُدَّت به». وقال: إن «منبعها من أصل جبل الكُر وهي مارة بعرفة، ثم بالمشاعر المقدسة، منتهية بمكة المكرمة»، وكان اعتماد أهل مكة المكرمة عليها في وقت رحلته. وقد لفت نظره طريقة بنائها التي قال عنها: «إنها تدل على عظمة وفخامة ملك آل عثمان وعظم اعتنائهم بأمر الحرمين؛ إذ شاهد عند كل غُلْوة أو غلوتين جزءًا مكشوفًا منها، عليه بناء محكم، والعمال مجدّون في إصلاح ما قد تهدم منها، وتنظيف ما تهدم، وقد رُكِّب عليها ساقية يجري

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢ - ١٥٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٩ - ١٥٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٥.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣١.

(٣) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص٧٥، ٩٢، ٩٤.

ماؤها على وجه الأرض».[١]

وأضاف الحضيكي أن مياه هذه العين قد سدت احتياجات أهل مكة المكرمة، إذ خرجت تمديداتها بين منازلها، واستخدمت مياهها في ملء بركة ضخمة بنيت في المعلاة لمساعدة الحجاج على الاستقاء والغُسْل بيسر، كما أوصلت هذه العين إلى سقاية أنشئت في المروة، إضافة إلى مد ميضأة المسجد الحرام بالماء[٢]. كما وجدت سقاية داخل المسجد الحرام سماها الغنامي سقاية العباس الخاصة بزمزم.[٣]

وما أورده الحضيكي ورد عند الطبري الذي قال: إن عين زبيدة أو عرفات أوصلت إلى المدعى، ثم المروة من جهة سويقة.. وعطف بها على سوق الصغير، ثم بُني لها سبيل ماء عند سوق المعلاة. كما أشار إلى وجود خدم لهذه العين كما ذكره العياشي قبل ذلك حيث قال: «إن أصل وجودهم كان بسبب ناظر العين والقائم على العمل بها، إذ اشترى عبيدًا سودًا وجواريَ سودًا بمال السلطنة، وزوَّجهم، وجعل لهم ما يكفيهم من خزينة الدولة، وصاروا يتوالدون طبقة بعد طبقة، ومهمتهم الأساسية هي العمل على إصلاح العين باستمرار».[٤]

وكما وجدت مشروعات لإيصال الماء لمكة المكرمة، وجدت أيضًا مشروعات لتصريف المياه، وخاصة تلك التي كانت تتجمع بالحرم المكي عقب السيول، فبنيت قنوات صغيرة مهمتها تصريف الماء منه، وقد وُجدت منذ القرن السابع الهجري وربما قبله بكثير، إذ أشار إلى وجودها كلٌّ من

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٠، ٤١٦.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٣.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٤؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥.

(٤) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص٩٤، ٣٤.

العبدري والتجيبي اللذين شاهداها وهي مكشوفة لإصلاحٍ احتاجت إليه في ذلك الوقت.[١]

وهناك قنوات أضخم من تلك التي شاهدها العبدري والتجيبي مهمتها تصريف مياه السيول ذات المقادير الكبيرة، فقد ذكر العياشي أنه بعد دخول السيل للمسجد الحرام عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م، وامتلائه بالماء، احتار الناس في كيفية إخراجه لعدم اهتدائهم إلى موضع البلاليع المعدّة مسبقًا لتصريفه، وبقوا كذلك إلى أن دلهم عليها الشريف زيد، فغاصوا إلى أماكنها وفتحوها فغار الماء. وأضاف أنه بعد ذهاب السيل نُظّفت مجاري الماء التي ملأها السيل بالأتربة[٢]. وهذا حدث أيضًا في عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م عند وجود أبي مدين في مكة المكرمة.[٣]

وما ذكره العياشي أيد وقوعه الطبري في أحداث تلك السنة، وقام بتحديد موقع تلك القناة الضخمة، بأنها عند باب إبراهيم ومنها يتسرب الماء إلى أسفل مكة المكرمة[٤]. وذكر دحلان في حوادث تلك السنة وقوع ما ذكره أبو مدين[٥]. ولأهمية تلك القنوات كان أَمْرُ فتحها بيد شريف مكة المكرمة.[٦]

---

(١) العبدري: الرحلة المغربية، ص١٧٧؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤ - ٣٩٥.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٠.

(٤) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٥٨.

(٥) أحمد زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، ص١٩٢، بهامش التاريخ المسمى بالإعلام بأعلام بيت الله الحرام وهو تاريخ مكة المشرفة حرسها الله، ط١، مصر، د.ت، المطبعة الخيرية.

(٦) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص٩٤، ٩٦، ١٣٨ على سبيل المثال.

ففي ذي الحليفة ذكر القيسي وجود ثلاثة آبار ضخمة، محكمة البناء غزيرة الماء بني لها درج من أعلاها إلى أسفلها، ويبدو أن الموقع ناله بعض إضافات معمارية في زمن رحلة العياشي إذ أشار إلى وجود سبيل ماء هناك لم يذكره القيسي، كما أضاف الحضيكي وجود صهريج ماء هناك لم يذكره مَنْ سبقه[١]؛ وذلك يدل على أن إقامة مشروعات المياه هناك كانت تتم على مدد زمنية مختلفة، وكما كانت المشروعات تقام على مدد زمنية، أقيمت إضافات إلى هذه المشروعات لخدمة الموقع ورواده على مدد زمنية أيضًا.

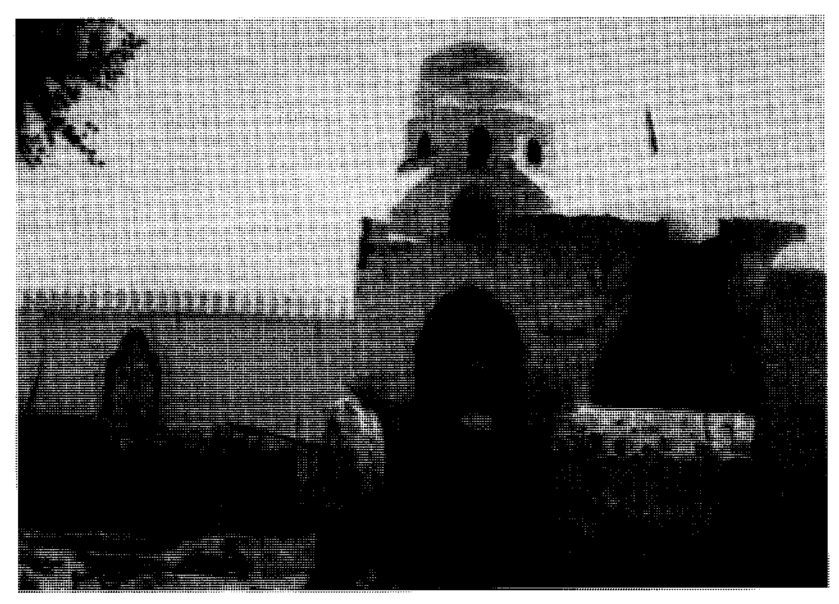
واشتهرت المدينة المنورة بكثرة آبارها وعيونها، لذا أقيمت فيها السقايات والبرك، وأسبلة الماء في أماكن كثيرة منها، وقد رصد الرحالة المغاربة أماكنها ووصفوا البناء الذي أقيم عليها، ومَنْ يقوم على استغلالها وصيانتها.

وتحدث العياشي عن عين الأزرق في المدينة المنورة، فذكر أن منبعها من بئر كبيرة موجودة في حديقة بالقرب من بئر أريس[٢] التي تمدها هي أيضًا بالماء إلى جانب آبار آخرى كثيرة. وذكر أنه قد أُنشئ لهذه العين قنوات تحت الأرض، محكمة البناء إلى أن تصل إلى بُطْحان، ثم إلى غربي المدينة المنورة، وقد قسمت إلى جداول، فأدخل ما احتيج منها إلى داخل المدينة المنورة على شكل مناهل متعددة، بُنيت بإتقان شديد، يُهبَط إليها بدرج، قُدِّر عددها بثلاثين

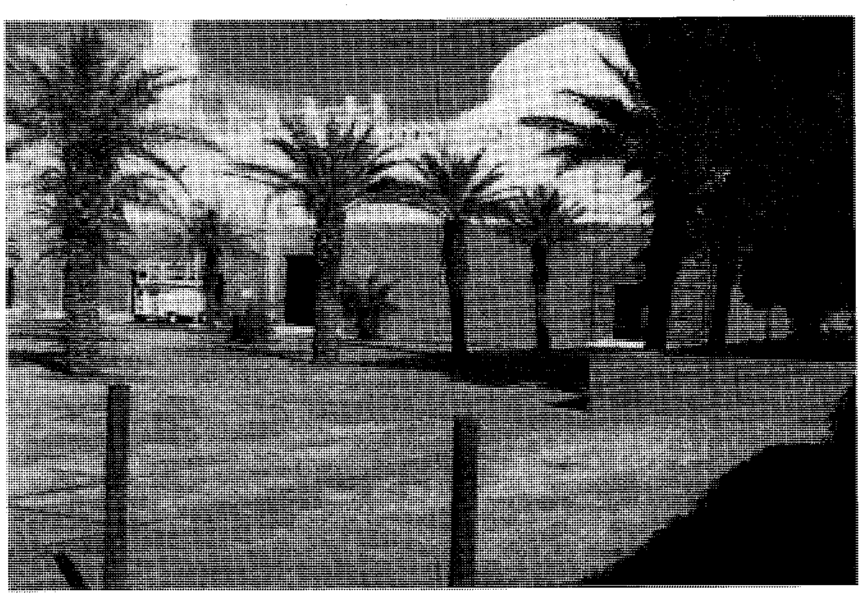
(١) القيسي: أنس الساري، ص٩٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٧.

(٢) «بئر أريس» سقط فيها خاتم النبي ﷺ من يد عثمان بن عفان رضي الله عنه وعرفت ببئر الخاتم. انظر: ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤١ - ٤٣.

درجة، بُنيت ورُصفت بدقة، علاوة على سعة الممشى، وتلك المناهل كانت عماد أهل المدينة المنورة في السقي، وقد رأى الرحالة المغاربة عدة مناهل، منها:



الشكل رقم (٤) يمثل في الصورة العليا بئر أريس سابقاً نقلًا عن كتاب ١٥٠ صورة من المدينة المنورة، والصورة السفلى توضح وضعها الحالي



- أولًا: شرقي المسجد النبوي بينه وبين باب البقيع في مكان يسمى الحرة.
- ثانيًا: خارج باب السلام من الناحية الغربية عند سوق المدينة المنورة بالبلاط.
- ثالثًا: شمالي المسجد، وبعيدًا عنه إلى ناحية باب الشامي.
- رابعًا: شرقي جبل سَلْع وفي قبلة مسجد هناك حيث يوجد مجرى للعين بالقرب من قبر حمزة رضي الله عنه غربي المسيل جهة القبلي.

كما ظهرت في أماكن متعددة خارج المدينة المنورة وهي حينًا تقرب من سطح الأرض وحينًا تبعد داخلها إلى أن تخرج قريبًا من الغابة شرقي مسجد رُومة، حيث توجد مزارع تروى منها، وشاهد العياشي منها جدولًا قريبًا من مسجد الراية يهبط إليها بثلاث درجات. وأشار إلى أن جميع الأسبلة الموقوفة في المدينة المنورة إنما هي من عين الأزرق، وذكر أن الدوارق التي توضع في الحرم النبوي للشرب إنما تملأ منها، وأضاف أن الدولة العثمانية قد اعتنت بهذه العين، إذ خصصت لها أوقافًا وأميرًا وأتباعًا مهتمهم تفقّد أحوالها، والعمل على إصلاح ما قد يتهدم منها، ولولا ذلك لاندثرت كغيرها من عيون المدينة الأخرى.[١]

وإشارة العياشي والدرعي وأبي مدين إلى مناهل عين الأزرق أيد مواقعها وطريقة بناء قنواتها وسقاياتها الخياري.[٢]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٠ - ١٥٢، تحقيق أمحزون، ج٢، ص٩٩، الطبعة الحجرية؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٨، ٣٠، ٣٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٤، ١٥٠.

(٢) أحمد ياسين أحمد الخياري: تأريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا، ص٢١٠ - ٢١٤، تعليق وإيضاح وإضافة وتخريج عبيدالله محمد أمين كردي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، =

وانفرد القيسي بذكر عين تنسب للنبي ﷺ، ووصفها بقوله: إن عليها بناءً مستديرًا، ومنبَعُ العين من وسطها كأنه الحوض المستطيل، وتحته سقايتان مستطيلتان، وبين كل سقاية والحوض حاجز، وينزل إليها بدرج عددها خمس وعشرون درجة، وماء العين غزير.[١]

وقد حدد ابن جبير والبلوي موقعها سابقًا حيث قالا: «إنها بين المدينة المنورة والخندق على يمين الطريق»، واتفقا في وصفها مع القيسي، وأضافا أن أهل المدينة المنورة يستخدمون ماءها في شربهم وغسل ملابسهم، وأشار ابن جبير إلى أنهم يستعملون طريقة الاستقاء لتناول الماء حفاظًا على نظافته[٢]. وأمدنا ابن النجار بقصة ابتداء أمرها، فقال: «كانوا أيام الخندق يخرجون برسول الله ﷺ، ويخافون البيات، فيدخلون به كهف بني حرام فيبيت فيه، حتى إذا أصبح هبط... ونقر رسول الله ﷺ في العينية التي عند الكهف فلم تزل تجري حتى اليوم.. إن هذه العين ظاهر المدينة وعليها بناء وهي مقابلة المصلى».[٣]

ولم تعد تعرف هذه العين زمن السمهودي إذ اندثرت ومُحِيَ أثرها، وقد ناقش السمهودي قضية أن تكون إحدى مناهل عين الأزرق، ورجح أنها العين المنسوبة للنبي ﷺ، معللًا ترجيحه باتفاق ابن جبير وابن النجار في وصفها، لذا أبعد كونها عين الأزرق.[٤]

أما الفيروز آبادي فأكد أنها عين الأزرق[٥]. في حين ذكر علي حافظ أن

= المملكة العربية السعودية، دار العلم للطباعة والنشر.

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٢٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٥ - ١٧٦؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٩٠.

(٣) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٩.

(٤) السمهودي: وفاء الوفاء، ج٣، ص٩٨٥.

(٥) الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٢٩٥.

الكهف معروف الآن عند أهل المدينة، ولكنه لم يوضح ما إذا كان فيه ماء أم لا.(١)

ومما سبق نستغرب وصف القيسي لهذه العين المطابق تمامًا لما أورده ابن جبير قبل قرون، مع الأخذ في الحسبان أن السمهودي الذي عاش في القرن العاشر الهجري يؤكد أنها اندثرت ومُحي أثرها فالقيسي بعد أكثر من قرن يذكرها بوصف مطابق لابن جبير؟ فلعل القيسي نقل وصفها من ابن جبير ولم يُشِر لذلك، وهذا هو التفسير المنطقي، مع التنبه إلى إغفال باقي الرحالة المغاربة ذكرها؛ الأمر الذي يؤكد اندثارها.

ووُجد في المدينة المنورة سقايات ومواضئ، إذ ذكر القيسي أن فيها ثلاث سقايات داخل باب الحديد ينزل إليها بدرج، وماؤها عذب نمير، وهي على مقربة من المسجد النبوي.(٢)

وأشار الرحالة المغاربة إلى وجود بناء متسع بالقرب من مشهد حمزة رضي الله عنه في داخله بئر وأخلية للوضوء متصلة بالسطح، كما أشاروا إلى وجود بئر أخرى كبيرة هناك، بجانبها بناء يشبه المسجد، وتحته ماجل ماء يهبط إليه بدرج(٣). وأكد وجودها القيسي قبل ذلك وذكرها بلفظ سقاية.(٤)

وذكر إبراهيم رفعت أن الأشْرفَ قايتباي كان قد حفر خارج البناء بئرًا

---

(١) علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة المنورة، ص٢٨٨ - ٢٨٩، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، د.ت.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٠٧؛ العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٢٧، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٢٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٠.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص١٠٧.

بدرج يفضي إلى الماء[١]، ويبدو أن هذا البناء هو الذي وصفه الرحالة المغاربة.

وحدّد العياشي أخلية للوضوء بجانب بئرين بالقرب من مشهد إسماعيل، وفي موضع آخر ذكر أن هناك بئرًا تنسب إليه، وبئرًا ثالثة في الرحبة الواسعة خارج المشهد.[٢]

وقد وجد تحت المئذنة السليمانية أمكنة للخلاء، وبئر للوضوء، وشرب الماء[٣]. وحدّد الدرعي موقع ماجل ماء ينزل إليه بدرج بالقرب من مسجد أبي بكر رضي الله عنه وعند الباب المعروف بباب علي.[٤]

وشاهد الرحالة المغاربة ميضأة كبيرة في آخر المسجد النبوي فيها بئر كبيرة، وأخلية للوضوء يفتح بابها على المسجد النبوي، واستخدامها قاصر على أغوات المسجد النبوي ليلًا بعد قفلهم لأبوابه.[٥]

الآبار في المدينة المنورة:

كان في المدينة المنورة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين آبار كثيرة ذكر الرحالة المغاربة بعضها.

ومن هذه الآبار المهمة بئر أريس الواقعة في حديقة غربيّ مسجد قباء، وقريبًا منه، ولغزارة مائها أُنشئ بقربها بركة يرفع ماء البئر إليها، كما تمدّ هذه البئر

(١) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٣٩٢؛ الخياري: تأريخ معالم المدينة، ص١٣٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٩٥، ١٧٥، تحقيق أمحزون.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٧٨، تحقيق أمحزون.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٢٣.

(٥) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٣٢، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣.

الحديقة بما تحتاج إليه من ماء، وزُرِع فيها مختلف أنواع الفواكه والأشجار.[١]

ولا يختلف ما أورده الرحالة المغاربة في مجمله عما أفاض فيه مؤرخو المدينة المنورة في وصف بئر أريس، وابتداء أمرها، والتجديدات المتوالية عليها، وفضلها[٢]. وتحدث عن هذه البئر المؤرخون، ومنهم عبدالقدوس الأنصاري الذي ذكر أن البئر ليس فيها ماء عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، وأن عمقها (١٢)م وتبعد عن مسجد قباء نحو (٣٨)م[٣]، وأضاف علي حافظ أن ملكية البئر آلت إلى البلدية بعد قيامها بإنشاء ميدان مسجد قباء في أواخر سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م. وتبعد البئر عن باب المسجد بحوالي (٤٢)م جهة الغرب، وهي الآن ناضبة، ويمكن إخراج مائها بالإرتواز[٤]. وحدد الخياري موقعها الآن بأنه مقابل الباب الغربي الأوسط لمسجد قباء على بُعْد خمسين مترًا تقريبًا، وتحت الرصيف المتوسط بين جانبي الطريق.[٥]

وذكر القيسي أن بئر أريس بالقرب من مسجد قباء وعلى طريقه مقابل مسجد قباء في غربيه، وقع فيها خاتم النبي ﷺ من يد عثمان بن عفان رضي الله عنه. وأشار إلى أن متولي العمارة للسبيل والبركة المقابلتين للمسجد قد رفعا جدار البئر نحو ثلاثة أذرع، وله درج. كما أشار إلى بئر كبيرة عذبة أمام باب مسجد قباء وفي صحنه، ومنها يأتي الماء إلى المدينة المنورة[٦]. وهذه البئر أشار

---

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٠، تحقيق أمحزون.

(٢) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤١ - ٤٣؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٤٨؛ الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٢٥ - ٢٩.

(٣) الأنصاري: آثار المدينة المنورة، ص٢٣٧، ٢٣٩.

(٤) علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة المنورة، ص١٨٧ - ١٨٨.

(٥) الخياري: تأريخ معالم المدينة، ص١٨١.

(٦) القيسي: أنس الساري، ص١٠٥.

إليها سابقًا ابن جبير والبلوي[١]، وهي ليست من الآبار المشهورة إذ لم يذكرها مؤرخو المدينة المنورة إلا في كتاب المغانم المطابة نقلًا عن ابن جبير.[٢]

وقد أجمع الرحالة المغاربة المتأخرون على عذوبة ماء بئر أريس وتحديد موقعها في قباء، في وسط حديقة كبيرة.[٣]

أما عن بئر حا[٤] فقد ذكرها القيسي وحدّد موقعها في قبلة المسجد، في حديقة معروفة، وقال: «إن البخاري أورد ذكرها»[٥]. وأفاض العياشي في تحديد موقعها أكثر، فقال: «إنها في حديقة صغيرة قريبة من سور المدينة المنورة الشمالي، بينهما الطريق، وأقرب أبواب المدينة المنورة إليها باب البقيع، وهي بينه وبين باب الشامي، أما الحديقة الموجودة بها البئر فهي تُسقى بمائها»[٦]. وذكر أبو مدين الطريق الذي يجب سلوكه للوصول إليها، فقال: «يمشي مع سور

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٥؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٨.

(٢) الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٣٢٤ - ٣٢٥. وهذا يؤكد نقله عن ابن جبير في أماكن عدة لم يشر إليها.

(٣) القادري: نسمة الآس، ص١٠٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦١ - ١٦٢، ١٦٦.

(٤) «بئر حا» كانت ملكًا لأبي طلحة الأنصاري، وكانت أحب أمواله إليه، وكان الرسول ﷺ يدخلها ليشرب منها لعذوبة مائها، وكانت مستقبلة المسجد وعندما نزلت آية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ تصدق بها وجعلها في قرابته. انظر: البخاري: صحيح البخاري، ج٣، ص١١٢ - ١١٣؛ ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٠ - ٤١؛ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٨١، تصحيح نخبة من العلماء، بيروت، دار الفكر، د.ت.

(٥) القيسي: أنس الساري، ص١٠١.

(٦) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٧، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٣٩؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨.

المدينة المنورة شمالًا دائرًا به حتى يصل إليها في حديقة صغيرة قريبة من السور وعندها بناء يُصلّى فيه».[١]

ولا يختلف وصف الرحالة المغاربة عما أرّخه ابن النجار[٢]، ومع مرور الزمن اندثرت جميع المعالم الدالة على موقع البئر، ويبدو أنها دخلت في نطاق التوسعة الشمالية للمسجد النبوي الشريف، وقد أشار الأنصاري إلى تهدم المسجد المقام قربها بسبب انصراف الناس عن الصلاة فيه لقربه من المسجد النبوي.[٣]

وحدد العياشي بئر البُصَّة[٤] بأنها قريبة من البقيع على طريق قباء في حديقة نخل، على طريق بطحان، ولون مائها أخضر، وأشار إلى وجود بئر أخرى أصغر منها، وأورد عدة آراء في أيهما بئر البُصة مع ترجيحه للصغرى، وقد بُني للصغرى درج ينزل إليها، وقد شرب منها العياشي واغتسل، وتوضأ مرارًا، كما بُني بجانبها مسجد، واكتفى الحضيكي بذكر البئرين، ولم يرجح أيهما بئر البُصة.[٥]

واتفق ابن النجار والفيروز آبادي والسمهودي مع العياشي على موقعها ووجودها بين نخل، حيث أصبحت في زمن الفيروز آبادي والسمهودي حديقة

---

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٧.

(٢) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤١.

(٣) الأنصاري: آثار المدينة المنورة، ص٢٤٤ – ٢٤٥؛ علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٨٤؛ الخياري: تاريخ معالم المدينة، ص١٨٨.

(٤) «بئر البُصة» يروى أن النبي ﷺ غسل رأسه بسدر وصب غسالة رأسه ومذاقة شعره في البُصة. انظر: ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٦.

(٥) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٤ – ١٥٥، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٣٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٦.

مسورة، وقد رجَّح ابن النجار والفيروز آبادي البئر الكبرى، في حين رجح السمهودي البئر الصغرى.(١)

ووصف علي حافظ حالة البئر بأنها مزرية على الرغم من غزارة مائها، إذ تحتاج إلى تجديد لا يقوى عليه مالكها، وهي في طريقها إلى الاندثار، أما الخياري فحدد موقعها بأنها في بستان على يمين المتجه عبر الجسر من العوالي إلى العنبرية مقابل مبنى بنك الرياض، وأن مدخل البستان من الجهة الغربية في مواجهة موقف السيارات شمال الجسر.(٢)

وذكر الرحالة المغاربة بئر بُضاعة(٣) غربي بئر حا إلى جهة الشمال، وتقع في حديقة كبيرة ذات نخل، وأقرب أبواب المدينة المنورة إليها باب الشامي، عن يمين الخارج منه قليلًا، وبجانبها مسجد وبركة ماء.(٤)

وأضاف أبو مدين أن الحديقة الموجودة فيها بئر بضاعة زُرع فيها أنواع مختلفة من النباتات التي تُروى بمائها، وأن مالك الحديقة يقوم ببيع ما يزرعه، ووصف الحديقة بالكبر وكثرة النخل، وتقع على يمين الخارج من باب الشامي، يصل إليها بعد المشي مع سور المدينة المنورة قليلًا، ثم العدول شمالًا بحيث يمرُّ بين حديقتين فينتهي إليها.(٥)

---

(١) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٦ - ٤٧؛ الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٣٠ - ٣١؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٥٤ - ٩٥٥.

(٢) الخياري: تاريخ معالم المدينة، ص١٨٨؛ علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٨٦.

(٣) «بئر بُضاعة» بصق فيه النبي ﷺ ودعا، وقال فيه: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء». ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٤.

(٤) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٥ - ١٥٧، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٣٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٦ - ١٦٧.

وقال ابن النجار: إنها تقع في بستان، وماؤها عذب، ولونه أبيض صافٍ، ولم يحدّد موقعها. في حين أن الفيروز آبادي قال: إنها وراء سور المدينة المنورة، بجانب حديقة، شمالي السور وغربي بئر حا إلى جهة الشمال، وقد شرب منها فوجدها عذبة، وأكد السمهودي ما أورده الفيروز آبادي.[١]

أما المؤرخون المتأخرون فذكروا أنها لا تزال موجودة إلى الآن، وقد بنيت بالأسمنت المسلح، عدا فتحة لخروج المواسير التي يضخ الماء منها، والبئر موجودة داخل منزل تعود ملكيته لأحد الأشراف.[٢]

وهناك بئر رُومة[٣] التي ذكرها العياشي، وقال: «إنها بعيدة، وتقع أسفل العقيق قرب مجمع السيول، والطريق إليها يمر على مساجد الفتح، ثم يعدل يسارًا إلى ناحية مسجد القبلتين مارًا تحته قاصدًا العقيق، وبقربها مزارع». ولم يزد الحضيكي على وصفها بأنها وسط العقيق.[٤]

وأكد ابن النجار قول العياشي في بُعدها عن المدينة المنورة، ووجود المزارع حولها. ولم يزد الفيروز آبادي عما أورده ابن النجار إلا في إيراد أخبار عمارتها بعد ابن النجار. كما لم يختلف وصفها لدى السمهودي عما جاء لدى

---

(١) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٤ - ٤٥؛ الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٣١ - ٣٥؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٥٦ - ٩٥٩.

(٢) الأنصاري: آثار المدينة المنورة، ص٢٤٦؛ علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٨١ - ١٨٣؛ الخياري: تاريخ معالم المدينة، ص١٨٥ - ١٨٧؛ غالي محمد الأمين الشنقيطي: الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ، ص١٦٥ - ١٦٧، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ط٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٣) «بئر رُومة» ابتاعها عثمان بن عفان رضي الله عنه وتصدق بها. انظر: ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٨.

(٤) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٧ - ١٥٨، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨.

العياشي[١]. وهذا يعني بقاءها على حالها بدون إضافات هذه المدة الطويلة. وكانت تارة تهمل وتارة تجدد[٢]، وهي ضمن أوقاف المسجد النبوي مع مزروعاتها، وقد استُؤجرت من قِبَل وزارة الزراعة والمياه التي جعلتها حديقة عامة، أما البئر فقد ذكر علي حافظ أن ماءها قارب على الجفاف لحفر وزارة الزراعة بئرين بقربها، أما الطريق إليها فمن المناخة تتجه شمالًا إلى طريق سلطانة بعد الوصول للجبل الأسود المنفرد الواقع يمين الصاعد، وتتجه يمينًا في طريق تحت الجبل ثم تتجه غربًا إلى بئر رُوْمة.[٣]

وتحدَّث العياشي كذلك عن بئر اليسيرة[٤] وقال: «إنها تعرف ببئر العهن، وهي معروفة بالعوالي، جيدة الماء، منقورة في الأرض وعندها سدرة، وهي بالقرب من مسجد بني قريظة، وعلى بابها حديقة كبيرة حسنة، ملك لبعض المغاربة المجاورين».[٥]

وذكر الفيروز آبادي أنها بئر معروفة في العالية، في وسط حديقة غنّاء، عندها سدرة يانعة، وهي غزيرة الماء، ولم يذكرها ابن النجار. وقال السمهودي: «إنها لا تعرف إلا باسم العهن، وهي بئر جاهلية كانت تسمى العسرة فسماها

---

(١) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٧ - ٤٨؛ الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٤٠ - ٤٣؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٦٧ - ٩٧١.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٩٧ - ٢٩٨؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص١٦١ - ١٦٦؛ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج١، ص٢٤٤ - ٢٤٥؛ عني بطبعه ونشره أسعد طرابزوني الحسيني، د.ت.

(٣) الخياري: تاريخ معالم المدينة، ص١٨٣ - ١٨٥؛ علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٩٠ - ١٩٣؛ الأنصاري: آثار المدينة، ص٢٤٠ - ٢٤١.

(٤) «بئر اليسيرة» يروى أن النبي ﷺ وقف عليها، وسأل عن اسمها، فقالوا: عسرة فقال: لا ولكن اسمها اليسرة، وبصق فيها. انظر: السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٨٢.

(٥) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٩، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٣٩.

النبي ﷺ اليسرة».[١]

وهذه البئر اليوم معطلة، قليلة الماء جدًا، وهي معروفة باسم العهن، في داخل بستان يحمل اسمها بالعوالي كما قال علي حافظ.[٢]

وتقع بئر غرس[٣] شرقي قباء، على نصف ميل من مسجدها إلى جهة الشمال، وقد بُني لها درج للنزول إليها، وحولها حديقة، وبجانبها مسجد، وقد زارها العياشي وشرب منها مرارًا.[٤]

وحدد ابن النجار المسافة بينها وبين مسجد قباء بنصف ميل أيضًا، وقال: إنها تقع وسط شجر، وقد خرَّبها السيل، وماؤها أخضر اللون إلّا أنه عذب، وأكد الفيروز آبادي خرابها، ومن ثَمَّ عمارتها بعد المئة السابعة، وكذلك أكد غزارة مائها وعذوبته. وأضاف السمهودي إلى ما سبق تجديدها سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، وتسوير حديقتها، وعمارة الدرج النازل إليها، وإنشاء مسجد بجانبها[٥]. وهو الوصف الذي أورده العياشي ورآه في القرن الحادي عشر الهجري.

---

(١) الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٤٥؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٧٧ - ٩٧٨، ٩٨٢ - ٩٨٣.

(٢) علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٩٣ - ١٩٤؛ الخياري: تاريخ معالم المدينة، ص١٨٩.

(٣) «بئر غرس» يروى أن النبي ﷺ جاء أنس بن مالك في قباء، وسأل عن بئرهم فدلوه عليها، فدعا بدلو من مائها فتوضأ منه، ثم سكبه فيها فما نزفت بعد. انظر: ابن النجار: أخبار المدينة المنورة، ص٤٥.

(٤) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٦٠ - ١٦١، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٣٩ - ٤٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٧.

(٥) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٤٥ - ٤٦؛ الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٤٦ - ٤٧؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٧٨ - ٩٨١.

وأوضح الأنصاري أن البئر اليوم معطلة، والحديقة التي حولها لا تزال موجودة، وتحمل اسم البئر، وهي وَقْف، ولا تزال أطلال مسجدها قائمة، والطريق إليها من المدينة المنورة على باب العوالي، فطريق قربان مع ميل إلى الشرق، وفي زقاق ضيق يوجد البئر. وقد أكد قلة مائها الذي يضخ لسقي البستان الذي حولها. وحدد الخياري والشنقيطي موقعها الحالي بقولهما: إنها أمام معهد دار الهجرة، يفصل بينهما شارع، وهي ملاصقة للمعهد من الناحية الغربية.[١]

وتقع في آخر منزلة النقا بئر السقيا[٢] على يسار الذاهب لآبار علي في الحرّة الغربية، وحولها بركة عظيمة لورود الحجاج أيام نزولهم هناك.[٣]

وأيد السمهودي موقعها، وقال: إنها بئر مليحة كبيرة، ورأى بجانبها ما يدل على وجود بركة لورود الحجاج، قد جددت في حدود عام ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، ولم تلبث أن تهدمت فجُدّدت مرة أخرى في حدود سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م[٤]. ويظهر أنها خربت مرة أخرى؛ لأن السمهودي رأى أطلالها ولكنها جُدّدت بعده، لأن الرحالة المغاربة شاهدوها في هيئة حسنة.

وذكر الخياري أن البئر على يسار الخارج من باب العنبرية، وعلى يمين الداخل للمدينة المنورة، وليس فيها ماء في الوقت الحاضر، وتقع ضمن أرض

---

(١) الأنصاري: آثار المدينة، ص٢٤٢ - ٢٤٣؛ علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٨٨ - ١٨٩؛ الخياري: تاريخ معالم المدينة، ص١٨١ - ١٨٣؛ الشنقيطي: الدر الثمين، ص١٣٥ - ١٣٧.

(٢) «بئر السقيا» يروى أن الرسول ﷺ كان يُستَقى له الماء العذب منها. انظر: السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٧٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٦١، تحقيق أمحزون؛ المخطوط، ص٥٤٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٢ - ١٧٣.

(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٧١ - ٩٧٦.

تملكها أمانة المدينة المنورة في سوق الخضار والفاكهة جنوب الاستصيون، ولم يضف الأنصاري جديدًا، في حين قال علي حافظ: «إنه عند تسوية طريق العنبرية من ميدان العنبرية دفنت البئر، والمنتظر إعادة حفرها، والمحافظة عليها، للاستفادة من مائها في ري حدائق العنبرية».(١)

أما بئر زمزم(٢) فتقع بالقرب من بئر السقيا على يمين الطريق، وهي بئر جيدة في وسط حديقة نخل، وبجانبها بركة ماء وبناء، وذكر العياشي أنها ملك لأحد المغاربة المجاورين، وقد أكل من ثمر حديقتها وشرب من مائها، وهي ذات ماء عذب، وتقع في غربي المدينة المنورة مما يلي الحرة. ولم يزد الحضيكي على قوله: إنها بين الطريق المؤدي إلى العقيق.(٣)

وأكد الفيروز آبادي أنه لا أثر يعتمد عليه في نسبتها للرسول ﷺ، وأن أهل المدينة المنورة ينقلون ماءها للآفاق، أما السمهودي فأشار إلى أنها تُعرف ببئر إهاب(٤)، وهذا وَهَمٌ من الناس في ذلك الوقت، إذ حرصوا على فعل شيء ليس له سند يعتمد عليه إلا ما شاع بينهم.

وذكر الخياري أنها لا تعرف اليوم إلا باسم بئر زمزم، وهي في الحرة الغربية، وبجانبها آثار بناء قديم.(٥)

---

(١) الأنصاري: آثار المدينة، ص٢٤٧؛ الخياري: تأريخ معالم المدينة، ص١٩٢ - ١٩٣؛ علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٨٩ - ١٩٠.

(٢) «بئر زمزم» في المدينة المنورة لا يعتمد فيها على أثر وتعرف ببئر إهاب أيضًا. انظر: الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص١٧٣؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٥٢ - ٩٥٤.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٦٢، تحقيق أمحزون؛ المخطوط، ص٥٤٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٢ - ١٧٣.

(٤) الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص١٧٢؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٥٢ - ٩٥٤.

(٥) الخياري: تاريخ معالم المدينة، ص١٩٠ - ١٩١.

ومما سبق نجد أن وصف الآبار المشهورة في المدينة المنورة، وما وُجد حولها من بناء لم يتغير منذ عهد ابن النجار، ومرورًا بزمن الفيروز آبادي والسمهودي، وانتهاءً بزمن الرحالة المغاربة، وذلك يؤكد أن ما تم لهذه الآبار من إصلاح أو تعمير إنما كان يتم على أيدى الموسرين من المجاورين أو مالكي هذه الآبار، لذا لم نلحظ أي اختلاف في أوصافها الرئيسة، لعدم استطاعة المصلحين لها صرف الأموال الكثيرة، بحيث تكون لها عمارة شاملة تُعطي لهذه الآبار شكلًا مختلفًا عما كانت عليه سابقًا، بل ظلّت على ما هي عليه، الأمر الذي يقودنا إلى القول إن هذه الآبار لم يتغير وصفها أثناء حكم الدولة العثمانية، وإنما ترك أمرها لمن هي بأيديهم واكتفت الدولة العثمانية بالعناية بالمشروعات الكبيرة.

أما عن مشروعات المياه القائمة في درب الحجاز فقد ذكرها الرحالة المغاربة بشيء من الإيجاز، مع ذكر العناية بالآبار والإصلاحات إن وجدت.

ففي وادي الشريف، على الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة اتفق الرحالة المغاربة على كثرة مياهه وعذوبتها، ولكنهم أغفلوا وصف ما فيه من المنشآت التي عُملت خصيصًا لحماية الآبار والعيون.[(١)]

أما عُسفان فقد أجمع الرحالة المغاربة على كثرة آبارها العذبة، والكثيرة الماء، وأهملوا الإشارة إلى ما أقيم عليها من بناء[(٢)]. ووجود هذه الآبار بهذه

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٦؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب، ٩٤/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣ - ١٨٤؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٦.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٦؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٥؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥؛ أبو مدين: الرحلة =

الكثرة يدل على عمارتها، والاعتناء بحفرها وصيانتها.

وفي عقبة السكر والمشلل والكديد شاهد العياشي سبيل ماء، ولكنه قليل المياه، كما أشار الدرعي إلى وجود قبة هناك، بجانبها بركة ماء ضخمة. وأضاف الحضيكي أنّ فيها عين ماء جارية، وأن حولها قبتين وصهريجًا. واكتفى أبو مدين بذكر بركتها. وأكد الزبادي وجود العيون فيها.[١]

وانفرد العياشي عن غيره من الرحالة المغاربة بذكر سبيل ماء موجود بعد برقة بقليل.[٢]

وأغفل بعض الرحالة المغاربة وصف ما وجد في خليص من المنشآت التي تُسهِّل الحصول على المياه، واكتفوا بالإشارة إلى وفرة عيونها وعذوبة مائها فقط[٣]، في حين أن باقي الرحالة المغاربة دقّقوا في وصف هذه المنشآت وتركوا لنا صورة دقيقة عنها، فمن ذلك وجود بركة ماء بنيت أسفل القرية، ذات شكل مربع، متقنة البناء، ضخمة جدًا بحيث يغرق فيها مَنْ لا يحسن السباحة، وقد سيق إليها ماء إحدى العيون، وروعي في هندسة بنائها وصول الماء إليها في قنوات محكمة البناء، كُشف عنها في عدة مواضع على شكل أحواض صغرى ليسهل على الحجاج استعمالها للسقي والوضوء، وامتدت هذه القنوات إلى البركة، مغذية إياها بماء عذب زلال، ومن ثَمَّ يعاود الماء خروجه عبر قنوات أخرى للمحافظة على تجديد الماء ونظافته، ويُستغلّ ماؤها الفائض والخارج

= الحجازية، ص١٢٢ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٥.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٧٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠؛ ج٢، ص٩٤.

(٣) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥.

منها في سقي المزارع القريبة من القرية.[١]

وفي رابغ شاهد الرحالة المغاربة آبارًا كثيرة، وأشار القيسي إلى أنها مليئة بالماء[٢]. واستحدث فيها بعد ذلك في زمن رحلة العياشي بركة ماء كبيرة تُملأ من تلك الآبار الكثيرة، شاهدها باقي الرحالة المغاربة بعده.[٣]

وذكر القيسي والعياشي وجود سبيل ماء بعد رابغ، وقد أخطأ القيسي في اسم الأول إذ سماه سبيل حسن والأصح سبيل محسن نسبة إلى بانيه الشريف محسن بن زيد والد الشريف زيد الذي بنى هو الآخر سبيلًا آخر سماه القيسي سبيل السلطان، وكان سبب بناء السبيلين حسب رواية العياشي أنه في سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م هبت رياح شديدة في فصل الشتاء قضت على كثير من الناس، ولأن هذا الموقع الذي هبت فيه الرياح معروف بقلة الماء وموت العابرين فيه من شدة العطش فقد بنى الشريف محسن والد الشريف زيد سبيل ماء بعد مستورة، وبنى ابنه زيد سبيلًا آخر بعد بدر. وذكر العياشي أن المسافة بين بدر ومستورة التي تسمى البزواء قُسمت تقديرًا إلى ثلاثة أثلاث، حيث كان العابر يجد الماء في بدر ثم السبيل الذي بناه الشريف زيد، ثم مستورة، ثم السبيل الذي بناه الشريف محسن. وقد شاهد القيسي فيه سقاية ضخمة متقنة البناء، وخُصص لهذا السبيل أوقافٌ تُصرف لِمَنْ يقوم بجلب الماء إليه على ظهور الإبل من

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٥؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٥، ١٣٥.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٣.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٩٤، ١٨١؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٤.

أماكن بعيدة، لذا كان ماؤه قليلًا لقلة ما يُحمل إليه من ماء لبعد المسافة.[١]

ونبه إلى هذه المسافة الرحالة المغاربة منذ قرون طويلة لقساوة جوِّها وتشابه مسالكها واندثار معالمها.[٢]

ونلحظ أن هذه الأسبلة لم تلق العناية الكاملة بسبب موت منشئيها، ولهذا فأعمال البر من هذا النوع كانت تنتهي أو يقل شأنها بمجرد وفاة أصحابها أو انشغالهم بأمور أخرى.

وفي مستورة شاهد الرحالة المغاربة بئرًا كبيرة بُنيت بالحجر المنحوت، يوجد فيها الماء أحيانًا[٣]، ويقل أحيانًا أخرى.[٤]

وبُني في بدر بركة ماء ضخمة تملأ من عين ماء هناك[٥] حيث عرفت بدر بوفرة مياهها وعذوبتها[٦]، ووجد فيها عين ماء مشهورة سماها الحضيكي بدرًا وحنينًا.[٧]

أما الطريق الآخر الواقع على يسار طريق البزواء الذي لا يطرق كثيرًا فقد رأى فيه العياشي بئرًا حديثة الحفر لأحد فقهاء الحنفية المستوطنين في المدينة

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩، ١٧٠، ٣٩٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨١.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٥ - ١٦٦؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص١٦٣ - ١٦٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٢٨ - ١٢٩.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٠.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٠.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٨، ١٧٠، ٣٩٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٨.

(٦) القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٧.

(٧) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧.

المنورة، إذ اختار مكان حفرها في موضع منقطع كثير الرمال[١]. فأدت الغرض المنشود من حفرها، وروت عطش السالكين لهذا الدرب، ونلحظ أن بعض مشروعات المياه في هذا الدرب قام بها مجاورون في الحرمين الشريفين، وأدت هذه المشروعات إلى تعمير الدرب بالسكان تدريجيًا.

وفي الجديدة بركة عظيمة البناء بناها أحد أمراء الحاج الشامي، وهي معروفة بغزارة مائها، وقد انتهى بناؤها بعد عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م ولم يشاهدها العياشي في تلك السنة، وقال: إنها أعانت الناس على ملء القِرب، وسقي الإبل، كما وُجد فيها عين ماء عذبة، جارية فوارة، وقد رأى العياشي سبيل ماء في مكان يسمى النازية.[٢]

وفي شرف الروحاء رأى العياشي بئر ماء عميقة، عذبة، قليلة الماء، وبجانبها بركة ضخمة ولكنها جافة، وتمنّى لو أنها تعمر، ويقيض الله لهذا الموضع مَنْ يساهم في إعماره لما يقدمه من إعانة للحجاج. وعندما مرّ مرّة أخرى على البركة بعد هطول الأمطار شاهدها مملوءة بماء المطر، ورآها الدرعي معطلة، والبئر جافة بعد حوالي خمسين عامًا.[٣]

وشاهد العياشي في قبور الشهداء سبيل ماء مجدّد البناء وذلك خلال رحلته الثانية. وذكر اليوسي أنّ الموقع لا ماء فيه.[٤]

ولم تخلُ العقبة من آبار كثيرة عذبة المذاق[٥]، ووُجد الماء في ظهر

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٧١؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٧١؛ ٣٩٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٧١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ أ.

(٥) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٥؛ الزبادي:

الحمار، ولكن الرّحالة المغاربة لم يذكروا مصدره أكان من الآبار أم من العيون؟![1]

وأشار الرحالة أبو مدين إلى وجود آبار كثيرة في مغائر شعيب، وأغفل الرحالة المغاربة الباقون الإشارة إلى الآبار، مع تأكيدهم وجود الماء العذب بكثرة، إذْ منه ما هو أحساء. ولم يوضح الرحالة المغاربة ما وُجد فيها من منشآت.[2]

أما عيون القصب فكل ما ذكر الرحالة المغاربة لا يعدو قولهم: إن فيها ماءً عذبًا جاريًا.[3]

وحدد الرافعي عدد آبار المويلح بثلاثة، ووصف ماءها بالعذوبة والبرودة، وذكر وجود حراس مهمتهم حراسة تلك الآبار. في حين ذكر باقي الرحالة المغاربة كثرة آبارها[4]. وهذا يدل على أن هناك مَنْ تولى حفر العديد من الآبار خدمة للحجاج، وإن لم يُعرف القائم بذلك.

وتفاوت الرحالة المغاربة في تحديد عدد آبار السلطان، فالرافعي حددها بالثلاثة، ووصفها بأنها في غاية الكبر والعذوبة، وتقع على قارعة الطريق.

= بلوغ المرام، ص٦٠.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦١.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦١ - ٦٢.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٣.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٣.

في حين أشــار الحضيكــي إلى أنها بئر واحــدة، لا بأس بمائها، أمــا باقي الرحالة المغاربة فأشــاروا إلى أنها عدة آبار محدثة[١]. وهذا يدل على إهمال هذا الموقع تارة والنهوض لإعماره تارة أخرى، كما أننا لا نعلم مَنْ تولى إعمار هذه الآبار.

وفي الأزلم ثلاثة آبار ضخمة، متقنة البناء، ولكن مياهها غير عذبة. ومع عدم استخدام الحجاج لمياهها تبدو العناية الكبيرة في البناء. وأشار الرحالة المغاربة إلى وجود أحساء ماء على يسار الأزلم إلى الداخل، ماؤها طيب، ولكن لا يعرفها كثير من الناس.[٢]

وفي إصطبل عنتر أجمع الرحالة المغاربة على أن فيها ثلاثة آبار، محكمة البناء، بُنيت بالحجر المنحوت، ماؤها غاية في العذوبة، إلا أنه قليل سرعان ما ينضب لكثرة الأخذ منه. وانفرد أبو مدين بإشارته إلى أن ماءها خلق[٣]. كما وجد في الوجه آبار كثيرة بين الجبال في مناطقه الخارجية، ونبّه العياشي إلى تفاوت عذوبة آباره، كما وجد في داخله بئر كبيرة، نُصبت عليها ساقية، وذكر استخدام البقر لرفع الماء منها للسّقيا، وكانت هناك ثلاث برك ملاصقة لسور الوجه تملأ بالمياه[٤]. وبناء البرك في درب الحجاز إنما يدل على عناية الدولة العثمانية بهذا

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٨؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٥/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٦ - ١٦٧؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٥.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٥.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص٧٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، =

الدرب، وفعل ما بوسعها لما يخدم الحجاج.

اكتفى الرافعي بذكر بئر واحدة في أكرا وقال: «إن ماءها قبيح». أما الدرعي فقد أشار إلى أن فيها عدة آبار قبيحة الماء، وتحسُن عقب السيل[١]. ويظهر أن زيادة عدد الآبار ربما تكون في حالة تحسن طعم الماء وعندئذ تحفر آبار جديدة ويستخدم ماؤها.

وأغفل الرحالة المغاربة ذكر أي مشروع مياه في الحوراء، ولم يذكرها سوى الدرعي عندما قال: «إن ماءها عبارة عن أحساء، به ملوحة قليلة، والقريب الحفر أجود».[٢]

وتحدث الرحالة المغاربة عن المياه في ينبع وقالوا: إن فيها مياهًا كثيرة عذبة، وعيونًا جارية. وأهملوا الحديث عن أي مشروع للمياه.[٣]

وعند مرور الرحالة المغاربة بالدهناء ذكروا وجود بركة كبيرة، قالوا: إنها تكون مملوءة[٤] في بعض الأحيان وفارغة[٥] أحيانًا أخرى، وأشاروا أيضًا إلى بئر كبيرة مياهها عذبة.[٦]

= ص١١٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٦٦.

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٠؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٠.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧١.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٦/ ب - ٨٧/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٣، ج٢، ص١٠٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥٥٠.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠٥.

(٦) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ ب؛ القادري: نسمة الآس، ص١١١.

وفي وادي النبط حدّد بعض الرحالة المغاربة آبارها بأربعة آبار، متقنة البناء، واستخدم في بنائها الحجر المنحوت[١]. ومنهم مَنْ أشار إلى أنها ثلاثة فقط[٢]. ومنهم مَنْ لم يحدد عددها[٣]، واتفقوا على عذوبة مائها.

ومما سبق نجد أن المشروعات المقامة في درب الحجاز تضمنت تجديد الآبار القديمة، وبناء البرك التي أسهم في إنشائها أمراء الحج المصريون أو الشاميون حسب إمكانيات ذلك الزمن، واستمرت مشكلات الماء على طول تاريخ سلوك درب الحج لضخامة عدد من كان يسلكه من المسلمين الذين يقدمون إلى الأماكن المقدسة، كما نلحظ اندثار بعض هذه المشروعات لقلة الاهتمام بصيانتها، وبعضها الآخر استمر وجوده أزمنة طويلة، وهو ما يدل على الاهتمام بها وصيانتها من قبل فئات معينة.

ونلحظ أننا في أغلب المناطق لم نحظ بمعلومات دقيقة عن القائمين على البناء، وفي أي السنين حدث؛ لندرة مَنْ تصدى لرصد تاريخ هذا الدرب بعد الجزيري، وأسهم الرحالة المغاربة في سلوكهم لهذا الدرب وتدوينهم ما لاحظوه بإمدادنا بمادة تاريخية بينت لنا وضعه، مع الأخذ في الحسبان أن الرحالة المغاربة الذين دوَّنوا رحلاتهم كانت رحلاتهم متباعدة، وليست كل عام، وذلك يؤدي إلى قلة المعلومات عن أحداث كثيرة حدثت خلال أزمنة، وهذا من ثَمَّ يجعلنا نُقارن ونتأمل ونتتبع الرحلات ونربط المعلومات ونستوفيها من كل رحلة فتصبح الصورة واضحة عن العصر الذي عاش فيه الرحالة. فكل رحلة متممة للأخرى، وهذا ما أدى إلى معرفة جوانب من تاريخ الحجاز وحضارته

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٤.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٠.

(٣) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨.

من واقع تلك الرحلات التي كانت أشبه بسلسلة متصلة الحلقات مع الأخذ في الحسبان المقارنة والنقد بينها وبين كتب التاريخ الأخرى.

وكانت بعض الرحلات أقوى من غيرها في نقل الصورة الصادقة عن تاريخ الحجاز، فكل صاحب رحلة له مزاجه،وله ملحوظاته، وله اهتماماته الخاصة، واعتناؤه بجوانب معينة لفتت انتباهه. ولكنهم مع ذلك تمم بعضهم بعضًا، ومعلوماتهم قائمة على المشاهدة والإحساس بالقضايا وتعايشهم معها؛ لذلك فهي مفيدة إذا أخضعت للنقد والمقارنة، وإلّا فقد تُضلِّل أحيانًا.



الفصل الخامس

الأحوال الاجتماعية في الحجاز

- أهم عناصر المجتمع وأماكن تجمع السكان
- العادات والتقاليد
- حالات من الرشوة وصور من البدع والخرافات



الأحوال الاجتماعية في الحجاز

أهم عناصر المجتمع وأماكن تجمع السكان

فرض وجود المسجدين المكي في مكة المكرمة، والمدني في المدينة المنورة تنوعًا في التركيبة السكانية، وذلك لما لهما من مكانة دينية في نفوس المسلمين في جميع بقاع الأرض، والواقع أننا لا نستطيع حصر هذا التنوع البشري من خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، وإنما سنعمل على إبراز أهم العناصر الموجودة في منطقة الحجاز عامة، وبعض المدن المهمة فيها حيث أشار الرحالة المغاربة إشارات مقتضبة إلى التركيبة السكانية في الحجاز التي استطعنا استخراجها من كتب رحلاتهم، كما أشارت إلى ذلك بعض الكتب التاريخية القريبة العهد بهذه المدة. ففي مكة المكرمة تنوعت العناصر السكانية وكانت على النحو الآتي:

- **الأشراف**: أمراء البلد، وهم من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما، والمُلقَّبون ببني قتادة أو بني أبي نمي.[١]
- **القرشيون**: هم قلة بقيت من سلالات القرشيين الأوائل، وإن نزحت غالبيتهم إلى البلدان المجاورة إثر موجات الفتح الإسلامي، وجزء منهم استوطن الطائف، والوديان المحيطة به، ونواحي مكة المكرمة، وجدة.[٢]

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٢، ٢٧٥، ٢٧٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٥٦.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٢.

ومنهم مَنْ غادر الحجاز عقب ثورات العلويين.[١]

- **الأغوات**: وهم عبيد من أجناس مختلفة، أُوقفوا على المسجدين المكي والمدني بقصد الاعتناء بأمورهما، ولم يكن لهم أي أثر اجتماعي غيره، ولكن أصبح لهم ثقل سياسي فيما بعد.[٢]
- **المجاورون**: أكد الرحالة المغاربة وجود جاليات مجاورة في مكة المكرمة، منهم المغاربة والهنود والجزائريون والتونسيون والطرابلسيون والمصريون والسودانيون واليمانيون والحضارمة والسنود والأعاجم والبصريون والأحسائيون.[٣]

واستمر هذا التنوع حيث ذكر إبراهيم رفعت أنه في بداية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري كان عدد سكان مكة المكرمة يزيد على مئة وعشرين ألفًا، وقال: «إنه بسبب وجود المسجد الحرام تقاطر المسلمون من كل حدب وصوب آمّين مكة المكرمة، إما للإقامة والمجاورة فيها، أو لقصد التجارة والحج، ولهذا تنوعت الأجناس فيها، فمنهم أعراب البوادي من يمنيين وحضارمة وحجازيين ونجديين، ومنهم الهنود، والجاوة، والبخارية، والأفغان، والأعاجم، والشوام، والأتراك، والمصريون، والمغاربة، والسودانيون»[٤]. وقال: «إن عدد سكانها مئة وخمسون ألفًا من أهلها والباقون أغراب وافدون عليها».[٥]

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص٩٩؛ أيوب صبري: مرآة جزيرة العرب، ج٢، ص٢٨٠ – ٢٨١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٣٥، تحقيق أمحزون؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢، ١٥٨، ٣٩٤، ٣٩٦ – ٣٩٧، ٤٠٥ – ٤٠٦، ٤٩٤، ٥٠٢؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٨؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٣ – ٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٦، ١٩٦؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٢.

(٤) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٢٠١، ٢٠٣.

(٥) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص١١٨، ١٢١.

ولفت نظر المستشرق سنوك هورخرونيه[١] عندما كان في مكة المكرمة هذا الخليط السكاني الذي قال عنه: من كل جنس ولون، بينهم الأتراك والنوبيون، بالإضافة إلى العديد من الأجناس الأخرى التي تندرج ألوانها من البياض إلى السمرة، فقطاع المجاورين في مكة المكرمة على حدّ قوله: هم خليط من الجاوا والهنود والمصريين والأتراك والأفارقة واليمنيين والبدو، وتعجب من اندراجهم تحت اسم أمة تحدوهم رغبتهم للعيش سويًا، وعلل ذلك بأهداف دينية ودنيوية.[٢] وتناسى هذا المستشرق حقيقة الرابطة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣] وقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى»[٤]. فميزان التفاضل بين هذه الأمة التي جُمعت على الإسلام هو التقوى، وليس الجنس أو

---

(١) ولد هذا المستشرق الهولندي عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م لأب قسيس، ودرس اللاهوت، ثم العربية، أظهر إسلامه احتيالًا على رؤوس الملأ، فدخل مكة المكرمة تحت اسم عبدالغفار، كان بارعًا في تمثيل دور المسلم، وتزوج إحدى بنات أمراء جاوة المسلمين وأقام فيها في رحلة تجسسية، وكانت تقاريره عن الإسلام تفيض بغضًا وحقدًا. انظر د. جميل عبدالله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، ج٢، ص٤٦٥ - ٤٦٦، الرياض، مكتبة العبيكان، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) المستشرق ك. سنوك هورخرونيه (C. Snouck. Hurgronje): صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، ج٢، ص٥٣، ١٦٣، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٤) الإمام أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال في سُنن الأقوال والأفعال، ج٥، ص٤١١، بيروت، دار الفكر - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، د.ت.

اللون.

لقد وصف الرحالة المغاربة أخلاق بعض من اختلطوا بهم في مكة المكرمة، وعليه عمموا حكمهم، فمنهم من امتدحهم، ومنهم من كال الذم لهم. وكان الرافعي ممَّن خصّهم بالمديح فقال عن شخص أراد مساعدته على الطواف بالمسجد الحرام: «كان بوجهه سماح». وقد اعترف لأهل مكة المكرمة بفضيلة المجاورة لذا انصاع لاتّباعه، وحكم لجميع أهل مكة المكرمة بحسن الخلق[1]، وكذلك وصفهم الحضيكي فقال عنهم: «هم أهل كرم وجود، وجوههم مسفرة، ضاحكة مستبشرة.. وألوانهم إلى الأدمة ناضرة، ظهرت فيهم سِمَا المجاورة».[2]

أما العياشي فقد ذمهم ضمنيًا، إذ ألمح إلى أنهم يتكالبون على أخذ المال ولو كانوا من أغنى الأغنياء، ولا يترفع عن ذلك إلا القلة.[3]

وفي المدينة المنورة كانت العناصر السكانية على النحو الآتي:

- **الأشراف**: أمراء المدينة المنورة، وهم من ذرية الحسين بن علي رضي الله عنهما[4]، وينطبق عليهم ما ينطبق على أشراف مكة المكرمة.
- **الأنصار**: بقي في المدينة المنورة قلة قليلة من ذرية الأوس والخزرج[5]، اندمجت بهم عناصر المجتمع المدني واستمروا عبر القرون.
- **المجاورون**: شكَّل المجاورون نسبة عالية من المجتمع المدني، فقد

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٣.
(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٥ - ٤٦.
(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٢.
(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٦.
(٥) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٠٨.

أجمع الرحالة المغاربة على وجود جمع من المجاورين فيها، من المغرب وفارس، وفولان، وسجلماسة والسند، وتركيا والشام.[١]

- **النخاولة**: فئة انطوت على نفسها في مجتمع المدينة المنورة، وهم من فئة الروافض الذين سكنوا خارج المدينة المنورة، وجلّ عملهم كان الفلاحة.[٢]

- **الأغوات**: عبيد أُوقفوا على خدمة المسجد النبوي، وهم من أجناس شتىّ، منهم المغاربة[٣]، والأحباش والصقالبة[٤]، بدأ أمرهم بكونهم خدمًا، مهمتهم العناية بالمسجد النبوي نهارًا، وإغلاق أبوابه ليلًا، مع القيام بنظافته، وإشعال قناديله وإطفائها، وتأديب مَنْ يخرج عن الأدب فيه[٥]. ولم يلبث أمرهم أنْ تعدّى ما وُكِلَ إليهم، وأصبحوا يتدخلون في شؤون المدينة المنورة السياسية ويؤثرون فيها.[٦]

وذكر البتنوني أن عدد سكان المدينة المنورة بلغ في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ستين ألفًا، أكثرهم من المجاورين، وأغلبهم من الهنود

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٣، ٥٤٥؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٧ - ٢٢٨، تحقيق أمحزون؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٣؛ القادري: نسمة الآس، ص٨١ - ٨٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٩؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٧٦، تحقيق أمحزون.

(٣) المصدر السابق، ص٢٣٠.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١٧١ - ١٧٢.

(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦١ - ٦٣؛ العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٣٠ - ٢٣٥، تحقيق أمحزون.

(٦) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٣٥، تحقيق أمحزون؛ ولمزيد من التفاصيل حول أعمالهم ومراتبهم. انظر: توفيق نصرالله: الأغوات نسل منقطع النظير، ص٤٢ - ٤٦، مجلة اليمامة، العدد ١٩٢، ١٤١٠هـ.

والأتراك.[١]

ويبدو أن عدد سكانها قد قل في عهد إبراهيم رفعت إذ قدَّرهم بستة وخمسين ألفًا، منهم جزء قليل من ذرية الأنصار، والباقون من الشاميين والأتراك والهنود والمصريين والمغاربة[٢]، والفرق العددي فيما ذكره البتنوني وإبراهيم رفعت ربما مرده لعدم وجود الإحصائيات الدقيقة في تلك المدة.

أما عن صفات أهل المدينة المنورة وأخلاقهم فقد اتفق الرحالة المغاربة على وصفهم بالأخلاق الحميدة والخصال الحسنة، فالقيسي وصفهم بحسن الشمائل[٣]، وقال عنهم الرافعي: «بأنهم قوم حسان وأخلاقهم مستحسنة»[٤]. وأفاض اليوسي في مدحهم فقال: «يغلب عليهم الترحم، وحب الغريب، ومواساتهم والإحسان إليهم، وفي طبعهم الجود والكرم، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.[٥]

وهذه الصفات إنما هي صفات أنصار رسول الله ﷺ التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم[٦]، ولا ندري هل استعارها اليوسي هنا، أو هي فعلًا من صفاتهم التي استمرت إلى ذلك العهد؟!

ومن وجُد أيضًا:

- **الأعراب**: انتشر الأعراب في جميع أراضي الحجاز ومدنه وقراه دون

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٣٥١.
(٢) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤٣٩.
(٣) القيسي: أنس الساري، ص ٩٦.
(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص٢٠٢.
(٥) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ ب، ونلحظ أنه استعار أوصافهم من الآية القرآنية.
(٦) سورة الحشر، الآية ٩.

استثناء، فقد انتشروا فيما بين المدينة المنورة ومكة المكرمة، وامتهن بعضهم الكراء، ونقل الحجاج[١]، كما وُجدوا في المدينة المنورة[٢]، وفيما بين مكة المكرمة وجُـدة[٣]، وعلى طول درب الحجاز من شماله إلى جنوبه، وقد امتهنوا الرعي، والزراعة، والتجارة، وصيد السمك.[٤]

وكثيرًا ما أشار الرحالة المغاربة أثناء تنقلهم في درب الحجاز إلى خطر بعض الأعراب على الحجاج.[٥]

- **العبيد:** من ضمن عناصر المجتمع في الحجاز أيضًا حيث كانوا يقومون على خدمة الأمراء الأشراف وأصحاب الجاه[٦]، ومنهم مَنْ أُحضر خصيصًا لمزاولة مهنة بعينها[٧]، وكان هؤلاء العبيد والإماء يُجلبون من أماكن متفرقة مثل الحبشة والنوبة.[٨]

أما باقي مناطق الحجاز ومدنه فقد أشار الرحالة المغاربة إلى تركيبة سكانها إشارات طفيفة، ففي مرّ الظهران وُجدت طائفة من الأشراف إلى جانب

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢، ١٤٥ - ١٤٦، ١٧٠، ٣٩٢؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٤، تحقيق أمحزون.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٦؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٣، تحقيق أمحزون.

(٣) دحلان: أمراء البلد الحرام، ص١٧٥ - ١٧٦.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٤ - ١٦٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٩.

(٥) العبدري: الرحلة المغربية، ص٢٠١، ١٦١.

(٦) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٠٤، ٣٠٧.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٠.

(٨) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص٩٩؛ العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧.

خدم لهم يقومون بفلاحة المزارع هناك[١]. وفي جُدة بالإضافة إلى سكانها والمقيمين وجد عسكر للدولة العثمانية.[٢] ووجد في الطائف إلى جانب سكانها الأصليين مقيمون استقروا فيها، بالإضافة إلى وجود الأشراف[٣]. كما وجد في ينبع فئة من الأشراف تولت السلطة فيها إلى جانب سكان البلد[٤]، وسكن في بدر طائفة من الأشراف مع سكانها الأصليين[٥]، واستقر في المويلح قوم من مصر بتشجيع من حكومتها لعمارتها.[٦]

ومما سبق نخلص إلى أن منطقة الحجاز عجَّت بعناصر بشرية مختلفة، وإن كان تجمُّع السكان وتركزهم في المدن الرئيسة، وتزداد كثافتهم تبعًا لأهمية المدينة أو القرية التي يقطنونها، وتقلّ الكثافة في المناطق التي ليست بذات أهمية أو تكون قليلة الماء، ومن هذه العناصر البشرية مَنْ ساهم في قلة أمن الحجاز، ومنهم فئة أسهمت في رواج اقتصادها، وأخرى في ازدهار حركتها العلمية، إلى غير ذلك. وقد امتزجت هذه العناصر في بقعة واحدة، وأفرزت بعض عادات وتقاليد انفرد بها الحجاز عن غيره من مناطق العالم الإسلامي الأخرى.

وما ذكره الرحالة المغاربة حول تعدد الخليط السكاني في المجتمع الحجازي لا يزال إلى وقتنا الحاضر.

---

(١) القادري: نسمة الآس، ص٩٨.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠١ - ٤٠٢.
(٣) المصدر السابق، ص٤١١؛ الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٧٣.
(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٥ - ١٤٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٧.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٨.
(٦) المصدر السابق، ص١٤٢؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٦.

العادات والتقاليد

جرت العادة أن تحوز الناحية السياسية اهتمامَ المؤرخين في المقام الأول، ويندر لديهم رصد النواحي الاجتماعية، ولم يشذ عن هذه القاعدة مؤرخو الحجاز أيضًا، ومن خلال ما دونه الرحالة المغاربة نستطيع سدّ هذه الثغرة عن أحوال المجتمع الحجازي، وإن خصّوا المدينتين المقدستين بالرصد والتسجيل بشكل أكثر بسبب مكوثهم ومجاورتهم، فأتت ملحوظاتهم عن الحياة الاجتماعية أدق وأشمل لتعايشهم وتعاملهم مع غالب فئات المجتمع فيهما.

والعياشي هو أكثر من أمدَّنا بمعلومات في رحلته عن هذه الناحية فهو يُعدُّ مؤرخًا اجتماعيًا في القرن الحادي عشر الهجري، ومصدرًا يُعوَّلُ عليه في دراسة حياة سكان الحجاز في تلك المدة، وتلاه بقية الرحالة المغاربة بِنِسَبٍ متفاوتة في ملحوظاتهم وميولهم ورغبتهم في تسجيل الأوضاع المعيشية للمجتمع الحجازي.

العادات والتقاليد التي كانت سائدة في مكة المكرمة:

مارس سكانها عادات وتقاليد عُدَّت جزءًا من حياتهم ومعيشتهم اليومية، ونشأت تلقائيًا، ومثَّلت جزءًا مهمًا من تراث مجتمعهم غير المكتوب، ولكنه دُوِّن في صدور أفراده وترسَّب في أعماقهم. ومن هذه العادات ما هو يومي، ومنها ما هو أسبوعي ومنها شهري أو موسمي، وارتبطت هذه العادات بشهور بعينها، أو ببعض الأيام المحددة، ومنها ما ارتبط بالمسجد الحرام والكعبة المشرفة، ومنها ما ارتبط بأنواع من العبادات، ومنها ما اقترن بممارسات اقتصادية، ومنها ما ليس له أساس يعتمد عليه في ممارسته، ولكن درجوا عليه في تلك المدة وعُدَّ من البدع.

فمن العادات التي كانت دارجة بين أهل مكة المكرمة تهنئة بعضهم بعضًا

عند استهلال الشهور ودعاء كل منهم للآخر.[١] وهذه العادة قديمة، إذ أشار إليها ابن جبير سابقًا[٢]، وهي من العادات الحسنة التي استمرت إلى تلك المدة. وقد اقتصرت التهنئة لدى أهل مكة المكرمة الآن على الأعياد وبداية السنة الهجرية وفي بداية شهر رمضان المبارك.

وذكر العياشي اعتياد غالب أهل مكة المكرمة على قضاء شهور الصيف في الطائف[٣]. وأشار إليها أيضًا صاحب الرحلة اليمانية في نهاية القرن الثالث عشر الهجري.[٤]

وتعوَّد أهل مكة المكرمة في شهر رمضان على التفاني في أداء جميع أنواع العبادات بمجرد دخول الشهر المبارك، وكان هذا محطّ تعجب العياشي واندهاشه، وخاصة نشاطهم المفرط في أداء العبادات، فتساءل عن ذلك؟ وأُجيب أنه تأييد إلهي لسكان الحرم خلال هذا الشهر، لأنه بمجرد انقضائه تفتر هِمَمُهم، ويقل نشاطهم، ويقل عُمَّار المسجد الحرام لدرجة أن العياشي أنكر نفسه في العبادات التي يؤديها.[٥]

والحماس الديني في شهر رمضان المبارك لحظه أيضا المستشرق سنوك عندما كان في مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، حيث قال: «إن شهر رمضان هو شهر العبادة، فحتى أولئك الذين ليس لديهم الحماس الديني في غير شهر الصوم يُجهدون أنفسهم بالعبادة والقربات، لينالوا رضا الله

---

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٠٥، تحقيق أمحزون.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٠١ - ١٠٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٤.

(٤) البركاتي: الرحلة اليمانية، ص١٤٧.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧ - ٣٩٨.

تعالى»[١]. واجتهاد الناس بالعبادة في هذا الشهر الكريم لا يزال إلى يومنا هذا.

ومن ضمن العبادات التي حرصوا على أدائها في شهر رمضان العمرة، إذ يخرج المجاورون، وسكان مكة المكرمة، رجالًا، ونساءً، وصبيانًا، وعبيدًا، وإماءً، ركبانًا ومشاةً، حتى إن الطريق من مكة المكرمة إلى التنعيم لا تكاد تخلو طوال أيام رمضان المبارك ولياليها، وخاصة ليالي الجمعة، وليلة الخامس والعشرين، حيث كان يخرج من اعتمر قبل ذلك أو مَنْ لم يعتمر[٢]. وقد أتى المستشرق سنوك على ذكر العمرة وكثرة أدائها في رمضان المبارك، وأنها لا تزال إلى وقته، إذ ذكر أن هناك أشخاصًا يقومون بالعمرة يوميًا[٣]. وأداء العمرة في رمضان لا تزال - ولله الحمد - إلى يومنا تؤدى بكثرة حتى يغص المسجد الحرام على سعته بالمعتمرين، سواء من أهلها أم الذين يقدمون إليها من داخل المملكة أو خارجها.

والأصل في أداء العمرة في شهر رمضان يستند على ما روي عن الرسول ﷺ، «فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سماها ابن عباس فنسيت اسمها: ما منعك أن تحجّي معنا؟! قالت: كان لنا ناضح فركبه أبو فلان وابنة لزوجها وابنها، وترك ناضحًا ننضح عليه قال: فإذا كان رمضان اعتمري فيه، فإنّ عُمرةً في رمضان حجةٌ، أو نحوًا مما قال».[٤]

ومن ضمن عاداتهم في المسجد الحرام طوال ليالي شهر رمضان قيام الموسرين بإضاءة المصابيح إذ يحضر كل واحد منهم مصباحًا كبيرًا يضعه بين يديه، وخصفًا يجلس عليه في كل ليلة، ويأتي بأشخاص يشارطهم قراءة القرآن

(١) سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص١٤٨.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧ - ٣٩٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص ١٨١.
(٣) سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص١٥٥ - ١٥٦.
(٤) البخاري: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج١، ص٣٠٦.

الكريم عنده بالأجر، وهؤلاء كان أغلبهم من القراء المغاربة المجاورين[١] الحافظين للقرآن الكريم والمتميزين بحسن الصوت، وقوة الاحتمال، فهم يقرؤون في عدة أماكن، ويأخذون من كل مكان ما شارطوا عليه، فيقرؤون عند صاحب الحلقة الثري أجزاءً من القرآن الكريم إلى أن يمضي جزء من الليل، وإذا كان هذا الشخص قارئًا قرأ معهم، وإلا اكتفى بالاستماع، وبعد الانتهاء من القراءة يسقيهم الأشربة اللذيذة ويطيبهم. وكانت حلقات قراءة القرآن الكريم تتناثر في صحن المسجد فتبدو وكأنها لآليء منثورة لكثرة المصابيح، ويحتفون بليلة الخَتْم أكثر، وفي ليلة العيد يعطي كل صاحب حلقة القراء كسوةً ونقودًا على قدر ثرائه ومروءته. وذكر العياشي أن المسجد الحرام طوال الشهر كان لا يُرى فيه إلا الطائفون والمصلون وتالو القرآن الكريم.[٢]

ومن عاداتهم في صلاة التراويح المبالغة في تنظيف المقامات الأربعة، إذ كان لكل مقام إمام يَقتدي بصلاته أتباعُ مذهبه رافعًا فيها الصوت. وأشار العياشي إلى أن أعظم الأئمة صوتًا وجلبةً الحنفي وأتباعه، ودأبوا على الفصل بين كل تسليمتين بتحميدات، وتهليلات، وتسبيحات يقوم بها جمع من المؤذنين، رافعين بها أصواتهم، فيرتجُّ لرفعها ما حولهم من الحرم الشريف.[٣]

وذكر سنوك أثناء وجوده في مكة المكرمة أنهم كانوا يفصلون كل أربع سجدات. كما أشار إلى كثرة الجماعات المؤدية للتراويح التي لم تقتصر على أئمة المقامات فقط.[٤]

---

(١) إشارة إلى كثرة المغاربة المجاورين في تلك المدة، والذين امتلكوا دورًا ومنازل في مكة المكرمة. انظر: الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٨٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧ - ٣٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص٣٩٨.

(٤) سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص١٥٤ - ١٥٥، أما في وقتنا الحاضر فيأتم =

واختصت ليلة ختم القرآن الكريم باحتفال زائد، إذ يُزاد في مصابيح المقام وفرشه وطيبه، ويؤتى بشموع هائلة الكبر توضع على شمعدانات تناسب حجمها جميلة المنظر، ويحضر غالبية سكان مكة المكرمة هذه الليلة، وتُهدى الخلع للإمام في تلك الليلة من قِبل السلطان، إضافة إلى منحه كثيرًا من الهدايا من أكابر البلد وأثريائها؛ وأول مَنْ يختم الإمام الشافعي، وهو إمام مقام إبراهيم عليه السلام ليلة إحدى وعشرين، ويليه المالكي ليلة خمس وعشرين ثم الحنفي ليلة سبع وعشرين[1].

وهذه العادة وُجدت في زمن ابن جبير، واستمرت إلى عهد التجيبي وإن طرأ عليها بعض الاختلافات قليلًا عن زمن ابن جبير، إذ كان يختم ليلة الحادي والعشرين أحد أبناء مكة المكرمة الصبيان، وفي ليلة الثالث والعشرين يختم صبي آخر، وفي ليلة الخامس والعشرين يقوم الإمام الحنفي بإعداد أحد أبنائه للختم، وفي ليلة التاسع والعشرين يكون الختم فيها لجميع أئمة التروايح.[2]

وكان من عاداتهم توفير الماء في المسجد الحرام في رمضان أو غير رمضان من الشهور بملء الدوارق[3] بماء زمزم المبرد وتوزيعه في جميع أرجاء المسجد الحرام[4]، وهذه العادة أشار لها ابن جبير والتجيبي قبل ذلك[5]، وكانت الدوارق توضع في المسجد الحرام إلى وقت قريب، وقد استُبدل بها الآن

= جميع المصلين بإمام واحد ويختم ختمة واحدة.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢ - ١٣٥؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٤٦٠ - ٤٦١؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٢٢٥ - ٢٣٠.

(٣) «الدوارق» قلال من الفخار ذات مقبض واحد.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٥.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٦٦؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٢٣.

الثلاجات والبرادات لحفظ ماء زمزم باردًا.

وقد اعتاد أهل مكة المكرمة على التسوق وفتح أسواقهم ليلًا، وهذه حال أهل المشرق عمومًا في ليالي شهر رمضان على حد قول العياشي.[١] وأشار إلى هذه العادة سنوك، وهو ما يعني استمرارها في ذلك الوقت أيضًا[٢]، وما زالت هذه العادة إلى وقتنا الحاضر إذ تغلق الأسواق نهارًا ولا يعاد فتحها إلا ليلًا، وتبقى غالبًا إلى ما بعد صلاة الفجر، وربما حتى قرب صلاة الظهر.

ولعيد الفطر احتفالات معينة. فمن ذلك ما ذكره العياشي من أن الناس كانوا يغدون إلى المسجد الحرام مبكرين لأخذ موضعهم للصلاة، ولا يأتي الإمام حتى ترتفع الشمس ويبدأ الحر فيؤدي صلاة العيد ويُتبِعها بخطبة طويلة بليغة.

أما طريقة دخول الإمام للمسجد الحرام فوصفها العياشي قائلًا: «يقدم بين يديه المؤذنون وأكابر الناس حاملين الألوية، ويزين المنبر بألوية أخرى ويفرش بالديباج، ويجلس المؤذنون متدرجين إلى بابه، وعندما يصل الإمام في خطبته لذكر السلطان والدعاء له يقوم أحد أصحاب الأمير، ويخلع عليه خلعة جميلة، وهو يخطب، وتعجب العياشي من فعل الناس بعدها، ونعته بالعادة المذمومة، إذ ينصرف مَنْ جاء مع الإمام عقب الخلع عليه، ويتتابع انصراف الناس حتى لا يكاد يبقى مع الخطيب إلا القليل منهم، ولا ينتظرون فراغ الخطبة، ولا دعاء الإمام، وكأن قصدهم هو مشاهدة الخلع على الخطيب فقط»[٣]. وأشار سنوك وقت وجوده في مكة المكرمة إلى عدم حرص العامة من الناس على

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٧.

(٢) سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص١٦٠ - ١٦٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٩.

سماع الخطبة أيضًا[١]. واستمرت هذه العادة إلى الآن إذ بمجرد الانتهاء من صلاة العيد يبادر بعض الناس إلى الخروج من المسجد الحرام.

ومن جملة عاداتهم بعد انقضاء صلاة العيد التوجه إلى منازلهم، ومَنْ كان له صديقٌ، أو قريبٌ، أو صاحبُ نعمةٍ بادر بالذهاب إليه للسلام عليه وتهنئته بالعيد، إذْ لا يكتفون بمشاهدته في المسجد الحرام، أو حتى الجلوس معه هناك، بل لا بد من الذهاب إليه في منزله[٢]. وأشار لهذه العادة سنوك أيضًا[٣]، واستمرت إلى وقتنا الحاضر، إذ هي من العادات الإسلامية الموجودة في العالم الإسلامي التي تزيد من أواصر المحبة والقربى.

وحَفِلَ شهر ذي الحجة بالعديد من العادات والاحتفالات الخاصة به، فمنها ما اقتصر على سكان مكة المكرمة، ومنها ما اقتصر على الأركاب القادمة من الآفاق، وهناك عادات جمعت بينهما، ومن ذلك اعتياد بعض سكان مكة المكرمة من أبناء أشرافها أو أبناء العامة القيام بمساعدة الحجاج على الطواف بدون أجر[٤]، أو بأجر يأخذونه بعد إلحاحهم الشديد على الحجاج، وهو ما جعل اليوسي يتبرم من هذه العادة، ونعتها بالبلية الفظيعة[٥] وقد أشار ابن رشيد في القرن السابع الهجري إلى بدايتها حيث قال: «إن أهل مكة المكرمة وأطفالها يستقبلون الحجاج ويتعلّقون بهم لتعليمهم المناسك، وقد درَّبوا صبيانهم على ذلك ولقَّنوهم الأدعية والأذكار».[٦]

---

(١) سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص١٦٤ - ١٦٥.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٩.

(٣) سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص١٦٨ - ١٦٩.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٣.

(٥) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ ب - ٩٣/ أ.

(٦) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٨٠.

ومن عادة الحجاج كراء المنازل بأسعار غالية، ومَنْ لم يستطع الاستئجار يمكث في الحجون أو في الشبيكة[(١)]. واعتادوا تسمية يوم السابع من ذي الحجة يوم الزينة لتهيؤ الناس فيه بإخراج كل ما من شأنه توفير الراحة لهم في حجهم.[(٢)]

وذكر العياشي أن أهل مكة المكرمة اعتادوا على الخروج إلى عرفة من أول الشهر، فيخرج غالبية أهلها حتى العواتق وذوات الخدور وهم في ذلك مبالغون في اقتناء الفُرُش والمواكب للزينة، وحاملون معهم لذائذ الأطعمة التي أشار إليها قبل ذلك ابن رشيد[(٣)] فيخرجون من اليوم السادس، ويقيمون فيها يومي السابع، والثامن. بالإضافة إلى يوم التاسع، ولوجود هذا الحشد الكبير فيها اقتضى ذلك اعتيادهم على إقامة سوق كبير يجلب إليه طرائف وغرائب الأطعمة من الفواكه وغيرها.[(٤)]

وكان من عادتهم في اليوم السابع من ذي الحجة قيام أحد أئمتهم، وهو الحنفي غالبًا بإلقاء خطبة، إذ يصعد على المنبر وهو محرم فيخطب في جموع الحجاج في المسجد الحرام خطبة بليغة وجيزة يبين فيها أحكام الحج وفضله، وما يجب على الحجاج فعله، ثم يأمرهم بالخروج من غدهم إلى منى[(٥)]، ويبدو

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٠.

(٢) القادري: نسمة الآس، ص٧٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٠/ ب.

(٣) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص١٢٩.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٢.

(٥) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٨ - ١٤٩؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٨ - ٧٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٨.

أنه في زمن رحلة الحضيكي تغير يوم خطبة بيان المناسك إلى اليوم الثامن[١]، ومن ثَمَّ عادت إلى اليوم السابع في زمن رحلتي أبي مدين والزبادي، وقد وافق اليوم السابع من ذي الحجة يوم الجمعة زمن رحلة الزبادي، حيث قال: «إنه بعد الانتهاء من صلاة الجمعة بقي الناس في أماكنهم، فحضر خطيب آخر، وأَلقى خطبة لبيان أمور الحج».[٢]

وهنا دلالة واضحة على أهمية هذه الخطبة إذ كان بالإمكان اشتمال خطبة الجمعة على فضل الحج وأحكامه ومناسكه، ولكن لأهميتها واعتياد الناس على سماعها منفردة يوم السابع من ذي الحجة، أُفردت لما تشتمل عليه من أمور توضيحية بالغة الأهمية للحجاج.

ولا شك أن الأصل في إفراد خطبة لبيان المناسك يوم السابع من ذي الحجة يعود لما روي عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، بعث أبا بكر رضي الله عنه ليحج بالناس بعد رجوعه من عمرة الجعرانة، ولما كان يوم السابع من ذي الحجة قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه مبعوثًا من قِبَل النبي ﷺ ليقرأ على الناس سورة التوبة، فقام أبو بكر رضي الله عنه فخطب بالناس ليعلمهم مناسكهم، ثم قام علي بن أبي طالب بعده فقرأ سورة التوبة حتى ختمها[٣]. واستمر الحال في إلقاء خطبة بيان المناسك منذ ذلك الوقت، إذ أشار إليها ابن جبير، والمحب الطبري، والجزيري الذي قال: «إن الخطيب

---

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٣ - ٩٤.

(٢) المصدران السابقان، الصفحات نفسها.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص٥٤٥-٥٤٦؛ أبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج٣، ص١٣١، تحقيق ودراسة عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط١، مكة المكرمة، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٣٧٥.

المتولي الخطبة كان على المذهب الشافعي»[١]، وذلك يعني أنه إلى القرن العاشر الهجري كان المقدَّم هو الإمام الشافعي، ومن ثمَّ انتقل أمرها إلى الإمام الحنفي والمذهب الحنفي هو مذهب الدولة العثمانية، الأمر الذي يقودنا إلى القول إن الحجاز كان يتبع مذهب الدولة التي تكون لها سلطة عليه، فهو عندما كان يتبع الدولة العباسية سواء عندما كانت في بغداد أو عندما انتقلت لمصر كان يتبع المذهب الشافعي الذي كانت تعتنقه، فالخطبة في الحجاز تنوعت حسب نفوذ الدولة التي يتبعها.

والشك في ليلة عرفة عادة دأبوا عليها فالعياشي ذكر أن الحجاج وأهل مكة المكرمة يبادرون إلى المبيت في عرفة تحرزًا من فوات الوقفة فيها، لشكهم الدائم في دخول الشهر، وقد ناقش هذا الأمر قائلًا: إن الوقوف فيها «الليلة على الشك لا يجزئ، لأنكم لم تقفوا بنيَّة أنها عرفة، فهو كَمَنْ صام يوم الشك احتياطًا فلا يجزئه، ولسنا مأمورين باتباع الشك في مثل هذا ولا سيما الشك الذي لا مستند له مثل هذا، وإنما هو تجويز عقلي»[٢]. والحقيقة أن الشك في يوم عرفة قديم، إذْ أشار ابن جبير قبل ذلك إلى الاختلاف فيه.[٣]

ولشدة خوف الحجاج من أن يفوت عليهم يوم الوقوف في عرفة كانوا ينقادون لأدنى إشاعة تُسوِّغ لهم الذهاب مباشرة إليها، وأحيانًا يتثبتون هناك من يوم الوقفة الحقيقي كما ذكر الدرعي وأبو مدين[٤]، ونجد أن الحضيكي أشار إلى عادة الشك هذه، ولشدة وثوقه هو وتيقّنه مكث في منى ورحل غيره إلى

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٤٩؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٣٧٥؛ الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٠١١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢ – ١٥٣.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٤٩.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٧.

عرفة احتياطًا.[١]

ومن عادة الحجاج إماتة سنة المبيت في منى، والتي بدأت على ما يبدو منذ زمن بعيد بسبب الخوف على أنفسهم وأموالهم من الأعراب الذين كانوا يتربصون بالحجاج على رؤوس الجبال، فيضطرون إلى الذهاب لعرفة لانبساط أرضها، وخلوها من المكامن التي يختبئ فيها هؤلاء الأعراب[٢]. واستمر عدم مبيتهم في منى، وكان الداعي له هذه المرة الاختلاف الدائم - إلا فيما ندر على يوم الوقوف في عرفة - كما يتضح من أقوال الرحالة المغاربة.[٣]

ودأب الأمراء والجند وضعاف الناس على عادة النفرة من عرفة قبل اصفرار الشمس، وعدم انتظارهم الغروب بالموقف، وأشار العياشي إلى أنهم غالبًا لا يجتازون الحِلّ إلا بعد الغروب، أما الجمّالون فيرحلون بعد الزوال.[٤]

وجرت عادة أمير مكة المكرمة على الخروج سنويًا إلى الحج بجيشه، وحشمه، ونسائه، وأبنائه تحفُّهم الرايات، والألوية، والطبول، والمزامير، والخيل، وتكون مسيرته على شكل احتفال مهيب.[٥]

ولأكابر مكة المكرمة والعلماء والأمراء والتجار وأصحاب الوظائف العليا عادة امتلاك منازل خاصة بهم في منى متقنة البناء، احتوت على غرف عالية ذات مرافق متعددة، مشرفة على سوق منى، ينزلون فيها أيام الموسم،

---

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٢.

(٢) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٤٦٨؛ ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٨٧.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢، ٥٤٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٤.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٣.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٦؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦١؛ القادري: نسمة الآس، ص٨٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٨.

واعتادوا قصدها أيضًا في فصل الربيع بقصد النزهة.[١]

وذكر العياشي ما يحصل عند الحلاقين أثناء تحلل الحجاج يوم النحر ولا سيما في بداية الوقت إذ يزدحم الحجاج على الحلاقين الذين لا يهمهم إلا إنجاز الحلاقة لأكثر عدد ممكن من الرؤوس، وقبض الأجر منهم دون مراعاة لإتقان عملهم، إذ اعتادوا على الاكتفاء بحلق جانب واحد من الرأس مرددين: «لقد أحللتم»، ونجد أن العياشي أعاد الحلق مرة ثانية لعدم اطمئنانه لحلاقته.[٢]

أما ما كان يحدث من احتفالات وعادات في منى فقد أجمع الرحالة المغاربة على تصويره لنا بأشكال متعددة لا تخرج في معناها عن تخصيص الليلة الثانية في منى بالمبالغة في إشعال المصابيح، والتفنّن في طريقة إضاءتها على هيئة صور أشجار، وخيام ودوائر، وشبابيك، وسباع، وغيرها من الأشكال. ومن ضمن لهوهم المغالاة في إطلاق البنادق والمدافع في الهواء مخلفةً أشكالًا بديعة قبل انطفائها، ويبدو أنها على هيئة ما يعرف اليوم بالألعاب النارية، وكان التنافس والتفاخر على أشدّه في هذه الأمور منحصرًا بين أمير الحاج المصري وأمير الحاج الشامي، وينضم إليهما شريف مكة المكرمة، فينقلب الليل نهارًا لكثرة ما يضاء من المصابيح وما يطلق من بارود.

وذكر الرافعي أن تلك العادة جرَّت التنافس بين أمير الحاج المصري وأمير الحاج الشامي، فتارة يكون المصري السابق وتارة الشامي وقال: «إن الشامي كان هو الأسبق في تلك السنة، وأكد الحضيكي وجود تلك العادة وقت رحلته إذ إن كلا الأميرين حاول إظهار ما لديهما من القوة والشدة، وكثرة العَدد والعُدد والأموال، وقد لحظ تفوق أمير الحاج الشامي على المصري في تلك

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣.

السنة أيضًا، لكثرة سخائه وما بذله من جهد ومال.[١]

واستمرت هذه العادة إلى الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري، فقد أشار إبراهيم رفعت إلى إطلاق المدافع والصواريخ، وإقامة الزينات بالليلة الثانية في منى.[٢]

أما تحية أهل مكة المكرمة التي اعتادوا على إلقائها على أميرهم فكانت خالية من التكلف والمبالغة والتعظيم، فقد ذكر العياشي اعتياد عوام الناس تحية أميرهم بقولهم: «نصرك الله»، وأما الخاصة فيكتفون بقولهم: «السلام عليكم»، وفي كلتا الحالتين يرد عليهم الأمير سلامهم.[٣]

وأشار العياشي إلى عادة ذميمة وهي انتهاك حرمة المساجد الواقعة خارج مكة المكرمة في أيام الموسم، فقال: «إن العادة جرت على انتهاكها، إذ ينزل بها الحجاج بدوابهم، ويباشرون بها شؤون معاشهم، من طبخ وخلافه بدون وجود مَنْ يتصدّر لنهيهم عن ذلك، وبدون إحساس منهم بحرمة هذه المساجد».[٤]

وأكد معظم الرحالة المغاربة إماتة الحجاج لسُنَّة التحصيب، بل إنه وصل الأمر لدرجة عدم معرفتها دلالة على اندثارها تمامًا.[٥]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٦؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٩ - ٢٠٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٧.

(٢) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٥٢ - ٥٣.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٣.

(٥) القيسي: أنس الساري، ص٨٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٥٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٥، وهي إلى الآن مندثرة، ولا تعرف إلا في كتب الفقه فقط، إضافة إلى أن المحصب قد أصبح الآن داخل نطاق عمران مكة المكرمة وهو مليء بالعمارات والسكان.

وقد جرت العادة أيضًا على الاستعجال في النزول من منى بسبب حرصهم على شراء البضائع من مكة المكرمة بحيث لا يبقى فيها إلّا القليل.[(١)]

واعتاد شريف مكة المكرمة إطلاق المنادين بعد انقضاء الحج لحث الحجاج على المبادرة بالرحيل، والعودة إلى أوطانهم.[(٢)]

ومن عادة الحجاج استئجار دليل ورواحل من مكة المكرمة للذهاب إلى المدينة المنورة من عرب الحجاز الذين يتسلطون على الحجاج في بعض الأحيان ويُخيِّرونهم في منتصف الطريق بين زيادة الأجر أو إلقاء أحمالهم وتركهم هناك، فلا يجد الحجاج مناصًا من تلبية ما يطلبونه، وقد يصل في بعض الأحيان مقدار أجرة الذهاب إلى مصر وليس المدينة المنورة، وقد سمى العياشي هذا الفعل من المكارين لآمة.[(٣)]

ومن العادات الأخرى لأهل مكة المكرمة فتح الكعبة المشرفة وغسلها، حيث كانت العادة في فتحها وقت مجاورة ابن جبير كل يوم اثنين وجمعة، إلا في شهر رجب فبابها مفتوح يوميًا.[(٤)]

أما وقت مجاورة العياشي فقد اعتاد سدنتها على فتح بابها سبع مرات في السنة، الأول يوم النحر، وهذا اليوم ليس مخصصًا لدخول عامة الناس، بل خُصِّصَ فتحها لتعليق كسوتها عند طلوع الشمس[(٥)]، ولا يدخلها في ذلك

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٧؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩١/ ب.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٧.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٧١ - ١٧٣.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٧٠.

(٥) في الوقت الحاضر أصبح تعليق الكسوة يوم التاسع من ذي الحجة، ويتم ذلك تحت رعاية الرئيس العام لشؤون الحرمين، وسادن الكعبة المشرفة، وعدد من المسؤولين. انظر: جريدة عكاظ، ص١، الجمعة ٤ من ذي الحجة، ١٤١٧هـ/ ١١ إبريل ١٩٩٧م، السنة ٣٩، العدد =

اليوم إلا من زاحم، إذ لا يُنْصَب سُلَّمٌ بل يدخل إليها مَنْ تكلّف الصعود، ويقف أحد خدم أمير الحاج المصري على بابها مانعًا الناس من دخولها، إلا أنهم يتكاثرون عليه، فإن منعهم من جانب دخلوا من الجانب الآخر، وربما يتغاضى عن بعضهم. وذكر العياشي أنه في هذا اليوم وفي هذا المكان يحدث سوء أدب من المزاحمين الراغبين في دخولها من ضرب وشتم بألفاظ غير لائقة(١). وتكون المرة الثانية يوم عاشوراء، والثالثة في ربيع الأول، والرابعة في شعبان(٢)، والخامسة والسادسة في رمضان، والسابعة في ذي القعدة. وجرت عادتهم أنه كلما فتحت الكعبة المشرفة يومًا للرجال فُتحت في غده لدخول النساء، ولا يقرب ساحة البيت يوم دخول النساء أحد من الرجال، وكذلك فعل النساء يوم دخول الرجال، ومن اضطر للطواف يوم دخول النساء لأجل عمرة، طاف من وراء الأعمدة والقباب فتلحقهم مشقة في ذلك.(٣)

لقد حضر العياشي فتح الكعبة المشرفة خمس مرات وقت مجاورته في مكة المكرمة مرتين في رمضان في أول جمعة وآخر جمعة منه، وفتحت آخر شوال للقيام بإصلاح استدعى فتحها، وفتحت يوم النحر، وفي ذي القعدة اعتادوا القيام بكنسها في اليوم الثالث عشر منه وغسلها وتطييبها ورفع كسوتها إلى الأعلى حتى لا تمسها الأيدي، ويسميه العوام إحرام الكعبة(٤)، ونلمس التعليل الصحيح لرفع أستارها من كلامه وهو الخوف عليها من كثرة اللمس والتعلّق بها، فعلل بأنه إحرام الكعبة المشرفة؛ إذ دأبوا على أن لكل فعل اسمًا

= ١١٩٥م.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٤، ٣٩٨.

(٢) أشار سنوك إلى فتحها ليلة النصف من شعبان. سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص١٤٧.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٨.

(٤) المصدر السابق والصفحة.

يتمسكون به ويصبح من معتقداتهم.(١)

وكانت عادة الاحتفال بغسل الكعبة المشرفة منذ عهد ابن جبير، والتجيبي، فقد أشارا إلى أنه يكون يوم السابع والعشرين من ذي القعدة، وأشارا إلى عادة رفع أثوابها قدر قامة ونصف من نواحيها الأربع، وتسمية ذلك أيضًا بإحرام الكعبة، ولا يفتح بابها إلا عقب الوقفة في عرفة.(٢)

وربما تفتح الكعبة المشرفة زيادة على هذه الأوقات التي حددها العياشي، فالرافعي ذكر أنها فتحت يومي السابع عشر والعشرين من ذي الحجة ليدخلها أمراء الأركاب قبل رحيلهم.(٣)

وأما القادري فلم يشاهد غير فتحها يوم النحر لتعليق كسوتها(٤). وقد أكد الدرعي عادة أهل مكة المكرمة في تشمير أثوابها حتى لا تنالها أيدي الطائفين، وتسمية هذا الفعل إحرام الكعبة المشرفة، ويفعلون ذلك من أوّل ما تقدم الوفود، ولا ينزلونها إلا بعد عودتهم. كما استمرت عادة فتحها يوم النحر لتعليق كسوتها، وشاهد فتحها في غير الأيام السابقة، إذْ فُتحت يوم الثاني والعشرين من ذي الحجة لدخول أمراء الأركاب.(٥)

وأثناء مجاورة أبي مدين في مكة المكرمة شاهد فتح الكعبة المشرفة في ضحى يوم النصف من شعبان، وقد وصف ذلك المشهد فقال: إن خدمها على

---

(١) ولا تزال عادة رفع أستار الكعبة المشرفة إلى اليوم، ويكون يوم غسيلها اليوم الأول من ذي الحجة، أما تعليق كسوتها فيتم يوم التاسع من ذي الحجة. انظر: عكاظ، ص٣، الأربعاء ٩ من ذي الحجة ١٤١٧هـ/ ١٦ إبريل ١٩٩٧م، السنة ٣٩، العدد ١١٢٠٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٤٣؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٤٦٥، ٢٥٩.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٧، ١٦٩.

(٤) القادري: نسمة الآس، ص٨٦.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٨، ١٩٥.

بابها وحولها، وقد وضع السُّلَّم المخصّص لها ليدخلها الناس بيسر، واستمرت مفتوحة إلى قرب صلاة الظهر ثم أُغلقت، وفي اليوم التالي وفي الوقت نفسه فُتحت كما هي عادتهم لدخول النساء. إذ أُفردت لهن الكعبة المشرفة وساحة الطواف، ووقف الأغوات للحيلولة دون اقتراب الرجال من المطاف، كما أكد أبو مدين قول العياشي في عدد مرات فتحها(١). وأضاف الزبادي إلى ما سبق أنها ربما فتحت في غير تلك الأيام.(٢)

وذكر إبراهيم رفعت أن الكعبة المشرفة كانت تفتح في عهده إحدى عشرة مرة في السنة، وفي كل مرة تفتح في غده للنساء، كما أشار إلى إحرام الكعبة المشرفة يوم ثمانٍ وعشرين من ذي القعدة، وذلك بوضع إزار أبيض أسفل كسوتها.(٣)

وعندما تهطل الأمطار الغزيرة في مكة المكرمة اعتاد أهلها على غلق أبواب المسجد الحرام خشية دخول مياه السيول إليه، ولكن قد يحدث أن يغفل الناس عن ذلك لظنهم أنها أمطار خفيفة، فيحدث العكس، وتهاجم السيول أبواب المسجد الحرام داخلة إليه، فلا يلبث أن يمتلئ عند ذلك بتمامه، وعندما يمتلئ قد يتبادر للذهن أن الطواف قد ينقطع في هذه الأحوال، ولكن اعتاد مَنْ يُحسن العوم على الطواف سباحة، فقد شاهد العياشي أناسًا يفعلون ذلك(٤). ولم يكن أهل تلك المدة هم السَّبَّاقون إلى الطواف سباحة، إذ أخبر الفاكهي أن

---

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٤ - ١٧٦، ١٧٨.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص١١٩.

(٣) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤٠ - ٤١. وما زالت عادة وضع الإزار الأبيض أسفل كسوة الكعبة المشرفة بعد تعليقها ورفعها إلى الآن. ولا يزال يسمى ذلك إلى الآن إحرام الكعبة ولا يرفع هذا الإزار إلا يوم العيد.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤ - ٣٩٥.

سعيد بن جبير وعبدالله بن الزبير قد طافا سباحة.[١]

وامتلاء المسجد الحرام بماء السيول من الحالات النادرة الحدوث، وقد سجل لنا الرحالة المغاربة الذين صادف وقت وجودهم في مكة المكرمة هذا الحدث، فسجلوا العادات المتبعة في تنظيفه، فقد ذكر العياشي: أنه بعد أن امتلأ المسجد الحرام بالماء كان لا بد من المبادرة إلى تنظيفه وإخراج الماء منه، ولهذا الغرض بالذات أُنشئت مجارٍ ضخمة لتفريغه في مثل هذه الحالات، أما طريقة تنظيف الأتربة، والأحجار، والأخشاب، وجميع مخلفات ما جرفه السيل، والتي منعت الناس من الصلاة والطواف إلا بمشقة وصعوبة بالغة، فكانت بأن أصدر الشريف أمره بإغلاق جميع الدكاكين، وجمع أهل مكة المكرمة كلهم، للمبادرة بنقل ما أمكنهم من تلك المخلّفات وإخراجها، وانهمك جميع الناس في هذا العمل دون استثناء، بِمَنْ فيهم الشريف وأولاده وأقاربه، وعندما يبس الطين صعب عليهم إخراجه، عندئذ أمر الشريف باستخدام البقر والمحاريث لتفتيته، وبعدها تمكّنوا من رفعه، وقد استخدموا لهذا العمل حوالي ثمانين بقرة، وقد استمر عملهم هذا أربعة أيام من غير أن يقبضوا أي أجر عليه، محتسبين أجر ذلك عند الله تعالى.

ويبدو أن السلطنة العثمانية اعتادت المسارعة للمساعدة عند حلول مثل هذه الكوارث الطبيعية، إذ قدم نائب جدة مسرعًا، ومحمَّلًا بأموالٍ كثيرةٍ، وبادر إلى استئجار ما يقرب من مئة وخمسين رجلًا لتنظيف المسجد الحرام. ولأن صحن المسجد كان مفروشًا بالحصباء فقد اختلط بالطين، وعسُر فصله، فاحتالوا على تنقيته لصعوبة إحضار حصباء أخرى من خارج مكة المكرمة، فاستخدموا الغرابيل لفصل الحصباء عن الأتربة واختاروا ثلاث فرقٍ، مهمتها

(١) الفاكهي: أخبار مكة، ج١، ص٢٥١.

فرز الحصباء عن الأتربة، ففرقة تحفر، وأخرى تغربل، والثالثة تلقي بالأتربة المنخولة خارج المسجد الحرام فكادت تكون تلال ضخمة من الرمال خارجه، وتركوا الحصباء في أماكنها كأن لم يمسسها ضرر، وأضحى ما تمَّ إنجازه في غاية النظافة والإتقان، وهم في كل ذلك في غاية الجدّ، ينتقلون من موضعٍ لآخر، حتى نظفوا المسجد الحرام بأكمله.(١)

وبعد ذلك بما يقرب من ثمانين عامًا، وفي أثناء مجاورة أبي مدين في مكة المكرمة هطلت أمطار ماثلت في غزارتها الأمطار التي تحدَّث عنها العياشي، وقد أكد ما ذكره العياشي فيما اعتاد عليه أهل مكة المكرمة من تنظيف المسجد الحرام في مثل هذه الحالات، وذكر أن الجميع هبّوا لتنظيفه وغسله بالماء، وخاصة دائرة الطواف، فقد حملوا لها الماء من خارج المسجد بالقِرب، وفي هذه المرة نُظِّف بجهود الأهالي، ودون إعانة من نائب جُدة.(٢)

وعادة تنظيف المسجد الحرام عندما تداهمه السيول ومبادرة الجميع للعمل في رفع مخلفاته قديمة جدًا، فقد حدث سيل ضخم في زمن المأمون الخليفة العباسي، فاجتمع الناس للعمل، حتى النساء كنّ يخرجن ليلًا لنقل التراب التماسًا للمثوبة والأجر من الله تعالى.(٣)

وهناك عادات ارتبطت بالكعبة المشرفة عند حدوث خللٍ فيها يستوجب الإسراع لإصلاحه واستبدال جديد آخر بما وهن منها، فمن ذلك ما ذكره العياشي من أن الناس اعتادت أخذ مخلفات الكعبة المشرفة التي استُبدلت تبركًا بها، وقد شاركهم العياشي في ذلك، بل إنه اشترى نحو ثلاثين لبِنة من لَبِنات

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤ - ٣٩٥.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٠.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٧٠ - ١٧١؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص١١٠.

الكعبة المشرفة المكسورة، وأخذها معه إلى وطنه.[١]

واعتاد سكان مكة المكرمة على كنس المسجد الحرام وتنظيفه ورفع السُّجَّاد الغالي الثمن واستبداله بالحصر في شهر ذي القعدة، استعدادًا لاستقبال الأركاب خوفًا عليه من الحجاج.[٢]

كما اعتادوا على الخروج ليلة الثالث عشر من ذي القعدة إلى جبل يُشرف على المحصب، على يمين الذاهب من مكة المكرمة إلى منى زاعمين أن هناك قبر الصحابي عبدالله بن عمر رضي الله عنهما[٣]، فيذهبون تلك الليلة إلى هناك رجالًا ونساءً وكبارًا وصغارًا، ولم يخرج العياشي معهم لأنه على حد قوله: «لم يعلم لهذا العمل أصلًا، إذ أخبره أهل العلم بمكة المكرمة أنهم لا يعلمون له أصلًا»[٤]. ونلحظ أنه على الرغم من تيقّن العلماء بعدم وجود سند يعتمد عليه في هذا العمل إلا أنهم لم يبادروا للنهي عنه ومنعه. وذلك يقودنا إلى القول إن سلطان العوام وعاداتهم طغى على هيبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تلك المدة، بل إننا لا نكاد نلمس أي إشارة لهذا المبدأ الإسلامي في ذلك الوقت.

وفيما يتعلق بالملابس والحياة اليومية فقد ذكر العياشي أن شيخه الثعالبي

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٩٧، تحقيق أمحزون.

(٣) عبدالله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أسلم وهو صغير، وهاجر قبل أبيه، عُرف بشدة ورعه وكثرة اتباعه لآثار الرسول ﷺ وسنته، توفي في مكة المكرمة، واختلف في مكان دفنه، فقيل في المحصب، أو بذي طوى أو بفخ أو بسرف. انظر: ابن الأثير أبا الحسن علي بن محمد الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٣، ص٢٣٦ - ٢٤١، بيروت، دار الفكر، د.ت.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٧.

أجابه ردًا عن سؤال سأله إياه في سبب تفضيله سكن مكة المكرمة على المدينة المنورة، فقال له: «إن أهل مكة المكرمة لم يزالوا على أعرابيتهم، واستعمال البداوة، وعدم المبالاة والاعتناء بالملبس والمأكل، إذ غلبت عليهم البداوة وكثرة مخالطتهم لأهل البادية وسكناهم بها، حتى إن أمراءهم من الأشراف كان غالب سكناهم بالبادية على الرغم من أن لهم منازل بمكة المكرمة، ومن ولد له مولود منهم استرضع له عند العرب بالبادية، فلا يأتي به حتى يُقارب الحُلُم، كما أن لباس الشريف وأولاده وبني عمه، وإن كان في غاية الجمال وارتفاع السعر، إلا أنه على زيّ لباس العرب في تعمّمهم، إذ يلبسون العمائم القصار، ذوات الأهداب الطويلة ويرسلون بها العذبة إلى قريب الذراع ويلبسون الدشتوت[1] الرفيعة إلا أنها على هيئة دشتوت الأعراب، ولا يلبسون الجوخ الذي يلبسه العجم، ولا الأقبية التي على زيهم، ويلبسون النعال ذات السيور التي على ظهر القدم دون السرجومة[2] التي تلبسها الأعاجم، فهم عمومًا قد غلبت عليهم البداوة».[3]

أما طريقة سفرهم فقد اعتادوا على تفضيل السير ليلًا والراحة نهارًا، مع عدم تحميل الإبل فوق ما تطيق وإجبارها على الإسراع، بل يتركون لها حرية المشي على مهل، وأشار العياشي إلى أن هذا الفعل ينتج عنه راحة للراكب والراجل، إضافة إلى قطع المسافات الطويلة بيسر على الرغم من هزال الدواب.[4]

وجرت عادتهم لتسهيل طريقة كراء الدواب للسفر على وجود مكاتب

---

(١) لعلها ما يلبس اليوم ويسمى المشالح أو البشوت.

(٢) وهو الخف أو ما يعرف اليوم بالحذاء.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٧ - ٢٢٨، تحقيق أمحزون.

(٤) المصدر السابق، ص٣٩٢.

متخصصة للكراء في كل بلد، فمثلًا المسافر من مكة المكرمة إلى جُدة يكتري الرواحل من حمير وإبل لركوبها، ولا يذهب مالكها مع المكتري، لأنه بمجرد وصول المسافر إلى وجهته يرسل الدابة فلا يأخذها إلا صاحبها، إذ تعوّد أصحاب الدواب إنشاء مكاتب لهم في كل بلدة، يديرها نُواب عنه، فإذا شاهد النائب إحدى هذه الدواب المُوكَّل بها مكتبه فإنه يمسكها، وسرعان ما يعاود كراءها إلى البلد الذي أتت منه، فتعود إلى صاحبها، وهكذا.[١]

واعتاد الناس في تلك الأيام على المغالاة في سعر الحمير السريعة المشي، حتى إنه بلغ ثمن الواحد منها مئة دينار ذهبًا كما ذكر العياشي.[٢]

وعن شرب القهوة وحُبِّ أهل مكة المكرمة لها، أشار العياشي والدرعي إلى أن عموم أهل الحجاز يحبّون شرب القهوة فعلى حدّ قولهما: «هي من نعم الله على أهل الحجاز، لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الآفاق ولا بد من قِرىً يُقَدَّمُ إليهم، وهم لا قدرة لهم على التكلّف، لذا أصبحت القهوة وتقديمها للضيوف من العادات الضرورية، لأنها قليلة المؤونة، وقد ارتضاها أغنياؤهم وفقراؤهم ورؤساؤهم ومرؤوسوهم، في صيانةٍ لوجه الفقراء عند ورود أحد عليهم، فأصبحت من العادات المستحبة عند أهل الحجاز»[٣]. وقد مرّ تاريخ شرب القهوة بمراحل تحليل وتحريم، ومن ثم تحليل، فقد ذكر الجزيري أنه ورد أمرٌ قاطع سنة ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م بمنعها وإدارجها ضمن المحرمات والمسكرات وبولغ في ذلك.[٤]

أما الطائف فلم يرد شيء عن عادات أهلها في رحلات المغاربة إلا في

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص٤١٠.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٢١ - ١٢٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٣٦.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٠٠٢ - ١٠١٨.

رحلة العياشي الذي زارها ومكث فيها ما يقرب من ثلاثة أيام، وما سجَّله عن عادات أهلها ليس بالكثير بطبيعة الحال لقصر إقامته فيها، كما لم يمدنا الرحالة المغاربة الآخرون بشيء عن عادات أهلها لعدم زيارتهم لها، فهي لا تقع على خط سيرهم ومن ثم فإنهم لم يتكلموا عنها، فمن خصائص الرحلات المغربية إيراد ما سمعوه أو شاهدوه. وكل ما نستطيع قوله عن عاداتهم في تلك المدة شيء قليل ذكره العياشي هو أن أهلها اعتادوا على التسابق على إكرام الضيف، وقولهم للشيء الذي يستشعرون أنهم قصَّروا فيه: «واعيباه».[١]

أما جُدة فلم يزرها أحد من الرحالة المغاربة في تلك المدة إلا العياشي وكانت زيارته لها قصيرة، فلم يتمكن من التدقيق في عادات أهلها، لقلة مخالطته إياهم، ولم يذكر منها إلا الشيء القليل، ومنها: تأنق رجالات جُدة في المجالس التي يبالغون في كنسها وتنظيفها ورش الماء أمامها، إذ اعتاد غالبية أهلها على الجلوس في مجالس مشرفة على الشاطئ، مُكَوَّن أثاثها من الكراسي الكبيرة التي تشبه الأسرّة، والمصنوعة من الخشب والألياف، كما اعتادوا على بناء دكاكينهم ووكالاتهم التجارية على شاطئ البحر، واستخدموا في بنائها الأخصاص، وقد روعي في بنائها السعة وانفتاحها من جهتين الأولى إلى ناحية البحر والثانية إلى ناحية البر.[٢]

ويظهر أن هذا التصميم كان الداعي له هو تجديد الهواء وتلطيف الجو بجعل مجال لسريان تيار الهواء.

أما المدينة المنورة فقد سجل الرحالة المغاربة العديد من عادات سكانها، وكان أكثرهم بسطًا لها العياشي الذي صور لنا حياة أهلها الاجتماعية وكأننا

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤١١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

نعيش بينهم، فمن تلك العادات الحسنة التي كانت محل ثناء الرحالة المغاربة خروج سكانها لاستقبال الأركاب القادمة إليهم بالترحيب، وملاقاتهم بالتعظيم والإجلال.[١]

وكما هو الحال في استقبال الأركاب أيضًا فإنهم يخرجون لوداعهم وتشييعهم كبارًا وصغارًا داعين لهم بسلامة الوصول إلى ديارهم، وربما يظهرون الحزن والبكاء عليهم إذا أحسُّوا بخطر الأعراب عليهم، وربما يُشيِّعونهم إلى ذي الحليفة[٢]. وكما اعتادوا على تشييع الأركاب في موسم الحج لوداعهم فإنهم اعتادوا أيضا تشييع الزوار في رجب إلى ذي الحليفة فكان يخرج شيخ الحرم والجند وعلماء المدينة المنورة وكثير من أهلها لتوديعهم.[٣]

وعادة استقبال الأركاب تحدّث عنها قبل ذلك ابن رشيد[٤]، وأشار إليها النابلسي، فقال: إن أهل المدينة المنورة اعتادوا على استقبال الأركاب، فكانوا ينصبون خيامهم على طرف جبل سلع لانتظار وصولهم. ولا يقتصر هذا الاستقبال على عامة الناس بل يكون من جملتهم شيخ الحرم والأغوات.[٥]

ودرج أهل المدينة المنورة على عادة إغلاق أبواب أسوارها ليلًا خوفًا وتحسّبًا من هجوم الأعراب المُباغِت عليهم، وعدم فتحها إلا صباحًا، فكان مَنْ يصلها ليلًا فعليه انتظار انبلاج الفجر حتى يتسنّى له دخولها.[٦]

كما اعتادوا على إغلاق أبواب المسجد النبوي ليلًا وفتحها عند أذان

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٩٦؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ أ.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص١٢٥؛ العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٢.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٢.

(٤) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص١٦.

(٥) البكري: رحلة البكري، ورقة ٤٩/ ب؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٤٣٦.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٥؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٠.

الفجر[١]، وهذه العادة اقتضتها الأحوال لخوفهم على قبر الرسول ﷺ، ومقتنيات الحجرة النبوية الشريفة من السرقة. ويظهر أن عملهم هذا ابتُدئ به عقب محاولة سرقة جثمانه ﷺ في القرن السادس الهجري.[٢]

وربّما لا يغلق المسجد النبوي أبوابه أحيانًا، وخاصة في الليالي الثلاث التي تسبق رحيل الأركاب عن المدينة المنورة، فالعياشي ذكر أنهم اعتادوا على عدم غلق أبوابه ليلة خروج الأركاب ليتمكّن الجميع من المكوث فيه أطول مدة ممكنة، إذ تعوّد الرّكب المصري وكذلك الشّامي ليلة رحيلهم أن يجتمع أمراؤهم وكبراء أهل المدينة المنورة والأغوات في صحن المسجد ليلًا، ويوقدوا كثيرًا من الشموع الموضوعة على شمعدانات من الفضة والذهب، وتحضر جماعة المنشدين ويصدحون بالعديد من قصائد المدائح النبوية، ولم يشر الزبادي إلى وجود هؤلاء المنشدين بل ذكر أن الناس ينتظمون على هيئة حلقة رافعين أصواتهم بإنشاد المدائح النبوية، ويصلّون على النبي ﷺ كلٌّ على حسب عُرْف بلاده، وهم في وضعهم هذا يُنْثر عليهم اللّوز، والسّكر، والأزهار، ويُرشُّون بماء الورد والزهر وغيره من أنواع الطيب، كما تنتشر المجامر التي تفوح منها رائحة النّد والعود، وتوزع عليهم أنواع الحلويات والأشربة اللذيذة إلى أن يمضي جزء من الليل. وأضاف العياشي قائلًا: «إن في مدة إقامة الركب المصري يكثر اللغط والصخب ورفع الصوت بالحرم الشريف[٣]، لدرجة تعذُّر سماع أصوات القراء

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤٤.

(٢) أبو شامة شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي: الروضتين في أخبار الدولتين، رواية الشيخ الإمام مجد الدين أبي المظفر يوسف بن محمد بن عبدالله الشافعي، ج٢، ص٣٥ - ٣٧، بيروت، دار الجيل، د.ت؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٦٤٨ - ٦٥٤.

(٣) لا يجوز رفع الصوت في المسجد النبوي بدليل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا =

أو المؤذنين، ويكثر الصياح وَوَلْوَلات النساء، وبكاء الأطفال، واختلاط النساء بالرجال». ووصف العياشي ذلك بأنه سوء أدب، ومن سيئ العادات، لأن عوام المصريين كانوا من أبعد الناس عن إصابة الصواب. وقال: «إن الناس يزدحمون بالمسجد النبوي ليلًا ونهارًا، فأَبْوابه لا تغلق ما داموا هناك». وذكر العياشي أن الأركاب تأخذ استعدادها لهذه الليالي من بلادهم، وذلك بإحضارهم الشمع والحلوى ويدفعون للصبيان أجرة على ذلك، وقال: «ويقع على أرض الحرم الشيء الكثير من الشمع المذاب، فيُعاد التقاطه ليعودوا به إلى بلادهم تبركًا». وذكر أنه لا يكون في المسجد ليلًا إلا مثل هذه الجماعات.(١)

وأشار الزبادي إلى وجود عادة ليلية في المسجد النبوي، إذ يفتح الأغوات بابًا يسمى باب الوقود، ومنه يوقدون المصابيح، كما اعتادوا كل ليلة على الدخول من باب يسمى باب فاطمة حاملين الشمع والمباخر.(٢)

واعتاد مؤلفو الكتب في جميع الأقطار الإسلامية على إهداء نسخ من كتبهم إلى المسجد النبوي، وعلل الغنامي هذا العمل رجاء التبرك والإقبال

= تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٢]. وهذا الأمر ينطبق وقت حياته وبعد مماته، لما روي من كراهية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرفع الصوت فيه، وكان يعاقب عليه. وأن أبا بكر رضي الله عنه قال: «لا ينبغي رفع الصوت على نبيّ حيًا ولا ميتًا». وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها عندما تسمع صوت وتد أو مسمار يُدقّ في الدور المحيطة بالمسجد، ترسل إليهم أن لا يؤذوا رسول الله ﷺ. انظر: أبا زيد عمر بن شبة النمري البصري: تأريخ المدينة المنورة، ج١، ص٣٤ – ٣٥، تحقيق فهيم محمد شلتوت، د.ت؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٥٥٩. إضافة إلى أنه بيت من بيوت الله التي لم توجد إلا للعبادة.

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٠١ – ١٠٢، تحقيق أمحزون؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٦٩، ١٨٣.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٥.

عليها، لذا وجد في خزائنه كثير من الكتب في كل فنون العلم.(١)

وجرت عادة الأغوات كل ليلة جمعة أن يكنس الصندوق المواجه لرأس النبي ﷺ، ورشه بماء الورد وغيره من الطِّيب، وفي صبيحة الجمعة تكنس الحجرة الشريفة.(٢)

وفي كل ليلة جمعة يجتمع الناس بعد صلاة العشاء في أروقة المسجد الموالية لصحنه، ويحضر عدد من المنشدين، ويقوم كل واحد منهم بإنشاد قصيدة أو قصيدتين، بصوت عذب ذي نغمات موسيقية وتطريب وتقسيم، ولهم أتباع يردّون عليهم، والناس محدقون بهم.(٣)

ودأب الأغوات على كنس المسجد النبوي وتنظيفه يوم الجمعة، وكانوا يُعلِّقون على أبوابه ستائر الديباج الأسود المطرزة بخيوط الذهب، وكذلك تُعلَّق ستائر من الطراز نفسه على أبواب الحجرة الشريفة، ويضعون رايتين سوداوين من الديباج المطرز، واحدة على يمين المنبر، والأخرى على يساره، ويفرش المنبر من أعلاه إلى أسفله بالديباج المطرز.(٤)

وعن الاستعداد لصلاة الجمعة ذكر العياشي أن المؤذنين اعتادوا على الطلوع على المآذن قبل الزوال بساعتين، ويبدأ مؤذن المئذنة الرئيسة(٥) بالذكر

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٥.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٧٥، تحقيق أمحزون.

(٤) المصدر السابق والجزء، ص٢٠١، تحقيق أمحزون.

(٥) ذكر الأنصاري في كتابه أن بيت الرَّيِّس هم «في عُرْف أهل المدينة المنورة مَنْ يؤذن في المنارة الكبرى التي على قبر النبي ﷺ وسُمِّي اليوم بالريسية نسبة إلى الريس المؤذن فيها، وهو رئيس المؤذنين... وعدة المباشرين اليوم ربما ينيفون على أربعين شخصًا، ويطلق على كل واحد منهم ريسًا، لكن صار علمًا بالغلبة على بيت الريس الحنبلي، حيث إن رئاسة =

والصلاة على النبي ﷺ وقراءة آيات من القرآن الكريم، فإذا فرغ تلاه مؤذن المئذنة السليمانية في ذلك، ولا يزالون يتناوبون على الذكر والصلاة على النبي ﷺ والتلاوة على كل المآذن إلى أن يخرج الإمام إثر الزّوال، وهم يقتسمون الوقت، فإذا قرب دخول الإمام قام أحد المؤذنين على موضع في وسط المسجد يسمى سرير المؤذنين فينشد ما شاء الله، فإذا دخل الإمام وصعد المنبر، أذّن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على ذلك السرير، أما كيفية أذانهم فإنه يبتدئ رئيسهم فيقول: الله أكبر، الله أكبر، فيندفع بعده المؤذنون الآخرون مردّدينها دفعة واحدة، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله مثنى، وبعد فراغه منها يرفع المؤذنون أصواتهم بها دفعة واحدة، وهلم جرًّا إلى نهاية الأذان.(١)

واعتاد خطيب المسجد النبوي على الدعاء في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي ﷺ، والتّرضّي على الآل والخلفاء والصحابة، والدعاء للسلطان الأعظم ملك الترك، موصوفًا بملك البرَّين والبحرين والشامين والعراقين، ثم يدعو للسلطان شريف مكة المكرمة، موصوفا بحامي حمى الحرمين الشريفين، ثم الدعاء لأمير المدينة المنورة لكونه حامي حماها وأميرها.(٢)

وجرت العادة على إقامة الصلوات الخمس في الحرم الشريف في أول أوقاتها ما عدا صلاة الصبح، إذ يؤخرها الحنفي إلى قرب الإسفار، ويصلون الظهر أول ما تزول الشمس، ولا يقيل غالبية الناس إلا بعد الصلاة، فيذهبون بعد الصلاة إلى منازلهم لنوم القائلة، وذكر العياشي أن هذه العادة كانت تشقّ عليه قبل اعتياده عليها، إذ كثيرًا ما تكاد تفوته صلاة الظهر بالمسجد لأنه لا يتأهب لها

= يوم الجمعة منهم، ولكون مشيخة الرؤساء غالبًا فيهم. انظر: الأنصاري: تحفة المحبين والأصحاب، ص٢٥٢.

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٠١، تحقيق أمحزون.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٣٦ - ٢٣٧، تحقيق أمحزون.

إلا بعد الأذان وقال: «ليس بين الأذان والصلاة وقت للتأهُّب، فمن لم يتأهب قبل دخول وقتها فاتته صلاة الجماعة غالبًا». وأشار إلى أن هذا خلاف السُّنَّة في تأخيرها إلى ربع القامة، فالعياشي هنا يشير إلى حديث الرسول ﷺ في تأخير صلاة الظهر أوان الحر وإن لم يصرّح بنص الحديث.(١)

وذكر العياشي أنّ أوّل مَنْ يصلي من الأئمة الشافعي، ثم الحنفي إلا في صلاة المغرب، إذ يتقدّم الحنفي لضيق الوقت كالمالكي إذ لا يؤم في المدينة المنورة سواهما من الأئمة إلا في صلاة الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، ويتناوب الإمامان على الصلاة في المحراب النبوي، فإذا صلى أحدهما فيه صلّى الآخر في المحراب الآخر الذي على يمين المنبر الشريف، وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يُصلّى فيه إلا في بعض أيام المواسم إن كثر الناس.(٢)

واعتاد بعض السكان على حجز الأماكن في المسجد النبوي للصلاة(٣)، وعندما أتى العياشي على ذكر هذه العادة وصفها بسوء الأدب، فقال: «إذا كان بعد الثلث الأخير من الليل جاء رئيس المؤذنين إلى المسجد النبوي فيفتح له الأغوات، ويصعد إلى المئذنة الرئيسة، ويؤذن، ويتبعه بالدعاء والذكر والصلاة على النبي ﷺ، عندها يُبادر كلُّ مَنْ في المسجد من الأغوات إلى الوضوء، وإشعال مصابيحه كاملة، فإذا انتهوا وقرب وقت الصلاة فتحوا أبوابه، ولا يأتي

---

(١) روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر، فأراد المؤذن أن يؤذن للظهر، فقال النبي ﷺ: أبرد. ثم أراد أن يؤذن، فقال له: أبرد. حتى رأينا فيء التلول فقال النبي ﷺ: إن شدة الحرّ من فيح جهنم، فإذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة» البخاري: صحيح البخاري، ج١، ١٠٣.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٠٥، تحقيق أمحزون.

(٣) للأسف ما زالت هذه العادة واضحة جلية سواء في المسجد النبوي أو في المسجد الحرام.

وقت فتحها إلا وتكون الأبواب غاصّة بالمصلين المتهجدين، ينتظرون فتحها، فإذا فتحت دخلوا كالسيل متزاحمين متسابقين متدافعين إلى الصف الأول من الروضة فيما بين القبر والمنبر، فمن سبق إلى الموضع كان أحق به، وإذا أراد القيام لحاجة كزيارة أو تجديد وضوء، بسط رداءه في محلّه فلا يجلس فيه أحد ولو أبطأ، وبعمله هذا يحجز الموضع على المصلّين، وفي ذلك ضرر عليهم، بالإضافة إلى دخولهم مزدحمين وراكضين إلى الروضة حيث كان يُسمع لأقدامهم دويّ من شدة العَدْو، مع ما يصاحب ذلك من سوء أدب، وربما تصدر بعض احتجاجات لا يلتفت إليها.(١)

واعتاد المُدرِّسون في المدينة المنورة على التوقف عن القراءة والتدريس في المكاتب والمسجد النبوي يومي الثلاثاء والجمعة، ويشتغلون فيما سوى ذلك من الأيام، وقد تعجَّب العياشي من ذلك لأنه خلاف ما عهده في المغرب من التعطيل يومي الخميس والجمعة.(٢)

كما دأبوا على إدخال الجنازة إلى الحرم النبوي فيُصَلّى عليها فيه، ثم يمرّ بها أمام الوجه الشريف، ويوقف بها هنيهة، بعدها يذهبون بها إلى البقيع أو غيرها من المقابر.

والأصل في إدخال الجنائز إلى داخل المسجد النبوي منذ عهد النبي ﷺ، فقد رُوي عن ابن شبّة قال: «إنهم كانوا يخبرون الرسول ﷺ عند احتضار الميت، فيأتيه ويستغفر له، ويصلي عليه إذا توفي فتشاوروا بينهم، وخلصوا إلى أن ذلك يشق على النبي ﷺ وارتأوا أن لا يخبروه إلا بعد وفاة الشخص، فرأوا أيضًا أن في ذلك مشقة عليه، فارتأوا أن يأتوا بالميت إلى المسجد ليصلي عليه، فكان

---

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٣٣ - ٢٣٤، تحقيق أمحزون.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٤.

الأمر كذلك»[١]. كما أن السيدة عائشة رضي الله عنها أمرت أن يحضروا جنازة سعد بن أبي وقاص إلى المسجد النبوي لتصلّي عليه، وذكر السمهودي أن جنائز الأعيان كانت تخص بالصلاة عليهم بالروضة الشريفة وغيرهم يصلى عليه أمام الروضة بعد أن يوقف بالجنازة بين يدي النبي ﷺ إلى عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م.

ويُخصَّص يوم السابع عشر من ذي القعدة لتنظيف المسجد النبوي، «ويسمونه الكنيس»، وفي هذا اليوم تُجمع بُسط الحرم النبوي وفرشه كلها، وتدخل إلى المخازن بحيث لا يبقى إلا الحصر، وتُدخَل المصاحف والسُبحات إلى الروضة الشريفة، ويردُّ كلّ من استعار كتابًا إلى صاحبه أو ناظر المكتبة المسؤول عنه.

وفي هذا الشهر تُقضى غالبية الديون، وتفصل الشراكات، وتنتهى مدة الكراء استعدادًا للموسم، وفيه يقبض أهل المدينة المنورة أوقافهم وأعطياتهم الواردة والمخصصة لهم من الآفاق، ويرحل مَنْ يريد الحج أو التجارة إلى مكة المكرمة بحيث لا يبقى فيها إلا القليل، وتتوقف أمورهم المعيشية، من تدريس وفلاحة وغيرها، وعند انقضاء الموسم تعود حياتهم إلى سابق عهدها، ويُعاد فرش المسجد على ما كان عليه قبل وصول الأركاب، وقد يحدث أن يتأخر رحيل أحد الأركاب كما حدث في عام مجاورة العياشي، فيتأخر من ثم فَرْشه، وعندما يُعاد فرشه يتنافس الجميع في ذلك، ولا يستثنى من ذلك الأمراء فيتعاون الجميع على إخراج صناديق الكتب من الحجرة الشريفة، وعندما كان العياشي مجاورًا أشار إلى تأخر الركب العجمي، فلم يُعد فرشه إلا عندما استهل ربيع الأول، فقال: «نُظِّف الحرم الشريف، وفُرش بفُرشه المعهودة التي كانت من الزرابي المبثوثة الحسان التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك، وكان

(١) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، ج١، ص٣ - ٤.

يؤتى بها من الهند هدية من ملوكها». وقد رأى العياشي بعضها مصنوعًا من الحرير الخالص، وكان يتحرّز من الصّلاة عليها، وبعضها مصنوع من أجود أنواع الصوف الملون الذي يصعب التفريق بينه وبين الحرير إلّا لمن له معرفة في هذا الأمر، وهذه الفُرُش كان يُخص بها المسجد القديم المسقف فقط. وبعد فرشه يخرجون الصناديق المحتوية على المصاحف القديمة والأجزاء المهداة من الملوك والكبراء، وَتُصَفُّ في قبلة المسجد، وتفتح خزائن الكتب العلمية الموقوفة على الحرم الشريف، ويعاود الناس الاستعارة منها للقراءة، ويشرع الأئمة في القراءة والتدريس».[1]

وعند هطول الأمطار يقوم الناس بتنظيف المسجد النبوي، فقد صادف العياشي وقت مجاورته هطول أمطار غزيرة في المدينة المنورة، حدث على إثرها امتلاء صحن المسجد النبوي بالماء، حتى أصبح كالبركة العظيمة لكثرة انصباب الماء فيه، ولم تستطع بلاليع الصحن تصريفه لضيق بعضها ولكثرة الماء، فلم يشعر الناس إلا وقد اندفع الماء إلى داخل المسجد، وأغرق فُرشه الثمينة، فشمَّر الحاضرون عن ساعد الجدّ وتصايحوا لاجتماع الناس الموجودين بالقرب من المسجد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من نفائسه، فهبّوا لجمع البُسُط بعدما ابتل أكثرها، إذ وصل الماء إلى المنبر والمحراب النبوي، بل لقد وصل إلى الصف الأول، وأصبح داخل المسجد كأنه بركة ماء أخرى، وعندما حانت صلاة العصر لم يجد المصلون موضعًا لم يمسسه الماء، فصلّى الإمام على دكة الأغوات مع طائفة من الناس، وصلَّى الباقون في أروقة الصحن الشرقية والغربية، وبعد ذلك اجتمع الناس لإخراج الماء من المسجد مستخدمين في ذلك الأواني الكبار والأسطل، وفي اليوم التالي بولغ في تنظيفه وغسله وكنسه، وذكر العياشي أنه لم يحدث مثل

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٩٤ - ١٩٥، ١٩٧ - ١٩٨، تحقيق أمحزون.

هذا من أزمان طويلة، ولم يسمع بذلك أهل المدينة المنورة، لأنه لو حدث قبل ذلك لبادروا إلى اتخاذ التدابير الواقية، مثل جعل حاجز بين الصحن والمسجد يمنع تدفق الماء إليه، وبعد هذه الحادثه أمر شيخ الحرم بوضع حجارة منحوتة طولها قدر ذراع ذات أساس مُثبَّت في أرض المسجد بين كل أسطوانتين من الأسطوانات الموالية للصحن لتمنع دخول الماء لو قُدّر أن اجتمع مرة أخرى، إلا إذا كان أكثر لدرجة اعتلائه تلك الأحجار، وأضاف أن هذا نادر الحدوث، ولو حدث لكان خروجه أقرب من باب الرحمة وباب جبريل من دخوله إلى المسجد. وقد أثنى العياشي على شيخ الحرم لتصرفه ذلك وعَدَّه من الأفعال الحسنة إذ أمر بعد ذلك بتنظيف البلاليع الموجودة في صحن المسجد وإزالة ما فيها من ضيق.[١]

وعن الأنكحة والزواج ذكر العياشي أن سكان المدينة المنورة تعودّوا على أن يكون عقد القِران في المسجد النبوي، وقد حضر عقد قِرانٍ مع شيخه الثعالبي لابن رجلٍ هندي قدم من مكة المكرمة على ابنة رجل آخر من كبار تجّار الهند، وقال: «إنه كره الحضور، ولكنه لم يستطع مخالفة شيخه، إذ حصلت مباهاة وتصنّع في مكانٍ كان الأنسب فيه الخضوع والخشوع». ووصف ما حدث قائلًا: «إنه جلس مع شيخه مسندًا ظهره للمنبر الشريف، وجلس أرباب المناصب والعلماء والخطباء وأكابر الناس صفين متقابلين في الساحة المحصورة بين المنبر الشريف والحجرة الشريفة، فَصَفٌّ مستقبل القبلة، وصفٌّ مسند ظهره إلى جدار القبلة، وقد جلس على يسار شيخه كبير خطباء المدينة المنورة، وبإزائه المتعاقدان أبو الابن وأبو البنت، فشرع في الخطبة بصوت جهوري، وأطال وأجاد في الثناء على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، ثم تلاه بذكر المتعاقدين

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٩ - ٢٣٠، تحقيق أمحزون.

وأطال الثناء عليهما إلى أن ذكر العقد، وأشار إلى المتعاقدين، ورضيا بذلك». وقد أنكر العياشي المبالغة في الثناء على المتعاقدين لأنه كما قال: «أكثره باطل وزور، وهم في روضة من رياض الجنة». وقد تمنى لو لم يحضر لو علم ما سيحدث هناك، وعلى الرغم من إنكاره وعدم رضاه فإنه استمر في الجلوس والوصف، فقال: «إنهم أحضروا أطباق الرياحين واللوز والسكر، ووُضعت بين الصفين، ووُزّعت بعد ذلك على الحاضرين، وقام أحد المنشدين وأنشد قصيدتين في مدح النبي ﷺ، وبعدها افترق المجلس، وقام الحاضرون لتهنئة المتعاقدين». وعندها ذهب العياشي وتركهم.

وأكد العياشي أن هذه عادتهم في عقد نكاح ذوي الوجاهة والرئاسة من الأمراء أو التجار أو أصحاب المناصب، أما غيرهم فعلى حسب ما يتفق من قدرتهم.[١]

وتحدث العياشي أيضًا عن عادتهم في ليلة الدخول فقال: «إذا كانت ليلة الدخول حضر الزوج ومعه عدد كبير من أصحابه وأقاربه، حاملين معهم الشموع إلى باب المسجد بعد العشاء، فيدخل ويسلّم على النبي ﷺ ويدعو، ثم يخرج ويذهب بزفة واحتفال إلى بيت أهل الزوجة»، وقال: «إن هذا خلاف المعتاد في كثير من البلاد، إذ يفترض أن المرأة هي التي تُزَفُّ إلى زوجها ويكون الدخول في بيت الزوج، ولكن أهل المدينة المنورة تعوّدوا العكس، وعندما يصبح الصباح يذهب الزوج إلى بيته، ويتولى إعداد الوليمة لإطعام الحاضرين من المهنئين، وفي الليلة المقبلة تحضر الزوجة من دار أهلها إلى دار زوجها».[٢]

أما عن زيارة مسجد قباء فقد واظب سكان المدينة المنورة على زيارته

---

(١) العياشي، ماء الموائد، ص٢١٥ - ٢١٦، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢١٦ - ٢١٧، تحقيق أمحزون.

كل يوم سبت، فيأتونه مشاةً وركبانًا، ذكورًا وإناثًا[١]. والأصل في هذه العادة ما روي أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجد قباء كل سبت.[٢]

وكان هناك أعراب يجلبون اللبن والجبن والسمن والغنم إلى المدينة المنورة، فيتلقاهم فئة من الأعراب الساكنين بالمدينة المنورة وأطرافها، سماهم العياشي بالبرغازيين لشراء ما لديهم وإعادة بيعه في أسواق المدينة المنورة، وبذلك يكونون واسطة بين الأعراب الجالبين للسلع وأهل المدينة المنورة، وذكر العياشي أن هذا من تلقي السلع المنهي عنه[٣]، ولكنهم ألفوا ذلك، واستمرت عليه عادتهم وأَلِفَ ذلك القادمون أيضا.[٤]

ومن عادات أهل المدينة المنورة التدثر بالثياب الثقيلة في نهاية الحر وإقبال البرد، فعندما يبرد الهواء صباحًا ومساءً يبدأ أهل المدينة المنورة يتدثّرون بالثياب الكثيفة التي لا تلبس إلا في أيام البرد الشديدة، وعللوا ذلك بعدم تعوّد أبدانهم على البرد، وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم يصابون بالمرض.[٥]

وسجل العياشي عادة أهل المدينة المنورة في الأكل فقال: إن لهم ولعًا وغرامًا شديدًا بأكل اللحم، معللين ذلك بأن أجسامهم تتضرّر بتركه وتيبس، وبأكلهم اللحم يحدث لها الترطيب. كما أن نساءهم لا يطبخن غداءً ولا عشاءً إلا وفيه لحم، ويقلن: نحن لا نعرف الطبخ بلا لحم ولو أدى ذلك إلى

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٦٠ - ١٦١.

(٢) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، ج١، ص٤٤.

(٣) فقد روي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تلقوا السلع حتى يهبط بها إلى السوق». انظر: البخاري: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج٢، ص١٩.

(٤) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٣، تحقيق أمحزون.

(٥) المصدر السابق، ص٢٢٥.

بقائهم بلا عشاء ولا غداء. وأشار العياشي إلى أنه من شدة حرصهم على توفير اللحم يشترون العبد الذي يقتصر عمله على شراء اللحم فقط، فيبحث عنه في أسواق المدينة المنورة وضواحيها كالعوالي وقباء في زمن قلّته، ولا يرجع حتى يحصل عليه، فإذا وجده كان ذلك شغله في ذلك اليوم، ولا يستخدم في غير هذا العمل.[١]

كما أشار العياشي إلى اعتياد أهل المدينة المنورة على الرفاهية والتوسع في المعيشة في أيامه، فكانوا يغالون في اقتناء الملابس الفاخرة ولبسها، والتزين بزي الأعاجم في مأكلهم ومشربهم وملابسهم، وذلك لكثرة سكن الأعاجم واختلاطهم بهم. وقد تعجب العياشي من ذلك إذ قال: «إن سكان المدينة المنورة عرف عنهم القناعة، ولكن أصبحوا الآن خلاف ذلك، فهم من أَرْفَه الناس عيشًا، وأكثرهم مأكلًا وإسرافًا في ارتداء الملابس، ولكن هذا الأمر اقتصر على كبراء المدينة المنورة، أما الفقراء وغالبية المجاورين وخصوصًا المغاربة[٢] فهم على حالهم من الفقر والمسكنة» وقال: «إن أهلها بالعموم تحضّروا، وغلب عليهم طابع الأعاجم في رفاهيتهم وإسرافهم، وتشبهوا بهم في ملبسهم وغالب أحوالهم».[٣]

ولَحَظَ الرحالة المغاربة ما تمارسه المرأة في المدينة المنورة من عادة تسمى بالشخشخة[٤]، وهي ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار والطيب،

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٦ - ٢٢٧، تحقيق أمحزون.

(٢) إشارة إلى وجود جالية مغربية مجاورة في تلك المدة امتلك بعضهم البساتين والمزارع كما ذكر العياشي سابقًا.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٧، تحقيق أمحزون.

(٤) «الشخشخة» كلمة ترمز إلى صوت النقود عند اصطدامها مع بعضها على ما يبدو.

وربما بلغ ما تأخذه في كل يوم ريالًا.[1]

وتعوَّد أهل المدينة المنورة على الخروج إلى مساجد الفتح بقصد التنزه في أيام كثيرة، ولهم يوم معلوم وهو النصف من شعبان، إذ يخرجون إليها بالخيام والأطعمة الكثيرة، فيبيتون هناك في لهو وطرب، وقال: «إنه خرج مرة لزيارة هذه المساجد فوجد الأعلى منها مملوءًا بالنساء، ولم يستطع الدخول إليه، لأنهن كنّ يطبخن فيه أنواع الأطعمة». وأضاف قائلًا: «إن لنساء المدينة المنورة عوائد ذميمة في الخروج للتنزه والتفرج في البساتين والأماكن المنفسحة، ويسمون ذلك القائلة[2]، فيقولون: نقيل اليوم في الموضع الفلاني، وخروج الرجال أكثر»، وذكر أن المرأة تكلف زوجها في مثل هذه الخرجات من النفقة ما لا قدرة له.[3]

واعتادت النساء المدنيات على مباشرة البيع والشراء بأنفسهن وخاصة في أيام المواسم، وقد وصف العياشي هذه العادة بأنها مذمومة، إذ لا تبقى مُخدَّرة من النساء شريفة كانت أو وضيعة إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها، ولهن على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن، ويبتعن بها ما أحبَبْن مما يليق بهن من الطيب وما شابهه، وقال: إنه ربما لا تقنع إحداهنّ من زوجها إلا بالخمسين دينارًا فما فوقها. وأورد حادثة وقعت لأحد معارفه من المدرسين الذي طلبت منه زوجته المال لتخرج إلى السوق كما هي العادة، فأعطاها عشرة دنانير ذهبًا، فاستقلَّت المبلغ وذهبت من شدة غيظها ورمتها في المرحاض فأتلفتها، وقالت له: «أَمِثْلِي يخرج إلى السوق بهذا المقدار؟!». فلم يملك من أمره إلا أن ذهب واقترض خمسين دينارًا وأعطاها إياها». وقد ندَّد العياشي بموقف الرجال الخاضع للنساء، ووصف ذلك بالحسرة العظيمة، وذلّ الرجال

---

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٢٧، تحقيق أمحزون.

(٢) لا تزال هذه العادة موجودة إلى اليوم.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١١٦ – ١١٧، تحقيق أمحزون.

الذين جعلهم الله قوامين على النساء وقال: «لا ينبغي لذي همة أن يرضى بذلك».[١]

ومن ضمن عادات نساء المدينة المنورة المبالغة في التستر الظاهر بحيث لا يظهر منهن مغرز إبرة، حتى أطرافهن يُلْبسنها الخفاف السود، ويتبرقعن، وَيَسْدِلْن من أُزُرهن ما يجعلهن في غاية الستر، إلا أنهن يُكثرن من الطيب عند الخروج، وتنتشر رائحة طيبهن لمسافات فيكون ما سترنه ظاهرًا قد أبدينه باطنًا[٢]. وكانت هذه العادة متفشية في نساء أهل مكة المكرمة في القرن السابع الهجري إذ أشار ابن بطوطة إليها.[٣]

ومما سبق نجد أن العادات التي ذكرها الرحالة المغاربة تميزت بجوانب منها:

أ - تلقائيتها وارتباطها بأحداث في الماضي وبأمكنة وأزمنة محددة، ودون سلطة تعمل على تطبيقها وإنفاذها، بل استمرت سلطتها من نفسها وبإرادة المجتمع.

ب - أنها غير مدونة ولكنها موروثة ومعروفة.

ج - أنها ملزمة للأفراد والجماعات ويخضعون لها لما لبعضها من قدسية واحترام في نفوسهم.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٠٣، تحقيق أمحزون.

(٢) المصدر السابق والصفحة، وفي هذا تجاوز للشريعة الإسلامية التي أمرت بعدم التطيب للمرأة حال خروجها من المنزل فقد روت زينب بنت عبدالله امرأة عبدالله بن مسعود قالت: «قال لنا رسول الله ﷺ: إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبًا». انظر: الإمام أبا الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري: صحيح مسلم بشرح النووي، ج٤، ص١٦٣، ط٢، ١٣٩٢هـ، د.م، د.ت.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص١٥١.

د - أنها تتعلق بمناسبات معينة يخضع لها سائر الأفراد فهي عامة وشاملة.

فهذه الخصائص في العادات عامة لدى عموم الشعوب(١)، وشعب الحجاز من ضمن الشعوب التي لم تشذ في خصائص عاداتها عنهم.

حالات من الرشوة وصور من البدع والخرافات

حالات من الرشوة:

من علامات ضعف الدولة الحاكمة والمجتمع المحكوم ظهور الرشوة فيه للحصول على المناصب الدينية والإدارية، وقد تحسّر العياشي على وجود هذا الداء في المجتمع الحجازي فقال: «إن الرشوة أدت دورًا بارزًا فيمن يتولى المناصب المهمة، من إمامةٍ وخطابةٍ وقضاءٍ وإفتاءٍ وغيرها، إذ تُبذل الأموال للولاة ليتم تعيين أكبر الباذلين أموالًا دون النظر لصلاحيته». وقال أيضًا: «وإنما مدار أمرهم على الرُّشَا جهارًا، فيُنقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مرارًا متعددة بحسب كثرة الرشا وقلّتها».(٢)

وما ذكره العياشي عن تفشي الرشوة، وكونها كانت تمثل ظاهرة لشراء المناصب، أكده أيضًا الطبري أكثر من مرة، ومما يدل على ذلك ما ذكره في أحداث عام ١١٠٨هـ/ ١٦٩٦م بعد أن أصبح منصب رئاسة الحنفية شاغرًا، فتطاولت أعناق بعض الناس إلى هذا المنصب، وبذلوا في سبيله جهدهم حتى وصل ثمن شرائه إلى نحو ألف وثلاث مئة أحمر(٣)، وأحيانًا كان يُرغَم القضاة والعلماء والمفتون على إصدار فتاوى توافق هوى المُتغلِّب سواء

---

(١) د. عبدالله الخريجي: الضبط الاجتماعي، ص١٣٦، جدة، دار الشروق، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٠٢، تحقيق أمحزون.

(٣) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص٢٣٤.

بالرشوة أم بالقوة مثلما حدث في عام ١١١٤هـ/ ١٧٠٢م[١]، بل لقد وصل الأمر إلى رشوة باشا مصر من قِبَل أحد الأشراف ليوليه إمرة مكة المكرمة عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م.[٢]

لقد عَدَّ الرسول ﷺ إسناد الأمر إلى غير أهله من أمارات اقتراب الساعة، إذ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة قال: كيف إضاعتها؟! قال: إذ وُسِد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».[٣]

كما نهى النبي ﷺ عن السعي في طلب الإمارة، فقال لعبدالرحمن بن سَمُرة: «يا عبدالرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إنْ أُعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإنْ أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها».[٤]

وقد وصف النبي ﷺ الإمارة بالحسرة والندامة، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ، قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة وإنها ستكون حسرة وندامة يوم القيامة».[٥]

الرشوة فساد لا شك فيه، لما ينتج عنها من أخذ الراشي ما ليس له حقّ فيه، وفي ذلك تضييع للحقوق، وتقديم الطالح، وتأخير الصالح، وقد لعن الرسول ﷺ متعاطي الرشوة، ففي رواية عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٥٧، ٢٨٣.

(٢) دحلان: أمراء البلد الحرام، ص١٤٧ - ١٤٩.

(٣) البخاري: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج١، ص٢١.

(٤) البخاري: صحيح البخاري، ج٤، ص٢٣٤؛ مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، ص٢٠٦ - ٢٠٧.

(٥) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: السنن الكبرى، ج١٠، ص٩٥، وفي ذيله الجوهر النقي لعلاء الدين بن علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني، دار الفكر، د.ت.

قال: «لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي».[١]

واقتصرنا على ما ذكره العياشي لأنه الوحيد الذي أمدّنا بهذه المعلومات التي لا نعتقد انتشارها بصورة كبيرة بل هي حالات شاذة.

البدع والخرافات:

انتشرت البدع والخرافات جنبًا إلى جنب في المجتمع الحجازي مع ما كان يمارس من عادات، فهي لشدة رسوخها وإيمانهم بها عُدَّت من العادات المألوفة، لم تَجِدْ مَنْ يستنكرها إلا القليل من الناس، وهذه الممارسات البدعية لا تظهر في أي مجتمع إلا إذا كان يعاني من خللٍ داخلي ظاهر الوضوح، وهي في الوقت نفسه ضارة، بل ومدمرة لمعتقدات المجتمع، ولا يظهر هذا الخلل إلا عندما يكون المجتمع يعاني من أحوال حياتية صعبة ولا يجد وسيلة إيجابية لمنعها أو تغييرها، وكما هو الحال في تلقائية نشوء العادات وممارستها نشأت البدع والخرافات بتلقائيةٍ هي أيضًا، وفي كلتا الحالتين صَعُبَ على أفراد المجتمع الخروج عما ألفه الجميع[٢]، ولا سيما من أراد الإصلاح والنهي عن تلك البدع.[٣]

تحدث الرحالة المغاربة عن جملة من البدع والخرافات التي انتشرت بين الناس في الحجاز في تلك المدة، ومن هذه البدع والخرافات ما لاقت صدىً وتصديقًا في نفوس الرحالة المغاربة، ومنها ما أنكروه ونبّهوا على بطلانه، فمن البدع التي مارسها الحجاج قبل وصولهم إلى مكة المكرمة بدعة الوقدة التي أشار إليها القيسي إشارة مختصرة دون تعليق منه بالاستحسان أو الاستهجان، ولكنه

---

(١) المصدر السابق والجزء، ص١٣٩.

(٢) الخريجي: الضبط الاجتماعي، ص١٢٤ - ١٢٥.

(٣) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٧٦.

أخطأ في نسبتها للرسول ﷺ، فقال: «دار الوقدة موضع صحراء، سُميّت بذلك لوقد النبي ﷺ كثرة النار حيث توجه لغزوة بدر»[١]. ونجد الرافعي يمتدح هذه البدعة التي لم يَرْ فيها أي غضاضة فقال: «ارتحلنا إلى موضع يُقال له السقيف، فبتنا هناك ليكون القدوم على بدر سهلًا خفيفًا، وهذه الليلة تسمى عند العامة الوقدة، وما ذاك إلا استبشارًا بقرب مكة وجدة، يظلون يشعلون الشمع على الجمال، وذلك عندهم من أهم الأمور وأجلّ الخصال»[٢]. ولم يعترض الدرعي وأبو مدين على هذه البدعة، وكل ما ذكراه كان وصفًا لتلك الليلة التي وصفها أبو مدين بقوله: «وهذه الليلة عند الحجاج من الليالي المشهورة تضيء الشمع كالنهار..» وأضاف «أنهم يحضرون معهم الشموع الضخمة التي يضعونها على ظهور الإبل والبغال والحمير، كما يحملون بأيديهم المشاعل ويلوّحون بها في الهواء».[٣]

وكان الزبادي من ضمن الرحالة المغاربة الذين استحسنوها فقال: «شربنا طبيخ الشكر، وهو كما يذكر عادة الحاج في ذلك المحضر، وبتنا بليلة بالشموع والمصابيح، كثيرة الأنوار هائلة بالمحارق والمدافع الكبار، وتسمى ليلة الوقدة، لها بين الخاص والعام أي اشتهار، فإذا لحقهم هناك الركب الشامي كان ذلك غاية الأمور الحسنة والعجائب المستحسنة، ولم يدركهم في هذه السنة».[٤]

ونلحظ أن الرحالة المغاربة المتقدم ذكرهم لزموا جانب الاستحسان لهذه العادة البدعية التي كان الحجاج يقومون بها أو ذكروها كما هي، وفي المقابل نجد أن اليوسي والعياشي استنكراها وأكّدا أنها من البدع الشنيعة،

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٢.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص٨١ - ٨٢.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٣٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٦.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص٨١ - ٨٢.

فاليوسي وصف تلك الليلة بقوله: «وهذه الدار يسمونها دار الوقدة، وذلك أنهم يوقدون كثرة الشمع والمصابيح، ولا ترى جملًا إلا وفوق قَتَبه شموع عديدة، وهذا دأبهم الليل كله، ومَنْ لم يفعل ذلك عندهم فلم يُوفَّق كذا أو كما يعتقدون. وهي - والله أعلم - بدعة شنيعة وعناء وتعب بلا طائل»[1]. أما العياشي فردَّ على هذه البدعة ردًا كفانا عناء التصدي للرد عليها، فقد وصف تلك الليلة وأتبعهُ بردٍّ يدل دلالة قاطعة على عدم رضاه عنها، فقال: «السقائف ويقال دار الوقدة، يوقدون فيها الشمع الكبير يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك، ويبيعونه في الركب، ويجعلونه على أقتاب الجمال بالليل، فترى الركب كلّه كأنه من أعظم المساجد المسرجة مصابيحها في أحد المواسم، وشاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا نيرانًا كثيرة، فنحن نتشبه بهم، وتلك غفلة منهم وخطأ من وجهين:

- أحدهما: أن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح[2] بمرّ الظهران، وكما هو معروف في كتب السير، وأما بدر فلم يقل أحد فيها بذلك.
- وثانيهما: لو سُلِّم أن ذلك وقع فيها، فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم، فحيث لا عدو فلا معنى له، ولا شك أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه والاستبشار بالأماكن التي أعز الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن، ما لم يؤدِّ ذلك إلى محظور مثل الاعتقاد بأن الوقود سُنَّة متّبعة، بل ربما ظنّ بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتُعظَّمْ بغير ذلك، من فرح، وسرور، وصدقة، وعبادة، وإعلان بشكر، وقد جاءني كثير ممّن لا شمع عندهم يستفتون ويقولون: لا شمع عندنا، فهل يلزمنا

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٦/ ب - ٨٧/ أ.

(٢) البخاري: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج٣، ص٦١.

شراؤه ممّن هو عنده؟! ظانّين أن ذلك من مناسك حجّهم وشعائره، وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات. أسأل الله أن يثبتنا على سُنَّة النبي المستقيمة لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا».[١]

وهذه البدعة - كما نرى - مستحدثة لم يذكرها الرحالة السابقون في القرون السالفة، ويبدو أنها لم تبدأ في الظهور إلا في القرن التاسع أو بداية العاشر الهجري، إذ ذكرها الجزيري في القرن العاشر الهجري حيث أظهر استنكاره لها، ووصفها بأنها من البدع فقال: «ولأهل الركب في تلك الليلة عادة لا تنقطع، وبدعة لا تمتنع، لم يدل على فعلها دليلٌ من كتاب، ولا جاءت بفعلها سُنَّة، ولا ورد بها خطاب، وغاية ما فيها الإسراف في إيقاد الشموع، يجعلونها في الرّحلات والأقتاب والمحامل، واستبشارًا بقربهم من المحلّ الذي كان به نصرة سيد المرسلين ﷺ وتأييده بالملائكة».[٢]

ومن البدع التي شاعت وعم بلاؤها جميع الأقطار الإسلامية ومنها بلاد الحجاز البناء على القبور، والحرص على زيارتها ليس للعبرة والعظة كما ورد في السُّنَّة[٣]، وإنما للتبرك والدعاء عندها، وإيقاد السرج فيها، والجلوس عليها واتخاذها مساجد على الرغم من التحذير الشديد من النبي ﷺ لفاعليها، فقد روى ابن عباس رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج»[٤]. وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٧.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٢٣.

(٣) البيهقي: السنن الكبرى، ج٤، ص٧٦ - ٧٧.

(٤) أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار النسائي: سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، ج٢، ص٩٥، ط١، ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م، بيروت، دار الفكر.

قال: «نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور، أو يبنى عليها، أو يجلس عليها أحد».[١]

وعلى الرغم من هذه التحذيرات الصريحة في هذه الأحاديث وغيرها إلا أنه في تلك المدة أصبح هذا العمل من أعظم القربات الدالة على تمام الإيمان، والجالبة للأموال، إذ وضعوا السَّدَنَةَ والقيّمين على تلك الأضرحة لأخذ صدقات المارِّين لقاء السماح لهم بالدخول إليها وزيارتها، وخاصة للقبور التي لأصحابها شهرة.[٢]

ومن تلك القبور التي مرّ عليها الرحالة المغاربة وحرصوا على زيارتها قبرٌ في العقبة يُنسب إلى شخص يدعى إبراهيم اللقاني[٣]، زاره الدرعي وأشار إلى أنه في مقبرة محاط عليها[٤]. وزار القيسي قبرًا عليه قبة في روضة في عيون القصب ينسب لشخص يسمى سلامة[٥]، يُخَصُّ بالزيارة والدعاء عنده والتبرك به[٦]. وقبر ينسب لشخص يسمى مرزوق الكفافي[٧]

---

(١) المصدر السابق والجزء، ص٨٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٢٧، تحقيق أمحزون؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٢.

(٣) هو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، برهان الدين، متصوف مصري مالكي، توفي قرب العقبة عند عودته من الحج عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م. له مؤلفات منها جوهر التوحيد. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٦ - ٩؛ الزركلي: الأعلام، ج١، ص٢٨.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٢؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦.

(٥) لم نجد له ذكرًا ضمن المصادر التي اعتمدناها.

(٦) القيسي: أنس الساري، ص٧١، ١٢٧.

(٧) هو مرزوق الكفافي، يقال إنه كان من تجار أهل المغرب، وإنه مرض في طريق الحج فأمر بحفر بئر وعمارته بضبا والمنزل الذي قبله، ثم مات ودفن هناك على حافة الطريق في ساحل البحر، وعُمرت له هذه البئر من ماله ابتغاءً لوجه الله تعالى وسقايةً وسبيلًا لجميع المسلمين. انظر: النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١١. ويبدو أنه توفي في القرن التاسع الهجري لأنه =

في شق العجوز[١]، ولشدة الاعتناء بهذا القبر كانت تحمل لموضع ضريحه كسوة من مصر[٢]. وهناك قبر على شاطئ البحر في المويلح ينسب إلى محمد الفكوني القسمطيني[٣].

ووجدت مزارة في ينبع على تلٍّ هناك فيها قبران أحدهما لأبي الحسن النفاتي[٤]، والآخر للحسن المثلث[٥]، ولم يستطع العياشي الذهاب إليهما لخوفه من اعتداء الأعراب، فأشار إلى وجودهما فقط.[٦]

ومما يوجب العَجَب تلك الأخبار عن وجود قبر الحسن المثلث هناك، فالمصادر التاريخية ذكرت أنه قُتِل في سجن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م[٧]. فكيف وجد قبر له هناك؟! وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن

= لم يكن له ذكر في هذا الموضع قبل ذلك، ثم ذكره الجزيري بعد ذلك. انظر: الجزيري: الدرر الفرائد، ج١، ص٢٧٩.

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧١؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٦/ أ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٦٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٦٤.

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٣٨٥.

(٣) هو محمد بن عبدالكريم بن محمد الفكوني الطرابلسي توفي بالطاعون وهو عائد من الحج عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م، أمير الركب الجزائري ونواحيها، كان حسن السيرة له مؤلفات. انظر: القادري: التقاط الدرر، ص١٥١، ترجمة رقم ٢٥٣.

(٤) لم نجد له ترجمة في المصادر التي اعتمدناها.

(٥) هو الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أمه فاطمة بنت الحسين، مات في حبس المنصور سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م وعمره ثمان وستون سنة. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص٣٧٣ - ٣٧٦؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٤٧٤، ترجمة رقم ٩١٧.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص٣٧٣ - ٣٧٦؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٤٧٤، ترجمة رقم ٩١٧.

العديد من الأماكن قد نسبت إلى غير أصحابها.

وفي مستورة قبر يُزار يُنسب لأحد أشراف اليمن، عليه بناء وقيِّم مهمته أخذ الصدقات والأموال هناك[١]، ونلحظ هنا أن هذه الأماكن إنما أقيمت لاستجلاب المال واستجدائه من المارّين عليها.

وفي سرف بناء على قبر أم المؤمنين السيدة ميمونة رضي الله عنها، وبجانبه مسجد متهدم، وكانت العناية شديدة لزيارة القبر قبل الصلاة في المسجد والاعتناء ببنائه.[٢]

وفي الزاهر قبر ذُكِر أنه للصحابي عبدالله بن عمر رضي الله عنهما[٣]. وقد ذكر العياشي أنه دفن خارج البلد بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه، وأورد قولًا آخر بأنه مدفون في طرف المحصب وهو المشهور لدى أهل مكة المكرمة على الرغم من عدم صحته.[٤]

وقد أورد العياشي خرافة ترسَّخت في نفوس أهل مكة المكرمة عند زيارتهم للقبر الذي ينسبونه لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما بالمحصب، فقال: «ومن جملة خرافاتهم المتعلقة بتلك الليلة في ذلك المحل أنهم يأخذون معهم نوى التمر فيدفنونه بالأرض في ذلك الجبل تلك الليلة، ويزعمون أَنَّ مَنْ دفن

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٥١؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٦؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٧.

(٣) لا يعرف على وجه التحقيق مكان دفنه. انظر: ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، ج٤، ص٨٨؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص٢٣٦ - ٢٤١.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٥١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٣.

شيئًا حصل له في تلك السنة بعدده ريالات أو دنانير».[١]

ولم يكن العياشي من الذين يستنكرون تلك المزارات والهتاف بأسماء أصحابها كحال غالبية أهل عصره، فمن ذلك قوله عن مزار شخص يدعى عمر العربي[٢]: «وغالب السائلين بمكة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه، وأهل البادية تسمع الرجال منهم والنساء يقولون: شيء لله يا عربي، وهو عندهم عظيم القدر شهير الذكر».[٣]

وأقيمت الأضرحة والقباب والأبنية على مقابر الحجون، ومن تلك الأضرحة التي بنيت ما أقيم على القبر الذي يُزعَم أنه للسيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها[٤]، وأيضًا القبة التي أقيمت على قبر لأحد

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٧؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٤.

(٢) هو عمر بن محمد بن مسعود بن إبراهيم الشاوري اليمني، نزيل مكة المكرمة، ويعرف بالعرابي، أخذ عن علماء اليمن، قدم مكة المكرمة سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م واستوطنها حتى مات فيها، ولم يخرج منها إلا لزيارة المدينة المنورة، وذهب مرة إلى اليمن عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦هـ ورزق حظًا وافرًا من الصلاح والخير والعبادة، واعتقد فيه الناس حتى أمير مكة المكرمة حسن بن عجلان، توفي عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م. انظر: ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٩٤، ٦١٨؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٣٦٠ - ٣٦١، ترجمة رقم ٣٠٩٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص١٣١ - ١٣٢، ترجمة رقم ٤١١.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥٢١، الاستغاثة وطلب العون من الأموات شرك صريح إذ لا يجوز التوجه بالدعاء إلى الأموات مهما علت منزلتهم وصلاحهم.

(٤) جاءت أول إشارة إلى قبرها لدى التجيبي في القرن السابع الهجري دون تحديد لموقعه، مع التنبه إلى أن الرحالة المغاربة وحتى مؤرخي مكة المكرمة الأوائل أغفلوا الإشارة إلى موضعه، دلالة على عدم معرفتهم إياه، والسؤال الذي يطرح نفسه كيف عرف أهل مكة المكرمة بعد مرور سبعة قرون على وفاتها رضي الله عنها مكان قبرها؟! علاوة على أن الإشارة إلى وجود قبر القاسم ابن الرسول ﷺ بجانب أمه لم تكن إلا في القرن الثاني عشر الهجري، إضافة إلى أن الفاسي قد قطع بعدم صحة موقع القبر المنسوب إليها، لأنه على حد قوله لا يوجد نص يعتمد عليه. انظر: التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٤١؛ ابن بطوطة: الرحلة، =

أمراء مكة المكرمة أبي طالب، والذي أصبح موقعه مدارًا لخرافات كثيرة واعتقادات خارجة عن الإسلام فكان أمراء مكة المكرمة يجيرون من استجار به!

ولم تكن تلك القباب والأضرحة والأبنية مثار استنكار بعض الرحالة المغاربة كحال أهل عصرهم، فقد استحسن الحضيكي القباب المقامة بالحجون وامتدحها قائلًا: «كأنها أزهار بالقباب والمقامات يمينًا وشمالًا». وقطع الزبادي بحقيقة وجود قبر السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها هناك كغيره من الرحالة المغاربة، وقال أيضًا: «بوجود قبر بجانبها لابنها القاسم داخل القبة».[1]

وهذا وَهَمٌ كبير، إذ لم تُصرِّح المصادر التاريخية الأولى بمكان قبر أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، علاوة على مكان دفن ابنها الطفل، مع الأخذ في الحسبان المدة التاريخية الطويلة بين وفاتهما والتصريح بمكان قبرهما.

أما في المدينة المنورة فقد بلغ الأمر في البناء على القبور ذروته، حتى إنهم أقاموا الأضرحة والقباب على قبور لا تمتُّ لمن نُسِبت إليهم بصلة، كالقبر المنسوب للسيدة حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ، الذي وجدت عليه قبة لطيفة حيث لم يقل أحد من المؤرخين بأنها مدفونة في المدينة المنورة وبالذات في البقيع إلى القرن الثامن الهجري، إذ لم تظهر هذه النسبة إلا بعد القرن الثامن

= ص١٤٢؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٥٦؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٤٠٥.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥١، ٥٢١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٨؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٠؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١١٣.

الهجري، ومن الرحالة المغاربة من أنكر ذلك[١]. ومنهم من أورد الخبر على حاله[٢]، وكأن مجرد مناقشة إثبات النسبة وبحث حقيقة الأمر لأي موضع وجدت حول صحة مكانه شكوك يُعد انتقاصًا من شأن مكانة المنسوب إليه. وهذا الأمر لم يكن غريبًا على أهل تلك المدة.

ومما لمسناه من كتابات الرحالة المغاربة الحرص الشديد لدى أهل ذلك العصر على التبرك بالقبور، فمن تلك القبور قبور البقيع التي خُصَّت بالبناء، والتي يبدو أن رفعها بدأ منذ عهد الخليفة الراشد الثالث أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فكان يأمر بتسوية ما رآه قد ارتفع منها.[٣]

ولم تَخْلُ رحلة من الرحلات المغربية من ذكر للأضرحة والقباب التي أُقيمت على مواضع دفن الصحابة رضوان الله عليهم، فمن نسي منهم شيئًا أضافه خَلَفُه، حتى لقد وصل الأمر إلى نسبة قباب وأضرحة لا تمت للمنسوبين إليها بصلة.

ولقد شاهد الرحالة المغاربة قبة على قبر عمة الرسول ﷺ صفية بنت عبدالمطلب رضي الله عنها[٤]، وقبة قديمة البناء على قبر مالك بن سنان[٥] والد

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٩٣، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص١١٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٨.

(٣) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، ج٣، ص١٠١٨ - ١٠١٩.

(٤) لم يكن عليها قبة كما أشار السمهودي: انظر: السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩١٠ - ٩١٩؛ العياشي: ماء الموائد، ص٨٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١١؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ١٤٦.

(٥) هو مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبحر الخزرجي الأنصاري الخُدري والد أبي سعيد الخُدري، قتل يوم أحد شهيدًا، وصفه الرسول ﷺ بعفيف المسألة. انظر: ابن الأثير: أسد =

أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.[١]

كما حرص الرحالة المغاربة على الوقوف على قبر إبراهيم ابن الرسول ﷺ الذي كان في روضة بُنِيت عليها قبة بيضاء، وقد شاهدوا القبر مرتفعًا عن سطح الأرض، وغُطِّي بألواح مرصّعة بصفائح صفرية ثبتت بمسامير على هيئة بديعة، وفي المشهد نفسه أيضًا قبر عثمان بن مظعون رضي الله عنه.[٢]

وقد ذكر الرحالة المغاربة روضة[٣] دفن فيها العباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ، والحسن بن علي رضي الله عنهما، إذ دفن إلى رجلي العباس، ودفنت هناك على القول الراجح السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وبعض

= الغابة، ج٤، ص٢٥١، ترجمة رقم ٤٥٩٥.

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٢٣؛ القيسي: أنس الساري، ص١٠٢؛ العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٩٩، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٦. وأبو سعيد بن مالك بن ثعلبة بن عبيد بن الأبحر كان من حفاظ حديث رسول الله ﷺ، مات سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م. ابن الأثير: أسد الغابة، ج٥، ص١٤٢، ترجمة رقم ٥٩٥٤.

(٢) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٩١ - ٨٩٤؛ القيسي: أنس الساري، ص١٠٨، ١١٠؛ العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٩٠، تحقيق أمحزون؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٣. وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح القرشي، يكني أبا السائب، أسلم مبكرًا وهاجر إلى الحبشة، وعاد عندما بلغه إسلام أهل مكة المكرمة فثبت له العكس عندما عاد، ودخل في جوار الوليد بن المغيرة ولم يلبث أن رده وآثر جوار الله تعالى، ثم هاجر إلى المدينة المنورة وشهد بدرًا، كان أشد الناس اجتهادًا في العبادة وتجنب الشهوات، وهو أول مَنْ مات في المدينة المنورة من المهاجرين عام ٢هـ/ ٦٢٣م، وأول من دفن في البقيع من المهاجرين، وقد عَلَّمَ النبي ﷺ قبره بحجر، وكان يزوره، ودفن بجانبه مَنْ توفي من آل البيت لقوله ﷺ: «حجرٌ أعلِّم به قبر أخي وأَدْفن إليه مَنْ مات من أهلي». ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص٤٩٤ - ٤٩٧ ترجمة رقم ٣٥٨٨.

(٣) سمى ابن سعد الموقع مقبرة بني هاشم. انظر: ابن سعد محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، ج٤، ص٣١، بيروت، دار صادر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما.[١]

أما رأي الرحالة المغاربة في التبرك بهذه المواقع وغيرها مما تحققوا من نسبته أو لم يتحققوا فتمثلت في قول القيسي والعياشي: «فيزار كلّ مشهد له نسبة إلى منتسب إلى الله أو إلى رسوله، ولو لم تصحّ نسبة المشهد إليه، فإن لمجرّد النسبة أثرًا في حصول البركة»[٢]. وهذا القول وأمثاله من الأقوال هي الغفلة بعينها من قبل أهل ذلك العصر، ومن ضمنهم الرحالة المغاربة، لأنّا لم نؤمر بهذا، وإنما أُمرنا بالاستغفار لأهل البقيع بالصيغ التي وردت عن النبي ﷺ، عندما كان يقف عليهم ويستغفر لهم، والتي منها: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله لَلاحقون»[٣]، وقوله: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أتانا وإياكم ما توعدون، غدًا مؤجلون، إنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»[٤]، وقوله: «السلام عليكم ديار قوم مؤمنين، وإنا بكم لاحقون، أنتم لنا فرط، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم».[٥]

كما أن سبب مشروعية زيارة القبور إنما هو للتَّذْكرة بالموت، ففي أول الأمر كان الرسول ﷺ يمنع زيارتها، وبعد ذلك أمر به، فقد روى أبو هريرة رضي

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩١٠؛ القيسي: أنس الساري، ص١٠٦ - ١١٠؛ العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٨٩، تحقيق أمحزون؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٧ - ١٤٨؛ ابن عبدالبر: الاستيعاب، ج١، ص٣٧٨.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص١١٤ - ١١٥؛ العياشي: ماء الموائد، ص٩٨، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٣) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، ج١، ص٨٩.

(٤) المصدر السابق والجزء، ص٩٠.

(٥) المصدر السابق والجزء، ص٩١.

الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فزوروا القبور، فإنها تذكّر بالموت»، ومن رواية عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: «فإن في زيارتها تذكرة».(١)

ونلحظ أن ما كان يُفعل في ذلك العصر لم يكن بمستغرب ولا مستنكر، لأن الجميع ومن بينهم علماء عصرهم درجوا على ذلك، فهذا الأمر مما ساد في عصرهم ومما اختصوا به، وما ذكرناه هنا وفي غيره من المواضع إنما هو لتوضيح حالتهم الدينية في تلك المدة، وليس عن اقتناع منّا بذلك، بل هو من البدع الشنيعة التي انقضت وولت ولله الحمد بفضل الله تعالى ثم بفضل جهود القائمين من أولي الأمر لقطع دابر تلك البدع التي ابتُلي بها أهل ذلك العصر.

ولم تقتصر البدع على البناء على القبور والتبرك بها، بل تعددت البدع واختلفت وانتشرت بين الناس في الحجاز في تلك المدة، ومن هذه البدع والخرافات ما لاقى هوى في نفوسهم، ونفوس الرحالة المغاربة، ومنها ما أنكروه ونبهوا إلى بطلانه، ومنها ما اعتقده الجميع، كالزعم الذي ذكره القيسي من ظهور أنوار النبي ﷺ، ووصفها بأنها كالأعلام تنتشر وتظهر ثم تختفي من جهة المدينة المنورة، وقبل الوصول إليها بمسافات طويلة.(٢)

وقد ناقش العياشي هذه المسألة ونفاها جملة وتفصيلاً، فقال: إنه شاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون أنوارًا عند اقترابهم من ينبع، ويعللون ذلك أن وادي النار كان اسمه وادي النور بسبب رؤيتها منه فحُرّفت التسمية. وقد تحرى العياشي وحقق في الأمر فبين أنهم كلما ذكروا رؤيتهم لهذه الأنوار دقق النظر في مصدرها فوجدها لا تعدو كونها خفقات برق من بعيد، وأكد تحققه مرات

---

(١) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، ج٣، ص٢١٨، ٢١٦، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، د.ت.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٧٢.

عديدة من هذا الأمر بسماعه صوت الرّعد أو رؤيته لغيم متراكم، وأضاف أن أرض الحجاز معروفة بكثرة الرعد والبرق، ولكن كثيرًا من الحجاج يُصرُّون على أنها من أنوار النبي ﷺ حتى ولو ظهرت من غير جهة المدينة المنورة. ولم يكتفِ العياشي بتأكيده المُشاهَد بل تعدّاه إلى سؤال شيخه السجتاني الذي أكّد هو الآخر عدم صحة هذا الزعم، وأنه لا يخرج عن كونه برقًا.(١)

ويضاف إلى هذا الزعم ما صدَّقه العياشي ومالت إليه نفسه من ظهور أنوار مخالفة لضوء النهار من ناحية الحجرة الشريفة في المسجد النبوي حتى تغشى المسجد كله ويراها الناس.(٢)

ويمكننا الرد على هذه الخرافة التي سُطِّرت في أعماق النفوس واعتقد صحتها الخاص والعام، أن المسجد القديم استعمل في تزيينه الفسيفساء والزجاج الملون بالإضافة إلى زجاج المصابيح، ومن خصائص هذه المواد انعكاس الضوء إذا سقط عليها، فعندما يسقط ضوء الشمس ينعكس في أرجاء عدة من المسجد النبوي القديم بحسب وضع زاوية الانعكاس، وبطبيعة الحال يكون ضوؤها مغايرًا للون ضوء الشمس ولكنه أشد منه تركيزًا، وهو ما يُقوِّي اعتقادنا بعدم رؤيتهم لهذه الأنوار إلا نهارًا.

ولم يسلم الغنامي أيضًا من الوقوع في تلك الخرافة وتصديقها، بل ذهب لأبعد من ذلك، فذكر أنه عندما خرج من مكة المكرمة قاصدًا مسجد العمرة للإحرام بعمرةٍ شاهد نورًا ساطعًا من ناحية المدينة المنورة، ونسبه إلى أنه نور النبي ﷺ.(٣)

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٨.

(٣) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥.

وكما أسلفنا سابقًا فإن نفوس الوافدين وحتى أبناء المنطقة قد تشرّبت هذا الاعتقاد لدرجة تصديقه، وإلا فكيف للغنامي رؤية هذه الأنوار وهو في مكة المكرمة مع ما يوجد بين مكة المكرمة والمدينة المنورة من جبال وتلال، إلا أن تكون في الحقيقة برقًا، وهذا شيء مؤكد، لأنه لم يذكر أحد منهم رؤية تلك الأنوار نهارًا.

وكما خُصَّت المدينة المنورة بخرافة ظهور نور النبي ﷺ، وجدت مثيلتها كذلك في مكة المكرمة ونُسبت للكعبة المشرفة، فقد ذكر الرافعي أنه شاهد عند دخوله مكة المكرمة من جهة المعلا عمودًا من النور صاعدًا من ناحية الكعبة المشرفة.(١)

وللرد على زعم الرافعي نقول: إن الكعبة المشرفة لا تظهر عيانًا من هناك، فكيف حدد الرافعي موقعها وهو الذي يَقْدم لمكة المكرمة لأول مرة. علاوة على أن روايات الناس عن هذه الأنوار لشدة شيوعها بينهم قد تُوْهم القادم أنه يرى تلك الأنوار المزعومة.

وما ذكر سابقًا كان من جملة الخرافات المشاهدة، ونجد أيضًا أن الرحالة المغاربة بجانب ذكرهم للخرافات المشاهدة، ذكروا خرافات مسموعة، ومنها على سبيل المثال ما ذكره العياشي ونفى صحته، فقال: إن الأعراب تزعم نفور الإبل بعش الغراب معلِّلين زعمهم بأنها تسمع صوت سقب ناقة صالح عليه السلام. فرد العياشي عليهم قائلًا: «ولا أدري من أين لهم ذلك إذْ ليس هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة، وهم قوم صالح».(٢)

وما ذكره العياشي صحيح فديار ثمود إلى الجنوب من هذا الموقع،

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٨.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٣٥.

والمسمى بحجر ثمود، المعروف اليوم بمدائن صالح.

ومن ضمن الخرافات المسموعة إصرارهم على سماع صوت طبل فوق جبل الرمل في بدر، فقد ذكر العياشي أن الحجيج تتكلف الصعود فوق هذا الجبل والأمل يحدوهم لسماع ما يُؤْثر أنه صوت طبل، وقال: «وقد زعم كثير من الحجاج أنهم سمعوه»، وقال مخبرًا عن نفسه: إنه لم يسمع شيئًا.

ولم يقتصر العياشي على قوله: إنه لم يسمع شيئًا، بل لجأ في هذه المسألة أيضًا إلى شيخه السجتاني للتحقق، فأخبره أنه ممّن حرص على التأكد من ذلك بنفسه، فقال: إنه مرّ ببدر سبعًا وعشرين مرّة لم يسمع فيها شيئًا يتحقّقه، ومن ثمَّ أحال العلم إلى الله.

أما العياشي الذي كان فيما يظهر يريد أن ينفي هذه القضية ويثبتها في الوقت نفسه فقد قال: «وقد كثر كلام الناس في هذه المسألة، وإذا ذكر مَنْ يوثق به أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض». وقال العياشي عن تجربته عند المرور على بدر: «وقد مرَرْتُ ببدر سبع مرات، وأنا في كلّها أُلقي البال لذلك، فلم أسمع شيئًا أتحقّقه. وفي هذه المرة سمعنا بعدما قربنا من البندر صوت طبل محقق، فإذا هو طبل بعض أمراء الركب متأخرًا وراءنا. تحققنا ذلك بجلوسنا حتى مرَّ بنا، وكثير من الناس ممَّن لم يتحقق ذلك زعم أنها الطبلخانة المذكورة»[(١)]. ولم يبد الدرعي رأيه، وإنما وصف حال الحجاج هناك وتجشمهم عناء الصعود لذلك الجبل لسماع صوت الطبل، وقال مشككًا: «وزعم كثيرون من الحجاج أنهم يسمعونه هناك».[(٢)]

أما الحضيكي فوصف استباق الناس لصعود ذلك الجبل لتحري سماع

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٧.

(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٦.

صوت الطبل، وقد أخبره بعض مَنْ صعده أنه سمع صوتًا هائلًا يشبه صوت طبل الحرب، وقال: «إن العلماء اختلفوا في سماع ذلك الصوت، فمنهم مَنْ أثبته، وأنه يُسمَع دائمًا يوم الاثنين والخميس، ومن غيرهما يُسمع أحيانًا»[١]. وأكد أبو مدين سماعه هو ومَنْ كان معه صوت ذلك الطبل، ويبدو مما ذكره اعتقاده بهذه الخرافة، إذ قال: «فحمدنا الله تعالى على ذلك».[٢]

وللحقيقة فإن كتب الرحلات المغربية حفظت لنا بعض الخرافات التي سنح فيها الوقت ليعاينها الرحالة المغاربة، فبادروا إلى تدوينها، ونجد أن منهم من صدَّق تلك الخرافات، ومنهم منساير الوضع وعلق عليه، ومنهم من أورده بكونه مجرد خبر دون تعليق، فخرافة سماع صوت الطبل ليست وليدة تلك المدة وإنما ورد ذكرها منذ القرن السادس الهجري عند مجيء ابن جبير للحجاز، وذكرها بعده ابن بطوطة، واختلفا في تحديد يوم سماعه، علاوة على عدم سماعهما صوت الطبل بأنفسهما.[٣]

إن المصادر التاريخية بالإضافة إلى كتب المعاجم لم تذكر وجود جبل في بدر بهذه الصفة، إلا ما أشار إليه السمهودي الذي قال: «شهد رسول الله ﷺ بدرًا بسيفه الذي يدعى العضب وضربت فيها طبلخانة النصر، فهي تضرب إلى قيام الساعة»[٤]. وكما نرى فإن الخبر لا يشير إلى حقيقة مؤكدة.

ولا ريب أن الأصوات المسموعة ليست بالتأكيد قرع طبول، وإنما هي تحدث بفعل حركة الرياح عند ملامستها للأتربة والصخور، ولا سيما أنه عند التحقق فعليًا من سماع الصوت يكون من جراء ضرب الأمراء المتأخرين

---

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٧.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٦.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٢٨.

(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص١١٤٦.

طبولهم كما ذكر العياشي سابقًا، علاوة على أن نفوس الحجيج تكون متهيئة لسماع صوت الطبل، فيبدو لهم أن أي صوت هو صوت ذلك الطبل المزعوم.

ومن ضمن الخرافات التي كانت متداولة قولهم بسماع أصوات في المسجد النبوي ليلًا، فقد ذكر العياشي أنهم يسمعون قعقعة السقوف وفرقعة الشبابيك ليلًا، حتى يُظَنَّ أن أحد الأبواب أو الشبابيك قد فُتح، وعندما يتحققون من الأمر لا يجدون شيئًا.[١]

ولا شك في أن أصوات القعقعة والفرقعة إنما هي صوت الخشب الذي سُقف به المسجد، ومن قُدِّر له العيش في منزل ذي سقف خشب لا بدّ أنه سيلحظ هذه الأصوات، ولكن على عادة أهل ذلك العصر لا بد من وجود تفسير يوافق هواهم وليس التفسير العلمي الحقيقي والمنطقي.

أما الدور التي نُسبت إلى علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم، فلم يذكرها مؤرخو مكة المكرمة والرحالة المغاربة الأوائل، وهو ما يعني عدم ظهور نسبتها إلا بعد القرن التاسع الهجري، فكيف عرف أهل هذين القرنين ما غاب عن أهل القرون السابقة؟!

كما رُويت خرافات حول جبل أبي قبيس، فقد ذكر العياشي أن فيه مغارة قيل له: إن فيها قبر آدم عليه السلام[٢]. وكان الأزرقي قد أورد خبرًا مفاده أنه دفن في بيت المقدس[٣]. وذكر الفاكهي رواية عن ابن عباس أن قبر آدم عليه السلام

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٣٢، تحقيق: أمحزون.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨١.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٧٣.

في مكة المكرمة أو في مسجد الخيف بمنى[١]. وهذه الشائعة ذكرها الرحالة المغاربة الأوائل[٢]. أما الفاسي فأورد خبر دفنه في ذلك الغار مستهلًا بقوله: «على ما يقال»، وساق أربعة آراء عن مكان دفنه، منها في جبل أبي قبيس والثاني في مسجد الخيف والثالث عند مسجد الخيف والرابع في بلاد الهند، وأشار إلى أن الغار المزعوم لا يُعرَف في عهده.[٣]

ومما سبق نجد أن الأوائل لم يتفقوا على موضع دفنه وتضاربت أقوالهم؛ الأمر الذي يؤكد خطأ تلك الشائعة.

وتواتر أهل مكة المكرمة والوافدون عليها على شراء رؤوس الغنم المشوية، صاعدين بها أعلى جبل أبي قبيس لأكلها هناك، زاعمين أن مَنْ يفعل ذلك يأمن من وجع الأسنان والرأس[٤]. ويبدو أن هذه الخرافة كانت منذ زمن القزويني وربما قبله إذ أشار إليها، وأحال العلم إلى الله تعالى في حقيقة صحتها[٥]. وكان الفاسي قد أورد الخبر وتعجب منه.[٦]

ومن البدع التي مارسها جهلة الناس تلك التي ارتبطت بحلقات الشاذروان في الكعبة الشريفة، فقد شاهد اليوسي فيه ثلاثًا وأربعين حلقة، يُدخِل فيها العامة

(١) الفاكهي: أخبار مكة، ج٤، ص٢٦٨.

(٢) العبدري: الرحلة المغربية، ص١٧٣؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٥٠؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٤؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٢.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٤١ - ٤٤٢.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٣٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨١.

(٥) زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص١١٨ - ١١٩، بيروت، دار صادر، د.ت.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٤٦.

أيديهم عند طوافهم معتقدين أن ذلك من الواجبات[١]. وذكر الحضيكي أنهم يسمونها العروة الوثقى، ونبَّه إلى بطلان ذلك.[٢]

إن هذه الحلقات إنما وضعت هناك لتثبيت كسوة الكعبة المشرفة، ولكن ضحالة فكر بعض الحجاج في تلك المدة صوَّرت لهم أمورًا حمّلوها أكثر مما تحتمل في حقيقة أمرها، فالعروة الوثقى هي كلمة لا إله إلا الله.

وشاهد اليوسي والحضيكي حلقة عند باب الكعبة المشرفة، وقد استنكر الحضيكي جذبهم لها وضربها على الباب قائلين: «ندقُّ باب ربنا»، في حين لم يُعلِّق اليوسي على ذلك بالاستنكار، ولكنه قال: «لكل امرئ ما نوى».[٣]

ونلحظ مما سبق أن هذه الأمور المبتدعة لم تجد من يوضح بطلانها، لا من قبل علماء أهل البلد، ولا من الرحالة المغاربة الذين وجد منهم من استنكرها، ولكن لم ينهوا عن فعل ذلك، وإنما اكتِفوا بتسجيل تلك البدعة فقط.

أما عن بدعة العروة الوثقى فإننا إذا عدنا إلى الوراء وجدنا أنها كانت موجودة في القرن السابع الهجري، ولكن في داخل الكعبة المشرفة، إذ أحدث سدنة البيت الحرام كُوَّة[٤] في الجدار الغربي مقابل الباب أطلقوا عليها العروة الوثقى، وأوهموا العامة أنَّ من يلمسها يعد مستمسكًا بها، ولا يلمسها إلا من يدفع مالًا لقاء ذلك، ولا يُعرَف وقت ابتداء أمرها، ولكنها أُبطِلت عام ٧٠١هـ/ ١٣٠١م على يد ابن الحناء[٥] بسبب ما أحدثته من أمور

---

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٩/ ب.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٣.

(٣) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٠/ أ؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمن، ص٦٣.

(٤) «الكوة» بالفتح والضم: النقبة في الحائط. انظر: الفيومي: المصباح المنير، ج٢، ص٦٦.

(٥) هو أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن سليم زين الدين ابن الصاحب محيي الدين ابن =

منكرة.[١]

وأجمع الرحالة المغاربة السابقون[٢] واللاحقون على وجود بدعة تعدُّد الأئمة في المسجد الحرام[٣] التي لا يعرف على وجه التحقيق مبدأ أمرها، إذ كان لكل مذهب من المذاهب السُّنِّية الأربعة إمام مقدم للصلاة بطائفته. فكان الإمام الشافعي يُصلِّي إلى باب الكعبة المشرفة، والإمام الحنفي يصلي إلى الحِجْر، والإمام المالكي يصلي إلى الركن اليماني، والإمام الحنبلي يصلي ما بين الركن اليماني والحجر الأسود.[٤]

ولعل تعددهم بدأ منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، إذ لم يكن لهم ذكر في سنة مقدم ابن عبدربه إلى مكة المكرمة، فهو لم يشر إلى وجودهم[٥]. وأول خبر ورد عن بداية وجودهم ما ذكره صاحب غاية الأماني من أن وجودهم كان زمن المأمون الخليفة العباسي[٦]، وأورد خبرًا آخر يفيد أن أول

= الصاحب بهاء الدين ابن حناء، سمع من سبط السلفي، وحدث عنه وتفقه ودرس، وكان فقيهًا ديِّنًا رئيسًا وافر الحرمة مات عام ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م ودفن في قبر حفره لنفسه بجانب الشيخ أبي محمود بن أبي جمرة. انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٨٣.

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٢٦٤؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٦٤ - ٢٦٥؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص١٧٥ - ١٧٦؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٨٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٧٨ - ٨٠؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٩٥ - ٢٩٧؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣٠٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٩ - ٥٢١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٠ - ٦١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٢ - ٩٣.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٥.

(٥) حسين عبدالله باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٢٤، ط٣، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م تهامة، د.م.

(٦) هو أبو العباس عبدالله بن هارون الرشيد بن المهدي، كان إمامًا عالمًا محدثًا لغويًا أديبًا، مدة خلافته اثنتان وعشرون سنة، وقيل عشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام، مات عام =

من أحدث المقامات حول الكعبة المشرفة الخليفة العباسي المتوكل[1]. وكلّ من الخبرين مشكوك في صحته، ولا سيما أنه بدأه بعبارة «ولعله» وختمه بقوله: «والله أعلم».[2]

وربما ترجع بداية وجودهم مع بداية دولة الأشراف الموسويين[3] وذلك لظهور إمام زَيْدي إلى جانب الإمام السُّنِّي، وتتابع ظهور الأئمة، فُوجد الإمامان الحنفي والمالكي عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، وكان آخر الأئمة ظهورًا في الحرم المكي هو الإمام الحنبلي عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م.[4]

وأشار الغنامي إلى خرافة تسمية أحد أبواب المسجد الحرام بباب البغلة، إذ قيل له: إنه سمي بذلك لأنه في كل عام في ليلة التاسع من ذي الحجة يرون بغلة بيضاء تخرج من المسجد الحرام، يركب عليها رجل محرم ويمرُّ بين الصفا والمروة ولا يدرون إلى أين مضى إلى الآن.[5]

ولا ندري من أين لهم هذا الزعم إذ اقتُصر على ذكرها في رحلة الغنامي،

= ٢١٨هـ/ ٧٣٣م في رجب ودفن بطرسوس إحدى الثغور الشامية. انظر: ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج١، ص١٣١ - ١٣٦.

(١) هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بويع بالخلافة بعد أخيه الواثق يوم الأربعاء خامس عشر ذي الحجة عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م ومات ليلة الأربعاء رابع شوال سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م وعمره أربعون سنة وخلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام. انظر المصدر السابق والجزء، ص١٤٢ - ١٤٥.

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج١، ص١٥٦.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص٩٩.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج١، ص١٥٦؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٢٤٩ - ٢٥٣.

(٥) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥.

إضافة إلى أن الفاسي كان قد قال: «ولم أَدْرِ ما سبب هذه التسمية والشهرة»[١]، وهو على ما هو عليه من العلم واستقصاء الحقائق، علاوة على أنه من سكان البلد الحرام.

أيضًا كثُرت خرافة الاعتقاد في الدراويش والحرص على التبرك بهم وطلب الدعاء منهم، وذكر الغنامي أن هؤلاء الدراويش انفردوا بزيٍّ خاص بهم وعلامة تميزهم عن غيرهم، إذ كانوا يلبسون الجبة المُرقَّعة.[٢]

وأشار الحضيكي والزبادي إلى خرافة مفادها أن الطائر لا يعلو الكعبة المشرفة إلا عندما يكون عليلًا طلبًا للاستشفاء[٣]، وهذه الخرافة قد سجَّلها التجيبي قبل ذلك[٤]، وقد ناقش هذه القضية محمد طاهر الكردي بإفاضة وأكد بطلان هذا الادعاء.[٥]

وذكر الحضيكي أيضًا أن أهل مكة المكرمة زعموا له أن الغيث إذا كان من الناحية اليمانية من الكعبة المشرفة عرفوا أن الخِصْبَ سيكون في اليمن، وكذلك سائر الجهات، وإن عمّ الأركان الأربعة للكعبة المشرفة عم الخصب الدنيا بأسرها.[٦]

إن نزول المطر أو عدمه لا يرتبط بالكعبة المشرفة، وإنما بما تحمله الرياح المُشبَّعة بذرَّات الماء، فتنساق بإذن الله تعالى إلى الأرض التي يريد الله

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٨٢.
(٢) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥.
(٣) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٢٤.
(٤) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٨٩.
(٥) الكردي: التاريخ القويم، ج٢، ص٢٢٠ - ٢٢٤؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٢١٢ - ٢١٣.
(٦) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٩.

تعالى نزوله فيها، ولكنّه حرص أهل مكة المكرمة على إضفاء معرفتهم وربطها بالكعبة المشرفة لينفردوا عن سائر الناس بهذه المزية.

كذلك نبّه الحضيكي إلى بدعة قولِ أذكارٍ بعينها تُذْكر في مواضع مخصوصة، وأكد بطلانها.(١)

ومما ارتبط بموقع مُقدَّس وابتُدع من بنات أفكار أهل تلك المدة ما ذكره بعض الرحالة المغاربة من نسبة القبة التي أقيمت فوق جبل عرفة إلى آدم عليه السلام، ووصفت بأن لها ثلاثة أبواب عالية(٢)، ومنهم من سمّاها قبة داود.(٣)

ولعل هذه النسبة إنما قُصدت لمن جدَّد وعمّر في القبة بدليل أنه في القرون السابقة كانت تعرف بقبة أم سلمة رضي الله عنها، وهي أيضًا وَهَم وتحريف لاسم باني القبة الحقيقي وهو الحسين بن سلامة(٤) في أواخر القرن الرابع الهجري.(٥)

وذكر اليوسي الإشاعة التي أطلقها العامة من وجوب المرور بين العلمين

(١) السابق نفسه، ص٦٣.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٥٣، ١٥٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٨.

(٣) القادري: نسمة الآس، ص٨٢.

(٤) هو الحسين بن سلامة النوبي أبو عبدالله أمير تهامة اليمن. عصامي من الدهاة، كان أسود نوبيًا من موالي بني زياد ولاة اليمن، وبعد تضعضع أمرهم تولى مقاليد الحكم في حدود سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، كان عادلًا حسن السيرة، اختط مدنًا في تهامة، وعمر المساجد وحفر الآبار من حضرموت إلى مكة المكرمة، خلَّف مآثر عدة، أقام في الملك ثلاثين سنة وتوفي في زبيد عام ٤٠٢هـ/ ١٠١١م وقيل ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص١٤؛ الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٢٣٨.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٨٨؛ الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٣٣.

عند الخروج من عرفة، وأنّ مَنْ لم يفعل ذلك فلا حجّ له، وقال نافيًا ذلك: «إن هذا الاعتقاد فاسد، لأن الخروج من بينهما ليس فرضًا ولا سُنَّة ولا يستحب، بل يجعلهما عن يمينه أو شماله».(١)

وأشار الرافعي أن في بدر شجرة قيل له: إنها الشجرة التي بايع تحتها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ، وقد نفى ذلك.(٢)

والمتأمل لمعظم هذه البدع والخرافات والشائعات يجد أن لها أصولًا تاريخية لأحداث مهمة في تاريخ الإسلام وببقع ذات قداسة إسلامية، نسجت حولها تلك الشائعات والخرافات التي منها ما مارسوه على هيئة أفعال بدعية لا أساس لها من الصحة اللهم إلا الاسم الذي حيكت حوله تلك البدعة أو الخرافة، فالشجرة التي بايع الصحابة رضوان الله عليهم تحتها رسول الله ﷺ كانت في الحديبية وليست في بدر، وقد قطعها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ وقت مبكر خوفًا من افتتان الناس بها.(٣)

أما ما وُجد في المدينة المنورة وفي المسجد النبوي فلا يسلم هو أيضًا من نسج بدع حول مواضع فيه، من مثل ما ذكر حول إصرارهم على وجود بقية الجذع الذي حنّ للرسول ﷺ، وقالوا بوجوده في باطن عمود بجانب الجهة القبلية من المسجد، وكأن الناس في تلك المدة ألغت عقولها وأغمضت عيونها، وأهملوا إعمال الفكر والرأي وانساقوا وراء هذه الخرافة البدعية، يتزاحمون على ذلك العمود يُقبِّلونه ويتبرّكون به، ويلمسونه، ويمسحون به خدودهم وجباههم، وقد أشار القيسي أن بقية هذا الجذع مدفونة تحت المنبر، ولكنه أرجع العلم إلى

---

(١) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٠/ ب - ٩١/ أ.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٢.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٤٢.

الله تعالى في نهاية الأمر.(١)

لقد ورد خبر بقية هذا الجذع في الرحلات المغربية السابقة على أن وجوده في داخل ذلك العمود حقيقة مسلّم بها، ومنهم العبدري الذي قال: إنه فُقد بعد وفاة النبي ﷺ، ولم يجده أبو بكر رضي الله عنه ووجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء خلافته عند رجل في قباء قام بدفنه حتى أكلته الأرضة، فأخذه عمر وجعله داخل عمود وردَّه إلى موضعه، فلما زاد عمر بن عبدالعزيز في قبلة المسجد جعله في المحراب، وعلى الرغم من هذه الرواية المشكوك في صحتها قال: إن جَهَلَة الحجاج يحرصون على لمسه والتبرك به من قبيل التقليد.(٢)

ومن العجيب في رواية العبدري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعاد بقية الجذع، إذ المعروف عنه رضي الله عنه التخلص من كل ما من شأنه فتنة الناس في دينهم ودنياهم، فهو الذي أمر بقطع الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان في صلح الحديبية خوفًا من الفتنة فكيف يسعى لشيء يؤدي إليها؟!

إضافة إلى أن ابن النجار أكّد اندثار ذلك الجذع(٣). وقد ناقش السمهودي بعد ذلك أمره مناقشة مستفيضة خلاصتها تأكيده لما ذهب إليه ابن النجار، وأنكر وجوده، ولا سيما أن المسجد النبوي تعرض لحريقين أتيا على كل ما فيه، الأول عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، والثاني عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، ومن ثم يستحيل

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٠؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص٢١٩؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٧٨.

سلامته.[١]

ومما سبق نجد أنه لا علاقة بين ما ادعاه أهل تلك المدة من وجود بقية الجذع الذي حنَّ للرسول ﷺ وبين العمود الذي قيل: إن فيه بقية ذلك الجذع لزواله واندثاره منذ أمد بعيد، وربما يكون وجود ذلك العمود هناك ليكون علمًا على مكان ذلك الجذع الذي ربما يكون قريبًا من ذلك المكان.[٢]

ومن البدع التي شاعت في تلك المدة إنشاد قصائد المدائح النبوية على منائر المسجد النبوي وداخله، وكانت تلقى القبول الحسن من أهل ذلك العصر.[٣]

وهذه البدعة على ما يبدو لم تظهر ولم يَعْلُ شأنها إلا في القرن التاسع الهجري، فقبل ذلك لم نجد لها ذكرًا، وأول إشارة استقيناها من المصادر التاريخية كانت في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، وقام بمنعها الأمير تغري برمش التركماني[٤] بعد أن أخذ تواقيع العلماء آنذاك ببطلانها وموافقتهم على منعها[٥]. والراجح أنها كانت في بداية ظهورها، ولم تنقطع نهائيًا فقد عادت للظهور بمجرد موت ذلك

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٨٠ - ٣٨٢، ج٢، ص٥٨٩ - ٦٣٣.

(٢) نواب: الرحلات المغربية، ص٢١٧ - ٢١٩.

(٣) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٠٠ - ٢٠١، تحقيق أمحزون؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٩١.

(٤) هو تغري برمش بن يوسف التركماني الحنفي يلقب زين الدين ويكنى أبا المحاسن، نزيل القاهرة والحرمين، تلقى من جماعة من العلماء، علا شأنه في دولة الملك المؤيد الذي كتب له مرسومًا يأذن له فيه بإنكار المنكرات والبدع ووجوب مساعدة الحكام له، أزال العديد من البدع والمنكرات أثناء مجاورته في مكة المكرمة، توفي فيها عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م ودفن بالمعلاة. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣٨٨ - ٣٩٢، ترجمة رقم ٨٦٣.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٨٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٢٧ - ٥٢٨.

الأمير.

وكما هو الحال في بدعة تعدد الأئمة في المسجد الحرام فقد وجدت كذلك في المسجد النبوي[١]. ولا يعرف على وجه التحقيق متى بدأت في المدينة المنورة؟! ولكن ربما تكون بعد القرن الثامن الهجري لأنه في هذه المدة اضمحل شأن الزيدية فيها وعلا شأن أهل السُّنَّة[٢]، وعلى العموم فقد انمحت مظاهر تلك البدعة سواء في المسجد الحرام أم في المسجد النبوي منذ بداية العهد السعودي وقبل منتصف القرن الرابع عشر الهجري ببضع سنين.

ومن البدع التي اعتاد عليها سكان المدينة المنورة فتح باب في المسجد النبوي الذي سُمّي بباب التوبة عند نزول الشدائد والمحن بهم لتفريجها[٣]. وكذلك إخراج مصحف ينسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه من الحجرة الشريفة عند نزول المجاعة بهم للاستشفاع به إلى الله عز وجل.[٤]

ولا ريب أن ذلك من البدع المنافية للشريعة الإسلامية، فالاستشفاع إلى الله عز وجل يكون بلا واسطة، إضافة إلى أن إزالة المحن والشدائد عن المجتمع لا تتم إلا بالإقلاع عن الذنوب، وليس بفتح باب أو غلقه، أما هذا المصحف المزعوم والمنسوب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد أنكر السمهودي هذه النسبة وقال: إنه لم يرد له ذكر عند متقدمي المؤرخين، علاوة على إيراده عدة روايات مفادها فقدان مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه.[٥]

ومن ضمن ما تواصى به أهل المدينة المنورة زراعة النخيل في صحن

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٠٥، تحقيق أمحزون.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٠٠؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢، ص٤٠١ - ٤٠٩.

(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٥.

(٤) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحات.

المسجد النبوي، حيث أشار القيسي إلى وجود نخلة هناك كان عدد عراجينها سبعة[١]. وتلاه الرافعي الذي قال: «بالصحن نخلتان محوط عليهما بالخشب»[٢]. وأشار بعده أبو مدين إلى أن عددها أصبح ثلاثًا[٣]. وزيادة عددها يُوضِّح أن زراعة النخيل في صحن المسجد يُعد من القربات، علاوة على إلقاء الضوء على شدة تمسكهم واعتنائهم باستمرار هذه البدعة التي استهجنها السمهودي وعدها من البدع المنكرة[٤]. وزراعة النخيل في صحن المسجد كانت قبل ذلك فابن جبير أشار إلى وجود خمس عشرة نخلة في القرن السادس الهجري، وذلك يدل على قدمها[٥]، وزراعة النخيل في صحن المسجد وفي غيره لا غبار عليها، وإنما البدعة هي الاعتقاد بأن ذلك عبادة يتقرب بها.

وكذلك تواتر الرحالة المغاربة على القول إن قبر السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها في المسجد النبوي على الرغم من أن بعضهم عند ذكرهم لهذا القبر المنسوب إليها يشيرون في الوقت نفسه إلى مكان دفنها في البقيع[٦]. ومنهم من اكتفى بالقول إنها مدفونة في المسجد النبوي.[٧]

ومن البدع تبرك الناس بموضع في وسط مسجد قباء ذُكِرَ أنه مبرك ناقة النبي ﷺ عند قدومه من مكة المكرمة مهاجرًا، وعلى ذلك الموقع قبة من خشب

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠.
(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٥.
(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٥.
(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٦٨٢.
(٥) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٢.
(٦) القيسي: أنس الساري، ص١٩٠؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٢ - ١٠٣، ١١٠.
(٧) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ أ؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٣ - ١٤٤، ٢٠٢.

اعتاد الناس على الصلاة فيه[١]. وقد أتى السمهودي على ذكر مكان مبرك الناقة بالنبي ﷺ هناك، ولكنه لم يقطع فيه برأي.[٢]

ومما ذكره القيسي وجود منابت نخلة بالقرب من مسجد قباء، ذُكر له أنها سجدت للنبي ﷺ[٣]. ولا نعلم كيف تبقى منابت نخلة فيما يقرب من ألف عام؟! علاوة على أنه لم يرد لها ذكر لدى السمهودي.

ومن الأمور المبتدعة التي عدَّها الحضيكي من المحدثات المنهي عنها بعض البدع المتعلقة بالقبر الشريف والتي ذكرها على هيئة نصائح فقال: «لا تلتصق بالقبر، ولا تنحنِ إليه كما يفعله العامة، ولا تقف عنها طويلًا... ويكره أن يكثر المرور والإتيان كل يوم إليه لئلا يجعل القبر بفعله ذلك كالمسجد الذي يؤتى كل يوم للصلاة فيه.. ولا يدار بحجرة النبي وهو من فعال الجهال».[٤]

أما ما قيل حول جبل أحد من أن فيه قبر هارون عليه السلام[٥]، فلا أساس له من الصحة، إذ نفاه السمهودي وأكد عدم صحته[٦]. كما أكدت كتب التاريخ العامة والخاصة بالأنبياء أنه مات ودفن في أرض التيه قبل دخوله الأرض المقدسة[٧]. وربما يكون هذا الغار ينسب إلى رجل أقام فيه يسمى هارون كما

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٠٤.

(٢) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٠٧ – ٨١٠.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٠٥.

(٤) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٠.

(٥) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٣٩ – ١٤٠، تحقيق أمحزون؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٣.

(٦) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٣٠.

(٧) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٢٢٣، روائع التراث العربي، د.م، د.ت؛ ابن الأثير: الكامل، ج١، ص١١٠ – ١١١؛ أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي: البداية والنهاية، ج١، ص٣١٦ – ٣١٨، ط٤، ضبطت وصححت هذه الطبعة =

ذكر العياشي من أن بعض الناس أخبروه بذلك.[١]

كما زعموا أن الغار الموجود في أصل جبل أحد اختبأ فيه النبي ﷺ، وقد أكد العياشي بطلان هذا الخبر[٢]. ونفى السمهودي هذا الزعم أيضًا وقال: إنه لم يرد به نقل يعتمد عليه.[٣]

وسادت خرافة أن عين الأزرق خرجت مع النبي ﷺ من مكة المكرمة عند هجرته، فظهرت في عرفة، ثم في مر الظهران، ثم في خليص، ثم في بدر إلى أن وصلت إلى المدينة المنورة. ونفى العياشي هذا أيضًا.[٤]

وهذا الزعم أو الخرافة مرفوضة شكلًا ومضمونًا، إذ لا يعقل جريان عين من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، علاوة على أن هذه العين لم توجد إلا في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.[٥]

ومن جملة البدع والخرافات التي خُصَّت بها الطائف وبنيت قاعدتها أيضًا على أحداث إسلامية مدعومة بروايات تاريخية تؤيد صدقها وأساسها الذي لا يخلو من شك، سواء في صحة النسبة أم بقاء الأثر الذي نسجت حوله

= على عدة نسخ وذيلت بشروح قامت بها هيئة بإشراف الناشر، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨١م/ ١٤٠١م؛ ابن إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعالبي: قصص الأنبياء المسمى بالعرائس، ص١٣٨١٣٩، بيروت، لبنان، المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، د.ت، د.م؛ عبدالوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص٢٩٨، دار الفكر، ط٢، د.ت، د.م؛ محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء، ص٢٧٢، ط٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، طبع على نفقة السيد حسن عباس الشربتلي، د.ت، د.م.

(١) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٤٠، تحقيق أمحزون.

(٢) المصدر السابق، ص١٤١، ١٦٥.

(٣) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٩٣٠.

(٤) العياشي: ماء الموائد، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٥٣، تحقيق أمحزون.

(٥) انظر ما سبق، ص١٦٥ وما بعدها .

البدع، فمن ذلك ما ذكر أنه يوجد في صحن مسجد ابن عباس مسجد آخر صغير يقال: إنه منزل النبي ﷺ في حصاره للطائف، وفيه محل يقال: إنه محل قبة أم سلمة وعائشة رضي الله عنهما.(١)

إن تعيين منزل النبي ﷺ أثناء حصاره للطائف يلفُّه الشك، خاصة وأنه لم يُبْنَ المسجد إلا بعد إسلام أهلها، فكيف يُعيَّن موقع قبتي زوجتي النبي ﷺ؟! فقد ذكر ابن هشام أن أم سلمة رضي الله عنها رافقت رسول الله ﷺ وأغفل اسم الأخرى(٢). في حين أن العجيمي ذكر أن الأخرى زينب رضي الله عنها.(٣)

وذكر العياشي أن بالقرب من المسجد أثرًا في صخرة كأثر ظلف الغزالة، وأن الناس يتبركون بها، ويزعمون أنها جاءت وسلَّمت على النبي ﷺ في ذلك المكان، ونفى ذلك.(٤)

وزار العياشي مسجدًا على شفير الوادي في أعلى البلد فيه شجرةٌ شكَّ في أصلها أهي سدر أم غيره؟! لها أصلان متقاربان بينهما مثل ممرّ الشاة، قيل: إنها الشجرة التي اعترضت النبي ﷺ أثناء سيره فانشقَّت نصفين حتى يمرّ بلا عنت، وأشار أن خبرها مذكور في كتب الأحاديث، ولكنه لم يَرَ أحدًا أشار إلى

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٤.
(٢) ابن هشام: السيرة، ج٤، ص٤٨٢.
(٣) العجيمي: إهداء اللطائف، ص٦.
(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٥، التبرك بالأشياء من الأمور التي نهى عنها الشرع، كما أن معجزات النبي ﷺ تفوق الحصر، ونحن لسنا مأمورين بالبحث عن أماكنها وإنما أُمرنا بالإيمان بها. ولا يبعد أن تكون هذه من ضمن معجزاته ﷺ، ولكن يبعد أن يكون هناك أثر ويستحيل من ثم بقاؤه.

أنها باقية إلى ذلك العهد أو أنها في هذا الموضع.[١]

والحادثة التي رواها العجيمي تدل على أن الشجرة انقسمت نصفين فكيف يبقى ممر شاة؟ وكان الأولى أن تبقى منفصلة أو تعاود الالتصاق كليًا، ولا يعقل بالطبع بقاء تلك الشجرة ما يزيد على الألف عام، ولا سيما أن العجيمي نفسه أورد رواية أخرى مفادها أن الشجرة يبست ووقعت عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م[٢]. أما الفاسي فقد ذكر أن بعضها باقٍ إلى عهده.[٣]

ومما سبق ذكره نخلص إلى أن معظم تلك البدع استندت على مواضع مقدسة وأحداث تاريخية مؤكدة، غالى في تقديسها والتبرك بها أهل تلك المدة خاصة في المواضع المقدسة الثابتة التي يستحيل عدم ثبوت نسبتها أو صحتها، إضافة إلى تأويل روايات تاريخية توافق هواهم.

كما لم نجد خلال ما قدمناه من معلومات عن البدع والخرافات التي كانت منتشرة خلال تلك المدة الزمنية من قام بالتصدي لها وإنكارها، وكأنها حقائق ثابتة، وأن البحث والتقصي عن أصلها يعد من المحرمات التي لا يجوز المساس بها أو الخوض فيها.

ولحظنا أيضًا أن المجتمع في ذلك الوقت قد انغمس في تلك البدع دون استثناء، والرحالة المغاربة كانوا كذلك، وبعضهم أنكر بقلبه ما كان واضح الاستحداث، واكتفى بعضهم بالموافقة أو ذكر الأمر على علاته.

ويمكننا القول أيضًا: إن المجتمع الحجازي في ذلك العهد انفرد بها عن سائر مناطق العالم الإسلامي، وقد أعانه على هذا التفرد والتميز - سواء كانت

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٥.

(٢) العجيمي: إهداء اللطائف، ص٨٤ - ٨٥.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص١٤٤ - ١٤٥.

تلك الأمور حسنة أم سيئة - أنه كان أرض الإسلام الأولى ومنبع تاريخه، وما حفل به من مواقع إسلامية وآثار نبوية شريفة تفوق الحصر.

إضافة إلى وفود الحجيج من أصقاع الأرض ومجاورة كثير منهم في هذه الأرض، فهذه صور أخرى من صور التفرد الاجتماعي حيث إن لكل جنس معتقداته الخاصة التي حملها معه إلى أرض الحجاز، والتي قد تخرج عن نطاق الشريعة الإسلامية نتيجة اختلاف اللغات والبيئات والمعتقدات، وهذا كان أيضًا من ضمن العوامل التي أثرت بشكل كبير في تفشي تلك البدع والخرافات.

الفصل السادس

الحركة العلمية في الحجاز من خلال كتابات الرحالة المغاربة

- عوامل ازدهار الحركة العلمية في الحجاز
- أماكن التعليم وأهم العلوم
- أشهر العلماء وأهم مؤلفاتهم



الحركة العلمية في الحجاز من خلال كتابات الرّحالة المغاربة

عوامل ازدهار الحركة العلمية في الحجاز

كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين منتديين علميين مهمين، كما في القرون السابقة منذ ظهور الإسلام، التقى فيهما طلبة العلم والعلماء الذين وفدوا إليهما من مختلف أقطار دار الإسلام.

فأدى ذلك إلى إثراء الحركة العلمية، فقد أسهم في ازدهار هذه الحركة وإثرائها وجود الحرمين الشريفين - المسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة - اللذين تشدّ إليهما الرحال. وتدفقت جموع من المسلمين لأداء فريضة الحج ملبية نداء خالقها جل جلاله، فحملت قوافل الحجيج كل عام علماء مارسوا التدريس والفتوى أثناء السير، وقبل الوصول إلى المدينتين المقدستين كانت مهمتهم إلقاء الدروس لبيان المناسك، أو التذكير بغزوة بدر وما فيها من دروس وعبر عند الوصول إلى بدر.[1]

وإلقاء الدروس أثناء سير ركاب الحجيج قديم وليس وليد ذلك الوقت،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٧؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٦ - ١١٧، ١٢٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦.

فقد أشار إلى ذلك ابن رشيد في القرن السابع الهجري.[١]

ومن العلماء من وفد بقصد الإقامة في المدينتين المقدستين مجاورًا. وكانت الدولة العثمانية تساعد على جذب العلماء نظرًا للعطاء الذي كانوا يخصصونه لرجال العلم، والاحترام الذي كان يُقوِّي من مركزهم الاجتماعي.

وأشار الرحالة المغاربة إلى أن المسجد الحرام والمسجد النبوي كانا يمثلان أماكن التدريس المثالية لطلبة العلم[٢]، فالرافعي حدد أماكن التدريس في أروقة المسجد الحرام المظللة بالقباب[٣]، ونادرًا ما كانت دروس العلم تلقى في غيرها.[٤]

ويرجع تصدر المسجد المكي بوصفه قاعدة لإلقاء الدروس منذ تصدر ابن عباس رضي الله عنهما الذي اتخذ له موضعًا يلقي فيه دروسه، وتلاه بعد ذلك تلاميذه[٥]. وكذلك المسجد النبوي بدأ أثره بكونه مركزًا رئيسًا للتعليم بعد بناء الرسول ﷺ له مباشرة[٦]، فكان لوجود المسجدين المكي والمدني أثره

---

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٥ - ٦، ١٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢، ١٥٨، ٤٠٧، ٤٦٥؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٦، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٦.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٢٩، ٥٤٥؛ القادري: نسمة الآس، ص٨٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٥٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦، ٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨ - ١٧٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤٤، ١٨٤.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٦٨ - ٣٦٩؛ الأرزقي: أخبار مكة، ج١، ص٣١٤؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص١٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٦٢؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٤٣٠.

(٦) البخاري: صحيح البخاري، ج١، ص٣٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٧٦؛ د. محمد السيد الوكيل: المسجد النبوي عبر التاريخ، ص١١، دار المجتمع للنشر والتوزيع، =

في ازدهار الحركة العلمية ورواجها، ففيهما جلس العلماء للتدريس، ومنهما حُملت العلوم مرة أخرى إلى جميع الأقطار الإسلامية.

كما أسهمت وفرة الكتب والمكتبات في دفع عجلة الحركة العلمية قُدمًا، فقد زخرت كتب الرحالة المغاربة بالعديد من الإشارات الدالة على وجود مكتبات عامة وخاصة.

فقد رأى الرحالة المغاربة في المكتبات العامة كتبًا لعلماء مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويبدو أن الرحالة المغاربة كانوا على علم بها[(١)]. كما وُجِدت كتب ربما كتبها الرحالة المغاربة السابقون في مكة المكرمة، منها ما هو بخط أصحابها، ومنها ما هو بخط تلاميذهم[(٢)]. إضافة إلى العديد من الكتب في كل علم وفن، سواء كانت هذه الكتب موجودة في مكتبات الوقف التي وضعت في المسجد المكي[(٣)]، أو المدني[(٤)]. وكانت هذه المكتبات ذات نظام دقيق في

= ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م؛ د. محمد بن محمد أبو شهبة: رسالة المساجد في صدر الإسلام، ص٢٢٤، بحوث مؤتمر رسالة المسجد المنعقد من ١٥ - ٢٠ رمضان ١٣٩٥هـ الموافق ٢٠ - ٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م؛ د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج١، ص٥٢٤، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٩٦٤م، د.م.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٩، ٥١٨؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥، ٩١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٧؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٣ - ١٣٤، ١٨٨ - ١٨٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٢٠، ١٧٢؛ محمد المجذوب: رسالة المسجد قديمًا وحديثًا، ص٤٨٥، بحوث مؤتمر رسالة المسجد المنعقد في ١٥ - ٢٠ رمضان ١٣٩٥هـ الموافق ٢٠ - ٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٨؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٣/ ب؛ القادري: نسمة الآس، ص٩١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٣، ٢٠٧، ج٢، ص٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٣ - ١٣٤، ١٤٥.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٣، ٣٩٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٥٣، ١٧٩.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص١٠١؛ العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، =

الإعارة والإرجاع، ولها نُظَّار يقومون عليها، مهمتهم الإشراف على سلامتها، وعلى استعارة كتبها وإرجاعها.[١]

وأشار الرحالة المغاربة إلى المكتبات الخاصة بالعلماء في مكة المكرمة أو المدينة المنورة، في منازلهم أو في أركان المسجدين الشريفين[٢]، ولحظوا أن من هؤلاء مَنْ كان ضنينًا بإعارتها[٣]، ومنهم من كان يسارع إلى إعارتها على الرغم من أنها من الكتب النادرة.[٤]

وشارك العلماء الوافدون بكتبهم الخاصة التي أحضروها معهم إلى المدينتين المقدستين في مدهما بالكتب، وكان الرحالة المغاربة من جملة من حمل الكتب.[٥]

ويدل على ما نعمت به المدينة المنورة من وفرة الكتب العلمية وتنوعها أن الغنامي عندما استفسر عن وجودها أجيب: «ما من عالم صنف كتابًا بالمشرق، أو السند، أو الهند، أو العراق، أو غيرها من الأقاليم، إلا يصرف نسخة للمدينة المنورة تبركًا ورجاء الإقبال على كتابه، اطلب ما شئت تجده موجودًا في كل

= ج٢، ص٥٣؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٥؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص١٩٧، تحقيق أمحزون؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٥٣، ٨٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٥، ٥٤٥ - ٥٤٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٨؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٩٤.

(٤) النهروالي: البرق اليماني، ص٢٩؛ العياشي: ماء الموائد، ص٢٠١، ٣٤٠، ٣٩٦، ٥٠٣ - ٥٠٤، ٥١٧؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٨، ١٩٠؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٣٠٢.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٥٥١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥ - ١٧٦.

فن من العلوم»[١]. وقد سبقه إلى تأكيد هذا القول ابن جابر الوادي آشي، ومن بعده الدرعي[٢]، كما كان هناك مكتبات خاصة في الرباطات المنتشرة في المدينة المنورة ومكة المكرمة.[٣]

ومما يؤكد عِظَم ما كان في المسجد الحرام من مكتبات حوت نوادر الكتب وأثمنها ما ذكره العياشي من تلف مكتبة بجميع محتوياتها في السيل الذي داهم المسجد الحرام عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م. وقد تأسف عليها وقال: «إن هذه الكتب من النوادر التي قلَّما توجد في غيرها من الأماكن».[٤]

وصنّف العديد من علماء المدينتين المقدستين كثيرًا من المصنفات في مختلف العلوم فساعد ذلك على توافر الكتب فيهما[٥]. إضافة إلى احتراف بعضهم مهنة النسخ[٦] والتجليد[٧]، وكذلك ما أوقفه بعض الأثرياء من كتب على طلبة العلم[٨]، وإعارة من يملكها للراغبين في الاطلاع والمعرفة[٩]، كما خُصِّصت أوقاف يذهب ريعها لدفع رواتب بعض المعلمين القائمين على

---

(١) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧.

(٢) شمس الدين محمد بن جابر الوادي آشي التونسي: برنامج ابن جابر الوادي آشي، ص١٠٠ - ١٠١، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، تونس، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٣ - ٤٤.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٦، ٥١٠، ٥١٧؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٦٣.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٦.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢١، ٣٣٥، ٣٤٦، ٣٩٨، ٤٠٤؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٨٧، ٢٠٢، ٢٠٩.

(٦) الأنصاري: تحفة المحبين، ص١٠٨، ١٧٠.

(٧) المصدر السابق، ص٧٨، ٤٠١.

(٨) المصدر السابق، ص١٤٧، ٢٧٩.

(٩) المصدر السابق، ص٤٦٠.

التدريس.[١]

وكانت الدولة العثمانية تخصص رواتب مجزية للعلماء المقيمين في الحرمين الشريفين، سواء مَنْ كان متوليًا لمنصب ديني، أم كان قائمًا على التدريس[٢]، الأمر الذي ساعد كثيرًا على تفرغهم للعلم والتدريس وعدم شغل أنفسهم بالسعي في طلب الرزق، كما تحملت بعض الدول الإسلامية الأخرى أو بعض أفرادها الأثرياء جانبًا من هذه الأموال التي كانوا ينتدبون مَنْ يحملها إلى العلماء صلة منهم[٣]. فكل ذلك جعل المدينتين الشريفتين مستودعًا للكتب العلمية التي كانت تُهدى أو تشترى أو تعار لطلبة العلم.[٤]

ومما ساعد على تقدم الحركة العلمية في الحجاز تعدد المذاهب الإسلامية، وخاصة السُّنِّية الأربعة، فقد أشار الرحالة المغاربة إلى تعددها وذلك من خلال إشاراتهم إلى تعدد الأئمة في المسجدين المكي[٥] والمدني[٦]، أو من خلال الترجمة لمن التقوهم من علماء ذلك الوقت.

(١) المصدر السابق، ص٤٧٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٤٦؛ محمد بن علي الدكالي: الإتحاف الوجيز «تاريخ العدوتين»، ص١١١، تحقيق مصطفى بوشعرك، سلا - المغرب، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية سلا - المغرب، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج٢، ص٣٠٩ - ٣٢١.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٧؛ الناصري: الاستقصا، ج٧، ص١٠٢؛ حسن عبدالحي قزاز: أهل الحجاز بعبقهم التاريخي، ص١٧٩، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٦؛ ابن عبدالسلام الدرعي: ملخص رحلتي ابن عبدالسلام، ص١٤٤.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٦.

(٦) المصدر السابق، ص٢٠٥.

ومع أن الدولة العثمانية المهيمنة على الحجاز في ذلك الوقت تبنت المذهب الحنفي، ومن ثم حظي بعنايتها، إلا أن ذلك التبني لم يؤثر كثيرًا في غيره من المذاهب الأخرى. فقد ذكر الرافعي أنه استفتى عالمًا في منى عن كيفية رمي الجمار فأفتاه على المذهب المالكي[١]، كما كان علماء الحرمين الشريفين يقومون بالرد على استفسارات وأسئلة تردهم من علماء المذاهب الأخرى من خارج الحجاز.[٢]

وتجدر الإشارة إلى أن السلطان سليمان القانوني قد أنشأ أربع مدارس في مكة المكرمة، كل مدرسة منها اختصت بتدريس أحد المذاهب السنية الأربعة.[٣]

وأما فيما يتعلق بالمدارس فعلى الرغم من كثرتها في المدينتين المقدستين إلا أنها لم تحظَ كثيرًا بانتباه الرحالة المغاربة، ولم نجد في رحلاتهم إلا إشارة العياشي للمدرسة الداودية في مكة المكرمة[٤]. ولم نجد أية إشارة إلى مدارس

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٣.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٤.

(٣) القطبي: أعلام العلماء، ص١٠٩ – ١١٤؛ د. عبدالرحمن صالح عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص٧٥ – ٧٨، دار الشريف، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، د.م.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٨. وَجَدَ العياشي العديد من المدارس في مكة المكرمة في ذلك الوقت، فقد أحصى منها على سبيل المثال مدارس السلطان سليمان الأربع التي تقع في جنوب المسجد الحرام، والمدرسة المرادية التي تنسب إلى السلطان مراد الثالث وتقع بجانب عقد الصفا، ومدرسة الوزير محمد باشا وتقع في سويقة، ومدرسة السلطان محمود وتقع في سوق الليل، والمدرسة الداودية وتقع بالقرب من باب العمرة، والمدرسة المنسوبة لأغا بهرام بخط المسعى. وقد أرجع قزاز قلة شأن المدارس إلى الإدارة السيئة وعدم استغلال الأموال التي ترسل للقائمين عليها في الوجهة المخصصة لها، علاوة على عدم صيانتها، فسرعان ما يتسرب إليها الخراب، فعجزت عن أداء مهمتها، فعُدَّت أماكن مهجورة واقتصر دورها على سكن القائمين عليها وتأجيرها للحجاج الأثرياء ولأهل مكة =

المدينة المنورة.[١]

= المكرمة الذين كانوا يُفضِّلون السكن فيها لقربها الشديد من المسجد الحرام، وربما سكن في بعض غرفها مدرسون وطلبة، كما اقتصر أثرها على تنظيم بعض المحاضرات بهدف تخليد ذكرى المؤسسين. ولا يفوتنا هنا التنويه بأن مكة المكرمة عرفت نظام المدارس منذ القرن الخامس الهجري. انظر: القطبي: أعلام العلماء، ص١١٣ - ١١٥؛ الطبري: الأرج المسكي، ص٨٠ - ٨١؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٢٨٢ - ٢٨٤؛ فريد بك: تاريخ الدولة العلية، ص١١٣ - ١١٧، ١٤٧ - ١٥١؛ حسن قزاز: أهل الحجاز، ص١٧٨ - ١٧٩؛ المالكي: بلاد الحجاز، ص١٩٠ - ١٩٧؛ باقاسي: بلاد الحجاز، ص١٠٤ - ١٠٧؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٢٦٠ - ٢٦٣؛ طرفة عبدالعزيز العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، ص٦٦ - ٧٥، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، د.م.

(١) أقدم نص حصلنا عليه من كتب الرحلات إشارة الوادي آشي في القرن السابع الهجري إلى المدرسة الشهابية التي أغفل تحديد موقعها، وهذه المدرسة أشار إليها السخاوي وذكر أنها موقوفة على تدريس المذاهب الأربعة، كما ذكر أنها تحتوي على عدد كبير من الكتب، كما أشار إلى المدرسة نفسها الأنصاري في القرن الثاني عشر الهجري، وحدد موقعها في دار أبي أيوب الأنصاري، وذكر أنها معطلة في وقته، أما ما وجد من بعض المدارس في المدينة المنورة فقد أحصى منها الأنصاري مدارس محمد باشا الشهيد، والمدرسة الجديدة التي عمرت عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م بخط باب السلام، ومدرسة حسن باشا، والمدرسة الرستمية، والمدرسة الصاقزلية وتنسب لأحمد إبراهيم الصاقزلي وأنشئت قبل وفاته عام ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م بخط الصاغة، ومدرسة فيض الله شيخ الإسلام، ومدرسة قرة باشا كانت موجودة عام ١١٠٨هـ/ ١٦٩٦م، ومدرسة محمد آغا كانت موجودة عام ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م. والمدرسة السنجارية بنيت قبل عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م، والمدرسة البشيرية، وكانت ملاصقة للمسجد النبوي من الجهة الجنوبية الغربية شرقي باب السلام. انظر: الوادي آشي: البرنامج، ص٤٩، تحقيق الهيلة؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٧؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦٤؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص١٥٨ - ١٥٩، ٢٤٧، ٣٣٩، ٤٥٦، ٤٦٥، ٣١٧، ٤٣٨، ٣٢٨، ١٠١، ٧١، ٣٠١، ٣٠٣؛ مؤلف مجهول: تراجم أعيان المدينة المنورة، ص٩٥، حققه وعلق عليه د. محمد التونجي، دار الشروق، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م؛ =

أما أماكن تعليم الصغار وهي ما يعرف بالكتاتيب فقد وردت إشارات قليلة في كتب الرحلات تشير إلى تركزها في مؤخرة المسجدين المكي والمدني، إذ ذكر بعض الرحالة المغاربة أن بعض الشيوخ كانوا يقومون بمهمة تعليم الصبيان وتأديبهم هناك.(١)

= الأنصاري: آثار المدينة، ص٤٩.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٦٢، ٥٠٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٦. الكتاتيب مؤسسات تعليمية ظهرت منذ بداية الاسلام وتحديدًا بعد غزوة بدر مباشرة في السنة ٢هـ/ ٦٢٣م، حيث اشترط الرسول ﷺ على أسرى قريش الذين لا مال لهم أن يقوم كل شخص منهم بتعليم عشرة من أبناء المسلمين لقاء فك أسره. الأمر الذي يدل على أهمية تعليم الصبيان في وقت مبكر من سني حياتهم، وحث الرسول ﷺ على دفع المسلمين أبناءهم للتعليم، وهذه قاعدة ليست وقفًا على ذلك العصر إذ استمر تعليم الصبيان طوال القرون التالية.

وكان التعليم بالكتاتيب على ثلاثة أنواع، نوع عُني بتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ونوع اختص بتعليم القرآن الكريم تلاوة وحفظًا وتجويدًا، ونوع اقتصر على تعليم الخط وهو آخر الأنواع ظهورًا. وقد تم من قبل الدولة العثمانية إحصاء عدد الكتاتيب الموجودة في مكة المكرمة في بداية القرن ١٣هـ فكانت (٣٣) كُتَّابًا، وهو عدد كبير إذا ما قورن بعدد السكان في ذلك الوقت، كما تم إحصاء عدد الكتاتيب في المدينة المنورة للمدة نفسها فكان (١٣) كُتَّابًا، وكُتَّاب واحد اختص بتعليم الخط، وقد درج معلمو الصبيان على الجلوس في مؤخرة المسجد النبوي لتعليمهم القرآن الكريم، ومنها ما وجد في أماكن أخرى متفرقة كالرباطات مثلًا، وتسمى هذه الكتاتيب المكاتب ويسمى القائم بالتعليم الفقيه.

ويظهر أن العناية بالكتاتيب وتعليم الصبيان كان محط عناية سلاطين آل عثمان، إذ أشار القطبي إلى أن السلطان مراد عَمَرَ مكتبًا عمارةً متقنة خصيصًا لتعليم الأطفال القرآن الكريم، وعين لهم المعلمين والعرفاء برواتب سنوية، ومما سبق نجد أن التعليم في المدينتين المقدستين قد شمل الهرم السكاني من قاعدته إلى قمته صغارًا وكبارًا.

وكانت الكتاتيب في جدة في القرن ١٣هـ في المساجد وبعض دور الخاصة لتعليم الصغار مبادئ القراءة والكتابة والحساب وتلاوة القرآن الكريم وتجويده وحفظه أو بعضه، وقد ورد تقريران من قبل الدولة العثمانية عن عدد الكتاتيب في جدة نهاية القرن ١٢هـ فكان =

ومن ضمن العوامل المساندة لرواج الحركة العلمية توافر الأربطة[١] والزوايا[٢]، ونجد أن الرحالة المغاربة أهملوا ذكرهما إلا في القليل النادر، مثل إشارة العياشي لرباط الموفق وقايتباي والجيلاني في مكة المكرمة[٣]، وإشارته في المدينة المنورة إلى رباط عثمان وقايتباي[٤]. كما لم يرد ذكر للزوايا فيما عدا إشارة العياشي لزاوية شيخه إبراهيم الكوراني التي كانت غاصة بالكتب في المدينة المنورة[٥]. أما في مكة المكرمة فلم ترد الإشارة إلا للخلاوي في المسجد الحرام التي كانت مشرعة عليه، وفيها يختلي العلماء للعبادة والتدريس.[٦]

وعدم إشارة الرحالة المغاربة إلى الأربطة والزوايا لا يعني قلتها أو

= عددها في التقرير الأول (٩) وفي الثاني (١٠). انظر: القطبي: أعلام العلماء، ص١٤٩؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص١٠٢، ٢٣٣ - ٢٣٤، ٢٦٦، ٣٣١، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٩٣، ٤٩٣، ٤٣٥، ٥٤٠، ٤٠٧؛ عبدالحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، ج١، ص٤٨ - ٤٩، بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، د.ت؛ د. عبدالرحمن عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص٥٠ - ٥٢؛ د. عبداللطيف بن دهيش: الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما، ص١٢، ١٦ - ١٨، ٣٧ - ٤٠، ٤٢، مكتبة النهضة الحديثة، ط١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، د.م؛ الأنصاري: موسوعة تاريخ جُدة، ج١، ص١٨٥.

(١) «الرباط» أصل الكلمة المواظبة على الطهارة والصلاة والجهاد في سبيل الله، فيكون الرباط مصدر رابطت أي لازمت. وقيل هو اسم لما يُربَطُ به أي يشد، يعني أن هذه الخِلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفه عن المحارم، وتأتي بمعنى حبس النفس وشدها. والرباط المواظبة على الأمر، والرباط: الفؤاد كأن الجسم ربط به. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) «زاويا» مفردها زاوية، وزوى أي نحَّى وتنحى؛ أي ابتعد، والزاوية تعني المسجد الصغير غير الجامع الذي لا تقام فيه الجمعة. انظر المصدر السابق، ج١٤، ص٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٠، ٥٤٥؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٨.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٦، ٥٤٥؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٨.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢٨.

(٦) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٤.

ندرتها، فقد وجد في المدينتين المقدستين خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين كثير منها، فقد أحصى المؤرخون أسماءها وأماكن وجودها في ذلك الوقت وقبله بكثير.

أماكن التعليم وأهم العلوم

أشارت كتب الرحالة المغاربة إلى أن أماكن التعليم في مكة المكرمة كانت في أروقة المسجد الحرام على وجه العموم، ولم يشيروا إلا إشارات نادرة إلى الأماكن الأخرى كإشارة العياشي الوحيدة إلى تلقي العلم في المدرسة الداودية[١]. وبعض إشارات أخرى منه ومن غيره ذكرت منازل العلماء أو خلاويهم المشرعة على المسجد الحرام.[٢]

وانتهز الرحالة المغاربة فرصة أيام الحج للأخذ في مسجد عرفة[٣]، أو مسجد الخيف[٤] بسبب اجتماع العلماء هناك. أما فيما عدا ذلك فكانت معظم حلقات العلم تُعقد في المسجد الحرام.

كما انصبت إشارات الرحالة المغاربة إلى أماكن التدريس في المدينة المنورة على موقع رئيس هو المسجد النبوي، وخاصة الروضة الشريفة[٥]،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٥، ١٥٨، ٣٩٢، ٤١١ - ٤١٢، ٤٧٨، ٥٠٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٨، ١٩٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٩٦ - ٩٧، ١٩٠، ١٩٤.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٦١، ٥٤٢.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٢ - ١٦٣؛ القادري: نسمة الآس، ص٨٨؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٦ - ٩٧.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣١، ٣١٧، ٤٢٩؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦، ٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨، ١٧٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤٤.

إذ اتخذ فيها بعض العلماء مواضع بعينها يكثرون الجلوس فيها[١]، كما كانوا يتلقون أحيانًا في منازل العلماء.[٢]

وأشار العياشي إلى تلقيه في رباط قايتباي عندما كان نازلًا فيه[٣]، وفي مسجد قباء أيضًا[٤]. وهنا إشارة مهمة إلى أن أماكن التدريس امتدت لتشمل بعض المساجد التاريخية التي منها مسجد قباء، وأن حلقات العلم كانت تعقد فيه، وخاصة عند محرابه، وقد أكد الأنصاري هذا الأمر في إشارته هو أيضًا[٥]. وذلك يعني أن مسجد قباء كان خلال ذلك الوقت من المواضع التي تعقد فيها حلقات الدرس.

أما في الطائف فكان جُلُّ التدريس في مسجد ابن عباس كما ذكر العياشي[٦]، وفي بعض منازل العلماء.[٧]

وعندما زار العياشي جُدة أشار إلى اجتماعه ببعض علمائها في منازلهم[٨]، ولم يذكر أنه تلقى شيئًا من العلم في أحد مساجدها.

أهم العلوم:

إن ما يطلق عليه العلم في الحجاز في ذلك الوقت إنما هو علوم الدين ومسائل الفقه الإسلامي على وجه الخصوص، فقد حظيت جميع العلوم الدينية

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٠٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٨٤.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٥، ٣٥٤؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٣ - ٤٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤١.
(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٤.
(٤) المصدر السابق والصفحة.
(٥) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٤٦٠.
(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤١١.
(٧) المصدر السابق، ص٤١٣.
(٨) المصدر السابق، ص٤٠٢.

بأهمية كبيرة في التعليم في ذلك الوقت، ورافقها بعض العلوم الأخرى مثل الحساب[١] وهندسة البناء[٢] وهندسة الآلات[٣]، والموسيقى[٤] وعلم الجفر[٥]، والفلاحة والزراعة[٦]، والطب[٧]، وعلم الفلك والنجوم[٨]، وعلم الكيمياء[٩]، والمنطق[١٠]، وعلم الدوائر والأسماء وأسرار الحروف وفن الدعوات وخواص الأذكار. وإن كانت إشارات الرحالة المغاربة ضنينة فيما يتعلق بهذه العلوم التي لم تكن مجالهم، فاستُكمل ما أغفله الرحالة المغاربة من بعض الكتب التاريخية الأخرى، لنستطيع أن نخرج بصورة شبه واضحة عن حالة التعليم والعلوم التي كان عليها مدار التعليم في ذلك الوقت.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٤، ٣٤٠؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٢٩١.
(٢) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٣٣٩.
(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٥ - ٣٥٦.
(٤) الأنصاري: تحفة المحبين، ص١٩٣، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٧٤، ٣١٧، ٣٢٣.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٤. و«الجفر» عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على كل ما كان وما يكون كليًا وجزئيًا. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٥٩١.
(٦) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٤٢.
(٧) المصدر السابق، ص٧٨، ١٢٣ ١٢٤، ٣٦٣.
(٨) المصدر السابق، ص٣٠٢ - ٣٠٤، ٤٦٢، ٤٧٨.
(٩) المصدر السابق، ص٤٢٢، ٤٦٨.
(١٠) «المنطق» يسمى علم الميزان أيضًا، وهو علم يتعرف من خلاله على كيفية اكتساب المجهولات التصورية والتصديقية من معلوماتها، وموضوعه المعقولات الثانية من حيث الإيصال إلى المجهول أو النفع به، والغرض منه ومنفعته ظاهرتان من الكتب المبسوطة في المنطق. وهو من العلوم الفلسفية. وقد تصدى الإمام ابن تيمية وفند بدع علماء المنطق والمتصوفة والفلاسفة ورد كيدهم ومزاعمهم معتمدًا على ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٨٦٢ - ١٨٦٣؛ أحمد عبدالغفور عطار: الديانات والعقائد في مختلف العصور، ج٤، ص٤٣٩ - ٤٤٤، مكتبة مكة المكرمة، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، د.م.

فعلم القراءات حظي بالاهتمام من طلبة العلم، خاصة أنه قد استقر في الحجاز في ذلك الوقت بعض علماء القراءات البارزين، مثل أبي الحسن علي بن محمد اليمني[١]، وعبدالعزيز بن حسن التواتي[٢]، ومن الكتب التي وجدت المقدمة الجزرية.[٣]

أما علم الحديث فلا تكاد تخلو رحلة مغربية من الإشارة إلى علمائه الذين التقاهم الرحالة المغاربة، وحرصوا على السماع منهم، وأخذ الإجازات فيما سمعوه بأسانيده، وذلك يدل على علو مكانة هذا العلم وتعلق طلبته به، ومما يدل على احتلال علم الحديث مكان الصدارة بين العلوم في ذلك الوقت كثرة الكتب التي أخذ فيها الرحالة المغاربة الإجازات، أو تلك التي أشاروا إلى اطلاعهم عليها، إضافة إلى وجود علماء أعلام قاموا بتدريسه، إذ كانت النظرة إلى عالم الحديث نظرة إجلال واحترام[٤]، ومن أشهر هؤلاء العلماء إبراهيم بن حسن الكوراني وعيسى بن محمد الثعالبي[٥]. ومن كتب الحديث التي اعتنى الرحالة المغاربة بالاطلاع عليها وتعلمها وأخذ الإجازات فيها:

- صحيح البخاري وشرحه.
- صحيح مسلم.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٢؛ انظر ترجمته ص٥٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص٤١١؛ انظر ترجمته ص٥٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص٣١٧؛ المقدمة الجزرية في علم التجويد منظومة الشيخ محمد بن محمد الجزري الشافعي المتوفى عام ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٧٩٩.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص٣٥٥؛ ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، ط٤ - بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، د.ن.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢٠، ٤١٧؛ انظر ترجمتهما، ص٥٢١ و ٥٢٧.

- سنن أبي داود.
- جامع الترمذي.
- سنن ابن ماجه.
- سنن النسائي المسمى بالمجتبى.(١)
- معجم الطبراني الصغير.(٢)
- مسند الإمام أحمد.(٣)
- موطأ مالك.(٤)
- كتاب أربعين حديثًا عن أربعين شيخًا للفاسي.(٥)
- الخلفيات، وهي فوائد منتقاة من الصِّحاح والغرائب تخريج أبي نصر

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٤١، ٤٤٣، ٤٦٥، ٥٠٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٥٣، ٨٨، ١٩٠، ١٩٨، ٢٠٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨، ١٧٦، ١٩٠؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٨٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٢٩، ٤٥٢؛ والطبراني هو الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى عام ٣٦٠هـ/ ١٩٧٠م ويتألف معجمه هذا من معجم كبير ووسط وصغير، رتب في الكبير الصحابة على الحروف مشتملًا على نحو خمسة وعشرين ألف حديث، ورتب في الأوسط والصغير شيوخه على الحروف أيضًا. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٧٣٧.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٠؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل المتوفى عام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م، ويشتمل على ثلاثين ألف حديث في أربعة وعشرين مجلدًا. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٦٨٠.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٨؛ الإمام مالك بن أنس المدني المتوفى عام ١٧٩هـ/ ١٧٩٥م. وكتابه هذا قديم قصد فيه إلى جمع الصحيح لكن إنما جمع الصحيح عنده لا على مصطلح أهل الحديث لأنه يرى المراسيل والبلاغات صحيحة، كذا في النكت الوفية. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٩٠٧.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٩؛ العياشي: ماء الموائد، ص٤٢٩.

الشيرازي.[١]

- الأحاديث الدالة على الخِصال المُكفِّرة للذنوب.[٢]
- الحديث المسلسل بالأولية.[٣]
- حديث إنما الأعمال بالنيات.[٤]
- الحديث المسلسل بالإشراف.[٥]
- الأحاديث المرتبة على حروف الهجاء وأولها رأس التقوى.[٦]
- كتاب الأربعين المتقابلة في الحديث.[٧]
- كتاب الأربعين في الطوالات.[٨]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٢٩؛ الخلفيات من أجزاء الحديث تخريج القاضي أبي الحسين علي بن حسن بن حسين الخلفي الموصلي المتوفى عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م جمعها أحمد بن حسين الشيرازي في عشرين جزءًا. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٧٢٢.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٦١. الخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، وهو مختصر رُتِّب على أربعة أبواب مشتملة على الأحاديث والآثار الواردة فيه. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٧٠٥.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٥. لأبي الفتح الميدومي محمد بن محمد المصري المتوفى عام ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٦٧٧.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٥٣؛ إسماعيل البغدادي: هداية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج٥، ص٣٥، بيروت، لبنان، إستانبول، دار العلوم الحديثة، سنة ١٩٨١م.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٠.

(٦) المصدر السابق، ص١٩٤.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص٣٤٦.

(٨) العياشي: ماء الموائد، ص٣٤٦. الأحاديث الطوال لابن عساكر الحافظ وهو أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي الشافعي المتوفى عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م وينبئ عن فضائل صحابته، وهو بين الصحة والسقم، وهو في مجلد وسط. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، =

- حديث الرحمة المسلسل بالأولية.(١)

- كتاب الأربعين النووية.(٢)

- مصابيح البغوي.(٣)

- الدر النثير في اختصار نهاية ابن الأثير.(٤)

- المشارق للقاضي عياض.(٥)

= ص٥٧.

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٣.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٤٥، وهو للإمام محدث الشام محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشافعي المتوفى عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م جمع فيه (٤٢) حديثًا مشتملة على قواعد الدين، والتزم أن تكون صحيحة ومعظمها من صحيح البخاري ومسلم محذوفة الأسانيد ثم أتبعها بباب في ضبط ما خفي من الألفاظ. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٥٩.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٤٥، ٨٧. مصابيح السنة للإمام حسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفى عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م. قيل إن عدد أحاديثها (٤٧١٩) منها الصحيح من البخاري ومسلم ومنها المتفق عليه، وترك في نقلها الأسانيد. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٦٩٨.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٢٢؛ النهاية في غريب الحديث وهي مجلدات للشيخ الإمام أبي السعادات مبارك ابن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى عام ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م أخذه من الغريبين للهروي وغريب الحديث لأبي موسى الأصبهاني ورتبه على حروف المعجم واختصره جلال الدين السيوطي وسماه الدر النثير. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٩٨٩.

(٥) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٢٢؛ مشارق الأنوار على صحاح الآثار في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة الموطأ والبخاري ومسلم للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي المتوفى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م وهو كتاب مفيد جدًا. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٦٨٧.

- نخبة ابن حجر في عشرين كراسة.[١]

واستهوى علم الفقه علماء ذلك الوقت، وحرصوا على إتقانه وإجادته، ولا سيما أن ذلك العصر حفل بالمستجدات التي لم يعرفها أهل القرون الأولى، مثل ظهور القهوة وانتشار شربها[٢]، وشيوع الدخان[٣]، وهي أمور لا بد لهم من إفتاء المسلمين في حِلِّها أو حرمتها، كما ظهرت مسائل فقهية وجب التصدر للرد عليها مثل ما حدث وقت مجاورة العياشي من صلاة الإمام في الحِجْر، فشارك العياشي العلماء في إِيراد الأدلة الفقهية في ذلك.[٤]

وقد احتوت بعض كتب الرحالة المغاربة على أسماء بعض الكتب الفقهية المشهورة التي منها:

- المدونة الكبرى التي وصفها العياشي بأم الدواوين الفقهية.[٥]
- طبقات السبكي.[٦]
- مناسك ابن جماعة.[٧]

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٩٢؛ نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، متن في علوم الحديث للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م وعليه شروحات. انظر حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٩٣٦ - ١٩٣٧.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٢١ - ١٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص٥١٩ - ٥٢١.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٦. المدونة في فروع المالكية لأبي عبدالله بن عبدالرحمن بن القاسم المالكي المتوفى عام ١٩١هـ/ ٨٠٦م من أَجَلِّ الكتب في مذهب مالك، عليها شروحات وتنبيهات. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٦٤٤.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٥٨، طبقات الشافعية للقاضي تاج الدين بن عبدالوهاب ابن السبكي. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٠٩٩.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص٤٦٥. مناسك ابن جماعة عز الدين عبدالعزيز بن بدر الدين محمد =

- رسالة أبي محمد بن أبي زيد.(١)
- مناسك الشيخ خليل المكي.(٢)
- كتاب مناسك الحج للحطاب ومختصره.(٣)
- عيون الأدلة لابن القصار.(٤)
- شرح المناولي في أصول الفقه لابن الملا في أصول الحنفية.(٥)

= الحموي الدمشقي الشافعي المتوفى عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م وهو على المذاهب الأربعة وسماه هداية السالك. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٨٢٩.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٧١، رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي للشيخ الإمام أبي محمد عبدالله بن أبي زيد المالكي القيرواني المتوفى عام ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٨٤١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣١. أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عمر المالقي ثم المكي المشهور بخليل. أعلم أهل زمانه بالمناسك توفي عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م. انظر: ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٠، ١٥٠؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٣؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٣٢٤، ٣٢٧ - ٣٢٨؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢، ص٢٢؛ أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج١، ص١٦٧ - ١٧٨، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٩م؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٤، ص١٢١.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٩، ٤٦٥؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١١٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٨، ٢٠٧؛ يحيى بن محمد بن عبدالرحمن الحطاب المكي كان فقيهًا وعالمًا، له تآليف في الفقه المالكي والمناسك والحساب والعروض توفي عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م. انظر: التنبكتي: نيل الابتهاج، ج٢، ص٦٣٩؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج١٣، ص١٢٦.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٦، أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي، له تآليف منها عيون الأدلة وإيضاح الملة في الخلافيات لابن القصار المتوفى ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م. انظر: البغدادي: هداية العارفين، ج٤، ص١٣٣؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٧، ص١٢.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٤٤٥.

- اختصار المحلى.[١]
- كتاب الجواهر لابن شاش.[٢]
- القرطبية في فقه مالك.[٣]
- الألفية.
- مختصر العصامي في الاستعارة.[٤]

ووردت إشارات في كتب الرحالة المغاربة إلى الاشتغال بعلم التفسير المرتبط بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وقد نشط هذا العلم في الحجاز في ذلك الوقت، كما أشار الرحالة المغاربة إلى بعض كتب التفاسير في مؤلفاتهم ومنها:

- تفسير البيضاوي.[٥]

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤١.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٩. عبدالله بن نجم الدين محمد بن شاش المتوفى عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م ومن تصانيفه الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة. انظر: كحالة: معجم المؤلفين، ج٦، ص١٥٨.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٠٨.

(٤) المصدر السابق والصفحة.

(٥) المصدر السابق، ص٣٥٩ - ٣٦٠، ٥٤٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير للقاضي الإمام ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي الشافعي المتوفى في تبريز عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م وقيل ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م. لخص فيه الكشاف وما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات، وضم إليه ما ورى في زناد فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص١٨٦ - ١٨٧.

- تفسير فاتحة الكتاب لعدد من العلماء.[١]
- الجمع والتفصيل في أسرار المعاني والتنزيل.[٢]

وأما علم التاريخ فقد زخرت كتب الرحالة المغاربة بالإشارات إلى الكتب التاريخية، منها ما هو خاص بالسير أو المتعلق بتاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن أشهر الكتب التي كانت متداولة واطلع عليها الرحالة المغاربة:

- الشمائل للترمذي.[٣]
- الشفا للقاضي عياض وشرحه.[٤]
- السيرة الشامية.
- السيرة الحلبية.

---

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٠؛ وانظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٤٥٤ - ٤٥٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٤٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٠١، ٤٢٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٤٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨. شمائل النبي ﷺ الشمائل النبوية والمصطفوية لأبي عيسى محمد بن سورة الإمام الترمذي المتوفى عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٠٥٩ - ١٠٦٠.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٤٣، ٤٥٢، ٤٥٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨. الشفا بتعريف حقوق المصطفى للإمام الحافظ أبي الفضل عياض بن موسى القاضي اليحصبي المتوفى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م. رتبه على أربعة أقسام؛ الأول في ثنائه تعالى والثاني في تكميله تعالى له بالمحاسن خَلْقًا وخُلُقًا والثالث فيما ورد في صحيح الأخبار لعظم قدره عند ربه والرابع فيما أظهره تعالى على يديه من المعجزات والقسم الثالث فيما يستحيل في حقه وما يجوز وما يمنع ويصح والقسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٠٥٢ - ١٠٥٣.

- خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع.(١)
- المواهب اللدنية وحاشية القسطلاني عليها.
- سيرة ابن هشام.
- الروض الأُنُف للسهيلي.(٢)
- تنبيه الأنام.(٣)
- تاريخ الاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي.(٤)
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري.(٥)
- رحلة ابن رشيد.(٦)
- رحلة البلوي.(٧)

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢٤، ٤٧١، ٤٤٣؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية في مجلد للشيخ الإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني المصري المتوفى عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. كتاب جليل القدر رتب مقاصده على عشرة أبواب. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٨٩٦ - ١٨٩٧؛ إسماعيل باشا: هداية العارفين، ج٥، ص١٦١.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٦٨. تنبيه الأنام في بيان علو مقام محمد عليه الصلاة والسلام لعبدالجليل بن محمد بن أحمد بن حطوم المرادي القيرواني. في مجلد جمع فيه الصلاة على النبي ﷺ المروية أو المأثورة. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٤٨٦.

(٤) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦. الاكتفاء في مغازي المصطفى ﷺ والخلفاء الثلاثة للحافظ أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي المتوفى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص١٤١.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٤٦٦. وهذا يدل على ورود الكتب المغربية إلى الحجاز في وقت حياة مؤلفها أو بعده بقليل.

(٦) المصدر السابق، ص٥١٠، الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٥٨.

(٧) الزيادي: بلوغ المرام، ص٨١. وتسمى تاج المفرق في تحلية علماء المشرق.

- تاريخ الذهبي.[١]
- وفاء الوفا للسمهودي وخلاصته.[٢]
- الدرة الثمينة لابن النجار.[٣]
- أخبار مكة للأزرقي.[٤]
- رحلة العبدري.[٥]
- أخبار مكة للفاكهي.[٦]
- شفاء الغرام للفاسي.[٧]
- تحفة الكرام في أخبار البلد الحرام للفاسي.[٨]
- القرى لقاصد أم القرى للطبري.[٩]
- إتحاف الورى بأخبار أم القرى لنجم الدين عمر بن فهد.

وأشار الرحالة المغاربة إلى علم النحو الذي نال تدريسه أهمية خاصة في

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٤٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٣، ج٢، ص٥، ١٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٢.
(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٢.
(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٣ ١٣٤، ١٨٩.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢.
(٦) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٨.
(٧) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٩، القادري: نسمة الآس، ص٧٥، ٩١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٩؛ الزيادي: بلوغ المرام، ص١٢٠.
(٨) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٣.
(٩) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٩؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٧؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٤.

ذلك الوقت، خاصة وأن تلك المدة شهدت تدفق الجموع الغفيرة من الأقطار الإسلامية للمجاورة، ولا سيما الأقطار التي لا تتحدث العربية فكان لا بد من عقد الحلقات العلمية في النحو، إضافة إلى أن اللغة العربية لغة القرآن الكريم ومرتبطة به وبعلم الحديث والتفسير والفقه، فكان لا بد من إتقان هذا العلم، ومن أشهر الكتب التي أشار إليها الرحالة المغاربة:

- القوانين لابن أبي الربيع.(١)
- كافية ابن الحاجب.(٢)
- القاموس.(٣)
- شرح المواقف للشريف الجرجاني.(٤)

ولم تخلُ رحلة من الرحلات المغربية من العديد من القصائد الشعرية، سواء كانت لهم أم لغيرهم، وخُصَّت المدائح النبوية بحيِّز من كتب الرحلات، ويبدو أن الذي أدى إلى ازدهارها هو الشوق إلى زيارة المسجد النبوي والآثار الشريفة، فمن الرحالة المغاربة من أورد قصيدة أو أكثر في مدح الرسول ﷺ،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٨ - ٥١٩.

(٢) المصدر السابق، ص٤٤٥. الكافية في النحو للشيخ جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي النحوي المتوفى عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٩م. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٣٧٠ - ١٣٧٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٦٦؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٢٢.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٦. علي بن محمد بن علي الحنفي الشريف الجرجاني علامة عصره، له تصانيف مفيدة منها شرح المواقف للعضد. انظر: جلال الدين عبدالرحمن السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج٢، ص١٩٦ - ١٩٧. ترجمة رقم ١٧٧٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، د.م؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٧، ص٢١٦.

منها ما هو من تأليفهم[١]، ومنها ما هو منسوب إلى غيرهم[٢]. وقد عبَّرت تلك القصائد عن مشاعر اللهفة والشوق لزيارة المسجد النبوي والآثار النبوية، كما كان فيها كثير من الغلو والتوسل بغير الله تعالى، الأمر الذي كثر شيوعه في ذلك الوقت.

فالزبادي كان يرسل قبل مجيئه إلى الحجاز قصائد المدائح لتقرأ في المسجد النبوي[٣]. كما وجدت قصائد مكتوبة على أعمدة الروضة الشريفة أو سقفها، حتى إن العياشي بعث ببيتين من الشعر لتلصق عند الأسطوانة التي كان يجلس عندها أيام مجاورته في المدينة المنورة[٤]. علاوة على القصائد المدحية التي تقال في ذلك المكان[٥] سواء من قِبَل أصحابها أو مَنْ ينوب عنهم[٦]، أو التي تقال على المنائر قبل الصلاة[٧]. وهناك قصائد كانت تقال عند قرب الوصول للمدينة المنورة ومكة المكرمة أو عند الرحيل عنهما.[٨]

كما دوَّن الرحالة المغاربة قصائد لشعراء الحجاز في رحلاتهم[٩]، إضافة إلى أخذهم إجازات روايتها[١٠]. وهكذا نرى أن الشعر احتل مكانًا بارزًا، ولا

---

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٨، ٢٠٤؛ الزيادي: بلوغ المرام، ص١٥١.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٣.
(٣) الزيادي: بلوغ المرام، ص١٩٦ - ٢٠٠.
(٤) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠؛ العياشي: ماء الموائد، ص٢٠٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص٢٠٢ - ٢٠٣؛ الزيادي: بلوغ المرام، ص١٧٩ - ١٨٠.
(٥) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٩١.
(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٣.
(٧) المصدر السابق، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، ص٢٠٠ - ٢٠١، تحقيق أمحزون؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٩١.
(٨) الزبادي: بلوغ المرام، ص٨١، ١٩٤.
(٩) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٥ - ٥٠٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٠.
(١٠) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٥.

سيما أن من الرحالة المغاربة الأدباء والشعراء كالقيسي والعياشي والرافعي وأبي مدين والزبادي. ومن الكتب والقصائد المشهورة التي أشاروا إليها:

- الدرة السَّنِية في المعالم السُّنِّية. وهو في السيرة النبوية والأعلام المحمدية للقاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي.(١)
- منتهى السُّول في مدح الرسول محمد ﷺ(٢).
- قصيدة البردة وشرحها للإمام ابن مرزوق.(٣)
- مسارح الأنظار في شرح بردة مديح المختار للغبريني.(٤)
- الهمزية للبوصيري وشرحها. وذكر الزبادي أنها مشتملة على ذكر مراحل الحجاز ومدح الصحابة خيار الأمة على الحقيقة لا المجاز.(٥)

---

(١) المصدر السابق، ص٥١٦. الدرة السنية في مقتضى المعالم السنية للقاضي محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي المالكي القرطبي. أرجوزة في مجلد رتبت على أربعة معالم في التعريفات والثاني في النكت الأصولية والأدلة الشرعية والثالث في الفروع والرابع في السير وأبياتها سبعة آلاف وبيتان. فرغ منها بقرطبة في صفر عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٧٤٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥١٦؛ منتهى السول في مدح الرسول ﷺ لحسن بن عبدالرحمن بن عبدالرحيم بن عذرة الأنصاري المغربي. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٥٧٣.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٧٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٦٩. قصيدة البردة الموسومة بالكواكب الدرية في مدح خير البرية الشهيرة بالبردة الميمية لشرف الدين أبي عبدالله محمد بن سعيد الدلاصي ثم البوصيري المتوفى عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م وتقع في مئة واثنين وستين بيتًا. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٣٣١ - ١٣٣٦.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤٨.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٨٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨١، ١٦٩. الهمزية في المدائح النبوية المسماة بأم القرى. انظر: حاجي =

- قصيدة في فضل السيدة عائشة رضي الله عنها لابن جماعة.[١]
- قصيدة للسبكي.[٢]
- شعر في المدائح النبوية لمحمد مخبر.[٣]
- وأشعار أخرى متنوعة.[٤]

ووجد علم المنطق رواجًا في ذلك الوقت، وتُدُوِلت كتبه، وأُخذت فيه الإجازات على الرغم من صعوبة فهمه، واختلاف العلماء حوله. ومن تلك الكتب التي وردت في كتب الرحلات المغربية:

- شرح العقباني على جمل الخونجي.[٥]
- شرح الهداية في الحكمة لولي السيد الجرجاني.[٦]

= خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص٢٠٤٦. والبوصيري من الشعراء الذين أثروا كثيرًا في الأمة الإسلامية بما نظمه من مدح في الرسول ﷺ، وخاصة قصيدة البردة التي عاشت في وجدان المسلمين حية نابضة مدة طويلة تذكي المشاعر الدينية وتغري الشعراء بمحاكاتها والنسج على منوالها وشرحها ومعارضتها، وهذه القصيدة وأمثالها تفيض بالغلو والتوسل المنهي عنه. انظر: الحمامصي: البوصيري، ص١٤، ٢٠، ٤٦، ٦٩.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص٤٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص٤٠٣. لم نجد له ترجمة الا أنه من أدباء جدة في القرن الحادي عشر الهجري.

(٤) المصدر السابق، ص٤٠٣، ٥٠٦ - ٥٠٧، ٥٤٦ - ٥٤٨، ٤٦٦؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٤٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨١.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٢. الجمل من مختصر نهاية الأمل في المنطق، وهو جمل القواعد لأفضل الدين محمد بن ناماور بن عبدالملك الخونجي الشافعي المتوفى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م. وقال عنه: إنه جمل تنضبط بها قواعد المنطق وأحكامه. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٦٠٢.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٣. هداية الحكمة للشيخ أثير الدين مفضل بن عمر الأبهري =

- شرح الحكم لمحمد بن عباد.[١]
- شرح القطب على الشمسية.[٢]
- كتاب الهداية في الحكمة للأثير.[٣]
- عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب لمحيي الدين ابن عربي.[٤]

وشاع علم الدوائر والأسماء وأسرار الحروف وفن الدعوات وخواص

= المتوفى عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م وعليها حواش منها لمحمد بن شريف الحسيني الجرجاني سماه حل الهداية. انظر: حاجي خليفة: كشفً الظنون، ج٢، ص٢٠٢٨ - ٢٠٢٩.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٢٤، ٥٠٤. الكلمة الوسطى في شرح حكم ابن العطاء.الحكم العطائية للشيخ تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن عطاء الله الإسكندراني الشاذلي المالكي المتوفى في القاهرة عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. وكتابه حكم منثورة وعليه شروحات كثيرة. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٦٧٥؛ إسماعيل باشا: هداية العارفين، ج٥، ص١٦١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٥١. في المنطق الشمسية متن مختصر لنجم الدين عمر بن علي القزويني المعروف بالكاتبي تلميذ نصير الدين الطوسي المتوفى عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م. حقق فيه القواعد المنطقية وفصَّل مجملها وشرحها قطب الدين محمد بن محمد التحتاني المتوفى عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م شرحًا جيدًا. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص١٠٦٣.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٥٢. هداية الحكمة للشيخ أثير الدين فضل بن عمر الأبهري المتوفى عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م ورتبه على ثلاثة أقسام الأول في المنطق والثاني في الطبيعي والثالث في الإلهي. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون،ج٢، ص٢٠٢٨.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٠. عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب لمحيي الدين محمد بن علي المعروف بابن عربي المتوفى عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م وتكلم فيه في مضاهاة الإنسان بالعالم على الإطلاق، وابن عربي من غلاة الصوفية، ويعتقد بالحلول. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١١٧٣.

الأذكار، وراجت بضاعته في ذلك الوقت لدى الحكام والخاصة[١]. ولأنه علم يتعلق بالأمور الغيبية التي لا يطلع عليها إلا علام الغيوب، فقد وقع لبعض المشتغلين فيه أحداث مؤسفة انتهت بقتلهم[٢]. وكان بعض علماء هذا الفن يتحرز من ادعاء كشف الغيب[٣]، وعلى الرغم من ذلك راجت بعض الكتب التي منها:

- كتاب الجفر.[٤]
- المقنع في علم التنجيم.[٥]

ووجد من الناس من اشتغل بهندسة الآلات لحاجة الناس إليها، وكان ذلك جهدًا ذاتيًا من قبل أصحابها، إذ لم توجد مدارس لتعليمها، وإنما وجد مَنْ يتقنها، وقد تحدث العياشي بانبهار عن آلة للتوقيت كانت غاية في الدقة والإتقان، تهافت الناس على اقتنائها على الرغم من غلاء ثمنها، وقد حصل العياشي على واحدة منها هدية من صانعها الشيخ الروداني الذي قال عنه: «له يد صانع يحسن غالب الحرف... أعجوبة الدهر في الذكاء، وصنعة اليد، فلا يكاد يتعاصى عليه شيء من الصناعات المندرسة التي لم يبق إلا أخبارها فضلًا عن الموجودة»[٦]. وقد أكد الأنصاري وجود صُنّاع اختُصوا بصناعة الآلات الدقيقة ولا سيما الساعات التي كانت لها سوقٌ رائجة وقتئذ.[٧]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٤؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص١٦٤، ٢٠٩، ٢٦١، ٣٠٣ - ٣٠٤، ٣٤٢، ٣٦٧، ٣٧٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٧؛ النصاري: تحفة المحبين، ص٣٧٠.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٨.

(٤) المصدر السابق، ص٥٠٢.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٨.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٥ - ٣٥٨.

(٧) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٣٠٢، ٤٨٧.

أما علم الحساب الذي يرتبط بالأمور الدينية وخاصة الزكاة، كما يرتبط بالمعاملات اليومية الدنيوية من بيع وشراء وغيره، فقد حرص أهل ذلك الوقت على تعلمه منذ الصغر في الكتاتيب، ووجد علماء نبغوا فيه، وقد أشار الرحالة المغاربة إلى بعض كتبه من مثل:

- منية الحساب للشيخ ابن غازي.[١]
- رسالة في علم التوقيت.[٢]

وهكذا نجد أن القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين حفلا بنشاط علمي كبير، سواء في مجال التأليف أم التدريس أم تبادل المعلومات، وكان للعلم أماكنه وروداه ومشجعوه، وكان كل ذلك اعتمادًا على إسهام العلماء الذين برزوا خلال ذلك الوقت والذين أثْروا بنتاجهم العلمي في تلك المسيرة العلمية.

ومن خلال ما سبق يتضح أن أثر المدارس والكتاتيب، وحتى الأربطة والزوايا لم يكن واضحًا في كتب الرحلات المغربية بقدر وضوح أثر المسجدين المكي والمدني، فالرحالة المغاربة أبرزوا مكانتهما العلمية، وما كان يعقد فيهما من حلقات دروس علمية، فهما بحق من أقدم الجامعات الإسلامية وأرفعها شأنًا وأعلاها مكانًا، ولا غرابة في ذلك فهما أقدس بقاع الأرض وأطهرها، ومنهما نبغ علماء ملأت تراجمهم معظم كتب التراجم واصفة علمهم وأخلاقهم ومكانتهم.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٤٥. أبو عبدالله محمد بن أحمد المكناسي، حاسب ومؤرخ وفقيه مالكي، ولد سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م. له العديد من المؤلفات، توفي في فاس عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٣٣٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٤ - ٣٥٥.

ولنا أن نلتمس العذر للرحالة المغاربة في عدم ذكرهم لغير المسجدين المكي والمدني، لأن إقامتهم فيهما لا تتعدى الشهر الواحد، منه أيام يمضونها في أداء النسك، وأخرى في الطريق إلى المدينة المنورة، فكيف لهم التقصي والتحري؟! علاوة على إيقاف التدريس طوال أيام الحج، ولكن على الرغم من ذلك فإنهم اجتهدوا في السؤال عن العلماء وحرصوا على لقاء بعضهم.

أشهر العلماء وأهم مؤلفاتهم

قد يظن ظان أن القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين من أحلك القرون ظلامًا علميًا، حيث شاع أن علماء ذلك الوقت يعدون من المقلدين غير المجتهدين، ولكن ظهر جليًا ما أودعه الرحالة المغاربة في متون رحلاتهم من أسماء علماء تلك المرحلة. وما ذكره الرحالة المغاربة يُعد غيضًا من فيض، وقد أكد وجودَهم ووجودَ غيرهم مؤلفو كتب تراجم ذلك العصر، حيث انبرى بعضهم للدفاع عن عدم وجود العلماء وأشباههم آنذاك كالشوكاني مثلًا الذي عاش في القرن الثالث عشر الهجري، إذ دحض المزاعم التي تقول: إن ذلك العصر خلا من العلماء المجتهدين، ونبه إلى بطلان المقولة القائلة: إن القرون بعد السادس أو السابع الهجريين خلت من العلماء، ولم يؤلف كتابه البدر الطالع إلا لينفي هذا الزعم، وذلك يؤكد أن هذه المقولة ليست وليدة العصر الحديث، وإنما قبله، فهي مقولة قُصد بها التشكيك في قدرات المسلمين العلمية.

لقد ضمت مكة المكرمة والمدينة المنورة جمعًا غفيرًا من العلماء، سواء منهم المقيم أم المجاور أم الوافد خلال مواسم الحج، وكانت المدينتان المقدستان مسرحًا لتنقلاتهم ومقرًا لاستقرارهم في مكة المكرمة ردحًا من الزمان، وفي المدينة المنورة ردحًا آخر، لذا سنوردهم دون فصل بين المدينتين المقدستين، بل بصفتهم علماء عاشوا في منطقة الحجاز كلها في ذلك الوقت،

كما سننبه إلى مكان وجودهم عند التقاء الرحالة المغاربة إياهم.

لقد أورد الرحالة المغاربة تراجم مفصلة لأشهر العلماء الموجودين في الحجاز، وأتت تراجم بعضهم مسهبة بحكم صلتهم الوثيقة بهم، وهو ما أتاح لهم فرصة الاطلاع على كثير من دقائق أمورهم الحياتية، وإن اكتفوا في أحيانٍ أخرى بالإشارة إلى أسمائهم فقط دون تفصيل، وأحيانًا الاسم الأول فقط أو اللقب، أو المنصب الذي كانوا يتولونه، وهو ما أوقعنا في حيرة حول شخصية المقصود.

كما أثبتت كتب الرحالة المغاربة تراجم وأسماء لعلماء وجدوا في الحرمين الشريفين، أغفلت كتب التراجم الإشارة إليهم أو التعريف بهم، وربما كان هؤلاء على درجة عالية من الثقافة، كما نجد أن الرحالة المغاربة قد تفوقوا على أصحاب كتب التراجم أحيانًا في الدقة لتأريخ ميلاد العلماء لأخذهم ذلك من أفواههم مباشرة، وكذلك الدقة في التأريخ لوفاتهم لقرب عهدهم بهم، أو أخذهم هذه المعلومات من علماء عاينوا وعايشوا هذه الأحداث.

عاصر الرحالة المغاربة العشرة الذين كان مدار البحث حول رحلاتهم علماء بلغ عددهم تسعة وخمسين، التقى العياشي وحده ستة وثلاثين منهم، وانفرد الدرعي بذكر عشرة، وانفرد أبو مدين بالاجتماع بأربعة، وعاصر الغنامي اثنين، وسمى الرافعي اثنين، وانفرد الزبادي بذكر واحد فقط. وكان هناك علماء التقاهم أكثر من رحالة مغربي فمن ذلك اتفاق الرافعي والقادري والدرعي على ذكر واحد، والتقاء الحضيكي وأبو مدين بواحد، وكذلك الحضيكي والزبادي اتفقا على الاجتماع باثنين، ومن هؤلاء العلماء الذين انفرد بذكرهم والاجتماع بهم العياشي:

صفي الدين القشاشي[١]:

الشيخ صفي الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن يونس، الملقب بعبدالنبي[٢] ابن القطب أحمد بن علي المقدسي الدجاني المدني القشاشي[٣]. ولقَّب المحبيُّ جدَّ القشاشي عليًا بـ «علاء الدين»، وأضاف إلى نسبه بعد هذا الجد يوسف بن حسن بن ياسين البدري.[٤]

وعن ماضي أسرة القشاشي ذكر العياشي أنه من أسرة عُرفت بالعلم في القدس الشريف، فجده كان له الأتباع والأولاد والزوايا، كما أن جده يونس بعدما نال شيئًا من العلم والمعارف ترك بلاده وجاهه وسائر أملاكه في القدس وساح في الأرض إلى أن استقر أخيرًا في المدينة المنورة، وعلل سبب تلقُّب جده بعبدالنبي بأنه كان يجمع الفقراء ويأتي بهم إلى المسجد النبوي، ويدفع لهم أجرةً لقاء الصلاة على النبي ﷺ عامة يومهم فسمي لذلك بعبدالنبي[٥]، أما سبب نعته بالقشاشي فيعود لعمله مهنة «القشاشة» وهي سَقَط المتاع من الأشياء التي تُسترخص من أي نوع، مثل النعال، والخرق، والمحابر والإبر وغير ذلك مما يحتاجه الفقراء، فسُمِّي لأجل ذلك بالقشاشي.

وأشار العياشي إلى أن هذا الجد ظل خامل الذكر إلى وفاته، إذ ساعد على ذلك تغير النسبة وحداثة اللقب، فلم يتعرف أهله على مكانه.

---

(١) لا تعرف سنة مولده.

(٢) لا يجوز التسمي بذلك، فالتسمية بعبد لا يجوز اقترانها إلا بأحد أسماء الله الحسنى فقط.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٩٨، ٣٠٥؛ القادري: التقاط الدرر، ص١٦٧، ترجمة رقم ٢٦٩. وترجمته مختصرة وكان فيها عالة على العياشي، وذلك يؤكد أهمية الرحلات المغربية ليس لتاريخ الحجاز فحسب، بل كانت جزءًا من مادة كتب التراجم المغربية أيضًا.

(٤) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٤٣ - ٣٤٤.

(٥) هذا الخبر يجعلنا نتعرف أن الذكر كان في ذلك الوقت أحد وسائل التكسب.

وأضاف العياشي أن والد صفي الدين نشأ على طريقة أبيه في الاشتغال بما يعنيه، أما صفي الدين فقد نشأ منذ صغره منكبًا على العبادة والزهد، وطلب العلم على يد والده وعلماء عصره في الحجاز واليمن التي كانت في ذلك الوقت على حد قول العياشي: «وكرًا للعلماء والصالحين من آل باعلوي وآل العيدروس وآل الجبرتي وغيرهم». فانتفع بلقائهم وتأدب بآدابهم، فحصل له من جراء ذلك النفع الكثير والخير العميم.(١)

وأشار العياشي إلى أنه كان قادري(٢) الطريقة مالكي المذهب إلى أن اتصل بشيخه الشناوي(٣)، ولشدة تعلقه ومحبته له اقتدى به وتمذهب بالمذهب الشافعي ونبغ فيه وأصبح يفتي على المذهبين.(٤)

وتوثقت صلة القشاشي بشيخه الشناوي فتزوج ابنته، وورث مكانته،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٩٩.

(٢) «القادرية» نسبة إلى عبدالقادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسني أبي محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، شيخ الحنابلة ومؤسس الطريقة القادرية. كان من كبار الزهاد والصوفية ولد في جيلان عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م، وتوفي عام ٥٦١هـ/ ١١٦٦م في بغداد، وله فيها مدرسة ورباط، ترك العديد من المؤلفات. انظر: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١، ص٢١٩؛ محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، ج٢، ص٣٧٣ - ٣٧٤، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت؛ الزركلي: الأعلام، ج٤، ص٤٧.

(٣) هو أحمد بن علي بن عبدالقدوس بن محمد أبو المواهب المعروف بالشناوي المصري المدني، كان علمًا في جميع المعارف، ذاع صيته في الحرمين الشريفين ومصر، ولد في شوال عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م في مصر وتوفي في ٨ من ذي الحجة عام ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م في المدينة المنورة، وذكر العياشي أن جده هو عبدالقادر وليس عبدالقدوس، وحدد يوم مولده بـ ٨ شوال ويوم وفاته بـ ٥ من ذي الحجة، كما أكمل في نسبه: القرشي العباسي. انظر: العياشي: ماء الموائد، ص٣٠٤ - ٣٠٥؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٤٣ - ٢٤٦.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٠٠.

التقاه العياشي عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م في مقر تدريسه وأعجب به كثيرًا فوصفه بأنه ليس على نمط الفقهاء المُدرِّسين أهل المناصب، ولا على نمط الزهاد المتقشفين، يقتني الطيِّب ويأكله، لا يسعى لأبواب الأمراء ولا يرغب في معرفتهم، وإن أتوا إلى مجلسه لا يمنعهم ولا ينهرهم ولا يعبس في وجوههم، بل ينزلهم منازلهم ويكرمهم ويقدم لهم من الطعام ما حضر، ومع ذلك لا يخليهم من نصيحة برفق، ووعظ بلين، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد من جهالة، وإنقاذ من ضلالة.[١]

وأثنى العياشي عليه كثيرًا وحَلَّاه بعظيم الصفات، وقال: «أُقِرَّ له بالتقدم على علماء زمانه وكبراء أوانه»[٢]. ودلل على غزارة علمه بكثرة الأسئلة التي تنهال عليه من جميع أقطار الأرض بقصد إفتائهم في العلوم، فيجيب عنها إجابات لا ينازعه في صحتها إلا مكابر، فطار صيته شرقًا وغربًا، وانقاد إليه الناس مقتدين بفعله ومنتفعين بعلمه[٣]. وقد قام بجمع تلك الرسائل المحتوية على إجابات الأسئلة التي انتشرت في الآفاق والتي لا يعرفها أهل الحجاز إبراهيم الكوراني[٤]، وكانت تزيد على السبعين.[٥]

أضفى العياشي على القشاشي وابلًا من الصفات التي اختص بها أهل ذلك العصر، والتي تُظهِر علو كعبه في علم الحديث والتصوف فمن ذلك قوله: «فصيح اللسان، ثابت الجنان، حافظٌ، بحرٌ لا يجارى، وحبرٌ لا يبارى، لمثله تضرب أكباد الإبل شرقًا وغربًا، إذ لا مثيل له»، وختم كلامه عنه بقوله: «وأنا لم

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩٨ - ٢٩٩، ٣٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٤) انظر ترجمته ص ٥٢١.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٩.

أبلغ في تحليته عُشر العُشر مما يستحقه».[١]

ومن جملة ما حكاه العياشي عن القشاشي سكناه خارج المدينة المنورة، وعلى الرغم من بُعده عن المسجد النبوي حرص على شهود الجماعة فيه، وبنصيحة من شيخه الشناوي الذي كانت له سلطة طاغية عليه تحول للصلاة في مسجد صغير قرب منزله امتثالًا لأمره.[٢] وهذه المعلومات التي توضح طريقة تعامله انفرد بها العياشي، فدقائق أحوال المترجم لهم من اختصاص الرحالة المغاربة لصلتهم الوثيقة بهم.

توفي الشيخ القشاشي يوم الاثنين ١٩ من ذي الحجة سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م، ودفن في البقيع[٣]، تاركًا وراءه مؤلفات تقارب السبعين، في حين حددها المحبي بالخمسين[٤]، منها ما هو مؤلف في الحديث[٥]، ومنها ما هو في التصوف[٦]، ومنها شروحات على مؤلفات سابقة لعلماء الحجاز، وقد نقل العياشي في رحلته إحداها[٧] للشيخ سالم شيخان[٨]. فنقْلُ بعض المؤلفات

(١) العياشي: اقتفاء الأثر، ٣٢؛ العياشي: ماء الموائد، ص٣٠٨.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٠٩؛ إن هذا الخبر يوضح مدى الطاعة العمياء التي سادت في ذلك الوقت لأي أمر يطلبه الشيخ والمسارعة لتنفيذه مهما كان.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٠٥؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٤٦. قيد القادري شهر وسنة وفاة القشاشي بـ ٢٦ جمادى الأولى عام ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م. وهو وهم منه فالعياشي أوثق منه في تحديد وقت الوفاة للمعاصرة. القادري: التقاط الدرر، ص١٦٧.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣١١؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٤٥.

(٥) المصدران السابقان أنفسهما.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣١١ - ٣١٤؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٣٤٥؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٩٧٠ - ٩٧١.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص٣١١.

(٨) السيد سالم بن أحمد بن شيخان ولد في ٢٧ ربيع الآخر عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م. أخذ عن علماء عصره، وذاع صيته وانتفع به كثيرون، له عدة مؤلفات وأشعار كثيرة في مدح =

أو أسمائها من الخصائص التي انفردت بها كتب الرحلات المغربية، فالباحث يجد فيها ما لا يجده في غيرها من الكتب.

المُلَّا إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم الشهراني:

نشأ في بلاد شهران[١] من جبال الكرد في عِفَّة وديانة، أخذ العلم في موطنه عن مشايخ قطره، وقرأ العربية وغيرها من العلوم بإتقان من منطق وفلسفة وهندسة وهيئة، إذ كان ربما يتقن علمين أو ثلاثة في آن واحد، فهو عندما يقرأ كتابًا وتعترضه مسألة في أحد العلوم يتقن علمها ويحققها فيكون بذلك عندما يختم الكتاب قد حققه وحقق معه عدة علوم، وكان هذا شأنه في سائر العلوم لا يرضى لنفسه الاقتصار في أي علم على أدنى نصيب، فأتقن العلوم كلها في موطنه من أصول الفقه وخاصة الشافعي، والتفسير، والمعاني، والبيان، ما عدا الحديث والتصوف فإنه أخذهما في الشام ومصر والحجاز لاختصاص هذه المناطق به.[٢]

بقي الكوراني في بلاده إلى أن مات والده، وكان قد تزوج وولد له، فرغب في أداء فريضة الحج وزيارة المسجد النبوي، ثم العودة إلى موطنه، فخرج وكان طريقه على بغداد فمكث فيها عامين بسبب مرض أخيه الذي خرج معه، وتصدر في بغداد خلال هذين العامين للتدريس، فأخذ يُقرئ بالفارسية والعربية، والتف حوله الطلبة، وعندئذ طلب منه بعض طلبة الأتراك تدريسهم بالتركية وكان لا يحسنها فتعلمها في مدة قصيرة، وأصبح يدرس باللغات الثلاث هناك. ثم رحل

= الرسول ﷺ، توفي ضحى الأحد ٩ من ذي العقدة عام ١٠٤٦هـ/ ١٦٣٦م في مكة المكرمة. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص٢٠٠ - ٢٠٢.

(١) «شهران» تقع في جبال الكرد بين إربل وهمذان وأهلها كلهم أكراد. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٣٧٥.

(٢) وهذه إشارة من العياشي إلى تفرد هذه المناطق بهذا العلم.

إلى الشام وأقام فيها أربع سنوات مواظبًا على إلقاء الدروس، ثم رحل إلى مصر ولم تطل إقامته فقصد الحجاز وأدى الفريضة وأقام في المدينة المنورة برباط السلطان قايتباي، ولازم هناك الشيخ القشاشي الذي أذن له بالإفتاء والتدريس وزوَّجه ابنته، وبعد وفاة القشاشي ورث جميع وظائفه وخلفه في علمه.

التقاه العياشي وتوثقت صلته به وصار يتردد عليه في زاوية له خارج المدينة المنورة بعد أن مدحه العياشي بقصيدة استحسنها الكوراني وبدأ بعدها العياشي بالأخذ عنه وملازمته، ولما مرض العياشي كان الكوراني يزوره.[١]

وذكر العياشي أن الكوراني عُرِف عنه قوة الحفظ[٢]، وعلى الرغم من ذلك فلو رُوجع أدنى مراجعة لتوقف حتى يتثبت، وقد أخذ عنه العياشي كثيرًا وأجازه سواء بمؤلفاته أو مؤلفات غيره.[٣]

وقد أكد الشوكاني والمرادي ما ذكره العياشي من عظم مكانته وعلمه[٤]، وقد أسهب العياشي في تسجيل دقائق طباعه وعاداته بحكم معاشرته له فقال: «من طبعه عدم المبالاة بالنفس يلبس ما تيسر ولا يأكل ما تعسر، تاركًا زيَّ متفقهة الوقت ومتصوّفيه من تكبير العمامة وتطويل الأكمام وإرسال الطيلسان ولباس الجوخ[٥]، وإنما يلبس عمامة متقاربة يرسل عذبتها بين كتفيه، ويلبس من متوسط الثياب ما يناسب وقته حرًا وبردًا، ويلبس صوفًا ملونًا بالأبيض والأسود

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٦ - ٢٣٧، ٢٣٩ - ٢٤٣، ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٦ - ٢٧٦. على سبيل المثال.

(٤) الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١١ - ١٢؛ أبو الفضل محمد بن خليل بن علي المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج١، ص٥ - ٦، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت.

(٥) هذه إشارة من العياشي إلى اللبس الذي اعتاد فقهاء الحجاز على لبسه في ذلك الوقت.

كما هو لباس عامة أهل الحجاز، وكوفية لاطية تحت العمامة[١]، إذا وجده مَنْ لا يعرفه في مجلس دَرْسِه مع أصحابه لا يميز بينه وبينهم لاختلاطه بهم ولعدم تصديره وإظهار التميز عليهم، حتى في كلامه وتقريره للأبحاث يعرض المسألة بكونها مشكلة ويفند ما بها، فيقول: لعل كذا كذا، أو يشبه أن يكون كذا، أو ترون أن هذا يفهم على هذا... بيد أن لسانه فيه بعض ثقل في التقرير بالعربية، وإذا كتب فلا تسأل عما يبدئ وما يعيد في تقريره»[٢]. فالعياشي أكد غلبة العجمة على لسانه بحيث يعسر عليه النطق بالهمزة، بل كان لا يطيقها.[٣]

حدد الشوكاني مولده في سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م، ووفاته في ١٨ جمادى الأولى عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م في المدينة المنورة ومدفنه في البقيع[٤]. في حين أنَّ المرادي ذكر أنه توفي يوم الأربعاء ١٨ ربيع الآخر، ومولده في شهر شوال[٥]، أما القادري فحدد وفاته في ٢٨ رجب[٦]، وخالف الجبرتي كذلك في تحديد يوم وفاته فذكر أنه في ٢٨ جمادى الأولى.[٧]

ترك الكوراني العديد من المؤلفات التي تزيد على الثمانين[٨]، والتي منها كتاب «إنباه الأنباه على إعراب لا إله إلا الله»، بدأه في بلاده وفرغ منه في المدينة المنورة، وهو كتاب مفيد لم يُؤلَّف في معناه مثله، أودع فيه من التحقيقات ما لا يوجد في غيره من النكت النحوية والقواعد الأصولية والمباحث البيانية الفريدة

---

(١) هذه إشارة من العياشي إلى الزي الذي اعتاد أهل الحجاز في ذلك الوقت على لبسه.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٢٤٦.
(٣) المصدر السابق، ص٢٣٣.
(٤) المرادي: سلك الدرر، ج١، ص٥ - ٦.
(٥) الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١١ - ١٢.
(٦) القادري: التقاط الدرر، ص٢٥٥.
(٧) الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١١٧.
(٨) الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٢.

والثمينة، ولم يدع شيئًا يتعلق بإعراب الكلمة المُشرَّفة من جميع العلوم إلا ذكره مع زيادة في التحقيق والتدقيق، ثم ختمه بأربعين حديثًا في فضل لا إله إلا الله وذكر سنده في تلقِّيها، وقد طال بحثه على جمع الأحاديث، وهذا المؤلَّف حمله العياشي معه إلى المغرب[١]. وله كتاب «القول الجلي» وهو جواب عن مسألة وردت إليه من قِبل علماء الزيدية باليمن. وله «الشرح الكبير والصغير على منظومة القشاشي في العقائد» أهدى منه نسخة للعياشي وكتب له عليها بخطه، وله «سلك السداد إلى مسألة خلق أفعال العباد».[٢]

وهذا المُؤلَّف وغيره من المؤلفات وُصفت بالمنكرة، إذ أشار القادري إلى تصدي علماء المغرب للرد عليها وإنكارها، وانقسموا في الرد عليها قسمين، قسم شنَّع عليها وحذر منها، وقسم رد عليها ردًا لطيفًا.[٣]

أبو الحسن علي بن محمد بن عمر الربيع[٤] اليمني الزبيدي[٥]:

من كبار علماء القراءات والحديث، ومن قدماء مشايخ العياشي لقيه أول مرة في مكة المكرمة عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م، وأخذ عنه وأجازه، ووصفه ببقية

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٩١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٢؛ المرادي: سلك الدرر، ج١، ص٦. وهنا إشارة إلى إحدى طرق انتقال الكتب من المشرق إلى المغرب.

(٢) ولمعرفة المزيد من المؤلفات انظر: العياشي: ماء الموائد، ص٢٩٠ - ٢٩١، ٢٩٧؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٢؛ المرادي: سلك الدرر، ج١، ص٥ - ٦. وكما نلحظ كان إهداء الكتب طريقًا آخر لدخول كتب المشرق إلى المغرب.

(٣) القادري: التقاط الدرر، ص٢٢٥ - ٢٢٦، ترجمة رقم ٣٨٩.

(٤) لقب الربيع هذا كان لجده ومعناه بالنوبية الأبيض، وأصبح فيما بعد لقبًا لهم. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص١٩٢.

(٥) علي بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن علي الربيع بن يوسف بن أحمد بن عمر الشيباني الزبيدي الشافعي. انظر: المصدر السابق والجزء والصفحة.

السلف الصالح وقدوة كل غادٍ، أستاذ المقرئين وإمام المُحدِّثين[١]، ووصفه أيضًا بالناسك الخاشع الزاهد المتواضع.[٢]

وأكد المحبي والشوكاني عظم مكانته في القراءات والحديث، وأخذه عن علماء عصره في اليمن ومكة المكرمة والمدينة المنورة.[٣]

وقد لزم العياشي شيخه الزبيدي في حجته الأخيرة، ولقيه أولًا في مكة المكرمة ثم في المدينة المنورة، وسأله أن يقرأ عليه القرآن الكريم بقراءة الإمام عبدالله بن كثير المكي[٤]، فأذن له وجعل له وقتًا معلومًا، وختم عليه في (١٧) يومًا في المسجد النبوي في صفر عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م.

ووصف العياشي انثيال الناس عليه حال وصوله إلى المدينة المنورة للقراءة عليه، لشدة إجادته للقراءات السبع وحسن تلاوته، حتى قال عنه: «ما سمعت أذني في أقطار الأرض كلها على كثرة من سمعت أحسن منه تلاوة للقرآن وأطيب منه نغمة وأجود منه ترتيلًا له، يعطي الحروف حقها في مخارجها من غير إفراط ولا تفريط في تؤدة وسكون ووقار بقراءة مسترسلة متناسبة، لا يُرجِّع فيها ترجيع أهل الألحان، ولا يسرع إسراع المرقة، لا يمد في غير محل المد، ولا يتركه في محله، كان محافظًا على مراتبه من توسط وإشباع وقصر، مجيدًا للنطق بالإمالة وتسهيل الهمزة وتليينها، مراعيًا لصفات الحروف من

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٢.

(٢) العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٨؛ القادري: التقاط الدرر، ص١٦٧، ترجمة رقم ٢٧١.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص١٩٣؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٧٩، ترجمة رقم ٣٣٣.

(٤) عبدالله بن كثير الداري المكي، أبو معبد أحد القراء السبعة، كانت حرفته العطارة، وهو فارسي الأصل، ولد بمكة المكرمة عام ٤٥هـ/ ٦٦٥م. وتوفي بها عام ١٢٠هـ/ ٧٣٧م. الزركلي: الأعلام، ج٤، ص١١٥.

تفخيم وتغليظ وترقيق وتشديد وغُنَّة وإظهار وإخفاء، إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله... وكان أيام إقامته بالمدينة كثيرًا ما يُقدَّم للإمامة لحسن صوته وعذوبة قراءته، ويتزاحم الناس على القرب منه لسماع قراءته».

وقد استفاد العياشي منه كثيرًا، إذ نبهه في القراءة تنبيهات كثيرة، خاصة عند تفخيم الخاء، وفي المقابل أفاد منه الزبيدي، فقد أطلعه العياشي على نصٍّ لعالم فاسيٍّ في جواز إبدال الهمزة هاءً عند قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾.[1]

ومما انفرد به العياشي في ترجمة الزبيدي له عن المؤرخين المشارقة ما ذكره عن أحواله التي منها كثرة حجّه، إذ قلما يخلو عام من قيامه بالحج على الرغم من أنه فقير الحال، وبسبب علمه وصلاحه قصده الناس كثيرًا من أهل بلده لاستئجاره على الحج بدلًا عنهم، ومنها أنه كان مبتلى بفقد الأولاد، فكان كثيرًا ما يسأل العياشي وغيره الدعاء له بأن يرزقه الله ولدًا صالحًا يخلفه من بعده وينتفع بصالح عمله، ولشدة تلهفه على الدعاء له كتب للعياشي كتابًا وهو في مكة المكرمة مضمونه الوصاية بالدعاء له بأن يرزقه الله الابن الصالح.[2]

وانفرد المحبي بذكر سنة مولده التي حددها بعام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، أما سنة وفاته فقد اتفق المحبي والشوكاني على أنها عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م في زبيد[3]. في حين أن العياشي حددها بعام ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م، وهو العام الصحيح، إذ كان الزبيدي حيًا عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م، وهي سنة مجاورة

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٢٣٢ - ٢٣٣. وهذا النص ورد أيضًا لدى القرطبي. انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١، ص١٨٥.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣١٩.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص١٩٣؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٧٩. و«زبيد» بفتح أوله مدينة في اليمن مشهورة كانت تعرف بالحُصيب، والوادي الذي تقع فيه يسمى زبيدًا فغلب اسم الوادي عليها. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٣١.

العياشي والتقائه إياه، وقد وصل خبر وفاته للعياشي في مصر عن طريق كتاب أرسله له صديقه الشيخ حسن العجيمي يعلمه بذلك.(١)

أبو محمد وأبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري(٢):

ولد الثعالبي عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م في زواوة(٣)، وقد ترجم له العياشي ترجمة واسعة نعته فيها بعظيم الخلال، وعاب عليه تسليمه لمشايخه في كل الأفعال والأقوال أحيانًا. وذكر أنه أخذ عن عدة مشايخ.

ومن جملة ما ذكره العياشي عن الثعالبي مُقاساته للفقر أولَ مجاورته إلى أن اشتهر وانثال الناس عليه وبُسط له الرزق. كما كان بارعًا في الحديث وعلمًا من أعلامه.

أما عن أول نشأة الثعالبي فقد ذكر العياشي أنه نشأ في موطنه ثعالبة في الجزائر وعشيرته تنسب إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ونشأ في حجر أبيه وجده اللذين حضَّاه على طلب العلم، فقرأ على فقهاء بلده، ثم سَمَتْ نفسُه إلى طلب المزيد، فرحل إلى الجزائر وصادف وجود العالم علي بن عبدالواحد الأنصاري الفيلالي(٤) فيها، فاتصل به ولازمه وتزوج ابنته، وهو مع ذلك يأخذ

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٩٨. انظر ترجمته ص٥٥١.

(٢) عيسى بن محمد بن محمد بن أحمد بن عامر جار الله أبو مكتوم المغربي الجعفري نسبة إلى جعفر بن أبي طالب، الثعالبي نسبة إلى موطنه ثعلبة الهاشمي. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص٢٤٠ - ٢٤٣؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٨٣ - ٣٨٤؛ العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٥.

(٣) «زواوة» بلدة بين إفريقية والمغرب. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٥٥؛ العياشي: اقتفاء الأثر، ص١٥.

(٤) علي بن عبدالواحد بن محمد، أبو الحسن الأنصاري السجلماسي، توفي عام ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م من سلالة سعد بن عبادة الخزرجي، فقيه مالكي ولد في تافلات ونشأ في سجلماسة وأقام في مصر مدة وكذلك في فاس، توفي في الجزائر. انظر: الزركلي: الأعلام، =

عن غيره من العلماء وينال إجازاتهم، وحدث أمر نتج عنه تطليق زوجته بأمر من أبيها[١]، وعلى الرغم من ذلك لم تنقطع صلته به وظل ملازمًا له، واتصل بوالي الجزائر يوسف باشا في ذلك الوقت وعظمت مكانته عنده، ولم يلبث أن رحل عن الجزائر بعدما توفي شيخه ووالي الجزائر وكثير من أقارب الثعالبي في وباء وقع فيها في ذلك الوقت، وصار الثعالبي يتنقل في شمال إفريقية إلى أن لقيه العياشي عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م في بسكرة، ولم يأخذ عنه شيئًا إذ ذاك، ثم عزم على المسير إلى الحجاز للحج والزيارة عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥٤م[٢]، فحج وجاور في الحرمين الشريفين وأقبل على نشر العلم من نحو وصرف ومنطق وكلام وبيان، فأعجب به أهل الحرمين الشريفين وصار له صيت عندهم، ثم رغب في الحديث وكان قبل ذلك من الزاهدين فيه، فأقبل على الرواية والأخذ والسماع من علماء الحرمين وقتئذ كالقشاشي، وزين العابدين الطبري[٣]، والبابلي، والزمزمي[٤]، وعلي بن الجمال، وتاج الدين المالكي[٥] وغيرهم، وبعدها رحل إلى مصر واستوطنها عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م و١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م، فأكثر من أخذ الحديث عن علمائها، وقيد الكثير، وقرأ الأجزاء والمسانيد الغريبة، وصار عَلَم وقته في رواية الحديث.[٦]

= ج٤، ص٣٠٩.

(١) ذكر المحبي أنها توفيت، والأصح ما ذكره العياشي لمعرفته الدقيقة بالثعالبي ولمعاصرته له. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص٢٤٠.

(٢) ذكر مرداد أنه حج عام ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م، والأصح ما ذكره العياشي لمعرفته الدقيقة بالثعالبي ولمعاصرته له. انظر: مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٨٣.

(٣) انظر ترجمته ص٥٤٧.

(٤) انظر ترجمته ص٥٣٥.

(٥) انظر ترجمته ص٥٥٠، هامش (٣).

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٧ - ٤١٩.

توثقت صلة العياشي به، وقد أرسل إليه قصيدة بعد رجوعه إلى مصر أجابه عنها الثعالبي[١]. وما ذكره المؤرخون الذين ترجموا للثعالبي في مجمله إنما هو تأكيدٌ لعظم مكانته، وأضاف المحبي أنه أثناء مجاورته الأولى أقام في خلوة برباط الداودية واشتغل بالتدريس في المسجد الحرام، وكان يذهب كل سنة إلى المدينة المنورة، وقد مكث سنينًا أعزب إلى أن بنى دارًا واشترى جارية رومية حيث أنجبت له[٢] وحصَّل كتبًا، وكان محط ثناء جميع علماء الحرمين[٣] حتى إنه كان ملجأ الناس في الاستفتاء وخاصة في المناسك، وانفرد بتحقيق العديد من العلوم، وكان يحضر مجلس درسه علماء أجلاء.[٤]

توفي الثعالبي يوم الأربعاء لست بقين من رجب عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م، ودفن في الحجون[٥]. وترك العديد من المؤلفات التي منها: «فهرسة كنز الرواة»، ذكر العياشي أنه رتبه ترتيبًا غريبًا، حيث جمع فيه من غرائب الفوائد الشيء الكثير، وأنه إلى وقت مجاورة العياشي لم يكمله، وذكر أنه لو أكمله لكان في عدة أجزاء، وقد وضع العياشي لهذا المُؤلَّف خطبة البداية وسماه «كنز الرواة المجموع من درر المجاز ويواقيت المسموع» بناءً على طلب الثعالبي، وقد أهدى إليه نسخة منه حسن العجيمي[٦]، إذ يبدو أنه قد أكمله بعد ذلك، وله أيضًا «مقاليد الأسانيد» ذكر فيه شيوخه المالكيين[٧]، وله أيضًا «أسماء رواة الإمام أبي

---

(١) المصدر السابق، ص٤٢٠ - ٤٢٢.

(٢) وقد هنأه العياشي بقصيدة عندما ولد له أحد أولاده. انظر: العياشي: ماء الموائد، ص٤٢٨.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص٢٤٠ - ٢٤٢.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٦٥؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٨٥.

(٥) المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص٢٤٣؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٨٤.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤٢٢ - ٤٢٣، ٤٢٧.

(٧) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٨٣.

حنيفة»، «وفهرست البابلي» .[١]

ياسين محمد بن غرس الدين الخليلي:

وصفه العياشي بالشيخ، الفقيه، الخطيب، الأديب، كان أحد خطباء المسجد الحرام وأئمته ومُدرِّسيه[٢]. وذكر المحبي أنه كان من المتمكنين في الفقه والحديث[٣]. وأضاف القادري أنه كان خطيبًا في المدينة المنورة.[٤]

تحدث العياشي عن نشأته فذكر أن أصله من بلدة الخليل[٥]، وأن عمه العالم غرس الدين الخليلي قد رباه يتيمًا، واستوطن معه في المدينة المنورة وتولى عمه فيها عدة وظائف من إمامة وخطابة وتدريس، وقرأ الشيخ ياسين على عمه وعلى غيره من مشايخ عصره، ثم رحل لأخذ العلم في مصر والشام، ولما توفي عمه في المدينة المنورة تولى وظائفه، وعُرِفت عنه المروءة والحشمة والديانة، وأثنى عليه العياشي قائلًا: «أقرب من رأيت من أرباب الوظائف المتمسك بالهداية، وأبعدهم عن أسباب الغواية».

لقيه العياشي أولًا في مكة المكرمة عندما قدم إليها للحج والمجاورة، فقرأ عليه العربية وبعض السير، وكتب له العياشي في أول لقاء به بيتين من الشعر، وأشار إلى أن الشيخ ياسين يقرض الشعر، ولكنه لم يسجل شيئًا عنه.

وكان الشيخ ياسين يُدرِّس في المدينة المنورة صحيح البخاري والشفا

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص٢٤٣؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٨٤.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢٤.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٤٩٣.

(٤) القادري: التقاط الدرر، ص٢٤٥، ترجمة رقم ٣٦٩.

(٥) «الخليل» إحدى مدن فلسطين المحتلة.

للقاضي عياض وإحياء علوم الدين للغزالي. وقد أجاز العياشي إجازة عامة.[١]

لم يحدد المؤرخون سنة مولده، وحددوا سنة وفاته في يوم السبت ٢ ربيع الآخر عام ١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م[٢]، وترك مصنفات مفيدة منها: «شرح على ألفية السيرة» لأبي الفضل زين العراقي في سِفْرين[٣]، وكتاب «التذكرة»[٤]، و«شرح رياض الصالحين» للنووي لم يكمله.[٥]

الشيخ إبراهيم ابن الشيخ خير الدين:

أبو سالم إبراهيم بن عبدالرحمن بن علي بن موسى بن خضر الخياري المدني الشافعي[٦]، حلَّاه العياشي والمحبي بالعديد من الصفات الدالة على علو قدره.[٧]

ولد يوم الثلاثاء الثالث من شوال عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م[٨]، لقيه العياشي في المدينة المنورة، وكان على درجة عالية من العلم على الرغم من حداثة سنه، وذكر العياشي أن والده كان من مدرسي القاهرة وعلمائها، رحل إلى الحرمين للمجاورة عام ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م، وكان من الأدباء والشعراء، ألَّف قصيدة في مدح الرسول ﷺ عند وصوله إلى المدينة المنورة، ثم استقر فيها ولم يخرج منها إلا إلى مكة المكرمة للحج، وتوفي في المدينة المنورة عام ١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢٤.
(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٤٩٣.
(٣) المصدر السابق والجزء والصفحة.
(٤) القادري: التقاط الدرر، ص٢٤٥.
(٥) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٤٩٣.
(٦) العياشي: اقتفاء الأثر، ص٢٠؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٥.
(٧) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢٥؛ العياشي: اقتفاء الأثر، ص٢٠.
(٨) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٦.

وكان خلال إقامته فيها ذا حشمة، وحرمة، ولم يلبث أن أصبح من خيار أهلها المعدودين، وتولى فيها المناصب من إمامة وخطابة وتدريس، وعندما توفي حل ابنه إبراهيم مكانه في جميع وظائفه على الرغم من حداثة سنه، إذ ساعدته حماسة الشباب على بلوغ أرفع المناصب، وغلب وقاره على طيش الشباب، كما أخذ عن علماء عصره الأكابر.

اجتمع به العياشي أول مرة عام ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م في منزله وأخذ عنه وأجازه إجازة عامة، وأشار إلى أن له شعرًا ونثرًا رائقين، منه ما قاله في مدح الرسول ﷺ، ومنه قصائد في مدح أمراء مكة المكرمة أورد العياشي بعضًا منها.[١]

وأضاف المحبي أنه رحل إلى مصر عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م وعاد، ونلمح من ترجمة المحبي له أن مضايقات حدثت له نتج عنها خروجه من المدينة المنورة إلى آسيا الصغرى، وأثناءها ألَّف رحلته، ودخل الشام في ٢٨ صفر عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م، وانتشر صيته فيها، ثم عاد إلى المدينة المنورة وعكف على التدريس والتأليف إلى أن توفي ليلة الاثنين الثاني من رجب عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م ودفن في البقيع، وكانت وفاته فجأة وقيل: إنه سُمَّ. ترك العديد من المؤلفات أشهرها رحلته المسماة «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء».[٢]

بدر الدين الهندي:

من العلماء الذين أهمل مؤرخو المشرق الترجمة لهم، وحُفِظت سيرته وما كان عليه من علو المكانة في رحلة العياشي، ومن ثم نقل مؤرخو المغرب

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢٥، ٣٢٧؛ القادري: التقاط الدرر، ص٣٦. وهو في ترجمته هذه عالة على العياشي.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٥ - ٢٦.

منها.[١]

أثنى عليه العياشي كثيرًا، وذكر أنه ترك بلده الهند ومركزه بين علمائها وخلَّف ممتلكاته وأولاده هناك لرغبته في المجاورة بالمدينة المنورة، ونشر العلم فيها.[٢]

ولا شك أن العياشي خالطه مدة مجاورته وخَبِرَ أحواله وطباعه وأخلاقه، فمن ذلك إشارته إلى أنه كان بارعًا في اللغة الهندية ويحسن التكلم بالعربية، متواضعًا، إذ كثيرًا ما كان يراه يكنس المسجد النبوي مع خدمه، ولا يستنكف عن ذلك، ولم يمنع كثرة ثناء العياشي عليه من بيان خصلة فيه لم تعجبه، وهي قصوره في اللغة العربية، إذ كان يحدث أن تجري على لسانه بعض أخطاء لغوية يستحي العياشي من تنبيهه إليها، ولكن عندما حانت له فرصة مراجعته لم يقبل منه ذلك.

قدم الشيخ بدر الدين الهندي المدينة المنورة عام ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م، ومكث فيها لا يخرج منها إلا إلى الحج، وأقبل على نشر العلم، فأفاد بعلمه أناسًا وانتفع بعلمه آخرون، ولحظ عليه العياشي اعتناءه بالرواية أكثر من الدراية، إذ رأى أن الاشتغال بها قصور، وعلل العياشي ميله هذا بأنه حال علماء العجم

---

(١) وهذه من مميزات الرحلات المغربية التي حفظت لنا سير بعض أعلام الحجاز الذين أهملت كتب التراجم المشرقية الترجمة لهم، ولولا ما دوَّنه أمثال هؤلاء الرحالة لما تمكنا من التعرف عليهم أو حتى العلم بوجودهم، وإنما وجدناها في كتب الرحلات، وبعض كتب التراجم المغربية التي نقلت عن مثل هذه الرحلات، فاستطعنا معرفة أحوال بعض علماء المشرق مما وجد في كتب علماء المغرب، وهذا يؤكد أهمية كتب الرحلات المغربية ووجوب اعتمادها لكونها مصدرًا مهمًا من مصادر تاريخ الحجاز في ذلك الوقت.

(٢) القادري: التقاط الدرر، ص١١٧، ترجمة رقم ٢٦٩؛ القادري: نشر المثاني، ج٢، ص١٥١ - ١٥٢.

جميعًا.

كما ذكر العياشي أن الشيخ بدر الدين كان مواظبًا على مكانٍ واحد لإلقاء دروسه في الروضة الشريفة التي يستقبلها بوجهه، وقد انتهج الشيخ طريقة تدريسٍ تعد الآن من الطرق الحديثة للتعليم، إذ كان يلقي دروسه على طلابه بأحسن طريقة، ويبالغ في التوضيح بالأمثلة وكشف العلل، وهو خلال ذلك يشد انتباه طلابه بإلقاء أسئلة جوهرية يحفزهم فيها على إعمال العقل وعدم الاقتصار على التلقي فقط، وعند عجزهم عن الإجابة يبادر إلى شرحها وتفنيد عللها ومشكلاتها، إضافة إلى أنه عند بدء دروسه كل يوم يُقوِّم تحصيلهم عن درس الأمس، وذلك بطرح الأسئلة لمعرفة مدى استيعابهم(١). وهو بذلك جمع بين الطريقة القديمة للتعليم وهي طريقة المحاضرة، وطريقتي الأسئلة والمناقشة الحديثتين.(٢)

وهذه الطريقة هي إحدى طرق الاختبارات التحصيلية الحديثة التي تُمكِّن المعلم من أخذ صورة دقيقة عن قدرة تلاميذه في التعبير وإصدار الحكم وسرعة التفكير والفهم، والربط بين المعلومات واستخلاص النتائج وإصدار الأحكام عليها، وهذا كله من صفات المعلم الناجح.(٣)

وعلى العموم فقد شهد له العياشي بأنه لم يلق في البلاد المشرقية كلها مَنْ هو أقوى منه عارضة في علوم المناظرة وتقريرها. ومن مؤلفاته التي أشار

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٢٩ - ٣٣٠، ٣٣٢.

(٢) د. محمد عبدالعليم مرسي: المعلم والمناهج - وطرق التدريس، ص٣٦، ٤٦، ١٨٣، ١٩١، ٢٠٠، الرياض، ط١، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٣) د. عبداللطيف بن حسين فرج: المناهج - أسسها - محتواها - أنواعها - أهدافها - تقويمها، ص٣٤٩، مكة المكرمة، مطابع الصفا، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

إليها العياشي «شرح على الشفا للقاضي عياض».[١]

الشيخ عبدالعزيز الزمزمي:

عبدالعزيز بن محمد بن عبدالعزيز بن علي بن عبدالعزيز بن عبدالسلام بن موسى بن أبي بكر بن أكبر بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن داود البيضاوي الشيرازي الأصل المكي الزمزمي[٢]، المولود عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.[٣]

حرص العياشي على لقائه والأخذ عنه في حجته الثانية، ولكنه لم يتمكن لضيق الوقت، كان رئيس المؤذنين في الحرم المكي، وكذلك ابنه عبدالسلام، وذكر أن لهم كرامات عديدة.[٤]

توسع المحبي في الترجمة له ولأسرته فذكر أن جده علي بن محمد قدم مكة المكرمة عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م واتصل برئيس المؤذنين في ذلك الوقت وحظي عنده، فزوجه ابنته ونزل له عن رئاسة التوقيت، وتكاثرت أسرته في مكة المكرمة، وأضاف أن الشيخ عبدالعزيز شافعي المذهب وإمام كبير، أخذ العلم عن أكابر علماء عصره، وصارت له رئاسة الشافعية، وبرع في العلوم وخاصة الفقه، وصار عمدة المفتين، وطار صيته وانتشر ذكره، توفي ليلة الأحد لثمان بقين من جمادى الأولى عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م بعد أن انتفع بعلمه أناس كثيرون، وترك مؤلفات كثيرة من جملتها: «كتابات على التحفة» التي ألفها جده أحمد بن حجر المكي، والتي تدل على سعة اطلاعه وغزارة علمه[٥]. وله أيضًا

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٣٠، ٣٣٢، ٤٩٨.

(٢) الزمزمي هو القائم بأعمال سقاية الحجاج.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص٤٢٦ - ٤٢٧.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٤٩ - ٣٥٠.

(٥) المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص٤٢٦ - ٤٢٧.

كتاب يسمى «السفينة».[١]

محمد بن سليمان الروداني:

عالم فذٌّ قُدِّر له العيش في عصر ليس عصره، ملأ حياته بكثير من الجوانب الإيجابية المضيئة، فكريًا ودينيًا، كان فرد عصره، وعلمًا من أعلام الثقافة الإسلامية الحقة، وقد نال الروداني كثير من الإهمال والغبن والغمط في حق نبوغه المتميز الذي سما به على كل معاصريه، ممن لا يرقون إلى درجة علمه، وعلى الرغم من ذلك نالوا ما لم ينله.[٢]

وهو محمد[٣] بن سليمان بن الفاسي اسمًا ابن طاهر السوسي الروداني المغربي المالكي نزيل الحرمين الشريفين، ولد عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م في تارودانت[٤] إحدى قرى السوس الأقصى.[٥]

أضفى عليه المحبي جميل الصفات، منها: الإمام الجليل، المحدث،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) أحمد بو زيد: محمد بن سليمان الروداني من أعلام المغرب في القرن الحادي عشر الهجري، ص٧، منشورات عكاظ. د.ت، ولمزيد من المعلومات القيمة عن هذه الشخصية الفذة العالمة انظر هذا المرجع.

(٣) ذكر الهيلة أن كون اسمه محمد بن محمد يعدُّ وَهَمًا من المترجمين فهو محمد بن سليمان فقط كما كتبه هو بنفسه في إجازة له بخطه. انظر: محمد الحبيب الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر «جمع وعرض وتعريف»، ص٣٥٨، هامش رقم (١)، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، فرع موسوعة مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٤م.

(٤) «تارودانت» إحدى دوائر عماله أكادير، كانت عاصمة سوس، وتعرف قديمًا باسم (Vala). انظر: بنعبدالله: الموسوعة المغربية، ملحق ٢، ص١٢٥. أحمد بو زيد: محمد بن سليمان الروداني، ص٥.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥١؛ المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٣٠٤.

فرد الدنيا في العلوم كلها[1]. وحلّاه القادري بالشيخ العالم حكيم الفقهاء، أبي النبهاء[2]. ووصفه العياشي بحكيم الإسلام، وأحد العلماء الأعلام المتوقد فطنةً والمتوهج ذكاءً، الممتلئ حكمة وإيمانًا، المتفنن في علوم كثيرة، والمتحلي بمحاسن الأوصاف.[3]

تلقى العلم في موطنه أولًا، وهناك أتقن التفسير والحديث والفقه والتصوف من خلال تنقلاته بين أمهات مدن المغرب، لزم الشيخ محمد بن ناصر الدرعي أربع سنوات، ثم دخل إلى الجزائر ومصر ورحل إلى إستنبول[4]، ومنها عاد إلى مصر، ومنها إلى الحجاز عن طريق الصعيد، فحج واستوطن المدينة المنورة، ولم يخالط أحدًا فيها، وانفرد في بيت برباط السلطان قايتباي، وتعاطى خلال مدة وجوده أسباب معاشه بيده.[5]

أما المحبي فذكر أنه جاور في مكة المكرمة سنين عديدة، كان أثناءها منهمكًا في التصنيف والتدريس، ثم توجه إلى إستنبول عام ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م ومكث فيها سنة عاد بعدها إلى مكة المكرمة، وفيها حصلت له رئاسة لم يعهد مثلها لأحد قبله أو بعده إذ فُوِّض إليه أمر النظر في أمور الحرمين الشريفين، بل وأمور العامة والخاصة من الناس، لدرجة أن أمير مكة المكرمة الشريف

(١) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٢٠٤.
(٢) القادري: نشر المثاني، ج٢، ص٣١٤.
(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥١.
(٤) دخوله إلى إستنبول هذه المرة لم يذكره إلا العياشي، إذ ذُكِر له أنه لم يوفق في رحلته هذه بسبب معرفته لأحد الأشخاص المدعين للعلم، فنسب هذا الشخص لنفسه مؤلفًا للشيخ الروداني ثم حاول الفتك به، فخرج بعدها متخفيًا خوفًا على حياته إلى مصر. انظر: العياشي: ماء الموائد، ص٣٥١.
(٥) انفرد العياشي بذكر هذه المعلومة. انظر: العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٤.

بركات[1] كان لا يبرم أمرًا إلا بموافقته، ثم لم يلبث أن تغير حاله، إذ ورد مرسوم من إستنبول عام ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م يقضي بإخراجه منها بسبب وشايات حاقدة أدت إلى سوء تفاهم بينه وبين أمير مكة المكرمة[2]، فخرج إلى دمشق بعد أن أدى فريضة الحج، وانقطع فيها منكبًا على تأليف كتابه «الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ» على طريقة ابن الأثير في جامع الأصول إلا أنه استوعب الروايات من الكتب الستة ولم يختصر، ودلل المحبي على دقته وغزارة علمه في كتابه «مختصر التحرير في أصول الحنفية لابن الهمام». كما أشار إلى إتقانه لصناعة آلة توقيت قام باختراعها وانتشرت وقتئذ في الحجاز واليمن والهند[3]، وقد أهدى العياشي واحدة منها، وأراه كيفية صنعها، فقد كان الروداني يتكسب من بيعها بثمن غالٍ، وعلى الرغم من غلاء سعرها تهافت الناس إلى شرائها.[4]

امتدح المحبي سعة علم الروداني وتعدد العلوم التي يتقنها من حديث، وأصول، وأدب، وحكمة، ومنطق، وطبيعة، وإلـهيات، ورياضيات، وهيئة، ومخروطات، ومتوسطات، وحساب، ومقابلة، وموسيقى، ومساحة، وعربية، وتفسير، وأسماء رجال، وتاريخ، وأيام العرب، وشعر، كما أتقن العلوم الغريبة كالرمل، والأوفاق، والحروف، والسيمياء، والكيمياء التي كان حاذقًا فيها، وهو في كل ما يعرفه من العلوم بلغ الغاية، ووصفه بالأستاذ الذي لا تنال مرتبته، العارف بدقائقها ذي اليد الطولى في كل ما يعرف، وقد أخذ عنه خلق كثير في مكة المكرمة والمدينة المنورة وآسيا الصغرى، ومدحه كثيرون وأثنوا عليه، وفي

---

(١) هو الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نمي، تولى أمر مكة المكرمة عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م وحمدت سيرته، توفي عام ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م في مكة المكرمة. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٤٣٦ - ٤٥٠.

(٢) بو زيد: محمد بن سليمان الروداني، ص٤٨.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٢٠٥ - ٢٠٦.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٨.

المقابل كان هناك مَنْ تغاضى عن ذكر محاسنه.[١]

ولأن العياشي صاحَبَه مدة وجوده في المدينة المنورة فقد ذكر أنه في تلك المدة آثر الانطواء في خلوته برباط السلطان قايتباي وعدم مخالطته لأحد إلا نادرًا، وأنه كان يعيش من كسب يده، ويترفع عن كل أمر يحس أنه يخالطه أمر مخالف للشريعة، وأنه كان هناك من يحسده ويكيد له إلى أن استطاعوا إخراجه من المدينة المنورة، وأنه كان يقوم بكنس المسجد النبوي، ويرفض الجلوس للتدريس فيه متعللًا بقوله: «كيف أجلس لقوم أعلم حالهم؟!»، وتعلل أيضًا بفساد الوقت وشيوع المنكر، مع عدم قدرته على إزالته من لبسٍ للحرير وشرب للدخان وتعاطٍ للربا، وعندما أتته المقدرة على إزالة البدع والمنكرات لم يتوان عن ذلك.[٢]

وقد دُهش العياشي من قدرته العجيبة على إتقان جميع الصناعات اليدوية الدقيقة كالتطريز والصياغة وصناعة الزجاج وتسفير الكتب والخرازة.[٣]

توفي الروداني في دمشق يوم الأحد العاشر من ذي القعدة عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢م، وترك العديد من المؤلفات منها: «كتاب الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ» و«مختصر التحرير في أصول الحنفية لابن الهمام وشرحه»، و«مختصر تلخيص المفتاح وشرحه»، و«مختصر في الهيئة» و«الحاشية على التسهيل»، و«الحاشية على التوضيح»، و«منظومة في علم التوقيت وشرحها»، و«جدول جامع لمسائل العروض كلها»، واختراعه لآلة التوقيت وألَّف في

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٢٠٧؛ الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) السنجاري: منائح الكرم، ص١١٦٩، ١١٨٠، ١٢٥٠، ١٢٥٦. تحقيق ماجدة زكريا.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٥٤ - ٣٥٥.

وصفها وكيفية صناعتها وضبطها مؤلفًا شاهده العياشي.[١]

حسن البري:

أهمل مؤرخو الحجاز الترجمة له، وكل ما نعرفه عنه هو ما أثبته العياشي في رحلته، فقد وصفه بالشاب الظريف، مُدرِّس المالكية في المسجد النبوي، أصله من الصعيد، أخذ علمه فيها ثم دخل مصر ولم تطل إقامته، قدم المدينة المنورة واستوطنها وقدَّمه أهلها لتدريس الفقه المالكي لخلوها في ذلك الوقت ممن يحسنه وجمعوا له الكتب لهذا الغرض. وقد تزوج امرأة من أهلها ورزق منها ولدان، وكان يكثر للعياشي من التشكي من عوائد نساء المدينة المنورة، وأنه لولا وجود أولاد له لما تحمل، وقد توفي ولداه أحدهما إثر الآخر وتألم لفقدهما، وقد عزَّاه العياشي بقصيدة شعرية.

ومن ضمن ما ذكره العياشي عنه أنه كان جهوري الصوت، طلق اللسان، ذا جرأة في الأمور، مع تحلِّيه بالأخلاق والطبع الحسن ولطف المعاشرة، وقد كانت له حظوة لدى الأغوات والمجاورين والواردين على المدينة المنورة.

وعلى الرغم من إعجاب العياشي به فإنه لم يتردد في نقده في عدم تمكنه من الفقه المالكي، وأنه رأى منه تغيرًا عليه عندما رأى إقبال الطلبة والتفافهم حوله إذ خشي استحواذ العياشي على مكانته، وعندما تيقن أنه لن يمكث طويلًا في المدينة المنورة عاد إلى مودته.[٢]

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٢٠٦ - ٢٠٧؛ بو زيد: محمد بن سليمان الروداني، ص٤٩ - ٥٨.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٦١؛ القادري: التقاط الدرر، ص٢٤٦، ترجمة رقم ٣٧٣. وقد أخطأ في تعريفه بالهامش إذ عرَّفه بحسن العجيمي؛ القادري: نشر المثاني، ج٢، ص٣٨٨. وقد نقل ترجمته كاملة عن العياشي.

الشيخ محمد الفزاري:

شيخ مغمور، ترجم له العياشي ووصفه بالناسك، الخاشع، العابد، المقرئ الفصيح، المتواضع، الزاهد، من أقدم المجاورين في المدينة المنورة، استوطنها أكثر من أربعين سنة، وكان أعلم مَنْ فيها بالأماكن التي تزار، أصله من منطقه في أعالي النيل.

وذكر العياشي أن له مشاركة في الفقه المالكي مع إتقانه لقراءة القرآن الكريم وتلاوته، امتهن إقراء الأطفال في مؤخرة المسجد النبوي مع عدم المشارطة على أجر معلوم، فمن دفع له أخذ ومن لم يدفع لم يطالبه، وكان الناس يتبركون به ويرون ظهور بركته على أولادهم[١]، كما تصدَّر لتعليم الغرباء القادمين آداب المجاورة والزيارة.

وأشار أيضًا إلى أنه كان يتولى وظيفة ناظر على خزانة كتب، منها كتب أُوقفت من قِبَل شخص في المغرب يدعى السيد محمد بن إسماعيل المسناوي[٢] بعث بها إلى المدينة المنورة، وقد أعاره بعض تلك الكتب، وقال العياشي: إن الشيخ الفزاري غلبت عليه العبادة، وليس له كبير اعتناء بالرواية. وقد صادق العياشي وكان كثير الإلحاح عليه ليتقدم للتدريس في المسجد النبوي.[٣]

أحمد بن محمد بن علي بن عبدالقادر المالكي المدني:

أحد الخطباء في المسجد النبوي، ومفتي المدينة المنورة على المذهب

---

(١) هذا اعتقاد غير جائز.

(٢) محمد بن إسماعيل المسناوي، كان جوالًا، حصَّل كتبًا كثيرة، مات في تكرارين عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م. أوصى بكتبه للروضة النبوية. انظر: القادري: التقاط الدرر، ص١٣٤ - ١٣٦، ترجمة رقم ٢٢٥.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٦٢.

المالكي، أصله من المغرب، هاجر أسلافه إلى المدينة المنورة، وأصبح لهم صيت وشهرة ورئاسة في العلم على المذهب المالكي، ولكن يبدو أن انتشار المذهب الحنفي وعلو شأن متَّبعيه جعل كثيرًا من أسلافه يتبعونه، ولم يبق على المذهب المالكي غير صاحب الترجمة وأخيه الخطيب عبدالرحمن. وقد وصف العياشي صاحب الترجمة بـ: صاحبنا الأديب الماهر، إذ كان على صلة به منذ حجته الأولى عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م وكان يراسله ويبعث كلٌّ منهما للآخر القصائد الشعرية. وأشار العياشي إلى أن شدة ولع الشيخ أحمد بالفلاحة ألهاه عن الاشتغال الكامل بالعلم على الرغم من فرط ذكائه وجودة قريحته، فترك أمر العلم واقتنى المزارع والرباع في العوالي، وقد عاب عليه العياشي هذا الأمر، ولم يقبل تعلله بأعمال الزراعة وإهمال العلم.[١]

الأمير يحيى بن علي باشا الأحسائي المدني الحنفي[٢]:

اكتفى العياشي من اسمه بيحيى الباشا الأحسائي الحنفي، ووصفه بصاحبنا ذي الحسب الأصيل والمجد الأثيل، النحوي الأديب الأريب، وقد أجمل في ترجمته وذكر أن أصله من مدينة الأحساء[٣]، وكان والده من أمرائها، قدم إلى المدينة المنورة واستوطنها مع أولاده، وامتلك فيها أملاكًا وعقارات، وقد نشأ صاحب الترجمة هو وإخوته في المدينة المنورة نشأة حسنة، واتجه إلى طلب العلم تاركًا الرئاسة الموروثة، ومع ذلك كان بيته في المدينة المنورة مقصدًا من الخاصة والعامة بسبب ما كان لهم من مجد ورئاسة في الأحساء لا تزال في أقاربهم، وأضاف أن له اعتناء في كثير من العلوم ولا سيما علم النحو،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٦٢. وهو من العلماء الذين أغفل مؤرخو الحجاز ذكرهم وأثبت العياشي غزارة علمه.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٤٧٥.

(٣) «الأحساء» إحدى محافظات المملكة العربية السعودية الواقعة على الخليج العربي.

وقد بادلَ مع العياشيَّ القصائد الأدبية، وتوطدت صلته به وأخذ كل منهما من الآخر.[١]

وأكد المحبي ما ذكره العياشي، وفصَّل في سبب انتقال أبيه إلى المدينة المنورة فذكر أن والده علي باشا[٢] كان واليًا على الأحساء وابنه الأمير يحيى كان نائبًا عنه على القطيف، فأرسل والده ابنه الأكبر محمدًا - كما جرت العادة - بهدية إلى السلطان العثماني، فزوَّر الابن كتابًا على لسان والده مضمونه الاعتذار عن الولاية وإقامته بدلًا عنه، فأجيب إلى ذلك، وأراد الابن حبس والده وإخوته بعد أن تمكن من الولاية، فطلبوا منه عند ذلك الانتقال إلى المدينة المنورة فوافق، وتوفي الأمير المعزول فيها، وتوفي فيها صاحب الترجمة أيضًا في ١٤ رمضان عام ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م وله من العمر خمسة وسبعون عامًا.[٣]

الشيخ إبراهيم الحجار:

من علماء مكة المكرمة الأحناف ومدرسيها، أهمل مؤرخو مكة المكرمة الإشارة إليه، صاحبه العياشي وأثنى عليه، وأشار إلى «أنه عُمَري النسب جهوري الصوت لا يكاد الإنسان يُسمِع جليسه إذا بدأ درسه، وأنه لا أحد أوفى منه صدقًا».[٤]

الشيخ علي الضرير المالكي الأحسائي:

من علماء المدينة المنورة المجاورين فيها مدة طويلة، أشار إليه العياشي وذكر أن له معرفة بالفقه المالكي، وحضر بعض دروسه، وكان يتحلى

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) لم نجد له ترجمة ضمن المصادر التي اعتمدناها ولا نعرف عنه إلا ما ذكر.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج٤، ص٤٧٥ - ٤٧٦.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٦٩.

بذكاء شديد، إذ يكاد يحفظ كل ما يسمع، وربما أنشد الشعر أحيانًا، ولكنه يفتقر إلى التحقيق والتحصيل، وهو ضرير منذ صغره، وقد شاهده العياشي يسير من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة دون قائد[١]. ويبدو أنها مبالغة من العياشي.

الشيخ محمد السوداني:

من أهل السودان، ساح في بلاد المغرب، وتلقى العلم في بعض مدنها، قدم الحجاز حاجًا واستوطن المدينة المنورة مدة طويلة كان خلالها مظنونًا فيه الصلاح، توجه إلى بغداد ودخل الكوفة وقُدِّم لتدريس الفقه المالكي لخلوها ممن يحسنه في ذلك الوقت، وحصلت له رئاسة فيها ووجاهة وتزوج هناك، ثم أصيب بالعمى وعاد بعدها إلى المدينة المنورة، وقُدِّم للتدريس فيها وكان لا يستطيع الانتقال والسير دون قائد، وعلل العياشي ذلك بأنه فَقَدَ بصره في كبره بعكس صاحب الترجمة السابقة.[٢]

محمد بن رسول الشهرزوري:

وصفه العياشي بصاحبنا الذكي، توطدت صلته به، كان من أَجَلِّ تلاميذ إبراهيم الكوراني، ومن موطنه، شاركه في الأخذ عن كثير من مشايخه، استوطن المدينة المنورة بعد شيخه الكوراني، وأدرك الشيخ القشاشي وأخذ عنه، وجلس لتدريس الفقه الشافعي في الحرم النبوي، أما مؤلفاته فقد شاهد العياشي منها رسالة له في «الانتصار لمذهب الإمام الشافعي في الجهر بالبسملة أول الفاتحة

---

(١) المصدر السابق، ص٣٦٦. وهو أيضًا من العلماء المهمل ذكرهم عند مؤرخي الحجاز، وأثبتت كتب الرحلات المغربية وجودهم، الأمر الذي يؤكد أهميتها في التأريخ للناحية العلمية في الحجاز.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٦٦.

وأنها آية منها». وقد أثنى عليها العياشي وقال: «إنها تنم عن علم غزير»، وقد أجاز كل منهما الآخر.[١]

الملا نافع العجمي:

نعته العياشي بالمفسر، شهير الصيت عند علماء العجم وأرباب الدولة والمجاورين في المدينة المنورة، كان يُخَصُّ بعطائهم وصلاتهم إذ يرون له مميزات ليست لغيره. وعندما التقاه العياشي كان شيخًا مسنًا مصابًا بشلل في رجليه ولا يستطيع المشي إلا بواسطة عكازين.

وقد لفت العياشي انتباهنا إلى أن حلقات الدرس في المسجدين الشريفين لم تكن تقتصر على اللغة العربية فقط، إذ تصدَّر علماء يتقنون اللغة التركية والفارسية للتدريس بهاتين اللغتين، وكان منهم هذا العالم الذي ذكر العياشي أنه لم يَحْضُر درسه لأنه كان يُدرِّس باللغتين التركية والفارسية فقط وهو جاهل بهما، لذا لم يُفد منه شيئًا لهذا السبب، ولكنه تقصى وسأل العارفين بهذين اللسانين عنه فأثنوا على سعة علمه وفضله.[٢]

أحمد البري الحنفي:

الخطيب أحمد بن إبراهيم بن الخطيب أحمد البري[٣]، حلَّاه العياشي بالعديد من الصفات الحسنة التي كان ضمنها مناصبه الدينية، فمن ذلك أنه كان رئيس الخطباء، وكان أديبًا بليغًا فقيهًا، وأحد أعمام الخطيب أحمد المالكي[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٦٩ - ٣٧٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٧٠؛ القادري: التقاط الدرر، ص٢٤٦، ترجمة رقم ٣٧٤. وقد نقل ترجمته كاملة من العياشي.

(٣) مؤلف مجهول: تراجم أعيان المدينة المنورة، ص٣٥.

(٤) انظر ص٥٤١.

ومن الذين انتقلوا إلى المذهب الحنفي وبلغ فيه مرتبة عالية، وكان ذا بلاغة ومنطق، اختص بإلقاء الخطب في المحافل الكبيرة، رأى العياشي من أولاده اثنين منكبين على طلب العلم وحضور مجالسه، وخاصة مجلس الشيخ بدر الدين الهندي، بالإضافة إلى حضور مجالس أبيهم في تدريس الفقه الحنفي، ارتبط فيه العياشي بصلة حسنة وأعاره بعض الكتب.(١)

أكد المحبي ما ذكره العياشي وأضاف أنه تولى منصب الإفتاء عام ١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م وناب في القضاء مرارًا، وحدد مولده في عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م ووفاته في ٢١ محرم عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م(٢)، ومن مؤلفاته: «الفتاوى البرية» قام بجمعها بعد وفاته ابنه الخطيب محمد، وذكر المحبي أنها نفيسة جدًا، وأضاف أن له شعرًا جيدًا.(٣)

الشيخ مرزا الشامي الدمشقي:

من العلماء المجاورين في المدينة المنورة المهمل ذكرهم، دمشقي الأصل، لقي عدة مشايخ وأخذ عنهم، اعتنى عناية كبيرة بجمع الكتب النادرة والغريبة، رأى العياشي بعضًا منها، وقال: «إنه لم يرها قبل ذلك»، وقد جالسه العياشي في المسجد النبوي وأثنى عليه.(٤)

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٧٠.

(٢) ذكر القادري أن وفاته ربما تكون عام ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م وأورد نسبه بأنه أحمد بن عبدالقادر البري الحنفي عم حسن البري. انظر: القادري: التقاط الدرر، ص٢٤٧، ترجمة رقم ٣٧٥، هامش (١)، وهذا خطأ منه.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٣٠.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٣٨٧.

عبدالله بن نمي العمودي اليمني:

من العلماء الذين امتدحهم العياشي كثيرًا والتقاهم وأثبت وجودهم في ذلك الوقت، في حين أغفلت المصادر المشرقية الترجمة لهم. وكان كثير العبادة والورع والاجتهاد.

وأشار العياشي إلى أنه أخذ عن كبار علماء عصره، واعتنى في آخر أمره بسماع الحديث، وكان من تلاميذه الشيخ حسن البري، وقد اعتاد على إلقاء دروسه في الروضة الشريفة بين المنبر والقبر، سمع العياشي مرة لأحد دروسه وعاب عليه فيه مساواته في الفضل والأجر بين حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه وقاتله وحشي.[١]

زين العابدين الطبري الحسيني:

زين العابدين بن عبدالقادر الطبري الحسيني المكي الشافعي[٢]، وصفه العياشي بعالم مكة المكرمة وابن علمائها، مفتي الشافعية، إمام المقام، لقيه العياشي في حجته الأخيرة في مكة المكرمة ولم يأخذ عنه لانشغاله بترميم منزله الذي تهدم بفعل الأمطار الغزيرة التي هطلت عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م وهدمت كثيرًا من المنازل ومن ضمنها منزله، بالإضافة إلى انشغالاته الأخرى، ولكنه أشار إلى أنه أخذ عنه وأجازه عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م.[٣]

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٨٨.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص١٩٥. وعائلة الطبري في مكة المكرمة من العائلات المشهورة بالعلم وبتولي أفرادها الوظائف الدينية والسياسية. الهيلة: التأريخ والمؤرخون بمكة، ص٣٤١.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٧.

أكد المحبي علو مكانته، وأضاف أنه أخذ العلم عن والده وعلماء عصره، وحدد سنة مولده في مكة المكرمة ليلة ١٨ من ذي الحجة عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م، ووفاته في يوم الاثنين ١٤ رمضان عام ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م في مكة المكرمة أيضًا ودفن في المعلاة.(١)

الشيخ أحمد بن علي باقشير:

أحمد بن علي بن عبدالرحمن بن محمد جلاخ باقشير(٢)، ذكر العياشي أنه ممن ينسب إلى العلم والصلاح، وهو ممن انتفع بكثرة أخذه عن الشيخ الثعالبي، فقد كان من أكثر الملازمين له، وأكثر أخذه عنه كان في الأصلين والمنطق، وكان العياشي يعظمه ويرى له الفضل، وقد أجاز كل منهما الآخر، وأورد العياشي أنه قد بلغه خبر وفاته عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م، وأن أصله من اليمن، وأضاف أنه كان من أعلى طبقات فقهاء الشافعية.(٣)

توسع المحبي ومرداد كثيرًا في ترجمته التي تدل على عظم مكانته، فمن ذلك نعته بالشيخ الإمام، المولود في حضرموت، حفظ القرآن الكريم وأتقن التجويد وبرع في القراءات، أخذ العلم عن علماء قطره وعلماء الحرمين الشريفين، نبغ في التوحيد والفقه والفرائض والحساب، قرأ العلوم العقلية من منطق ومعانٍ وبيان وبديع ونحو وصرف والأصلين، تزوج ابنة عمه عبدالله باقشير، وبعد أن أكمل علمه تصدر للتدريس في الحرم المكي وأخذ عنه كثيرون، انصرف للتأليف، وانفرد بعلمي الفرائض والحساب وعلم المناسخات، وحددا وفاته في ضحى يوم الخميس ١٧ ربيع الآخر في نفس العام الذي ذكره العياشي،

(١) المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص١٩٥ - ١٩٦.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٥١.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٢؛ القادري: التقاط الدرر، ص١٦٤، ترجمة رقم ٢٦٦. وهي منقولة باختصار عن العياشي.

وأضافا أنه حضر جنازته خلق كثير ودفن في المعلاة. وترك العديد من المؤلفات منها عدة رسائل لم تبيّض لا يعرف مضمونها، وله نظم كثير منها «أرجوزة في علم الفرائض والحساب وشرحها»، إذ شرحها شرحًا مطولًا، ومنها «اختصار حواشي الفهامة».[١]

عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن أبي بكر باقشير:

ذكر العياشي أنه من كبار فقهاء علماء الشافعية ومن أعلى طبقاتها، ولم يأخذ عنه شيئًا بسبب مرضه الشديد لكبر سنه أيام مجاورته، وهو عم الشيخ أحمد باقشير ووالد زوجته، وقد وصفه بغزارة العلم في الدراية.[٢]

حدد القادري مولده في عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م ووفاته في عام ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م، وأكد أنه كان من كبار فقهاء الشافعية.[٣]

توسع المحبي في الترجمة له فأشار إلى أنه من أكبر أساتذة الحجاز وعلمائه، الأديب الشاعر الماهر، كانت له حلقة درس في المسجد الحرام غصَّت بالطلبة الجاثين بين يديه، واتفق مع القادري في عام مولده ووفاته وحدد وفاته باليوم والشهر بيوم الاثنين لخمس بقين من ربيع الأول.

ومما ذكره المحبي أيضًا حفظه للقرآن الكريم وتجويده، إذ أتقن علم التجويد والقراءات ووصل إلى رتبة لم يصلها أحد من أهل عصره، فقد أخذ عن علماء عصره في مكة المكرمة والواردين عليها، كما عرف عنه شدة الذكاء وسرعة الفهم وطلاقة اللسان وخشوع القلب، وكان من العلماء الذين لا

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٢٥١ - ٢٥٢؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٧٥ - ٧٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٢.

(٣) القادري: التقاط الدرر، ص١٦٤، هامش ٤.

يأخذون أجرًا لقاء تدريسهم من الدولة، وكان كثير الوقار قليل الكلام، تلقى عنه كثيرون من أهل مكة المكرمة واليمن والشام والعراق، له كتب كثيرة، كما علق على كتب غيره، وهمَّش الهوامش، وحشَّى الحواشي، وصنف تصانيف كثيرة، منها: «مختصر الفتح»، «شرح الإرشاد» والتزم فيه بذكر خلاف التحفة والنهاية، «والمغني» لم يكمله، و«اختصار نظم عقيدة اللقاني وشرح نظمه» و«اختصار تعريف الزنجاني نظمًا» وشرحه شرحًا مفيدًا، و«نظم الحكم وشرحه»، و«نظم آداب الأكل وشرحه»، بالإضافة إلى ما له من شعر جميل.[1]

أحمد بن تاج الدين المالكي[2]:

وصفه العياشي بصاحبنا النبيه الفقيه الوجيه قاضي المالكية في مكة المكرمة، وإمام مقامهم، ووارث وظيفة أبيه[3] في القضاء والتدريس والصلاة دون إخوته على الرغم من أنه ليس أكبرهم إلا أنه رُشِّح لأهليته، وذكر أن له خُلُقًا حسنًا وطبعًا سليمًا ومروءة ووجاهة، وكان من الملازمين للشيخ الثعالبي

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص٤٢ - ٤٣.

(٢) من العلماء المكيين الذين أهمل المؤرخون الحجازيون ذكرهم على الرغم من علو قدره وشهرة والده التي يبدو أنها طغت على شهرة الابن، وقد ترجم له العياشي الأمر الذي يؤكد أهمية الرحلات المغربية بوصفها مصدرًا من مصادر تاريخ الحجاز في ذلك الوقت وخاصة لتتبع الناحية العلمية.

(٣) هو القاضي تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم بن تاج الدين بن محمد بن محمد بن تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن جمال الدين محمد بن يعقوب بن يحيى بن يحيى بن عبدالوهاب المالكي المدني ثم المكي ويعرف بابن يعقوب، ولد ونشأ في مكة المكرمة، وأخذ عن علماء عصره، من أعظم الخطباء والمدرسين والعلماء، كان أديبًا ذا كلمة مسموعة، وذا بلاغة فياضة، تصدر للتدريس في المسجد الحرام وطار صيته عند الخاصة والعامة، كان إمام الإنشاء في عصره، له ديوان إنشاء ومؤلفات عديدة وأشعار في مدح الرسول ﷺ وأمراء مكة المكرمة. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٤٥٧ - ٤٥٨؛ الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص٣٣٧ - ٣٣٨.

في حياة والده، وقد انتفع منه كثيرًا، وكان الثعالبي يرعى له حرمة والده ويُجلُّه ويكرمه لأجل ذلك.

وذكر العياشي أن له مشاركة في كثير من العلوم، وقد كتب له بخطه جملة قصائد من نظم والده الذي كان من أدباء عصره وأكبر خطبائهم، لقيه العياشي في منزله بمكة المكرمة عام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م وأخذ عنه، حدد العياشي وفاة الشيخ تاج الدين عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م تقريبًا[١]، واختلف المحبي في سنة وفاته التي حددها بثاني ربيع الأول عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م[٢]. وأغلب الظن أن ما ذكره العياشي هو الصحيح للمعاصرة.

حسن العجيمي[٣]:

نعته الجبرتي بالسند العمدة، الشيخ حسن أبو علي وأبو الأسرار وأبو البقاء بن علي بن يحيى بن عمر العجيمي المكي الحنفي[٤]. أثنى عليه العياشي ثناءً عاطرًا، ووصفه بالخليل الأصفى الذي يعجز عن مكافأته، ووصفه أيضًا بالجود والعفاف والبر والإحسان، وقد كان وقت رحلة العياشي عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م شابًا إذ أطلق عليه لقب الشاب الظريف، المشارك في العلوم الشرعية والصوفية. كما أشار إلى أنه نشأ في عبادة الله تعالى، وجُبل على محاسن الأخلاق منذ

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٥؛ القادري: نشر المثاني، ج٢، ص١٠٦.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص٤٦٤.

(٣) انظر نسبه بتوسع في الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٢٣؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص١٦٧ - ١٦٨؛ حسن العجيمي: إهداء اللطائف، ص٩.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٩٤؛ الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٢٣؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص١٦٧.

صغره[١]. وهذا الأمر أكده كل من ترجم له، ولد سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م[٢]، في حين أشار آخرون إلى أن ولادته كانت عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م.[٣]

لقد أجمع المترجمون له بمن فيهم الرحالة العياشي على علو مكانته وسعة علمه، فمن الصفات التي أطلقوها عليه الإمام الكبير، محدث الحجاز، الرحّالة، الورع، الزاهد، المسند، القدوة.[٤]

أشار العياشي إلى أنه صحب من أدرك من مشايخ الحرمين الشريفين وعلمائها وانتفع بهم، ولم يقتصر على تلقيه عنهم، إذ لا يكاد يسمع بقدوم عالم إلى الحرمين الشريفين إلا سارع بالأخذ عنه، فقد كان كما وصفه العياشي «رزق إقبالًا من المشايخ، ما رآه أحد إلا أحبه»، لذا كثرت مروياته واتسعت مسموعاته[٥]. وهذا الأمر أيضًا أكده كل من ترجم له[٦]، وكانت صلته لا تنقطع مع مشايخه الوافدين بعد عودتهم لأوطانهم، إذ أشار العياشي إلى أنه كان يتواصل معه بالمراسلات التي تحمل أخبار بلديهما، علاوة على بعث الإجازات لبعضهما والتي منها ما يصل ومنها ما يسرق في الطريق ويضيع[٧]. وعلى الرغم من عمق الصلة بينه وبين العياشي إلا أننا نجد أن مرداداً أخطأ في اسم العياشي

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٩٤.

(٢) العجيمي: إهداء اللطائف، ص١١؛ الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٢٣؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص١٦٨.

(٣) العجيمي: إهداء اللطائف، ص١١؛ الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص٣٧٠.

(٤) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص١٦٧.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٤٩٤.

(٦) العجيمي: إهداء اللطائف، ص١٢؛ الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٢٣؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص١٦٧.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص٤٩٤، ٥٤٥، ٦٢٠.

وسماه العباسي المغربي.[١]

ومن المؤلفات التي ذكرها له المترجمون «إتحاف الخِلِّ الوفي بمعرفة مكان غسل النبي ﷺ بعد وفاته وغاسله»، «واتصال الرحمات الإلهية في المسلسلات النبوية»، «إثارة ذوي النجدة لتنزيه بندر جُدة»، «إهداء اللطائف في أخبار الطائف»، «خبايا الزوايا»، وهي أشهر مؤلفاته .[٢]

رجحت وفاة العجيمي عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م، وقيل ١١١٤هـ/ ١٧٠٢م في مدينة الطائف.[٣]

أحمد الشريف المدني[٤]:

وصفه الرافعي بعالم المدينة المنورة وحَبْرها، كان يحضر أيام موسم الحج إلى مكة المكرمة ويتصدر للإفتاء على المذهب المالكي، ويبدو أنه كان من المقربين للرحالة أحمد بن محمد الدرعي، إذ أشار الرافعي إلى ملازمته إياه في حجته عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م[٥]. وقد خصه الدرعي بقوله: الأخ الصديق والخل الحقيق، السيد أحمد بن عبدالرحمن الشريف السجلماسي[٦]. وأغلب الظن أن القادري قد التقاه أيضًا إذ قال عنه: «المجاور السيد الشريف الفقيه

---

(١) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص١٧٠.

(٢) العجيمي: إهداء اللطائف، ص١٧ - ٢٣. وانظر باقي مؤلفاته في المصدر نفسه؛ الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص٣٧١ - ٣٧٦.

(٣) العجيمي: إهداء اللطائف، ص٢٤؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص١٧٣.

(٤) وهو من العلماء المجاورين الذين تولوا مناصب دينية في الحرمين الشريفين، وبالرغم من ذلك فقد أهمل المؤرخون المشارقة التنويه بهم، وأثبتت كتب الرحلات المغربية وجودهم وغزارة علمهم، الأمر الذي يؤكد أهمية الرحلات المغربية في التأريخ للناحية العلمية بالحجاز في ذلك الوقت.

(٥) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٢.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٣.

العالم العلامة، القاضي بالمدينة المشرفة منذ أربعة عشر عامًا». [١]

أحمد الغدامسي:

من العلماء الذين لا نعلم عنهم شيئًا سوى ما أورده الرافعي في رحلته، فقال عنه: «شيخ الحرم المكي، وإمام المالكية»، ووصفه بالعلامة الحائز على الفخر والاحترام، وكان من المقربين، ومن جملة معارف الرحالة أحمد الدرعي، إذ كان ملازمًا له في حجته عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م[٢]. وهو من العلماء الذين اقتصر ذكرهم على الرحلات المغربية.

أحمد الفلاني:

لا نعلم عنه إلا ما أثبته الرافعي في رحلته ووصفه بعالم المدينة المنورة، كان أدهم اللون، ذا هيئة وهيبة وحظ ووقار. [٣]

مصطفى بن فتح الله الحموي المكي الشافعي[٤]:

التقاه الدرعي في حجته عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م وأشار إلى أن له مؤلفًا في التاريخ ذكر فيه علماء القرن الحادي عشر وصلحاءه وأدباءه وملوكه وشعراءه، فقد شاهد منه سِفْرًا فيه تراجم للمحمدين، وأشار إلى أنه لم يكمله، وقد ترجم فيه لوالده، إذ يبدو أنه كانت تربطه بوالده صلة قوية، وله أيضًا رحلة إلى اليمن. [٥]

ترجم له الجبرتي قائلًا: «الإمام المحدث الإخباري»، أخذ عن علماء

(١) القادري: نسمة الآس، ص٨١، ١٠٢.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٠ - ١٤١، ١٦٢.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٣.

(٤) ذكر الجبرتي أنه كان حنفي المذهب. انظر: الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٢٥.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٨.

عصره، وسمى مؤلفه «فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر». وأرخ لوفاته بعام ١١٢٤هـ/ ١٧١٢م[١] في اليمن.[٢]

أحمد النخلي الشافعي:

سماه الدرعي محمدًا واقتصر على ذلك[٣]، أما الجبرتي فذكر أنه أحد الأئمة المشهورين ونعته بالإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد النخلي الشافعي المكي، ولد عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م في مكة المكرمة ونشأ فيها وتفقه على علماء عصره، توفي في مكة المكرمة عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م.[٤]

أبو محمد عبدالله بن سالم[٥] بن محمد بن سالم البصري الشافعي:

اقتصر الدرعي على ذكر اسمه ضمن العلماء الذين التقاهم في مكة المكرمة، وأخذ منهم الإجازات، وكل ما قاله عنه إنه: «مكي المولد بصري المنشأ».[٦]

حلَّاه الجبرتي بالشيخ الإمام، خاتمة المحدثين، المولود في مكة المكرمة يوم الأربعاء رابع شعبان سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م، وقيل عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م[٧]، البصري المنشأ، تلقى العلم عن كبار علماء عصره،

---

(١) الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٢٥.

(٢) الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص٣٨٣. وذكر أنه توفي عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٨، ١٩٠.

(٤) الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٣٤؛ الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص٣٨٧ - ٣٨٨.

(٥) أضاف الجبرتي بعد جده سالم جدًا آخر سماه عيسى، انظر: الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٣٢.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٨ - ٢٠٩، ١٨٩.

(٧) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٢٩١ - ٢٩٢.

المتوفى يوم الاثنين رابع رجب سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م عن أربع وثمانين سنة ودفن في المعلاة[١]. خلف مؤلفات منها: «شرح على صحيح البخاري» لم يكمله، «رسائل في ختم البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك»، «رسائل الأوائل».[٢]

محمد تاج الدين مفتي الحنفية:

اكتفى الدرعي بذكر اسمه، وعدَّد له من الأبناء عبدالمحسن وعبدالمنعم، وابنًا آخر لم يسمه كان خطيبًا في المسجد الحرام[٣]. وأغلب الظن أن اسمه عبدالوهاب.[٤]

وصفه مرداد بالقاضي المالكي المكي، الإمام والخطيب في المسجد الحرام، توفي ثامن رجب عام ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م، وأشار إلى قدم بيتهم في القضاء والإفتاء، وأضاف أن ابنه جمع لوالده كتابًا في الفتوى سماه «تاج المجاميع».[٥]

عبدالقادر بن أبي بكر مفتي الحنفية:

أشار الدرعي إلى اسمه فقط، وأنه كان يتولى منصب الفتوى عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م[٦]، كنَّاه مرداد بأبي الفرج محيي الدين عبدالقادر الصديقي ابن الشيخ أبي بكر الحنفي المكي مفتي مكة المكرمة وشيخ الإسلام فيها، ولد

(١) الجبرتي: تاريخ الجبرتي، ج١، ص١٣٢.

(٢) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٢٩١ - ٢٩٢؛ الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص٣٨٨ - ٣٨٩.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩، ٢٠٨.

(٤) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج٢، ص٥٨٥.

(٥) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص١١٤، ترجمة رقم ٤٦٢.

(٦) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٨.

فيها عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م، أخذ العلم عن علمائها والوافدين عليها، ونبغ واشتهر وتقلد وظائف كثيرة، توفي في مكة المكرمة ليلة الأربعاء ١٨ محرم عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م ودفن في المعلاة.

خلَّف العديد من المؤلفات منها: «تبيان الحكم بالنصوص الدالة على الشرف من الأمم» في مجلد صغير، وكتاب «قطع الجدال بتحقيق مسألة الاستبدال»، «وتحقيق البيان في حكم صدق رمضان»، «والتذكرة الفقهية»، «والتذكرة المنثورة» في مجلد، «والتذكرة الأدبية» في مجلد.[١]

وما ذكره الدرعي ومرداد أكده الطبري، وأضاف أن ابنه يحيى تقلد بعده منصب الفتوى.[٢]

أحمد بن موسى المرعشي:

شيخ الفراشين في الحرم النبوي، ارتبط مع الدرعي برابطة قوية هو وأولاده، وتعرف على إخوته إبراهيم وخليل ومصطفى وحسن ومحمد وأبي بكر.[٣]

ترجم الأنصاري لهذا الشيخ وأبنائه فذكر أن أول من قدم منهم المدينة المنورة موسى بن خليل المرعشي[٤] عام ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م، وكان رجلاً صالحًا مباركًا، تولى مشيخة الفراشين التي ما زالت في أولاده، توفي عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م، وخلف أولادًا وبناتٍ بلغوا نحو الثمانين، وأضاف زيادة

(١) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٢٦٤ - ٢٦٧، ترجمة رقم ٢٨٩.

(٢) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج٢، ص٥٩٦.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٩ - ١٠.

(٤) «مرعش» بالفتح مدينة من الثغور الشامية على حدود آسيا الصغرى. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٠٧.

على ما قاله الدرعي في أسماء أبنائه إبراهيم، وذكر أن أغلبهم تولوا مشيخة الفراشين.[١]

الشيخ أحمد الأنصاري:

لم يزد الدرعي على قوله: إنه من الأماثل والسادات الأفاضل[٢]. وذكر الأنصاري أنه أحمد بن يوسف الأنصاري، ولد في عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م، برع في الحديث، جلس للتدريس في المسجد النبوي وخطب وأمَّ في المحراب النبوي، توفي عام ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م.[٣]

عبدالكريم بن عبدالله الخليفتي العباسي:

الشيخ عبدالكريم بن عبدالله بن عبدالوهاب بن أحمد بن عبدالوهاب الخليفتي العباسي، ولد عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م، فالأنصاري ذكر أن أقدم من جاور منهم في المدينة المنورة الشيخ عبدالوهاب عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م، وقد عرف بالفضل والعلم، ترك مؤلفات كثيرة ورسائل عديدة، تولى منصب الفتوى والإمامة والخطابة في المدينة المنورة، وتوفي فيها فجأة عام ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م.[٤]

نعته الدرعي بالسيد الأمجد الشيخ الإمام والخطيب في مسجد رسول الله ﷺ، وقد بادله الشعر والإجازات العلمية.[٥]

(١) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٤٣٩ - ٤٤٢.
(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٢.
(٣) الأنصاري: تحفة المحبين، ص١٩.
(٤) المصدر السابق، ص٢٠١ - ٢٠٢.
(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٢ - ٤٣.

أبو طاهر محمد بن إبراهيم بن حسن المدني الشافعي الشهير بالكوراني:

اكتفى الدرعي بإيراد اسمه ضمن العلماء الذين التقاهم في المدينة المنورة[١]، وتوسع المرادي في التعريف به وأضفى عليه جميل الصفات منها: «الشيخ، الإمام، العالم، الفقيه، جمال الدين»، وحدد مولده في المدينة المنورة في ١١ رجب، وقيل ٢١ رجب عام ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م، تلقى العلم على يد والده وأكابر علماء عصره، فبرع واشتهر بالذكاء وكثرة التدريس، فعم نفعه وتولى إفتاء الشافعية في المدينة المنورة مدة، وتوفي فيها ودفن بالبقيع في ٩ رمضان عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م، ترك مؤلفات عديدة، منها أجوبة عن مسائل فقهية كانت ترد له من اليمن[٢]، وأضاف الكتاني بأنه ممن عرف بكثرة النسخ بيده حتى قيل: إنه أكمل نسخ نحو سبعين مجلدًا بيده، كما كان له باع طويل في علم الحديث ومصطلحه، وعلم الأصول، حتى أُطلق عليه مسند المدينة المنورة والحرمين الشريفين ومُحدِّثها، كما عرف بالتواضع والدين.[٣]

إبراهيم بن حسين بن أحمد بن محمد بن أحمد بيري[٤]:

من العلماء الذين التقاهم الدرعي عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م في المدينة المنورة، ولم يزد على قوله: «خطيب المسجد النبوي»[٥]. وأضاف مرداد أنه

---

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٢؛ المرادي: سلك الدرر، ج٤، ص٢٧؛ مؤلف مجهول: تراجم أعيان المدينة، ص١٠٤.

(٢) المرادي: سلك الدرر، ج٤، ص٢٧.

(٣) الكتاني: فهرس الفهارس، ج١، ص٤٩٤ - ٤٩٦، ترجمة رقم ٢٨٤.

(٤) لقب بلفظ بري. انظر: الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٢؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٩، ترجمة رقم ٥.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤٢.

كان مفتي مكة المكرمة وأحد فقهاء الحنفية وعلمائها المشهورين[١]، وقيل: إنه انفرد بعلم الفتوى، تلقى العلم عن علماء عصره في الحرمين الشريفين والوافدين، أتقن العربية والحديث والفقه الذي برع فيه، ولد في المدينة المنورة في ١٠٢٠هـ/ ١٦١١هـ، وتوفي يوم الأحد ١٦ شوال عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م في مكة المكرمة ودفن في المعلاة، وخلَّف الكثير من المصنفات والرسائل التي تزيد على السبعين ومنها: «شرح الموطأ برواية محمد بن الحسن، في مجلدين».[٢]

محمد الدقاق المغربي الفاسي المالكي[٣]:

أبو عبدالله شمس الدين محمد بن الطيب بن محمد بن محمد بن مرسي الشرفي الفاسي المالكي[٤]. ذكره الحضيكي من ضمن العلماء الذين التقاهم في الحرمين الشريفين، وخص سكناه في المدينة المنورة، وكذلك التقاه أبو مدين وأجازه بجميع مروياته.[٥]

قدم المدينة المنورة عام ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م[٦]، وأخذ عن علماء موطنه

---

(١) ربما كان يتولى الخطابة في المسجد النبوي أيضًا لإشارة الدرعي، الأمر الذي لم يذكره المؤرخون المشارقة.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص١٩ - ٢٠؛ مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٩٤٤.

(٣) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٥، ١٧٠؛ مؤلف مجهول: تراجم أعيان المدينة، ص٧٧، ترجمة رقم ٥١؛ المرادي: سلك الدرر، ج٤، ص٩١، ١٢٢ - ١٢٣.

(٤) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٥، ١٧٠؛ المرادي: سلك الدرر، ج٤، ص٩١.

(٥) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٥، ١٧٠.

(٦) كانت رحلة الحضيكي عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م وذكر وجود هذا الشيخ، مما يعني أنه قدم =

وعلماء الحرمين الشريفين والوافدين، كان فاضلًا ذا سكينة ووقار، له شعر حسن، توفي في المدينة المنورة عام ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م.[١]

أبو عبدالله ابن الطيب الفاسي:

من العلماء المجاورين الذين التقاهم الحضيكي عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م في المدينة المنورة، وكان رفيقًا للشيخ الدقاق[٢]، وسماه صاحب كتاب تراجم أعيان المدينة المنورة محمد بن محمد الطيب المغربي الفاسي اللغوي، ولد في فاس عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م، قدم المدينة المنورة عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م[٣]، أخذ العلم عن أكابر علماء عصره، كان عالمًا في اللغة، محققًا فاضلًا، وكان أحد شيوخ الزبيدي صاحب كتاب تاج العروس، توفي في المدينة المنورة عام ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م، له مؤلفات عديدة منها: «حاشية على القاموس»، «وشرح نظم الفصيح» في مجلدين، و«شرح على كفاية المتحفظ»، و«حاشية على الاقتراع»، و«شرح كافية ابن مالك»، و«شرح شواهد الكشاف»، و«حاشية على المطول»، وغيرها من المصنفات التي زادت على الخمسين.[٤]

أضاف المرادي أن له رحلة إلى اليمن وأن شيوخه زادوا على المئة والثمانين شيخًا، وأنه كان مدرسًا في الحرم النبوي[٥]، وقد التقاه الزبادي أيضًا

= المدينة المنورة قبل هذا التاريخ.

(١) مؤلف مجهول: تراجم أعيان المدينة، ص٧٧، ترجمة رقم ٥١؛ المرادي: سلك الدرر، ج٤، ص١٢٢ - ١٢٣.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٥.

(٣) هذا التاريخ ليس صحيحًا، فالحضيكي التقاه في المدينة المنورة عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م.

(٤) مؤلف مجهول: تراجم أعيان المدينة، ص٥٧ - ٥٨، ترجمة رقم ٣٣؛ الهيلة: التأريخ والمؤرخون بمكة، ص٤٠١ - ٤٠٢.

(٥) المرادي: سلك الدرر، ج٤، ص٩١ - ٩٤.

واكتفى بذكر اسمه فقط.[١]

محمد حياة بن إبراهيم السندي:

التقاه الحضيكي في عجالة، واكتفى بذكر اسمه الذي شكَّ فيه، أهو الهندي أم السندي؟![٢]. وكذلك التقاه الزبادي في آخر يوم له في المدينة المنورة، لذا لم يتسنَّ له الأخذ عنه، ولكنه أجازه في الكتب الستة وغيرها من مروياته ومؤلفاته، ووعده بأن يكتب له إجازة منه بأسانيدها بخطه ويبعثها إليه لاحقًا، وأثنى عليه بالخير.[٣]

لقد أثنى على هذا الشيخ كثير ممن ترجم له، ومما وصف به: العلامة، المحدث، المحقق، المدقق، المداوم على المطالعة والدرس، توفي ليلة الأربعاء ٢٦ صفر عام ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م.[٤]

أكد المرادي أنه سندي الأصل والمولد، حنفي، هاجر إلى المدينة المنورة بعد أن تلقى علمه في بلده أولًا ثم في الحرمين الشريفين، وقد وصفه بالورع والانعزال عن الخلق إلا في وقت الدرس.[٥]

أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن زكري الفاسي:

من العلماء الوافدين على الحرمين الشريفين، حلاه الغنامي بشيخنا الفقيه، العلامة، ذي التصانيف العديدة، أخذ عنه الغنامي في بدر وفي الروضة

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٦.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٥. ولا خلاف بينهما.

(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٨٤ - ١٨٥.

(٤) مؤلف مجهول: تراجم أعيان المدينة المنورة، ص٦٨؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج١، ص٣٥٦، ترجم رقم ١٥٥.

(٥) المرادي: سلك الدرر، ج٤، ص٣٤.

الشريفة، وذكر أنه شهد له بالرواية والقراءة والمصافحة، ويبدو أن صلته به كانت قوية، إذ لازمه وأخذ يسأله عن أحوال المدينة المنورة وما يوجد فيها من كتب وما ينصحه بقراءته.[١]

وأضاف القادري أنه فاسي المولد والمنشأ والوفاة، وكان في أول أمره يحترف الدباغة، ثم أقبل على العلم فبرع في النحو، والحديث، وألف عدة مؤلفات منها: «شرح ألفية السيوطي في النحو»، و«حاشية على أوضح ابن هشام إلى المفعول المطلق»، و«شرح النصيحة الكافية للشيخ زروق»، وعلق على صحيح البخاري، كما فسر بعض الآيات والسور، وألف «الفوائد المتبعة في العوائد المبتدعة»، وغيرها.[٢]

محمد بن عبدالله السجلماسي:

وصفه الغنامي بالرجل الفقيه والعالم الصالح، المجاور في الحرم الشريف سنين عديدة، وقد أوقفه على بعض آثار مكة المكرمة، ثم قدم معه المدينة المنورة عام حجه عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م[٣]، لذا فهو لا يزال على قيد الحياة إلى تلك السنة.

اختصر القادري ترجمته، وأكد أنه ممن رحل إلى المشرق بعد أن نال قسطًا من العلم في المغرب[٤]، فيكون بذلك قد أخذ عن علماء مغاربة ومشارقة.

---

(١) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٦ - ٨.
(٢) القادري: التقاط الدرر، ص٣٥٦، ترجمة رقم ٥٠٥.
(٣) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٣ - ٤.
(٤) القادري: التقاط الدرر، ص٤٣٦، ترجمة رقم ٢٩٨.

عبدالكريم بن يوسف الأنصاري الحنفي المدني المولد والمنشأ[(١)]:

التقاه أبو مدين ووصفه بالفقيه النزيه، الفهامة، وقد أجازه بجميع مروياته وكتب له الإجازة بخطه[(٢)]. وحلاه المرادي بالشيخ الفاضل، الأديب، ولد في المدينة المنورة عام ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م. تلقى العلم عن والده وعلماء عصره، وكان أحد خطباء المسجد النبوي ومدرسًا في الروضة الشريفة، وكانت له عناية بالتاريخ، حافظًا لبعض الوقائع والأخبار، متكلمًا، توفي في مكة المكرمة عام ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨م ودفن في المعلاة. ترك بعض رسائل في فنون العلم، وله تحريرات لطيفة كتبها على هوامش كتبه، وختم المرادي ترجمته بقوله: «رجل ذو وقار، تعلوه سكينة العلم والعمل والتقوى، ذو شيبة ووجه مضيء».[(٣)]

أبو بكر بن علي بن خالد الجعفري المكي مولدًا ومنشأً المدني مستقرًا:

وصفه أبو مدين بالفقيه النزيه، العلامة الشيخ، تلقى عنه ونال منه إجازة[(٤)]، ولم نجد له ترجمة في المصادر التي تناولناها، وهو من العلماء المنسيين، وأشار إليه بعض الرحالة المغاربة المعاصرين له.

سعيد بن محمد بن سنبل الشافعي:

التقاه أبو مدين، وذكر أنه كان يسكن في المروة، وقد نال منه إجازة[(٥)]، وترجم له مرداد وأضاف اسم محمد قبل سعيد، وذكر أنه اشتهر بفقيه المروة

(١) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٢٧٨، ترجمة رقم ٢٩٨.
(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧.
(٣) مؤلف مجهول: تراجم أعيان المدينة، ص٥٠، ترجمة رقم ٢٧؛ المرادي: سلك الدرر، ج٣، ص٨٠، مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٢٧٨، ترجمة رقم ٢٩٨.
(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٠ - ١٧٢، ١٩٠.
(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٣.

لسكناه فيها، وحلاه بالإمام، والشيخ، والمحدث، والفقيه، وأشار إلى إتقانه لفقه سائر المذاهب، بالإضافة إلى مهارته في علم الحديث حتى أصبح يقصد بالرحلة للأخذ عنه، تلقى العلم عن علماء عصره وتتلمذ عليه علماء أجلاء، توفي في الطائف عام ١١٧٥هـ/ ١٧٦١م، وكان يلقب بالإمام الشافعي الصغير.[١]

سالم بن عبدالله بن سالم البصري المكي الشافعي:

أخذ عنه أبو مدين في مكة المكرمة وأجازه في الكتب الستة وجميع مروياته، وقد وصفه بالعلامة، وارتبط معه بصلة قوية، وكان يمده بما يحتاج إليه من كتب طوال مدة مجاورته في مكة المكرمة.[٢]

وصفه مرداد بالإمام الجليل المحدث في الحرمين الشريفين، كان يملك مكتبة عظيمة حافلة بالكتب التي كانت مرجعًا لكل من رغب في البحث، وأضاف مرداد أنه جمع مسندات والده وسماها «الإمداد بمعرفة علو الإسناد»، وقال عنه أيضًا: «كان رجل بِرٍّ ابتنى رباطًا بمكة المكرمة وأوقفه على المحتاجين»، توفي في ٢ محرم عام ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م في مكة المكرمة ودفن في المعلاة.[٣]

عبدالوهاب بن أحمد بركات الشافعي الأحمدي:

نعته أبو مدين بشيخ الجماعة والمدرس في الحرم المكي، أخذ عنه الحديث في خلوته في مكة المكرمة[٤]. وذكر مرداد أنه كان نزيلًا في مكة المكرمة، روى عن علماء مصر والحجاز، توفي عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م وقيل

---

(١) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٤٤٢، ترجمة رقم ٥٠٠.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٠، ١٧٦.

(٣) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٢٠٢، ترجمة رقم ٢٠٥.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٩٠.

في تاسع شعبان عام ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م.[١]

أبو عبدالله محمد بن الطيب الصميلي:

وصفه الزبادي بشيخنا العلامة نزيل الحرمين الشريفين[٢].

أبو محمد عبدالله مدهر الشريف الحسيني الباعلوي اليمني الحضرمي ثم المكي. وصفه الزبادي بالشيخ المُسنِّ الشهير، وقد حصل منه على إجازة[٣]. وسماه المرادي السيد عبدالله بن علوي بن أحمد المهاجر بن عيسى بن محمد بن علي العريض بن جعفر الصادق الشهير بالحداد اليمني الشافعي، ولد ليلة الاثنين خامس صفر عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م في حضرموت، حفظ القرآن الكريم واشتغل بتحصيل العلم وأخذ عن أكابر علماء عصره، كُفَّ بصره صغيرًا، رحل إلى الحرمين الشريفين عام ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م، له مؤلفات عديدة منها: «رسالة المعاونة والمؤازرة للراغبين في طريق الآخرة»، «وإتحاف السائل بأجوبة المسائل»، بالإضافة إلى ما له من شعر ونظم جميل، أُرِّخَت وفاته في ليلة الثلاثاء لسبع خلون من ذي القعدة عام ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م.[٤]

ومن الجدير بالتنبيه أن رحلة الزبادي إلى الحرمين الشريفين كانت عام

---

(١) مرداد: المختصر من كتاب نشر النور، ص٣٣٣ - ٣٣٤، ترجمة رقم ٣٥٦.

(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٦. وهو محمد بن الطيب بن محمد بن محمد بن موسى الشرقي الفاسي المالكي الشهير بابن الطيب، وصف بالشيخ الإمام المحدث المسند اللغوي ولد في فاس عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م ونشأ فيها. أخذ عن جملة من العلماء، برع في اللغة العربية وتصدر للتدريس في المسجد النبوي. له رحلة إلى بلاد الروم والشام ومصر. له العديد من المؤلفات، أخذ عنه الجمع الغفير من العلماء. توفي في المدينة المنورة عام ١١٧٠هـ/ ١٧٥٧م ودفن في البقيع. انظر: المرادي: سلك الدرر، ج٤، ص٩١ - ٩٤.

(٣) المصدر السابق، ص٩٦ - ٩٧.

(٤) المرادي: سلك الدرر، ج٣، ص٩١ - ٩٣.

١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م، وقد التقاه في هذا التاريخ، وذلك يؤكد أنه لم يُتوفَّ في التاريخ الذي حدده المرادي، وإنما توفي بعد رحلة الزبادي، خاصة أن الزبادي يصفه بالشيخ المسن.

أما العلماء في جدة فقد ذكر العياشي منهم الشيخ عبدالقادر الشافعي، وقد أغفل بقية نسبه، وكل ما جاء لديه عنه: أنه من الأفاضل، مفتي الشافعية. وقد ذهب العياشي إلى منزله في جدة وحصلت بينهما مودة وأُلفة وتبادلا معه أبياتًا ومقطوعات شعرية، وأشار إلى أنه ليس عنده من العلم والرواية ما يرغب في أخذه.(١)

ومن الملحوظ أن المحبي المتوفى عام ١١١١هـ/ ١٦٩٩م حدد وفاة الشيخ عبدالقادر في عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م، وذكر اسمه قائلًا: «عبدالقادر بن أحمد بن محمد بن فرج الشافعي»، ووصفه بخطيب جُدة وعالمها والمقدم فيها بالعلوم الشرعية، والأخلاق النبوية، وذكر أن مولده ونشأته في جُدة، وأنه تلقى تعليمه في مكة المكرمة على يد الشيخ ابن حجر الهيتمي وغيره من علماء عصره، كما أخذ عنه علماء أفاضل، توفي يوم السبت سابع رمضان سنة ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م في جُدة ودفن فيها. ترك العديد من المؤلفات منها: «السلاح والعدة في فضل ثغر جُدة».(٢)

أما ما كتبه الشيخ عبدالقادر في مقدمة كتابه عند ذكره لتسميته فقد قال: «وسميته السلاح والعدة في تاريخ بندر جُدة»(٣). إضافة إلى أن اسم حارة المظلوم في جُدة لم تعرف إلا بعد تاريخ وفاة الشيخ عبدالقادر بستة

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص٤٣٥.

(٣) عبدالقادر بن أحمد بن فرج: السلاح والعدة في تاريخ بندر جُدة، ص٥، تحقيق وترجمة ودراسة أحمد بن عمر الزيلعي وريكس سميث، د.ت، د.ن.

وسبعين عامًا، وذلك يضعنا أمام سؤال مهم وهو هل هما شخصان؟ هذا ما نميل إليه، إذ أشار الشيخ عبدالقادر في مؤلفه عندما ذكر الأولياء المشهورين والمدفونين في جُدة الشيخ عفيف الدين عبدالله المظلوم[١]، وسُمِّي المحل والبقعة التي دفن فيها بمحلة المظلوم[٢] التي لا تزال إلى الآن تعرف بهذا الاسم.

والآن كيف يسجل حادثة لم تقع إلا بعد وفاته بما يقارب الستة والسبعين عامًا، إلا إذا كان الكتاب الذي أشار إليه المحبي لم يصل إلينا، والذي بين أيدينا الآن إنما هو كتاب آخر لأحد حفدة هذا الشيخ ونسب إلى الجد خطأً لتشابه الاسم، أو حصلت إضافات إلى كتاب الشيخ عبدالقادر مع تحريف يسير في اسم الكتاب.

محمد مخبر:

لم يلتقه العياشي، ولكنه أشار إلى أَنه من فضلاء جُدة، وممن ينتحل الأدب فيها، له أشعار عديدة سمع منها العياشي قصيدة في مدح الرسول ﷺ ذاكرًا ضمنها أعلام المدينة المنورة، وقد أوردها العياشي في رحلته.[٣]

الشيخ مصطفى:

لا نعرف عنه غير أنه كان مفتي الحنفية، له مشاركة في العلوم، كان ذا

(١) عبدالكريم خطيب المدينة المنورة، ولد عام ١١١١هـ/ ١٦٩٩م، وقتل شهيدًا في جُدة بعد فتنة الأغوات عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م وقيل ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م. انظر: الأنصاري: تحفة المحبين، ص٨٨؛ دحلان: أمراء البلد الحرام، ص٢٢١. وربما حدث تصحيف في اسمه، فقد ورد اسمه مختلفاً لدى صاحب كتاب السلاح والعدة.

(٢) عبدالقادر بن فرج: السلاح والعدة، ص٦٦.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٣.

سخاء ومروءة، تناول معه العياشي الطعام في منزله، وحصلت بينهما مودة وألفة وتبادلا الأبيات والمقطوعات الشعرية.[١]

أما العلماء الذين كانوا موجودين في الطائف فقد ذكر منهم العياشي الشيخ عبدالعزيز بن حسن بن عيسى التواتي، وهو من العلماء الذين أغفل مؤرخو الحجاز ذكرهم على الرغم من أنه كان يُعدُّ من أعلام علماء علم القراءات، التقاه العياشي ووصفه برئيس المقرئين، وأستاذ المجودين، الذي لا يشاركه أحد في تحقيق فن القراءة في أرض الحجاز غيره، ولا يجهل عند الخاصة والعامة من أهل تلك الديار أمره، وقد نزل العياشي عليه ضيفًا في داره بالطائف طوال مدة إقامته فيها[٢]. وترجم له ترجمة واسعة ملخصها أن أصله من المغرب من بلاد أوكرت من بلاد تيجوران، وشهرته التواتي، وقد جال هذا الشيخ في بلاد المغرب وقرأ على كثير من علمائها، ثم رحل إلى المشرق بعد عام الأربعين والألف ودخل القاهرة، وأتقن القراءة على مقرئها الشيخ سلطان[٣] الذي منحه إجازة، ثم انتقل إلى الحجاز وحج واستوطن الطائف وتزوج امرأة من أهلها ورزق منها عدة أولاد، وكان مواظبًا على الحج سنويًا، وختم العياشي كلامه عنه بقوله: «إنه لم يلق بالطائف من ينسب إلى العلم والصلاح غيره».[٤]

ومما سبق نجد أن الحجاز في خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين كان مليئًا بالعلماء الأعلام الذين كان لبعضهم مشاركات في علوم عدة،

---

(١) المصدر السابق، ص٤٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص٤١١.

(٣) سلطان بن أحمد بن سلامة بن إسماعيل، أبو العزائم المزاحي المصري الأزهري الشافعي شيخ القراء بالقاهرة على الإطلاق ومرجع الفقهاء بالاتفاق، ولد سنة ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م وتوفي ليلة الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م في مصر. انظر: المحبي: خلاصة الأثر، ج٢، ص٢١٠ - ٢١١.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٣.

ومن يمكن أن نطلق عليهم العلماء المتعددي المعرفة بل حتى المخترعين، وأن من بين هؤلاء العلماء من أهمل مؤرخو الحجاز ذكرهم، وأثبتت كتب الرحلات المغربية وجودهم، الأمر الذي يؤكد أهمية هذه الكتب في التأريخ للحجاز وخاصة من الناحية العلمية في ذلك الوقت، كما لحظ أن مؤرخي الحجاز أخطؤوا في التأريخ لوفاة بعض العلماء، وصحح من كتب الرحلات المغربية، كما لحظ أنه كان في الحجاز في ذلك العصر عدد كبير من العلماء ذوي الأصل المغربي قدموا إما للمجاورة أو الاستقرار، وهو ما يشير إلى عمق العلاقات والصلات الثقافية والعلمية بين الحجاز والمغرب.

ونحن هنا نؤكد - كما أكد الشوكاني سابقًا - أن القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين حفلا بالعديد من العلماء الأفذاذ، وإن غلبت على بعضهم النزعة الصوفية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، إذ كانت سمة ذلك العصر التي لم ينج من الدوران في فلكها حتى أولئك العلماء الأفاضل الذين كان لهم فضلهم وعلمهم، وإن ما أثبتناه من حالهم لا يعني القبول باتجاهاتهم وأفكارهم، ولكننا أثبتناه للأمانة العلمية، ولنعطي صورة واضحة عما كانت عليه الحالة الفكرية لأهل ذلك العصر.

كما أننا لم نكن نتصور أن نجد هذا القدر الهائل من العلماء الذين اقتصرنا على ذكر من ورد ذكرهم في الرحلات المغربية فقط، إضافة إلى تأكدنا من أن الحرمين الشريفين كانا جامعتين مشرعتي الأبواب لتدريس جميع أنواع العلوم بجميع اللغات، وأن المتصدر للتدريس لا بد أن يكون مجازًا وذا أهلية علمية أوصلته للجلوس للتعليم، كما قام الحرمان الشريفان بمهمتها في هذا المجال خير قيام. ولم نلحظ أثر المدارس، إذ لم يشر الرحالة المغاربة إليها إشارات واضحة بعكس إشاراتهم إلى المسجدين المكي والمدني وبعض المساجد المشهورة كمسجد قباء في المدينة المنورة ومسجد ابن عباس في الطائف.

الفصل السّابع

المشاهد العمرانية والآثار في الحجاز من خلال كتب الرّحلات المغربيّة

- المسجد الحرام ومساجد مكة المكرمة
- المسجد النبوي ومساجد المدينة المنورة
- مساجد المدن الحجازية الأخرى
- المساجد في درب الحجاز
- المنشآت المعمارية الأخرى



المشاهِد العمرانية والآثار في الحِجَاز من خِلال كتب الرّحَلات المغربيّة

العمارة:

لا بد لكل حضارة من معالم تدل عليها، وأبرز شيء يدل على عظم حضارة ما ورفاهيتها أو قلة شأنها ما خلفته من آثار معمارية متناسبة مع ثقافة ذلك المجتمع وبيئته.

والحق أن بعض محاولات تعريف العمارة قد اصطبغت بالتعقيد والتعمق وأصبحت غير واضحة، مع أن تعريف العمارة سهل في حد ذاته، ويمكن تلخيصه في أن العمارة هي نتيجة كل محاولة قام بها الإنسان وهدف منها أن يوفر لنفسه في معيشته ثلاثة مطالب وهي الراحة، والأمن، والجمال، وليست العمارة أناقة البناء وزخرفته وعظمته فهذا بمثابة مظهر خارجي يعكس تفاوت درجات الأناقة والثراء، ولا يفوتنا هنا أن نضيف أن مقاييس العمارة تتفاوت حسب العصور وطرق التفكير وأحوال البيئات.(١)

والحجاز شأنه شأن أي منطقة إسلامية؛ اهتم سكانه بالعمارة التي كانت المساجد من أبرز صورها، وقد تمثلت في المسجدين المكي والمدني وغيرهما من المساجد، في مدن الحجاز وقراها الأخرى، وإن كانت كتب الرحلات

---

(١) د. فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة، ج١، ص٤٥ - ٤٦، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م، د.م.

المغربية ضنينة في الوصف المعماري لغير المسجدين المكي والمدني، علاوة على الكتب التاريخية الأخرى، وهذا ما سنلحظه جليًا هنا.

المسجد الحرام ومساجد مكة المكرمة

أَوْلى الرحالة المغاربة وصفَ المسجد الحرام عنايتهم وذلك لشدة تشوقهم لمشاهدته ونقل ما رأوه لغيرهم عبر كتب رحلاتهم، وسنقتصر على إيراد ما ذكره الرحالة المغاربة ومقارنته بما يمكن من بعض كتب التاريخ الأخرى.

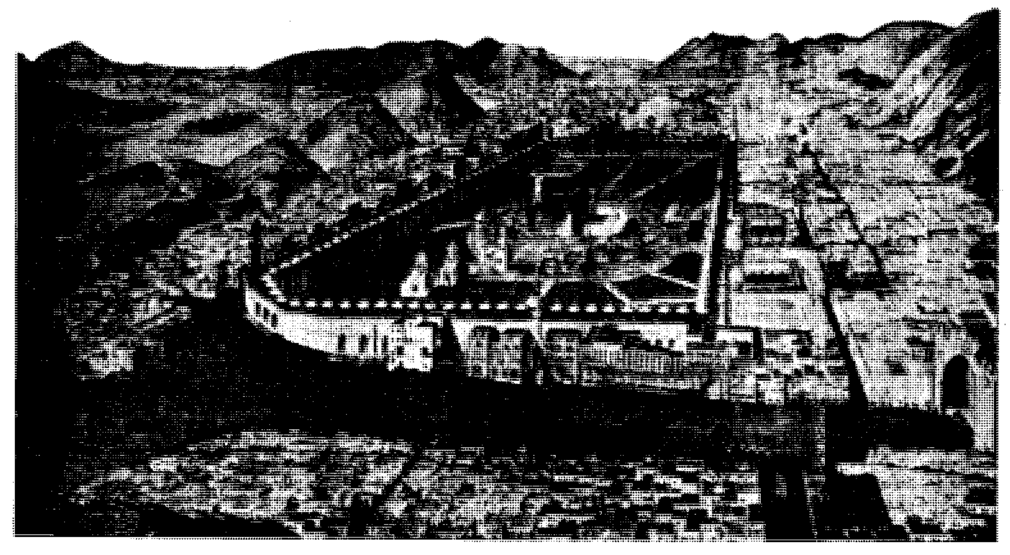
حُفَّ المسجد الحرام بأربعة أروقة من جوانبه الأربعة تسمى السقائف[1]، وهي عبارة عن قباب عالية فائقة الجمال، مرفوعة على سوارٍ أكثرها من الرخام، وهذه القباب والسواري ذات هندسة رائعة دقيقة البناء، وأحصى الرافعي عدد القباب التي كانت موجودة في طول المسجد فذكر أنها خمس وثلاثون قبة، تقابل كل قبة ثلاث قباب في العرض، أما في عرض المسجد فوجد خمسًا وعشرين قبة على نسق واحد يقابلها أيضًا ثلاث قباب على يسار خط المسجد[2]، كما قاس المسافة بين كل ساريتين وحددها بثمانية عشر شبرًا، وأضاف أن عرض بعض السواري خمسة أشبار وبعضها أوسع، وأشار إلى أن المساحة المظللة بالقباب خُصِّصت لصفوف الصلاة. أما صحن المسجد فيقع في وسط المسجد وفي وسطه تقع الكعبة المشرفة، ودقَّق الرافعي في طول المسجد الحرام وعرضه فقال: «يخيل للناظر أنه مربع، ولكن طوله أكبر من عرضه»، إذ قدر طوله بأربع

(١) ذكر إبراهيم رفعت أن عدد الأروقة ثلاثة. انظر: إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٢٢٧.

(٢) ما ذكره الرافعي يقرب كثيرًا مما ذكره بعد ذلك الحاج عباس الذي أحصى عددها فوجدها (١٥٢) قبة. انظر: الحاج عباس كرارة: الدين وتأريخ الحرمين الشريفين، ص١١٥، دار مصر للطباعة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، مركز الحرمين التجاري.

مئة ذراع وعرضه بثلاث مئة.[(١)]

ونلحظ أن ما قدَّره الرافعي لطول المسجد الحرام وعرضه يوافق ما ذكره سابقًا ابن جبير[(٢)]، الأمر الذي يؤكد أنه لم تحدث له زيادات في مساحته خلال ستة القرون التي تفصل بين الرحالتين.



الشكل رقم (٥) يمثل المسجد الحرام بقبابه وصحن المطاف والممرات المبلطة
نقلاً عن كتاب زمزم والزمازمة

وحدد الزبادي عدد السواري الأمامية الدائرة في الصحن بمئة وعشرين سارية، منها تسعون من الرخام، وثلاثون من الحجر المنقوش، أما خلف هذه الأعمدة فثلاث بلاطات متصلة من جميع الجهات ومسقفة بالقباب المحمولة على سواري الرخام والحجارة، وأشار إلى أن في بعض الجهات زيادة وفي بعضها نقصًا[(٣)]. وكان القطبي أكثر تفصيلًا في عدد الأسطوانات حيث قال: «أما

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٦ - ١٤٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٦٧.

(٣) الزبادي: بلوغ المرام، ص١١٧ - ١١٨.

الرخامية فثلاث مئة وإحدى عشرة أسطوانة، أما الأسطوانات الشمسية[١] الصفر فجملتها مئتان وأربع وأربعون أسطوانة».[٢]

وسمى أبو مدين أحد الأروقة برواق سيدنا عثمان، وقال: «إنه مفتوح على مقام الشافعي». ويبدو أن هذا الرواق متصل ببناءٍ كان ينزله أمير الركب المصري، إذ ذكر أن الغرف في أعلاه تستقبل الكعبة المشرفة والمسجد الحرام بأكمله.[٣]

وفي صحن المسجد الحرام خص ما حول الكعبة المشرفة برخام مفروش لمسافة عشر أذرع[٤]. وفي نهاية هذه المسافة أعمدة مصنوعة من النحاس عددها اثنان وثلاثون حُلِّيت من أعلاها بأَهِلَّة مُذَهَّبة، ومن ضمن هذه الأعمدة ساريتان من الرخام تبعد عن الكعبة المشرفة خمس عشرة خطوة. في حين حدد الزبادي عدد الأعمدة بثلاثة وثلاثين من ضمنها الساريتان الرخاميتان، وقد وُضع بين الأعمدة عوارض خشبية ذات حلق لتعليق القناديل، إذ كان يُعلَّق بين كل عمودين سبعة قناديل فيصبح جملة ما يعلق فيها مئتين وأربعة وعشرين قنديلاً.[٥]

وما ذكره الرحالة المغاربة عن عدد القناديل وافق ما ذكره الطبري[٦]، وأما إبراهيم رفعت فحدد عدد الأعمدة بثمانية وثلاثين عمودًا.[٧]

وكانت أغلب أرض الصحن محصبة سوى الطرقات في وسط المسجد

---

(١) هي الحجرية وتسمى بهذا لأن حجارتها جلبت من الشميسي بالقرب من مكة المكرمة.

(٢) القطبي: إعلام العلماء، ص١٣٤.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥.

(٤) المصدر السابق، ص١٨٥. وكانت في القرن الثامن الهجري مفروشة بحجارة سود. انظر: ابن بطوطة: الرحلة، ص١٣٧.

(٥) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٨، ١٤١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١١٧ - ١١٨.

(٦) الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٣.

(٧) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٢٦١.

والمفروشة أيضًا بالرخام، والتي تتصل بالمساحة المفروشة بالرخام حول الكعبة المشرفة.(١) ويبدو أن عدد القناديل قد زاد عن زمن رحلة العياشي الذي حددها بثلاثين، منها سبعة من الزجاج الصافي، ووصف منظرها عندما توقد بالليل بأنه منظرٌ فائق الجمال، خاصة عندما يسطع ضوؤها على حمرة الأعمدة الحديدية المصبوغة باللون الأحمر، وعلى بريق الأهلة المذهبة في أعلى السواري وبياض رخام المطاف وسواد برقع البيت.(٢)

الكعبة المشرفة:

وصفت بأنها قريبة من التربيع ذات أركان أربعة، وذكر القيسي أن ارتفاعها يبلغ تسعًا وعشرين ذراعًا، ما عدا جهة الحِجْر التي تنقص ذراعًا لتسهيل انصباب الماء إلى الميزاب(٣). وحدد أبو مدين ارتفاعها بتسع وعشرين ذراعًا.(٤)

والثابت أن الكعبة المشرفة كان ارتفاعها قبل عمارة قريش تسع أذرع، فزادوا عند عمارتها تسعًا أخرى، وفي عمارة ابن الزبير لها زاد تسع أذرع أخرى فأصبح ارتفاعها منذ ذلك الوقت سبعًا وعشرين ذراعًا(٥). وعليه فمقاس ارتفاع

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٨. أما في الوقت الحاضر فجميع المسجد الحرام مفروش بالرخام.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٥. ويلحظ أن العياشي أشار إلى أن الأعمدة مصنوعة من الحديد، وذلك يشير إلى أنها ربما غُيِّرت إلى الحديد أو أن العياشي أخطأ في وصفها.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص٨٢.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٥.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٨٨ - ٢٨٩؛ أبو علي أحمد بن عمر بن رستة: الأعلاق النفسية، ص٣٠، طبع مدينة ليدن، مطبع بريل؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص١٨١ - ١٨٢؛ جمال الدين محمد جارالله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة القرشي: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ص٥٧ - ٥٨، بيروت، المكتبة الشعبية، ط٤، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

الكعبة المشرفة لم يتغير إذ إنه في البناء الأخير الذي تم في عهد السلطان مراد العثماني[١] عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م ذرع ارتفاعها بعد عمارتها بحضور جمع من العلماء والفقهاء والأعيان فكان موافقًا لما ذكره الفاسي[٢]. وارتفاعها هذا إلى الوقت الحاضر.[٣]

والاختلاف في ارتفاع ذرع الكعبة المشرفة قديم من قبل الرحالة المغاربة، فابن جبير حدده بتسع وعشرين ذراعًا والعبدري بثلاثين ذراعًا[٤]. ولا شك أن عدم الدقة في تحديد ارتفاعها يعود لأقوال قيلت للرحالة وليس على أسس موثقة؛ فإن الارتفاع لم يتغير، كما أن التحديد يختلف باختلاف طول الذراع أيضًا.

أما مقاسات الكعبة المشرفة من الخارج فيبدو أن القيسي قاسها فذكر أن قياسها من الركن العراقي إلى الشامي ثمانية وعشرون شبرًا من داخل الحِجْر، أما من خارجه فأربعون خطوة، أو مئة وعشرون شبرًا، ويقع باب الكعبة المشرفة في الجهة التي بين ركن الحجر الأسود والركن العراقي، ويبعد الباب عن الحجر الأسود عشرة أشبار، وتسمى هذه المسافة الملتزم، وأضاف أن الحجر الأسود يرتفع عن الأرض ستة أشبار، وأن فيه نقطة بيضاء على يمين المستلم.[٥]

---

(١) السلطان العثماني مراد بن سليم بن سليمان، ولد عام ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م، وتولى السلطنة عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، من أعظم سلاطين الدولة العثمانية، زاد في فتوحاتها وعمر المسجد الحرام. توفي عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م. الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٣٠١.

(٢) محمد بن أحمد الصباغ: تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام، ص٢٤/ أ، مخطوطة في مكتبة الحرم المكي، رقم ١١ دهـ.

(٣) توسعة وعمارة الحرمين الشريفين رؤية حضارية، ص١٨، مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، العدد ١، رجب ١٤١٢هـ/ يناير ١٩٩٢م، بالتعاون مع مجموعة ابن لادن.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٧٠ – ٧٥، العبدري: الرحلة المغربية، ص١٧٨.

(٥) القيسي: أنس الساري، ص٨٢ – ٨٣.

الشكل رقم (٦) يمثل في الصورة العليا أعمدة المطاف وقناديله وبعض ممرات المسجد الحرام والحصى الذي فرش به معظم الصحن، والسفلى موضح فيها باب بني شيبة وبعض أعمدة قناديل المطاف



وحدد أبو مدين المسافة بين ركن الحجر الأسود والركن العراقي بخمسة وعشرين ذراعًا، أما المسافة بين الركن الشامي والعراقي من داخل الحِجْر فقدَّرها بإحدى وعشرين ذراعًا، والمسافة بين الركن اليماني والحجر الأسود عشرون ذراعًا. وأضاف أن ذرع الكعبة المشرفة مكسرًا أربع مئة ذراع وثماني عشرة ذراعًا. وقال: «إن الذراع يساوي أربعة وعشرين إصبعًا».[(١)]

وذكر الرافعي أن باب الكعبة المشرفة يرتفع عن الأرض ثمانية أشبار وأربعة أصابع، وعرضه ثمانية أشبار، وقدَّر طوله باثني عشر شبرًا[(٢)]. أما اليوسي فقدر ارتفاع باب الكعبة المشرفة عن الأرض بما يبلغه الإنسان بيده.[(٣)]

أما وصف داخل الكعبة المشرفة فقد أشار العياشي إلى أنها مُربَّعة، مع وجود نقص عن يمين الداخل مقداره ثلاثة أذرع خصص للسُّلَّم الذي يصعد منه إلى السطح، ووصف أرضها بأنها مفروشة بالمرمر المُجزَّع، وأن جدرانها وسقفها مكسوة بكسوة تماثل الكسوة الخارجية في الشكل والكتابة وتختلف عنها في اللون، فالخارجية لونها أسود، والداخلية لونها أبيض مُشرب بحمرة، وأشار إلى وجود مصابيح كبيرة معلقة للإضاءة، بعضها من الذهب وبعضها من البلور الأبيض الصافي، عليها كتابات بلون أزرق.

كما ذكر وجود ثلاثة أعمدة من الخشب يرتكز عليها سقف الكعبة المشرفة، قد صُفَّت في وسطها ما بين اليمين والشمال، وسُمِّر على كل عمود من أسفله ألواح بمقدار قامة، وسُقِف على هذه الألواح خشب آخذ من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة ومرتكز أحد أطرافه على رأس السلم، وهذه الجهة

---

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٥ - ١٨٦.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٨.

(٣) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٠/ أ.

هي الأقرب إلى جدار الكعبة المشرفة، إذ ليس هناك إلا مساحة ما يُصلَّى فيه، أما الثانية فبين هذه والباب، والثالثة عند الباب[(١)]. وهذا الوصف يوافق ما ذكره الخربوطلي الذي وصف الكعبة المشرفة بناءً على رؤيته وقياسه.[(٢)]

ووصف الرحالة المغاربة شاذروان الكعبة المشرفة، فهو البناء المنحدر أسفلها، ويدار عليها من ثلاث جهات عدا جهة الحِجْر، وقد وضعت فيه حلقات من الصُّفر والنحاس عددها ثلاث وأربعون حلقة، الغرض منها تثبيت كسوة الكعبة المشرفة التي كانت من خالص الحرير الأسود.[(٣)]

كما وصفوا الميزاب الذي في جهة الحِجْر، وذكر اليوسي أن الميزاب الذي رآه من مآثر السلطان أحمد بن محمود بن السلطان مراد، وهو مصنوع من الفضة المموَّهة بالذهب، وقد وضع هناك عام ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م، وقد أخذ الميزاب القديم ووضع في خزائن القسطنطينية[(٤)] (الأستانة - إستنبول).

وما ذكره اليوسي حول تجديد الميزاب يوافق ما ذكره الطبري الذي حدد سنة تركيبه بعام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م.[(٥)]

ووصفوا الحِجْر - حِجْر إسماعيل عليه السلام - فقد دقق الرافعي فيه وقال عنه: «عبارة عن نصف دائرة، بين الركنين الشامي والعراقي»،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٤.

(٢) د. علي حسني الخربوطلي: تاريخ الكعبة، ص١٨٦ - ١٨٧، بيروت، لبنان، دار الجيل، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٩/ ب. وما زالت هذه الحلقات إلى الآن لتثبيت الكسوة.

(٤) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٩؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٢/ ب.

(٥) الطبري: اتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٢٧.

وسماه الحطيم[١]، وحدد دورانه بأربعين شبرًا موزعة على أحد عشر ركنًا، سعة كل ركن تسعة أشبار، وله مدخلان في جانب الكعبة المشرفة، وارتفاع جدار الحِجْر ستة أشبار، وعرضه شبر، وهو مغطى كله بالذهب[٢]، وذرع الحِجْر لم يتغير عما كان عليه في عهد الفاسي كما ذكر الطبري.[٣]

وأما الحجر الأسود فلم يتحدث الرحالة المغاربة عنه كثيرًا لشهرته، وكل ما ذُكر أنه مطوق بالفضة، ويرتفع عن الأرض بمقدار خمسة أشبار أو ستة، وفيه نقطة بيضاء على يمين المستلم، وهو مثبت في ركن الكعبة المشرفة.[٤]

كما تكلموا عمّا يسمى بالمعجن أو الحفرة خارج الكعبة المشرفة عن يمين بابها، فأشار الرافعي إلى وجود موضع منخفض، قيل له: إنه موضع عجن طين الكعبة المشرفة، وقيل له: بل هو مكان تجمُّع ماء غسل داخلها. وحدد طوله بسبعة أشبار وعرضه خمسة، وعمقه شبر.[٥]

وهذا الموضع قديم فقد وصفه ابن جبير والتجيبي[٦]، وناقش الكردي بإفاضة أصل هذه الحفرة، ومجمل ما ذكره يؤكد أنه مكان موضع المقام الكريم سابقًا.[٧]

---

(١) «الحطيم» قيل هو ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم والحِجْر، وقيل هو الشاذروان، وقيل هو الحِجْر. انظر: أحمد بن محمد الأسدي المكي: إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، ص٨٨ - ٨٩، تحقيق الحافظ غلام مصطفى، ط١، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، د.م.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٩.

(٣) الطبري: الأرج المسكي، ص١٧١.

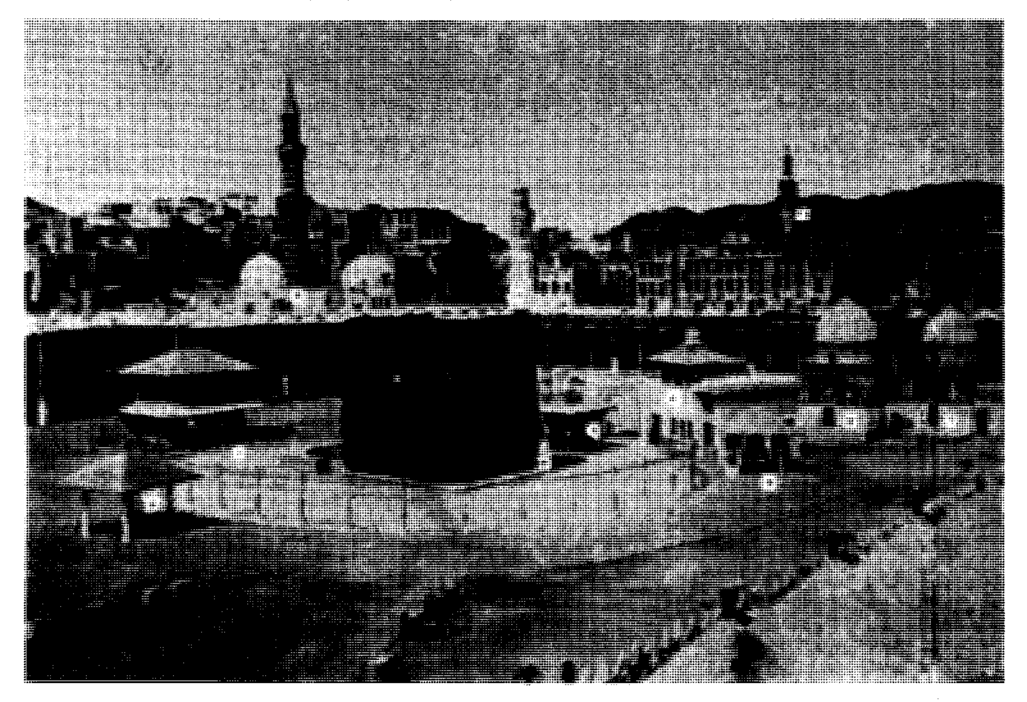
(٤) القيسي: أنس الساري، ص٨٢ - ٨٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٨ - ١٣٩.

(٥) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٩.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص٦٢ - ٦٣؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٩٢.

(٧) كردي: التاريخ القويم، ج٤، ص١٢١ - ١٢٦.

ووصفوا مقام إبراهيم عليه السلام الذي يقع مقابل باب الكعبة المشرفة، وهو مرتفع عن الأرض على دكة مربعة الشكل، عليه شبابيك من النحاس المُذهَّب من جهاته الأربع، سعة كل جهة ثمانية أشبار، وعلى المقام قفل من الفضة، وفي الداخل حفظ المقام، وهو حجر عليه قبة من الخشب عليها كسوة من الحرير الأسود المطرز بالذهب. وخلف قبة المقام قبة أخرى متسعة تابعة للمقام مرتفعة، لها ساريتان من الرخام خُصِّصَت للصلاة.(١)



الشكل رقم (٧) يمثل المسجد الحرام قديمًا وما فيه من قباب للمقامات وزمزم وسقاية الحاج ومخزن الكعبة المشرفة

وخلف المقام مباشرة باب بني شيبة أو باب السلام، بينهما ثمان خطوات، وهو عبارة عن قوس عالٍ متسع يصلى عنده.(٢)

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٣ - ١٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٤. انظر صفته والإصلاحات التي مرت عليه في: فوزية حسين مطر: =

وكان للمنبر نصيب من الذكر في كتب الرحلات المغربية، فقد وُصف بأنه من الرخام الخالص فائق الجمال، ليس بينه وبين المقام إلا ثمان خطوات على يساره، إذ يقابل ميزاب الرحمة في الحِجْر.(١)

وهذا المنبر من إهداءات السلطان سليمان القانوني للمسجد الحرام في سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م، وظل منذ ذلك التاريخ حتى صدرت الأوامر بحفظه في متحف الحرم الشريف في مكة المكرمة عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.(٢)

ووصف الرافعي قبة زمزم بالاتساع والارتفاع، ويقع البئر في وسطها، وحدد عمقه بأربعين ذراعًا، وعمقه من سطحه إلى مستوى سطح الماء ثلاثون ذراعًا، عُلِّقت عليه ست جرار لرفع الماء منه، وذكر أن قبة البئر تقابل الحجر الأسود، وليس بينهما إلا خمس عشرة خطوة، وخلف القبة بعشر خطوات تقع قبة مخزن الكعبة المشرفة، ويقابلها قبة أخرى خصصت لسقاية الحجاج.(٣)

وكان الفاسي قد نقل عن الأزرقي أن عمق البئر من أعلاه إلى أسفله ستون ذراعًا، وقد قيس غَوْرُه في خلافة الأمين بن الرشيد فكان غوره من أعلاه إلى الجبل أربعين ذراعًا كله بنيان، وما بقي فهو جبل منقور مسافته تسع وعشرون ذراعًا. كما زيد في عمقه في عهد المأمون عام ٢١٤هـ/ ٧٢٩م تسع أذرع.(٤)

وفي القرن السادس الهجري قاس ابن جبير عمقه فوجده إحدى عشرة

= تاريخ عمارة المسجد الحرام من العصر العباسي الثاني حتى العصر العثماني، ص٣١٠ - ٣٢٥، رسالة دكتوراه لم تنشر مقدمة إلى جامعة أم القرى عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. وهذا العقد قد أُزيل في الوقت الحاضر.

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٤.

(٢) انظر صفته وتاريخه في مطر: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٤٦ - ٣٤٨.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٥.

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٦١؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٠٠.

قامة، وعمق الماء سبع قامات، وزاد التجيبي في عمقه ذراعًا.[١]

أما قياس عمق البئر عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م فكان (٢٦,٥٠)م، منه (٢٣) م مغمور بالماء، ومسافة ارتفاع علو الماء حددت بـ (٣,٥٠)م[٢]، أما وصف داخل البئر فقد أورد المهندس كوشك صورًا توضح شكله من الداخل وقال: «إنه يطابق نسبيًا الشكل الذي وُصف به في الكتب التاريخية».[٣]

وقاس بكداش عمق بئر زمزم الذي يزيد على المقاس الذي أورده كوشك بثلاثة أمتار ونصف، إذ ذكر أن عمقه (٣٠)م، منها جزء مبني عمقه (١٢,٨٠)م عن فتحة البئر، والثاني جزء منقور في الجبل وطوله (١٧,٢٠)م، وبذلك يكون عمقه من فتحته إلى قعره (٣٠)م. ويبلغ عمق مستوى الماء أربعة أمتار، وعمق العيون التي تغذيها من فتحة البئر (١٣)م، ومن العيون إلى القعر (١٧)م.[٤]

ومن المنشآت المعمارية في صحن المسجد الحرام التي ورد ذكرها لدى الرحالة المغاربة المقامات الأربع[٥]، فقد ذكر الرافعي أنها مُوزَّعة في نواحي أركان الكعبة المشرفة، وهي عبارة عن غرف عليها قباب مُذهَّبة، فمقام الشافعية أمام باب الكعبة المشرفة، ومقام الحنفية جهة الحِجْر، وجهة الركن اليماني مقام

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٦٥ - ٦٦؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) يحيى حمزة كوشك: زمزم طعام طُعم وشفاء سُقم، ص١٨٢، جُدة، دار العلم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٦.

(٤) سائد بكداش: فضل ماء زمزم وذكر تاريخه وأسمائه وخصائصه وبركاته ونية شربه والاستشفاء به وجملة من الأشعار في مدحه، ويليه للحافظ ابن حجر جزء فيه الجواب عن حال الحديث المشهور «ماء زمزم لما شُرب له»، ص٣٦، بيروت، لبنان، دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٥) انظر وصفها المعماري في الطبري: الأرج المسكي، ص١٧١ - ١٧٣. ولم يعد للمقامات في الوقت الحاضر وجود إذ هدمت في توسعة عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

المالكية، ومقام الحنابلة بين الركن اليماني والحجر الأسود.[١]

ولا شك أن مبدأ عمارتها كان متواضعًا، وتطور بناؤها نحو الفخامة عبر السنين.[٢]

وذكر الرحالة المغاربة منائر المسجد الحرام[٣] التي كانت أربعًا فقط في عهد الأزرقي[٤]، وتزايد عددها عبر السنين إلى أن أصبح في نهاية القرن الثامن الهجري ست مآذن كبار، أربع منها في أركان المسجد والخامسة في دار الندوة والسادسة على باب إبراهيم، وأخرى صغيرة امتازت بضيقها، إذ يبدو أنها كانت علمًا على الموقع.[٥]

وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين أكد الرحالة المغاربة وجود سبع مآذن كبار موزعة في جهات المسجد الحرام[٦]، وكذلك الأسدي الذي أشار إلى وجود سبع مآذن، أربع منها في الأركان الأربعة، والخامسة في زيادة دار الندوة، والسادسة في مدرسة السلطان سليمان، والسابعة في مدرسة السلطان قايتباي. فالأربع الأولى قديمة يعود

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٥ - ١٤٦.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٨٥؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٤؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٢؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٦١ - ٣٦٢.

(٣) الأسدي: أخبار الكرام، ص١٩١ - ١٩٦؛ مطر: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٣٠ - ٣٣٨، رسالة دكتوراه لم تنشر. وعدد المنائر في الوقت الحاضر تسع موزعة في جهات المسجد الحرام.

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٩٧.

(٥) مؤلف مجهول: الاستبصار، ص٢٤؛ ابن جبير: الرحلة، ص٦٨؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص١٧٦؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٤٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٣٩؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٨٥ - ٣٨٧.

(٦) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٨.

زمن إنشائها إلى عهد أبي جعفر المنصور، وشيد ابنه المهدي المئذنة التي كانت على باب العمرة.[١]

فمنارة زيادة دار الندوة شيدت عام ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م، وبنيت بعد ذلك المنارة السادسة عام ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م، أما السابعة فشيدت عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م[٢]. فأبو مدين ذكر أن مآذن الحرم الشريف كانت خمسًا ومن ثمَّ أصبحت سبعًا بزيادة منارتين.[٣]

ونلحظ أن الرحالة المغاربة سدوا الفراغ التاريخي في التسلسل الزمني المعماري لمآذن الحرم المكي لوجودهم في ذلك الوقت، وعليه فإن ما كتبوه يعد من المصادر المهمة المعول عليها في التأريخ لعمارة المسجد الحرام.

أما تحديد مواقعها فقد ذكر الطبري أن في الجانب الشمالي منارة تنسب إلى السلطان سليم على مدرسته، والثانية منارة باب العمرة التي عمرها المهدي العباسي، وأخرى على باب الحزورة، ومنارة شيدت على باب علي، ومنارة تنسب إلى الأشرف قايتباي، ومنارة السلطان سليمان. ولم يطرأ زيادة أو تغيير فيها إلا ما كان يتم من تجديد، بالإضافة إلى أنه كانت هناك عدة منائر خارج المسجد الحرام يرفع منها الأذان لضمان سماعه في جميع أنحاء مكة المكرمة[٤]، وقد أغفل الرحالة المغاربة ذكرها.

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٢ - ٣٦٤.

(٢) الأسدي: أخبار الكرام، ص١٨٨ - ١٨٩.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٩.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٨٢؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٣٨؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٨١؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٣٥؛ الطبري: الأرج المسكي، ص١٧٩؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٣٨ - ٣٣٩.

وورد وصف الصفا والمروة اللتين تقعان خارج نطاق المسجد الحرام، فهما من أعظم أسواق مكة المكرمة، وهما طريق عريض مستقيم يزيد طوله على المسجد الحرام، وقد وصف الرافعي الصفا بأن له درجتين عاليتين عن الأرض، عليهما ثلاثة أقواس وساريتان في العرض ومكتوب على الأقواس بخط فاخر: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[1]. وأضاف أن الميلين الأخضرين اللذين في ركن المسجد قريبان من الصفا، وحدد ما بين الصفا والمروة بست مئة خطوة.

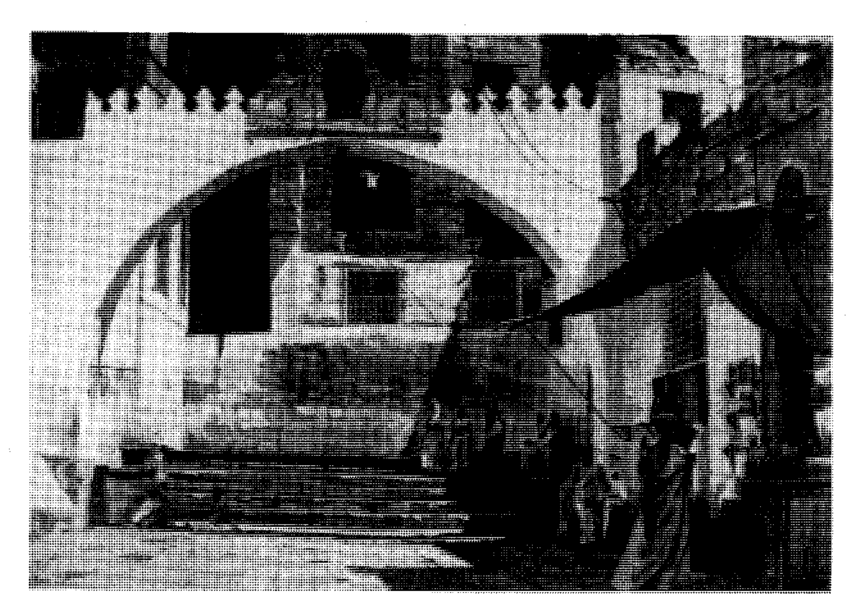
ووصف المروة بأن عليها قوسًا متسعًا له درجتان يصعد عليها، كما أن المسعى كله مفروش برمل أبيض.[2]

وذكر أبو مدين أن الصفا هو مبدأ السّعي وهو في أصل جبل أبي قبيس على مكان مرتفع منه، وزاد على ما ذكره الرافعي أن في أسفل عقود الصفا بعض درج، منها ما هو مدفون، وعدد الدرجات ثمان، ثم فرشة مثل بعض الفرشات الظاهرة تحت العقود، ثم درجتان، وما عدا ذلك فهو ظاهر، وهو درجة تحت العقود، ثم فرشة كبيرة، ثم ثلاث درجات، ثم فرشة كبيرة، إلا أن هذه الأخيرة غيبت تحت التراب من طول العهد.[3]

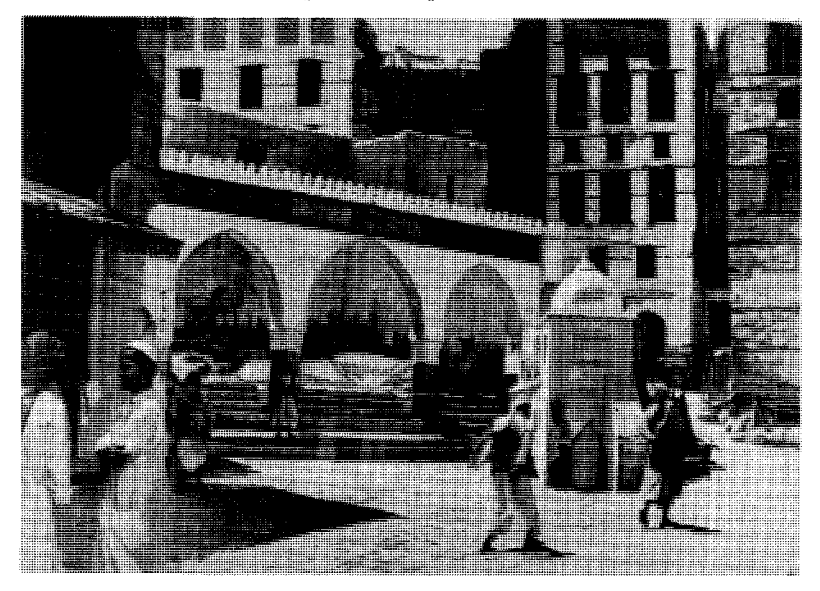
(١) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٧.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨٩.



الشكل رقم (٨) يمثل المروة كما كانت في القرن الثاني عشر الهجري وإلى وقت قريب



الشكل رقم (٩) يمثل الصفا كما كانت في القرن الثاني عشر الهجري وإلى عهد قريب

وذكروا بعض أبواب المسجد الحرام، فالقيسي ذكر باب السلام وأشار إلى أنه يعرف بباب بني شيبة[1]، وسمى العياشي أيضًا باب الصفا، وباب إبراهيم،

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٩.

وباب الحزورة، وباب علي[١]. وحدد أبو مدين عددها بتسعة عشر بابًا تفتح على ثمانية وثلاثين طاقًا، بسبب أن بعض الأبواب لها منفذ أو منفذان أو ثلاثة أو أربعة، وسمى منها باب إبراهيم وباب السلام[٢]. أما الرافعي فذكر أنها تسعة وثلاثون بابًا، أشهرها باب السلام، علاوة على باب العباس الذي كتب على حائطه بخط جميل: محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي.[٣]

ونجد الغنامي يسمي معظم أبواب المسجد الحرام دون تفصيل، فمنها باب النبي، باب السلام، باب علي، باب البغلة، باب الجنائز، باب الحريرين، باب الدار، باب الصفا والمروة، باب الشريف، باب العقد، باب السعادة، باب الوداع، باب إبراهيم، باب العمرة، باب العتيق، باب البستان، باب القطب، باب الزيادة.[٤]

ولا شك أن التفاوت بين الرحالة المغاربة في تحديد عدد الأبواب إنما يرجع لأنهم عدَّدوا المنافذ أيضًا، علاوة على أن بعض المنازل والخلوات كانت أبوابها مشرعة على داخل المسجد الحرام.[٥]

وفصَّل الطبري في عدد أبواب المسجد الحرام وحدد عددها بتسعة عشر بابًا، ويحتوي بعض أبوابها على منفذ أو اثنين أو أكثر، ومجمل منافذ الأبواب اثنان وثلاثون منفذًا وهي:

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢، ١٥٨، ٣٩٦ - ٣٩٧، ٣٩٩.

(٢) اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٩/ أ؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٤، ١٩٦؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٠.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٣٧ - ١٣٨.

(٤) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٥. وحدد إبراهيم رفعت عددها بخمسة وعشرين بابًا. انظر: إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٢٢٩.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٦.

- باب السلام، له ثلاثة منافذ.
- باب الحريرين ويعرف سابقًا بباب النبي وله منفذان.
- باب علي، له ثلاثة منافذ.
- باب بازان، له منفذان.
- باب البغلة، له منفذان.
- باب الصفا، له خمسة منافذ.
- باب أجياد، له منفذان.
- باب المجاهدين، له منفذان.
- باب الشريف عجلان، له منفذان.
- باب أم هانئ، ويعرف بباب السيد بشير بن أبي نمي، وله منفذان.
- باب الحزورة، له منفذان.
- باب إبراهيم، له منفذ واحد.
- باب العمرة، له منفذ واحد.
- باب السدة، ويعرف بباب ابن عتيق في زمانه، له منفذ.
- باب الباسطية، له منفذ واحد.
- باب الدريبة، له منفذ واحد.[١]

وقد اختُلف في عدد منافذ الأبواب بين مَنْ ألَّف في تأريخ المسجد الحرام، فنجد عند الأسدي والقطبي أنها تسعة عشر بابًا بتسعة وثلاثين منفذًا[٢]، في حين نجد أن كرارة أكّد عدد الأبواب، أما المنافذ فحددها بثمانية وثلاثين

---

(١) الطبري: الأرج المسكي، ص١٨١ - ١٨٣.

(٢) القطبي: إعلام العلماء، ص١٣٦؛ الأسدي: أخبار الكرام، ص١٩٨.

منفذًا[١]. وعدد الأبواب في الوقت الحاضر أربعة وستون بابًا، موزعة على مختلف جهاته، أشهرها باب الملك عبدالعزيز، وباب العمرة، وباب السلام.[٢]

وتطرق الرحالة المغاربة إلى ذكر الإصلاحات التي عاصروها في المسجد الحرام، فقد صادف العياشي زمن رحلته إصلاحات في المسجد الحرام بعد سيل عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م، فقال واصفًا ذلك: «أرسل السلطان في تلك السنة أموالًا لتجديد ما يحتاج إلى تجديد، مقداره مئة ألف دينار ذهبًا للتجديد في معالم الحرمين، وصُرفت على تنظيف المسجد والمسعى وما احتاج إلى تنظيف من مسارب الماء التي ملأها السيل... وعندما فرغوا من التنظيف أخذوا في تجديد الصباغات الرائعة والنقوش الرفيعة التي محا السيل أثرها من المقام وقبة زمزم وقباب مقامات الأئمة وغير ذلك على أرفع مما كان، وزيد فيه أشياء عجيبة، وصبغت أعمدة الحديد الدائرة بالمطاف كلها بصبغ أحمر قانٍ مصقول، ووُضع على كل عمود هلال مُذهَّب أبلغ تذهيب، وزيد في مصابيح المسجد والمسعى ثلاث مئة مصباح، وكانت قبل ذلك ست مئة فصارت تسع مئة»[٣]. في حين أشار الطبري قبل مجيء العياشي إلى أن عددها أربع مئة وخمسون قنديلًا.[٤]

وفي تلك السنة أيضًا ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م حدث خلل في السقف الأعلى

---

(١) كرارة: الدين وتأريخ الحرمين الشريفين، ص١١١ - ١١٤.

(٢) د. سلمى سمر الدملوجي: عمارة المسجد الحرام - مكة المكرمة، ص٣٢، هزار المحدودة للنشر، لندن، المملكة المتحدة، ١٩٩٤م، التوزيع في الشرق الأوسط دار الريشة، طبع فوكس بريس، بيروت، لبنان.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٥.

(٤) الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٣. ويضاء المسجد الحرام في الوقت الحاضر بمصابيح كهربائية.

للكعبة المشرفة، إذ إن للكعبة المشرفة سقفين متواليين بينهما مقدار ذراعين ونصف أو ثلاثة، الغرض منه حماية داخل الكعبة المشرفة من وصول الماء إليها، فإذا حدث أن احتاج أحدهما إلى تبديل كان الآخر بديلًا عنه إلى حين تجديده، وقد احتاج السقف الأعلى للتجديد في ذلك الوقت عقب السيل الذي دخل المسجد الحرام في تلك السنة فجُدِّد، وذلك بأن نصبوا سلالم من جهة الحِجْر مشدودة بالحبال وأعمدة على هيئة الأَسِرَّة الخشبية المعلقة في الهواء(١) لصعود العمال عليها(٢). وما ذكره العياشي عن تجديد سقف الكعبة المشرفة والطريقة التي اتبعت في ذلك كان موافقًا لما ذكره بعض المؤرخين.(٣)

ووردت في كتب الرحالة المغاربة إشارات قليلة إلى عمارة مساجد المشاعر المقدسة، فالقيسي اكتفى بذكر مسجد الخيف فقط(٤). أما العياشي فذكر أن في وسط مسجد الخيف قبة، ويسمى مسجد عليّ لأنه أول من بناه(٥)، وهو موضع منزل النبي ﷺ وأصحابه في حجة الوداع، وحدد طوله من المحراب إلى الباب الذي يقابله بأربع مئة قدم، وعرضه بثلاث مئة وأربعين، ووصف القبة التي تقع في وسطه بأنها مثمنة الشكل، كل ثمن منها أربع وعشرون قدمًا من خارجه، وأضاف أن محل هذه القبة كان فسطاطه عليه الصلاة والسلام، معتمدًا في قوله هذا على بعض الكتب التاريخية التي اطلع عليها ولم يُسمِّها، وأضاف أن صحن المسجد كبير، وأن المسقوف منه مقدمته فقط ولمسافة أربعة صفوف، وسائر الجوانب غير مسقوف. وقال: «رأيت قبل هذا في إحدى سواري هذا

---

(١) وهو ما يعرف الآن بالسقالات.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٦.

(٣) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ج١، ص١٥٨؛ الصباغ: تحصيل المرام، ص٢٣/ أ.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص٨٥.

(٥) انظر ما سبق، ص١٠٩، ١٤٩.

المسجد مكتوبًا ما أظن أن صورته هذا:

أيـهـا الـغـالـبـون بالله جُـودوا
لـغـريـب بـدعـوةٍ إنْ قَـدمـتُـم

كان مِـنْ قَبْلُ هـا هُنـا مثـل مـا قَـدْ
تَـم حـاضِـرًا كما قَـدْ حَضَرْتُم

وتحته مكتوب ما نصه:

قَـدْ حَضَرْنـا بـذا المـكان وغبتُـم
وَشَـهـدْنـا بِـهِ كَما قَـدْ شَهدْتُم

وَذَكَـرْنـاكُـمُ بـكـلِّ جميلٍ
فاذْكُرونـا بِمِثْلِـهِ إنْ حَضَرْتُـم

ووصف الرافعي مسجد الخيف بالجلال والهيئة الحسنة، والبناء الجميل، كناية عن حدوث ترميمات تمت فيه، وأكد كذلك أنه يسمى مسجد علي، كما تناول وصفه المعماري فقال: «له ثلاثة أبواب، أحدها مقابل للقبلة، والثاني عن يمين الداخل، والثالث عن يساره، وجميعها متقنة البناء».

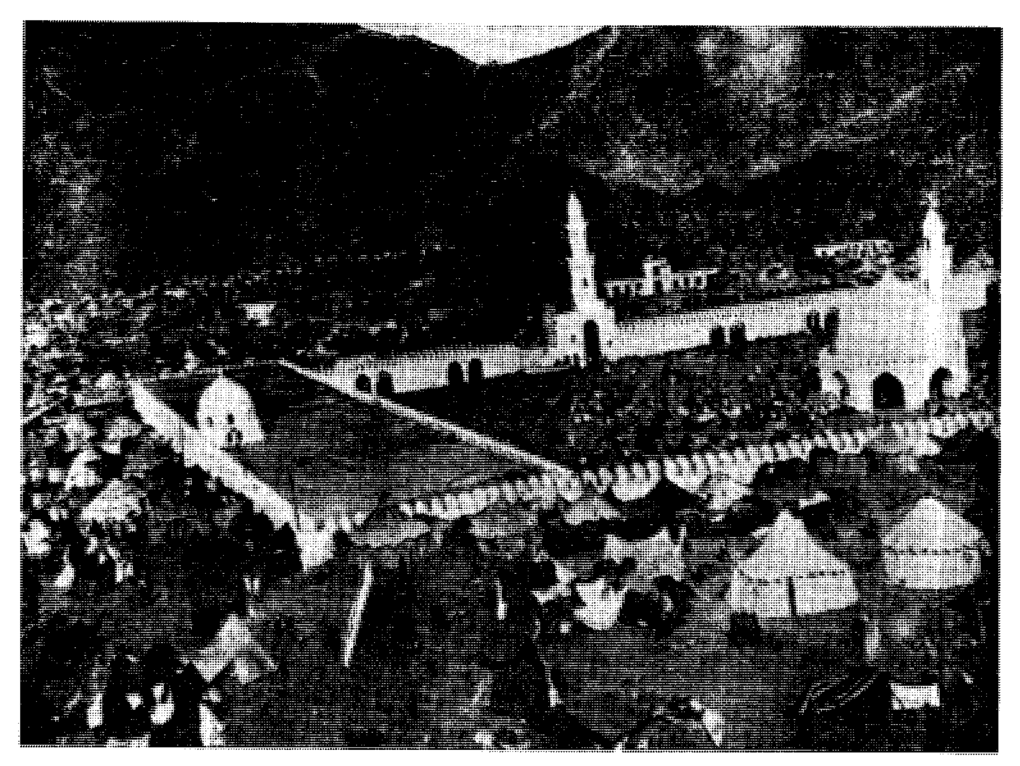
كما أشار إلى وجود مئذنتين، الأولى كانت على الباب، والثانية وسط المسجد بجانب القبة، وحدد طول المسجد بمئتي خطوة متوسطة، وعرضه مئة وخمس وستون خطوة، واهتم الرافعي بعدد الأقواس الموجودة فيه، وحدد عددها بعشرين قوسًا بجانب المحراب، وهذه الأقواس تحمل القباب التي تُظلِّل الصفوف الأربعة الأمامية. أما منبر المسجد فقد بُني بجانب المحراب[1]. ولم يضف القادري وأبو مدين جديدًا[2]، واكتفى الدرعي والحضيكي والزبادي

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٥٦، ١٥٩ - ١٦٠.

(٢) القادري: نسمة الآس، ص٨٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٢ - ١٣٣.

بالإشارة إلى اسمه.[(١)]



الشكل رقم (١٠) يمثل مسجد الخيف كما كان في القرن الثاني عشر الهجري وإلى عهد قريب نقلًا عن كتاب مرآة الحرمين

وعند استعراض كتب التاريخ وكتب الرحلات نلحظ تطور تاريخ عمارة مسجد الخيف الذي اهتُمَّ بعمارته حينًا وأُهمل حينًا آخر، كما نلحظ الزيادات المعمارية فيه بسبب اهتمام بعض ملوك الدولة الإسلامية وأمرائها، وعلى العموم فقد بقي هذا المسجد على نسق عمارته منذ العصر المملوكي إلى عهد الدولة السعودية الحاضرة التي أولته العناية الفائقة في عمارته مرة أخرى عمارة

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٢؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٤ - ٩٥.

تختلف تمامًا عما كان عليه سابقًا.[١]

وأشار العياشي إلى موقع مسجد العقبة أو البيعة بأنه في شِعْب تحت جمرة العقبة بقليل مع مَيْل إلى اليسار وأنت متجه من مكة المكرمة إلى منى[٢]، وفي موضع آخر حدد موقعه أكثر فذكر أنه في وسط الشعب أسفل جمرة العقبة[٣]. وأشار أبو مدين إلى موضعه بمرتفع على يسار الذاهب لمنى في أول العقبة[٤]. أما باقي الرحالة المغاربة فاكتفوا بذكر اسمه، ولم يقدموا أي تفصيلات تاريخية أو معمارية تمت فيه.[٥]

وأما مسجد المنحر الذي يبدو أنه مسجدان، الأول ينسب إلى الرسول ﷺ عندما نحر هديه، والآخر ينسب إلى إسماعيل عليه السلام[٦]، فقد ذكر العياشي وجود مسجد في منى في شِعْبٍ مقابل الجمرة الوسطى يمين الذاهب إلى

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٧٤، ١٨١، ١٨٥؛ مؤلف مجهول: الاستبصار، ص٣٣؛ ابن جبير: الرحلة، ص١٣٧؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٣٩؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص١٧٧؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٤٣؛ ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص١٠٥، ١٢٦؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٦؛ ناصر البركاتي ومحمد نيسان: دراسة تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة، ص٥٤ - ١٩٩؛ سيد عبدالمجيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ج١، ص١٥٤ - ١٥٦، دار القبلة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٦٩ - ٣٧١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٥.

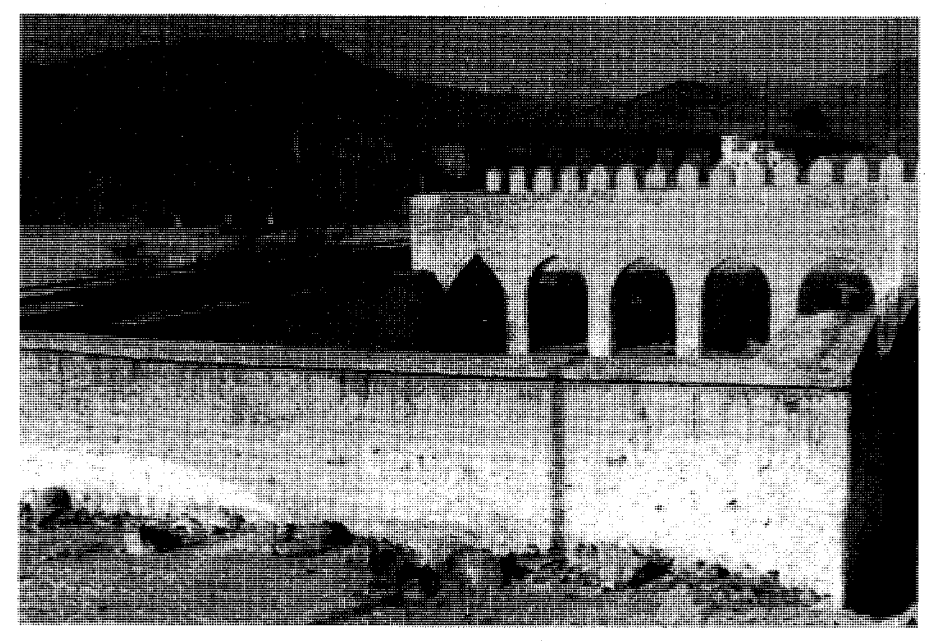
(٣) المصدر السابق، ص٥٤٢.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٣٢.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩١؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤٤، ٦٨؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٦. ولمزيد من التفاصيل عن موقعه وبداية بنائه وكيفيته انظر: البركاتي ونيسان: دراسة تاريخية لمساجد المشاعر، ص٢٢٦ - ٢٤٦.

(٦) القطبي: إعلام العلماء، ص١٥٣؛ الأسدي: أخبار الكرام، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

العقبة[١]، وهناك مسجد آخر وصفه العياشي بالصغر بالقرب من جمرة العقبة، قيل له: إنه موضع خلق الرسول ﷺ[٢]، وهذا من الأمور التي ابتدعها أهل ذلك الوقت والتي لا ترقى لأدنى درجات الصحة لاستحالة معرفة ذلك.



الشكل رقم (١١) يمثل مسجد البيعة، نقلًا عن كتاب دراسات تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة

ونجد الرافعي يقتصر على وصف مسجد المنحر بالصغر والارتفاع عن الأرض[٣]. وسماه الدرعي والحضيكي مسجد الكبش.[٤]

---

(١) الحربي: المناسك، ص٥٠٣، حاشية رقم٢؛ ابن جبير: الرحلة، ص١٣٦؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٤٨؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٤٣؛ ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٨٦؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٥؛ القطبي: إعلام العلماء، ص١٥٥؛ البركاتي ونيسان: دراسة تاريخية لمساجد المشاعر، ص٢٢٦ - ٢٤٦؛ سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ج١، ص١٦٦ - ١٧٣؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٦٧ - ٣٦٨.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٢.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٤.

(٤) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠١؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.

ومسجد المنحر من المساجد الصغيرة التي لا يعرف كثير عنها، والروايات عنه لا سند لها للفارق الكبير بين الواقع التاريخي وبداية التاريخ له.(١)

واكتفى القيسي بالإشارة إلى المشعر الحرام فقط، في حين أن الرافعي دقق فيه وقال: «مسجد بلا سقف، مرتفع الجدران من ثلاث جهات، له مئذنة ومحراب حسن، ولا يوجد جدار في الجهة المقابلة للقبلة سوى درجتين أو ثلاث يُصعَد إليها للمسجد». وذكر القادري أن موضعًا في المزدلفة فيه مسجد ومئذنة، واقتصر الدرعي على ذكره، واكتفى الحضيكي بقوله: إن في المزدلفة مسجدًا فيه منارة، ويسمى مسجد الجمع وهو المشعر الحرام، ووصفه الزبادي بقوله: «المشعر الحرام عليه بناءٌ اليوم، ووهم مَنْ ظَنَّه جبلًا بقرب ذلك البناء».(٢)

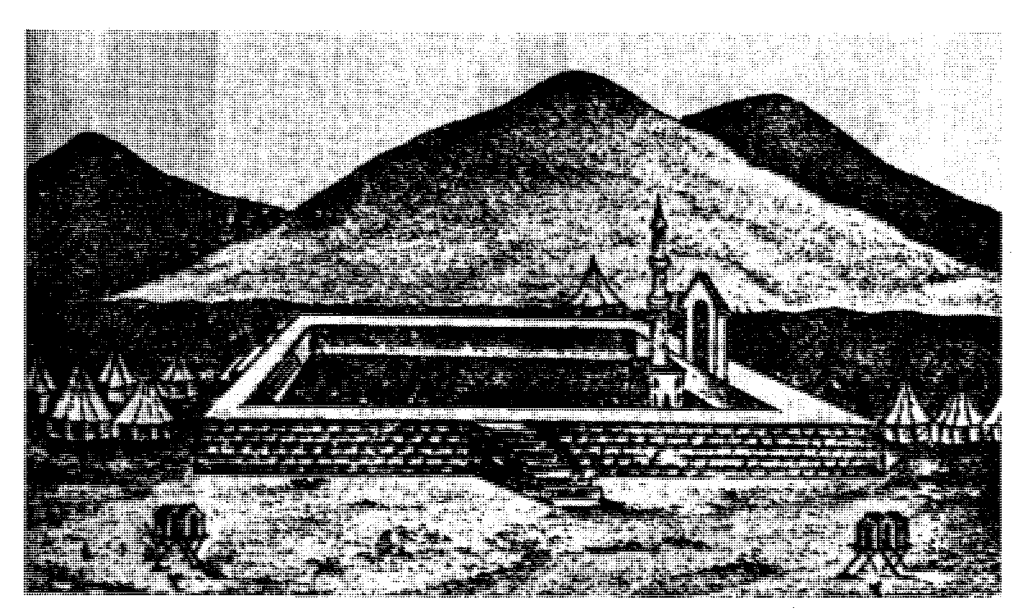
ولم يتغير وصف المشعر الحرام خلال القرون عندما تناول الرحالة المغاربة الأوائل وصفه، بل بقي على هيئته أيضًا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين.(٣)

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا المسجد انظر: الحربي: المناسك، ص٥٠٣؛ ابن جبير: الرحلة، ص١٣٦؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٤٨؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٦؛ القطبي: إعلام العلماء، ص١٥٣؛ الأسدي: أخبار الكرام، ص٢٣٩ - ٢٤٠؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٨٥؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٤٩؛ القادري: نسمة الآس، ص٨٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٩٢، الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٤١، ٤٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٠٢.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٥٠ - ١٥١؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص١٨٣ - ١٨٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٦٩؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٦. وقد بني بناءً حديثًا في العهد السعودي.



الشكل رقم (١٢) يمثل المشعر الحرام كما كان في القرن الثاني عشر الهجري
نقلًا عن كتاب أشهر المساجد في الإسلام

ووصف الرافعي مسجد نمرة وقدَّر طوله بمئة وخمس وخمسين خطوة، وعرضه بمئة وثمان وعشرين خطوة، وجميع أرضه محصبة، له مئذنة وحيدة عالية في أحد جوانبه، وله منبر ومحراب، وجميع المسجد بلا سقف إلا مقدمته المغطاة بالقباب المحمولة على سبعة عشر قوسًا والمبنية على أعمدة، كما أشار إلى وجود أربعة أبواب له في مقابل القبلة.[١]

ونلحظ أن الدرعي والحضيكي أشارا إلى مسجد في عرفة على يمين الموقف سمياه مسجد إبراهيم، وقالا: «هو غير الذي يصلي فيه الإمام ولا يعرف اليوم»[٢]. واكتفى أبو مدين بالإشارة إليه فقط.[٣]

وقد اختلف المؤرخون من قبلُ في مسجد نمرة هل هو مسجد إبراهيم

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٥١.
(٢) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٣؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.
(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٨.

أو غيره؟[١] فمن الرحالة القدماء مَنْ وصفوا المسجدين وأبدوا رأيهم فيه[٢]. وهذا إشارة إلى أنه مسجدان وليس مسجدًا واحدًا، وأن ما اندثر أثره هو مسجد إبراهيم، وأما ما هو قائم الآن فمسجد نمرة.[٣]



الشكل رقم (١٣) يمثل مسجد نمرة كما كان في القرن الثاني عشر الهجري وإلى وقت قريب نقلًا عن كتاب أشهر المساجد في الإسلام

وأشار الرحالة المغاربة إلى المساجد في مكة المكرمة، فذكروا أن جميع الدُّور المأثورة فيها أصبحت مساجد، مثل دار مولد الرسول ﷺ، ومولد علي بن أبي طالب، ومولد فاطمة الزهراء، ودار أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، ودار الأرقم بقرب الصفا[٤]. وقد أكّد مؤرخو مكة المكرمة ما ذكره الرحالة

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٩٠؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٨٨؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢٠٨، فقد أشار إلى أنه لا يعرف موقعه وليس له أثر في زمانه؛ الأسدي: أخبار الكرام، ص٢٤٧.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٥٠ - ١٥٢؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص١٨٤ - ١٨٥؛ ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٨٧ - ٨٩، ٩٢، ٩٥، ٩٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٩٦ - ١٧٠؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٦ - ٣١٧.

(٣) وقد بني في الوقت الحاضر بناءً فخمًا حديثًا يماثل في روعته مسجد الخيف.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٢٢٤ - ٢٢٦، ٥٤١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٨؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٠ - ٩١؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص٢٠٢ - ٢٠٣، ٢٣٤؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٤ - ٥؛ =

المغاربة.[(١)]

وأما مسجد عائشة في التنعيم فقد اكتفى الرحالة المغاربة بالإشارة إليه فقط[(٢)]. في حين وصفه الرافعي بأنه موضعٌ محاط عالٍ، يُصعَد إليه بدرج عددها أربع، وسماه مسجد عائشة، وأشار القادري إلى بعض أنواع المواد المستخدمة في عمارته كالأخصاص التي سقف بها[(٣)]، أما طريقة بنائه المرتفعة عن الأرض فقد أكد القطبي سابقًا أنه مرتفع وبعضه بغير سقف، وفيه محراب، وبني عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م.[(٤)]

وهذا المسجد قديم، والأصل في وجوده أن الرسول ﷺ أمر عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أن يذهب بأخته السيدة عائشة رضي الله عنها لتعتمر من هناك[(٥)]. ولا شك أن هذا الموضع اتُّخذ بعد ذلك مسجدًا، بل لقد وصل الأمر إلى وجود عدة مساجد ضئيلة العمارة ذكرها الرحالة السابقون[(٦)]. أما في الوقت الحاضر فلا أثر إلا لمسجد واحد فقط ينسب للسيدة عائشة في التنعيم خارج حدود الحرم، وقد بني بطريقة حديثة وجميلة. وقد

= أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٨١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٠٨ - ١١٢.

(١) المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٦٦٤ - ٦٦٥؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٣٦؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢٠٤؛ القطبي: إعلام العلماء، ص١٥٩ - ١٦١.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٨٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٣؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٠٧.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٦٦؛ القادري: نسمة الآس، ص٩٦.

(٤) القطبي: إعلام العلماء، ص٢٥١.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠٨.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص٩٠؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص١٤٣؛ ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٨٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٣؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٠.

أوصى القطبي سابقًا بضرورة الاهتمام بتجديده وتعميره[١]. ويتبين من قوله أنه لم يكن في حالة حسنة، ويظهر أنه عمر قليلًا بعد ذلك الوقت أي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين.[٢]

وأشار العياشي إلى موضع مسجد الجن بأنه بجانب طريقٍ بين الدُّور في أعلى مكة المكرمة[٣]، وأضاف الحضيكي طرفًا من تاريخه قائلًا: «إنه عند الخط الذي خطه الرسول ﷺ لابن مسعود عندما بايع الجن»[٤]. وقد ذكر القرطبي هذا المسجد عند حديثه عن تفسير سورة الجن وحدد موقعه في الحجون.[٥]

أما الأزرقي فقد سماه مسجد البيعة عندما ذكره من ضمن مساجد مكة المكرمة حيث قال: «ويسمى مسجد البيعة لمبايعة الجن لرسول الله ﷺ هناك». وسُمِّي هذا المسجد أيضًا مسجد الحرس، وقد علّل سبب هذه التسمية بأن صاحب الحرس كان يطوف في مكة المكرمة ليلًا حتى إذا انتهى وقف عنده.[٦]

ذكر الرحالة السابقون هذا المسجد، فبعضهم وصف خرابه، وبعضهم الآخر أشار إلى وجوده.[٧]

ويقع هذا المسجد الآن في الحجون شمال الحرم الشريف، وقد مرت

(١) القطبي: إعلام العلماء، ص١٦٧.
(٢) سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ج١، ص١٧٦.
(٣) إشارة العياشي توضح أن عمران مكة المكرمة امتد إلى الحجون في ذلك الوقت، وذلك يعني توسعها العمراني وزيادة سكانها أيضًا.
(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤١؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.
(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٩، ص٤.
(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠٠ - ٢٠١؛ الأسدي: أخبار الكرام، ص٢٣٦ - ٢٣٧.
(٧) ابن جبير: الرحلة، ص٨٨؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٤٩؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٣؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣٠٩.

عمارة هذا المسجد بعدة أدوار، فقد كان في بداية أمره متواضعًا ولكنه الآن عُمر عمارة حديثة، وأقيم في موضعه التاريخي نفسه ولكنه بمساحة قليلة.[١]

ذكر الحضيكي مسجد الشجرة ضمن المساجد المأثورة في مكة المكرمة، فأشار أن في أعلى مكة المكرمة مسجدًا يقال له مسجد الشجرة يقابل مسجد الجن، يؤثر أن الرسول ﷺ دعا شجرة هناك فأتته ثم عادت.[٢]

وهذا المسجد ذكره الأزرقي والمحب الطبري وابن ظهيرة، وذكر الأخير أنه قد اندثر أثره[٣]، وربما يكون هذا المسجد هو الذي ذكره التجيبي في رحلته، وحدد موقعه بالقرب من باب المعلاة، ووصفه بأنه محاط بحجارة ارتفاعها قدر شبر، وفي قبلته محراب.[٤]

كما أشار الحضيكي إلى موضع مسجد الراية في أعلى مكة المكرمة عند الردم، ولكنه لم يُسمِّه[٥]، وسماه المحب الطبري وابن ظهيرة مسجد الراية، كما جاء ذكره لدى الأزرقي.[٦]

وأشاروا إلى مسجد على جبل أبي قبيس يقال له مسجد إبراهيم[٧]، وقد

---

(١) انظر تفاصيل عمارته الحديثة في سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ص٩٨ - ١٠٤. وهو الآن معروف بالقرب من مبنى البريد المركزي ومجاور لباب المقبرة.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨. أثبت ابن هشام في سيرته هذه الحادثة ولكنه لم يحدد الشِّعب. انظر: ابن هشام: السيرة، ج٢، ص٣٩٠ - ٣٩١.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠١؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٦٦٤؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢٠٩ - ٢١٠.

(٤) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٣٣٦؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٦٧.

(٥) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.

(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠١؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٦٦٤؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢٠٩ - ٢١٠.

(٧) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.

سبقت الإشارة إليه من قبل الرحالة المغاربة السابقين، وكان ابن جبير قد ذكر أنه موضع انشقاق القمر لرسول الله ﷺ[١]. وحادثة انشقاق القمر للرسول ﷺ من معجزاته الكثيرة، وهي مثبتة في السيرة لما روي عن ابن مسعود أنه قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا»[٢]. وكما نلحظ أنه لم يحدد الجبل ولم يحدد الموقع!

ونسب الأزرقي هذا المسجد إلى رجل يسمى إبراهيم القبيسي[٣]، وعرف بعد عهد الرحالة المغاربة باسم مسجد بلال.[٤]

وذكر الحضيكي نقلًا عن المحب الطبري مسجدًا لدى أهل مكة المكرمة يعرف بمسجد عبدالرحمن بن علي نسبة إلى بانيه[٥]. وكان الأزرقي قد سماه مسجد السرر، وأشار ابن ظهيرة إلى أنه من المساجد الداثرة في وقته.[٦]

وأما مسجد ذي طوى فقد أشار إليه الحضيكي، وكان قد ذكر الأزرقي أن السيدة زبيدة بَنَتْهُ[٧]، وأضاف المحب الطبري أن الرسول ﷺ نزل هناك تحت

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٨٥؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٤؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٢.
(٢) البخاري: صحيح البخاري بحاشية السندي، ج٣، ص١٩٥.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠٢ - ٢٠٣؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٦٦٥؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢٠٥ - ٢٠٦.
(٤) البلادي: معالم مكة التاريخية، ص١١؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٦٢ - ٣٦٣. وقد أزيل هذا المسجد الآن. انظر تفاصيل بنائه في: سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ص١٢١ - ١٢٣.
(٥) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.
(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠٢؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢١٠.
(٧) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠٣.

شجرة في موضع المسجد عندما حج[١]. أما ابن ظهيرة فقال: «إنه داثر الآن».[٢]

كما أشار الحضيكي إلى مسجد في أعلى مكة المكرمة عند سوق الغنم[٣]. وكان قد ذكره الأزرقي والمحب الطبري وابن ظهيرة الذي قال: «إنه داثر ولا يعرف موقعه». ويقال: إن موقعه في المعلاة، وكان الأزرقي قد أشار إلى بيعة الرسول ﷺ الناس في هذا الموضع يوم فتح مكة المكرمة.[٤]

وذكر الحضيكي مسجد الجِعِرَّانة[٥] الذي كان قائمًا حسب رواية الأزرقي، واكتفى المحب الطبري بذكره، أما ابن ظهيرة والأسدي فنقلا ما جاء لدى الأزرقي[٦]. ولبعد الجعرانة عن عمران مكة المكرمة فقد هُجر ولا يعرف حتى موقع الجعرانة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر إلا باستئجار دليل متخصص، ولكنه يظهر أنه عمر بعد ذلك الوقت لإشارة العياشي إلى عمارته.[٧]

ونلفت الانتباه إلى أن المساجد التي انفرد الحضيكي بذكرها كمسجد الشجرة، وعبدالصمد، وذي طوى، ومسجد سوق الغنم، قد صرح أنه نقل

---

(١) المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٦٦٥.

(٢) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢١٠.

(٣) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨؛ ويسمى هذا السوق الآن بالجودرية. انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٧١، الهامش رقم (١).

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠١؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٦٦٥؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢٠٩.

(٥) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.

(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٠٧ - ٢٠٨؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٦٦٥، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢٠٩؛ الأسدي: أخبار الكرام، ص٢٥١ - ٢٥٣.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٩؛ انظر تاريخه وتفاصيل العمارات المتوالية عليه ونمطها في سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ص١٨٢ - ١٨٧.

خبرها من كتاب المحب الطبري. وبهذا نرى التزاوج في أخذ المغاربة من الكتب المشرقية، فأخذ المغاربة لمحتويات كتب كاملة أو نقلهم لبعض الكتب المشرقية إلى المغرب أو عرضها في أثناء كتبهم إنما حفظ لنا كتبًا لم تعرف إلا من خلالهم.[١]

وأشار الرحالة المغاربة إلى مسجد في سرف يقع بجوار قبر السيدة أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، وهو من المساجد المتهدمة التي لم تلق اهتمامًا من قِبل الحكام[٢]. وهذا المسجد لم يكن موجودًا قبل القرن الثامن الهجري، إذ لم يذكره الرحالة المغاربة خلال ذلك الوقت، وكذلك الفاسي عندما تحدث عن قبر السيدة ميمونة رضي الله عنها لم يشر إليه مطلقًا[٣]، وذلك يعني عدم وجوده في عهد الفاسي. وفي القرن العاشر الهجري ذكره الجزيري، ولكنه أغفل وصفه، ويبدو من قوله أنه كان بحالة جيدة[٤]، الأمر الذي يقودنا إلى الاعتقاد أنه ربما شُيِّد في ذلك الوقت.

المسجد النبوي ومساجد المدينة المنورة

المسجد النبوي:

حرص أكثر الرحالة المغاربة على تسجيل أدقّ تفاصيل هيئة المسجد النبوي، فشملت حتى نقوشه، سواء الموجودة على بعض أعمدته أو سقفه. وقد مثلت أوصاف الرحالة المغاربة للمسجد النبوي في ذلك الوقت أهمية خاصة،

---

(١) أبو علي الهجري: أبو علي الهجري وأبحاثه، ص١٠ - ١٢؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٦٦٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٦٨.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٠؛ القادري: نسمة الآس، ص٧٥؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٣.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٥٩.

(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص١٤٦٥.

ولا سيما بعد حريقه الثاني، ومن ثمّ عمارته العثمانية.

فمِنْ وصف المسجد العام ما ذكره القيسي من أن طوله مئة خطوة، أو ثلاث مئة ذراع، وعرضه مئتان، وتكسيره أربعة وعشرون مربعًا[١]. في حين أن الزبادي حدد طوله بمئة وتسعين خطوة، وسعتُه مئة وست وعشرون خطوة.[٢]

حقق السمهودي في مساحة المسجد النبوي الذي كان مستطيلًا غير مستوي الأضلاع فقال: «عرضه من مُقَدَّمِهِ في القبلة مئة وسبع وستون ونصف ذراع، وعرضه من مؤخره في الشام مئة وخمس وثلاثون ذراعًا، وطوله من القبلة إلى الشام مئتان وثلاث وخمسون ذراعًا، وطول رحبة المسجد من القبلة إلى الشام مئة وواحد وستون ذراعًا ونصف، وعرض الرحبة من المقدمة خمس وتسعون ذراعًا».[٣]

وحدد ابن الضياء طول المسجد بزياداته من قبلته إلى الشام بمئتين وأربع وخمسين ذراعًا وأربعة أصابع، وعرضه من مقدمه من المشرق إلى المغرب مئتان وسبعون ذراعًا، وعرضه من مؤخره مئة وخمس وثلاثون ذراعًا، وطول رحبته من القبلة إلى الشام مئة وتسع وخمسون ذراعًا وثلاثة أصابع، ومن شرقيه إلى غربيه سبع وتسعون ذراعًا.[٤]

ونجد أن طوله بالأمتار من الشمال إلى الجنوب كما حددته بعض المراجع الحديثة مئة وستة عشر مترًا وربع المتر، وعرضه من الشرق إلى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون مترًا ونصف المتر، وعرضه من الشمال ستة وستون

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠.
(٢) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٣.
(٣) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٦٨٤ - ٦٨٥.
(٤) ابن الضياء: تاريخ مكة، ص١٩٨ - ١٩٩.

مترًا.[(١)]

ونخلص إلى أن ما أورده الرحالة المغاربة حول مساحة المسجد النبوي تقرب مما ذكره مؤرخو الحجاز، وترجع عدم دقة قياسات الرحالة المغاربة إلى أقوال قيلت لهم، أو تقديرات قدروها، وهي بلا شك لا ترقى إلى دقة من ذرع بنفسه الأطوال.

وأما صحن المسجد النبوي فكان وسطه عبارة عن صحن مكشوف فرش بالرمل والحصى[(٢)]، وأقيم في وسطه قبة كبيرة بيضاء اللون، خصصت لخزن لوازم الروضة الشريفة، كما زُرِع أمامها نخل أُحيط بسياج من الخشب[(٣)]. وقد ذكر بعض المؤرخين المحدثين أن هذه الحديقة حديثة العهد، والحقيقة أنها منذ زمن بعيد، إذ أشار إليها ابن جبير في القرن السادس الهجري، وربما هي قبله بكثير.[(٤)]

وفيما يتعلق بالأروقة وسواري المسجد النبوي فقد أحيط المسجد النبوي من جميع جهاته ببلاطات مسقوفة بالقباب المرفوعة على عدد من السواري، حدد القيسي عددها بثلاث مئة سارية، في حين أن الزبادي أشار إلى أنها مئتان وتسعون سارية.[(٥)]

---

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٣١٢؛ سيد عبدالمجيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ج١، ص٢١٣.

(٢) كان صحن المسجد محصبًا إلى وقت قريب، وقد استبدل به الآن الرخام، وكان أول من حصبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٦٥٥.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٥.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٢ - ١٧٣؛ الوكيل: المسجد النبوي، ص١٧١.

(٥) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٣.

وفي توزيع السواري وخاصة الموجودة في جهة القبلة ذكر الرافعي أن لكل بلاطة ثلاث عشرة سارية في الطول متواليات، تحدُّها ثلاثة صفوف متقابلة[١]. أما أبو مدين فحدد عدد أسطوانات الحجرة الشريفة المتصلة بالشباك من المواجهة إلى آخر الزيادة القبلية بين المنارة الرئيسة في ركن المسجد الشرقي إلى باب السلام بست عشرة أسطوانة، وفي المسجد القديم بالزيادة من جهة الغرب التي فيها خوخة أبي بكر رضي الله عنه[٢] تسعة صفوف في كل صف ثلاث عشرة أسطوانة، فيكون مجموعها مئة وسبع عشرة أسطوانة، وفي الجانب الأيمن الغربي أربعة عشر صفًا في كل صف أربع أسطوانات، وفي الجانب الأيسر الشرقي خمسة عشر صفًا في كل صف ثلاث أسطوانات، وفي المؤخرة أربعة صفوف في كل صف ثلاث عشرة أسطوانة.

وفي محل مجلس الأغوات في جوف الحجرة الشريفة من جهة بيت السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وهو الموضع الذي كان مخصصًا لجلوس أهل الصُّفَّة زمن النبي ﷺ ثلاثة صفوف، في اثنين منها ثلاث أسطوانات لكل صف، وفي الصف الثالث أربع، فكل مجموع ما أحصاه أبو مدين مئتان وثمان وثلاثون سارية.[٣]

دقق السمهودي في عدد أسطوانات المسجد النبوي فذكر أنها ثلاث مئة وخمس أسطوانات، أما القليوبي فحدد عددها بمئتين وست وتسعين

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٥.

(٢) تقع غربي المسجد النبوي عند باب خزانة مخصصة لبعض حواصل المسجد النبوي عند الدخول من باب السلام على يسار الباب وقريبًا منه. انظر: ابن الضياء: تاريخ مكة، ص١٩٥.

(٣) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٢.

أسطوانة.[١]

احتوى المسجد النبوي في ذلك الوقت على عشرين رواقًا، منها اثنا عشر في الجنوب، وثلاثة في الشمال، واثنان في الشرق، وثلاثة في الغرب.[٢]

وأشار الرحالة المغاربة إلى أبواب المسجد النبوي الشريف، فقد كان له عشرون بابًا سُدَّت[٣]، واقتصر المسجد النبوي في تلك الآونة على أربعة أبواب، في غربيِّه بابان، يسمى أولهما باب السلام، والثاني باب الرحمة ويطلق عليه اسم باب الخشية أيضًا، وقد كان يسمى سابقًا باب عاتكة، ومنه تدخل الجنائز إلى المسجد النبوي. أما البابان الآخران فيقعان في شرقيِّه، يسمى أحدهما باب جبريل، والآخر باب النساء، ويقابل باب جبريل عليه السلام دار عثمان رضي الله عنه التي استشهد فيها. وذكر القيسي أن هذا الموضع يسمى رواق عثمان رضي الله عنه. وذكر أبو مدين أن باب النساء يخرج منه إلى البقيع، وهناك خوخة صغيرة في شرقي الروضة الشريفة قيل: إن جبريل عليه السلام كان يدخل منها، وهناك خوخة أخرى في حائط المسجد في المواجهة ينظر منها إلى الروضة الشريفة.[٤]

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٦٧٣ - ٦٧٥؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٤٤/ أ؛ الوكيل: المسجد النبوي، ص١٤٩.

(٢) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤٦٦؛ الأنصاري: آثار المدينة، ص٨٨؛ صالح مصطفى: المدينة المنورة، ص٩٥؛ سيد بكر: أشهر المساجد، ص٢٠٨.

(٣) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٦٨٦؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٥٠ - ٥١.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص١٠١؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٨؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٠، ١٠٤؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٤/ ب؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٤. وهذه الخوخة هي طريق آل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وهي في يدهم إلى ذلك الوقت. انظر: ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص١٩٤ - ١٩٥.

أما الآن فللمسجد خمسة وستون بابًا في الطابق الأرضي، منها سبع بوابات رئيسة تشمل كل منها سبعة أبواب، ومنها اثنا عشر بابًا جانبيًا في مناطق السلالم، ومدخلان خلفيان، وأربع عشرة بوابة جانبية، وبوابتان مزدوجتان، وأخريان منفردتان، ومدخل باب الرحمة، ومدخل باب النساء، واثنا عشر بابًا صغيرًا في السطح، وفي طابق السرداب منحدران خارجيان، وستة سلالم خارجية، وسلم آخر داخلي متصل بباب ذي درفتين.(١)

ومآذن المسجد النبوي في ذلك العصر خمس مآذن(٢)، منها أربع بنيت في جهاته الأربع، والخامسة ملتصقة بالروضة الشريفة، وهي المقدمة في الأذان، وقد حدد أبو مدين موقعها فقال: «المنارة الرئيسة تقع قبالة ركن الحجرة الشريفة القبلي في المواجهة، ومنارة باب السلام عن يمين الداخل بركن المسجد، وتحتها يجلس القائمون على حفظ النعال، ومنارة باب الرحمة، ومنارة الشكيلية في الركن الآخر الغربي في المسجد على باب دار الوضوء الخاص بالأغوات».(٣)

والحقيقة أن للمسجد النبوي أربع منارات، والخامسة كانت على المدرسة الأشرفية، ولقربها من المسجد عُدَّت منارة له.(٤)

---

(١) سلمى سمر دملوجي: عمارة الحرم النبوي الشريف - المدينة المنورة، ص٥٨ - ٦١، نشر عام ١٩٩٤م عن هزار المحدودة للنشر، لندن، التوزيع في الشرق الأوسط دار الريشة، بيروت، لبنان.

(٢) أول من أحدث المنارات في المسجد النبوي الوليد بن عبدالملك في عمارته له. انظر: السمهودي: خلاصة الوفا، ص٢٤٧.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٢ - ١٥٣. ويحتوي المسجد النبوي الآن على عشر مآذن ذات طراز معماري واحد.

(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٥٢٦ - ٥٣٠؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٥١.

ولم يتحدث الرحالة المغاربة كثيرًا عن مخازن المسجد النبوي، ومن ذلك إشارتهم إلى القبة التي في وسط الصحن، وإشارتهم إلى وجود مخزن للزيت في آخر المسجد.(١)

وحدد السمهودي أماكن المخازن في المسجد النبوي فمما ذكره قبة في وسط الصحن مخصصة لوضع الزيت، ومصحف ينسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، كما وجدت مخازن أخرى عند كل منارة، ومخزنان كبيران غربي المسجد خُصِّصا لوضع القناديل وبعض أدوات أخرى للمسجد، وفي شرقي المسجد خزانتان كبيرتان كانت توضع فيهما الفوانيس، وخزانة بين باب جبريل وباب النساء قُصِر استعمالها على الفراشين الذين كانوا يضعون فيها أمتعتهم ولوازمهم.(٢)

وقد أشارت بعض المراجع الحديثة إلى أن عدد المستودعات التي كانت في المسجد النبوي اثنا عشر مستودعًا، سوى بعض الخزائن التي لم تكن تستعمل مستودعات.(٣)

الروضة الشريفة:

خُصَّ سقف الروضة الشريفة بالعديد من النقوش والكتابات، فمن ذلك قصيدة سجَّلها القيسي كانت مكتوبة في السقف بين الحجرة الشريفة والمنبر النبوي ومن أبياتها:

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٥.

(٢) السمهودي:وفاء الوفا، ج٢، ص٦٨٠ – ٦٨١.

(٣) الوكيل: المسجد النبوي، ص١٥٠.

لمهبط الوحي حقًا ترحل النُّجُبُ
وعند هذا المُرجَّى ينتهي الطلبُ

بـه تحط السائلون ومـا
لسائل الدمع لا يمضيه ما يجب

قفا وقفة الذل والإطراق ذا أدب
فعند حضرته يستلزم الأدب[١]

ذكر الرافعي أن للروضة الشريفة بابين رائعي الجمال، لكل باب درفتان مغطيتان بالفضة، وضع عليهما خرصتان من الفضة، وأحد البابين يقابل القبلة، ووراءه يقع محراب صغير من الرخام مكتوب عليه بخط يميل للكوفي: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[٢]. وخلف هذا المحراب مجلس مفروش بالسجاد الجميل يجلس فيه خدام المسجد النبوي. أما الباب الثاني فيسمى باب الرحمة وهو داخل المسجد من الجهة الأخرى.[٣]

أما الشكل العام للروضة الشريفة فوصفها الرافعي بأنها في غاية الكبر والارتفاع، فهي روضة داخل روضة، والخارجية أوسع، أما الداخلية فهي قديمة ومربعة الشكل، إذ إن كل ضلع من أضلاعها الأربع طوله خمسة وتسعون شبرًا، وقد سقفت الروضة بقبتين، وبين هذه الروضة وباب جبريل مسافة أربعة عشر شبرًا، كما أشار إلى إحاطة هذه الروضة الداخلية من ثلاث جهات بشبابيك حديد ذات تصاميم هندسية رائعة. وكانت فيما مضى تُطلى بماء الذهب الذي بقي بعض أثره، كما كان هناك أيضًا شباك من الصفر ذو تصميم مختلف جهة

---

(١) هذا القول منافٍ لكمال العقيدة، إذ لا يجوز التوسل بالأموات حتى ولو كان رسول الله ﷺ، فالتوسل والدعاء من العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله تعالى.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٦ - ١٨٧.

المحراب العثماني[١] الذي تقع خلفه قبة بداخلها شبكة من أسلاك فضية، وبجانبها صفائح فضية أيضًا في وسطها شبه لوح قُدِّر عرضه بشبرين، كُتب عليه بخط كوفي، ولم يوضح ما كان مكتوبًا.[٢]

أما كسوة الروضة الشريفة فهي من الحرير الأخضر المطرز بالذهب، وكذلك حزام وسط الكسوة مصنوع من الحرير الأخضر المطرز بالذهب ومنسدلة فوق الكوكب الدري[٣] الذي هو علامة على موضع رأس النبي ﷺ، وقد كتب هناك في وسط دائرة بالذهب «هذا قبر رسول الله ﷺ» وطُرِّز حولها بالذهب: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وإلى جانب هذه الدائرة دائرة أخرى مكتوب عليها بالذهب عبارة: «هذا مقام عبدالله أبي بكر الصديق رضي الله عنه» ودائرة ثالثة مطرزة بالذهب أيضًا مكتوب بداخلها: «هذا مقام عبدالله عمر بن الخطاب رضي الله عنه».

وبين كل شباك في هذه الروضة والكسوة جدار مغطى بالرخام الأبيض مسافته نحو ثمانية أشبار، تعلوها الكسوة التي علقت من القبة الثانية، أما الكسوة الأخرى فهي داخل المدفن الشريف.

وكان وُضعَ جهة رأس النبي ﷺ مبخرة من الذهب المرصَّع معلقة

(١) ينسب إلى الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه. انظر: الوكيل: المسجد النبوي، ص١٦٣.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٦ - ١٨٧.

(٣) أهدى هذا الكوكب الدري السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان وأمر بوضعه هناك، وكان يساوي في ذلك الزمان (٨٠,٠٠٠) دينار، وقد نقل الكوكب الدري مع بقية ذخائر الحجرة الشريفة إلى إستنبول إبان الحرب العالمية الأولى ولم يعد شيء منها إلى الآن. اليوسي: رحلة اليوسي، ص٩٥/ أ؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤٧٤؛ البتنوني: الرحلة الحجازية، ٣٣١؛ الأنصاري: آثار المدينة المنورة، ص٩٣؛ الوكيل: المسجد النبوي، ص١٧٣، هامش (١).

بسلاسل ذهبية مجتمعة من الأعلى وتفترق من الأسفل بين ثلاثة أعمدة من الذهب. وبالقرب من المبخرة في أعلى الأعمدة تفاحة من الذهب مرصعة بالدر والياقوت الأكحل، وبجانبها أيضًا طاس من الذهب وضع على شبه مائدة من الفضة، إضافة إلى العديد من المصابيح والقناديل المصنوعة من الذهب.(١)

واكتفى الزبادي بالإشارة إلى القبور الشريفة وأنه ليس عليها علامة سوى ارتفاع الأرض، وقد بُنيت عليها قبة صغيرة في أعلاها فتحات للإضاءة، وفوق هذه القبة قبة أخرى أكبر منها تميل إلى الشكل الخماسي مكونة من ثلاث طبقات، الأولى تلي الأساس الذي كان عبارة عن حجارة سود ملبسة بالرخام الأبيض، عدا رخامة حمراء فيها مسمار فضي، أما الطبقة الثانية فقد بُنيت بالآجر، والطبقة الثالثة من الخشب، وفيها تُربط الكسوة، ثم على القبتين قبة ثالثة مرتفعة توازي ارتفاع المئذنة المقامة بقربها، وهذه القبة ذات أركان أربعة ومحمولة على عشرة أعمدة.

أما أرض الروضة الشريفة فكانت مفروشة بالرخام، عدا الموضع الذي يذكر أن عيسى عليه السلام سوف يدفن فيه.(٢)

وأشار الزبادي أيضًا إلى أن الشباك الدائر في الحجرة الشريفة له أربعة أبواب يسمى الأول باب التوبة، ويقع في قبلة المسجد في شباك نحاس يفتح عند نزول الشدائد، والثاني يسمى باب الوقود ويفتح كل ليلة لإيقاد المصابيح، والثالث يطلق عليه باب فاطمة ويدخل منه الشمع والمباخر كل ليلة جمعة،

---

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٧ - ١٩٠.

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، ج٥، ص٢٤٩؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٥٥٨ - ٥٥٩.

والرابع يسمى باب التهجد.[١]

وأما عن المحاريب فقد دقق الرافعي في وصف محراب النبي ﷺ[٢] كثيرًا فقال: «إن دورانه ثمانية أشبار، وطوله إلى دوران القوس سبعة أشبار وأربعة أصابع، وهو خارج عن دوران السوار». وحدد المسافة بينه وبين المنبر بواحد وثلاثين شبرًا، كما ذكر أنه أقدم المحاريب[٣]. وأشار الزبادي إلى أنه يوجد في أعلى المحراب النبوي حجر مربع أصفر قَدْرُ شبر في شبر ذو بريق، يقال: إنه مرآة كسرى، كما أشار إلى علبة صغيرة لا يعرف ماهيتها، يزعم أنها كأس كسرى.[٤]

أفاض الرافعي في وصف المحراب العثماني وتحديد موقعه، فذكر أنه متقدم عن المحراب النبوي بسبعة عشر شبرًا، ويفصل بينهما ساتر خشبي على طول المسجد، يتخلله أقواس وأبواب تسمح بمرور الناس، وهو في غاية الجمال وإتقان الصنعة. وبين هذا الحاجز الخشبي والمحراب صفان يفصل بينهما سوارٍ جميلة عددها خمس عشرة سارية في صف واحد، وهي مغطاة بلون أخضر، وأرض هذه البقعة مفروشة بالرخام.

---

(١) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٤ - ١٧٥.

(٢) لم يكن في عهد الرسول ﷺ محراب بل كان يصلي في هذا المكان، أو قريب منه. انظر: المحجوب: قرة العين، ص٣٩/ ب؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٧٠؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٠/ ب؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤٦٨.

(٣) ناقش الرافعي الرأي الذي يشير إلى أنه ﷺ لم يكن له محراب على عهده، وإنما هو موضع مصلاه وقد رجح هذا القول. انظر: الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٣.

(٤) الزبادي: بلوغ المرام، ص١٧٣؛ وهذا الوصف يوافق ما ذكره ابن جبير سابقًا في القرن السادس الهجري، مما يشير إلى نقله لوصف قديم انعدم أثره تمامًا، ولا سيما بعد وقوع حريقين للمسجد النبوي أتيا على محتوياته جميعها. انظر: ابن جبير: الرحلة، ص١٧٢؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٥٩٨، ٧١٥.

ويقع أمام المحراب قبة جميلة كتب على أركانها: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ إلى قوله تعالى ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]. وكتب على المحراب نفسه من جميع جوانبه: «هذا محراب عثمان بن عفان رضي الله عنه». وذكر أن هذه الجهة من المسجد ذات عشرة صفوف واسعة تبدأ من محراب عثمان رضي الله عنه إلى الصحن، وفي كل صف خمس عشرة سارية، كما أن جميع أرضه مفروشة بالرخام.

وأما المحراب السليماني الذي ينسب إلى السلطان العثماني سليمان القانوني[٢]، ويقع في الجهة الأخرى من المنبر[٣]، فقد ذكره أبو مدين وأشار إلى أن بين المحراب السليماني والمحراب النبوي من الجهة الأخرى أسطوانتين، وكذلك بين المحراب السليماني إلى حد المسجد القديم أربع أسطوانات، ومن حد المسجد القديم إلى آخر الزيادة الغربية ثلاث أسطوانات.[٤]

وأشار القيسي والرافعي إلى وصف المنبر بكل دقة، فهو من الرخام الأبيض الخالص، منقوش ومخرم، طوله في الأرض تسعة عشر شبرًا، وعرضه أربعة أشبار، وعدد درجاته إحدى عشرة درجة، وأكد الرافعي أن موضعه يوافق تمامًا موضع منبره عليه الصلاة والسلام[٥]، وأضاف أن أمام المنبر سُدة من

---

(١) سورة النور: الآيات ٣٦ - ٣٨.

(٢) القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٣/ أ. وقد بناه طوغان شيخ بعد سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م ويعرف أيضًا بالمحراب الحنفي. انظر: إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤٦٩.

(٣) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٣ - ١٨٥.

(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣.

(٥) ذكر السمهودي أن موضع المنبر في عهده متقدم على محل المنبر الأصلي لجهة القبلة بعشرين قيراطًا من ذرع الحديد، فالمنبر منذ عهد النبي ﷺ لم يتغير موضعه إلا عندما وضعوا المنبر الرخام بعد الحريق الثاني عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، في حين ذكر المحجوب أن المنبر =

الرخام الأبيض قائمة على ثماني سوارٍ من الرخام أيضًا في غاية الإتقان.[(١)]

ووصف الرافعي مقام السيدة فاطمة الزهراء بأنه لاصق بالروضة مقابل باب جبريل، عليه شباك من الحديد مقفل ذو فُرَج ومغطى بالفضة على هيئة شباك الروضة الشريفة، وعليه كسوة خضراء تماثل كسوة الروضة الشريفة.[(٢)]

ووصف القيسي الجدار القبلي للمسجد النبوي فذكر أن النصف الأسفل منه مُؤزَّر بالرخام المتعدد الألوان والأشكال بطريقة جميلة، أما النصف الأعلى منه فقد مُوِّه ورُقِّم كله بالذهب بطريقة التوريق على هيئة صور أشجار وجداول ماء، وأضاف أن باقي جدران المسجد مموهة بالذهب أيضًا، لكنها لا تضاهي جدار القبلة في الشكل، كما أكَّد أن الأسطوانات الموجودة بين الروضة والمنبر خصت بلون أخضر تمييزًا لها عما سواها، وهذه البقعة فرشت بالسجاد الجميل، وقد خص بهذا الفرش لأنه المسجد القديم، أما باقي المسجد ففرش برمل. كما أشار إلى أنه بجوار محراب عثمان من جهة الشرق صُفَّت خزائن الكتب العلمية التي كانت وقفًا على المسجد النبوي، وحدد في جهة الشرق دار أبي بكر رضي الله عنه وبجوارها دار عمر ودار ابنه عبدالله رضي الله عنهما[(٣)]. في حين ذكر الحضيكي بيت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها الذي عُلِّم بشُبَّاك أُحدِث عام

= متواتر على وضعه. السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٤١١ - ٤١٢؛ المحجوب: قرة العين، ص٣٨/ ب.

(١) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٨٣؛ وذكر إبراهيم رفعت أن عدد درجات المنبر اثنتا عشرة درجة. انظر: إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤٧١؛ الأنصاري: آثار المدينة المنورة، ص٩٠ - ٩١؛ وانظر وصفه كاملًا في الوكيل: المسجد النبوي، ص١٦٤ - ١٦٥؛ حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص٧٣ - ٧٥.

(٢) الرافعي: المعارج المرقية، ص١٩٠.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٠٠ - ١٠١.

٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، وكان ارتفاعه نحو قامتين ثم زيد في ارتفاعه حتى وصل إلى السقف.[(١)]

وذكر الرحالة المغاربة الأسطوانات المشهورة التي منها العمود المُخلَّق[(٢)]، وتسمى أسطوانة عائشة، وتقع بين القبر والمنبر، وقد كتب عليها بعض أبيات شعرية.[(٣)]

وهذه الأسطوانة هي عَلَمٌ على موضع مصلى النبي ﷺ، فالسمهودي بيَّن أنها أقرب موضع إلى مصلاه عليه الصلاة والسلام، وأن موضع صلاته هو موضع كرسي الشمعة التي عن يمين الإمام الواقف في المصلى الشريف.[(٤)]

وأسطوانة القرعة هي التي تقابل الداخل من الباب عند القدوم من المواجهة[(٥)]، وسميت بالقرعة لقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «إني لأعلم سارية من سواري المسجد، لو يعلم الناس ما في الصلاة إليها لاضطربوا عليها بالسُّهْمان». وسميت عائشة لأنها أخبرت عنها، وتسمى أيضًا بالمخلقة، وبالمهاجرين، لأنهم كانوا يجتمعون عندها، وكان أبو بكر وعمر رضي الله

---

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٩، ٨١. وذكر ابن الضياء أن الوليد بن عبدالملك أدخل بيت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها في توسعة المسجد وجعل لهم طريقًا، وبعد ذلك سده الخليفة المهدي وجعل بدلًا منه شباكًا من حديد. انظر: السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٧٠٦ - ٧٠٨؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص١٩٤ - ١٩٥.

(٢) المخلق أي المطيب، وأول من طيبها الخيزران زوج الخليفة المهدي، وقد صلى الرسول ﷺ عندها بضعة عشر يومًا بعد تحول القبلة، وقد قُدِّمت هذه الأسطوانة إلى جهة القبلة قليلًا، وأدخل بعضها في المحراب النبوي وكتب عليها: الأسطوانة المخلقة. انظر: حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص٦٩؛ الوكيل: المسجد النبوي، ص٥٠ - ٥١.

(٣) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٢.

(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٤٣٩.

(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣.

عنهما يكثران من الجلوس عندها. وتقع هذه الأسطوانة في صف الأسطوانات خلف الإمام الواقف في المصلى الشريف، وهي الثالثة من القبلة، وكانت الثالثة أيضًا في رحبة المسجد النبوي، وبعد الزيادة في الرحبة أصبحت الخامسة فيها.[١]

وأسطوانة التوبة ويقال لها أسطوانة أبي لبابة[٢]، وسبب تسميتها بأسطوانة أبي لبابة أنه ربط نفسه بها بعد أن أخطأ بإفشاء ما سيفعله الرسول ﷺ ببني قريظة، وبقي مربوطًا بها إلى أن أنزل الله تعالى توبته[٣]، وهذه الأسطوانة هي الرابعة من المنبر، والثانية من القبر، والثالثة من القبلة، والخامسة من رحبة المسجد في زمن السمهودي.[٤]

وأسطوانة السرير[٥]، وسميت بذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان يضطجع قربها في سرير من جريد، وموقعها ملاصق للشباك في شرقي أسطوانة التوبة.[٦]

وأسطوانة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم التي تقع مقابل المحراب النبوي عن يمينه[٧]، وذكر القليوبي أنها الثانية من المنبر، وقد

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٤٤٠ - ٤٤٢؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٤/ ب؛ الوكيل: المسجد النبوي، ص٥١ - ٥٢.
(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣.
(٣) ابن هشام: السيرة، ج٣، ص٢٣٦ - ٢٣٨.
(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٤٤٠ - ٤٤٦؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٤/ أ؛ الوكيل: المسجد النبوي، ص٥٢ - ٥٣؛ حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص٧٠.
(٥) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣.
(٦) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٤٤٧ - ٤٤٨؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٤/ أ؛ الوكيل: المسجد النبوي، ص٥٣ - ٥٤؛ حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص٧٠.
(٧) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣ - ١٥٤.

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم يجتمعون عندها للصلاة والسمر.[١]

وأسطوانة العباس وسعد[٢]، وذكر القليوبي أنها التالية لأسطوانة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم من جهة المنبر.[٣]

وأسطوانة الوفود التي في الصف الثالث[٤]، خلف أسطوانة المحرس من جهة الشمال، وكان عليه الصلاة والسلام يجلس عندها عندما يقدم إليه وفود العرب.[٥]

وخوخة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ذكر أبو مدين أنها يمين الواقف في الصف الثالث من المسجد النبوي القديم، وأنه عندما زيد في المسجد من جهة الغرب حُوِّلت إلى حدّ المسجد وفتحت مقابلة لها في جدار المسجد وكتب على بابها بالذهب: «هذه خوخة أبي بكر رضي الله عنه».[٦]

ووصف إبراهيم رفعت موقعها فذكر أن بين باب الرحمة وباب السلام حجرة يعرف بابها بخوخة أبي بكر رضي الله عنه، وهي بمحاذاة خوخة أبي بكر رضي الله عنه الأصلية التي كانت في الجدار الغربي من المسجد الأصلي.[٧]

أما صفة الصفوف الأولى في المسجد النبوي القديم فقد لفت أبو مدين

---

(١) القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٤/ ب.
(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣.
(٣) القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٤/ أ.
(٤) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٤.
(٥) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٢٤٩؛ الوكيل: المسجد النبوي، ص٥٥.
(٦) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣.
(٧) ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص١٩٥؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤٧٨.

الانتباه إلى أن الصف الأول من المسجد القديم لم يكن موازيًا للحجرة الشريفة التي عليها الكسوة، وإنما يوازي موضع الأغوات في المواجهة للسلام على النبي ﷺ إذا دخلوا لإيقاد المصابيح، فهم بذلك يستقبلون الوجه الشريف ويستدبرون الشباك الذي يقف عنده الناس للسلام على الرسول ﷺ.

أما الصف الثاني من المسجد القديم فهو مُوَازٍ للأول وأول البناء الشريف الذي عليه الكسوة المسدلة من أعلاه إلى الأرض، فلا يظهر شيء من البناء الشريف إلا ما فتح في الكسوة قبالة الوجه وقبالة وجه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وفي الصف الثالث باب مفتوح على المسجد يسمى باب الوفود، وبإزائه أسطوانة مكتوب عليها: «أسطوانة الوفود». ويلي هذا الصف الصف الرابع فالخامس وهو أول بيت السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها. ثم الصف السادس وهو آخر بيتها، وعنده ينتهي الشباك الذي يستقبله الناس للسلام على النبي ﷺ، ويليه الصف السابع والثامن وهما خارجان عن النافذة مقابلان لبعض مقام الأغوات وموضع صلاتهم في جوف الشباك الحائز مقام السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

وأضاف أن الصفوف الأولى من المسجد القديم مشهورة بعشر أسطوانات بالتي فيها النافذة إلى مبدأ الزيادة من الجهة الغربية، وقال: «إن موضع تحويل القبلة مشهور هناك، وهو آخر الأسطوانات من الصف الآخر الموالي لصحن المسجد».[1]

(١) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٣ - ١٥٤.

المساجد في المدينة المنورة:

هذا ولم نجد في كتب الرحلات المغربية أوصافًا دقيقة لمساجد المدينة المنورة الأخرى، وكل ما سجله الرحالة المغاربة في أغلب الأحيان هو ذكر أسمائها، وسنحاول تتبع تلك المساجد:

ذكر القيسي والغنامي أن مسجد قباء يبعد عن المدينة المنورة نحو ميلين، وهو مربع الشكل حسن الهيئة، وفي وسطه موضع مبرك ناقة الرسول ﷺ، وقد وضع عليه قبة من خشب اعتاد الناس على الصلاة فيه.

وفي صحنه مما يلي القبلة محراب وموضع قيل: إنه موضع ركوب النبي ﷺ، وفي أعلى المحراب مكتوب ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[(١)] جدد هذا المسجد المبارك في إحدى وسبعين وست مئة».

وقد حدد القيسي طوله بمئة وعشرين خطوة وكذلك عرضه، وذكر أن له بابًا واحدًا من جهة الغرب، ومئذنة عالية جدًا تظهر من بُعد. وفي مقابل الباب في داخل الصحن بئر عذبة كبيرة، وفي قبلته خمسة محاريب، وأشار إلى أن في قبلة المسجد يقع دار أبي أيوب الأنصاري وهي دار بني النجار، ودار لعائشة رضي الله عنها ودار لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.[(٢)] وحدد العياشي موضع مصلى الرسول ﷺ بأنه إلى حرف الأسطوانة التي في الصف الموالي لمحراب المسجد

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص١٠٤ - ١٠٥؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٠ - ١٦١.

عن يمين المُصلِّي فيه.[(١)]

ونلحظ أن النمط المعماري لمسجد قباء لم يتغير فقد تطابقت أوصافه في القرن الحادي عشر والثاني عشر مع أوصاف الرحالة المغاربة والمؤرخين الأوائل، وكذلك ما نقل من نقوش[(٢)]. أما ما ذكره الرحالة المغاربة حول تجديده سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م فيوافق ما ذكره السمهودي الذي لم يفصل برأي حول موضع مبرك الناقة بالرسول ﷺ[(٣)]، وهو ما يضفي ظلًا من الشك حول صحة ذلك.

وعلى العموم فمسجد قباء من الشهرة بمكان، فهو المسجد الذي أُسِّس على التقوى ونزل فيه قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.[(٤)]

وذكر العياشي موقع مسجد الفتح الذي سُمِّي بذلك لنزول سورة الفتح فيه على النبي ﷺ[(٥)]. وذكر موقعه بأنه مرتفع على جبل سَلَع في الغرب، ويُصعَد إليه بواسطة درج في شماله، وسماه أيضًا مسجد الأحزاب، والمسجد الأعلى[(٦)]، وقد

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٠٧ - ١٠٨، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٤؛ ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٢٥؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٧، ٢٨٨.

(٣) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٧٩٨، ٨٠٧ - ٨١٠؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٥/ أ - ٣٥/ ب.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

(٥) القيسي: أنس الساري، ص١٠٦. نزلت سورة الفتح يوم الحديبية، لذا فلا صحة لما يقال حول نزولها هناك، والقول بذلك قديم. انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٦، ص٢٦٠ - ٢٦١؛ ابن جبير: الرحلة، ص١٧٦؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١٨٢؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٢٥؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٨.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١١٥ - ١١٦، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

حدد الحضيكي موضع مصلى النبي ﷺ فيه عند موضع الأسطوانة الوسطى[(١)]، في حين ذكر القيسي موقعه في طريق قباء.[(٢)]

وقد ذكر هذا المسجد ابن النجار، وأنه عليه الصلاة والسلام دعا فيه يوم الخندق على الأحزاب[(٣)]. وتطلق تسمية مسجد الفتح على هذا المسجد وثلاثة مساجد أخرى حوله، تسمى كلها مساجد الفتح. الأول أسفل المسجد السابق ويسمى مسجد سلمان الفارسي، والثاني يلي قبلة هذا المسجد ويعرف بمسجد علي بن أبي طالب، والثالث في قبلة الثاني على طريق جبل سلع مع مَيْل جهة المشرق ومشهور بمسجد أبي بكر وهو أصغرها. وأضاف أبو مدين أن المسجد المنسوب إلى علي كان يقف فيه النبي ﷺ عند وقوف الحجاج في عرفة.[(٤)]

ومسجد علي ذكره الرحالة والمؤرخون الأوائل، وكذلك المؤرخون المحدثون، وقد أشير إلى خرابه تارة وتجديده أخرى.[(٥)]

أما مسجد سلمان الفارسي فمر عليه زمن من الخراب وآخر من التعمير، وهو مشهور ومعدود من جملة مساجد الفتح التي تعاقب المؤرخون على ذكرها.[(٦)]

---

(١) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٨.

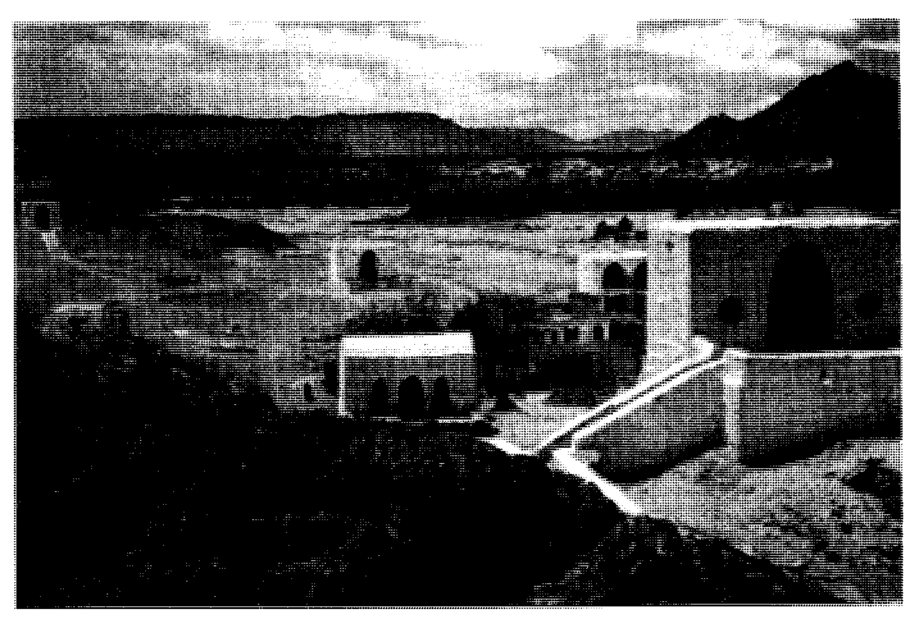
(٢) القيسي: أنس الساري، ص١٠٦.

(٣) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٤.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص١٠٧؛ العياشي: ماء الموائد، ص١١٧، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦١ - ١٦٢.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٦؛ ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٢٥؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٨؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٣٦ - ٨٣٧؛ حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٤٧ - ١٤٨؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٨٥.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٦، ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٤؛ ابن بطوطة، =



الشكل رقم (١٤) يمثل مساجد الفتح كما هي الآن ولا تختلف عما كانت عليه سابقًا

أورد القليوبي أن الرسول ﷺ صلى في مساجد الفتح كلها[1]. وذكر ابن الضياء مساجد الفتح، وأشار إلى أن الموجود في زمانه مسجدان، أما الثالث فقد انعدم أثره.[2]

ووصف العياشي مسجدًا صغيرًا، حدد موقعه في زقاق وسط البقيع إلى جهة الشرق مع الميل يمينًا مع سور المدينة المنورة، وأشار إلى أن النبي ﷺ كان يقف هناك عندما يستغفر لأهل البقيع. أما أبو مدين فأشار إلى أنه يسار قبة صفية

= ص١٢٥؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٨؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٣٦ - ٨٣٧؛ ابن ضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٥؛ حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٤٣؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٣٨٥ - ٣٨٦.

(١) القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٥/ ب.

(٢) ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٥؛ وانظر تاريخه وموقعه ونمط عمارته في الأنصاري: آثار المدينة، ص١٢١ - ١٢٣.

عمة النبي ﷺ، وإلى يمين سور المدينة المنورة.[١]

وهذا المسجد لم يكن على عهد السمهودي لأنه لم يذكره، وإنما حدد موضع دعاء الرسول ﷺ لأهل البقيع.[٢]

وذكر الرحالة المغاربة موقع مسجد الجمعة بأنه على بعد ميل من مسجد قباء، وعلى يمين الذاهب من المدينة المنورة إلى قباء في الطريق الذي يخترق النخل، وكان في زمن أبي مدين مسجدًا صغيرًا غير مسقوف في منخفض من الأرض ومحاطًا بحدائق النخيل، وسمي مسجد الجمعة لأن النبي ﷺ صلى فيه أول جمعة عندما قدم إلى المدينة المنورة.[٣]

وما ذكره الرحالة المغاربة عن سبب تسميته وموضعه موافق لما ذكره بعض المؤرخين القدماء والمحدثين، ولكن نلحظ من قول بعض المؤرخين المحدثين أن المسجد لم تحدث فيه عمارة منذ عمارة السلطان بايزيد العثماني الذي كان على رأس السلطنة إلى أوائل القرن العاشر الهجري، فالرحالة المغاربة وصفوه بأنه بغير سقف، في حين وُصِف بعد القرن الثاني عشر الهجري بأنه مسقوف، وهذا يدل على تعميره عمارة جديدة.[٤]

ومسجد الفضيخ أو الشمس الذي يقع شرقي قباء على حد وادي

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٨٧ – ٨٨، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٤٦.

(٢) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٩٠.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١١٩، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦١ – ١٦٢.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦٧؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨١٩ – ٨٢١؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٦/ ب؛ الأنصاري: آثار المدينة، ص٨٤٨٧؛ سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ص٢٢٧ – ٢٣١.

بطحان، في مرتفع من الأرض، كان مسجدًا صغيرًا بني بالحجارة السوداء، وذكر الحضيكي أن النبي ﷺ ضرب قبته في موضع هذا المسجد عندما حاصر بني النضير.(١)

أكد المؤرخون القدماء موقع هذا المسجد وَوَصْفَه وأضافوا أن سبب تسميته بالفضيخ يعود لإهراق نفر من الأنصار شراب الفضيخ حين بلغهم تحريم الخمر، وسبب تسميته بمسجد الشمس أنه مبني في مكان عالٍ شرقي مسجد قباء فأول ما تطلع الشمس تطلع عليه. وذكر القليوبي أنه مربع الشكل، فطوله نحو إحدى عشرة ذراعًا وكذلك عرضه. ونفى قول السخاوي في تعليله لتسميته بمسجد الشمس بأنّ الشمس رُدّت لعلي بن أبي طالب بسبب دعاء الرسول ﷺ له هناك.(٢)

وقد أسهب الأنصاري في وصفه المعماري، فمن ذلك أنه ذو بناء قوي مرتفع عن مستوى الأرض، سقف منه نحو تسعة عشر مترًا في عرض أربعة أمتار، له خمس قباب ومحراب، ومنبر ذو درجتين، مبني بالحجارة والطين، إضافة إلى وجود شرفات فيه، وقد استخدم في بنائه الحجارة والجص. أما الطريق إلى هذا المسجد الآن فهو طريق العوالي ومنه زقاق ناحية الشرق مع ميل إلى جهة الشمال الشرقي.(٣)

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١١١، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٢.

(٢) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٥؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٧٠؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٢١؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٧/ ب؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٧.

(٣) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤١٨؛ الأنصاري: آثار المدينة، ص١٣٧ - ١٣٨؛ حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٥٥ - ١٥٦. ونلحظ من أقوال الرحالة المغاربة في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين أن المسجد كان صغيرًا ومتهدمًا، ولكن لا شك =

وأما مسجد القبلتين الذي يقع غربي وادي بطحان فقد وصف بحالة جيدة مع عدم وجود عمارة بقربه، وحدد الحضيكي المسافة بينه وبين المدينة المنورة بثلاثة أميال أسفل منها، وأشار أبو مدين إلى شيء من نمط عمارته، فذكر أن له محرابين، ويقع غربي وادي بطحان، وأن الطريق إليه يمر في حجارة سود وحرث.(١)

وسبب تسميته أن النبي ﷺ عندما كان يصلي فيه صلاة الظهر إلى بيت المقدس - قبل تحول القبلة إلى البيت الحرام، وبعد إتمامه ركعتين - أُمر بالتحول إلى الكعبة المشرفة فاستدار، لذا سمي بمسجد القبلتين، ولذلك وجد فيه محرابان. وقد جدد هذا المسجد مرة في عهد الدولة المملوكية والمرة الثانية في عهد الدولة العثمانية(٢). ويبعد المسجد الآن عن المسجد النبوي حوالي ثلاثة كيلومترات ونصف.(٣) وقد جدد في العهد السعودي.

ومسجد الإجابة الذي يقع شمال البقيع على يسار الذاهب إلى العريض، سمي بذلك لدعاء النبي ﷺ فيه ثلاث دعوات(٤) أجيب في اثنتين ومنع الثالثة،

= أنه بني بناية جيدة بعد ذلك لوضعه الحالي.

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١١٩ - ١٢١، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٩؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص٨؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٢.

(٢) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٥؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٤٠ - ٨٤٢؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٧/ ب؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٦.

(٣) انظر المزيد حوله في إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤١٤ - ٤١٦؛ الأنصاري: آثار المدينة المنورة، ص١٢٧ - ١٢٩؛ حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص١٤٠ - ١٤١؛ سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ص٢٣٢ - ٢٣٧.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١١٤، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٨.

وهذا المسجد مربع يقدر طوله وكذلك عرضه بخمس وستين ذراعًا وكان لبني معاوية، وكان في عهد السمهودي مرممًا، وقد ذرعه فوجد أنه من الشرق إلى الغرب خمس وعشرون ذراعًا تنقص قليلًا، ومن القبلة إلى الشام عشرون ذراعًا تنقص قليلًا، وكان هذا المسجد في عهد ابن النجار متداعيًا خربًا.[١]

وقد بُني هذا المسجد بعد ذلك بالحجارة وأصبح طوله عشرة أمتار وعرضه ثمانية أمتار، وله محراب وقبة، ويبعد عن المسجد النبوي بنحو نصف كيلومتر إلى الشرق منه.[٢]

ومسجد بني قريظة وهو مسجد كبير بُني بحجارة بارتفاع القامة، وكان في زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هي موضع منارة المسجد قبل انهدامه. وأشار الحضيكي إلى أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله بناه، ويقع في الحرة الشرقية وقد امَّحى أثره.[٣]

وذكر ابن النجار أن النبي ﷺ قد صلى في بيت امرأة بجواره فأدخل ذلك البيت في المسجد، ويقع هذا المسجد في العوالي، وهو كبير بلا سقف، وجدرانه مهدمة، أما نمط بنائه فهو يماثل طراز بناء مسجد قباء[٤]. وذكر السخاوي أنه يقع شرقي مسجد الشمس وقد جدد في عهده.[٥]

---

(١) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٦؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦٧؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٢٨؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٦/ أ؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٩.

(٢) انظر المزيد عنه في: الأنصاري: آثار المدينة، ص١٣٣ - ١٣٤؛ سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ص٢٣٨ - ٢٤٣.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١١١ - ١١٢، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٨.

(٤) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٦.

(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٧٠.

وما ذكره المؤرخون عن هذا المسجد يطابق ما أورده الرحالة المغاربة، وأضاف السمهودي أنه جدد في عشر السبع مئة، وبُني عليه جدار ارتفاعه نصف قامة، وكان قبل ذلك لا يعرف مكانه، وقد ذَرَعَه فوجد أن طوله من الشمال إلى الجنوب أربع وأربعون ذراعًا ورُبع، وعرضه من الشرق إلى الغرب ثلاث وأربعون ذراعًا، وقد جدد هذا المسجد مرة أخرى في عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م[(١)]، وذكر القليوبي أن مصلى الرسول ﷺ في شرقيه عند الدكة موضع المنارة، وأكد تربيعه.[(٢)]

وأما مسجد مشربة أم إبراهيم الذي يقع شمالي مسجد بني قريظة[(٣)]، فقد ذكر ابن النجار أنه في العوالي شرقي مسجد بني قريظة، وفي وسط حدائق النخيل على أَكَمَةٍ مرتفعة محاطة باللبن، وذكر أنه ربما يكون الموقع بستانًا لمارية القبطية أم إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام[(٤)]. وكان في عهد السمهودي متهدمًا ولم يبق من معالمه سوى بعض جدرانه، وقد ذرعه فوجد طوله من الشمال إلى الجنوب أحد عشر ذراعًا ومن الشرق إلى الغرب أربع عشرة ذراعًا، كما أشار إلى أن في شرقيه سقيفة.[(٥)]

ومسجد بني ظفر الذي يقع شرقي البقيع كان يعرف أيضًا بمسجد البغلة[(٦)]، فقد حيكت حول هذا المسجد الأساطير من وجود آثار للنبي ﷺ

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٢٣ - ٨٢٥؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٨؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤١٩.

(٢) القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٦/ أ.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١١٢، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون.

(٤) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٦؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٦/ ب؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٩.

(٥) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٢٥ - ٨٢٧.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص١١٣، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون؛ الحضيكي: رحلة =

هناك، مثل وجود أثر لحافر بغلته ﷺ، وأثر لمرفقه وأصابعه ﷺ، وكلها محض افتراء. وقد عُمِّر بعد عهد ابن النجار الذي أشار إلى خرابه[١]، وشاهد السمهودي حجرًا مكتوبًا عليه ما يدل على عمارته عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، كما ذكر أنه مربع الشكل، فطوله وعرضه إحدى وعشرون ذراعًا.[٢]

ومسجد السقيا وهو على يسار الذاهب من العقيق إلى المدينة المنورة في الحرة الغربية. كان متهدمًا في عهد السمهودي وجدد بعد ذلك ببناء جيد، وكان زمن العياشي يأوي إليه الغرباء في بعض الأحيان[٣]. وقد بحث عنه السمهودي بنفسه حتى وجده، وقد بني في عهده بناءً حسنًا مربعًا نحو سبع أذرع في مثلها.[٤]

وقد ورد أن الرسول ﷺ أثناء خروجه إلى غزوة بدر مرّ على بئر السقيا فقال: ائتوني بوضوء، فتوضأ ثم قام واستقبل القبلة ودعا للمدينة وأهلها وصلى هناك، فأقيم مسجد هناك، وقد سُمّي بالسقيا نسبة إلى البئر.[٥]

ورأى العياشي مسجد بني حرام متهدمًا، وبقايا أثره أسفل الوادي، وكان

= إلى الحرمين، ص٨٨.

(١) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٦.

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦٩؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٢٧ - ٨٢٨؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٦/ أ؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٨ - ٢٠٩؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤١٩؛ الأنصاري: آثار المدينة، ص١٣٠ - ١٣١.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٢١ - ١٢٢، الجزء الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦٨؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج٣، ص٨٤٣ - ٨٤٥.

(٥) وموضع المسجد الآن في داخل بناية محطة السكة الحديدية في جنوب البناية، والبئر في جنوب قبة الرؤوس. انظر: صحيح البخاري: ج١، ص٣٢٣؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٦/ ب؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤١٨؛ الأنصاري: آثار المدينة، ص١٣٢.

عليه حائط صغير لا يعرفه أكثر الناس[١]. وحدد السخاوي موقعه في سفح جبل سلع عن يمين السالك إلى مساجد الفتح[٢]. وأشار السمهودي إلى نسبة مسجدين لبني حرام، الأول كبير وقد بناه عمر بن عبدالعزيز[٣]، وأن الرسول ﷺ لم يصلّ فيه، أما المسجد الآخر وهو صغير فصلى فيه ﷺ، وهو أول مسجد طُيِّب في الإسلام بيد رسول الله ﷺ بعد أن رأى نخامة في قبلته.[٤]

ومسجد الراية أو مسجد ذباب الذي يقع على جبل صغير[٥] من المساجد التي بناها عمر بن عبدالعزيز، ويقع على يسار الداخل للمدينة المنورة من طريق الشام، وسمي بمسجد ذباب لأنه بُني فوق جبل ذباب، وسمي بمسجد الراية لما روي أن النبي ﷺ ضرب قبته فوقه في غزوة الخندق.[٦]

ومسجد الفسح وهو ملاصق لجبل أحد على يمين المتجه في شِعْب المهراس، وهو صغير متهدم[٧]. وذكر السمهودي هذا المسجد باسم القبيح وهو

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١١٨ - ١١٩، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون.

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦٨.

(٣) قيل: إن الوليد بن عبدالملك كتب إلى عمر بن عبدالعزيز وهو يومئذ واليه على المدينة المنورة ما مفاده: إنه مهما صح عندك من المواضع التي صلى فيها النبي ﷺ فابن عليه مسجدًا. ومن هذه المساجد التي بناها عمر بن عبدالعزيز هذا المسجد ومسجد قباء. انظر: ابن النجار: أخبار مدينة الرسول، ص١١٦ - ١١٧؛ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص٢٠٩.

(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٣٨، ٨٥٤.

(٥) العياشي: ماء الموائد، ص١٢٢، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٢.

(٦) القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٧/ ب؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٤١٧؛ الأنصاري: آثار المدينة، ص١٢٤ - ١٢٦.

(٧) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٢، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٥.

مشهور، ويزعمون أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾[(١)] نزلت فيه، ولم يجد السمهودي أصلًا لهذا الزعم.[(٢)]

وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في المسجد النبوي وبالأخص في موضع الصُّفَّة، وهي ضيقة فكان ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فأقبل بعضهم وقد سُبقوا إلى المجلس ولم يجدوا مكانًا فوقفوا ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ مرادهم وأخذ يقيم أفرادًا ويُجلِس البدريين. فقال المنافقون: إنه لا يعدل بين الناس، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «رحم الله رجلًا يفسح لأخيه». ونزلت هذه الآية يوم الجمعة. وقيل: نزلت في مجالس الحرب[(٣)]. ومما سبق نجد أنه لا أساس لما يزعم أنه المسجد الذي نزلت فيه تلك الآية.

ومسجد أبي ذر الغفاري، ويسمى مسجد طريق السابلة، وهو إلى الشرق يمين مشهد حمزة رضي الله عنه، في طريق أحد عند آخر النخل، وُصف بالصغر وأنه محاط بأحجار، وقيل: إن النبي ﷺ جلس فيه مستريحًا بعد عودته من أحد[(٤)]. وسماه السخاوي مسجد الأسراف[(٥)]. وذكر السمهودي أنه مسجد صغير جدًا طوله ثماني أذرع وكذلك عرضه، وأشار إلى أنه لم يرد فيه ما يُعتمد.[(٦)]

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٢) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٤٨.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٧، ص٢٦٩ - ٣٠٠؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٣٢٤ - ٣٢٦.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٤، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٥.

(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦٧.

(٦) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٥١.

وهناك مساجد الأعياد، فقد ذكر العياشي مسجدًا في المناخة سماه مسجد العيد، وفي موضع آخر أطلق لفظ مساجد مصلى الأعياد، منها ثلاثة كلها غربي المدينة المنورة، خارج باب المصري بين المناخة وبطحان، وأحد هذه المساجد يسمى مسجد مصلى العيد الآن، والثاني ينسب إلى علي والآخر لأبي بكر رضي الله عنهما.[١]

وقد اكتفى الحضيكي بالإشارة إلى مسجد يسمى مسجد العيد، وأن الناس تصلي فيه العيد في ذلك الوقت.[٢]

وأوضح السمهودي أن هذه الأماكن الثلاثة صلى فيها رسول الله ﷺ العيد، وما كان مشهورًا منها بمصلى العيد فإنه صلى فيها غير مرة، أما الثاني فنسب إلى أبي بكر رضي الله عنه لأنه صلى فيه العيد في خلافته، ونسب الثالث لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لصلاته العيد فيه أثناء حصار عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وأضاف السمهودي أن مصلى العيد كان متعهدًا بالعناية، وقد رأى نقشًا يشير إلى عمارته في عهد السلطان حسن بن قلاوون[٣]، ولكنه لم يستطع قراءة التأريخ. ومما ذكره في وصفه أن بابه في حائطه الشمالي محاذٍ لمحرابه، وكان يوجد خارج بابه عن يمين الداخل درج يصعد منها إلى موضع حسن على ميمنة الباب. وقد أصلح هذا المسجد سنة ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م فأحدث في ميمنة الباب درجة أخرى توصل إلى داخل المسجد وهو موضع قيام الخطيب يوم العيد.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٥٤٠، الجزء الخاص بالمدينة، ص١٤٥، تحقيق أمحزون.

(٢) الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٨٩.

(٣) هو الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، ولد عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م، أحد سلاطين الدولة المملوكية في مصر والشام. تولى صغيرًا. توفي عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م. الزركلي: الاعلام، ج٢، ص٢١٦.

وأحدث أيضًا خارجه سقف لجلوس المُبلِّغين أمام الخطيب. ويقع هذا المسجد غربي وادي بطحان في حارة الدرس.

وكان المسجد المنسوب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه في عهد السمهودي يستعمل أحيانًا حظيرة للحيوانات لوجود حديقة فيها دواب بالقرب منه، وكان مدخل الدواب من باب المسجد، وقد وجد في المسجد موضع سقف فيه المحراب، فعمل جدار في شماله لمنع وصول البهائم إليه، لذا أصبحت رحبة المسجد التي في شماله دهليزًا للدواب. وموقع هذا المسجد شمال غربي المصلى.

أما المسجد المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد اندثر وتهدم، ولكنه أُعيد بناؤه في سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م. ويقع هذا المسجد أيضًا غربي المصلى إلى الشمال.[١]

ومسجد أُبَيٍّ بن كعب الذي بني قرب مشهد العباس[٢] بناه عمر بن عبدالعزيز، وورد أن النبي ﷺ صلى فيه غير مرة، ويسمى هذا المسجد أيضًا مسجد بني جديلة، وقد وصف السمهودي جزءًا من عمارته إذ يبدو أنه كان متهدمًا فقد رأى فيه أسطوانة قائمة، وذُكِر له أنه كان فيه عقدان سقطا، وأشار إلى أن بقاياه تشهد بأنه كان مبنيًا بالحجارة المنقوشة، وأضاف أن بعض الأشراف قد اتخذ رحبته الواقعة شمال الأسطوانة القائمة مقبرة.[٣]

ومسجد الثنية ويقع بالقرب من مشهد حمزة رضي الله عنه، وهو مسجد

---

(١) انظر المزيد حوله في السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٧٨٦ - ٨٧٩؛ القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٥/ ب؛ الأنصاري: آثار المدينة، ص١١٨ - ١٢٠؛ سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ص٢٥٣ - ٢٦٠.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٧٧، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون.

(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٦٧؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٥٢ - ٨٥٤.

صغير مبني بالحجارة المنحوتة، مرتفع عن الأرض بأقل من قامة، ويصعد إليه بواسطة درج. وهذا المسجد غير مسقوف ولا مرتفع الجدران. وقد حدد العياشي موقعه في ركن جبل عينين الشرقي في قبلة مشهد حمزة رضي الله عنه، وهو الموضع الذي طُعن فيه. وأشار إلى مسجد آخر يسمى مسجد الوادي يقع على شفيره شمالي جبل عينين وفيه صرع حمزة رضي الله عنه.[(١)]

وقد ذكر السمهودي هذين المسجدين وأكّد أنه لم يثبت فيه أثر يُعتَمد عليه، وإنما هو قول مستفيض، فالمسجد الذي يُزعَم أنه موضع طعن حمزة رضي الله عنه يذكر أيضًا أنه المكان الذي كُسرت فيه ثنية رسول الله ﷺ[(٢)]. وأكد أن كل هذه الأقوال التي شاعت لدى أهل المدينة المنورة لم يرد فيها أثر يعتمد.

أما المسجد الآخر الذي يسمى مسجد الوادي فقد وصفه بالخراب في أكثر جهاته، وأشار إلى أنه كان مبنيًا بالحجارة المنقوشة، وفيه بقايا أسطوانات، إذ هو على هيئة المساجد التي بناها عمر بن عبدالعزيز، لأن النبي ﷺ صلى فيه بجيشه الصبح عند ذهابه إلى أحد، وقد سماه أيضًا مسجد العسكر.[(٣)]

ونستنتج مما سبق ذكره أن بعض المساجد التي شاع ذكرها خلال ذلك الوقت لم يرد فيها أثر، وإنما هي من جملة ما ابتدعته مخيلة بعض من الأهالي.

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون.

(٢) الغنامي: رحلة القاصدين، ص٧؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٩٠؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٦٥.

(٣) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٤٨ - ٨٥١.

مساجد المدن الحجازية الأخرى

جدة:

لم يزرها أحد من الرحالة المغاربة إلا العياشي الذي وصف جامعها الكبير بالجمال، فقد رأى فيه أعمدة من خشب الساج مخروطة على هيئة أعمدة الرخام، طُيِّب عودها، يحسبها من يتأملها رخامًا أحمر، وقيل له مقولة مُبَالَغٌ فيها عن هذه الأعمدة، إذ أرجعوا وجودها إلى صدر الإسلام، فقد قيل له: إنها جلبت من كنيسة في الحبشة عندما فتحها المسلمون.(١)

وعندما زار البتنوني جُدة ذكر أن أكبر مساجدها يسمى مسجد عكاشة، وربما يكون هذا المسجد هو المعنيّ في إشارة العياشي، فالبتنوني ذكر أيضًا أربعة مساجد أخرى، منها مسجد للحنفية والثاني للشافعية والثالث للمالكية.(٢)

وإذا عدنا إلى الوراء وجدنا أن ابن جبير لم يذكر سوى مسجدين، أحدهما نَسَبَه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والآخر نسبه إلى هارون الرشيد، وسماه مسجد الأبنوس لوجود ساريتين كبيرتين فيه من خشب الأبنوس. وقد أكد التجيبي بعد ذلك ما ذكره ابن جبير، ولكنه ضعَّف نسبة المسجد الأول إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورجَّح نسبته إلى عمر بن عبدالعزيز(٣). ولعلها الأرجح لكون جُدة لم تصبح ذات شأن وميناء لمكة المكرمة إلا في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.(٤)

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

(٢) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٧٧.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٥٣؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢١٨ - ٢١٩؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٤٣.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص١٤١.

وقد ذكر ابن فرج أن بناء أول مسجد في جُدة كان بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأضاف أن هناك مسجدًا آخر يماثله في القِدَم يسمى مسجد الأبنوس[١]. ويحمل مسجد الأبنوس الآن اسم مسجد عثمان بن عفان رضي الله عنه.[٢]

وحدد إبراهيم رفعت عدد جوامع جُدة بخمسة، أما المساجد الصغيرة فثلاثون، مفروشة كلها بالحُصُر الناعمة الجميلة النظيفة. وأشار إلى طريقة بنائها التي تخدم بيئة البلد، فذكر أنها بنيت بحيث تكون مرتفعة عن مستوى الأرض بثلاثة أمتار، ويُصعَد إليها بدرج من الحجر، وذلك تجنبًا لدخول ماء البحر إليها ومن ثم تبللها، إضافة إلى الرطوبة الشديدة. وأضاف أنه على الرغم من هذه الاحتياطات إلا أنها تكون مبللة عند رطوبة الجو.[٣]

الطائف:

اكتفى العياشي عندما زار الطائف بالإشارة إلى مسجد واحد فيها هو مسجد ابن عباس رضي الله عنهما وأغفل وصفه.[٤]

أما إبراهيم رفعت فذكر أن في الطائف ستة جوامع، أشهرها جامع ابن عباس رضي الله عنهما، بالإضافة إلى سبعة مساجد أخرى أغفل وصفها.[٥]

وذكر العجيمي الذي كان معاصرًا للعياشي وجود ثلاثة عشر مسجدًا

---

(١) ابن فرج: السلاح والعُدة، ص٥١.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٩؛ الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ص٤٢٩.

(٣) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٢٢.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤١١.

(٥) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٣٤٦.

في الطائف، منها مسجد ابن عباس الذي دُمِج معه مسجد آخر ينسب إلى الرسول ﷺ، وأورد وصف مسجد ابن عباس المعماري، فمن ذلك أنه مشتمل على أربعة أروقة في جهة القبلة، كما وجد منبر من الخشب بعُلُوِّ عشر درجات عليه قبة صغيرة من الخشب ليس بينها وبين سقف المسجد إلا نحو شبرين، وأمام هذا المنبر باب على يمينه محراب من الرخام مكون من قطعة واحدة بارزة عن جدار المسجد، وعليه وحوله بناء مرصوف بنورة، وأشار أن للمسجد ثلاثة أبواب في يمينه ويساره ومؤخرته. كما وجدت فيه منارة في ركن مؤخرته.[١]

المساجد في درب الحجاز

منها مسجد الشجرة في ذي الحليفة الذي وصفه القيسي بالعظمة وانتشار النخل حوله[٢]، وذكر القليوبي أنه كان مربع الشكل فطوله اثنان وخمسون ذراعًا وعرضه كذلك[٣]. واتفق السمهودي مع القليوبي في ذرعه، وأضاف أن سبب تسميته بالشجرة لبنائه مكان شجرة كانت هناك، وقد جُدِّد هذا المسجد في عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م على أساسه القديم، وبقي موضع المنارة على حاله في الركن الغربي، وأُضيف إلى بنائه ثلاث درجات من الشرق والغرب والشمال، في كل جهة درجة مرتفعة لمنع دخول الدواب إليه، وكان قبل تجديده لا أثر لمحرابه لاندثاره فجُعِل المحراب في وسط جدار القبلة.[٤]

ومنها مسجد الغزالة الذي شاهده القيسي محاطًا ومفروشًا بالرمل، وله محراب، ويقع هذا المسجد بالقرب من قبور الشهداء في الروحاء على قارعة

(١) العجيمي: إهداء اللطائف، ص٥٩ - ٦٠، ٧٣ - ٨٢.

(٢) القيسي: أنس الساري، ص٩٢. ولمزيد من التفاصيل عنه انظر: سيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ص٢٨٧ - ٢٩١.

(٣) القليوبي: النبذة اللطيفة، ص٣٩/ ب.

(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص١٠٠٤.

الطريق، واكتفى العياشي بذكره وأغفل وصفه.[(١)]

كما أهمل السمهودي وصفه وسماه أيضًا مسجد المنصرف، وذكر أنه يقع في آخر وادي الروحاء في طريق الجبل على يسار الذاهب إلى مكة المكرمة، وذكر في الخلاصة أنه متهدم ولم يبق إلا رسمه.[(٢)]

ومسجد العشيرة في ينبع، اقتصر الرحالة المغاربة على ذكره، وأنه من المساجد التي صلى فيها النبي ﷺ في ينبع[(٣)]، كما أن السمهودي أثبته وأهمل وصفه[(٤)]. وعندما زار إبراهيم رفعت ينبع أشار إلى وجود ثلاثة جوامع وتسعة مساجد صغيرة.[(٥)]

ومسجد الغمامة في بدر، اكتفى الرحالة المغاربة بذكره فقط[(٦)]. وكذلك السمهودي أغفل وصفه.[(٧)]

ولا شك أن المسجد ملازم لأي تجمُّع سكاني، ولكن الملحوظ على الرحالة المغاربة إهمال تعدادها، إما لضآلة شأنها، أو لأنها واقع لا بد منه، وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد إشارات طفيفة حول المساجد مثل وجود مسجدين صغيرين في عقبة السكر يقال: إنه صلى في أحدهما رسول الله ﷺ[(٨)]. ومسجد

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص٩١؛ العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٢.

(٢) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص١٠١٠؛ السمهودي: الخلاصة، ص٤٢٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٥؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٧٦.

(٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص١٠٢٦.

(٥) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج٢، ص١٢ - ١٣.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٣؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١١٧.

(٧) السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص١٠٢٦.

(٨) العياشي: ماء الموائد، ج١، ص١٧١، الطبعة الحجرية؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٢، ج٢، ص٤ - ٥؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٣٨، ٩٦، ١٢١؛ أبو مدين: =

في الجديدة، والنازية، والروحاء وهي متقنة البناء، وكذلك في الكديد[١]. ووجد في عيون القصب مسجد بُني بالحجارة المنحوتة، ويبدو أنه كانت تقام فيه جمعة لوجود منبر فيه[٢]. كما وجد مسجد في عسفان ورابغ متهدم المنارة، ووجد مسجد متهدم في الحديبية.[٣]

المنشآت المعمارية الأخرى

عمارة المنازل السكنية:

أغفل الرحالة المغاربة الإشارة إلى النمط السائد في العمارات المدنية في مدن الحجاز وقراه، وكل ما لمسناه في كتاباتهم لا يعدو إشارات يسيرة، فمثلًا أشار بعضهم إلى أن البناء في القرى كان عبارة عن أعشاش متواضعة.[٤]

أما المدن فقد اكتفى الرحالة المغاربة بلمحات يسيرة عنها، وسنحاول تتبعها فيما يأتي.

ففي مكة المكرمة عرف أهلها وأتقنوا بناء المنازل المتعددة الأدوار، وخاصة القريبة من المسجد الحرام التي كانت متصلة به عن طريق سطوحها، بالإضافة إلى أن هناك بعض المنازل كانت أبوابها مشرعة تجاهه[٥]. وهذا النمط ذو الأدوار المتعددة كان سائدًا قبل ذلك، فقد تحدث عنه ابن جبير وابن

= الرحلة الحجازية، ص١٢١ - ١٢٢؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٣٥.

(١) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص٤ - ٥، الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص١٢١.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٤١.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٠، ١٧١، ٤٠١؛ ج٢، ص٩٤، الطبعة الحجرية.

(٤) القيسي: أنس الساري، ص٧٢، ٩١؛ اليوسي: رحلة اليوسي، ص٨٨/ ب؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٢؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢١؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٥.

(٥) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٧٥ - ١٧٦.

بطوطة.[١]

كما بنى أهل مكة المكرمة ولا سيما الأمراء والتجار والعلماء منازل لهم في منى، خصصوها لنزولهم في أيام الحج، والخروج إليها للنزهة وقت الربيع، وأشار العياشي إلى جمالها وإتقان بنائها وعلوها، وذلك يشير إلى تعدد أدوارها التي كانت نوافذها مطلة على سوق منى، وقد حوت هذه المنازل جميع المرافق والمصالح التي لا بد من وجودها في المنازل، وكان من ضمن نظامها المعماري مجالس عالية كالدكاك لها نوافذ كبيرة تشرف على الطريق.[٢]

وفي المدينة المنورة بنى أهلها أيضًا دورهم على نظام الطوابق المتعددة، ولا سيما المنازل التي كانت قريبة من المسجد النبوي[٣]. كما أقاموا منازلهم على حافتي وادي بطحان الذي كان يسيل أيام الأمطار، لذا عمل أهل المدينة المنورة نوافذ هذه الدور على مجرى هذا الوادي لجمال المنظر في تلك الأوقات.[٤]

وكانت المنازل في جدة تبنى في السابق من الأخصاص، وفنادقها ذات أدوار متعددة وسطوح واسعة[٥]. أما في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين فقد شهدت انبساطًا عمرانيًا ممتدًا على ساحل البحر بنحو ميلين كما ذكر العياشي. كما وُجدت فيها الفنادق التي أُعدَّت لنزول الزوار والمسافرين[٦]. ونلحظ أن العياشي لم يوضح الطراز المعماري المستخدم في بناء دورها،

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٨١، ١٢٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٠، ١٦٦.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٥. ويقصد بهذه المجالس ما يعرف بالرواشين البارزة في المجالس.

(٣) الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص١٤١.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٦٩، الجزء الخاص بالمدينة، تحقيق أمحزون.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص٥٤؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢١٨ - ٢١٩.

(٦) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

ويبدو أن جدة لم تَشُذَّ في طريقة بنائها عن النمط المعماري الشرقي في العالم الإسلامي.[١]

أما الطائف فقد اقتصر العياشي على وصف منازلها بالجمال وشبَّهها بالقصور، وأشار إلى أن من ضمن التقسيمات المعمارية الداخلية لهذه المنازل مجالس خاصة بالضيوف معزولة عن داخل المنازل.[٢]

أما المنشآت المعمارية الأخرى التي ورد لها ذكر في أثناء كتب الرحلات المغربية فلم يتحدث الرحالة المغاربة كثيرًا عنها، اللهم إلا إثبات وجودها، ومنها:

- **الرباطات**: إذ تحدث العياشي عن رباط قايتباي في مكة المكرمة، وذكر أنه يشتمل على غرف كثيرة واسعة تحتوي على جميع المرافق من أخلية للوضوء ودورات للمياه[٣]. ويبدو أن هذا النظام كان سائدًا في جميع الرباطات.
- **السجون**: أشار العياشي إلى وجود سجن في مكة المكرمة خُصِّص لاحتجاز اللصوص وقطاع الطرق[٤]. كما وجدت دار للإمارة في مكة المكرمة خصصت لإدارة أمور الحكم[٥]. وكانت هناك محكمة للفصل في المنازعات، وكانت نوافذها تطل على المسعى[٦]، ولا يعني هذا أن المدن الحجازية الأخرى لم يكن فيها مثل هذه المنشآت إذ كان لا بد من

---

(١) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ص٣٣.
(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤١٠.
(٣) المصدر السابق، ص٣٩٦.
(٤) العياشي: ماء الموائد، ص١٥٢.
(٥) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤.
(٦) المصدر السابق، ص٣٩٧.

وجودها ولكن لم يشر الرحالة المغاربة إليها.

- **المتاحف**: بنى أهل المدينة المنورة بناءً ذا قبة أمام قبة حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، وكانوا يضعون في داخلها ما يُزعَم أنه يخص حمزة رضي الله عنه من أدوات حربية[١]. ومما لا شك فيه أن هذه الأدوات لا تمتُّ له بصلة البتة لأن المؤرخين القدماء لم يأتوا على ذكرها إطلاقًا، وما يهمنا هنا أنه وجد أقدم أنواع المتاحف في الحجاز، وإن اشتملت على أغراض ليس بينها وبين من نسبت إليهم صلة، ولكنها أدوات صنعت في أزمان معينة، تعطي للمطلع والباحث فكرة عن كيفية صناعتها لو بقيت.

- **الطرق**: بذل القائمون وولاة الأمر في الحجاز جهودًا جبارة في تمهيد الطرق، ووضع العلامات عليها داخل أراضي الحجاز عمومًا[٢]، وفي مكة المكرمة على وجه الخصوص، فمن ذلك تمهيدهم لمدخل مكة المكرمة الأعلى، وهو طريق الحجون، فقد وصف الرحالة المغاربة الجهود المبذولة في إزالة الصخور من الطريق وتمهيده ليكون صالحًا لمرور قوافل الحجاج، وكيف أنه أصبح واسعًا، ولكنهم على الرغم من ذلك أشاروا إلى ضيقه عند مرور أعداد كبيرة من الناس فيه.[٣]

---

(١) القيسي: أنس الساري، ص١٠٧.

(٢) أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢١ - ١٢٢.

(٣) العياشي: ماء الموائد، ص١٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص١؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٤؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٨٩.

الأسوار في مكة المكرمة:

على الرغم من وقوع مكة المكرمة بين الجبال إلا أن أهلها شيدوا أسوارًا على مداخلها، فقد شاهد العياشي سورها الذي تهدم عقب سيل عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م، كما ركَّبوا على هذه الأسوار بابين، الأول يقع في أعلاها ويسمى باب المعلى، والثاني في الشبيكة ويسمى باب الشبيكة.[١]

وبناء الأسوار على مداخل مكة المكرمة لم يكن وليد احتياج ذلك الوقت، بل وجد من قبله بكثير، إذ تشير المصادر إلى أن أول سور أقيم حولها كان زمن المقتدر بالله الخليفة العباسي، ويبدو أن أهالي مكة المكرمة حافظوا على بقائه، فكانوا كلما تهدم أعادوا بناءه على مرِّ السنين، إضافة إلى أنه كان لها قبل القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ثلاثة أبواب لا بابان فقط كما أشار الرحالة المغاربة.[٢]

المدينة المنورة:

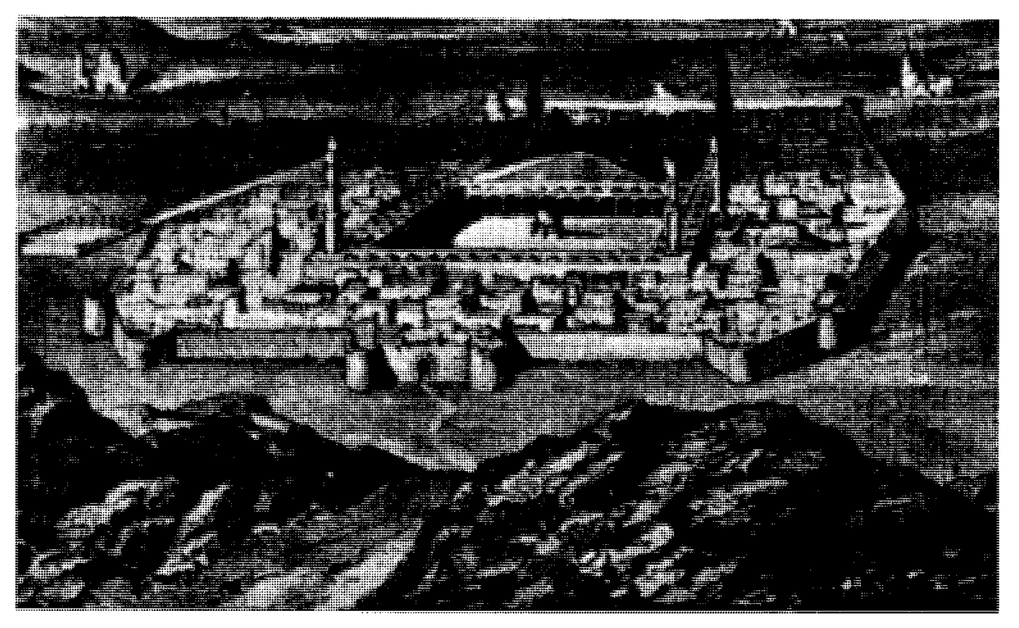
أقيم حولها سور شاهده الرحالة المغاربة ووصفوه بالعظمة والبناء القوي، وقد جُعلت فيه منافذ رُكِّبت عليها أبواب يسمى الأول باب البقيع ويقال له باب الجمعة أيضًا، والثاني باب الشامي لاعتياد الحجاج الشاميين النزول بقربه، والثالث باب المصري لاعتياد الحجاج المصريين النزول عنده،

---

(١) العياشي: ماء الموائد، ص٣٩٤؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٨؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٨٧؛ الغنامي: رحلة القاصدين، ص١، ٥؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٢٤، ١٣٧؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٩٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٩١؛ ابن المجاور: تأريخ المستبصر، ص٩١٠؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص١٧٣؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٣٢ - ٢٣٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٣١؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣٠٨ - ٣٠٩؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٢٦؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٤٠٠ - ٤٠٢.

وباب آخر صغير بجوار الباب الشامي. وكانت هذه الأبواب تفتح نهارًا وتغلق ليلًا. وقد استخدمت في بنائها الأحجار المنحوتة وأقيمت في جوانبها الأبراج الضخمة.[١]



الشكل رقم (١٥) يمثل المدينة المنورة بأبراجها وأسوارها كما كانت في القرن الثاني عشر الهجري
نقلًا عن كتاب المدينة المنورة تطورها العمراني

ولا شك أنه شُيِّد حول المدينة المنورة سور منذ القِدَم، فقد شاهده الرحالة المغاربة السابقون، ومرت عليه أزمنة تعرض فيها للخراب، ولكنه سرعان ما يعاد بناؤه لأهميته في حماية حياة سكان المدينة المنورة، بل إنه قد أقيم حولها سوران متلاصقان إمعانًا في الحماية من الأخطار.[٢]

(١) القيسي: أنس الساري، ص٩٦، ١٠٧، ١٢٦؛ العياشي: ماء الموائد، ص١٧٢، ٥٥٠؛ الجزء الخاص بالمدينة، ص٨٧، تحقيق أمحزون؛ القادري: نسمة الآس، ص١٠٠، ١٠٣؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج٢، ص١٠؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين، ص٧٧؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٥.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٣، ١٧٥ - ١٧٦؛ العبدري: الرحلة المغربية، ص٢٠٣؛ البلوي: =

جُدَّة:

وجد لجُدة سور منذ القدم، فقد أشار إلى آثاره ابن جبير وابن مجاور، وكان يشتمل في ذلك الوقت على أربعة أبواب[1]. واستمرت المحافظة على وجود السور حول جُدة في القرون التالية، وآخر بناء له كان في نهاية عهد الدولة المملوكية.[2]

الحصون والقلاع:

شاهد الرحالة المغاربة في المدينة المنورة قلعة حربية متقنة البناء، ذات أبراج عالية لحمايتها من الهجمات الخارجية عليها[3]. وقد اقتصروا على الإشارة إلى هذا الحصن دون التدقيق في وصفه.

وفي جُدة رأى العياشي قلعتين حربيتين متقنتي البناء، حُشد فيهما العديد من المدافع الكبيرة والصغيرة لحمايتها من الهجمات البحرية. وكان يقع كل حصن في طرف من أطرافها الشرقية والغربية.[4]

الحصون والقلاع التي كانت في درب الحجاز:

شُيِّدت حصون متعددة على طول درب الحجاز في المناطق التي تكثر فيها الهجمات على المسافرين والحجاج، وقد بنيت بإتقان شديد وبناء قوي،

= تاج المفرق، ج١، ص٢٩٠؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٢، ص٢١٣؛ المحجوب: قرة العين، ص٤٢/ أ - ٤٢/ ب؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٧٦٨؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٤٠٣.

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٥٤؛ ابن المجاور: تأريخ المستبصر، ص٤٣؛ نواب: الرحلات المغربية، ص٤٠٣.

(٢) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

(٣) القيسي: أنس الساري، ص١٢٦؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٥٥.

(٤) العياشي: ماء الموائد، ص٤٠٢.

وإن لم يهتم الرحالة المغاربة كثيرًا بوصفها، ولكنهم امتدحوا وجودها وما وفرته من أمن، ومن أمثال المناطق التي أقيمت فيها القلاع عجرود، وبندر النخيل، والمويلح، والوجه، وينبع، والدهناء، وخليص.[1]

ومما سبق نلحظ أن منطقة الحجاز كان فيها القلاع والحصون والأسوار، وإن لم يتحدث الرحالة المغاربة كثيرًا عن التفصيلات المعمارية الدقيقة أو عن المواد المستخدمة في بنائها. ولكن ما يهمنا أنه وجدت مثل هذه المنشآت الحربية في أرض الحجاز وعرفها أهلها.

(١) القيسي: أنس الساري، ص٧٢، العياشي: ماء الموائد، ص١٤١ - ١٤٣؛ الرافعي: المعارج المرقية، ص١٢٠؛ القادري: نسمة الآس، ص١١٢؛ الدرعي: الرحلة الناصرية، ج١، ص١٤٩، ١٥٦، ١٦٤؛ أبو مدين: الرحلة الحجازية، ص١٠٢، ١٠٥، ١٠٩؛ الزبادي: بلوغ المرام، ص٥٥ - ٥٧، ٦٣، ٦٦، ٨٥.



الخاتمة



الخاتمة

حظي الحجاز بالعديد من الدراسات، وتحقيق كثير من المخطوطات التي أُلفت في تاريخه، لما له من منزلة عظيمة في نفوس المسلمين، وقد استخدمت جميع المصادر للإلمام بتاريخ هذه البقعة المهمة. ولكن لم يؤخذ في الحسبان الاعتماد على كتب الرحالة المغاربة وإظهار أهميتها بوصفها مصدرًا مهمًا من مصادر تاريخ الحجاز لا يمكن الاستغناء عنها، إذ لم تحظ بالدراسة والبحث الكافيين بعد، وفي هذا العمل الذي أرجو الله تعالى أنني قد وُفّقت في إنجازه اعتمدت على كتب الرحلات في المغرب الأقصى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين لأهمية تلك الكتب بكونها مصدرًا لتاريخ الحجاز خلال ذلك الوقت. وقد وفقني الله إلى أن حققت هذه الدراسة كثيرًا من النتائج في مختلف الجوانب العلمية والدينية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك السياسية والعمرانية وفق المعلومات الآتية:

الجانب العلمي:

بني الإسلام على خمسة أركان، وكان الركن الخامس هو الحج لبيت الله الحرام، فتطلب هذا القيام بالرحلة إليه لأداء هذا الركن.

ثبت في هذا الكتاب من خلال رحلات الحج الحجازية ظهور أسماء رحالة مغاربة أتقنوا فنون الرحلة وآدابها التي منها الاستخارة المتكررة قبل القيام

بها، والخروج يوم الخميس، والالتزام بتقييد تاريخ الخروج والعودة والنزول والانتقال من كل منزل نزلوه، ولقاء العلماء والأخذ عنهم، والترجمة لهم. فأفرز ذلك كله رحلات أصبحت بمثابة موسوعات علمية مصغرة لما حوته من معلومات مهمة لجميع أحوال المسلمين في ذلك الوقت، إضافة إلى أنها ضمت قوائم لأسماء العلماء البارزين وأهم مؤلفاتهم والعلوم التي تخصصوا وبرعوا فيها. فالرحالة كانوا بمثابة العين اللاقطة، يستقطب اهتمامهم جميع الأمور وإن صغرت بحسب ميلهم.

وبرهن هذا الكتاب أنه وجد في الحجاز في ذلك الوقت جميع المذاهب الإسلامية بعلمائها الذين دفعوا بالحركة العلمية قدمًا، وإن ظهر المذهب الحنفي بكونه مذهبًا رسميًا لاتِّباع الدولة العثمانية له، ولكن لم يمنع ذلك من بروز جميع المذاهب بفقهها. وقد تبين أن ذلك العصر لم يكن ظلامًا دامسًا كما كان يُعتَقد بل كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة مبدأ الحركة العلمية ومنتهاها وحلقة الوصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

وبرهن هذا الكتاب على أن المدينتين المقدستين قد لمع فيهما أسماء علماء كانوا ينتقلون للمجاورة مدة في مكة المكرمة، وأخرى في المدينة المنورة بدون مضايقات أو عقبات، كما ظهر علماء مخترعون في علم الميكانيكا وضعوا فيها المؤلفات. إضافة إلى وفرة الكتب التي وُجد النساخون لها والمُجلِّدون، كما وجدت وسائل نشرها وتبادلها، ووجدت المكتبات الخاصة والعامة الموقوفة على طلبة العلم، والتي حوت النفيس والغريب منها، فأكب الطلبة على العلم والنهل منه بعدما أُمِّنت لهم الإقامة والرواتب التي كانت تصل خصيصًا لهم ولمدرسيهم.

خصت المدينة المنورة في ذلك الوقت بجميع أنواع الكتب العلمية، حيث كانت تهدى إليها نسخ من كل كتاب يؤلف.

بروز أثر المسجدين المكي والمدني اللذين كانا بمثابة جامعتين مفتوحتين يتوافد إليهما طلبة العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي بيسر وسهولة، علاوة على تصدُّر من نال درجة عالية منهم للتدريس، كما وجدت المدارس وإن لم يظهر أثرها كاملًا كظهور أثر المسجدين المكي والمدني.

وجد في المدينتين المقدستين أعداد هائلة من العلماء الذين لم يكونوا من أبناء الحجاز وحدها، وهؤلاء أدوا عملًا بارزًا في رواج الحركة العلمية فيهما. وهذا ظهر جليًا من خلال ما سجله الرحالة المغاربة من أسمائهم وتراجمهم التي زادت على ما ورد في كتب التراجم حول الشخصيات التي ذكرها الرحالة المغاربة نفسِها.

كما لحظ أن هؤلاء العلماء منهم من كان يفد سنويًا إلى الحجاز وخاصة علماء اليمن، ومنهم من كان يفد بعد سنوات.

وهكذا نجد أن المدينتين المقدستين قد تهيأ لهما ما لم يتهيأ لغيرهما من مدن العالم الإسلامي من توافد العلماء الذين ذاع صيتهم وشهرتهم العلمية عليهما، وكانوا يعقدون حلقات الدرس في المسجد المكي والمدني اللذين كان نظام التعليم فيهما يسير وفق نظم وقوانين محددة من حيث تخصيص أيام معينة للدراسة وأخرى للإجازات، كما حددت العلوم التي تُدرَّس والأماكن التي تعقد فيها حلقات تلك الدروس، إذ كان لكل عالم وشيخ زاوية أو ركن خاص به وخزانة لكتبه العلمية الموقوفة على طلبته، فيدرّسهم ويعطيهم الإجازات.

تولى بعض العلماء مقاليد بعض الوظائف إلى جانب قيامهم بالتدريس، فمن هذه الوظائف القضاء والخطابة والإمامة والفتوى في المدينتين المقدستين.

ظهور مكانة الطائف العلمية لإقامة بعض العلماء فيها في ذلك الوقت وعقدهم حلقات العلم بمسجد ابن عباس رضي الله عنهما.

جلوس بعض الرحالة المغاربة للتدريس في المسجدين المكي والمدني والتفاف طلبة العلم حولهم لغزارة علمهم وسعة اطلاعهم، فعلماء المغرب لم يكونوا أقل مكانة علمية من نظائرهم في المشرق، فقد أشارت الرحلات إلى كثير من المواقف التي يبدي فيها الرحالة رأيه في قضايا مثارة فيلاقي الإعجاب والتقدير. وبهذا لم تكن رحلة هؤلاء الرحالة المغاربة دائمًا للتلمذة والدرس والطلب، بل كانت لأهداف أخرى كزيارة المراكز الثقافية والحصول على الرواية والسند العالي والحصول على الكتب ولقاء العلماء ومجالستهم.

كانت قوافل الحجيج في ذلك الوقت بمثابة مدارس متنقلة من حيث انعقاد حلقات الدروس أو ترك الكتب في بعض المدن وأخذ غيرها.

لم تكن حلقات العلم تعقد باللغة العربية وحدها، بل كانت هناك لغات أخرى كالتركية والفارسية مثلًا.

الجانب الديني:

أظهر هذا الكتاب ضعف الحالة الدينية في الحجاز بسبب شيوع التصوف على المستوى الشعبي والرسمي، فأصبح مرتعًا خصبًا لظهور كثير من البدع والخرافات التي منها ظهور أنوار الرسول ﷺ قبل الوصول للمدينة المنورة، وأخرى تتعلق بالصحابة رضوان الله عليهم، ومنها ما يتعلق بالأماكن المأثورة.

كما وضح هذا الكتاب تفشي عادة التبرك بقبور الأولياء والصالحين وبناء القباب والأضرحة عليها والاجتهاد لزيارتها وتقديم النذور للقائمين عليها.

وأوضح أيضًا استفحال البدع والخرافات بين طبقات المجتمع الحجازي دون استثناء، الأمر الذي أدى إلى أن صدَّق الرحالة المغاربة بعضها فكانوا مهيئين لقبولها فضمَّنوها كتاباتهم، وهناك بدع لم يُصدِّقوها فنبهوا إليها وأشاروا إلى بطلانها. وهذا يعطينا تصورًا واضحًا عن ضعف الحالة الدينية في ذلك العصر.

وأثبت هذا الكتاب أيضًا أن أغلب ما وجد من أماكن نسبت للرسول ﷺ وصحابته الكرام، إنما ألحقت نسبتها إليهم بعد أزمنة طويلة وذلك يؤكد عدم صحة هذه النسبة.

ورأينا ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن وجد في بعض الأوقات من يقوم بذلك، ولكن ينتهي الأمر بمجرد وفاته أو انتهاء مدة عمله.

الجانب الاجتماعي:

برهن هذا الكتاب على تعدد الأجناس في المجتمع الحجازي، واختلفت تركيبته السكانية بسبب مركزه الديني في نفوس المسلمين، حيث شكل المجاورون بأجناسهم المختلفة نسبة كبيرة.

وبسبب اختلاف التركيبة السكانية في الحجاز ومكانته الدينية أظهر الكتاب عادات وتقاليد وافدة مع هؤلاء الأجناس انفرد بها عن سائر الأقطار الإسلامية.

انفرد بعض الرحالة المغاربة برصد الحياة الاجتماعية في الحجاز وخاصة لمن طالت مجاورته، وهذه الناحية هي التي أغفلها كثير من المؤرخين كما أوضح ذلك هذا الكتاب.

عاش أهل المدينة المنورة حياة مترفة في حين لم يتعود أهل مكة المكرمة على مثل ذلك.

تميزت الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة بتفوّق نفوذ المرأة على الرجل وتحكمها فيه مقارنة بالمناطق الأخرى في الحجاز.

الجانب السياسي:

ثبت أن الاضطراب السياسي قد عم الحجاز داخليًا في بعض الأزمنة التي يتناولها البحث بسبب تصارع الأمراء الأشراف فيما بينهم على الإمارة، كما تصارع الأمراء الأشراف مع أمراء الحج وباشوات جدة لإحكام السيطرة.

اكتفت الدولة العثمانية خلال تلك المدة بعزل الأمراء الأشراف عند تفاقم الاضطرابات وتعيين غيرهم من الأسرة نفسها.

كان لباشوات جدة ومصر اليد الطولى في تسيير أمور الحجاز وكذلك أمراء الحج حتى كان بإمكانهم عزل الأمراء الأشراف وتعيينهم؛ وهو ما سبّب كثيرًا من الفوضى والاضطرابات السياسية أحيانًا.

ربطت الحجاز رسميًا بالدولة العثمانية وأصبحت إقليمًا تابعًا لها يضم مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وينبع والطائف، وإن كان إقليم الحجاز يتمتع بمميزات لا تتمتع بها سائر أقاليم الدولة العثمانية.

ارتبط الأمن والهدوء في الحجاز بقوة شخصية الشريف الحاكم ومدى سيطرته على الأوضاع وشؤون القبائل.

كان مبدأ الاشتراك في تولية شؤون الإمارة في الحجاز قائمًا بدلًا عن ولاية العهد خلال تلك المدة، وكان الشريك مخولًا للبت في الأمور وأخذ حصة من واردات الإمارة الاقتصادية.

كان جنوب الحجاز هو المنفى الاختياري للأمراء الثائرين المطالبين بالإمرة بعد فشل توراثهم، يقصدونها إما لتجميع قوتهم ومن ثم العودة لمحاولة

الاستيلاء على الإمارة، ويكون ذلك بقطع الطريق وفرض الحصار الاقتصادي الذي يتضرر منه أهل الحجاز ومجاوروه.

وأوضح هذا الكتاب أنه في وقت المواسم كانت القوانين والأحكام لا تُطبق بدقّة، وذلك يؤدي إلى انتشار حالات السرقة وضعف الأمن خلال الحج والعمرة، ولكن الأوضاع تعود إلى ما كانت عليه بعد رحيل الحجاج.

وأيضًا كان اهتمام الحراس بالشريف سببًا في إهمال المرافق العامة في المشاعر المقدسة والمباني التي يسكنها الحجاج وطرق القوافل، الأمر الذي يزيد في ضعف الأمن والأمان لضيوف الرحمن.

ورأينا أن الدولة العثمانية كانت تولي الحجاز عناية خاصة فحصّنت الثغور المحيطة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وكانت هناك عناية خاصة بمدينة جُدة التي قد تتعرض لهجوم خارجي.

الجانب الاقتصادي:

برهن هذا الكتاب في هذا الجانب أن استمرارية وصول الأعطيات والصدقات وهطول الأمطار يعقبه رخاء اقتصادي عميم مع هبوط في الأسعار وتوافر السلع والحاجات والعكس صحيح.

وأيضًا إتقان أهل الحجاز مهنًا عديدة منها الصياغة والزراعة والبناء.

وأيضًا وجود جالية مغربية أتقنت مزاولة الزراعة، بل وألفوا فيها الكتب، ما أدى إلى امتلاكهم للأراضي واستصلاحها، خاصة في المدينة المنورة التي عرفت بخصوبة تربتها وكثرة مياهها.

وجد من أمراء مكة المكرمة الأشراف من التفت إلى الإصلاح الذي يخدم عموم الحجاج كإنشاء الأسبلة وحفر الآبار وامتلاك المزارع التي تمد

المدينتين بالمنتجات الزراعية، وكذلك بناء الحصون والقلاع للحراسة.

وأثبت هذا الكتاب الاهتمام الكبير من قبل الدولة العثمانية بجميع ما يخص الحرمين الشريفين من إصلاح وترميم، بل وإعادة البناء إذا اقتضى الأمر، وهبَّتها للمساندة والمساعدة بلا حدود عند نزول الكوارث بالحجاز وخاصة السيول المدمرة، وكذلك اهتمامها بتعبيد الطرق وإقامة العلامات وحفر الآبار لتسهيل أمر المسافرين.

معرفة أهل الحجاز لجميع أساليب المعاملات التجارية من بيع وشراء ومقايضة ورهن وغيرها، وظهور عملات محلية حجازية مثل المحلق والمائدية والحرف.

الجانب العمراني:

برهن هذا الكتاب أن هذا الجانب حظي بعناية سلاطين آل عثمان، وخاصة فيما يتعلق بعمارة المسجدين المكي والمدني كلما اقتضى الأمر ذلك، وتمهيد طُرق الحج وحفر الآبار لتسهيل أمور الحجاج.

كما عُرفت أنماط معمارية تلائم بيئة كل مدينة كالتي عُرفت في جُدة مثلًا، كما استخدم البناء المتعدد الأدوار والملائم لتعاليم الإسلام من حيث عزل القسم الخاص بالضيوف عن باقي أرجاء المنزل.

ومما استنتج عن الرحالة المغاربة أنفسهم ما أثبته هذا الكتاب من:

- اهتمام الرحالة المغاربة بتقصي أحوال السكان وخاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع وجدة والقرى التي مروا عليها بحسب استطاعتهم.
- كان معظم الرحالة المغاربة من أهل العلم الذين قوبلوا بالتبجيل

والاحترام في المدينتين المقدستين، بل وتصدرهم للتدريس وإلقاء القصائد الشعرية في مدح خصالهم لذيوع شهرتهم العلمية وعلو مكانتهم الاجتماعية.

- كان معظم الرحالة المغاربة يحملون كتب رحالة سابقين لهم للمقارنة وإضفاء الجديد وتصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها من سبقهم، وأيضًا النقل عنهم في أحيانٍ كثيرة، سواء للأمور التي لم يتسن لهم رؤيتها أو لبعد العهد والنسيان، أو لعدم تغير الأوضاع. وهذا الأمر كان من أهم خصائص الرحلات المغربية ومميزاتها. فحمل كتاب الرحلة عند الرحالة المغاربة كان بمثابة التزود بدليل يهديهم لما هم مقبلون عليه.
- ظهر في ذلك الوقت الرسم إلى جانب الوصف لتقريب ما أرادوا توضيحه ولا سيما للمسجدين المكي والمدني وبعض الأماكن المأثورة والمشهورة. فهذا الأمر لم يكن في الرحلات المغربية السابقة.
- كان خروج الرحالة المغاربة أساسًا للحج والزيارة ومن ثم طلب العلم.
- اعتاد الرحالة المغاربة على الخروج في رحلاتهم الحجازية ومعهم رفيق أو قريب يكون مصاحبًا لهم طوال الرحلة.
- لم يكن الرحالة المغاربة وقت رحلتهم صغار السن، بل كانوا رجالًا خبروا الحياة وعركوها.
- ظهر نوع من كتابات الرحلات، يكون السبب الرئيس في كتابتها مصاحبة شخصية بارزة في الرحلة، فتقيد لتسجيل أفعال هذا الشخص كرحلة القادري واليوسي.
- اعتناء بعض الرحالة المغاربة كالقيسي وأبي مدين بكتابة رحلتهم على هيئة أبواب وفصول يندرج تحتها عناوين للتسهيل على القارئ عند استخراجه أي معلومة يريدها.



المصادر والمراجع

١ - المخطوطات:

البكري، زين الدين محمد بن زين العابدين محمد بن محمد البكري الصديقي كان حيًا أوائل القرن الحادي عشر الهجري

١ - المجاز في حقيقة رحلة الشيخ محمد زين العابدين الصديقي إلى الحجاز: مخطوطة في دار الكتب المصرية. نسخة مصوره عنها.

الحضيكي، محمد بن أحمد، ت١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م

٢ - رحلة إلى الحرمين الشريفين: مخطوطة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط، رقم ٨٩٦.

الدرعي، أبو مدين أحمد بن محمد بن الصغير، ت١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م

٣ - الرحلة الحجازية «الرحلة الكبرى»، «رحلة أبي مدين»: مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ق ٢٩٧.

الرافعي، محمد بن علي، كان حيًا حتى عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م

٤ - المعارج المرقية في الرحلة المشرقية: مخطوطة مكتوبة على آله كاتبة، في مكتبة الدكتور حسن الوركلي.

السويدي، أبو البركات عبدالله، ت١١٧٤هـ/ ١٧٦١م

٥ - النفحة المسكية في الرحلة المكية، دار الكتب القومية، رقم ٩٠٨.

الصباغ، محمد بن أحمد، ت١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م

٦ - تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام: مخطوطة في مكتبة الحرم المكي، رقم ١١ د هـ.

العياشي، أبو سالم عبدالله، ت١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م

٧ - اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر: مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ق ٢٠٨.

٨ - ماء الموائد: مخطوطة في الخزانة الحمزاوية، رقم ١٨٢، المغرب.

ابن غازي، عبدالله بن غازي المكي، ت١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م

٩ - إفادة الأنام بأخبار البلد الحرام: مخطوطة في مكتبة خاصة، صورة عنها.

الغنامي، عبدالرحمن بن أبي القاسم الشاوي الزمزمي الغنامي، كان حيًا عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م

١٠ - رحلة القاصدين ورغبة الزائرين: مخطوطة في المكتبة الملكية بالرباط، رقم ٥٦٥٦.

القادري، أبو العباس أحمد بن عبدالقادر، ت١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م

١١ - نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس: مخطوطة في مكتبة الملك فهد الوطنية.

القليوبي، شهاب الدين أحمد، ت١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م

١٢ - النبذة اللطيفة في بيان مقاصد الحجاز ومعالمه الشريفة: مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٤١١ ك.

المحجوب، أبو عبدالله محمد، توفي في القرن التاسع الهجري

١٣ - قرة العين في أوصاف الحرمين: مخطوطة في مكتبة عِلَّال الفاسي بالرباط، رقم ٤٢٩، ٢٢٠٤.

المنالي، عبدالمجيد بن علي الزبادي، ت١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م

١٤ - بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام: مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ك ٣٩٨.

اليوسي، أبو عبدالله محمد بن أبي علي اليوسي، ت١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م

١٥ - رحلة اليوسي: مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٤١٨.

٢ - المصادر:

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب بعز الدين، ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م

١٦ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: دار الفكر - د.ت.

١٧ - الكامل في التاريخ: بيروت، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الأزرقي، أبوالوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، ت٢٥٠هـ/ ٨٦٤م

١٨ - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: تحقيق رشدي الصالح ملحس، مكة المكرمة، مطابع دار الثقافة، ط٣، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

الأسدي، أحمد بن محمد المكي، ت١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م

١٩ - أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام: تحقيق الحافظ غلام مصطفى، ط١، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

آشي، محمد بن جابر الوادي:

٢٠ - برنامج ابن جابر الوادي آشي: تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، د.ن.

الأفراني، محمد الصغير بن محمد بن عبدالله المراكشي، ت١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م.

٢١ - صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، الطبعة الحجرية.

الأنصاري، عبدالرحمن، توفي بعد ١١٩٧هـ/ بعد ١٧٨٣م

٢٢ - تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق محمد العمروسي المطوي، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٧٠م.

ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م

٢٣ - بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

البتنوني: محمد لبيب، ت١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م

٢٤ - الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.

البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، ت٢٥٦هـ/ ٨٧٠م

٢٥ - صحيح البخاري بحاشية السندي، بيروت - لبنان، دار المعرفة، د.ت.

البركاتي، شرف بن عبدالمحسن

٢٦ - الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة المكرمة الشريف حسين باشا وأعماله في محاربة الإدريسي مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها، دمشق - بيروت، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط٢، د.ت.

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي، ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م

٢٧ - تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «رحلة ابن بطوطة»، بيروت، دار بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

البغدادي، إسماعيل باشا، ت١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م

٢٨ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار العلوم الحديثة، بيروت، لبنان - إستنابول سنة ١٩٨١م - أعادت طبعه بالأوفست.

البكري، أبو عبيد، ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م

٢٩ - جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك: تحقيق ودراسة د. عبدالله يوسف الغنيم، ط١، نشر ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٣٠ - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك:بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.

البلوي، خالد بن عيسى، ت٧٨٠هـ/ ١٣٨٧م

٣١ - تاج المفرق في تحلية علماء المشرق: تحقيق ومقدمة الحسن السائح، د.ت.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م

٣٢ - السنن الكبرى، وفي ذيله الجوهر النقي لعلاء الدين بن علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني، دار الفكر، د.ت.

التبكتي، أحمد بابا، ت١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م

٣٣ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج: إشراف وتقديم عبدالحميد عبدالله الهرمة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، د.ت.

التجيبي، القاسم بن يوسف السبتي، ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م

٣٤ - مستفاد الرحلة والاغتراب: تحقيق عبدالحفيظ منصور، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م

٣٥ - سنن الترمذي: تحقيق وتصحيح عبدالوهاب عبداللطيف، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الثعالبي، ابن إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، ت٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م

٣٦ - قصص الأنبياء المسمى بالعرائس، بهامشه كتاب روض الرياحين من حكايات الصالحين لليافعي، بيروت - لبنان، المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، د.ت.

الجبرتي، عبدالرحمن، ت١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م

٣٧ - تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت، دار الجيل، د.ت.

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني البلنسي، ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م

٣٨ - تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار (رحلة ابن جبير): بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

الجزيري، عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن إبراهيم الأنصاري الحنبلي، من أهل القرن العاشر الهجري

٣٩ - الدرر الفرائد المنظمة في أخبار طرق الحج ومكة المعظمة: نشره وأعده حمد الجاسر، الرياض، منشورات دار اليمامة، د.ت.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي، ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م

٤٠ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: حيدر آباد - الدكن، ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة الدولة الأصفية، ١٣٥٨هـ.

ابن الجيعان، شرف الدين يحيى بن المقر، ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م

٤١ - التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية: نشر مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٤م.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م

٤٢ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: بيروت - لبنان، دار العلوم الحديثة، د.ت.

ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد العسقلاني، ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م

٤٣ - الإصابة في تمييز الصحابة: بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٤٤ - تهذيب التهذيب: ط١، دار الفكر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م.

٤٥ - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: بيروت، دار الجيل، د.ت.

الحربي، أبو إسحاق، ت٢٨٥هـ/ ٨٩٨م

٤٦ - كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة: تحقيق حمد الجاسر، الرياض، منشورات وزارة الحج والأوقاف، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

خسرو، أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي، ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م

٤٧ - سفرنامه رحلة ناصر خسرو القبادياني: الرياض - جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

ابن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي، ت١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م

٤٨ - غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م

٤٩ - معجم البلدان: دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م.

الحميري، محمد بن عبدالمنعم، ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م

٥٠ - الروض المعطار في خبر الأقطار: تحقيق د. إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م، د.م.

ابن حنبل، الإمام أحمد، ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م

٥١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، وفي هامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال:بيروت، دار الفكر - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، د.ت.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله، ت٣٠٠هـ/ ٩١٢م

٥٢ - المسالك والممالك: بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي، ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م

٥٣ - تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت - لبنان، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت٦٨١هـ/ ١٢٨١م

٥٤ - وفيات الأعيات وأنباء أبناء الزمان: تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت.

أبو الخير، عبدالله مرداد، ت١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م

٥٥ - المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر: اختصار وترتيب وتحقيق محمد سعيد العامودي وأحمد علي، ط٢، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، د.م.

دحلان، أحمد زيني دحلان، ت١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م

٥٦ - أمراء البلد الحرام منذ أولهم في عهد الرسول (ص) حتى الشريف الحسين بن علي، بيروت، الدار المتحدة للنشر، د.ت.

٥٧ - خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، وفي هامشه التاريخ المسمى بالإعلام بأعلام بيت الله الحرام، وهو تاريخ مكة المشرفة حرسها الله، ط١، مصر، المطبعة الخيرية، سنة ١٣٠٥هـ.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، ت٢٧٥هـ/ ٨٨٩م

٥٨ - سنن أبي داود: مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، د. ت، د.م.

الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر، ت١١٢٨هـ/ ١٧١٥م

٥٩ - الرحلة الناصرية: الطبعة الحجرية.

الدرعي، ابن عبدالسلام، ت١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م

٦٠ - ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي: عرض وتلخيص حمد الجاسر، ط٢، دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، د.م.

ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م

٦١ - الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين: تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، ط١، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، د.م.

الدكالي، محمد بن علي، ت١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م

٦٢ - الإتحاف الوجيز «تاريخ العدوتين»: تحقيق مصطفى بوشعرك، سلا - المغرب، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة.

الذهبي، شمس الدين، ت٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م

٦٣ - دول الإسلام: تحقيق فهيم محمد شلتوت ومصطفى إبرهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٧٤م، د.م.

ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر، ت٢٩٠هـ/ ٩٠٣م

٦٤ - الأعلاق النفيسة: طبع مدينة ليدن - مطبع بريل - ١٨٩١م.

الرشيدي، الشيخ أحمد، ت١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م

٦٥ - حُسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج: تحقيق د. ليلى عبداللطيف أحمد، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م.

رفعت، إبراهيم رفعت باشا، ت١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م

٦٦ - مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، محلَّاة بمئات الصور الشمسية، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

الرومي، محمد بن خضر الرومي الحنفي، ت ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م

٦٧ - كتاب التحفة اللطيفة في عمارة المسجد النبوي وسور المدينة الشريفة: تقديم حمد الجاسر تحت عنوان رسائل من تاريخ المدينة، الرياض، دار اليمامة، د.ت.

الزبيدي، محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م

٦٨ - شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس: دار الفكر، د.ت، د.م.

الزهري، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، توفي في أواسط القرن السادس الهجري

٦٩ - كتاب الجغرافية: تحقيق محمد حاج صادق، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.

الزياني، أبو القاسم، ت١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م

٧٠ - الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا: تحقيق وتعليق عبدالكريم الفيلاني، الرباط، دار المعرفة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م

ابن زيدان، مولاي عبدالرحمن، ت١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م

٧١ - إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس: الدار البيضاء، ط٢، مطابع أديال، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

٧٢ - المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف: تقديم وتحقيق د. عبدالهادي التازي، الدار البيضاء، ط١، مطبعة أديال، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، ت٩٠٥هـ/ ١٤٩٦م

٧٣ - التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: عُني بطبعه ونشره أسعد طرابزوني الحسيني، د.ت، د.م.

٧٤ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: بيروت - لبنان، ط١، دار الجيل، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ابن سعد، محمد، ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م

٧٥ - الطبقات الكبرى: بيروت، دار صادر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

السمهودي، نور الدين علي بن أحمد، ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م

٧٦ - خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى تاريخ المدينة المنورة: تعليق إبراهيم الفقيه، ط٢، طبعة جعفر الفقيه، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٧٧ - وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٤، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

السملالي، العباس بن إبراهيم السملالي قاضي مراكش، ت١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م

٧٨ - الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: تحقيق عبدالوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، ١٩٧٦م.

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م

٧٩ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، د.م.

٨٠ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: تحقيق ومراجعة عبدالوهاب عبداللطيف، بيروت، لبنان، ط٢، دار إحياء السنة النبوية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي، ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م

٨١ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، رواية الشيخ الإمام مجدالدين أبو المظفر يوسف بن محمد بن عبدالله الشافعي: بيروت، دار الجيل، د.ت.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد، ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م

٨٢ - الملل والنحل: تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

الشوكاني، محمد بن علي، ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م

٨٣ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: بيروت، لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م

٨٤ - نكت الهيمان في نكت العميان: عُني بطبعه أسعد طرابزوني الحسيني، ط١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م، د.ن.

ابن الضياء، محمد بن أحمد بن الضياء المكي، ت٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م

٨٥ - تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف: تحقيق عادل عبدالحميد العدوي، ط١، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

طالب، علي بن أبي طالب

٨٦ - كتاب الجفر الجامع والنور اللامع مذيل برسالة من الشعرة اليمانية وهو في علوم النجوم والطوالع والبروج والطبائع مجموع من أقوال هرمس الحكيم: بيروت، لبنان، دار مكتبة التربية.

الطبري، محب الدين أحمد بن عبدالله، ت٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م

٨٧ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: دار الكتب المصرية.

٨٨ - القرى لقاصد أم القرى: تحقيق مصطفى السقا، ط٢، مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

الطبري، علي بن عبدالقادر، ت١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م

٨٩ - الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء: تحقيق أشرف أحمد الجمال، ط١، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ت٣١٠هـ/ ١٩٢٢م

٩٠ - تاريخ الأمم والملوك: روائع التراث العربي، د.ت.

ابن ظهيرة، جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة القرشي، ت٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م

٩١ - الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف: بيروت، لبنان، المكتبة الشعبية، ط٤، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي المالكي، ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م

٩٢ - الاستيعاب في أسماء الأصحاب: بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

العبدري، أبو عبدالله محمد بن العبدري الحيحي، كان على قيد الحياة سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م

٩٣ - الرحلة المغربية: تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨م، د.ن.

العجيمي، حسن بن علي بن يحيى بن عمر، ت١١١٤هـ/ ١٧٠٢م

٩٤ - إهداء اللطائف من أخبار الطائف: تحقيق يحيى محمود جنيد ساعاتي، الطائف، ط٢، دار ثقيف للنشر والتأليف، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

العصامي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي، ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م

٩٥ - سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي: المطبعة السلفية، د.م، د.ت.

ابن العماد، أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي، ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م

٩٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب: دار الفكر، د.ت، د.م.

العياشي، أبو سالم عبدالله، ت١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م

٩٧ - المدينة المنورة في رحلة العياشي: دراسة وتحقيق محمد أمحزون، الكويت، دار الأرقم للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

٩٨ - ماء الموائد: الطبعة الحجرية.

ابن غنام، الإمام حسين، ت١٢٢٥هـ/ ١٨١١م

٩٩ - تاريخ نجد: تحقيق وتحرير د. ناصر الدين الأسد، ط٢، دار الشروق، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، د.م.

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي، ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م

١٠٠ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٠١ - العقد الثمين في تأريخ البلد الأمين: تحقيق فؤاد سيد، بيروت، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحاق، توفي بعد٢٧٢هـ/ ٨٨٥م

١٠٢ - أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: تحقيق ودراسة عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكة المكرمة، ط١، مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

فرج، عبدالقادر بن أحمد بن فرج، ت١٠١٠هـ/ ١٦٠٠م

١٠٣ - السلاح والعُدَّة في تاريخ بندر جدة: تحقيق وترجمة ودراسة أحمد بن عمر الزيلعي وريكس سميث، د.ت، د.م.

الفشتالي، أبو فارس عبدالعزيز، ت١٠٣١هـ/ ١٦٢١م

١٠٤ - مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا: تحقيق د. عبدالكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، د.ت، د.م.

ابن فهد، عز الدين عبدالعزيز بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي، ت٩٢٢هـ/ ١٥١٦م

١٠٥ - غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام: تحقيق فهيم شلتوت، ط١، دار المدني، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، د.م.

ابن فهد، النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد، ت٨٨٥هـ/ ١٤٠٨م

١٠٦ - إتحاف الورى بأخبار أم القرى: حقَّق أربعة الأجزاء الأولى فهيم محمد شلتوت، وحقَّق الجزء الخامس د. عبدالكريم علي الباز، جامعة أم القرى، دار المدني، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، د.ت.

الفهري، أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، ت٧٢١هـ/ ١٣٢١م

١٠٧ - ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة: تحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م

١٠٨ - المغانم المطابة في معالم طابة، قسم المواضع: تحقيق حمد الجاسر، الرياض، منشورات دار اليمامة، ط١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، ت٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م

١٠٩ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: بيروت، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

القادري، محمد بن الطيب القادري، ت١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م

١١٠ - التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في أخبار وأعيان المئة الحادية والثانية عشر: تحقيق العلوي القاسمي، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١١١ - نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني: تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، نشر وتوزيع مكتبة الطالب، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ت٦٧١هـ/ ١٢٧٢م

١١٢ - الجامع لأحكام القرآن: د.ت، د.م، د.ن.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م

١١٣ - آثار البلاد وأخبار العباد: بيروت، دار صادر، د.ت.

القطبي، عبدالكريم القطبي، ت١٠١٤هـ/ ١٧٠٢م

١١٤ - إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام: علق عليه أحمد محمد جمال وعبدالعزيز الرفاعي وعبدالله الجبوري، ط١، دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، د.م.

القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي، ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م

١١٥ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا: شرح وتعليق ومقابلة نصوص نبيل خالد الخطيب، ط١، دار الفكر - دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، د.م.

القيسي، أبو عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، كان حيًا حتى عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م

١١٦ - أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ﷺ: تحقيق محمد الفاسي، فاس ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

الكتاني، عبدالحي بن عبدالكبير، ت١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م

١١٧ - فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: اعتناء د. إحسان عباس، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١١٨ - نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية: بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، د.ت.

الكتبي، محمد بن شاكر الكتبي، ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م

١١٩ - فوات الوفيات والذيل عليها: تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت.

ابن كثير، أبو الفدا الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م

١٢٠ - البداية والنهاية: بيروت، مكتبة المعارف، ط٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٢١ - تفسير القرآن العظيم: بيروت، لبنان، دار الفكر، د.ت.

ابن ماجه، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م

١٢٢ -السنن: تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، د. ت، د.م.

ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي، ت٦٩٠هـ/ ١٢٩١م

١٢٣ - تأريخ المستبصر: ضبط وتصحيح أوسكر لوفغرين - ليدن، طبع بريل، ١٩٥١م.

المحبي، محمد، ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م

١٢٤ - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: بيروت، دار صادر، د.ت.

أبو محلي، أحمد بن عبدالله بن محمد بن القاضي

١٢٥ - الإصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت: تقديم وتحقيق عبدالمجيد القدوري، منشورات عكاظ، د. ت، د. م.

مخلوف، محمد بن محمد، ت١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م

١٢٦ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: دار الفكر، د.ت، د.م.

المرادي، أبو الفضل محمد بن خليل بن علي، ت١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م

١٢٧ - سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت.

مسلم، الإمام أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري، ت٣٠٦هـ/ ٩١٨م

١٢٨ - صحيح مسلم بشرح النووي: ط٢، ١٣٩٢هـ، د.م، د.ن.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م

١٢٩ - السلوك لمعرفة دول الملوك: نشر محمد مصطفى زيادة، د.ت، د.ن، د.م.

١٣٠ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية: القاهرة، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٧م.

الملطي، عبدالباسط بن خليل بن شاهين الملطي، ت٩٢٠هـ/ ١٥١٤م

١٣١ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين: تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، د.م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري،

ت٧١١هـ/ ١٣١١م

١٣٢ - لسان العرب: بيروت، دار صادر، د.ت.

الموسوي، العباس بن علي بن نور الدين المكي الحسيني الموسوي، ت١١٨٠هـ/ ١٨٦٦م

١٣٣ - نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس: الطائف، مكتبة المعارف، د.ت.

الموسوي، محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي الشهير بكبريت، ت١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م

١٣٤ - رحلة الشتاء والصيف: حققها وقدمها وفهرسها محمد سعيد الطنطاوي، ط٢، بيروت ١٣٨٥هـ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

مؤلف مجهول، من كُتَّاب القرن السادس الهجري

١٣٥ - الاستبصار في عجائب الأمصار: تحقيق سعد زغلول عبدالحميد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ١٩٨٥م.

مؤلف مجهول، من أهل القرن الثاني عشر الهجري

١٣٦ - تراجم أعيان المدينة المنورة: حققه وعلق عليه د. محمد التونجي، ط١، دار الشروق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م.

النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل، ت١١٤٣هـ/ ١٧٣١م

١٣٧ - الحقيقة والمجاز في رحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز: تقديم وإعداد د. أحمد عبدالمجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، د.م.

الناصري، أحمد بن خالد، ت١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م

١٣٨ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٦م.

ابن النجار، محمد بن محمود، ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م

١٣٩ - أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة: تحقيق صالح محمد جمال، ط٣، مكتبة الثقافة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، د.م.

النسائي، أبو عبدالرحمن بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار، ت٣٠٣هـ/ ٩١٥م

١٤٠ - سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م.

النمري، ابن سعد أبو زيد بن عمر بن النمري البصري، ت٢٦٢هـ/ ٨٧٥م

١٤١ - تاريخ المدينة المنورة: تحقيق فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة السيد حبيب محمود أحمد، د.ت، د.ن، د. م.

النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي، ت ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م

١٤٢ - البرق اليماني في الفتح العثماني (تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر): أشرف على طبعه حمد الجاسر، الرياض، منشورات دار اليمامة، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

ابن هشام، الإمام أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري، ت٢١٣هـ/ ٨٢٨م

١٤٣ - السيرة النبوية لابن هشام: حققه وضبط وشرح ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية، د.ت، د.م.

الهجري، أبو علي (عاش في أواخر القرن الثالث الهجري)

١٤٤ - أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع: تقديم حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د.ت، د.م.

الورثيلاني، الحسين بن محمد، ت١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م

١٤٥ - نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهور بالرحلة الورثيلانية: تصحيح محمد بن أبي شنب، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٣ - المراجع:

الأفغاني، سعيد

١٤٦ - أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

الأنصاري، عبدالقدوس

١٤٧ - آثار المدينة المنورة: المدينة المنورة، ط٤، المكتبة العلمية التجارية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

١٤٨ - موسوعة تاريخ جدة ج١: القاهرة، دار مصر للطباعة، ط٣، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

إبراهيم، محمد زكي

١٤٩ - أبجدية التصوف الإسلامي، بعض ما له وما عليه: ط٥، مكتبة الآداب ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، د.م.

أحمد، أحمد رمضان

١٥٠ - الرحلة والرحالة المسلمون: دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، د.م.

أفا، عمر

١٥١ - النقود المغربية في القرن الثامن عشر - أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس - مع تحقيق رسالتين في النقود والأوزان لعمر عبدالعزيز الكرسيفي: الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

باسلامة، حسين عبدالله

١٥٢ - تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها: الكتاب العربي السعودي، ط٢، تهامة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، د.م.

١٥٣ - تاريخ عمارة المسجد الحرام: ط٣، تهامة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، د.م.

باقاسي، عائشة عبدالله

١٥٤ - بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ٥٦٧ - ٦٤٨هـ/ ١١٧١ - ١٢٥٠م، ط١، دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، د.م.

بدر، عبدالباسط

١٥٥ - التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، د.ن.

البركاتي، ناصر البركاتي ومحمد نيسان

١٥٦ - دراسة تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة - مسجد الخيف - مسجد البيعة بمنى: جُدة، دار المدني للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

البرادعي، الشريف محمد صالح الحسيني

١٥٧ - المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي: ط١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م، د.ن، د.م.

بكداش، سائد

١٥٨ - فضل ماء زمزم وذكر تاريخه وأسمائه وخصائصه وبركاته ونية شربه والاستشفاء به وجملة من الأشعار في مدحه، ويليه للحافظ ابن حجر جزء فيه الجواب عن حال الحديث المشهور «ماء زمزم لما شرب له»: بيروت، لبنان، دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤١٦هـ.

بكر، سيد عبدالمجيد

١٥٩ - أشهر المساجد في الإسلام: دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م.

١٦٠ - الملامح الجغرافية لدروب الحجيج: ط١، تهامة - الكتاب الجامعي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، د.م.

البلادي، عاتق بن غيث

١٦١ - رحلات في بلاد العرب في شمال الحجاز والأردن: جدة، دار المجمع العلمي، ط١، د.ت.

١٦٢ - على طريق الهجرة (رحلات في قلب الحجاز): دار مكة للنشر والتوزيع، ط١، د.ت، د.م.

١٦٣ - معجم معالم الحجاز: ط١، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، د.م.

١٦٤ - معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: ط١، دار مكة للتوزيع والنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، د.م.

١٦٥ - معالم مكة التاريخية والأثرية: ط١، دار مكة للتوزيع والنشر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، د.م.

التازي، عبدالهادي

١٦٦ - أمير مغربي في طرابلس (ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي): مطبعة فضالة، د.ت، د.م.

الثقفي، يوسف بن علي بن رابع

١٦٧ - بلاد ثقيف: الرياض، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

الجاسر، حمد

١٦٨ - في شمال غرب الجزيرة، نصوص، مشاهدات، انطباعات: الرياض، ط٢، دار اليمامة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

الجراري، عباس

١٦٩ - عبقرية اليوسي: الدار البيضاء، دار الثقافة، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

حافظ، علي

١٧٠ - فصول من تاريخ المدينة المنورة: ط٢، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، د.م.

حسن، حسن إبراهيم

١٧١ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م، د.م.

حسن، زكي محمد

١٧٢ - الرحالة المسلمون في العصور الوسطى: بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

حسين، جميل حرب محمود

١٧٣ - الحجاز واليمن في العصر الأيوبي: الكتاب الجامعي، ط١، تهامة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، د.م.

حسين، حسني محمود

١٧٤ - أدب الرحلة عند العرب: ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، د.م.

الحقيل، سليمان بن عبدالرحمن

١٧٥ - في آفاق التربية الوطنية في المملكة العربية السعودية: ط٢، الكتاب الأول في سلسلة التربية الوطنية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، د.م.

الحمامصي، عبدالعال

١٧٦ - البوصيري مادح الرسول الأعظم: ط٢، مكتبة الهداية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، د.م.

حميدة، عبدالرحمن

١٧٧ - أعلام الجغرافيين العرب: ط١، دار الفكر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م.

الخربوطلي، علي حسني

١٧٨ - تاريخ الكعبة: بيروت، لبنان، دار الجيل، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، د.م.

الخريجي، عبدالله

١٧٩ - الضبط الاجتماعي: جُدة، دار الشروق، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

الخياري، أحمد ياسين أحمد

١٨٠ - تاريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا: تعليق وإيضاح وإضافة وتخريج عبيدالله محمد أمين كردي، ط١، دار العلم للطباعة والنشر ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، د.م.

درويش، مديحة أحمد

١٨١ - تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين: ط٢، دار الشروق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، د.م.

الدملوجي، سلمى سمر

١٨٢ - عمارة المسجد الحرام - مكة المكرمة: لندن، المملكة المتحدة، ١٩٩٤م، هزار المحدودة للنشر، بيروت، لبنان، التوزيع في الشرق الأوسط دار الريشة - طبع فوكس بريس.

١٨٣ - عمارة الحرم النبوي الشريف - المدينة المنورة: لندن، نشر عام ١٩٩٤م - عن هزار المحدودة للنشر، بيروت، لبنان، التوزيع في الشرق الأوسط - دار الريشة.

ابن دهيش، عبداللطيف عبدالله

١٨٤ - الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما: ط١، مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، د.م.

راوة، عبدالفتاح حسين إسماعيل محمد طيب مكي

١٨٥ - تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام: مطبعة الكمال، د.ت، د.م.

رجب، عمر الفاروق السيد

١٨٦ - الحجاز - المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية - أرضه وسكانه دراسات إيكولوجية: جُدة، دار الشروق، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

الزركلي، خير الدين

١٨٧ - الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٨٦م.

الزهراني، ضيف الله يحيى

١٨٨ - زيف النقود الإسلامية: ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، د.ن.

زيادة، نقولا

١٨٩ - الجغرافية والرحلات عند العرب: بيروت، ط٣، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

بو زيد، أحمد

١٩٠ - محمد سليمان الروداني من أعلام المغرب في القرن الحادي عشر الهجري: منشورات عكاظ، د.ت، د.م.

الزيلعي، أحمد عمر

١٩١ - الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان (المخلاف السليماني) في العصور الإسلامية الوسيطة: الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٩٢ - مكة وعلاقاتها الخارجية: الرياض، جامعة الرياض، نشر عمادة شؤون المكتبات، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

السباعي، أحمد

١٩٣ - تأريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران: ط٦، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، د.م.

سرور، الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل عبدالله

١٩٤ - قبائل الطائف وأشراف الحجاز: الطائف، دار الحارثي، ١٤٠٠هـ.

ابن سودة، عبدالسلام بن عبدالقادر بن سودة المري

١٩٥ - دليل مؤرخ المغرب الأقصى: الدار البيضاء، دار الكتاب، ط٢، ١٩٦٥م.

الشاذلي، السيد إبراهيم الخليل بن علي

١٩٦ - مختار من كتاب المرجع معالم المشروع والممنوع من ممارسات التصوف المعاصر: قدم له محمد زكي إبراهيم، مصر، ط٤، مؤسسات العشيرة المحمدية والطريقة المحمدية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

شافعي، فريد

١٩٧ - العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م، د.م.

الشاهدي، الحسن

١٩٨ - أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني: منشورات عكاظ، د.ت، د.م.

الشريف، أحمد إبراهيم

١٩٩ - مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول: دار الفكر العربي، د.ت، د.م.

شلبي، أحمد

٢٠٠ - موسوعة النظم والحضارة الإسلامية - التربية الإسلامية - نظمها - فلسفتها - تاريخها: ط٦، مكتبة النهضة المصرية - ١٩٧٨م، د.م.

الشنقيطي، غالي محمد الأمين

٢٠١ - الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين (ص): جُدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط٣، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

الشناوي، عبدالعزيز محمد

٢٠٢ - أوربا في مطلع العصور الحديثة: ط٤، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٨٠م، د.م.

٢٠٣ - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها: القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٠م.

ششة، نوال سراج

٢٠٤ - جُدة في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي: مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

الصابوني، محمد علي

٢٠٥ - النبوة والأنبياء: ط٢، طبع على نفقة السيد حسن عباس شربتلي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، د.م، د.ن.

ظهير، إحسان إلهي

٢٠٦ - التصوف المنشأ والمصادر: باكستان، شادمان، لاهور، إدارة ترجمان السنة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ابن عبدالله، عبدالعزيز

٢٠٧ - الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة المدن والقبائل: ملحق ٢، طبعة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، د.م، د.ن.

عبدالله، عبدالرحمن صالح

٢٠٨ - تاريخ التعليم في مكة المكرمة: ط١، دار الشروق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، د.م.

عبدالخالق، عبدالرحمن

٢٠٩ - الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة: القاهرة، دار الحرمين للطباعة، ط٥، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

عبدالغني، عارف

٢١٠ - تاريخ أمراء مكة المكرمة من ٨ - ١٣٤٤هـ: دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

عبيد، فيصل محمد

٢١١ - زمزم والزمازمة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٥هـ، د.م.

العبيدي، عبدالجبار منسي

٢١٢ - الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية: ط١، دار الرفاعي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، د.م.

العبيكان، طرفة عبدالعزيز

٢١٣ - الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة: الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

عطار، أحمد عبدالغفور

٢١٤ - الديانات والعقائد في مختلف العصور: ط١، مكتبة مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، د.م.

علي، جواد

٢١٥ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٨م.

عنقاوي، فؤاد عبدالحميد

٢١٦ - مكة.. الحج والطوافة: الرياض، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

غالب، محمد أديب

٢١٧ - من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي: ط١، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، د.م.

فرج، عبداللطيف بن حسين

٢١٨ - المناهج - أسسها - محتواها - أنواعها - أهدافها - تقويمها: مكة المكرمة، مطابع الصفا، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

فكار، رشدي

٢١٩ - عن الحوار الحضاري في بُعد واحد - الإثنوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف في مدخلهما برحّالة الإسلام، عرض مع نصوص مختارة للتدليل والاستشهاد عبر فترة ممتدة منذ أكثر من ألف عام: بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

فهمي، نعيم زكي

٢٢٠ - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى): القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة العربية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

القثامي، حمود بن ضاوي

٢٢١ - الآثار في شمال الحجاز: مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، د.م.

٢٢٢ - شمال الحجاز معجم المواضع والقائل والحكومات: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، د.م.

قزاز، حسين عبدالحي

٢٢٣ - أهل الحجاز بعبقهم التاريخي: الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

قنديل، فؤاد

٢٢٤ - أدب الرحلة في التراث العربي: الهيئة العامة لقصور الثقافة - مكتبة الشباب ٣٤، يوليو ١٩٩٥م، د.م.

كحالة عمر رضا

٢٢٥ - معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية: بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

كرارة، الحاج عباس

٢٢٦ - الدين وتأريخ الحرمين الشريفين: دار مصر للطباعة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، الناشر مركز الحرمين التجاري، د.م.

الكردي، محمد طاهر

٢٢٧ - كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم: مكة المكرمة، ط١، مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٨٥هـ.

الكرملي، الأب أنستاس

٢٢٨ - النقود العربية والإسلامية وعلم النميات، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٧م، د.م.

كوشك، يحيى حمزة

٢٢٩ - زمزم طعام طُعم وشفاء سُقم: جُدة، دار العلم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

المالكي، سليمان عبدالغني

٢٣٠ - بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري: الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

المحامي، فريد بك

٢٣١ - تاريخ الدولة العلية العثمانية: بيروت، دار الجيل، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

محمد، عبدالرحمن أحمد فهمي

٢٣٢ - النقود العربية ماضيها وحاضرها: مكة المكرمة، المكتبة الفيصلية، د.ت.

المدني، أحمد توفيق

٢٣٣ - حرب الثلاث مئة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢ - ١٧٩٢م: الجزائر، ط٣، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤م.

مرداد، محمد عبدالحميد

٢٣٤ - مدائن صالح تلك الأعجوبة: المكتبة الصغيرة رقم ٢٩، ط٢، شعبان ١٣٩٩هـ/ يوليه ١٩٧٩م، د.م.

مرسي، محمد عبدالعليم

٢٣٥ - المعلم والمناهج - وطرق التدريس: الرياض، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

مرشد، أحمد أمين صالح

٢٣٦ - طيبة وذكريات الأحبة، ج١، ط٣، الشركة السعودية للتوزيع، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، د.م.

المصري، جميل عبدالله محمد

٢٣٧ - حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة: مكتبة العبيكان، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، د.م.

مصطفى، خالد

٢٣٨ - ١٥٠ صورة من المدينة المنورة: ط٢، مطبعة العمرانية للأوفست، ١٩٩٨م، د.م.

مصطفى، صالح لمعي

٢٣٩ - المدينة المنورة وتطورها العمراني وتراثها المعماري: بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨١م.

المنوني، محمد

٢٤٠ - من حديث الركب المغربي: تطوان، مطبعة المخزن، ١٩٥٣م.

٢٤١ - المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث: الرباط، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

النجار، عبدالوهاب

٢٤٢ - قصص الأنبياء: دار الفكر، ط٢، د.ت، د.م.

نواب، عواطف محمد يوسف

٢٤٣ - الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة نقدية تحليلية مقارنة: الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

الهيلة، محمد الحبيب

٢٤٤ - التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر «جمع وعرض وتعريف»: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، فرع موسوعة مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٤م، د.م.

الودغيري، عبدالعلي

٢٤٥ - التعريف بابن الطيب الشرقي: منشورات عكاظ، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، د.م.

الوكيل، محمد السيد

٢٤٦ - المسجد النبوي عبر التاريخ: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، د.م.

يحيى، جلال

٢٤٧ - المغرب الكبير، ج٣، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار: بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.

٤ - الدوريات والمجلات:

الإسحاقي، الوزير الشرقي الإسحاقي المغربي

٢٤٨ - رحلة الوزير الإسحاقي: مجلة العرب، ج١١، ١٢، س ١٩، جماديان ١٤٠٥هـ/ شباط (آذار/ مارس) ١٩٨٥م.

أمراني، عمر علوي

٢٤٩ - الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم: سلسلة ندوات - ٥ - أدب الرحلة في التواصل الحضاري، ١٩٩٣م، جامعة المولى إسماعيل، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، مكناس.

البرزنجي، السيد جعفر بن حسن البرزنجي المدني ت١١٧٧هـ/ ١٧٦٣م

٢٥٠ - النفح الفرنجي في الفتح «الجته جي»: مجلة العرب، ج٥، ٦، س١٢، ذو العقدة والحجة ١٣٩٧هـ/ تشرين الثاني وكانون الأول (نوفمبر/ ديسمبر ١٩٧٧م).

الجاسر، حمد

٢٥١ - موقع عكاظ: مجلة العرب، رمضان ١٣٨٨هـ/ كانون الأول ديسمبر ١٩٦٨م - مجلد ٣.

٢٥٢ - في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج: مجلة العرب، ج١٢، س١٣، رجب شعبان ١٣٩٨هـ - تموز/ آب - يوليو/ أغسطس ١٩٧٨م.

٢٥٣ - في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج: مجلة العرب، ج٥٦، س١٢، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٧هـ، تشرين ٢ - نوفمبر/ ديسمبر ١٩٧٧م.

الجراري، عباس

٢٥٤ - مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية: مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية من ٥ - ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧هـ ٢٣/ ٢٨ إبريل ١٩٧٧م، مطبوعات جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

رضوان، نبيل عبدالحي

٢٥٥ - النفقات على الحرمين الشريفين في القرن التاسع عشر: بحث منشور في مؤتمر الحياة الاقتصادية للبلدان العربية في جامعة الأزهر، مركز الشيخ صالح كامل.

زيادة، معن

٢٥٦ - الرحلات العربية والرحّالات: مجلة الفكر العربي، العدد ٥١، السنة ٩، الإنماء العربي، بيروت، لبنان.

الزيلعي، أحمد بن عمر

٢٥٧ - نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة: مجلة الدارة، العدد ٣، الرياض، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

أبو سعد، أحمد

٢٥٨ - مظاهر الحضارة والعمران وتجلياتها من خلال كتب الرحالات: مجلة الفكر العربي، العدد ٥١، السنة ٩، الإنماء العربي، بيروت، لبنان.

أبو شهبة، محمد بن محمد

٢٥٩ - رسالة المساجد في صدر الإسلام: بحوث مؤتمر رسالة المسجد المنعقد من ١٥ - ٢٠ رمضان ١٣٩٥هـ/ الموافق ٢٠ - ٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م.

عراقي، فيصل

٢٦٠ - الأماكن المأثورة في مكة المكرمة: مجلة المنهل، العدد ٤٧٥، المجلد ٥١، الربيعان ١٤١٠هـ/ أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩م.

العقيلي، محمد بن أحمد

٢٦١ - قبيلة بني شعبة: مجلة العرب، ج١١، ١٢، ١٣٩٤هـ/ ١٩٨٤م.

عكاظ، مجلة

٢٦٢ - توسعة وعمارة الحرمين الشريفين رؤية حضارية: مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، العدد ١، رجب ١٤١٢هـ/ يناير ١٩٩٢م بالتعاون مع مجموعة بن لادن.

عكاظ، جريدة

٢٦٣ - الجمعة ٤ من ذي الحجة، ١٤١٧هـ/ ١١ إبريل ١٩٩٧م، السنة ٣٩، العدد ١١١٩٥.

- الأربعاء ٩ من ذي الحجة ١٤١٧هـ/ ١٦ إبريل ١٩٩٧م، السنة ٣٩، العدد ١١٢٠٠.

- السبت ٩ من ذي القعدة، ١٤١٨هـ/ الموافق ٧ مارس ١٩٩٨م، العدد ١١٥٢٠، السنة ٣٩.

عنقاوي، عبدالله عقيل

٢٦٤ - المؤرخ تقي الدين الفاسي وكتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام: بحث ألقي في الندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ضمن مجموعة أبحاث مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

فهيم، حسين محمد

٢٦٥ - أدب الرحلات: سلسلة عالم المعرفة رقم ١٣٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شوال ١٤٠٩هـ/ يونيو - حزيران ١٩٨٩م.

المجذوب، محمد

٢٦٦ - رسالة المسجد قديمًا وحديثًا: بحوث مؤتمر رسالة المسجد المنعقد من ١٥ - ٢٠ رمضان ١٣٩٥هـ/ الموافق ٢٠ - ٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م.

نصر الله، توفيق

٢٦٧ - الأغوات نسل منقطع النظير: مجلة اليمامة، العدد ١٩٢، السنة ١٤١٠هـ.

الوركلي، حسن

٢٦٨ - رحلات تطوانية إلى البلد الأمين: مجلة البلد الأمين، السنة ٢، العدد ٣، ذو الحجة ١٤١٦هـ/ مايو ١٩٩٦م.

٢٦٩ - أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل القرن الحادي عشر الهجري: بحث ألقي في ندوة مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة تطوان، المغرب، ١٩٩٤م.

٥ - المعربات:

جارشلي، إسماعيل حضي وزون

٢٧٠ - أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني: ترجمه عن اللغة التركية د. خليل علي مراد، مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة - شعبة دراسات العلوم الاجتماعية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، د.م.

صبري، أيوب صبري باشا

٢٧١ - مرآة جزيرة العرب: ترجمة وتقديم وتعليق د. أحمد فؤاد متولي ود. الصفصافي أحمد المرسي، ط١، دار الرياض للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، د.م.

متز، آدم

٢٧٢ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، بيروت، ط٤، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

مورتيل، ريتشارد

٢٧٣ - الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة المكرمة في العصر المملوكي: جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

هورخرونيه، سنوك

٢٧٤ - صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري: نقله إلى العربية وعلق عليه محمد بن محمود السرياني ومعراج نواب مرزا - راجعه د. محمد إبراهيم أحمد علي، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، د.م.

٦ - الرسائل الجامعية:

الحسن، سعاد إبراهيم محمد

٢٧٥ - النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م: رسالة ماجستير لم تنشر، مقدمة لجامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين، ت١١٢٥هـ/ ١٧٣م

٢٧٦ - منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم: الجزء الثاني، رسالة دكتوراه لم تنشر، تحقيق ماجدة فيصل زكريا، مقدمة لجامعة أم القرى عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

شافعي، لمياء أحمد عبدالله

٢٧٧ - ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية ٩٠٩هـ/ ١٥٥٣م -

٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م: رسالة دكتوراه لم تنشر، مقدمة لجامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

الطبري، محمد بن علي بن فضل الطبري الحسيني المكي إمام المقام الإبراهيمي، ت١١٧٣هـ/ ١٧٦٠م

٢٧٨ - إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن: تحقيق د. ناصر بن عبدالله بن سلطان البركاتي: رسالة دكتوراه لم تنشر، جامعة مانشستر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

مطر، فوزية حسين

٢٧٩ - تاريخ عمارة المسجد الحرام من العصر العباسي الثاني حتى العصر العثماني: رسالة دكتوراه لم تنشر، مقدمة لجامعة أم القرى عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.



الكشافات

- كشاف الأعلام
- كشاف الأماكن



كشاف الأعلام

ب

ت

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

م

ن

هـ

و

ي



كشاف الأماكن

ت

ح

خ

ض

ط

ظ

ع

ن

هـ

و

ي

المحتويات

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الكشافات

فهرس الأشكال



إصدارات دارة الملك عبدالعزيز

١ - **فهارس كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد**، السيد أحمد مرسي عباس، ١٣٩٥هـ.

٢ - **لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، ١٣٩٥هـ.

٣ - **سلسلة قادة الجزيرة - قال الجد لأحفاده**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).

٤ - **سعود الكبير - الإمام سعود بن عبدالعزيز**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).

٥ - **عثمان بن عبدالرحمن المضايفي - عهد سعود الكبير**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).

٦ - **الإمام القائد عبدالعزيز بن محمد بن سعود**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).

٧ - **هذا هو كتاب سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، أمين سعيد، ١٣٩٥هـ.

٨ - **المرأة: كيف عاملها الإسلام**، الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ. (د. ت).

٩ - **الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز**، د. عبدالفتاح أبو علية، ١٣٩٦هـ.

١٠ - **العرب بين الإرهاص والمعجزة**، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.

١١ - **بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة**، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.

١٢ - **رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية**، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.

١٣ - **الملك الشهيد فيصل بن عبدالعزيز ودعوة التضامن الإسلامي**، مناع القطان، ١٣٩٦هـ.

١٤ - **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية**، محمد كمال جمعة، ١٣٩٧هـ.

١٥ - **أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه**، محمد إبراهيم رحمو، ط٢، ١٣٩٨هـ.

١٦ - **تاريخ الدولة السعودية**، أمين سعيد، ١٤٠١هـ.

١٧ - **مكة في عصر ما قبل الإسلام**، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ١٤٠١هـ.

١٨ - **الأطلس التاريخي للدولة السعودية**، إبراهيم جمعة، ١٣٩٩هـ.

١٩ - **أمجاد الرياض في حياة المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز**، شعر محمد العيد الخطراوي، ١٣٩٤هـ (أسهمت الدارة في طباعته).

٢٠ - **محمد بن عثيمين شاعر الملك عبدالعزيز**، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ١٣٩٩هـ.

٢١ - **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد**، تأليف راشد بن علي الحنبلي، تحقيق: عبدالواحد محمد راغب، ١٣٩٩هـ.

٢٢ - **دليل الدوريات بالمكتبة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٣ - **دليل الوثائق العربية بدارة الملك عبدالعزيز**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٤ - **دليل الوثائق التركية الخاصة بالجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٥ - **قائمة ببليوجرافية مختارة من مكتبة دارة الملك عبدالعزيز عن الجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٦ - **دليل دارة الملك عبدالعزيز**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٩هـ.

٢٧ - **أعمال الحلقة الخامسة للمراكز والهيئات العلميّة المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٨ - **دراسات في الجغرافية الاقتصادية "المملكة العربية السعودية والبحرين"**، د. أحمد رمضان شقلية، ١٤٠٢هـ.

٢٩ - **الكتاب السنوي الأول للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٣٠ - **الأمثال العامية في نجد "٥ أجزاء"**، محمد بن ناصر العبودي "أسهمت الدارة في طباعته"، ١٣٩٩هـ.

٣١ - **حالة الأمن في عهد الملك عبدالعزيز**، رابح لطفي جمعة، ١٤٠٢هـ.

٣٢ - **الملك فيصل والقضية الفلسطينية**، د. السيد عليوة، ١٤٠٢هـ.

٣٣ - **علاقة ساحل عمان ببريطانيا "دراسة وثائقية"**، د. عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، ١٤٠٢هـ.

٣٤ - **سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي**، د. عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، ١٤٠٢هـ.

٣٥ - **عنوان المجد في تاريخ نجد (جزءان)**، تأليف عثمان بن بشر، تحقيق: عبدالرحمن ابن عبداللطيف آل الشيخ، ١٤٠٢هـ.

٣٦ - **المرافئ الطبيعيَّة على الساحل السعودي الغربي "دراسة مقارنة تطبيقية"**، د. محمد أحمد الرويثي، ١٤٠٣هـ.

٣٧ - **السكان وتنمية الموانئ السعودية على البحر الأحمر**، د. محمد أحمد الرويثي، ١٤٠٢هـ.

٣٨ - **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب**، لمؤلف مجهول، تحقيق: أ.د. عبدالله العثيمين، ١٤٠٣هـ.

٣٩ - **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**، نوال حمزة الصيرفي (سلسلة الرسائل الجامعية - ١)، ١٤٠٣هـ.

٤٠ - **بلاد الحجاز منذ عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد**، د. سليمان عبدالغني مالكي (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢)، ١٤٠٣هـ.

٤١ - **العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩ - ١٣٤١هـ**، خالد حمود السعدون (سلسلة الرسائل الجامعية - ٣)، ١٤٠٣هـ.

٤٢ - **السمات الحضارية في شعر الأعشى: دراسة لغوية وحضارية**، زينب عبدالعزيز العمري (سلسلة الرسائل الجامعية - ٤)، ١٤٠٣هـ.

٤٣ - **الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر**، عبدالقدوس الأنصاري، ١٤٠٣هـ.

٤٤ - **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية**، محمد كمال جمعة، ط٢، ١٤٠١هـ.

٤٥ - **الصهيونية والقضية الفلسطينية في الكونجرس الأمريكي**، د. عاصم الدسوقي، ١٤٠٣هـ.

٤٦ - **مكة في عصر ما قبل الإسلام**، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ط٢، ١٤٠١هـ.

٤٧ - **أضواء حول الإستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه**، محمد إبراهيم رحمو، ط٣، ١٤٠٢هـ.

٤٨ - **نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود**، تأليف: عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، تحقيق: محمد بن أحمد العقيلي، ١٤٠٢هـ.

٤٩ - **فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة**، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤١٢هـ.

٥٠ - **دارة الملك عبدالعزيز: الكتيب الإعلامي الأول للدارة**، ١٣٩٨هـ.

٥١ - **مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة**، د. سليمان عبدالغني مالكي (سلسلة الرسائل الجامعية - ٥)، ١٤٠٨هـ.

٥٢ - **النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ١٩٠٠ - ١٩٤٥م**، د. محمد عبدالرحمن الشامخ (أسهمت الدارة في طباعته)، ١٣٩٥هـ.

٥٣ - **مدينة الرياض: دراسة في جغرافية المدن**، د. عبدالرحمن صادق الشريف، ١٣٩٩هـ (أسهمت الدارة في طباعته).

٥٤ - **المنهج المثالي لكتابة تاريخنا**، محمد حسين زيدان، ١٣٩٨هـ.

٥٥ - **الدولة السعودية الثانية من ١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ**، د. عبدالفتاح أبو علية، ١٣٩٤هـ (أسهمت الدارة في طباعته).

٥٦ - **لوحة نسب آل سعود**، تصميم الدكتور إبراهيم جمعة. (د.ت).

٥٧ - **جداول تحويل السنين الهجرية إلى ما يقابلها من التواريخ الميلادية**، رتبها د. إبراهيم جمعة. (د. ت).

٥٨ - **الكشاف التحليلي لمجلة الدارة ١٣٩٥ - ١٤١٥هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٦هـ.

٥٩ - **الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م**، تأليف إيجيرو ناكانو، ترجمة سارة تاكا هاشي، ط١، ١٤١٦هـ.

٦٠ - **الرحلات الملكية: رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض، المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣ - ١٣٤٦هـ**، يوسف ياسين، ١٤١٦هـ.

٦١ - **الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى**، د. مي بنت عبدالعزيز العيسى (سلسلة الرسائل الجامعية - ٦)، ١٤١٧هـ.

٦٢ - **مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة**، د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤١٧هـ.

٦٣ - **يوميات رحلة في الحجاز**، تأليف: غلام رسول مهر، ترجمة: د. سمير عبدالحميد إبراهيم، ١٤١٧هـ.

٦٤ - **معجم التراث (السلاح)**، سعد بن عبدالله الجنيدل، ١٤١٧هـ.

٦٥ - **جدة خلال الفترة ١٢٨٦ - ١٣٢٦هـ: دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة**، صابرة مؤمن إسماعيل (سلسلة الرسائل الجامعية - ٧)، ١٤١٨هـ.

٦٦ - **بحوث ندوة الوثائق التاريخية في المملكة العربية السعودية خلال الفترة ١٣ - ١٥ رجب ١٤١٧**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ.

٦٧ - **حوليات سوق حباشة**، أ.د. عبدالله بن محمد أبو داهش، ١٤١٨هـ.

٦٨ - **مشروع مسح المصادر التاريخية الوطنية المرحلة الأولى ١٤١٦ - ١٤١٧هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٦٩ - **الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى (جزءان)**، إسماعيل حسين أبو زعنونة، ١٤١٩هـ.

٧٠ - **رحلة الربيع**، فؤاد شاكر، ١٤١٩هـ.

٧١ - **فجر الرياض**، عبدالواحد محمد راغب، ١٤١٩هـ.

٧٢- **معجم مدينة الرياض**، خالد بن أحمد السليمان، ١٤١٩هـ.

٧٣- **الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية**، تأليف إيجيرو ناكانو، ترجمة: سارة تاكاهاشي، ط٢، ١٤١٩هـ.

٧٤- **رحلة داخل الجزيرة العربية**، يوليوس أويتنج، ١٤١٩هـ.

٧٥- **الملك عبدالعزيز في مجلة الفتح (قائمة ببليوجرافية)**، د. فهد بن عبدالله السماري، ود. محمد بن عبدالرحمن الربيع، ١٤١٩هـ.

٧٦- **الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة**، د. فان درمولين، ١٤١٩هـ.

٧٧- **الرحلات الملكية: رحلات جلالة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض، المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣ - ١٣٤٦هـ**، يوسف ياسين. ط٢، ١٤١٩هـ.

٧٨- **خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية (منطقة نجد)**، د. محمد بن عبدالله النويصر، ١٤١٩هـ.

٧٩- **مختارات من الخطب الملكية (جزءان)**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٨٠- **نساء شهيرات من نجد**، د. دلال بنت مخلد الحربي، ١٤١٩هـ.

٨١- **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد**، تأليف راشد بن علي الحنبلي، تحقيق: عبدالواحد محمد راغب. ط٢، ١٤١٩هـ.

٨٢- **إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر**، تأليف شعيب بن عبدالحميد الدوسري، تحقيق عبدالرحمن بن سليمان الرويشد، محمد بن عبدالله الحميد، ١٤١٩هـ.

٨٣- **صفحات من تاريخ مكة المكرمة (جزءان)**، تأليف ك. سنوك هورخرونيه نقله إلى العربية د. علي عودة الشيوخ، ١٤١٩هـ.

٨٤- **لماذا أحببت ابن سعود**، محمد أمين التميمي، ١٤١٩هـ.

٨٥- **ديوان الملاحم العربية**، محمد شوقي الأيوبي، تعليق د. محمد بن عبدالرحمن الربيع، ١٤١٩هـ.

٨٦- **أصدقاء وذكريات. انطباعات وذكريات أمريكية عن الحياة والعمل في المملكة العربية السعودية ١٩٣٨م - ١٩٩٨م**، تحرير د. فهد بن عبدالله السماري، جيل أ. روبيرج، ط١، ١٤١٩هـ.

٨٧- **الطريق إلى الرياض: دراسة تاريخية وجغرافية لأحداث وتحركات الملك عبدالعزيز لاسترداد الرياض ١٣١٩هـ/ ١٩٠١ - ١٩٠٢م**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٨٨ - **الرواد: الملك عبدالعزيز ورجاله الأوفياء الذين دخلوا الرياض في الخامس من شهر شوال سنة ١٣١٩هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٨٩ - **الزيارة الملكية: زيارة الملك عبدالعزيز التفقدية لشركة أرامكو**، شركة أرامكو - لجنة المؤرخين، ترجمه وعلق عليه د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤١٩هـ.

٩٠ - **يوميات الرياض: من مذكرات أحمد بن علي الكاظمي**، أحمد بن علي الكاظمي، ١٤١٩هـ.

٩١ - **الملك عبدالعزيز في الصحافة العربية**، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ١٤١٩هـ.

٩٢ - **رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية**، فيليب ليبنز، ترجمة محمد محمد الحناش، ١٤١٩هـ.

٩٣ - **جوانب من سياسة الملك عبدالعزيز تجاه القضايا العربية: دراسة تحليلية من خلال أوراق نبيه العظمة**، د. خيرية قاسمية، ١٤١٩هـ.

٩٤ - **معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري**، سعد بن جنيدل، ١٤١٩هـ.

٩٥ - **الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية**، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، ١٤١٩هـ.

٩٦ - **المملكة العربية السعودية في مئة عام: معلومات موجزة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٩٧ - **عبدالعزيز (الكتاب المصور)**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٩٨ - **أصدقاء وذكريات، انطباعات وذكريات أمريكية عن الحياة والعمل في المملكة العربية السعودية ١٩٣٨م - ١٩٩٨م**، تحرير د. فهد بن عبدالله السماري، جيل أ. روبيرج، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٩٩ - **الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى: القسم الأول ١٣٤٣هـ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤م - ١٩٥٣م**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٠هـ.

١٠٠ - **الجزيرة العربية في الخرائط الأوروبية القديمة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١هـ.

١٠١ - **بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية (٢٩ بحثاً)** ط١، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١هـ.

١٠٢ - **الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية**، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤٢١هـ.

١٠٣ - **سلسلة وثائق المملكة العربية السعودية التاريخية - القضية الفلسطينية - ١٣٤٨ - ١٣٧٣هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ.

١٠٤ - **الملك عبدالعزيز في الإنتاج الفكري العربي المنشور في عام ١٤١٩هـ**، عبدالرحمن أحمد فراج، ١٤٢١هـ.

١٠٥ - **مؤتمر فلسطين العربي البريطاني - المنعقد في مدينة لندن في ١٨ ذي الحجة ١٣٥٧هـ الموافق ٧ فبراير ١٩٣٩م**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ.

١٠٦ - **رحلة إلى بلاد العرب**، تأليف أحمد مبروك، تعليق د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤٢١هـ.

١٠٧ - **محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي**، د. نادية بنت وليد الدوسري (سلسلة الرسائل الجامعية - ٨). ١٤٢٢هـ.

١٠٨ - **مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ**، الشيخ حمد الجاسر، ١٤٢٢هـ.

١٠٩ - **الجيش السعودي في فلسطين**، صالح جمال الحريري، ١٤٢٢هـ.

١١٠ - **تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج**، ج.ج. **لوريمر**، جمع وتعليق الدكتور محمد بن سليمان الخضيري، ١٤٢٢هـ.

١١١ - **اللجان الشعبية لمساعدة مجاهدي فلسطين في المملكة العربية السعودية**، عبدالرحيم محمود جاموس، ١٤٢٢هـ.

١١٢ - **الدولة العيونية في البحرين ٤٦٩ - ٦٣٦هـ/ ١٠٧٦ - ١٢٣٨م**، د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس (سلسلة الرسائل الجامعية - ٩)، ١٤٢٢هـ.

١١٣ - **المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود/ دليل موجز بأبرز الإنجازات والمواقف**، ط١، د. فهد بن عبدالله السماري، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ١٤٢٢هـ.

١١٤ - Najd Before The Salafi Reform Movement "نجد قبل الدعوة الإصلاحية السلفية" د. عويضة بن متيريك الجهني، ١٤٢٢هـ (باللغة الإنجليزية).

١١٥ - Al - Yamama in the Early Islamic Era "اليمامة في صدر الإسلام" د. عبدالله بن إبراهيم العسكر، ١٤٢٢هـ (باللغة الإنجليزية).

١١٦ - **التحليق إلى البيت العتيق**، د. عبدالهادي التازي. (سلسلة كتاب الدارة - ١)، ١٤٢٢هـ.

١١٧ - **الوثائق التاريخية لوزارة المعارف في عهد وزيرها الأول خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود ١٣٧٣ - ١٣٨٠هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.

١١٨ - **الإقناع لطالب الانتفاع** (أربعة أجزاء)، أبو النجا الحجاوي المقدسي، ١٤٢٣هـ.

١١٩ - **جامع العلوم والحكم** (جزءان)، ابن رجب، ١٤٢٣هـ.

١٢٠ - **خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود: خطب وكلمات**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.

١٢١ - **معجم ما ألف عن الحج**، د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي، ١٤٢٣هـ.

١٢٢ - **برنامج المحافظة على المواد التاريخية**، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الكونغرس، ١٤٢٣هـ.

١٢٣ - **مبادئ العناية بمواد المكتبة والتعامل معها**، جمع وتحرير إدوارد. ب. أدكوك، ترجمة د. عبدالعزيز بن محمد المسفر، د. فؤاد حمد فرسوني، ١٤٢٣هـ.

١٢٤ - **العلاقات السعودية المصرية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود**: بحوث ودراسات ألقيت في الندوة التي عقدتها دارة الملك عبدالعزيز بالتعاون مع مؤسسة الأهرام، القاهرة (١/ ١٢/ ١٤٢٢هـ)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.

١٢٥ - **علم القراءات**: **نشأته، أطواره، أثره في العلوم الشرعية**، د. نبيل بن محمد آل إسماعيل، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٢٦ - **المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود/ دليل موجز بأبرز الإنجازات والمواقف**، د. فهد بن عبدالله السماري، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٢٧ - **مستخلصات بحوث مجلة الدارة**، دارة الملك عبدالعزيز (جزءان)، ١٤٢٣هـ.

١٢٨ - **الزيارات الخارجية لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود**، نايف بن علي السنيد الشراري، ١٤٢٣هـ.

١٢٩ - **موقف المملكة العربية السعودية من القضية الفلسطينية (١٩٢٦ - ١٩٤٨م)**، د. حسان حلاق (سلسلة كتاب الدارة - ٢) ١٤٢٣هـ.

١٣٠ - **مواقف خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود تجاه قضية فلسطين**، د. عبدالفتاح حسن أبو علية، ١٤٢٣هـ.

١٣١ - **العلاقات السعودية اللبنانية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود**، دارة الملك عبدالعزيز، الجامعة اللبنانية، ١٤٢٣هـ.

١٣٢ - **كلمات قضت - معجم بألفاظ اختفت من لغتنا الدارجة أو كادت**، محمد بن ناصر العبودي (جزءان)، ١٤٢٤هـ.

١٣٣ - **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**: بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدة من ٢٤-٢٧ رجب ١٤٢١هـ، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤٢٤هـ.

١٣٤ - **موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية**، إعداد: دارة الملك عبدالعزيز وهيئة المساحة الجيولوجية السعودية، ١٤٢٤هـ.

١٣٥ - **التاريخ الشفهي، حديث عن الماضي**، تأليف: د. روبرت بيركس، ترجمة د. عبدالله ابن إبراهيم العسكر، ١٤٢٤هـ.

١٣٦ - **الأساليب التربوية المستمدة من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، د. عبدالرحمن بن علي العريني، (سلسلة كتاب الدارة – ٣) ١٤٢٤هـ.

١٣٧ - **طباعة الكتب ووقفها عند الملك عبدالعزيز**، عبدالرحمن بن عبدالله الشقير، ١٤٢٤هـ.

١٣٨ - **مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود لترميم وتجليد مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ.

١٣٩ - **المملكة العربية السعودية وحقوق الإنسان في السلم والحرب: إشارات موجزة**، د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤٢٤هـ.

١٤٠ - **الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة**، د. معراج بن نواب مرزا، د. عبدالله بن صالح شاووش، ١٤٢٤هـ.

١٤١ - **مختصر الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ.

١٤٢ - **المملكة العربية السعودية في مئة عام (معلومات موجزة)، إصدار خاص للمكفوفين بخط برايل**، طبع الكتاب بالتعاون مع وزارة المعارف، ١٤١٩هـ.

١٤٣ - **تغير الأنماط السكنية في مدينة الدرعية**، د. بدر بن عادل الفقير، ١٤٢٦هـ.

١٤٤ - **رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام**، تأليف: سعد بن أحمد الربيعة أعده للنشر: سعود بن عبدالعزيز الربيعة، (سلسلة كتاب الدارة – ٤) ١٤٢٤هـ.

١٤٥ - **الصلات الحضارية بين تونس والحجاز: دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (١٢٥٦ - ١٣٢٦هـ)**، أ. نورة بنت معجب الحامد (سلسلة الرسائل الجامعية – ١٠)، ١٤٢٦هـ.

١٤٦ - **تجارة السلاح في الخليج العربي (١٢٩٧ - ١٣٣٣هـ)**، أ. فاطمة بنت محمد الفريحي (سلسلة الرسائل الجامعية – ١١)، ١٤٢٥هـ.

١٤٧ - **تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، التاسع والعاشر للميلاد**، د. سعيد بن عبدالله القحطاني (سلسلة الرسائل الجامعية – ١٢)، ١٤٢٥هـ.

١٤٨ - **الحياة العلمية في وسط الجزيرة العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فيها**، د. أحمد بن عبدالعزيز البسام (سلسلة الرسائل الجامعية – ١٣)، ١٤٢٦هـ.

١٤٩ - **موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية**، د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود (سلسلة الرسائل الجامعية – ١٤)، ١٤٢٦هـ.

١٥٠ - **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة السعودية الثانية (١٢٣٨ - ١٣٠٩هـ)**، حصة بنت جمعان الزهراني (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٥)، ١٤٢٥هـ.

١٥١ - **المجلات العلمية المحكمة في المملكة العربية السعودية (دراسة تقويمية للوضع الراهن)**، أ.د. سالم بن محمد السالم، ١٤٢٥هـ.

١٥٢ - **منطقة سدير في عهد الدولة السعودية الأولى**، د. عبدالله بن إبراهيم التركي، (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٦)، ١٤٢٦هـ.

١٥٣ - **تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي باشا على الجزيرة العربية**، تأليف فيلكس مانجان، ترجمة د. محمد خير البقاعي، ١٤٢٦هـ.

١٥٤ - **لمحات من الماضي (مذكرات الشيخ عبدالله خياط)**، عبدالله عبدالغني خياط، ١٤٢٥هـ.

١٥٥ - **موجز لتاريخ الوهابي**، تأليف هارفرد جونز بريدجز، ترجمة د. عويضة بن متيريك الجهني، ١٤٢٥هـ.

١٥٦ - **التذكرة في أصل الوهابيين ودولتهم**، تأليف جان ريمون، ترجمة د. محمد خير البقاعي (سلسلة كتاب الدارة - ٥)، ١٤٢٥هـ.

١٥٧ - **تاريخ الوهابيين منذ نشأتهم حتى عام ١٨٠٩م**، تأليف لويس ألكسندر أوليفيه دوكورانسيه، ترجمة د. إبراهيم البلوي، د. محمد خير البقاعي، ١٤٢٦هـ.

١٥٨ - **الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني**، تأليف الحسن بن أحمد الضمدي، تحقيق أ.د. إسماعيل بن محمد البشري، ١٤٢٥هـ.

١٥٩ - **دليل المجلات السعودية المحكمة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ.

١٦٠ - **الرعاية الاجتماعية في المملكة العربية السعودية (النشأة - الواقع)**، د. عبدالله بن ناصر السدحان، ١٤٢٥هـ.

١٦١ - **رحلة استكشافية أثرية إلى الجزيرة العربية**، تأليف أنطونان جوسن - رفائيل سافينياك، ترجمة د. صبا عبدالوهاب الفارس، ١٤٢٥هـ.

١٦٢ - **الملك فهد قائد حركة الإسلام والعروبة في القرن الخامس عشر الهجري**، أحمد بن عبدالغفور عطار، ١٤٢٥هـ.

١٦٣ - **الوثائق العثمانية في الأرشيفات العربية والتركية: بحوث ندوة الأرشيف العثماني المنعقدة في الرياض في المدة من ١٩ - ٢٢ صفر ١٤٢٢هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ.

١٦٤ - **أطباء من أجل المملكة، عمل مستشفيات الإرسالية الأمريكية في المملكة العربية**

السعودية ١٩١٣ - ١٩٥٥م، تأليف د. بول أرميردينغ، ترجمة د. عبدالله بن ناصر السبيعي (سلسلة كتاب الدارة - ٦)، ١٤٢٦هـ.

١٦٥ - **العلاقات بين دول الخليج العربية ودول المغرب العربي - الواقع والمستقبل**، بحوث المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول المنعقد في تونس في المدة من ٢ - ٤ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ/ ٢ - ٤ يونيو ٢٠٠٣م بالتعاون بين دارة الملك عبدالعزيز ومؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ.

١٦٦ - **الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها المذكورة في الأخبار**، تأليف/ أبي الفتح نصر بن عبدالرحمن الأسكندري ت٥٦١هـ، أعده للنشر/ حمد الجاسر، ١٤٢٥هـ.

١٦٧ - **مشروع مسح المصادر التاريخية الوطنية المرحلة الأولى ١٤١٦ - ١٤١٧هـ**، (ط٢)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ.

١٦٨ - **دبلوماسية الصداقة، إيطاليا والمملكة العربية السعودية ١٩٣٢ - ١٩٤٢م**، تأليف ماتّيو بيتسيغالّو، ترجمة محمد عشماوي عثمان، ١٤٢٥هـ.

١٦٩ - **ديوان كوكبة السعودية من شعر زين العابدين الكويتي** (سلسلة مصادر تاريخ الجزيرة العربية المخطوطة - ٦)، تعليق د. يعقوب يوسف الغنيم، ١٤٢٥هـ.

١٧٠ - **في أرض البخور واللبان**، أ.عبدالله بن محمد الشايع، ١٤٢٦هـ.

١٧١ - **الجهود التربوية للجمعيات الخيرية النسائية السعودية**، أ. حصة بنت محمد المنيف، (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٧) ١٤٢٦هـ.

١٧٢ - **الإدارة العثمانية في متصرفية الأحساء (١٢٨٨ - ١٣٣١هـ/ ١٨٧١ - ١٩١٣م)**، د. محمد بن موسى القريني، (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٨)، ١٤٢٦هـ.

١٧٣ - **سياسة الملك عبدالعزيز تجاه فلسطين في حرب١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م**، د. عبداللطيف بن محمد الحميد، (سلسلة كتاب الدارة - ٧)، ١٤٢٦هـ.

١٧٤ - **كسوة الكعبة المشرفة في عهد الملك عبدالعزيز(١٣٤٣ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤ - ١٩٥٣م)**، أ.د. ناصر بن علي الحارثي، ١٤٢٦هـ.

١٧٥ - **معجم التراث (الكتاب الثاني - الخيل والإبل)**، سعد بن عبدالله بن جنيدل، ١٤٢٦هـ.

١٧٦ - **المقامات** (سلسلة مصادر تاريخ الجزيرة العربية المخطوطة - ٥)، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب، دراسة وتحقيق د. عبدالله بن محمد المطوع، ١٤٢٦هـ.

١٧٧ - **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب** (سلسلة مصادر تاريخ الجزيرة العربية

المخطوطة - ٤) تأليف حسن بن جمال بن أحمد الريكي، درسه وحققه وعلق عليه أ.د عبدالله الصالح العثيمين، ١٤٢٦هـ.

١٧٨ - **التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة** (سلسلة مصادر تاريخ الجزيرة العربية المخطوطة- ٧) تأليف جمال الدين محمد بن أحمد المطري، درسه وحققه وعلق عليه أ.د سليمان الرحيلي، ١٤٢٦هـ.

١٧٩ - **السجل العلمي للقاء العلمي لمسؤولي التحرير في المجلات العلمية المحكمة في المملكة العربية السعودية** (١٩/ ٣/ ١٤٢٥هـ الموافق ٨/ ٥/ ٢٠٠٤م)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ.

١٨٠ - **أسماء الأوعية الجلدية من خلال معجم لسان العرب لابن منظور (دراسة دلالية تأصيلية)**، د. محمد بن عبدالرحمن الثنيان، (سلسلة كتاب الدارة - ٨)، ١٤٢٦هـ.

١٨١ - **المختارات من صحيفة أم القرى (١٣٤٣ - ١٣٧٣هـ)**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ.

١٨٢ - **دُومة الجندل منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية - دراسة تاريخية حضارية**، نايف بن علي السنيد الشراري (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٩)، ١٤٢٦هـ.

١٨٣ - **رحلة الحج من صنعاء إلى مكة المكرمة للعلامة إسماعيل جغمان**، تحقيق د. محمد بن عبدالرحمن الثنيان، (سلسلة كتاب الدارة - ٩)، ١٤٢٦هـ.

١٨٤ - **صحيفة أم القرى - نبذة تاريخية موجزة**، أ. محمد بن عبدالرزاق القشعمي، ١٤٢٦هـ.

١٨٥ - **وثائق عصر الملك عبدالعزيز المتعلقة بالأمور الداخلية المحفوظة في دارة الملك عبدالعزيز ١٣١٩ - ١٣٧٣هـ**، د. خولة بنت محمد الشويعر (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٠)، ١٤٢٦هـ.

١٨٦ - **الكشاف التحليلي لصحيفة صوت الحجاز**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ.

١٨٧ - **أعمال الملك عبدالعزيز المعمارية في منطقة مكة المكرمة (١٣٤٣ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤ - ١٩٥٣م)**، أ.د.ناصر بن علي الحارثي، ١٤٢٧هـ.

١٨٨ - LORD OF ARABIA IBN SAUD (ابن سعود سيد الجزيرة العربية)، ARMSTRONG (تأليف أرمسترنج)، ١٤٢٦هـ.

١٨٩ - **إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر(القسم الثاني من الجزء الأول)**، تأليف شعيب بن عبدالحميد الدوسري، تعليق عبدالرحمن بن سليمان الرويشد ومحمد بن عبدالله الحميِّد وفائز بن موسى البدراني الحربي، ١٤٢٧هـ.

١٩٠ - **الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ)**، محمد محمود خلف العناقرة (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢١)، ١٤٢٧هـ.

١٩١ - **التنظيمات الداخلية في مكة المكرمة بعد دخول الملك عبدالعزيز آل سعود (١٣٤٣ - ١٣٥١هـ)**، منى بنت قائد آل ثابتة القحطاني (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٢)، ١٤٢٧هـ.

١٩٢ - **المملكة العربية السعودية وفلسطين، بحوث ودراسات**، بحوث ندوة المملكة العربية السعودية وفلسطين التي نظمتها دارة الملك عبدالعزيز ٢٧ - ٢٩ محرم ١٤٢٢هـ/ ٢١ - ٢٣ إبريل ٢٠٠١م، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٧هـ.

١٩٣ - **النشاط العلمي في مكة والمدينة خلال مواسم الحج في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢هـ/ ٦٦١ - ٧٥٠م)**، د. إبراهيم بن عبدالعزيز الجميح، (سلسلة كتاب الدارة - ١٠)، ١٤٢٧هـ.

١٩٤ - **قراءة في بعض المذكرات والرسائل الشخصية للشيخ المؤرخ والنسابة إبراهيم بن عيسى**، د. أحمد بن عبدالعزيز البسام، ١٤٢٧هـ.

١٩٥ - **التطور التاريخي للأسرة في الحجاز في القرنين الأول والثاني الهجريين**، هدى بنت فهد بن محمد الزويد (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٣)، ١٤٢٧هـ.

١٩٦ - **مملكة كندة في وسط شبه الجزيرة العربية: دراسة تاريخية آثارية**، د. عبدالعزيز بن سعود الغزي، (سلسلة كتاب الدارة - ١١)، ١٤٢٧هـ.

١٩٧ - **النشاط الزراعي في الجزيرة العربية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، د. عبدالله بن محمد السيف، (سلسلة كتاب الدارة - ١٢)، ١٤٢٧هـ.

١٩٨ - **زيارة جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل فيصل آل سعود للولايات المتحدة بدعوة من الرئيس دوايت د. إيزنهاور ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م** (أعادت الدارة طباعته بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م).

١٩٩ - **مجموعة رسوم تذكارية لزيارة صاحب السمو الملكي الأمير سعود آل سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية إلى الظهران خلال شهر يناير ١٩٥٠م** (أعادت الدارة طباعته بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م).

٢٠٠ - **الكعبة المشرفة عمارة وكسوة في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود "دراسة تاريخية حضارية معمارية"**، محمد بن حسين الموجان، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة

العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م).

٢٠١ - **التعليم في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود (١٣٧٣ - ١٣٨٤هـ/ ١٩٥٣ - ١٩٦٤م) دراسة تاريخية وثائقية**، د. حصة بنت جمعان الهلالي الزهراني (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٤)، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م).

٢٠٢ - **مكتبة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود الخاصة**، د. فهد بن عبدالله السماري، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م)، ١٤٢٧هـ.

٢٠٣ - **معجم التراث (الكتاب الثالث - بيت السكن)**، سعد بن عبدالله بن جنيدل، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٠٤ - **منطقة الوشم في عهد الدولة السعودية الأولى**، د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٥)، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٠٥ - **بحوث ندوة أسماء الأماكن الجغرافية في المملكة العربية السعودية: بحوث الندوة التي عقدتها الدارة في المدة من ١٠ - ١١/ ٣/ ١٤٢٤هـ الموافق ١١ - ١٢/ ٥/ ٢٠٠٣م**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٠٦ - **دراسة تحليلية مقارنة لنقوش ثمودية من منطقة «رم» بين ثليثوات وقيعان الصنيع جنوب غرب تيماء**، د. خالد بن محمد أسكوبي (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٦)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٠٧ - **موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك**، د. خالد محمد سالم العمايرة (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٧)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٠٨ - **العلاقات السعودية الأمريكية: نشأتها وتطورها**، د. سميرة أحمد سنبل (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٨)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٠٩ - **عشرة آلاف ميل عبر الجزيرة العربية**، تأليف: أرنست وايز، ترجمة: أ. د عمر بن عبدالله باقبص (سلسلة كتاب الدارة - ١٣)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١٠ - **كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين: دراسة تحليلية نقدية مقارنة**، د. عواطف بنت محمد يوسف نواب (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٩)، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.